الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

١٦

بسم الله الرحمن الرحیم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل

کاتب:

آیت الله ناصرمکارم شیرازی

نشرت فی الطباعة:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب (علیه السلام)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل المجلد ۱۶ ----- ۲۷

اشاره ----- ۲۷

اشاره ----- ۲۸

سوره الزّخرف ----- ۳۴

اشاره ----- ۳۴

محتوی سوره الزّخرف: ----- ۳۴

فضل تلاوه السّوره ----- ۳۵

الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۱ الی ۸] ----- ۳۷

اشاره ----- ۳۷

التّفسیر ----- ۳۷

اشاره ----- ۳۷

ذنوبکم لا تمنع رحمتنا! ----- ۳۷

الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۹ الی ۱۴] ----- ۴۳

اشاره ----- ۴۳

التّفسیر ----- ۴۳

اشاره ----- ۴۳

بعض أدلّه التوحید: ----- ۴۳

ملاحظه ----- ۴۹

اشاره ----- ۴۹

ذکر اللّه عند الانتفاع بالنعم: ----- ۴۹

الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۱۵ الی ۱۹] ----- ۵۲

اشاره ----- ۵۲

التّفسیر ----- ۵۲

اشاره ۵۲
كيف تزعمون أنّ الملائكه بنات اللّه؟ ۵۲
الآيات [سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۲۰ الى ۲۲] ۵۷
اشاره ۵۷
التّفسير ۵۷
اشاره ۵۷
لا دليل لهم سوى تقليد الآباء الجاهلين! ۵۷
الآيات [سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۲۳ الى ۲۵] ۶۱
اشاره ۶۱
التّفسير ۶۱
اشاره ۶۱
عاقبه هؤلاء المقلدين: ۶۱
الآيات [سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۲۶ الى ۳۰] ۶۴
اشاره ۶۴
التّفسير ۶۴
اشاره ۶۴
التوحيد كلمه الأنبياء الخالده: ۶۴
الآيتان [سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۳۱ الى ۳۲] ۶۹
اشاره ۶۹
التّفسير ۶۹
اشاره ۶۹
لم لم ينزل القرآن على أحد الأغنياء؟ ۶۹
سؤالين مهمّين: ۷۱
الآيات [سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۳۳ الى ۳۵] ۷۵
اشاره ۷۵
التّفسير ۷۵

اشاره ----- ۷۵
قصور فخمه سقفها من فضه؟(قیم کاذبه) ----- ۷۵
ملاحظتان ----- ۷۷
اشاره ----- ۷۷
۱-الإسلام یحطم القیم الخاطئه ----- ۷۷
۲-جواب عن سؤال ----- ۷۹
الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۳۶ الی ۴۰] ----- ۸۱
اشاره ----- ۸۱
التّفسیر ----- ۸۱
اشاره ----- ۸۱
أقران الشیاطین! ----- ۸۱
الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۴۱ الی ۴۵] ----- ۸۷
اشاره ----- ۸۷
التّفسیر ----- ۸۷
اشاره ----- ۸۷
استمسک بالذی اوحی إلیک: ----- ۸۷
ملاحظه ----- ۹۲
اشاره ----- ۹۲
من هم قوم النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم؟ ----- ۹۲
الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۴۶ الی ۵۰] ----- ۹۳
اشاره ----- ۹۳
التّفسیر ----- ۹۳
اشاره ----- ۹۳
الفراعنه المغرورون و نقض العهد: ----- ۹۳
الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۵۱ الی ۵۶] ----- ۹۷
اشاره ----- ۹۷

التّفسير ----- ۹۷
الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۵۷ الی ۶۲] ----- ۱۰۴
اشاره ----- ۱۰۴
سبب التّزول ----- ۱۰۴
التّفسير ----- ۱۰۵
اشاره ----- ۱۰۵
أی الالهه فی جهنم؟ ----- ۱۰۵
الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۶۳ الی ۶۵] ----- ۱۱۱
اشاره ----- ۱۱۱
التّفسير ----- ۱۱۱
اشاره ----- ۱۱۱
الذين غالوا فی المسيح: ----- ۱۱۱
الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۶۶ الی ۶۹] ----- ۱۱۵
اشاره ----- ۱۱۵
التّفسير ----- ۱۱۵
الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۷۰ الی ۷۳] ----- ۱۱۹
اشاره ----- ۱۱۹
التّفسير ----- ۱۱۹
اشاره ----- ۱۱۹
سؤال: ----- ۱۲۱
و الجواب: ----- ۱۲۱
الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۷۴ الی ۸۰] ----- ۱۲۴
اشاره ----- ۱۲۴
التّفسير ----- ۱۲۴
اشاره ----- ۱۲۴
نتمنی أن نموت لنستريح من العذاب: ----- ۱۲۴

الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۸۱ الی ۸۵] ----- ۱۲۹
اشاره ----- ۱۲۹
التّفسیر ----- ۱۲۹
ملاحظات ----- ۱۳۳
الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۸۶ الی ۸۹] ----- ۱۳۵
اشاره ----- ۱۳۵
التّفسیر ----- ۱۳۵
اشاره ----- ۱۳۵
من یملک الشفاعه؟ ----- ۱۳۵
سوره الدّخان ----- ۱۴۰
اشاره ----- ۱۴۰
محتوی سوره الدّخان: ----- ۱۴۲
و یمکن تلخیص فصول هذه السوره فی سبعه: ----- ۱۴۲
فضل تلاوه هذه السوره ----- ۱۴۳
الآیات [سوره الدخان (۴۴): الآیات ۱ الی ۸] ----- ۱۴۴
اشاره ----- ۱۴۴
التّفسیر ----- ۱۴۴
اشاره ----- ۱۴۴
نزول القرآن فی اللیله المبارکه: ----- ۱۴۴
نزول القرآن الدفعی و التدریجی: ----- ۱۴۶
ملاحظه ----- ۱۵۲
اشاره ----- ۱۵۲
علاقه القرآن بلیله القدر: ----- ۱۵۲
الآیات [سوره الدخان (۴۴): الآیات ۹ الی ۱۶] ----- ۱۵۴
اشاره ----- ۱۵۴
التّفسیر ----- ۱۵۴

اشاره ----- ۱۵۴
الدّخان القاتل: ----- ۱۵۴
ملاحظه ----- ۱۵۶
اشاره ----- ۱۵۶
ما المراد من الدخان المبین؟ ----- ۱۵۶
الآیات [سوره الدخان (۴۴): الآیات ۱۷ الی ۲۱] ----- ۱۶۰
اشاره ----- ۱۶۰
التّفسیر ----- ۱۶۰
اشاره ----- ۱۶۰
إذا لم تؤمنوا فلا تصدّوا الآخرین عن الإیمان: ----- ۱۶۰
الآیات [سوره الدخان (۴۴): الآیات ۲۲ الی ۲۹] ----- ۱۶۵
اشاره ----- ۱۶۵
التّفسیر ----- ۱۶۵
الآیات [سوره الدخان (۴۴): الآیات ۳۰ الی ۳۳] ----- ۱۷۲
اشاره ----- ۱۷۲
التّفسیر ----- ۱۷۲
اشاره ----- ۱۷۲
بنو إسرائیل فی بوتقه الاختبار: ----- ۱۷۲
الآیات [سوره الدخان (۴۴): الآیات ۳۴ الی ۳۶] ----- ۱۷۶
اشاره ----- ۱۷۶
التّفسیر ----- ۱۷۶
اشاره ----- ۱۷۶
لا شیء بعد الموت! ----- ۱۷۶
ملاحظه ----- ۱۷۸
اشاره ----- ۱۷۸
عقیده المشرکین فی المعاد: ----- ۱۷۸

الآیات [سوره الدخان (۴۴): الآیات ۳۷ الی ۳۹] ----- ۱۸۰
اشاره ----- ۱۸۰
التّفسیر ----- ۱۸۰
اشاره ----- ۱۸۰
قوم تبع: ----- ۱۸۰
بحث ----- ۱۸۳
اشاره ----- ۱۸۳
من هم قوم تبّع؟ ----- ۱۸۳
الآیات [سوره الدخان (۴۴): الآیات ۴۰ الی ۴۲] ----- ۱۸۷
اشاره ----- ۱۸۷
التّفسیر ----- ۱۸۷
اشاره ----- ۱۸۷
یوم الفصل! ----- ۱۸۷
الآیات [سوره الدخان (۴۴): الآیات ۴۳ الی ۵۰] ----- ۱۹۰
اشاره ----- ۱۹۰
التّفسیر ----- ۱۹۰
اشاره ----- ۱۹۰
شجره الزقوم! ----- ۱۹۰
بحث ----- ۱۹۴
اشاره ----- ۱۹۴
العقوبات الجسمیه و الروحیه: ----- ۱۹۴
الآیات [سوره الدخان (۴۴): الآیات ۵۱ الی ۵۷] ----- ۱۹۵
اشاره ----- ۱۹۵
التّفسیر ----- ۱۹۵
اشاره ----- ۱۹۵
المتقون و مختلف نعم الجنّه: ----- ۱۹۵

بحث ----- ۱۹۹
اشاره ----- ۱۹۹
ما هی الموته الأولی؟ ----- ۱۹۹
الآیتان [سوره الدخان (۴۴): الآیات ۵۸ الی ۵۹] ----- ۲۰۲
اشاره ----- ۲۰۲
التّفسیر ----- ۲۰۲
اشاره ----- ۲۰۲
ارتقب فإنهم مرتقبون! ----- ۲۰۲
ملاحظات ----- ۲۰۳
سوره الجاثیه ----- ۲۰۷
اشاره ----- ۲۰۷
محتوی السوره: ----- ۲۰۹
فضل تلاوه السوره: ----- ۲۱۰
الآیات [سوره الجاثیه (۴۵): الآیات ۱ الی ۶] ----- ۲۱۱
اشاره ----- ۲۱۱
التّفسیر ----- ۲۱۱
اشاره ----- ۲۱۱
آیات اللّه فی کلّ مکان: ----- ۲۱۱
الآیات [سوره الجاثیه (۴۵): الآیات ۷ الی ۱۰] ----- ۲۱۹
اشاره ----- ۲۱۹
التّفسیر ----- ۲۱۹
اشاره ----- ۲۱۹
ویل لکلّ أفاک أثیم: ----- ۲۱۹
الآیات [سوره الجاثیه (۴۵): الآیات ۱۱ الی ۱۵] ----- ۲۲۴
اشاره ----- ۲۲۴
التّفسیر ----- ۲۲۴

اشاره ----- ۲۲۴
کل شیء مسخر للإنسان: ----- ۲۲۴
الآیات [سوره الجاثیه (۴۵): الآیات ۱۶ الی ۲۰] ----- ۲۳۱
اشاره ----- ۲۳۱
التّفسیر ----- ۲۳۱
الآیات [سوره الجاثیه (۴۵): الآیات ۲۱ الی ۲۳] ----- ۲۳۸
اشاره ----- ۲۳۸
التّفسیر ----- ۲۳۸
اشاره ----- ۲۳۸
لیسوا سواء محیاهم و مماتهم: ----- ۲۳۸
ملاحظات ----- ۲۴۳
اشاره ----- ۲۴۳
۱-أخطر الأصنام صنم هوی النفس ----- ۲۴۳
الآیتان [سوره الجاثیه (۴۵): الآیات ۲۴ الی ۲۵] ----- ۲۴۸
اشاره ----- ۲۴۸
التّفسیر ----- ۲۴۸
اشاره ----- ۲۴۸
عقائد الدهریین: ----- ۲۴۸
الآیات [سوره الجاثیه (۴۵): الآیات ۲۶ الی ۳۱] ----- ۲۵۳
اشاره ----- ۲۵۳
التّفسیر ----- ۲۵۴
اشاره ----- ۲۵۴
الکلّ جاث فی محکمه العدل الإلهی: ----- ۲۵۴
الآیات [سوره الجاثیه (۴۵): الآیات ۳۲ الی ۳۷] ----- ۲۶۱
اشاره ----- ۲۶۱
التّفسیر ----- ۲۶۲

اشاره ----- ۲۶۲
يوم تبدو السيئات: ----- ۲۶۲
سوره الأحقاف ----- ۲۶۶
اشاره ----- ۲۶۶
محتوى السوره: ----- ۲۶۸
فضل هذه السوره: ----- ۲۶۹
الآيات [سوره الأحقاف (۴۶): الآيات ۱ الى ۳] ----- ۲۷۰
اشاره ----- ۲۷۰
التّفسير ----- ۲۷۰
اشاره ----- ۲۷۰
خلق هذا العالم على أساس الحق: ----- ۲۷۰
الآيات [سوره الأحقاف (۴۶): الآيات ۴ الى ۶] ----- ۲۷۳
اشاره ----- ۲۷۳
التّفسير ----- ۲۷۳
اشاره ----- ۲۷۳
أضل الناس: ----- ۲۷۳
الآيات [سوره الأحقاف (۴۶): الآيات ۷ الى ۱۰] ----- ۲۷۸
اشاره ----- ۲۷۸
التّفسير ----- ۲۷۸
اشاره ----- ۲۷۸
لم أكن أوّل نبيّ!! ----- ۲۷۸
الآيات [سوره الأحقاف (۴۶): الآيات ۱۱ الى ۱۴] ----- ۲۸۵
اشاره ----- ۲۸۵
سبب النّزول ----- ۲۸۵
التّفسير ----- ۲۸۷
اشاره ----- ۲۸۷

شرط الإنتصار الإيمان و الاستقامه: ---------- ۲۸۷
الآیات [سوره الأحقاف (۴۶): الآیات ۱۵ الی ۱۶] ---------- ۲۹۲
اشاره ---------- ۲۹۲
التّفسیر ---------- ۲۹۲
اشاره ---------- ۲۹۲
أیّها الإنسان أحسن إلی والدیک: ---------- ۲۹۲
ملاحظات ---------- ۲۹۹
الآیات [سوره الأحقاف (۴۶): الآیات ۱۷ الی ۱۹] ---------- ۳۰۲
اشاره ---------- ۳۰۲
التّفسیر ---------- ۳۰۲
اشاره ---------- ۳۰۲
مضیّعو حقوق الوالدین: ---------- ۳۰۲
ملاحظه کیف حرّفت هذه الآیه من قبل بنی أمیه؟ ---------- ۳۰۵
الآیه [سوره الأحقاف (۴۶): آیه ۲۰] ---------- ۳۰۷
اشاره ---------- ۳۰۷
التّفسیر ---------- ۳۰۷
اشاره ---------- ۳۰۷
الزهد و الادخار للآخره: ---------- ۳۰۷
بحوث ---------- ۳۰۸
الآیات [سوره الأحقاف (۴۶): الآیات ۲۱ الی ۲۵] ---------- ۳۱۲
اشاره ---------- ۳۱۲
التّفسیر ---------- ۳۱۲
اشاره ---------- ۳۱۲
قوم عاد و الریح المدمره: ---------- ۳۱۲
الآیات [سوره الأحقاف (۴۶): الآیات ۲۶ الی ۲۸] ---------- ۳۱۹
اشاره ---------- ۳۱۹

التّفسير ----- ۳۱۹
اشاره ----- ۳۱۹
لستم بأقوى من قوم عاد أبدا: ----- ۳۱۹
الآيات [سوره الأحقاف (۴۶): الآيات ۲۹ الى ۳۲] ----- ۳۲۳
اشاره ----- ۳۲۳
سبب النّزول ----- ۳۲۳
التّفسير ----- ۳۲۵
اشاره ----- ۳۲۵
إيمان طائفه من الجن: ----- ۳۲۵
بحثان ----- ۳۲۸
اشاره ----- ۳۲۸
۱-الإعلام المؤثر ----- ۳۲۸
۲-أفضل دليل على عظمه القرآن محتواه ----- ۳۲۹
الآيات [سوره الأحقاف (۴۶): الآيات ۳۳ الى ۳۵] ----- ۳۳۱
اشاره ----- ۳۳۱
التّفسير ----- ۳۳۱
اشاره ----- ۳۳۱
فاصبر كما صبر أولوا العزم: ----- ۳۳۱
من هم أولو العزم من الرسل؟ ----- ۳۳۳
ملاحظه كان نبيّ الإسلام مثال الصبر و الاستقامه: ----- ۳۳۷
سوره محمّد ----- ۳۴۱
اشاره ----- ۳۴۱
محتوى السوره: ----- ۳۴۳
فضل تلاوه السوره: ----- ۳۴۴
الآيات [سوره محمد (۴۷): الآيات ۱ الى ۳] ----- ۳۴۶
اشاره ----- ۳۴۶

التّفسير ----- ۳۴۶
اشاره ----- ۳۴۶
المؤمنون أنصار الحق،و الكافرون أنصار الباطل: ----- ۳۴۶
الآيات [سوره محمد (۴۷): الآيات ۴ الى ۶] ----- ۳۵۱
اشاره ----- ۳۵۱
التّفسير ----- ۳۵۱
اشاره ----- ۳۵۱
يجب الحزم فى ساحه الحرب: ----- ۳۵۱
بحوث ----- ۳۵۷
اشاره ----- ۳۵۷
۱-مقام الشهداء السامى ----- ۳۵۷
۲-أهداف القتال فى الإسلام ----- ۳۶۰
۳-أحكام أسرى الحرب ----- ۳۶۲
۴-الرق فى الإسلام ----- ۳۶۳
اشاره ----- ۳۶۳
الجواب: ----- ۳۶۴
۳-مصير الرقيق المؤلم فى الماضى ----- ۳۶۶
۴-خطه الإسلام لتحرير العبيد ----- ۳۶۶
اشاره ----- ۳۶۶
الماده الأولى:غلق مصادر الرق ----- ۳۶۷
الماده الثانيه:فتح نافذه الحريه ----- ۳۶۸
الماده الثالثه:إحياء شخصيه الرقيق ----- ۳۷۰
الماده الرابعه:المعامله الإنسانيه مع العبيد ----- ۳۷۱
الماده الخامسه:أقبح الأعمال بيع الإنسان ----- ۳۷۲
الآيات [سوره محمد (۴۷): الآيات ۷ الى ۱۱] ----- ۳۷۴
اشاره ----- ۳۷۴

التّفسير ----- ۳۷۴
الآيات [سوره محمد (۴۷): الآيات ۱۲ الی ۱۴] ----- ۳۸۰
اشاره ----- ۳۸۰
التّفسير ----- ۳۸۰
اشاره ----- ۳۸۰
عاقبه المؤمنين و الكافرين: ----- ۳۸۰
الآيه [سوره محمد (۴۷): آيه ۱۵] ----- ۳۸۶
اشاره ----- ۳۸۶
التّفسير ----- ۳۸۶
اشاره ----- ۳۸۶
وصف آخر للجنّه: ----- ۳۸۶
ملاحظات ----- ۳۸۸
اشاره ----- ۳۸۸
۱-أنهار الجنّه الأربعه ----- ۳۸۸
۲-الشراب الطهور ----- ۳۸۹
۳-أشربه لا يعتريها الفساد ----- ۳۸۹
۴-لماذا الفواكه؟ ----- ۳۹۰
الآيات [سوره محمد (۴۷): الآيات ۱۶ الی ۱۹] ----- ۳۹۱
اشاره ----- ۳۹۱
التّفسير ----- ۳۹۱
اشاره ----- ۳۹۱
ظهرت علامات القيامه! ----- ۳۹۱
بحث ----- ۳۹۷
اشاره ----- ۳۹۷
ما هی أشراط الساعه؟ ----- ۳۹۷
الآيات [سوره محمد (۴۷): الآيات ۲۰ الی ۲۴] ----- ۴۰۲

اشاره ---------- ۴۰۲
التّفسير ---------- ۴۰۲
اشاره ---------- ۴۰۲
يخافون حتى من اسم الجهاد! ---------- ۴۰۲
بحث ---------- ۴۰۷
اشاره ---------- ۴۰۷
القرآن كتاب فكر و عمل: ---------- ۴۰۷
حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: ---------- ۴۰۹
الآيات [سوره محمد (۴۷): الآيات ۲۵ الى ۲۸] ---------- ۴۱۰
اشاره ---------- ۴۱۰
التّفسير ---------- ۴۱۰
اشاره ---------- ۴۱۰
أ فلا يتدبّرون القرآن: ---------- ۴۱۰
الآيات [سوره محمد (۴۷): الآيات ۲۹ الى ۳۱] ---------- ۴۱۵
اشاره ---------- ۴۱۵
التّفسير ---------- ۴۱۵
اشاره ---------- ۴۱۵
يعرف المنافقون من لحن قولهم: ---------- ۴۱۵
الآيات [سوره محمد (۴۷): الآيات ۳۲ الى ۳۴] ---------- ۴۲۰
اشاره ---------- ۴۲۰
التّفسير ---------- ۴۲۰
اشاره ---------- ۴۲۰
الذين يموتون على الكفر لن يغفر اللّه لهم: ---------- ۴۲۰
بحث ---------- ۴۲۲
اشاره ---------- ۴۲۲
عوامل إحباط ثواب العمل: ---------- ۴۲۲

الآيه [سوره محمد (۴۷): آيه ۳۵] ----- ۴۲۵
اشاره ----- ۴۲۵
التّفسير ----- ۴۲۵
اشاره ----- ۴۲۵
الصلح المذل!! ----- ۴۲۵
الآيات [سوره محمد (۴۷): الآيات ۳۶ الى ۳۸] ----- ۴۲۸
اشاره ----- ۴۲۸
التّفسير ----- ۴۲۸
اشاره ----- ۴۲۸
إن تتولّوا سيمنح اللّه الرساله قوما آخرين: ----- ۴۲۸
سوره الفتح ----- ۴۳۵
اشاره ----- ۴۳۵
محتوى السوره ----- ۴۳۷
فضيله تلاوه سوره الفتح: ----- ۴۳۹
الآيه [سوره الفتح (۴۸): آيه ۱] ----- ۴۴۱
اشاره ----- ۴۴۱
التّفسير ----- ۴۴۱
اشاره ----- ۴۴۱
الفتح المبين: ----- ۴۴۱
قصّه «صلح الحديبيه»: ----- ۴۴۲
الآيتان [سوره الفتح (۴۸): الآيات ۲ الى ۳] ----- ۴۵۰
اشاره ----- ۴۵۰
التّفسير ----- ۴۵۰
اشاره ----- ۴۵۰
نتائج الفتح المبين الكبرى: ----- ۴۵۰
بحثان ----- ۴۵۱

اشاره ----- ۴۵۱
۱-الإجابه علی بعض الأسئله المهمه: ----- ۴۵۱
۲-المراد من«ما تقدّم»و«ما تأخّر».. ----- ۴۵۴
الآیه [سوره الفتح (۴۸): آیه ۴] ----- ۴۵۶
اشاره ----- ۴۵۶
التّفسیر ----- ۴۵۶
اشاره ----- ۴۵۶
نزول السکینه علی قلوب المؤمنین: ----- ۴۵۶
ماذا کانت هذه السکینه؟! ----- ۴۵۶
ملاحظات ----- ۴۵۹
اشاره ----- ۴۵۹
۱-السکینه التی لا نظیر لها! ----- ۴۵۹
۲-سلسله مراتب الإیمان: ----- ۴۶۰
۳-رکنی السکینه: ----- ۴۶۱
الآیات [سوره الفتح (۴۸): الآیات ۵ الی ۷] ----- ۴۶۲
اشاره ----- ۴۶۲
التّفسیر ----- ۴۶۲
اشاره ----- ۴۶۲
نتیجه أخری من الفتح المبین: ----- ۴۶۲
ما المراد من«جنود السماوات و الأرض»؟! ----- ۴۶۵
من هم الظانّون باللّه ظنّ السوء؟! ----- ۴۶۶
الآیات [سوره الفتح (۴۸): الآیات ۸ الی ۱۰] ----- ۴۶۸
اشاره ----- ۴۶۸
التّفسیر ----- ۴۶۸
اشاره ----- ۴۶۸
مکانه النّبی و واجب الناس تجاهه! ----- ۴۶۸

الآيات [سوره الفتح (۴۸): الآيات ۱۱ الی ۱۴] ----- ۴۷۴
اشاره ----- ۴۷۴
التّفسیر ----- ۴۷۴
اشاره ----- ۴۷۴
اعتذار المخلفین: ----- ۴۷۴
ملاحظه ----- ۴۷۸
اشاره ----- ۴۷۸
تعلیل الذنب و توجیهه مرض عام: ----- ۴۷۸
الآيات [سوره الفتح (۴۸): الآيات ۱۵ الی ۱۷] ----- ۴۸۱
اشاره ----- ۴۸۱
التّفسیر ----- ۴۸۱
اشاره ----- ۴۸۱
المخلّفون الانتهازيّون: ----- ۴۸۱
الآيتان [سوره الفتح (۴۸): الآيات ۱۸ الی ۱۹] ----- ۴۸۷
اشاره ----- ۴۸۷
التّفسیر ----- ۴۸۷
اشاره ----- ۴۸۷
رضی اللّه عن المشترکین فی بیعه الرضوان: ----- ۴۸۷
بحث ----- ۴۹۰
اشاره ----- ۴۹۰
البیعه و خصوصيّاتها! ----- ۴۹۰
الآيتان [سوره الفتح (۴۸): الآيات ۲۰ الی ۲۱] ----- ۴۹۸
اشاره ----- ۴۹۸
التّفسیر ----- ۴۹۸
اشاره ----- ۴۹۸
من برکات صلح الحدیبیّه مرّه أخری! ----- ۴۹۸

ملاحظه ----- ۵۰۱
اشاره ----- ۵۰۱
قصه غزوه خیبر: ----- ۵۰۱
الآیات [سوره الفتح (۴۸): الآیات ۲۲ الی ۲۵] ----- ۵۰۴
اشاره ----- ۵۰۴
التّفسیر ----- ۵۰۴
اشاره ----- ۵۰۴
لو حدثت الحرب فی الحدیبیّه!؟ ----- ۵۰۴
الآیه [سوره الفتح (۴۸): آیه ۲۶] ----- ۵۱۰
اشاره ----- ۵۱۰
التّفسیر ----- ۵۱۰
اشاره ----- ۵۱۰
التعصّب«و حمیه الجاهلیه»أکبر سدّ فی طریق الکفّار: ----- ۵۱۰
ملاحظه ----- ۵۱۴
اشاره ----- ۵۱۴
ما هی حمیّه الجاهلیه؟! ----- ۵۱۴
الآیه [سوره الفتح (۴۸): آیه ۲۷] ----- ۵۱۶
اشاره ----- ۵۱۶
التّفسیر ----- ۵۱۶
اشاره ----- ۵۱۶
رؤیا النّبی الصادقه: ----- ۵۱۶
ملاحظات ----- ۵۱۷
اشاره ----- ۵۱۷
عمره القضاء: ----- ۵۱۹
الآیتان [سوره الفتح (۴۸): الآیات ۲۸ الی ۲۹] ----- ۵۲۲
اشاره ----- ۵۲۲

التّفسير ----- ۵۲۲
بحثان ----- ۵۳۰
اشاره ----- ۵۳۰
۱-قصه تنزيه الصحابه! ----- ۵۳۰
۲-المحبّه الإسلاميه المتبادله ----- ۵۳۳
سوره الحجرات ----- ۵۳۵
اشاره ----- ۵۳۵
محتوى السوره: ----- ۵۳۷
فضيله تلاوه هذه السوره! ----- ۵۳۸
الآيات [سوره الحجرات (۴۹): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۵۳۹
اشاره ----- ۵۳۹
سبب النّزول ----- ۵۳۹
التّفسير ----- ۵۴۱
اشاره ----- ۵۴۱
آداب الحضور عند النبى: ----- ۵۴۱
بحوث ----- ۵۴۶
اشاره ----- ۵۴۶
۱-الأدب أغلى القيم ----- ۵۴۶
۲-رفع الصوت عند قبر الرسول ----- ۵۵۰
۳-الانضباط الإسلامى فى كلّ شىء و فى كلّ مكان! ----- ۵۵۱
الآيات [سوره الحجرات (۴۹): الآيات ۶ الى ۸] ----- ۵۵۵
اشاره ----- ۵۵۵
سبب النّزول ----- ۵۵۵
التّفسير ----- ۵۵۷
اشاره ----- ۵۵۷
لا تكترث بأخبار الفاسقين: ----- ۵۵۷

ملاحظات ----- ۵۶۳
اشاره ----- ۵۶۳
۱-هدایه اللّه و حرّیه الإراده ----- ۵۶۳
۲-القیاده و الطاعه ----- ۵۶۴
۳-الإیمان نوع من العشق لا إدراک العقل فحسب... ----- ۵۶۴
الآیتان [سوره الحجرات (۴۹): الآیات ۹ الی ۱۰] ----- ۵۶۶
اشاره ----- ۵۶۶
سبب النّزول ----- ۵۶۶
التّفسیر ----- ۵۶۷
اشاره ----- ۵۶۷
المؤمنون أخوه: ----- ۵۶۷
بحثان ----- ۵۶۹
اشاره ----- ۵۶۹
الأوّل:شروط قتال أهل البغی«البغاه» ----- ۵۶۹
الثّانی:أهمّیه الأخوه الإسلامیه ----- ۵۷۱
الآیتان [سوره الحجرات (۴۹): الآیات ۱۱ الی ۱۲] ----- ۵۷۵
اشاره ----- ۵۷۵
سبب النّزول ----- ۵۷۵
التّفسیر ----- ۵۷۶
اشاره ----- ۵۷۶
الاستهزاء و سوء الظنّ و الغیبه و التجسّس و الألقاب السیئه حرام! ----- ۵۷۶
بحوث ----- ۵۸۲
اشاره ----- ۵۸۲
۱-الأمن الاجتماعی الکامل ----- ۵۸۲
۲-لا تجسّسوا! ----- ۵۸۴
۳-الغیبه من أعظم الذنوب و أکبرها! ----- ۵۸۵

۴-مفهوم الاغتیاب؟ ۵۸۸
۵-علاج الغیبه و التوبه منها! ۵۸۹
الآیه [سوره الحجرات (۴۹): آیه ۱۳] ۵۹۱
اشاره ۵۹۱
التّفسیر ۵۹۱
بحثان ۵۹۳
اشاره ۵۹۳
۱-القیم الحقّه و القیم الباطله ۵۹۳
۲-حقیقه التقوی ۵۹۷
الآیتان [سوره الحجرات (۴۹): الآیات ۱۴ الی ۱۵] ۶۰۱
اشاره ۶۰۱
سبب النّزول ۶۰۱
التّفسیر ۶۰۲
اشاره ۶۰۲
الفرق بین الإسلام و الإیمان: ۶۰۲
الآیات [سوره الحجرات (۴۹): الآیات ۱۶ الی ۱۸] ۶۰۵
اشاره ۶۰۵
سبب النزول ۶۰۵
اشاره ۶۰۵
التّفسیر ۶۰۶
تعریف مرکز ۶۲۴

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل المجلد ۱۶

اشاره

سرشناسه : مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور : الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل/ تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست : [ویرایش]۲

مشخصات نشر : قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری : ج ۲۰

شابک : ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۰(ج.۱۰) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱(ج.۱۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۲(ج.۱۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۳(ج.۱۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

یادداشت : کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت : کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت : کتابنامه

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره : BP۹۸/م۷ ت۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی : م ۷۹-۱۰۳۹۱

اشاره

سوره الزّخرف

اشاره

محتوی سوره الزّخرف:

سوره الزخرف من السوره المکیّه،إلاّ الآیه(۴۵)منها،فإنّ جمعا من المفسّرین اعتبرها مدنیّه،و ربّما کان السبب هو أنّ ما تبحثه الآیه یتعلق علی الأغلب بأهل الکتاب،أو بقصّه المعراج،و کلا البحثین یتناسب مع المدینه أکثر.و سنوضّح المطلب فی تفسیر هذه الآیه إن شاء اللّه تعالی.

و علی أیّه حال،فإنّ طبیعه السور المکّیه-و التی تدور غالبا حول محور العقائد الإسلامیّه من المبدأ و المعاد و النبوّه و القرآن و الإنذار و التبشیر-منعکسه و متجلّیه فیها.

و یمکن تلخیص مباحث هذه السوره بصوره موجزه،فی سبعه فصول:

الفصل الأوّل:و هو بدایه السوره،و یتحدّث عن أهمّیه القرآن المجید،و نبوّه نبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم،و مواجهه المشرکین لهذا الکتاب السماوی.

الفصل الثّانی:یذکر قسما من أدلّه التوحید فی الآفاق،و نعم اللّه المختلفه علی البشر.

الفصل الثّالث:و یکمّل هذه الحقیقه عن طریق محاربه الشرک،و نفی ما ینسب إلی اللّه عزّ و جلّ من الأقاویل الباطله،و محاربه التقالید العمیاء،و الخرافات و الأساطیر،کالتشاؤم من البنات،أو الإعتقاد بأنّ الملائکه بنات اللّه عزّ و جلّ.

الفصل الرّابع:ینقل جانبا من قصص الأنبیاء الماضین و أممهم،و تاریخهم لتجسید هذه الحقائق.و یؤکّد علی حیاه إبراهیم و موسی و عیسی علیهم السّلام بصوره

خاصّه.

الفصل الخامس:يتعرض إلى مسأله المعاد،و جزاء المؤمنين،و مصير الكفّار المشؤوم،و يحذّر المجرمين و يهدّدهم بتهديدات و تحذيرات و إنذارات قويّه.

الفصل السّادس:و هو من أهمّ فصول هذه السوره،و يتناول القيم الباطله التى كانت و لا تزال حاكمه على أفكار الأشخاص المادّيين،و وقوعهم فى مختلف الاشتباهات حينما يقيّمون مسائل الحياه و يزنونها بالميزان الدنيوىّ حتّى أنّهم كانوا يتوقّعون أن ينزل القرآن الكريم على رجل غنى عظيم الثراء،لأنّهم كانوا يعتبرون قيمه الإنسان فى ثرائه!لهذا نرى القرآن فى آيات عديده من هذه السوره يهاجم هذا النمط من التفكير الساذج و الجاهل و يحاربه،و يوضح المثل الإسلاميّه و الإنسانيّه الساميه.

الفصل السّابع:و هو فصل المواعظ و النصائح العميقه المؤثّره حيث يكمل الفصول الأخرى،ليجعل من مجموع آيات السوره دواء شافيا تماما يترك أقوى الأثر فى نفس السامع.

و قد أخذ اسم هذه السوره(الزخرف)من الآيه(۳۵)منها،و التى تتحدث فى القيم المادّيه.

فضل تلاوه السّوره

لقد ذكر فضل عظيم لتلاوه هذه السوره فى الرّوايات الإسلاميّه فى مختلف كتب التّفسير و الحديث،و من جملتها ما

ورد فى حديث عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم:

«من قرأ سوره الزخرف،كان ممن يقال له يوم القيامه:يا عباد لا خوف عليكم اليوم و لا أنتم تحزنون،ادخلوا الجنّه» (۱) .

لا شكّ أنّ الخطاب ب يٰا عِبٰادِ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لاٰ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ هو عين

ص: ۸

۱- ۱) مجمع البيان،بدايه،سوره الخزوف.

ما ورد فی الآیه(۶۸)،و جمله اُدْخُلُوا الْجَنَّهَ أخـذت من الآیه(۷۰)،و جمله بِغَیْرِ حِسٰابٍ من لوازم الکلام،و قـد وردت فی عـدّه من آیات القرآن الأخری.

و علی أیّه حـال،فإنّ هـذه البشاره العظمی،و الفضـیله التی لا تقـدّر،لا تحصل بمجرّد التلاوه الخالیه من التـدبر و الإیمان و العمل الصالح،لأنّ التلاوه مقدّمه للفکر،و الإیمان و العمل الصالح ثمره له.

***

ص :۹

الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۱ الی ۸]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ حم (۱) وَ اَلْکِتٰابِ اَلْمُبِینِ (۲) إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِیًّا لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ (۳) وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ اَلْکِتٰابِ لَدَیْنٰا لَعَلِیٌّ حَکِیمٌ (۴) أَ فَنَضْرِبُ عَنْکُمُ اَلذِّکْرَ صَفْحاً أَنْ کُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِینَ (۵) وَ کَمْ أَرْسَلْنٰا مِنْ نَبِیٍّ فِی اَلْأَوَّلِینَ (۶) وَ مٰا یَأْتِیهِمْ مِنْ نَبِیٍّ إِلاّٰ کٰانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۷) فَأَهْلَکْنٰا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَ مَضیٰ مَثَلُ اَلْأَوَّلِینَ (۸)

التّفسیر

اشاره

ذنوبکم لا تمنع رحمتنا!

مرّه أخری نواجه الحروف المقطّعه فی بدایه هذه السوره،و هی حروف(حم)، و هذه رابع سوره تبدأ ب حم و تتلوها ثلاث سور أخری أیضا،فتشکّل هذه السور السبعه بمجموعها(أسره حم)و هی بالترتیب:المؤمن،فصلت،الشوری، الزخرف،الدخان،الجاثیه،و الأحقاف.

و قد بحثنا الحروف المقطّعه بصوره مفصّله فیما سبق(راجع بدایه سوره البقره،

ص :۱۰

بدايه آل عمران،أوّل الأعراف،بدايه سوره«فصلت»فى خصوص حم).

و يقسم تعالى بالقرآن الكريم فى الآيه الثّانيه،فيقول: وَ الْكِتٰابِ الْمُبِينِ .قسما بهذا الكتاب الواضحه حقائقه،و البيّنه معانيه و مفاهيمه، و الظاهره دلائل صدقه، و المبيّنه طرق هدايته و رشاده.

ثمّ يضيف: إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١) .

إنّ كون القرآن عربيّا،إمّا بمعنى أنّه«نزل بلغه العرب التى هى أوسع لغات العالم فى بيان الحقائق،و قادره على تبيان دقائق المطالب بكل جمال و دقّه فى التعبير.

أو بمعنى فصاحته-لأنّ أحد معانى كلمه(عربى)هو«الفصيح»و هى إشاره إلى أنا قد جعلناه فى منتهى الفصاحه و غايتها،لتظهر الحقائق جيّدا من خلال كلماته و جمله،و يدركها الجميع جيدا.

و الطّريف أنّ القسم و جوابه-هنا-شىء واحد،فهو تعالى يقسم بالقرآن أنّه جعل القرآن عربيّا ليستفيد الجميع منه و يعقلوا آياته،و ربّما كان هذا إشاره إلى أنّه لم يكن هناك شىء أجلّ من القرآن ليقسم به،فإنّ ما هو أسمى من القرآن نفس القرآن،لأنّ كلام اللّه سبحانه،و كلام اللّه مبيّن لذاته المقدّسه.

و لا يدلّ التعبير ب(لعل)على أنّ اللّه سبحانه يشكّ فى تأثير القرآن،أو أنّ الكلام هنا عن الرجاء و الأمل الذى يصعب الوصول إليه و تحقّقه،بل إنّه يشير إلى تفاوت الأرضيّات الفكريه و الأخلاقيّه لسامعى آيات القرآن الكريم،و يشير أيضا إلى أنّ تأثير القرآن يستلزم توفر شروطا معيّنه أشير إليها إجمالا بكلمه(لعل).و قد أوردنا تفصيلا أكثر لهذا المعنى فى ذيل الآيه(٢٠٠)من آل عمران.

ثمّ يتطرق القرآن إلى بيان ثلاث صفات أخرى لهذا الكتاب السماوى،فيقول:

وَ إِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتٰابِ لَدَيْنٰا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ

و يشير فى الصفه الأولى إلى أنّ القرآن الكريم قد حفظ و أثبت فى أمّ الكتاب لدى اللّه سبحانه،كما نقرأ ذلك أيضا فى

١- ١) -الواو فى(و الكتاب المبين)للقسم،و جواب هذا القسم جمله (إِنّٰا جَعَلْنٰاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا) .

الآیه(۲۲)من سوره البروج: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِی لَوْحٍ مَحْفُوظٍ .

و الآن،لنر ما هو المراد من«أم الكتاب»،أو«اللوح المحفوظ»؟ «الأم»فی اللغه تعنی أصل كل شیء و أساسه،و إنّما یقول العرب للأم أمّا لأنّها أساس العائله و مأوی الأولاد،و علی هذا فإنّ(أم الكتاب)یعنی الكتاب الذی یكون أساسا لكل الكتب السماویّه،و هو ذلك اللوح المحفوظ لدی اللّه سبحانه، و المصون من كل تغییر و تبدیل و تحریف..إنّه كتاب علم اللّه المحفوظ لدیه، و الذی أدرجت فیه كل حقائق العالم،و كل حوادث الماضی و المستقبل،و كل الكتب السماویّه،و لا یستطیع أی أحد أن یصل إلیه و یعلم ما فیه،إلاّ إذا أراد اللّه سبحانه أن یعلم أحدا بالمقدار الذی یریده عزّ و جلّ.

و هذا وصف عظیم للقرآن الذی ینبع من علم اللّه اللامتناهی،و أصله و أساسه لدیه سبحانه،و لهذا یقول فی الصفه الثّانیه:(لعلیّ)و فی الثالثه(حكیم).

إنّ الشیء الذی ینبعث من علم اللّه اللامتناهی یجب أن یكون بهذه الصفات.

و اعتقد البعض أنّ سموّ القرآن و علوّ مقامه نابع من أنّه فاق كلّ الكتب السماویّه،و نسخها جمیعا،و هو فی أرفع مراتب الإعجاز.

و اعتبر البعض الآخر علوّ القرآن لاحتوائه علی حقائق لا تدركها أفكار البشر، و هی بعیده عن مدی ما تستوعبه عقولهم-إضافه إلی الحقائق التی یفهمها الجمیع من ظاهر القرآن.

و لا تتضارب هذه المعانی فیما بینها حیث تجتمع كلّها فی مفهوم(علیّ).

و هنا مسأله تستحق الانتباه،و هی أنّ(الحكیم)صفه للشخص عاده،لا الكتاب،لكن لمّا كان هذا الكتاب السماوی بنفسه معلما عظیما و ناطقا بالحكمه ناشرا لها،فإنّ هذا التعبیر فی محله تماما.

و قد وردت كلمه«الحكیم»بمعنی المستحكم الحصین أیضا،و كلّ هذه المعانی جمعت فی اللفظه المذكوره،و هی صادقه فی شأن القرآن الكریم،لأنّه حكیم بكل

هذه المعانی.

و فی الآیه التّالیه یخاطب المنکرین للقرآن و المعرضین عنه،فیقول:

أَ فَنَضْرِبُ عَنْکُمُ الذِّکْرَ صَفْحاً أَنْ کُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِینَ

؟ صحیح أنّکم لم تألوا جهدا فی مخالفتکم للحق و عدائه،و وصلتم فی المخالفه إلی حدّ الإفراط و الإسراف،إلاّ أنّ رحمه اللّه سبحانه واسعه بحدّ لا تشکل هذه الأعمال المناوئه حاجزا فی طریقها،و نظر ننزل باستمرار هذا الکتاب السماوی الذی یوقظکم،و آیاته التی تبعث الحیاه فیکم،حتّی تهتزّ القلوب التی لها أدنی حظ من الاستعداد و تثوب إلی طریق الحقّ،و هذا هو مقام رحمه اللّه العامّه،أی:

رحمانیته التی تشمل العدوّ،و الصدیق،و المؤمن و الکافر.

جمله أَ فَنَضْرِبُ عَنْکُمُ جاءت هنا بمعنی:أ فنصرب عنکم،لأنّ الراکب إذا أراد أن یحوّل دابّته إلی طریق آخر،فإنّه یحوّله بضربه بالسوط أو بشیء آخر، و لذلک فإنّ کلمه الضرب تستعمل فی مثل هذه الموارد بدلا من الصرف (۱) .

«الصفح»فی الأصل بمعنی جانب الشیء و طرفه،و یأتی أیضا بمعنی العرض و السعه،و هو فی الآیه بالمعنی الأوّل،أی:أ نحول عنکم هذا القرآن الذی هو أساس التذکره إلی جانب و طرف آخر؟ «المسرف»من الإسراف،و هو تجاوز الحدّ،إشاره إلی أنّ المشرکین و أعداء النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لم یقفوا عند حدّ فی خلافهم و عدائهم مطلقا.

ثمّ یقول فی عباره قصیره کشاهد علی ما قیل،و تسلیه لخاطر النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و تهدیدا للمنکرین المعاندین: وَ کَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِیٍّ فِی الْأَوَّلِینَ* وَ ما یَأْتِیهِمْ مِنْ نَبِیٍّ إِلاّ کانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ .

إنّ هذه المخالفات و أنواع السخریه لم تکن لتمنع لطف اللّه و رحمته أبدا،فإنّها فیض متواصل من الأزل إلی الأبد،و وجود یعمّ عطاؤه کلّ العباد،بل إنّه سبحانه قد

۱- ۱) -مجمع البیان،ذیل الآیه مورد البحث.

خلقهم للرحمه وَ لِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ (۱) ،و لهـذا فإنّ إعراضـكم و عنادكم سوف لا يمنع لطفه مطلقا،و ينبغى أن لا يفتر النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنون الحقيقيّون،فإنّ لهذا الإعراض عن الحق و اتباع الشهوات و الهوى و الميول تاريخا طويلا.

لكن،و من أجـل أن لاـ يتصور هؤلاـء بـأنّ لطف اللّه اللامتنـاهى سـيحول دون عقـابهم فى النهايه،لأنّ العقاب بنفسه من مقتضـى حكمته،و لذلك يضيف فى الآيه التاليه: فَأَهْلَكْنٰا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَ مَضىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ .

فالآيه تخاطب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم،بأنّنا سبق و أن ذكرنا لك نماذج كثيره من هذه الأقوام العاصيه الطاغيه،و أوحينا إليـك تفصـيل حـالهم بـدون زيـاده أو نقصـان،و كان من بينهم أقوام أقوى و أشـدّ من مشـركى العرب كثيرا،و لهم إمكانيّات و ثروات و أفراد و جيوش و إمكانات واسعه...كفرعون و آل فرعون،و التاريخ،و أوضح من ذلك أن تتدبّروا ما نزل فى القرآن فى شأنهم لتعلموا أيّها الطغاه المعاندون أنّكم لستم فى مأمن من عذاب اللّه الأليم أبدا.

«البطش»-كما يقول الراغب فى المفردات-بمعنى أخـذ الشـىء بالقوّه،و هنا اقترن بكلمه«أشدّ»و تعطى مفهوم شدّه القوّه و القدره أكثر.

و الضـمير فى مِنْهُمْ يعود على مشـركى العرب الـذين خوطبوا فى الآيـات السـابقه، إلاّ أنّهم ذكروا هنا بصـيغه الغائب،لأنّهم ليسوا أهلا للاستمرار فى مخاطبتهم من قبل اللّه تعالى.

و اعتبر بعض كبار المفسّـرين جمله وَ مَضىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ إشاره إلى المطالب التى جاءت فى السوره السابقه-سوره الشورى-حول جماعه من هؤلاء.إلاّ أنّه لا دليل لدينا على هذا التحديد،خاصّه و أنّه قلّما أشـير إلى حوادث الأمم الماضـيه فى سوره الشورى،فى حين وردت بحوث مفصّله حولهم فى سور أخرى من القرآن.

۱- ۱) -هود،الآيه ۱۱۹.

و على أيّه حال،فإنّ هذه الآيه تشبه ما مرّ فی الآيه(۷۸)من سوره القصص، حيث تقول: أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللّٰهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً ؟! أو ما مرّ في الآيه(۲۱)من سوره المؤمن حيث حذّرت مشركی العرب إذ تقول: أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِی الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثَاراً فِی الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ وَاقٍ ؟! ***

ص :۱۵

الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۹ الی ۱۴]

اشاره

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ اَلْعَزِيزُ اَلْعَلِيمُ (۹) اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اَلْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَکُمْ فِيهٰا سُبُلاً لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ (۱۰) وَ اَلَّذِی نَزَّلَ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مٰاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنٰا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً کَذٰلِکَ تُخْرَجُونَ (۱۱) وَ اَلَّذِی خَلَقَ اَلْأَزْوٰاجَ کُلَّهٰا وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنَ اَلْفُلْکِ وَ اَلْأَنْعٰامِ مٰا تَرْکَبُونَ (۱۲) لِتَسْتَوُوا عَلیٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْکُرُوا نِعْمَةَ رَبِّکُمْ إِذَا اِسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحٰانَ اَلَّذِی سَخَّرَ لَنٰا هٰذٰا وَ مٰا کُنّٰا لَهُ مُقْرِنِينَ (۱۳) وَ إِنّٰا إِلیٰ رَبِّنٰا لَمُنْقَلِبُونَ (۱۴)

التّفسیر

اشاره

بعض أدلّه التوحید:

من هنا یبدأ البحث حول التوحید و الشرک،فتستعین الآیات بفطره هؤلاء و طینتهم لإثبات التوحید،و بعد أن تبیّن الأدلّه الموجوده فی عالم الوجود،و تذکر

ص:۱۶

خمسه نماذج من مواهب اللّه العظيمه و تثير فيهم حسّ الشكر،تتطرّق إلى إبطال اعتقادهم الخرافى فيما يتعلق بالأصنام و مختلف أنواع الشرك.

يقول سبحانه فى القسم الأوّل: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ .

إنّ هذا التعبير الذى ورد بتفاوت يسير فى أربع آيات من القرآن الكريم- العنكبوت۶۱/،لقمان۲۵/،الزمر۳۸/ و الزخرف فى الآيه التى نبحثها (۱) -دليل على كون معرفه اللّه سبحانه أمر فطرى مغروس فى طينه البشر و طبيعتهم من جانب.و من جانب آخر يدلّ على أنّ المشركين كانوا مقرّين بأن خالق السماوات و الأرض هو اللّه سبحانه،و لم يكونوا يعترفون بأنّ معبوداتهم خالقه إلاّ فى موارد نادره.

و من جانب ثالث فإنّ هذا الاعتراف أساس و دعامه لإبطال عبوديّه الأصنام، لأنّ الذى يكون أهلا للعباده هو خالق الكون و مدبّره،لا الموجودات التى لا حظّ لها فى هذا المجال،و بناء على هذا،فإنّ اعترافهم بكون اللّه سبحانه خالقا كان دليلا قاطعا على بطلان مذهبهم و دينهم الفاسد.

و التعبير بالعزيز الحكيم و الذى يبيّن قدره اللّه المطلقه،و علمه و حكمته،و إن كان تعبيرا قرآنيّا،إلاّ أنّه لم يكن أمرا ينكره المشركون،لأنّ لازم الاعتراف بكون اللّه سبحانه خالقا للسماء و الأرض وجود هاتين الصفتين فيه.و هؤلاء المشركين كانوا يعتقدون بعلم أصنامهم و قدرتها،فكيف باللّه الذى يعتقدون أنّ أصنامهم وسيله إليه،و تقربّهم إليه زلفى؟! ثمّ يشير سبحانه إلى خمس نعم من نعم اللّه العظيمه،و التى تعتبر كلّ منها نموذجا من نظام الخلقه،و آيه من آيات اللّه سبحانه،فيقول أولا:

ص: ۱۷

---

۱ – ۱) -جاء فى موضعين آخرين من القرآن اعتراف هؤلاء بكون الله خالقا،غايته أن أحدهما فى شأن نزول المطر من السماء(العنكبوت-۶۳)و الآخر فى كون الله سبحانه خالقهم(الزخرف-۸۷).

اَلَّذِی جَعَلَ لَکُمُ الْأَرْضَ مَهْداً

.

إنّ لفظتی«المهد»و«المهاد»تعنی المحلّ الذی أعدّ للجلوس و النوم و الاستراحه،و یقال فی الأصل للمکان الذی یضعون فیه الطفل لینام«مهد».

أجل...إنّ اللّه سبحانه جعل الأرض مهدا للإنسان،و مع أنّ لها عدّه حرکات بفعل قانون الجاذبیّه،و رغم الطبقه الغازیّه العظیمه التی أحاطت بها من کلّ جانب، فإنّها هادئه و مستقرّه بحیث لا یشعر ساکونها بأیّ إزعاج و نعلم أنّ الهدوء النفسی هو الدعامه الأساسیّه للاستفاده من النعم الأخری و التنعّم بها،و لا شکّ أنّ هذه العوامل المختلفه ما لم تنسجم مع بعضها،و یکمل بعضها بعضا،فلیس بالإمکان تحقّق هذا الهدوء و الاطمئنان مطلقا.

ثمّ یضیف سبحانه لتبیان النعمه الثانیه: وَ جَعَلَ لَکُمْ فِیهٰا سُبُلاً لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ .

لقد أشیر إلی هذه النعمه عدّه مرات فی القرآن المجید(سوره طه-۵۳،الأنبیاء -۳۱،النحل-۱۵ و غیرهنّ)،و هی من النعم التی غفل عنها الکثیرون،لأنّا نعلم أنّ التضاریس تعمّ کلّ الیابسه تقریبا،و فیها الجبال العظیمه و الصغیره و التلال و الهضاب،و البدیع أن توجد بین أعظم سلال جبال العالم فواصل یستطیع الإنسان أن یشقّ طریقه من خلالها،و قلما إتفق أن تکون هذه الجبال سببا لانفصال أقسام الکره الأرضیه عن بعضها تماما،و هذا واحد من أسرار نظام الخلقه،و من مواهب اللّه سبحانه و عطایاه للعباد.

و إضافه إلی ما مرّ،فإنّ کثیرا من أجزاء الکره الأرضیه ترتبط مع بعضها بواسطه طرق المواصلات البحریّه،و هذا یدخل أیضا فی عموم معنی الآیه (۱) .

و اتضح ممّا قلناه أنّ المراد من جمله لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ هو الهدایه إلی الهدف، و اکتشاف مناطق الأرض المختلفه،بالرغم من أنّ البعض اعتبرها إشاره إلی

۱- ۱) -کلمه«السبل»-جمع سبیل»-تطلق علی الطرق البرّیه و البحریّه،کما نقرأ فی الفقره(۴۲)من دعاء الجوشن«یا من فی البرّ و البحر سبیله».

الهدایه لأمر التوحید و معرفه اللّه.و لا مانع من جمع هذین المعنیین.

و ذکرت الموهبه الثالثه-و هی موهبه نزول المطر،و إحیاء الأراضی المیّته-فی الآیه التالیه: وَ الَّذِی نَزَّلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنٰا بِهِ بَلْدَهً مَیْتاً کَذٰلِکَ تُخْرَجُونَ من قبورکم یوم البعث.

إنّ التعبیر بکلمه«قدر»إشاره لطیفه إلی النظام الخاص الذی یحکم نزول الأمطار،حیث أنّها تنزّل بمقدار کاف یکون مفیدا و مثمرا،و لا یؤدّی إلی الخساره و الإتلاف.

صحیح أنّه قد یؤدّی بعض الأحیان إلی حدوث فیضانات،و جریان سیول، و تدمیر الأراضی،إلاّ أنّ هذه الحالات استثنائیه،و لها صبغه التحذیر،فالأعمّ الأغلب من الأمطار مفیده و مربحه،فنموّ کلّ الأشجار و النباتات و الأزهار و المزارع المثمره،من برکه نزول المطر الموزون هذا،و لو لم یکن لنزول المطر نظام،لما حصلت کلّ هذه البرکات.

الآیه الثانیه تستخدم جمله«أنشرنا»-من مادّه النشور-لتجسید انبعاث عالم النباتات،فإنّ الأراضی الیابسه التی تضمّ بدور النباتات کما تضمّ القبور أجساد الموتی،تتحرک و تحیا بنفخه صور نزول المطر،و تهتزّ فتخرج أموات النبات رؤوسها من التراب،و یقوم محشرها و تقع قیامتها التی تمثل صوره لقیامه البشر، و التی أشیر إلیها فی نهایه هذه الآیه و فی آیات عدیده أخری من القرآن المجید.

و بعد ذکر نزول المطر و حیاه النباتات،یشیر فی المرحله الرّابعه إلی خلق أنواع الحیوانات،فیقول سبحانه: وَ الَّذِی خَلَقَ الْأَزْوٰاجَ کُلَّهٰا .

إنّ التعبیر ب«الأزواج»کنایه عن أنواع الحیوانات بقرینه ذکر النباتات فی الآیه السابقه،بالرغم من أنّ البعض اعتبرها إشاره إلی کلّ أنواع الموجودات،سواء الحیوان و النبات و الجماد،لأنّ قانون الزوجیّه یحکمها جمیعا،فلکلّ جنس ما یخالفه:السماء و الأرض،اللیل و النهار،النور و الظلام،المرّ و الحلو،الیابس

و الرطب،الشمس و القمر،الجنّه و النّار،إلاّ ذات اللّه المقدّسه فإنّها أحديّه، و لا سبيل للزوجيّه إليها أبدا.

لكن كما قلنا،فإنّ القرائن الموجوده توحى بأنّ المراد هو«أزواج الحيوانات»،و نعلم أنّ قانون الزوجيّه سنّه حياتيّه فى كلّ الكائنات الحيّه، و العيّنات النادره الاستثنائيه لا تقدح بعموميّه هذا القانون.

و اعتبر البعض«الأزواج»بمعنى أصناف الحيوانات،كالطيور و الدواب و المائيّات و الحشرات و غيرها.

و فى المرحله الخامسه تبيّن الآيات آخر نعمه من هذه السلسله،و هى المراكب التى سخّرها اللّه سبحانه للبشر لطىّ الطرق البريّه و البحريّه،فيقول سبحانه:

وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ

.

إنّ هذه النعمه هى إحدى مواهب اللّه سبحانه للبشر،و كراماته التى منّ بها عليهم، و هى لا تلاحظ فى الأنواع الأخرى من الموجودات،و ذلك أنّ اللّه سبحانه قد حمل الإنسان على المراكب التى تعينه فى رحلاته البحريّه و الصحراويّه،كما جاء ذلك فى الآيه(٧٠)من سوره الإسراء: وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِى آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً .

و الحقّ أنّ وجود هذه المراكب يضاعف أنشطه الإنسان و يوسّع حياته عدّه أضعاف،و حتّى الوسائل السريعه السير التى نراها اليوم،و التى صنعت بالاستفاده من مختلف خواصّ الموجودات،و وضعت تحت تصرّف الإنسان،فإنّها من ألطاف اللّه الظاهره،تلك الوسائل التى غيّرت وجه حياته،و منحت كلّ شىء السرعه،و أهدت له كلّ أنواع الراحه.

و تذكر الآيه التاليه الهدف النهائى لخلق هذه المراكب فتقول: لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَهَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنّا لَهُ مُقْرِنِينَ .

إنّ جمله: لِتَسْتَوُوا عَلىٰ ظُهُورِهِ إشاره إلى أنّ اللّه سبحانه قد خلق هذه المراكب على هيئه تستطيعون معها ركوبها بصوره جيّده،و تصلون إلى مقاصدكم براحه و يسر (۱) .

لقد أوضحت هذه الآيه هدفين لخلق هذه المراكب البحريّه و البريّه،من الفلك و الأنعام،أحدهما:ذكر نعم اللّه سبحانه حين الإستواء على ظهورها،و الآخر:تنزيه اللّه سبحانه الذى سخّرها للإنسان،فقد جعل الفلك على هيئه تقدر أن تشقّ صدر الأمواج و تسير نحو المقصد،و جعل الدواب و الأنعام خاضعه لأمر الإنسان و منقاده لإرادته.

«مقرنين»من ماده«إقران»،أى امتلاك القدره على شىء،و قال بعض أرباب اللغه:إنّه يعنى مسك الشىء و حفظه،و فى الأصل بمعنى وقوع الشىء قرينا لشىء آخر،و لازم ذلك القدره على حفظه (۲) .

بناء على هذا،فإنّ معنى جمله وَ مٰا كُنّٰا لَهُ مُقْرِنِينَ هو أنّه لو لم يكن لطف اللّه و عنايته لما كان بإمكاننا السيطره على هذه المراكب و حفظها،و لتحطمت بفعل الرياح المخالفه لحركه السفن،و كذلك الحيوانات القويّه التى تفوق قوّتها قوّه الإنسان أضعافا،ما كان الإنسان ليستطيع أن يقترب منها مطلقا لو لا روح التسليم التى تحكمها،و لذلك حين يغضب أحد هذه الحيوانات و يفقد روح التسليم،فإنّه سيتحوّل إلى موجود خطر لا يقوى عدّه أشخاص على مقابلته،فى حين أن من الممكن فى حاله سكونها و دعتها-أن ترتبط عشرات،بل مئات منها بحبل و زمام، و يسلّم بيد صبى ليذهب بها حيث يشاء،و كأنّ اللّه سبحانه يريد أن يبيّن للإنسان نعمه الحاله الطبيعيّه للحيوانات من خلال بيان الحاله الاستثنائيّه.

ص: ۲۱

۱- ۱) -الضمير فى«على ظهوره»يعود على«ما»الموصوله و التى وردت فى جمله«ما تركبون»و هى تشمل السفن و الدواب،و كونه مفردا لظاهر اللفظ.

۲- ۲) -جاء فى لسان العرب:«أقرن له و عليه»:أطاق و قوى عليه و اعتلى،و فى التنزيل العزيز: وَ مٰا كُنّٰا لَهُ مُقْرِنِينَ .

و تذکر آخر آیه-من هذه الآیات-قول المؤمنین لدی رکوبهم المرکب،إذ یقولون: وَ إِنّٰا إِلیٰ رَبِّنٰا لَمُنْقَلِبُونَ .

هـذه الجمله إشـاره إلی مسأله المعاد بعـد الحـدیث حول التوحیـد،لأنّ الانتباه إلی الخالق و المبـدأ،یلفت نظر الإنسان نحو المعاد دائما.

و هی أیضا إشاره إلی أن لا تغترّوا عنـد ما ترکبون هـذه المراکب و تتسـلّطون علیها،و لا تغرقوا فی مغریات الـدنیا و زخارفها،بل یجب أن تکونوا دائما ذاکرین للآخره غیر ناسـین لها،لأنّ حالات الغرور تشـتد و تتعمّق فی مثل هذه الموارد خاصّه،و الأشخاص الذین یتّخذون مراکبهم و وسائط نقلهم وسیله للتعالی و التکبّر علی الآخرین لیسوا بالقلیلین.

و من جهه ثالثه،فإنّ الإستواء علی المرکب و الانتقال من مکان إلی آخر یذکّرنا بانتقالنا الکبیر من هذا العالم إلی العالم الآخر.

نعم..فنحن أخیرا ننقلب إلی اللّه سبحانه.

***

ملاحظه

اشاره

ذکر اللّه عند الانتفاع بالنعم:

من النکات الجمیله التی تلاحظ فی آیات القرآن الکریم،أنّ المؤمنین قد علّموا أدعیه یقرءونها عند التنعّم بمواهب اللّه سبحانه و نعمه...تلک الأدعیه التی تصقل روح الإنسان و تهذّبها بمحتویاتها البنّاءه،و تبعد عنها آثار الغرور و الغفله.

فیأمر اللّه سـبحانه نوحا علیه السّـلام أن: فَإِذَا اسْتَوَیْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَکَ عَلَی الْفُلْکِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِی نَجّٰانٰا مِنَ الْقَوْمِ الظّٰالِمِینَ .(۱)

و یأمره أیضا أن یقول عند طلب المنزل المبارک:

۱- ۱) -المؤمنون،الآیه ۲۸.

رَبِّ أَنْزِلْنِی مُنْزَلاً مُبارَکاً وَ أَنْتَ خَیْرُ الْمُنْزِلِینَ

(۱)

.

و هو سبحانه یأمرنا فی هذه الآیات أن نشکر نعم اللّه تعالی،و أن نسبّح اللّه عزّ و جلّ عند الإستواء علی ظهورها.

فإذا تحوّل ذکر المنعم الحقیقی عند کلّ نعمه ینعم بها إلی طبع و ملکه فی الإنسان،فسوف لا یغرق فی ظلمه الغفله،و لا یسقط فی هاویه الغرور،بل إنّ المواهب و النعم المادیّه ستکون له سلّما إلی اللّه سبحانه! و

قد ورد فی سیره الرّسول الأعظم صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه ما وضع رجله فی الرکاب إلاّ و قال:«الحمد للّه»،و إذا ما استوی علی ظهر الدابّه فإنّه یقول:الحمد لله علی کل حال، سُبْحانَ الَّذِی سَخَّرَ لَنا هٰذا وَ ما کُنّا لَهُ مُقْرِنِینَ وَ إِنّا إِلیٰ رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ (۲) .

و

جاء فی حدیث آخر عن الإمام الحسن المجتبی علیه السّلام أنّه رأی رجلا رکب دابّه فقال:سبحان الذی سخّر لنا هذا،فقال له:«ما بهذا أمرت،أمرت أن تقول:«الحمد للّه الذی هدانا للإسلام،الحمد للّه الذی منّ علینا بمحمّد،و الحمد للّه الذی جعلنا من خیر أمّه أخرجت للناس،ثمّ تقول:سبحان الذی سخّر لنا هذا» (۳) ، إشاره إلی أنّ الآیه لم تأمر بأن یقال:سبحان الذی سخّر لنا هذا،بل أمرت أوّلا بذکر نعم اللّه العظیمه:نعمه الهدایه إلی الإسلام،نعمه نبوّه النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم،نعمه جعلناه فی زمره خیر أمّه،ثمّ تسبیح اللّه علی تسخیره لما نرکب! و ممّا یستحقّ الانتباه أنّه یستفاد من الرّوایات أنّ من قال عند رکوبه: سُبْحانَ الَّذِی سَخَّرَ لَنا هٰذا وَ ما کُنّا لَهُ مُقْرِنِینَ وَ إِنّا إِلیٰ رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ فسوف لن یصاب بأذی بأمر اللّه!و قد روی هذا المطلب فی حدیث فی الکافی عن أئمّه أهل البیت علیهم السّلام (۴) .

و نکتشف من خلال ذلک البون الشاسع بین تعلیمات الإسلام البنّاءه هذه،و بین

ص: ۲۳

۱- ۱) -المؤمنون،الآیه ۲۹.

۲- ۲) -تفسیر الفخر الرازی،المجلد ۲۷،صفحه ۱۹۹.

۳- ۳) -المصدر السابق.

۴- ۴) -نور الثقلین،المجلد ۴،صفحه ۵۹۳.

ما يلاحظ من جماعه من المغرورين و متّبعى الأهواء و الميول الذين يتّخذون وسائط نقلهم وسيله للفخر و لإظهار أنفسهم بمظهر العزيز الوجيه،و قد يجعلونها سببا لارتكاب أنواع المعاصى كما ينقل«الزمخشرى»فى الكشّاف عن بعض السلاطين أنّه يركب مركبه الخاص يريد الذهاب من مدينه إلى أخرى التى تبعد عنها مسافه شهر فكان يكثر من شرب الخمر لئلاّ يحسّ بطول الطريق و تعبه، و لا يفيق من سكره إلاّ حين يصل تلك المدينه! ***

ص :۲۴

الآيات [سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۱۵ الى ۱۹]

اشاره

وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ اَلْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (۱۵) أَمِ اتَّخَذَ مِمّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَ أَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ (۱۶) وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (۱۷) أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِی اَلْحِلْيَهِ وَ هُوَ فِی اَلْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ (۱۸) وَ جَعَلُوا اَلْمَلائِكَهَ اَلَّذِينَ هُمْ عِبادُ اَلرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ (۱۹)

التّفسير

اشاره

كيف تزعمون أنّ الملائكه بنات اللّه؟

بعد تثبيت دعائم التوحيد بوسيله ذكر آيات اللّه سبحانه في نظام الوجود،و ذكر نعمه و مواهبه،تتناول هذه الآيات ما يقابل ذلك،أيّ محاربه الشرك و عباده غير اللّه تعالى،فتطرّقت أوّلا إلى أحد فروعها،أيّ عباده الملائكه فقالت: وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً فظنّوا أنّ الملائكه بنات اللّه سبحانه،و أنّها آلهتهم،و كانت هذه الخرافه القبيحه رائجه بين الكثيرين من عبده الأوثان.

ص: ۲۵

إنّ التعبير ب«الجزء»يبيّن من جانب أنّ هؤلاء كانوا يعتبرون الملائكه أولاد اللّه تعالى،لأنّ الولد جزء من وجود الأب و الأمّ،و ينفصل عنهما كنطفه تتكوّن و تتلقّح،و إذا ما تلقّحت تكوّن الولد من تلك اللحظه.و يبيّن من جانب آخر قبولهم عبادتها،لأنّهم كانوا يظنّون الملائكه جزءا من الآلهه فى مقابل اللّه سبحانه.

ثمّ إنّ هذا التعبير استدلال واضح على بطلان اعتقاد المشركين الخرافى،لأنّ الملائكه إن كانت أولادا للّه سبحانه،فإنّ ذلك يستلزم أن يكون للّه جزء، و نتيجه ذلك أنّ ذات اللّه،مركّبه سبحانه،فى حين أنّ الأدلّه العقليّه و النقليّه شاهده على بساطه وجوده و أحديّته،لأنّ الجزاء مختصّ بالموجودات الممكنه.

ثمّ تضيف: إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ فمع كل هذه النعم الإلهيّه التى أحاطت بوجوده،و التى مرّ ذكر خمس منها فى الآيات السابقه،فإنّه بدل أن يطأطئ رأسه إعظاما لخالقه،و إجلالا لولى نعمته،سلك سبيل الكفر و اتّجه إلى مخلوقات اللّه ليعبدها! فى الآيه التى بعدها يستثمر القرآن الثوابت الفكريّه لدى هؤلاء من أجل إدانه هذا التفكير الخرافى،لأنّهم كانوا يرجّحون جنس الرجل على المرأه،و كانوا يعدّون البنت عارا-عاده-يقول تعالى: أَمِ اتَّخَذَ مِمّٰا يَخْلُقُ بَنٰاتٍ وَ أَصْفٰاكُمْ بِالْبَنِينَ ؟فإذا كان مقام البنت أدنى فى اعتقادكم،فكيف ترجّحون أنفسكم و تعلونها على اللّه،فتجعلون نصيبه بنتا،و نصيبكم ولدا؟ صحيح أنّ المرأه و الرجل متساويان فى القيم الإنسانيّه الساميه عند اللّه سبحانه،إلاّ أنّ الاستدلال باعتقادات المخاطب يترك أحيانا فى فكره أثرا يدفعه إلى إعاده النظر فيما يعتقد.

و تتابع الآيه التاليه هذا البحث ببيان آخر،فتقول: وَ إِذٰا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمٰا ضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ .

و المراد من بِمٰا ضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلاً هم الملائكه الذين كانوا يعتبرونهم بنات

اللّه،و كانوا يعتقدون فى الوقت نفسه أنّها آلهتهم،و أنّها شبيهه به-سبحانه-و مثله.

إنّ لفظه(كظيم)من مادّه«كظم»،و تعنى الحلقوم،و جاءت أيضا بمعنى غلق فم قربه الماء بعد امتلائها،و لذلك فإنّ هذه الكلمه استعملت للتعبير عمّن امتلأ قلبه غضبا أو غمّا و حزنا.و هذا التعبير يحكى جيّدا عن خرافه تفكير المشركين البله فى عصر الجاهليّه فيما يتعلق بولاده البنت،و كيف أنّهم كانوا يحزنون و يغتمّون عند سماعهم بولاده بنت لهم،إلاّ أنّهم فى الوقت نفسه كانوا يعتقدون بأنّ الملائكه بنات اللّه سبحانه! و تضيف فى الآيه الكريمه: أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي الْخِصٰامِ غَيْرُ مُبِينٍ (1) .

لقد ذكر القرآن هنا صفتين من صفات النساء غالبا،تنبعثان من ينبوع عاطفتهنّ،إحداهما:تعلّق النساء الشديد بأدوات الزينه،و الأخرى:عدم امتلاكهنّ القدره الكافيه على إثبات مرادهنّ أثناء المخاصمه و الجدال لحيائهنّ و خجلهنّ.

لا شكّ أنّ بعض النسوه ليس لداهنّ هذا التعلّق الشديد بالزينه،و لا شكّ أيضا أنّ التعلّق بالزينه و محبّتها فى حدود الاعتدال لا يعد عيبا فى النساء، بل أكّد عليها الإسلام،إلاّ أنّ المراد هو أكثريّه النساء اللاتى تعوّدن على الإفراط فى الزينه فى أغلب المجتمعات البشريّه،و كأنّهن يولدن بين أحضان الزينه و يتربّين فى حجرها.

و كذلك لا يوجد أدنى شكّ فى أنّ بعض النسوه ارتقين أعلى الدرجات فى قوّه المنطق و البيان،لكن لا يمكن إنكار ضعف النساء عند المخاصمه و البحث و الجدال،إذا ما قورنت بقدره الرجال،و ذلك بسبب خجلهنّ و حيائهنّ.

و الهدف بيان هذه الحقيقه،و هى:كيف تظنّون و تعتقدون بأنّ البنات أولاد اللّه سبحانه،و أنّكم مصطفون بالبنين؟

1- 1) -«ينشّؤا»من ماده«الإنشاء»،أى إيجاد الشىء،و هنا بمعنى تربيه الشىء،و تنميته،و«الحليه»تعنى الزينه،و«الخصام»هو المجادله و النزاع على شىء ما.

و تذكر الآيه الأخيره-من هذه الآيات-هذا المطلب بصراحه أكثر،فتقول:

وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَهَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً

.

أجل...إنّهم عباد اللّه،مطيعون لأمره،و مسلمون لإرادته،كما ورد ذلك فى الآيتين(۲۶)،(۲۷)من سوره الأنبياء: بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ .

إنّ التعبير بكلمه(عباد)فى الواقع ردّ على ظنّ هؤلاء،لأنّ الملائكه لو كانت مؤنّثا لوجب أن يقول:(عبدات)،لكن ينبغى الانتباه إلى أنّ العباد تطلق على جمع المذكّر و على الموجودات التى تخرج عن إطار المذكر و المؤنث كالملائكه، و يشبه ذلك استعمال ضمائر المفرد المذكّر فى حقّ اللّه سبحانه،فى حين أنّه تعالى فوق كلّ هذه التقسيمات.

و جدير بالذكر أنّ كلمه(عباد)قد أضيفت إلى(الرحمن)فى هذه الجمله، و يمكن أن يكون هذا التعبير إشاره إلى أن أغلب الملائكه منفذون لرحمه اللّه،و مدبرون لقوانين عالم الوجود و أنظمته،و كل ذلك رحمه.

لكن لماذا وجدت هذه الخرافه بين عرب الجاهليّه؟و لماذا بقيت ترسباتها إلى الآن فى أذهان جماعه من الناس؟حتى أنّهم يرسمون الملائكه و يصورونها على هيئه المرأه و البنت،بل حتى إذا أرادوا أن يرسموا ما يسمى بملك الحريه فإنّهم يرسمونه على هيئه امرأه جميله طويله الشعر! يمكن أن يكون هذا الوهم نابعا من أنّ الملائكه مستورون عن الأنظار، و النساء مستورات كذلك،و يلاحظ هذا المعنى فى بعض موارد المؤنث المجازى فى لغه العرب،حيث يعتبرون الشمس مؤنثا مجازيّا و القمر مذكرا،لأنّ قرص الشمس مغطى عاده بأمواج نورها فلا سبيل للنظر إليه،بخلاف قرص القمر.

أو أن لطافه الملائكه و رقتها قد سببت أن يعتبروها كالنساء،حيث أن النساء اكثر رقّه و لطافه إذا قيست بالرجال.

و العجیب أنّه بعد کل هذه المحاربه الإسلامیه لهذا التفکیر الخرافی و إبطاله، فإنّهم إذا ما أرادوا أن یصفوا امرأه فإنّهم یقولون:إنّها ملک،أمّا فی شأن الرجال فقلما یستعمل هذا التعبیر.و کذلک قد یختارون کلمه الملک و الملاک اسما للنساء! ثمّ تجیبهم الآیه بصیغه الاستفهام الإنکاری فتقول: أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ ؟ و تضیف فی النهایه: سَتُکْتَبُ شَهٰادَتُهُمْ وَ یُسْئَلُونَ .

لقد ورد ما قرأناه فی هذه الآیات بصوره أخری فی سوره النحل الآیات(۵۶ -۶۰)أیضا، و قد أوردنا هناک بحثا مفصّلا حول عقائد عرب الجاهلیّه فیما یتعلق بمسأله الوأد،و عقیدتهم فی جنس المرأه،و کذلک حول دور الإسلام فی إحیاء شخصیّه المرأه و مقامها السامی.

***

ص :۲۹

الآيات [سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۲۰ الی ۲۲]

اشاره

وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِکَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلّا یَخْرُصُونَ (۲۰) أَمْ آتَیْناهُمْ کِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِکُونَ (۲۱) بَلْ قالُوا إِنّا وَجَدْنا آباءَنا عَلی أُمَّهٍ وَ إِنّا عَلی آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (۲۲)

التّفسیر

اشاره

لا دلیل لهم سوی تقلید الآباء الجاهلین!

أعطت الآیات السابقه أوّل جواب منطقی علی عقیده عبده الأوثان الخرافیّه، حیث کانوا یظنون أنّ الملائکه بنات اللّه،و الجواب هو:إنّ الرؤیه و الحضور فی موقف ما ضروری قبل کل شیء لإثبات ادعاء ما،فی حین لا یقوی أی عابد،وثن أن یدّعی أنّه کان حاضرا حین خلق الملائکه،و أنّه رأی کیفیّه ذلک الخلق بعینه.

و تتابع هذه الآیات نفس الموضوع،و تسلک مسالک أخری لإبطال هذه الخرافه القبیحه،فتتعرض أوّلا-و بصوره مختصره-لأحد الأدله الواهیه لهؤلاء ثمّ تجیب علیه،فتقول: وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ .

ص: ۳۰

إنّ هـذا التعبير قـد يكون إشـاره إلى أنّ هؤلاء كـانوا يعتقـدون بـالجبر،و أن كل ما يصـدر منا فهو بإراده اللّه،و كل ما نفعله فهو برضاه أو أنّه لو لم يكن راضيا عن أعمالنا و عقائدنا لوجب أن ينهانا عنها،و لما لم ينهنا عنها فإنّ ذلك دليل على رضاه.

الحقيقه،أنّ هؤلاء اختلقوا خرافات جديـده من أجـل توجيه عقائـدهم الخرافيه الفاسـده الأولى،و افتروا أكاذيب جديـده لإثبات أكاذيبهم الأولى،و أيّا من الاحتمالين-أعلاه-كان مرادهم،فهو فاسد من الأساس.

صحيح أنّ كل شـيء فى عالم الوجود لا يكون إلّا بإذن اللّه تعالى،إلّا أنّ هذا لا يعنى الجبر،إذ يجب أن لا ننسـى أنّ اللّه سبحانه هو الذى أراد لنا أن نكون مختارين و أحرارا فى اختيارنا و تصرفنا،ليختبرنا و يربينا.

و صـحيح أيضا أنّه يجب أن يجب أن ينهى اللّه سـبحانه عباده عن الباطل،لكن لا يمكن إنكار أنّ جميع الأنبياء قـد تصـدّوا لردع الناس عن كل نوع من أنواع الشرك و الازدواجيّه فى العباده.

إضافه إلى ذلك،فإنّ عقل الإنسان السـليم ينكر هذه الخرافات أيضا أليس العقل-هو رسول اللّه الداخلى-فى أعماق الإنسان؟! و تجيب الآيه فى النهايه بجمله قصـيره على هذا الاستدلال الواهى لعبده الأصنام،فتقول: مٰا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّٰ يَخْرُصُونَ .

إنّ هؤلاء لا علـم و لا إيمـان لهم حتى بمسـأله الجـبر أو رضـى اللّه سـبحانه عن أعمـالهم،بـل هـم-ككـثير من متبعى الهـوى و المجرمين الآخرين-يتخـذون مسأله الجبر ذريعه لهم من أجل تبرئه أنفسـهم من الـذنب و الفساد،فيقولون:إنّ يـد القضاء و القـدر هى التى جرتنا إلى هذا الطريق و حتمته علينا!مع علمهم بأنّهم يكذبون، و أن هذه ذريعه ليس إلّا،و لذلك فإنّ أحدا لو اغتصبهم حقّا فإنّهم غير مستعدين أبدا لغض النظر عن معاقبته مطلقا،و لا يقولون:إنّه كان مجبرا على عمله هذا!

«يخرصون»من الخرص،و هو فى الأصل بمعنى التخمين،و أطلقت هذه الكلمه أوّلا-على تخمين مقدار الفاكهه،ثمّ أطلقت على الحدس و التخمين،و لما كان الحدس و التخمين يخطئ أحيانا و لا-يطابق الواقع،فقد استعملت هذه الكلمه بمعنى الكذب أيضا،و«يخرصون»فى هذه الآيه من هذا القبيل.

و على أيّه حال،فيظهر من آيات قرآنيه عديده بأنّ عبده الأوثان كانوا يستدلون-مرارا-بمسأله المشيئه الإلهيّه من أجل توجيه خرافاتهم،و من جمله ذلك أنّهم كانوا قد حرّموا على أنفسهم أشياء و أحلّوا أخرى،و نسبوا ذلك إلى اللّه سبحانه،كما جاء ذلك فى الآيه(۱۴۸)من سوره الأنعام: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللّهُ ما أَشْرَكْنا وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ .

و تكرر هذا المعنى فى الآيه(۳۵)من سوره النحل أيضا: وَ قالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ .

و قد كذّبهم القرآن الكريم فى ذيل آيه سوره الأنعام،حيث يقول: كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتّى ذاقُوا بَأْسَنا و يصرح فى ذيل آيه سوره النحل: فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ ؟! و فى ذيل الآيه مورد البحث ينسبهم إلى التخمين و الكذب كما رأينا،و كلها ترجع فى الحقيقه إلى أساس و مصدر واحد.

و تشير الآيه التاليه إلى دليل آخر يمكن أن يكونوا قد استدلوا به،فتقول: أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (۱) ؟أى يجب على هؤلاء أن يتمسّكوا بدليل العقل لإثبات هذا الادّعاء،أو بدليل النقل،فى حين لم يكن لهؤلاء دليل لا من العقل و لا من النقل،فإنّ كل الأدلّه العقليه تدعوا إلى التوحيد،و كذلك دعا كل

---

۱ – ۱) -«أم»هنا متصله،و هى معطوفه على(اشهدوا خلقهم)،و الضمير فى(من قبله)يعود إلى القرآن.و ما احتمله البعض من أن(أم)هنا منقطعه،أو أن الضمير يرجع إلى الرّسول،لا يتناسب كثيرا مع القرائن التى فى الآيه.

الأنبياء و الكتب السماويه إلى التوحيد.

و أشارت آخر آيه-من هـذه الآيات-إلى ذريعتهم الأصليه،و هى فى الواقع خرافه لا أكثر،أصبحت أساسا لخرافه أخرى،فتقول: بَلْ قالُوا إِنّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّهٍ وَ إِنّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ .

لم يكن لهؤلاء دليل إلاّ التقليد الأعمى للآباء و الأجداد، و العجيب أنّهم كانوا يظنون أنّهم مهتدون بهذا التقليد،فى حين لا يستطيع أى إنسان عاقل حر أن يستند إلى التقليد فى المسائل العقائديه و الأساسيه التى يقوم عليها بناؤه الفكرى،خاصه إذا كان التقليد تقليد«جاهل لجاهل»،لأنا نعلم أن آباء أولئك المشركين لم يكن لهم أدنى حظ من العلم،و كانت أدمغتهم مليئه بالخرافات و الأوهام،و كان الجهل حاكما على أفكارهم و مجتمعاتهم،كما توضح ذلك الايه(١٧٠)من سوره البقره:

أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ ؟ التقليد يصحّ فى المسائل الفرعيه و غير الأساسيه فقط،و أيضا يجب أن يكون تقليدا لعالم،أى رجوع الجاهل إلى العالم،كما يرجع المريض إلى الطبيب،و غير المتخصصين إلى أصحاب الإختصاص،و بناء على هذا فإنّ تقليد هؤلاء كان باطلا بدليلين.

لفظه«الأمّه»تطلق-كما يقول الراغب فى المفردات-على الجماعه التى تربط بعضها مع البعض الآخر روابط،إمّا من جهه الدين،أو وحده المكان،أو الزمان، سواء كانت حلقه الاتصال تلك اختياريه أم إجباريّه.و من هنا استعملت هذه الكلمه أحيانا بمعنى المذهب،كما هو الحال فى الآيه مورد البحث،إلاّ أن معناها الأصلى هو الجماعه و القوم،و إطلاق هذه الكلمه على الدين يحتاج إلى قرينه (١) .

***

---

١ – ١) -فى جمله إِنّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ مهتدون خبر(إن)و«على آثارهم»متعلق به،و أمّا ما احتمله البعض من أن «على آثارهم»خبر أوّل،و(مهتدون)خبر ثان،فيبدو بعيدا عن الصواب.

الآيات [سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۲۳ الی ۲۵]

اشاره

وَ كَذٰلِكَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاّٰ قٰالَ مُتْرَفُوهٰا إِنّٰا وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا عَلىٰ أُمَّةٍ وَ إِنّٰا عَلىٰ آثٰارِهِمْ مُقْتَدُونَ (۲۳) قٰالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدىٰ مِمّٰا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبٰاءَكُمْ قٰالُوا إِنّٰا بِمٰا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كٰافِرُونَ (۲۴) فَانْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (۲۵)

التّفسير

اشاره

عاقبه هؤلاء المقلدين:

تواصل هذه الآيات موضوع الآيات السابقه حول الدليل الأصلى للمشركين فى عبادتهم للأصنام،و هو تقليد الآباء،و الأجداد، فتقول:إن هذا مجرّد ادعاء واه من مشركى العرب: وَ كَذٰلِكَ مٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاّٰ قٰالَ مُتْرَفُوهٰا إِنّٰا وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا عَلىٰ أُمَّةٍ وَ إِنّٰا عَلىٰ آثٰارِهِمْ مُقْتَدُونَ .

يستفاد من هذه الآيه جيدا أنّ المتصدين لمحاربه الأنبياء،و الذين كانوا يقولون بمسأله تقليد الآباء و يدافعون عنها بكل قوّه،كانوا من المترفين و الأثرياء

ص :۳۴

السکاری و المغرورین،لأنّ(المترف)من ماده(الترفّه)أی کثره النعمه،و لما کان کثیر من المنعمین یغرقون فی الشهوات و الأهواء،فإنّ کلمه«المترف»تعنی من طغی بالنعمه و غرق فی سکرتها و أصبح مغرورا (۱) ،و مصداق ذلک-علی الأغلب-الملوک و الجبابره و الأثریاء المستکبرون و الأنانیون.

نعم،هؤلاء هم الذین تتعرض مصالحهم و أنانیّاتهم للفناء بثوره الأنبیاء، و یحدق الخطر بمنافعهم و ثرواتهم اللامشروعه،و یتحرّر المستضعفون من مخالبهم،و لهذا کانوا یسعون إلی تخدیر الناس و إبقائهم جهلاء بمختلف الأسالیب و الحیل.و أغلب فساد الدنیا ینبع من هؤلاء المترفین الذین یتواجدون فی أماکن الظلم و التعدی و المعصیه و الفساد و الرذیله.

و جدیر بالذکر،أنّنا قرأنا فی الآیه السابقه أن هؤلاء کانوا یقولون: إِنّٰا عَلیٰ آثٰارِهِمْ مُهْتَدُونَ و هنا یذکر القرآن أنّهم یقولون: وَ إِنّٰا عَلیٰ آثٰارِهِمْ مُقْتَدُونَ و بالرغم من أن التعبیرین یعودان إلی معنی واحد فی الحقیقه،إلاّ أنّ التعبیر الأوّل إشاره إلی دعوی أحقیّه مذهب الآباء،و التعبیر الثّانی إشاره إلی إصرار هؤلاء.

و ثباتهم علی اتباع الآباء و الاقتداء بهم.

و علی أیه حال فإنّ هذه الآیه نوع من التسلیه لخاطر النّبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم و المؤمنین لیعلموا أن ذرائع المشرکین و استدلالاتهم هذه لیست بالشیء الجدید، إذ أنّ هذا الطریق سلکه کل المنحرفین الضالین علی مر التأریخ.

و تبیّن الآیه التالیه جواب الأنبیاء السابقین علی حجج هؤلاء المشرکین و المنحرفین بوضوح تام،فتقول: قٰالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُکُمْ بِأَهْدیٰ مِمّٰا وَجَدْتُمْ عَلَیْهِ آبٰاءَکُمْ (۲) ؟

ص: ۳۵

۱- ۱) -تقرأ فی لسان العرب:أترفته النعمه،أی:أطغته.

۲- ۲) -لهذه الجمله محذوف تقدیره:أتتبعون آباءکم و لو جئتکم بدین أهدی من دین آبائکم.تفسیر الکشاف المراغی، القرطبی،و روح المعانی.

هـذا التعـبير هو أكثر التعـابير المؤدبه الممكن طرحهـا أمـام قوم عنيـدين مغرورين، و لاـ يجرح عواطفهم أو يمسـها مطلقـا،فهو لا يقول:إن ما تقولونه كذب و خرافه،بل يقول:إنّ ما جئت به أهدى من دين آبائكم،فتعالوا و انظروا فيه و طالعوه.

إنّ مثل هذه التعبيرات القرآنيه تعلمنا آداب المحاوره و المجادله و خاصّه أمام الجاهلين المغرورين.

و مع كـل ذلـك،فـإنّ هؤلاـء كـانوا غرقى الجهل و التعصب و العناد بحيث لم يؤثّر فيهم حتى هـذا المقال المؤدب الرقيق،فكانوا يجيبون أنبياءهم بجواب واحد فقط:

قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ

دون أن يأتوا بأيّ دليل على مخالفتهم،و دون أن يتأملوا فى الاقتراح المعقول المتين لأنبياء اللّه و رسله.

من البـديهى أنّ مثـل هؤلاء الأقوام الطاغين المعانـدين،لا يسـتحقون البقاء، و ليست لهم أهليّه الحياه،و لا بـدّ أن ينزل عـذاب اللّه ليقتلع هـذه الأشواك من الطريق و يطهره منها،و لـذلك فإنّ آخر آيه-من هـذه الآيات-تقول: فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فبعضـهم بالطوفان،و آخرون بالزلزله المدمره،و جماعه بالعاصفه و الصاعقه، و خلاصه القول:إنّا دمّرنا كل فئه منهم بأمر صارم فأهلكناهم.

و أخيرا وجهت الآيه الخطاب إلى النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم من أجل أن يعتبر مشركو مكّه أيضا،فقالت: فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ فعلى مشركى مكّه المعاندين أن يتوقعوا مثل هذا المصير المشؤوم.

***

ص :۳۶

الآيات [سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۲۶ الى ۳۰]

اشاره

وَ إِذْ قٰالَ إِبْرٰاهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِى بَرٰاءٌ مِمّٰا تَعْبُدُونَ (۲۶) إِلاَّ اَلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (۲۷) وَ جَعَلَهٰا كَلِمَةً بٰاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۲۸) بَلْ مَتَّعْتُ هٰؤُلاٰءِ وَ آبٰاءَهُمْ حَتّٰى جٰاءَهُمُ اَلْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ (۲۹) وَ لَمّٰا جٰاءَهُمُ اَلْحَقُّ قٰالُوا هٰذٰا سِحْرٌ وَ إِنّٰا بِهِ كٰافِرُونَ (۳۰)

التّفسير

اشاره

التوحيد كلمه الأنبياء الخالده:

أشارت هـذه الآيات إشاره موجزه إلى قصّه إبراهيم،و ما جرى له مع قوم بابل عبـده الأوثان،لتكمل بذلك بحث ذم التقليد،الذى ورد فى الآيات السابقه،و ذلك لأنّه:

أوّلا:إنّ إبراهيم عليه السّلام كان الجد الأكبر للعرب،و كانوا يعدونه محترما و يقدّسونه، و يفتخرون بتأريخه،فإذا كان اعتقادهم و قولهم هذا حقّا فيجب عليهم أن يتبعوه عند ما مزّق حجب التقليد.و إذا كان سبيلهم تقليد الآباء،فلما ذا يقلّدون عبده

الأوثان و لا يتّبعون إبراهيم عليه السّلام.

ثانيا:إنّ عبده الأصنام استندوا إلى هذا الاستدلال الواهی-و هو اتباع الآباء- فلم يقبله إبراهيم منهم أبدا،كما يقول القرآن الكريم فی سوره الأنبياء-۵۳،۵۴:

قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِی ضَلاَلٍ مُبِينٍ .

ثالثا:إنّ هذه الآيه نوع من التطييب لخاطر الرّسول الأعظم صلی اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين الأوائل ليعلموا أنّ مثل هذه المخالفات و التوسّلات بالمعاذير و الحجج الواهيه كانت موجوده دائما،فلا ينبغی أن يضعفوا أو ييأسوا.

تقول الآيه الأولی: وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِی بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (۱) ،و لما كان كثير من عبده الأصنام يعبدون اللّه أيضا،فقد استثناه إبراهيم مباشره فقال:

إِلاَّ الَّذِی فَطَرَنِی فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ

.

إنّه عليه السّلام يذكر فی هذه العباره الوجيزه دليلا علی انحصار العبوديّه باللّه تعالی، لأنّ المعبود هو الخالق و المدبر،و كان الجميع مقتنعين بأنّ الخالق هو اللّه سبحانه، و كذلك أشار عليه السّلام فی هذه العباره إلی مسأله هدايه اللّه التكوينيّه و التشريعيّه التی يوجبها قانون اللطف (۲) .

و قد ورد هذا المعنی فی سوره الشعراء،الآيات ۷۷-۸۲ أيضا.

و لم يكن إبراهيم عليه السّلام من أنصار أصل التوحيد،و محاربه كل اشكال الشرك طوال حياته و حسب،بل إنّه بذل قصاری جهده من أجل إبقاء كلمه التوحيد فی هذا العالم إلی الأبد،كما تبيّن ذلك الآيه التاليه إذ تقول:

۱- ۱) -«براء»مصدر،و هی تعنی التبرؤ،و لها فی مثل هذه الموارد معنی الوصف بشكل مؤكد و المبالغه،ك(زيد عدل)و لما كانت مصدرا فقد تساوی فيها المفرد و الجمع،و المذكر و المؤنث.

۲- ۲) -طبقا لهذا التفسير،فإن الاستثناء فی جمله«إلا الذی فطرنی»متصل،لأن كثيرا من عبده الأوثان لم يكونوا منكرين لله، بل كانوا يشركون معه غيره،إلا أنه احتمل أيضا أن يكون الاستثناء منقطعا،و(إلا)بمعنی(لكن)لأن التعبير ب(ما تعبدون)يشير إلی الأصنام،فإن هذا التعبير غير متعارف فی شأن الله تعالی.(تأمل).

وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِی عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ

(۱)

.

و الطریف أنّ کل الأدیان التی تتحدّث عن التوحید الیوم تستلهم دعوتها و أفکارها من تعلیمات إبراهیم علیه السّلام التوحیدیّه،و أنّ ثلاثه من أنبیاء اللّه العظام-و هم موسی علیه السّلام و عیسی علیه السّلام و محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم-من ذرّیته،و هذا دلیل علی صدق تنبؤ القرآن فی هذا الباب.

صحیح أنّ أنبیاء آخرین قبل إبراهیم علیه السّلام-کنوح علیه السّلام-قد حاربوا الشرک و الوثنیّه،و دعوا البشر إلی التوحید،إلّا أنّ الذی منح هذه الکلمه الاستقرار و الثبات،و رفع رایتها فی کلّ مکان،کان إبراهیم علیه السّلام محطّم الأصنام.فهو علیه السّلام لم یسع لاستمرار خطّ التوحید فی زمانه و حسب،بل إنّه طلب استمرار هذا الأمر من اللّه سبحانه فی أدعیته إذ قال: وَ اجْنُبْنِی وَ بَنِیَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ (۲) .

ثمّه تفسیر آخر،و هو:إنّ الضمیر فی(جعل)یعود إلی اللّه سبحانه،فیکون معنی الجمله:إنّ اللّه سبحانه قد جعل کلمه التوحید فی أسره إبراهیم.

غیر أنّ رجوع الضمیر إلی إبراهیم علیه السّلام-و هو التّفسیر الأوّل یبدو أنسب،لأنّ الجمل السابقه تتحدّث عن إبراهیم،و من المناسب أن یکون هذا الجزء من جمله أعمال إبراهیم،خاصّه و أنّه قد أکّد علی هذا المعنی فی آیات عدیده من القرآن الکریم،و إنّ إبراهیم کان مصرّا علی أن یبقی بنوه و عقبه علی دین اللّه،کما نقرأ فی الآیتین(۱۳۱)،(۱۳۲)من سوره البقره: إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِینَ* وَ وَصّی بِها إِبْراهِیمُ بَنِیهِ وَ یَعْقُوبُ یا بَنِیَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفی لَکُمُ الدِّینَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .

و التصوّر بأنّ(جعل)یعنی الخلق،و أنّه مختصّ باللّه سبحانه،تصوّر خاطئ، لأنّ(الجعل)یطلق علی أعمال البشر و غیرهم أیضا، و فی القرآن نماذج کثیره

۱- ۱) -«العقب»فی الأصل بمعنی کعب القدم،إلّا أن هذه الجمله استعملت فیما بعد فی الأولاد و أولاد الأولاد بصوره واسعه.

۲- ۲) -إبراهیم،الآیه ۳۵.

لـذلک،فمثلاـ عبّر القرآن عن إلقـاء یوسف فی البئر من قبـل إخوته،بالجعل: فَلَمّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ یَجْعَلُوهُ فِی غَیابَتِ الْجُبِّ (۱) اتّضـح ممّا قلناه أنّ ضـمیر المفعول فی(جعلها)یعود إلی کلمه التوحید و شـهاده (لا إله إلاّ اللّه)و یسـتفاد هذا من جمله: إِنَّنِی بَراءٌ مِمّا تَعْبُدُونَ التی تخبر عن مساعی إبراهیم من أجل استمرار خط التوحید فی الأجیال القادمه.

و ورد فی روایات عدیده من طرق أهل البیت علیهم السّلام اعتبار مرجع الضمیر إلی مسأله الإمامه،و ضمیر الفاعل یرجع إلی اللّه طبعا،أی إنّ اللّه سبحانه قد جعل مسأله الإمامه مستمرّه فی ذریّه إبراهیم علیه السّلام،کما یستفاد من الآیه(۱۲۴)من سوره البقره،إذ لمـا قـال اللّه سـبحانه لإـبراهیم: إِنِّی جاعِلُکَ لِلنّاسِ إِماماً طلب إبراهیم علیه السّلام أن یکون أبنـاؤه أئمّه أیضـا،فاسـتجاب اللّه دعاءه،إلاّ فی الذین ظلموا و تلوّثوا بالمعصـیه و الجور: قالَ إِنِّی جاعِلُکَ لِلنّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِی قالَ لا یَنالُ عَهْدِی الظّالِمِینَ .

إلاّ أنّ الإشکال الذی یتبادر لأوّل وهله هو أنّه لا کلام عن الإمامه فی الآیه مورد البحث،اللهمّ إلاّ أن تکون جمله(سیهدین)إشاره إلی هذا المعنی،لأنّ هدایه النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم،و الأئمّه علیهم السّلام شعاع من هدایه اللّه المطلقه،و حقیقه الهدایه و الإمامه واحده.

و الأفضـل من ذلـک أن یقـال:إنّ مسـأله الإمامه منـدرجه فی کلمه التوحیـد،لأنّ للتوحیـد فروعا أحـدها التوحیـد فی الحاکمیّه و الولایه و القیاده،و نحن نعلم أنّ الأئمّه یأخـذون ولایتهم و زعامتهم من اللّه سـبحانه،لا أنّهم مسـتقلّون بأنفسـهم، و بهـذا فإنّ هذه الرّوایات تعتبر من قبیل بیان مصـداق و فرع من المعنی العام ل جَعَلَها کَلِمَهً باقِیَهً و لهذا فإنّه لا منافاه مع التّفسـیر الذی ذکرناه فی البدایه.

۱- ۱) -یوسف،الآیه ۱۵.

(فتأمّل!) (۱) .

و الجدير بالملاحظه هنا:هو أنّ المفسّرين قد احتملوا عدّه احتمالات فی تفسير فِی عَقِبِهِ ففسّرها البعض بكلّ ذريّه إبراهيم و أسرته،و اعتبرها آخرون خاصّه بقوم إبراهيم و أمّته،و فسّرها جماعه بآل محمّد عليهم السّلام إلاّ أنّ الظاهر هو أنّ لها معنى واسعا يشمل كل ذريته إلى انتهاء الدنيا،و التّفسير بآل محمّد عليهم السّلام من قبيل بيان المصداق الواضح لها.

و الآيه التاليه جواب عن سؤال فی الحقيقه،و هو:فی مثل هذه الحال لم لا يعذّب اللّه مشركی مكّه؟أ لم نقرأ فی الآيات السابقه: فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ ؟ فتقول الآيه مجيبه: بَلْ مَتَّعْتُ هٰؤُلاٰءِ وَ آبٰاءَهُمْ حَتّٰى جٰاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ فنحن لم نكتف بحكم العقل ببطلان الشرك و الوثنيّه،و لا بحكم وجدانهم بالتوحيد بل أمهلناهم لإتمام الحجّه عليهم حتّى يقوم هذا الكتاب الذی لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه،و هذا النّبی العظيم محمّد صلی اللّه عليه و آله و سلّم بهدايتهم.

و بتعبير آخر،فإنّ جمله لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فی الآيه السابقه توحی بأنّ الهدف من مساعی إبراهيم عليه السّلام الحثيثه كان رجوع كلّ ذرّيته إلى خط التوحيد،فی حين أن العرب كانت تدعی أنّها من ذريه إبراهيم عليه السّلام و رغم ذلك لم ترجع، إلاّ أنّ اللّه سبحانه أمهلهم مع ذلك حتى يأتی النّبی العظيم بالكتاب الجديد ليوقظ هؤلاء من نومهم،و بالفعل فقد استيقظت جماعه عظيمه منهم.

إلاّ أنّ العجيب أنّه: وَ لَمّٰا جٰاءَهُمُ الْحَقُّ قٰالُوا هٰذٰا سِحْرٌ وَ إِنّٰا بِهِ كٰافِرُونَ ! نعم.لقد عدوّا القرآن المجيد سحرا،و النّبی الأكرم صلی اللّه عليه و آله و سلّم ساحرا،و إذا لم يرجعوا عمّا قالوا فإنّ عذاب اللّه سيحيط بهم و يأخذهم من حيث لا يشعرون.

***

---

۱ – ۱) -نقل صاحب نور الثقلين هذه الأحاديث فی المجلّد ۴،صفحه ۵۹۶-۵۹۷،و وردت أيضا فی تفسير البرهان،المجلد ۴، صفحه ۱۳۸-۱۳۹.

الآيتان [سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۳۱ الی ۳۲]

اشاره

وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هٰذَا اَلْقُرْآنُ عَلىٰ رَجُلٍ مِنَ اَلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (۳۱) أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي اَلْحَياةِ اَلدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمّا يَجْمَعُونَ (۳۲)

التّفسير

اشاره

لم لم ينزل القرآن على أحد الأغنياء؟

كان الكلام فى الآيات السابقه فى ذرائع المشركين فى مواجهه دعوه الأنبياء، فكانوا يتّهمونهم بالسحر تاره،و يتوسلون تاره أخرى بتقليد الآباء و ينبذون كلام اللّه وراء ظهورهم،و تشير الآيات-مورد البحث-إلى حجّه واهيه أخرى من حجج أولئك المشركين،فتقول: وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أى مكّه و الطائف.

لقد كانوا معذورين بتشبثهم بمثل هذه الذريعه من جهه،إذ كان المعيار فى

تقییمهم للبشر هو المال و الثروه و المقام الظاهری و الشهره.

إنّ صغار العقول هؤلاء کانوا یتصوّرون أنّ الأثریاء،و زعماء قبائلهم الظلمه هم أقرب الناس إلی اللّه سبحانه،و لذلک فإنّهم کانوا یتعجبون لماذا لم تنزل موهبه النبوّه و الرحمه الإلهیّه العظیمه هذه علی رجل من قبیل هؤلاء الأفراد و نزلت علی یتیم فقیر خالی الید اسمه محمّد!إن هذا لشیء عجاب لا یکاد یصدق! نعم،إنّ نظام القیم الخاطئ یستتبع مثل هذا الاستنباط،و هذا هو السبب فی بلاء المجتمعات البشریه العظیم،و العامل الأساس فی انحرافها الفکری،حیث تقلب الحقائق تماما فی بعض الأحیان.

إنّ حامل هذه الدعوه الإلهیّه یجب أن یکون إنسانا تغمر وجوده روح التقوی..

أن یکون إنسانا واعیا،ذا إراده و تصمیم،شجاعا عادلا،عارفا بآلام المحرومین و المظلومین،ذائقا لمرارتها...

هذه هی القیم التی یلزم توفّرها من أجل حمل هذه الرساله السماویّه، لا الألبسه الفاخره الجمیله،و القصور الفخمه الفارهه المزیّنه بأنواع الزینه و الزخارف،خاصّه و إن أیّا من أنبیاء اللّه لم یکن متمتعا بهذه الصفات و المزایا المادیه،لئلاّ تشتبه القیم الأصیله بالقیم المزیّفه.

و للمفسّرین أقوال فی مراد المشرکین من الرجل فی مکّه و الطائف؟إلاّ أنّ أغلبهم اعتبروا«الولید بن المغیره»رجل مکّه،و«عروه بن مسعود الثقفی»رجل الطائف،و إن کان البعض قد ذکر أن عتبه بن ربیعه من مکّه،و حبیب بن عمر الثقفی من الطائف.

إلاّ أنّ الظاهر أن قول أولئک المشرکین لم یکن یدور حول شخص معین،بل کان هدفهم الإشاره إلی أحد الأثریاء المعروفین،و له عشیره مشهوره.

و یردّ القرآن الکریم بأجوبه قاطعه علی هذا النمط من التفکیر المتسافل الخرافی،و یجسد النظره الإلهیّه الإسلامیّه تماما،فیقول أوّلا: أَ هُمْ یَقْسِمُونَ رَحْمَتَ

رَبِّکَ

فیمنحوا النبوّه من یشاءون،و ینزلوا علیه الکتاب السماوی،و إذا لم یعجبهم إنسان أهملوه؟ هؤلاء علی خطأ کبیر،فإنّ ربّک هو الذی یقسم رحمته،و هو یعلم-أفضل من سواه-من یستحق هذا المقام العظیم،و من هو أهل له،کما ورد ذلک فی الآیه (۱۲۴)من سوره الأنعام أیضا: اَللّٰهُ أَعْلَمُ حَیْثُ یَجْعَلُ رِسٰالَتَهُ .

فضلا عن ذلک،فإنّ وجود التفاوت و الاختلاف بین البشر من ناحیه مستوی المعیشه،لا یدلّ علی تفاوتهم فی المقامات و المنازل المعنویّه مطلقا،بل: نَحْنُ قَسَمْنٰا بَیْنَهُمْ مَعِیشَتَهُمْ فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا وَ رَفَعْنٰا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجٰاتٍ لِیَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِیًّا .

لقد نسی هؤلاء أنّ حیاه البشر حیاه جماعیّه،و لا یمکن أن تدار هذه الحیاه إلاّ عن طریق التعاون و الخدمه المتبادله،فإذا ما تساوی کلّ الناس فی مستوی معیشتهم و قابلیّاتهم و مکانتهم الاجتماعیه،فإنّ أصل التعاون و الخدمه المتبادله سیتزلزل.

بناء علی هذا فینبغی أن لا یخدعهم هذا التفاوت،و یظنّوا أنّه معیار القیم الإنسانیه،إذ: وَ رَحْمَتُ رَبِّکَ خَیْرٌ مِمّٰا یَجْمَعُونَ بل إن کل المقامات و الثروات لا تعدل جناح بعوضه فی مقابل رحمه اللّه و القرب منه.

إنّ التعبیر ب«ربّک»الذی تکرّر مرّتین فی هذه الآیه،إشاره لطیفه إلی لطف اللّه الخاص بنبی الإسلام الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم،و منحه مقام النبوّه و الخاتمیّه.

***

سؤالین مهمّین:

عند مطالعه الآیه أعلاه یتبادر إلی الذهن سؤالان یستخدمهما أعداء الإسلام کحربه للطعن فی الفلسفه الإسلامیّه:

الأوّل:كيف أقرّ القرآن استخدام الإنسان و تسخيره من قبل الإنسان؟ألا يماثل هذا نظام الطبقات الاقتصاديّه،أى نظام المستثمرين و المستثمرين؟ الثّانى:أنّ الأرزاق و المعايش إذا كانت مقسّمه من قبل اللّه تعالى،فأى ثمره يمكن أن تنتج عن جهودنا و مساعينا؟ألّا يعنى هذا إطفاء مشاعل السعى و مصابيح الجهاد من أجل الحياه؟ إنّ الإباحه على هذه الأسئله تتّضح بالتدقيق فى متن الآيه،لأنّ هؤلاء يتصورون أنّ معنى الآيه هو أنّ جماعه معيّنه من البشر تسخر جماعه أخرى لأنفسها تسخيرا ظالما يمتصّ الدماء و الجهود،فى حين أن الأمر ليس كذلك،بل هو استخدام الناس بعضهم بعضا،أى أنّ كل جماعه من الناس لهم إمكانيّات و استعدادات خاصّه يستطيعون العمل بواسطتها فى مجال ما من شؤون الحياه، و هم بطبيعه الحال يقدمون خدماتهم فى ذلك الحقل إلى الآخرين،كما أنّ خدمات الآخرين فى الحقول الأخرى تقدم إليهم.

و الخلاصه:هو استخدام متبادل،و خدمه ذات طرفين،و بتعبير آخر:فإنّ الهدف من التسخير هو التعاون فى أمر الحياه،و لا شىء آخر.

و لا يخفى أنّ البشر لو كانوا متساوين جميعا من ناحيه الذكاء و الاستعداد الروحى و الجسمى،فسوف لن تتهيّأ مستلزمات الحياه الاجتماعيّه،و النظم الحياتيّه مطلقا،كما أن خلايا جسم الإنسان لو كانت متشابهه من ناحيه البنيه و الرقه و المقاومه لا ختل نظام الجسم،فأين خلايا عظم كعب القدم القويّه جدّا من خلايا العين الرقيقه؟إن لكل من هاتين مهمّه خاصّه بنيت على أساسها.

و المثال الحى الذى يمكن أن يضرب لهذا الموضوع هو الخدمات المتبادله فى جهاز التنفّس،و دوران الدم،و التغذيه،و سائر أجهزه بدن الإنسان،التى هى مصداق واضح ل لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا فى إطار نشاطات البدن الداخليّه، فهل يمكن الإشكال على مثل هذا التسخير؟و هل فيه خلل أو نقص؟

ص:۴۵

فإن قيل:إنّ جمله: رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ دليل على عدم العداله الاجتماعيه.

قلنا:هذا يصحّ فى حاله تفسير العداله بالمساواه،فى حين أنّ العداله تعنى وضع كلّ شيء فى محلّه ضمن منظومته،فهل أنّ وجود سلسله المراجع و الرتب فى فرقه عسكريّه،أو تنظيم إدارى،أو فى الدوله،دليل على وجود الظلم فى تلك الأجهزه؟ من الممكن أن يستعمل بعض الناس كلمه«المساواه»فى مجال الشعارات من دون الالتفات إلى معناها الواقعى،أمّا فى الواقع العملى فلا يمكن أن يتمّ أو يقوم أى نظام بدون الاختلاف و التفاوت، غير أنّ هذا التفاوت يجب أن لا يكون ذريعه لأنّ يستغل الإنسان أخاه الإنسان أبدا،بل يجب أن يكون الجميع أحرارا فى استعمال قواهم الخلاقه،و تنميه نبوغهم و إبداعهم،و الاستفاده من نتائج نشاطاتهم بدون زياده أو نقصان،و أمّا فى حال عجزهم فيجب على القادرين أن يجدوا و يجتهدوا فى رفع النواقص و سد ما يحتاجونه.

و أمّا فيما يتعلق بالسؤال الثّانى،و هو:كيف يمكن المحافظه على شعله الجهاد و السعى و الاجتهاد و هاجه مع كون الرزق معينا؟فإنّ الاشتباه ناشئ من تصورهم أن اللّه سبحانه لم يجعل لسعى الإنسان و اجتهاده أى أثر أو دور.

صحيح أنّ اللّه سبحانه خلق القابليات متفاوته لمختلف النشاطات،و صحيح أنّ العوامل الخارجه عن إراده الإنسان مؤثّره فى مسير حياته،لكن مع ذلك فإنّه سبحانه قد جعل سعيه،و اجتهاده أيضا أحد العوامل الأساسيّه،و أوضح سبحانه ببيان أصل: أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاّ ما سَعى (1) ،أنّ سعاده الإنسان و ما يجنيه و يحصل عليه يرتبط بسعيه و اجتهاده.

و على أيّه حال،فإنّ النكته الغامضه و الدقيقه تكمن فى أنّ البشر ليسوا

1- 1) -النجم،الآيه 39.

کالأوانی المتساویه الصفات الی صنعت فی معمل واحد،فی شکل واحد،و علی وتیره واحده،و بحجم واحد،و لغایه واحده فی الاستعمال،و لو کانوا کذلک لما أمکنهم التعایش بعضهم مع البعض الآخر یوما واحدا.

و أیضا لیس الناس من قبیل أجهزه و أدوات سیاره نظمها مهندسها علی هیئه ما،فهی تقوم بعملها بصوره إجباریه،بل لدیهم حریه الإراده،و علیهم مسئولیه و واجب فی نفس الوقت الذی تختلف فیه قابلیاتهم و لیاقاتهم،و هذا هو المرکب الخاص الذی یسمونه الإنسان،و الاعتراضات و الإیرادات التی تطرح غالبا تنبع من عدم معرفه هذا الإنسان.

و خلاصه القول:إنّ اللّه سبحانه لم یفضل أی إنسان علی الآخرین من کل الجهات، بل إنّ جمله: رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ إشاره إلی الامتیازات التی تمتاز بها کل جماعه علی الجماعه الأخری،و تسخیر کل فئه لأخری و استخدامها لها نابع من هذه الامتیازات تماما،و هذا عین العداله و التدبیر و الحکمه (۱) .

***

۱- ۱) -کان لنا بحث مفصّل فی هذا الباب فی ذیل الآیه(۳۲)من سوره النساء،و بحث آخر فی ذیل الآیه(۱۶۵)من سوره الأنعام.

الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۳۳ الی ۳۵]

اشاره

وَ لَوْ لاٰ أَنْ یَکُونَ اَلنّٰاسُ أُمَّهً وٰاحِدَهً لَجَعَلْنٰا لِمَنْ یَکْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُیُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّهٍ وَ مَعٰارِجَ عَلَیْهٰا یَظْهَرُونَ (۳۳) وَ لِبُیُوتِهِمْ أَبْوٰاباً وَ سُرُراً عَلَیْهٰا یَتَّکِؤُنَ (۳۴) وَ زُخْرُفاً وَ إِنْ کُلُّ ذٰلِکَ لَمّٰا مَتٰاعُ اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا وَ اَلْآخِرَهُ عِنْدَ رَبِّکَ لِلْمُتَّقِینَ (۳۵)

التّفسیر

اشاره

قصور فخمه سقفها من فضه؟(قیم کاذبه)

تستمر هذه الآیات فی البحث حول«نظام القیم فی الإسلام»،و عدم اعتبار کون المال و الثروه و المناصب المادیه هی المعیار فی التقییم، فتقول الآیه الأولی:

وَ لَوْ لاٰ أَنْ یَکُونَ النّٰاسُ أُمَّهً وٰاحِدَهً لَجَعَلْنٰا لِمَنْ یَکْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُیُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّهٍ

(۱)

.

و لجعلنا لهم بیوتا لها عدّه طوابق و لها سلالم جمیله

ص: ۴۸

۱- ۱) -«لبیوتهم»بدل اشتمال ب(لمن یکفر بالرحمن)و تکرار(اللام)لهذا المعنی،أو بمعنی(علی)أی:علی بیوتهم،لکن الاحتمال الأول أصح.

وَ مَعٰارِجَ عَلَيْهٰا يَظْهَرُونَ

(۱)

.

و قال بعض المفسّرين:إنّ المراد أن السلالم مصنوعه من الفضه،و عدم تكرار كلمه الفضه لوضوح المراد.و كأنّهم لم يعتبروا وجود السّلام لوحدها دليلا على أهميه البيوت،و الأمر ليس كذلك،إذ أن وجود السلالم الكثيره دليل على عظمه النباء و تكونه من عدّه طوابق.

«السقف»جمع سقف،و يعتقد البعض أنها جمع سقيفه،أى المكان المسقف،إلاّ أنّ القول الأوّل أشهر.

ثمّ تضيف الآيه الأخرى: وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْوٰاباً وَ سُرُراً عَلَيْهٰا يَتَّكِؤُنَ .

و ربّما كانت هذه الجمله إشاره إلى الأبواب و الأسرّه الفضيه،لأنّ الآيه السابقه لما تحدثت عن السّقف الفضيه امتنع التكرار.و يمكن أيضا أن يكون وجود الأبواب و الأسرّه المتعدده-خاصّه و أن(أبوابا)و(سررا)نكره،و قد وردت هنا لبيان الأهميه-دليلا بنفسه على عظمه تلك القصور،لأنّهم يجعلون لبيت حقير عدّه أبواب أبدا،بل هى مختصه بالقصور و البيوت الفخمه،و كذلك الحال بالنسبه لوجود الأسرّه.

و لم تكتف الآيه بهذا،بل استطردت أنّه إضافه إلى كل ذلك فقد جعلنا لهم مباهج و انواع الزينه وَ زُخْرُفاً (۲) لتكمل الحياه الماديه و زخارفها و زبارجها من كل الجهات،القصور الفخمه المتعدده الطبقات الأبواب و الأسرّه المتعدده،و كل وسائل الزينه و النقوش و الرسوم و سائر الجواذب التى يتحقّق فيها مراد عبيد الدنيا و أمانيهم.

ثمّ تضيف الآيه: وَ إِنْ كُلُّ ذٰلِكَ لَمّٰا مَتٰاعُ الْحَيٰاهِ الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَهُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ .

۱- ۱) -«المعارج»جمع معراج،و هو الوسيله التى يستخدمها الإنسان للصعود إلى الطبقات العليا.

۲- ۲) -اعتبر البعض(زخرفا)عطفا على(سقفا)،و يعتقدون أنها إشاره إلى وسائل الزينه المستقله التى توضع تحت تصرف أمثال هؤلاء الأفراد.و البعض اعتبرها عطفا على(من فضه)و كانت فى الأصل(من زخرف)ثم نصبت بنزع الخافض،و على هذا يصبح معنى الجمله:إنا جعلنا بعض سقوف و أسره بيوت هؤلاء من ذهب و بعضها من فضه.(تأمل!).

«الزخرف»فى الأصل بمعنى كل زينه مقترنه بالرسم و التصوير،و لما كان الذهب أحد أهم وسائل الزينه،فقد قيل له:زخرف،و إنّما قيل للكلام الأجوف الذى لا فائده فيه:كلام مزخرف،لأنهم يحيطونه و يلبسونه المزوقات ليصبح مقبولا.

و خلاصه القول:إنّ هذه الأسس الماديه و وسائل الزينه الدنيويه، حقيره لا قيمه لها عند اللّه تعالى فلا ينبغى أن تكون إلّا من نصيب الأفراد الذين لا قيمه لهم كالكافرين و منكرى الحق،و لو لم يتأثر الناس من طلاب الدنيا و يميلوا إلى الكفر لجعل اللّه تعالى هذه الأمور من نصيب هذه الفئه فقط،ليعلم الجميع أن هذه الأمور ليست هى المعيار و المقياس لشخصيه الإنسان و قيمته و مقامه.

***

ملاحظتان

اشاره

۱-الإسلام يحطم القيم الخاطئه

حقّا لا يمكن العثور على تعبير أبلغ مما ورد فى الآيات أعلاه لتحطيم المقاييس و القيم الكاذبه و القضاء عليها،و تغيير بناء ذلك المجتمع الذى يدور محور تقييم شخصيه الأفراد فيه حول مقدار ما يملكون من الإبل،و مقدار الدراهم و الدنانير،و عدد الغلمان و الجوارى و البيوت و أدوات الزينه،حتى أنّهم يتعجبون لماذا اختير محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم للنبوه و هو اليتيم الفقير ماديا؟! إن أهم عمل لرساله السماء هو تحطيم أطر القيم الخاطئه هذه،و بناء القيم الإنسانيه الأصيله كالتقوى،و العلم،الإيثار و التضحيه،الشهامه و الحلم على أنقاضها،و إلّا فإنّ كل الإصلاحات ستكون فوقيه و سطحيه و غير ثابته.

و هذا هو الذى قام به الإسلام و القرآن و الرّسول الأعظم صلى اللّه عليه و آله و سلّم على أحسن

وجه،و لهذا فإنّ المجتمع الذی کان أکثر المجتمعات البشریه تخلفا و خرافه،قد تسلق سلّم الرشد و الرقی حتی أصبح فی المرتبه الأولی فی مدّه قصیره.

و الطریف أنّنا نقرأ

فی حدیث عن النّبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم،فی تکمله هذا البحث: «لو وزنت الدنیا عند اللّه جناح بعوضه ما سقی الکافر منها شربه ماء» (۱) .

و

یبلغ أمیر المؤمنین علی علیه السّلام الکلام فی هذا الباب غایته حیث یقول: «و لقد دخل موسی بن عمران و أخوه هارون علیهما السّلام علی فرعون و علیهما مدارع الصوف و بأیدیهما العصی،فشرطا له إن أسلم بقاء ملکه و دوام عزّه،فقال:ألا تعجبون من هذین یشرطان لی دوام العزّ و بقاء الملک و هما بما ترون من حال الفقر و الذل،فهلّا ألقی علیهما أساوره من ذهب،إعظاما للذهب و جمعه،و احتقارا للصوف و لبسه،و لو أراد اللّه سبحانه بأنبیائه حیث بعثهم أن یفتح لهم کنوز الذهبان،و معادن العقیان،و مغارس الجنان،و أن یحشر معهم طیور السماء و وحوش الأرض لفعل،و لو فعل لسقط البلاء،و بطل الجزاء».

و

یقول فی موضع آخر من هذه الخطبه: «ألا ترون ان اللّه سبحانه اختبر الأولین من لدن آدم صلوات اللّه علیه إلی الآخرین من هذا العالم بأحجار لا تضر و لا تنفع، و لا تبصر و لا تسمع،فجعلها بیته الحرام الذی جعله للناس قیاما.ثمّ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجرا،و أقل نتائق الأرض مدرا،و أضیق بطون الأودیه قطرا،بین جبال خشنه،و رمال دمثه،و عیون وشله،و قری منقطعه،لا یزکو بها خف،و لا حافر و لا ظلف.ثمّ أمر آدم و ولده أن یثنوا أعطافهم نحوه،فصار مثابه لمنتجع أسفارهم...».

«و لو أراد اللّه سبحانه أن یضع بیته الحرام و مشاعره العظام بین جنات و أنهار، و سهل و قرار،جم الأشجار،دانی الثمار،ملتف البنا،متصل القری،بین بره سمراء، و روضه خضراء،و أریاف محدقه،و عراص مغدقه،و طرق عامره،لکان قد صغر

۱- ۱) -تفسیر الکشّاف،المجلد ۴،صفحه ۲۵۰.

قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء» (۱) .

و عند ذلک کان الناس سینشغلون بالقیم الظاهریه الخداعه،و یغفلون عن القیم الإلهیّه الواقعیه.

علی أیه حال،فإنّ أساس الثوره الإسلامیه هو تغییر القیم،و إذا ما أصبح مسلمو الیوم یعانون من ظروف صعبه خانقه،و تحت ضغط الأعداء الجلادین القساه،فإنّ ذلک ناتج عن ترکهم لقیم الأصیله،و انتشار القیم و الأعراف الجاهلیه بینهم مرّه أخری،فأصبح المال و المنصب الدنیوی مقیاس التقییم،و نسوا العلم و الفضیله و التقوی،و غرقوا فی بحر المغریات و الزخارف المادیه،و أضحوا غرباء عن الإسلام،و ما دام الوضع کذلک فیجب أن یدفعوا کفاره هذا الذنب العظیم، و ما داموا لم یشرعوا بالتغییر ابتداء من القیم الحاکمه علی وجودهم،فسوف لن تشملهم رحمه اللّه و لطفه،و ذلک: إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یُغَیِّرُ مٰا بِقَوْمٍ حَتّٰی یُغَیِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ (۲) .

۲-جواب عن سؤال

بمطالعه الآیات المذکوره حول التحقیر الشدید للزینه الظاهریه،و الثروه و المقام المادی،یطرح هذا السؤال نفسه،و هو:إذا کان الحق کذلک،فلما ذا یقول القرآن فی موضع آخر: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِینَهَ اللّٰهِ الَّتِی أَخْرَجَ لِعِبٰادِهِ وَ الطَّیِّبٰاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِیَ لِلَّذِینَ آمَنُوا فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا خٰالِصَهً یَوْمَ الْقِیٰامَهِ کَذٰلِکَ نُفَصِّلُ الْآیٰاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ . (۳)

أو یقول فی موضع آخر: یٰا بَنِی آدَمَ خُذُوا زِینَتَکُمْ عِنْدَ کُلِّ مَسْجِدٍ (۴) ،فکیف

۱- ۱) -نهج البلاغه،الخطبه ۱۹۲.الخطبه القاصعه.

۲- ۲) -الرعد،الآیه ۱۱.

۳- ۳) -الأعراف،الآیه ۳۲.

۴- ۴) -الأعراف،الآیه ۳۱.

تتوافق هاتان الفئتان مع الآيات؟ ينبغی الالتفات فی الجواب إلی أن الهدف فی الآيات-مورد البحث-هو القضاء علی القيم الكاذبه الخاطئه،الهدف هو أن لا يعد الناس شخصيه الإنسان متقومه بثروته و زينته،و لا يغنی هذا أنّ الإمكانيات الماديه شیء سیّء،بل المهم أن تكون مجرّد أدوات و مظاهر للنظر،و ليس كهدف سام و غايه تبلغ.

ثمّ إنّ هذه الإمكانيات تكون ذات قيمه عند ما تكون فی حد المعقول و اللائق بالحال،و خاليه من كلّ أنواع الإسراف و التبذير،لا أن تبنی القصور من الذهب و الفضه،و تدّخر الثروات الطائله منهما.

و من هنا يتّضح أن وجود جماعه من الكفّار و الظالمين بهذه القدره الماديه ليس دليلا علی رفعه شخصيتهم،و لا أن حرمان المؤمنين منها،أو من التمتع بها فی حد المعقول كأدوات للزينه،يضر بإيمانهم و تقواهم،و هذا هو التفكير الإسلامی و القرآنی الصحيح.

***

ص :53

الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۳۶ الی ۴۰]

اشاره

وَ مَنْ یَعْشُ عَنْ ذِکْرِ اَلرَّحْمٰنِ نُقَیِّضْ لَهُ شَیْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ (۳۶) وَ إِنَّهُمْ لَیَصُدُّونَهُمْ عَنِ اَلسَّبِیلِ وَ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (۳۷) حَتّٰی إِذٰا جٰاءَنٰا قٰالَ یٰا لَیْتَ بَیْنِی وَ بَیْنَکَ بُعْدَ اَلْمَشْرِقَیْنِ فَبِئْسَ اَلْقَرِینُ (۳۸) وَ لَنْ یَنْفَعَکُمُ اَلْیَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّکُمْ فِی اَلْعَذٰابِ مُشْتَرِکُونَ (۳۹) أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ اَلصُّمَّ أَوْ تَهْدِی اَلْعُمْیَ وَ مَنْ کٰانَ فِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ (۴۰)

التّفسير

اشاره

أقران الشياطين!

لما كان الكلام فی الآيات السابقه عن عبده الدنيا الذين يقيّمون كل شیء على أساس المعايير الماديه،فإنّ الآيات-مورد البحث- تتحدث عن أحد الآثار المميته الناشئه عن الارتباط بالدنيا و التعلق بها،ألا و هو الابتعاد عن اللّه سبحانه.

تقول الآيه الأولى: وَ مَنْ یَعْشُ عَنْ ذِکْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَیِّضْ لَهُ شَیْطاناً فَهُوَ لَهُ

قَرِينٌ

(۱)

(۲)

.

نعم،إنّ الغفله عن ذكر اللّه،و الغرق فى لذات الدنيا،و الانهيار بزخارفها و مغرياتها يؤدى إلى تسلط شيطان على الإنسان يكون قرينه دائما،و يلقى لجاما حول رقبته يشدّه به،و يجرّه إليه ليذهب به حيث يشاء! من البديهى أنّه لا مجال لأن يتصور أحد معنى الجبر فى هذه الآيه لأنّ هذه نتيجه الأعمال التى قام بها هؤلاء أنفسهم،و قد قلنا مرارا:إنّ أولى نتائج أعمال الإنسان-و خاصه الانغماس فى ملاذ الدنيا،و التلوث بأنواع المعاصى- هو تكوّن حجاب على القلب و السمع و البصر يبعده عن اللّه سبحانه،و يسلط الشياطين عليه، و قد يستمرّ هذا الحال بالنسبه إليه حتى يغلق بوجهه باب الرجوع،لأنّ الشياطين و الأفكار الشيطانيه تكون حينئذ قد أحاطت به من كل جانب،و هذه نتيجه عمل الإنسان نفسه،و إن كانت نسبتها إلى اللّه سبحانه بلحاظ كونه سبب الأسباب صحيحه أيضا،و هذا هو نفس الشىء الذى عبّر عنه فى آيات القرآن الأخرى بعنوان تزيين الشياطين فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ (۳) ،أو بعنوان ولايه الشيطان فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ . (۴)

و ممّا يستحق الانتباه أن جمله نُقَيِّضْ و بالالتفات إلى معناها اللغوى،تدل على استيلاء الشياطين،كما تدل على كونهم أقرانا،و فى الوقت نفسه فقد جاءت جمله: فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ بعدها لتؤكّد هذا المعنى،و هو أنّ الشياطين لا يفارقون مثل هؤلاء الأفراد،و لا يبتعدون عنهم مطلقا!

---

۱ - ۱) -«يعش»من ماده العشو،فإن عديت ب(إلى):(عشوت إليه)فهى تعنى الهدايه بواسطه شىء ما بعين ضعيفه،و إن عديت ب(عن):(عشا عنه)،و أعطت معنى الإعراض عن الشىء،و هو المراد فى الآيه المذكوره.لسان العرب(عشو).

۲- ۲) -«نقيّض»من ماده قيض،و هى فى الأصل بمعنى الغشاء الذى يغطى البيضه،ثمّ جاءت بمعنى جعل شىء مستوليا على شىء آخر.

۳- ۳) -النحل،الآيه ۶۳.

۴- ۴) -النحل،الآيه ۶۳.

و التعبير ب«الرحمن»إشاره لطيفه إلى أنّه كيف يعرض هؤلاء عن اللّه الذى عمّت رحمته العامّه الجميع و شملتهم،و يغفلون عن ذكره؟فهل يستحق أمثال هؤلاء غير هذا المصير و يكونون أقرانا للشياطين،يتبعون أوامرهم،و ينفذون ما يملون عليهم؟ و احتمل بعض المفسّرين أن يكون للشياطين هنا معنى واسع بحيث يشمل حتى شياطين الإنس،و اعتبروا الكلمه إشاره إلى رؤوس الضلاله و زعمائها الذين يتسلطون على الغافلين عن ذكر اللّه سبحانه فيكونون أقرانا لهم،و هذا التوسع فى المعنى ليس ببعيد.

ثمّ أشارت الآيه التاليه إلى أمر مهم كانت الشياطين تقوم به فى شأن هؤلاء الغافلين، فقالت: وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ (١) .

فكلما صمّموا على التوبه و الرجوع إلى طريق الصواب و الرشاد كانت الشياطين تلقى فى طريقهم الأحجار و العقبات،و تنصب الموانع فى طريق عودتهم حتى لا يعودوا إلى الصراط المستقيم أبدا.و تزين الشياطين طريق الضلال لهم إلى الحد الذى يظنون: وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ كما نقرأ ذلك فى الآيه(٣٨)من سوره العنكبوت حول عاد و ثمود: وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كٰانُوا مُسْتَبْصِرِينَ .

و هكذا تستمر هذه الحاله على هذا المنوال،فيبقى الإنسان الغافل الجاهل على ضلاله،و تستمر الشياطين فى إضلاله،حتى ترفع الحجب،و تنفتح عين رؤيته على الحقيقه: حَتّٰى إِذٰا جٰاءَنٰا قٰالَ يٰا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ .

إنّ كل أنواع العذاب من جهه،و مجالسه قرين السوء هذا من جهه اخرى و النظر إلى وجهه المشؤوم يجسد أمام عينيه كل ذكريات ضياعه و تعاسته،فويل له إذ

ص:٥۶

١- ١) -ضمير الجمع فى«أنّهم»و الجمله التاليه يعود إلى الشياطين،و مع أنه قد جاء بصيغه المفرد من قبل،إلاّ أنّه كان بمعنى الجمع.

أصبح قرين من كان يزين له كل القبائح و يسلكه طريق الضلال على أنّه سبيل الخير و الفلاح،و طريق الانحراف على أنّه طريق الهدى و الصلاح،و ويل له إذا أصبح مقيّدا معه بنفس الأصفاد فى نفس السجن! نعم،إن عرصه القيامه تجسيد واسع لمشاهد هذه الدنيا،و القرين و الرفيق و القائد و الدليل هنا و هناك واحد،بل إنّهما-برأى بعض المفسّرين- يقرنان بسلسله واحده! من المعلوم أنّ المراد من المشرقين:المشرق و المغرب،لأنّ العرب عند ما يريدون أن يثنوا جنسين مختلفين بلفظ واحد،فإنّهم يختارون أحد اللفظين،كما يقولون:الشمسان،إشاره إلى الشمس و القمر،و الظهران،إشاره إلى صلاتى الظهر و العصر،و العشاء ان،إشاره إلى صلاتى المغرب و العشاء.

و قد ذكروا تفاسير أخرى لا تبدو مناسبه للآيه من أى وجه،كقولهم:إنّ المراد هو مشرق بدايه الشتاء،و مشرق بدايه الصيف،و إن كان هذا التّفسير مناسبا فى موارد أخرى.

و على أيه حال،فإنّ هذا التعبير كنايه عن أبعد مسافه يمكن تصورها،حيث يضرب المثل ببعد المشرق عن المغرب فى هذا الباب.

إلاّ أن هذا الأمل لا يتحقق مطلقا،و لا يمكن أن يقع الإفتراق أو البون بين هؤلاء و بين الشياطين، و لذلك فإنّ الآيه التاليه تضيف: وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذٰابِ مُشْتَرِكُونَ فيجب أن تذوقوا عذاب قرين السوء هذا مع أنواع العذاب الأخرى إلى الأبد (١) .

و بهذا فإنّ القرآن الكريم يبدل أمل هؤلاء فى الإفتراق عن الشياطين إلى يأس دائم،و كم هو مضن تحمل هذا الجوار؟

١- ١) -على هذا فإن فاعل«ينفع»هو القول السابق حيث كانوا يأملون أن يكون البعد بينهم و بين الشياطين كما بين المشرق و المغرب،و جمله(إذ ظلمتم)بيان لعله عدم النفع،و جمله أَنَّكُمْ فِي الْعَذٰابِ مُشْتَرِكُونَ نتيجه هذا الظلم و الجور.

و هناک احتمالات اخری فی تفسیر هذه الآیه،منها أن الإنسان قد یشعر بخفه آلامه عند رؤیه متألمین آخرین،لأنّ المعروف(أن البلیه إذا عمّت طابت)غیر أنّه یقال لهؤلاء:لا یوجد هناک مثل تسلیه الخاطر هذه،بل ستغوصون فی العذاب، و عذاب الشیاطین المشترکین معهم لا یبعث علی تسلیه الخاطر (۱) .

و احتملوا أیضا أن المصیبه عند ما تقع،تخف وطأتها عند ما یجد الإنسان ثقلها موزعا بینه و بین أصدقائه،و لکن هذه المسأله لا توجد هناک أیضا،لأنّ لکل فرد سهما وافرا من العذاب،من دون أن ینقص من عذاب الآخرین شیء! لکن بملاحظه أن هذه الآیه تکمله للآیه السابقه،فإنّ التّفسیر الأوّل الذی اخترناه هو الأنسب.

و یترک القرآن هنا هذه الفئه و شأنها،و یوجه الخطاب إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و یتحدث عن الغافلین عمی القلوب الذی کذبوا ارتباطه باللّه،و هم من جنس من تقدم الکلام عنهم فی الآیات السابقه،فیقول: أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِی الْعُمْیَ وَ مَنْ کانَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ .

و قد ورد نظیر هذا المعنی فی آیات أخری من القرآن الکریم، حیث شبه المعاندین الذین لا أمل فی هدایتهم،و الغارقین فی الذنوب بالعمی و الصم،بل و بالأموات أحیانا.

فقد جاء فی الآیه(۴۲)من سوره یونس: أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ کانُوا لا یَعْقِلُونَ .

و جاء فی الآیه(۸۰)من سوره النمل: إِنَّکَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتی وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِینَ .و آیات أخری.

إن کل هذه التعابیر توضح أن القرآن یقول بنوعین من السمع و البصر و الحیاه للإنسان:السمع و البصر و الحیاه الظاهریّه،و السمع و البصر و الحیاه الباطنیه،

۱- ۱) بناء علی هذا التّفسیر،فإنّ جمله أَنَّکُمْ فِی الْعَذابِ مُشْتَرِکُونَ ستکون فاعل(ینفع)لا نتیجته.

و المهم هو القسم الثّانی من الإدراک و النظر و الحیاه،فإنّها إذا تعطلت فلا ینفع حینئذ موعظه و إرشاد،و لا إنذار و تحذیر! و مما یستحق الانتباه أنّ الآیات السابقه قد شبهت هذه الفئه بالأفراد العمش العیون،و المحدودی البصر،و تشبههم الآیه الأخیره هنا بالصم و العمی،و ذلک لأنّ الإنسان إذا اشتغل بالدنیا فحاله کمن یشکو ألما بسیطا فی عینه،فکلما زاد تعلقه بالدنیا و اشتغاله بها،و مال إلی المادیات أکثر،و أهمل المسائل الروحیه و المعنویه، فسیضعف بصره نتیجه ذلک الألم فی عینه،حتی یصل بعدها إلی مرحله العمی، و هذا هو الشیء الذی أثبتته الأدلّه القطعیه فی مجال التشدید علی المعنویات السلبیه و الإیجابیه فی الإنسان،و رسوخ الملکات فیه نتیجه تکرار العمل و الإصرار علیه،و قد راعی القرآن الکریم هذا التسلسل أیضا (1) .

۱- ۱) التّفسیر الکبیر للفخر الرازی،المجلد ۲۷،صفحه ۲۱۴-۲۱۵.

الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۴۱ الی ۴۵]

اشاره

فَإِمّٰا نَذْهَبَنَّ بِکَ فَإِنّٰا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (۴۱) أَوْ نُرِیَنَّکَ اَلَّذِی وَعَدْنٰاهُمْ فَإِنّٰا عَلَیْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (۴۲) فَاسْتَمْسِکْ بِالَّذِی أُوحِیَ إِلَیْکَ إِنَّکَ عَلیٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِیمٍ (۴۳) وَ إِنَّهُ لَذِکْرٌ لَکَ وَ لِقَوْمِکَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ (۴۴) وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رُسُلِنٰا أَ جَعَلْنٰا مِنْ دُونِ اَلرَّحْمٰنِ آلِهَةً یُعْبَدُونَ (۴۵)

التّفسیر

اشاره

استمسک بالذی اوحی إلیک:

متابعه للآیات السابقه التی کانت تتحدث عن الکفّار المعاندین الظالمین الذین لا أمل فی هدایتهم، تخاطب هذه الآیات نبیّ الإسلام الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم مهدّده الکفار أشدّ تهدید من جانب،و مسلیّه خاطر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم،فتقول: فَإِمّٰا نَذْهَبَنَّ بِکَ فَإِنّٰا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ .

و سواء کان المراد من الذهاب بالنّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم من بین أولئک القوم وفاته أم هجرته من مکّه إلی المدینه،فإنّه إشاره إلی أنّک حتی و إن لم تکن شاهدا و ناظرا لأمرهم،

ص :۶۰

فإنّا سنعاقبهم أشدّ عقاب إن استمروا فی طریق ضلالتهم و غیهم،لأنّ«الانتقام»فی الأصل یعنی الجزاء و العقوبه،و إن کان المستفاد من آیات قرآنیه عدیده أخری- نزلت فی هذا المعنی-إن المراد من الذهاب بالنّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم وفاته،کما جاء فی الآیه (۴۶)من سوره یونس: وَ إِمّا نُرِیَنَّکَ بَعْضَ الَّذِی نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّیَنَّکَ فَإِلَیْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِیدٌ عَلی ما یَفْعَلُونَ .

و جاء هذا المعنی أیضا فی سوره الرعد-الآیه ۴۰،و سوره غافر-الآیه ۷۷، و علی هذا فإنّ تفسیر الآیه بالهجره لا یبدو مناسبا.

ثمّ تضیف الآیه: أَوْ نُرِیَنَّکَ الَّذِی وَعَدْناهُمْ فَإِنّا عَلَیْهِمْ مُقْتَدِرُونَ فهم فی قبضتنا علی أیه حال،سواء کانت بینهم أم لم تکن،و العقاب و الانتقام الإلهی حتمی فی حقّهم إذا ما استمروا فی أعمالهم، سواء کان ذلک فی حیاتک أم بعد مماتک،فقد یتقدم أو یتأخر،إلاّ أنّه لا بدّ من وقوعه.

إنّ هذه التأکیدات القرآنیه قد تکون إشاره إلی قلّه صبر الکفّار الذی کانوا یقولون:«إن کنت محقا و صادقا فیما تقول،فلما ذا لا ینزل علینا العذاب»؟هذا من جهه.و من جهه أخری کانوا فی انتظار موت النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم ظنّا منهم أن النّبی إن أغمض عینه و غاب شخصه فسینتهی کل شیء! بعد هذه التحذیرات تأمر الآیه النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أن: فَاسْتَمْسِکْ بِالَّذِی أُوحِیَ إِلَیْکَ إِنَّکَ عَلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ فلیس فی دینک و کتابک أدنی اعوجاج أو زیغ،و عدم قبول جماعه من هؤلاء به لا یدل علی عدم حقانیتک،فاستمر فی طریقک بکل ما أوتیت من قوّه،و الباقی علینا.

ثمّ تضیف الآیه الأخری: وَ إِنَّهُ لَذِکْرٌ لَکَ وَ لِقَوْمِکَ فإنّ الهدف من نزوله إیقاظ البشر،و تعریفهم بتکالیفهم: وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ .

و بناء علی هذا التّفسیر فإنّ الذکر فی هذه الآیه یعنی ذکر اللّه سبحانه،و معرفه الواجبات الدینیّه،و الاطلاع علی تکالیف البشر،کما ورد هذا المعنی فی الآیتین

۵ و ۳۶ من هذه السوره،و ككثير من آيات القرآن الأخرى.

و من المعروف أنّ الـذكر أحـد أسـماء القرآن الكريم،و الـذكر بمعنى ذكر اللّه سـبحانه،و نقرأ هـذه الجمله عدّه مرات فى سوره القمر: وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ الآيات ۱۷-۲۲-۳۲-۴۰.

إضافه إلى أن جمله: وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ تشهد بأنّ المراد هو السؤال عن العمل بهذا البرنامج الإلهى.

لكن-مع كل ذلك-فالعجيب أنّ كثيرا من المفسّـرين اختاروا تفسـيرا آخر لهذه الآيه لا يتناسب مع ما قلناه،فمن جمله ما قالوا:إنّ معنى الآـيه هو:إنّ هـذا القرآن هو أساس الشـرف و العزه،أو الـذكر الحسن و السـمعه الطيبه لك و لقومك،و هو يمنـح العرب و قريشا أو أمتك الشرف،لأنّه نزل بلغتهم،و سيسألون قريبا عن هذه النعمه (۱) .

صحيح أن القرآن رفع نداء نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و العرب،بل و كل المسلمين عاليا فى أرجاء العالم،و أن اسم النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم يـذكر بإعظـام بكره و عشـيا على المـآذن منـذ أكثر من أربعه عشـر قرنـا،و أن عرب الجـاهليه الخاملى الذكر قد عرفوا فى ظل اسمه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و علا صوت الأمّه الإسلاميه فى ربوع العالم بفضله.

و صـحيح أن الـذكر قـد ورد بهذا المعنى فى القرآن المجيد أحيانا،إلّا أنّ ممّا لا شك فيه أنّ المعنى الأوّل أكثر ورودا فى آيات القرآن،و أكثر ملاءمه مع هدف نزول القرآن و الآيات مورد البحث.

و اعتبر بعض المفسّـرين الآـيه(۱۰)من سوره الأنبيـاء شاهـدا على التّفسـير الثـانى،و هى: لَقَـدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۲) . فى حين أن الآيه

ص: ۶۲

---

۱ - ۱) مجمع البيـان،التّفسـير الكـبير للفخر الرازى،تفسـير القرطـبى،تفسـير المراغى،و تفسـير أبى الفتوح الرازى،ذيـل الآـيه مورد البحث.

۲- ۲) -تفسير القرطبى،ذيل الآيه مورد البحث.

تناسب التّفسير الأوّل أيضا،كما فصلنا ذلک فی التّفسير الأمثل،فی ذيل هذه الآيه (١) .

و قد وردت روايات فی هذه الآيه فی المصادر الحديثيه،و ستأتی فيما بعد إن شاء اللّه تعالی.

ثمّ تطرّقت الآيه الأخيره إلی نفی عباده الأصنام و إبطال عقائد المشركين بدليل آخر،فقالت: وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَهً يُعْبَدُونَ ؟ إشاره إلی أنّ كل أنبياء اللّه قد دعوا إلی التوحيد،و وقفوا جميعا ضد الوثنيه بحزم،و علی هذا فإنّ نبیّ الإسلام صلی اللّه عليه و آله و سلّم فی مخالفته الأصنام لم يقم بعمل لم يسبقه به أحد،بل أحيا بفعله سنه الأنبياء الأبديه،و إنّما كان عبده الأصنام و المشركون هم الذين يسيرون علی خلاف مذهب الأنبياء.

و طبقا لهذا التّفسير فإنّ السائل و إن كان نبیّ الإسلام صلی اللّه عليه و آله و سلّم،إلّا أنّ المراد كل الأمّه،بل و حتی مخالفيه.

و المسؤولون هم أتباع الأنبياء السابقين،أتباعهم المخلصون،بل و مطلق أتباعهم،إذ يحصل الخبر المتواتر من مجموع كلامهم،و هو يبيّن دين الأنبياء التوحيدی.

و ينبغی التذكير بأنّه حتی المنحرفين عن أصل التوحيد-كالمسيحيين الذين يؤمنون بالتثليث اليوم-يتحدثون عن التوحيد أيضا،و يقولون:إنّ تثليثنا لا ينافی التوحيد الذی هو دين جميع الأنبياء!و بهذا فإنّ الرجوع إلی هذه الأمم كاف فی إبطال دعوی المشركين.

ص: ۶۳

١- ١) الأمر الآخر الذی يمكن أن يكون دليلا علی التّفسير المشهور،هی كلمه(القوم)التی وردت فی الآيه المذكوره،لأنّ القرآن منهاج لتذكير كل البشر،لا قوم النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم و حسب،أو خصوص أمه الإسلام. إلّا أن هذا الكلام يمكن الإجابه عليه بأن هؤلاء القوم قد استفادوا من تذكير القرآن قبل الآخرين،و لذلک كان التأكيد عليهم.

إلاّ أنّ بعض المفسّرين احتملوا احتمالا آخر فی تفسیر هذه الآیه مستوحی من بعض الروایات (۱) ،و هو أن السائل هو النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم نفسه و أن المسؤولین هم الأنبیاء السابقون.ثمّ أضافوا:إنّ هذا الأمر قد تمّ فی لیله المعراج،لأنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قد التقی بأرواح الأنبیاء الماضین،و من أجل تأکید أمر التوحید طرح هذا السؤال و سمع الجواب.

و أضاف البعض:إنّ مثل هذا اللقاء کان ممکنا بالنسبه إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم حتی فی غیر لیله المعراج،لأنّ المسافات الزمانیه و المکانیه لیست مانعا و لا عائقا فی مسأله اتصال النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بأرواح الأنبیاء،و کان بإمکان ذلک العظیم أن یتصل بهم فی أیه لحظه،و فی أی مکان طبعا،لیس علی هذه التفاسیر أی إشکال عقلی،لکن لما کان الهدف من الآیه نفی مذهب المشرکین،لاطمأنه النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم-إذ أنه صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان مستغرقا فی مسأله التوحید،و مشمئزا من الشرک إلی الحدّ الذی لا یحتاج معه إلی سؤال،و لم یکن التقاء النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم الروحی بأرواح الأنبیاء الماضین استدلالا مقنعا أمام المشرکین-اذن فالتّفسیر الأوّل یبدوا أکثر ملاءمه،و التّفسیر الثّانی قد یکون إشاره إلی باطن الآیه لا ظاهرها،لأنّ لآیات القرآن ظهرا و بطنا.

و هناک أمر یستحق الانتباه، و هو أنّ اسم(الرحمن)قد اختیر فی هذه الآیه من بین أسماء اللّه سبحانه،و هو إشاره إلی أنّه کیف یمکن أن یترک هؤلاء اللّه الذی وسعت رحمته العامّه کل شیء،و یتوجهون إلی أصنام لا تضر و لا تنفع؟!

ص :۶۴

۱- ۱) رویت هذه الروایه عن ابن عباس فی تفسیر القرطبی و تفسیر الفخر الرازی و مجمع البیان،و رویت فی تفسیر نور الثقلین روایتان مفصلتان فی هذا الباب عن کتاب الإحتجاج و تفسیر علی بن إبراهیم.یراجع المجلد ۴،ص ۶۰۵-۶۰۷.

ملاحظه

اشاره

من هم قوم النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم؟

توجد ثلاثه احتمالات فی المراد من«القوم»فی آیه: وَ إِنَّهُ لَذِکْرٌ لَکَ وَ لِقَوْمِکَ .

الأوّل:أنّهم کل الأمّه الإسلامیه.

و الثّانی:أنّهم العرب.

و الثّالث:أنّهم قبیله قریش.

و لما کان القوم فی منطق القرآن الکریم قد أطلقت فی موارد کثیره علی أمم الأنبیاء،أو الأقوام المعاصرین لهم،فالظاهر أنّه هو المعنی المراد فی الآیه أیضا.

و بناء علی هذا،فإنّ القرآن أساس الذکر و الوعی و الیقظه لکل الأمه الإسلامیه حسب التّفسیر الأوّل،و أساس الافتخار و الشرف لهم جمیعا حسب التّفسیر الثّانی.

إلاّ أننا نطالع فی الروایات العدیده الوارده عن طرق أهل البیت علیهم السّلام أنّ المراد من القوم فی الآیه هم أهل بیت النّبی و عترته (۱) .

لکن لا یبعد أن تکون هذه الروایات من قبیل بیان المصادیق الواضحه،سواء کان معنی القوم کل الأمه الإسلامیه،أو أمه العرب،أو أهل بیت نبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم، ففی کل الأحوال یعتبر أئمّه أهل البیت علیهم السّلام من أوضح مصادیقها.

۱- ۱) جمع هذه الأحادیث مؤلف تفسیر نور الثقلین،فی المجلد ۴،صفحه ۶۴-۶۵.

الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۴۶ الی ۵۰]

اشاره

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسیٰ بِآیاتِنا إِلیٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ فَقالَ إِنِّی رَسُولُ رَبِّ اَلْعالَمِینَ (۴۶) فَلَمّا جاءَهُمْ بِآیاتِنا إِذا هُمْ مِنْها یَضْحَکُونَ (۴۷) وَ ما نُرِیهِمْ مِنْ آیَهٍ إِلاّ هِیَ أَکْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۴۸) وَ قالُوا یا أَیُّهَا اَلسّاحِرُ اُدْعُ لَنا رَبَّکَ بِما عَهِدَ عِنْدَکَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (۴۹) فَلَمّا کَشَفْنا عَنْهُمُ اَلْعَذابَ إِذا هُمْ یَنْکُثُونَ (۵۰)

التّفسیر

اشاره

الفراعنه المغرورون و نقض العهد:

فی هذه الآیات إشاره إلی جانب ممّا جری بین نبیّ اللّه موسی بن عمران علیه السّلام و بین فرعون،لیکون جوابا لمقاله المشرکین الواهیه بأن اللّه إن کان یرید أن یرسل رسولا،فلما ذا لم یختر رجلا من أثریاء مکّه و الطائف لهذه المهمّه العظمی؟ و ذلک لأنّ فرعون کان قد أشکل علی موسی نفس هذا الإشکال،و کان منطقه عین هذا المنطق،إذ جعل موسی فی معرض التقریع و التوبیخ و السخریه للباسه

ص: ۶۶

الصوفی،و عدم امتلاکه لأدوات الزینه،فقالت الآیه الأولی: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنٰا مُوسیٰ بِآیٰاتِنٰا إِلیٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ فَقٰالَ إِنِّی رَسُولُ رَبِّ الْعٰالَمِینَ .

المراد من«الآیات»:المعجزات التی کانت لدی موسی،و التی کانت یثبت حقانیته بواسطتها،و کان أهمها العصا و الید البیضاء.

«الملاء»-کما قلنا سابقا-من ماده الملأ،أی القوم أو الجماعه الذین یتبعون هدفا واحدا،و ظاهرهم یملأ العیون لکثرتهم،و قرآنیا فإنّ هذه الکلمه تعنی الأشراف و الأثریاء أو رجال البلاط عاده.

و التأکید علی صفه: رَبِّ الْعٰالَمِینَ هو فی الحقیقه من قبیل بیان مدعی مقترن بالدلیل، لأنّ ربّ العالمین و مالکهم و معلمهم هو الوحید الذی یستحق العبودیّه لا المخلوقات الضعیفه المحتاجه کالفراعنه و الأصنام! و لنر الآن ماذا کان تعامل فرعون و آل فرعون مع الأدله المنطقیه و المعجزات البینه لموسی علیه السّلام؟ یقول القرآن الکریم فی الآیه التالیه: فَلَمّٰا جٰاءَهُمْ بِآیٰاتِنٰا إِذٰا هُمْ مِنْهٰا یَضْحَکُونَ و هذا الموقف هو الموقف الأوّل لکل الطواغیت و الجهال المستکبرین أما القاده الحقیقیین،إذ لا یأخذون دعوتهم و أدلتهم بجدیه لیبحثوا فیها و یصلوا إلی الحقیقه،ثمّ یجیبونهم بسخریه و استهزاء لیفهموا الآخرین أن دعوه هؤلاء لا تستحق البحث و التحقیق و الإجابه أصلا،و لیست أهلا للتلقی الجاد.

إلاّ أننا أرسلنا بآیاتنا الواحده تلو الأخری لإتمام الحجه: وَ مٰا نُرِیهِمْ مِنْ آیَهٍ إِلاّٰ هِیَ أَکْبَرُ مِنْ أُخْتِهٰا (۱) .

و الخلاصه:أنّنا أریناهم آیاتنا کل واحده أعظم من أختها و أبلغ و أشد،لئلا یبقی لهم أی عذر و حجّه،و لینزلوا عن دابه الغرور و العجب و الأنانیه،و قد أریناهم بعد معجزتی العصا و الید البیضاء معاجز الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع

۱- ۱) التعبیر ب«الأخت»فی لغه العرب یعنی ما یوازی الشیء فی الجنس و المرتبه کالأختین.

و غيرها (۱) ثمّ تضيف الآيه: وَ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فمرّه أتاهم الجفاف و القحط و نقص الثمرات كما جاء فی الآيه(۱۳۰)من سوره الأعراف: وَ لَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ .

و كان العذاب أحيانا بتبدل لون ماء النيل إلی لون الدم،فلم يعد صالحا للشرب، و لا للزراعه،و أحيانا كانت الآفات النباتيه تقضی علی مزارعهم.

إنّ هذه الحوادث المرّه الأليمه و إن كانت تنبه هؤلاء بصوره مؤقته،فيلجئون إلی موسی،غير أنّهم بمجرّد أن تهدأ العاصفه ينسون كل شیء،و يجعلون موسی غرضا لسهام أنواع التهم،كما نقرأ ذلک فی الآيه التاليه: وَ قَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّکَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَکَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ .

أی تعبير عجيب هذا؟!فهم من جانب يسمونه ساحرا،و من جانب آخر يلجؤون إليه لرفع البلاء عنهم،و من جانب ثالث يعدونه بتقبل الهدايه! إن عدم الانسجام بين هذه الأمور الثلاثه فی الظاهر أصبح سببا فی اختلاف التفاسير:

فذهب البعض:إنّ الساحر هنا يعنی العالم،لأنّهم كانوا يعظمون السحره فی ذلک الزمان،و خاصّه فی مصر،و كانوا ينظرون إليهم نظرتهم إلی العلماء.

و احتمل البعض أن يكون السحر هنا بمعنی القيام بأمر مهم، كما نقول فی محادثاتنا اليوميه:إنّ فلانا ماهر فی عمله جدّا حتی كأنه يقوم بأعمال سحريه! و قالوا تاره:إنّ المراد أنّه ساحر بنظر جماعه من الناس.

و أمثال هذه التفاسير.

إلاّ أنّ العارفين بطريقه تفكير و تحدث الجاهلين المعجبين بأنفسهم و المستكبرين المغرورين و الطواغيت يعلمون أنّ لهؤلاء الكثير من هذه التعابير

۱- ۱) -جاء تفصيل المعجزات التسع لموسی بن عمران عليه السّلام فی ذيل الآيه(۱۰۱)من سوره الإسراء.

المتناقضه،فلا عجب من أن يسمّوه ساحرا أوّلا،ثمّ يلجؤون إليه لرفع البلاء، و أخيرا يعدونه بالاهتداء.

بناء على هذا فيجب الحفاظ على ظاهر تعبيرات الآيه و الوقوف عندها،إذ لا تبدو هناك حاجه إلى توجيهات و تفاسير أخرى.

و على أيه حال،فيظهر من أسلوب الآيه أنّهم كانوا يعدون موسى عليه السّلام و عودا كاذبه فى نفس الوقت الذى هم بأمس الحاجه إليه،و حتى فى حال المسكنه و عرض الحاجه لم يتخلوا عن غرورهم،و لذلك عبروا فى طلبهم من موسى ب رَبَّكَ و بِمٰا عَهِدَ عِنْدَكَ و لم يقولوا:ربّنا،و ما وعدنا،أبدا.مع أن موسى قال لهم بصراحه:إنّ رسول ربّ العالمين،لا رسول ربّى.

أجل،إن ضعاف العقول و المغرورين إذا ما تربعوا على عرش الحكم،فسيكون هذا منطقهم و عرفهم و أسلوبهم.

إلاّ أن موسى رغم كل هذه التعبيرات اللاذعه و المحقره لم يكفّ عن السعى لهدايتهم مطلقا،و لم ييأس بسبب عنادهم و تعصبهم،بل استمرّ فى طريقه،و دعا ربّه مرات كى تهدأ عواصف البلاء،و هدأت،لكنّهم كما تقول الآيه التاليه: فَلَمّٰا كَشَفْنٰا عَنْهُمُ الْعَذٰابَ إِذٰا هُمْ يَنْكُثُونَ .

كل هذه دروس حيّه و بليغه للمسلمين،و تسليه للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لكى لا ينثوا مطلقا أمام عناد المخالفين و تصلبهم،و لا يدعوا اليأس يخيم على أرواحهم و أنفسهم،بل ينبغى أن يشقوا طريقهم بكل ثبات و رجوله و حزم،كما ثبت موسى عليه السّلام و بنو إسرائيل على مواقفهم،و استمرّوا فى طريقهم حتى انتصروا على الفراعنه.

و هى أيضا تحذير للأعداء اللجوجين المعاندين،بأنهم ليسوا أقوى من فرعون و آل فرعون و لا أشد،فلينظروا عاقبه أمر أولئك،و ليتفكروا فى عاقبتهم.

ص:٦٩

الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۵۱ الی ۵۶]

اشاره

وَ نادیٰ فِرْعَوْنُ فِی قَوْمِهِ قالَ یا قَوْمِ أَ لَیْسَ لِی مُلْکُ مِصْرَ وَ هٰذِهِ اَلْأَنْهارُ تَجْرِی مِنْ تَحْتِی أَ فَلاٰ تُبْصِرُونَ (۵۱) أَمْ أَنَا خَیْرٌ مِنْ هٰذَا اَلَّذِی هُوَ مَهِینٌ وَ لاٰ یَکادُ یُبِینُ (۵۲) فَلَوْ لاٰ أُلْقِیَ عَلَیْهِ أَسْوِرَهٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جٰاءَ مَعَهُ اَلْمَلاٰئِکَهُ مُقْتَرِنِینَ (۵۳) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ کانُوا قَوْماً فاسِقِینَ (۵۴) فَلَمّٰا آسَفُونٰا اِنْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنٰاهُمْ أَجْمَعِینَ (۵۵) فَجَعَلْنٰاهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلاً لِلْآخِرِینَ (۵۶)

التّفسیر

إذا کان نبیا فلم لا یملک أسوره من ذهب؟ لقد ترک منطق موسی علیه السّلام من جهه،و معجزاته المختلفه من جهه أخری، و الابتلاءات و المصائب التی نزلت علی رؤوس أهل مصر و التی رفعت ببرکه دعاء موسی علیه السّلام من جهه ثالثه،أثرا عمیقا فی ذلک المحیط،و زعزعت أفکار الناس

ص:۷۰

و اعتقادهم بفرعون،و وضعت كل نظامهم الاجتماعى و الدينى موضع سؤال و استفسار.

هنا أراد فرعون بسفسطته و مغالطته أن يمنع نفوذ موسى عليه السّلام عن التأثير فى أفكار شعب مصر،فالتجأ إلى القيم الواهيه المنحطه التى كانت حاكمه فى ذلك المحيط،و قارن بينه و بين موسى عليه السّلام من خلال هذه القيم ليبدو متفوقا على موسى، كما يذكر ذلك القرآن الكريم حيث يقول: وَ نٰادىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قٰالَ يٰا قَوْمِ أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هٰذِهِ الْأَنْهٰارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلاٰ تُبْصِرُونَ (١) .

أمّا موسى فما ذا يملك؟لا شىء سوى عصا و لباس صوف!فلمن الشأن الرفيع و المكانه الساميه،له أم لى؟أهو يقول الحق أم أنا؟افتحوا عيونكم جيدا و تأمّلوا دقيقا فى المسأله.

و بهذا فقد عظم فرعون القيم المبتدعه السيئه،و جعل المال و المقام و الجاه هى معايير الإنسانيه،كما هو الحال بالنسبه إلى عبده الأصنام فى عصر الجاهليه فى موقفهم أمام نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

التعبير ب«نادى»يوحى بأن فرعون عقد مجلسا عظيما لخبراء البلد و مستشاريه،و خاطبهم جميعا بصوت عال فقال ما قال،أو أنّه أمر أن يوزع نداؤه كرساله فى جميع أنحاء البلاد.

و التعبير بالأنهار،المراد منه نهر النيل،بسبب أن هذا النهر العظيم كالبحر المترامى الأطراف،و كان يتشعب إلى فروع كثيره تروى كل المناطق العامره فى مصر.

و قال بعض المفسّرين:كان لنهر النيل(٣۶٠)فرعا،و كان أهمها:نهر الملك، و نهر طولون،و نهر دمياط،و نهر تنيس.

ص:٧١

١- ١) الواو فى جمله وَ هٰذِهِ الْأَنْهٰارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي يمكن أن تكون عاطفه على(ملك مصر)و يمكن أن تكون حاليه (تفسير الكشاف).إلاّ أن الاحتمال الأوّل يبدو هو الأنسب.

أمّا لماذا يؤكّد فرعون على نهر النيل خاصّه؟فذلك لأنّ كل عمران مصر و ثروتها و قوتها و تطورها كان يستمد طاقته من النيل،من هنا فإنّ فرعون كان يدلّ به،و يفتخر به على موسى.

و التعبير بتجرى من تحتى لا يعنى أن نهر النيل يمر من تحت قصرى،كما قال ذلك جمع من المفسّرين،لأنّ نهر النيل كان أعظم من أن يمرّ من تحت قصر فرعون و لو كان المراد أنّه يمرّ بمحاذاه قصره،فإنّ كثيرا من قصور مصر كانت على هذه الحال،و كان أغلب العمران على حافتى هذا الشط العظيم،بل المراد أنّ هذا النهر تحت أمرى،و نظام تقسيمه على المزارع و المساكن حسب التعليمات التى أريدها.

ثمّ يضيف: أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هٰذَا الَّذِی هُوَ مَهِینٌ وَ لاٰ یَکٰادُ یُبِینُ (۱) و بهذا یکون قد خص نفسه بافتخارین عظیمین-حکومه مصر،و ملک النیل-و ذکر لموسی نقطتی ضعف:الفقر و لکنه اللسان.

هذا فی الوقت الذی لم یکن بموسی أیه لکنه فی اللسان،لأنّ اللّه تعالی قد استجاب دعاءه،و رفع عنه عقده لسانه،لأنّه سأل ربّه عند البعثه أن: وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسٰانِی (۲) ،و من المسلّم أن دعاءه قد استجیب،و القرآن شاهد علی ذلک أیضا.

لیس عیبا عدم امتلاک الثروه الکثیره،و الألبسه الفاخره،و القصور المزینه، و التی تحصل عاده عن طریق ظلم المحرومین و الجور علیهم،بل هو فخر و کرامه و سمو.

إنّ التعبیر ب«مهین»لعله إشاره إلی الطبقات الاجتماعیّه فی ذلک الزمان،حیث کانوا یظنون أن الأشراف الأقویاء و الأثریاء طبقه متعالیه،و الکاد حین الفقراء

ص: ۷۲

۱- ۱) -اعتبر جماعه(أم)فی الجمله أعلاه منقطعه،و أنها بمعنی(بل)،و ذهب البعض أنها متصله،و متعلقه بجمله(أ فلا تبصرون). و تقدیر الجمله:أ فلا تبصرون أم تبصرون أنا خیر من هذا...

۲- ۲) -طه،الآیه ۲۷.

طبقه واطئه،أو أنّه إشاره إلى أصل موسى حيث كان من بنى إسرائيل،و كان الأقباط يرون أنهم ساداتهم و كبراؤهم.

ثمّ تشبث فرعون بذريعتين أخريين،فقال، فَلَوْ لاٰ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جٰاءَ مَعَهُ الْمَلاٰئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (١) فلو أنّ اللّه قد جعله رسوله فلما ذا لم يعطه أساور من ذهب،و معاونين له كباقى الرسل؟ يقولون:إنّ الفراعنه كانوا يعتقدون أنّ الرؤساء يجب أن يزينوا أنفسهم بالأساور و القلائد الذهبيه،و لذلك فإنّهم يتعجبون من موسى إذ لم يكن معه مثل آلات الزينه هذه،بل كان قد لبس بدل ذلك ملابس الرعى الصوفيه،و هذا هو حال المجتمع الذى يكون معيار تقييم الشخصيه فى نظره الذهب و الفضه و أدوات الزينه.

أمّا أنبياء اللّه فإنّهم باطراحهم هذه المسائل-بالذات-جانبا كانوا يريدون أن يبطلوا هذه المقاييس الكاذبه،و أن يزرعوا محلها القيم الإنسانيه الأصيله-أى العلم و التقوى و الطهاره-لأنّ نظام القيم إذا لم يصلح فى مجتمع فسوف لن يرى ذلك المجتمع وجه السعاده أبدا.

على أيه حال،فإنّ ذريعه فرعون هذه تشبه الذريعه التى نقلت عن مشركى مكّه قبل عدّه آيات حيث كانوا يقولون:لم لم ينزل القرآن على عظيم من مكّه و الطائف؟! و الحجّه الثانيه هى تلك الحجّه المعروفه التى كانت تطرحها كثير من الأمم الضاله العاصيه فى مواجهه الأنبياء،فكانوا يقولون أحيانا:لماذا أرسل اللّه بشرا و ليس ملكا؟و أحيانا أخرى:إذا كان إنسانا فلما ذا لم يأت معه ملك؟ فى حين أنّ الرسل المبعوثين إلى البشر يجب أن يكونوا من جنسهم ليلمسوا حاجاتهم،و يحسوا بمشاكلهم و مسائلهم و يجيبوهم،و ليقدروا على أن يكونوا من

١- ١) -جاءت كلمه«مقترنين»هنا بمعنى المتتابعين أو المتعاضدين،و قال البعض:إنّ الاقتران هنا بمعنى التقارن.

الناحيه العمليه قدوه و أسوه لهم (۱) .

و يلزم أن نذكر هنا أن«الأسوره»جمع سوار،سواء كان من الذهب أم من الفضه.

و تشير الآيه التاليه إلى نكته لطيفه،و هى:إنّ فرعون لم يكن غافلا عن واقع الأمر تماما،و كان ملتفتا إلى أن لا قيمه لهذه القيم و المعايير،إلاّ أنّه: فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ .

إنّ طريقه كل الحكومات الجباره الفاسده من أجل الاستمرار فى تحقيق أهدافها و أنانياتها،هى الإبقاء على الناس فى مستوى مترد من الفكر و الثقافه و الوعى،و تسعى إلى تركهم حمقى لا يعون ما حولهم باستخدام أنواع الوسائل، فتجعلهم غرقى فى حاله من الغفله عن الوقائع و الأحداث و الحقائق،و تنصب لهم قيما و موازين كاذبه منحطه بدلا من الموازين الحقيقيه،كما تمارس عمليه غسل دماغ تام متواصل لهذه الشعوب،و ذلك لأنّ يقظتها و وعيها،و تنامى رشدها الفكرى يشكل أعظم خطر على الحكومات،و يعتبر أكبر عدو للحكومات المستبده،فهذا الوعى بمثابه ما رد يجب أن تحاربه بكل ما أوتيت من قوّه.

إنّ هذا الأسلوب الفرعونى-أى استخفاف العقول-حاكم على كل المجتمعات الفاسده فى عصرنا الحاضر،بكل قوّه و استحكام،و إذا كان تحت تصرف فرعون وسائل محدوده توصله إلى نيل هدفه،فإنّ طواغيت اليوم يستخفون عقول الشعوب بواسطه وسائل الاتصال الجماعيه،الصحف و المطبوعات،شبكات الراديو و التلفزيون،أنواع الأفلام،بل و حتى الرياضه فى قالب الانحراف،و ابتداع أنواع الأساليب المضحكه المستهجنه،لتغرق هذه الشعوب فى بحر الغفله، فيطيعوهم و يستسلموا لهم،و لهذا كانت المسؤوليه الملقاه على عاتق علماء الدين و الملتزمين به-و الذين يحيون خط الأنبياء الفكرى و العقائدى-ثقيله فى محاربه

۱- ۱) -ورد فى التّفسير الأمثل،ذيل الآيه(۹)من سوره الأنعام بحث مفصل فى هذا الباب.

برامج استخفاف العقول،فهی من أهم واجباتهم.

و الطریف أنّ الآیه المذکوره تنتهی بجمله: إِنَّهُمْ کانُوا قَوْماً فاسِقِینَ ،إشاره إلی أنّ هؤلاء القوم الضالین لو لم یکونوا فاسقین و متمردین علی طاعه اللّه عزّ و جلّ و حکم العقل،لما کانوا یستسلمون لمثل هذه الدعایات و الخزعبلات و یصغون إلیها،فهم قد هیؤوا أسباب ضلالهم بأیدیهم،و لذلک فإنّهم لیسوا معذورین فی هذا الضلال أبدا.

صحیح أنّ فرعون قد سرق عقول هؤلاء و حملهم علی طاعته،إلاّ أنّهم قد أعانوه علی هذه السرقه باتباعهم الأعمی له.

نعم،کان هؤلاء قوما فاسقین یتبعون فاسقا.

کانت هذه جنایات فرعون و آل فرعون و مغالطاتهم فی مواجهه رسول اللّه موسی علیه السّلام،لکننا نری الآن إلی أین وصلت عاقبه أمرهم بعد کل هذا الوعظ و الإرشاد و إتمام الحجج من طرق مختلفه،إذ لم یسلموا للحق:

تقول الآیه: فَلَمّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِینَ فقد اختار اللّه سبحانه لهؤلاء عقوبه الإغراق بالخصوص من بین کل العقوبات،و ذلک لأنّ کلّ عزّتهم و شوکتهم و افتخارهم و قوّتهم کانت بنهر النیل العظیم و فروعه الکثیره الکبیره، و الذی کان فرعون یؤکّد علیه من بین کل مصادر قوته،إذ قال أَ لَیْسَ لِی مُلْکُ مِصْرَ وَ هٰذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِی مِنْ تَحْتِی ؟ نعم،یجب أن یکون مصدر حیاتهم و قوّتهم،سبب هلاکهم و فنائهم،و یکون قبرا لهم لیعتبر الآخرون! «آسفونا»من ماده الأسف،و هو الحزن و الغم،و یأتی بمعنی الغضب،بل إنّه یقال للحزن المقترن بالغضب أحیانا-علی قول الراغب فی مفرداته (۱) -و قد یقال لکل منهما علی الانفراد.و حقیقته ثوران دم القلب،شهوه الانتقام،فمتی کان ذلک

۱- ۱) -مفردات الراغب،ماده(أسف).

على من دونه انتشر فصار غضبا،و متى كان على من فوقه انقبض فصار حزنا، و لذلك سئل ابن عباس عن الحزن و الغضب فقال:«مخرجهما واحد و اللفظ مختلف».

و فسر بعضهم«آسفونا»ب(آسفوا رسلنا)،إلاّ أن هذا التّفسير يبدو بعيدا،و لا ضروره لمثل هذا الخلاف الظاهرى.

و هنا نكته تستحق الانتباه،و هى أنه لا معنى للحزن و الغم بالنسبه إلى اللّه سبحانه،و لا الغضب بالمعنى المتعارف بيننا،بل إن غضب اللّه يعنى«إراده العقاب»،و رضاه يعنى«إراده الثواب».

و تقول الآيه الأخيره كاستخلاص لنتيجه مجموع ما مر من كلام: فَجَعَلْنٰاهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلاً لِلْآخِرِينَ .

«السلف»فى اللغه يعنى كل شىء متقدم،و لذلك يقال للأجيال السابقه:سلف، و للأجيال الآتيه:خلف،و يسمّون المعاملات التى تتمّ قبل الشراء«سلفا»،لأنّ ثمن المشترى يدفع من قبل.

و المثل يقال للكلام الدائر بين الناس كعبره،و لما كانت قصه فرعون و الفراعنه و مصيرهم المؤلم عبره عظمى،فقد ذكرت فى هذه القصه كعبره للأقوام الآخرين.

***

ص: ۷۶

الآيات [سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۵۷ الی ۶۲]

اشاره

وَ لَمّا ضُرِبَ اِبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُکَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (۵۷) وَ قالُوا أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَکَ إِلاّ جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (۵۸) إِنْ هُوَ إِلاّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَ جَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِی إِسْرائِيلَ (۵۹) وَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِی اَلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (۶۰) وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسّاعَهِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَ اِتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (۶۱) وَ لا يَصُدَّنَّكُمُ اَلشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۶۲)

سبب النّزول

جاء فی سیره ابن هشام: «و جلس رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم یوما-فیما بلغنی-مع الولید بن المغیره فی المسجد،فجاء النضر بن الحارث حتی جلس معهم فی المجلس،و فی المجلس غیر واحد من رجال قریش،فتکلم رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم فعرض له النضر بن الحارث،فکلمه رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم حتی أفحمه ثمّ تلا علیه

و علیهم: إِنَّکُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهٰا وٰارِدُونَ* لَوْ کٰانَ هٰؤُلاٰءِ آلِهَهً مٰا وَرَدُوهٰا وَ کُلٌّ فِیهٰا خٰالِدُونَ... .

ثمّ قام رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم،و أقبل عبد اللّه بن الزبعری السهمی حتی جلس،فقال الولید بن المغیره له،و اللّه ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا و ما قعد، و قد زعم محمّد أنا و ما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم،فقال عبد اللّه:أما و اللّه لو وجدته لخصمته، فسلوا محمّدا:أکل ما یعبد من دون اللّه فی جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائکه،و الیهود تعبد عزیرا،و النصاری تعبد عیسی بن مریم علیهم السّلام، فعجب الولید و من کان معه فی المجلس من قول عبد اللّه بن الزّبعری،و رأوا أنّه قد احتجّ و خاصم،فذکر ذلک لرسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم من قول ابن الزبعری،فقال رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم:«إن کل من أحبّ أن یعبد من دون اللّه فهو مع من عبده،إنّهم إنّما یعبدون الشیاطین و من أمرتهم بعبادته» (1) .

فنزلت الآیه الشریفه(101)من سوره الأنبیاء: إِنَّ الَّذِینَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنّٰا الْحُسْنیٰ أُولٰئِکَ عَنْهٰا مُبْعَدُونَ و کذلک نزلت الآیه: وَ لَمّٰا ضُرِبَ ابْنُ مَرْیَمَ مَثَلاً إِذٰا قَوْمُکَ مِنْهُ یَصِدُّونَ .

***

التّفسیر

اشاره

أی الالهه فی جهنم؟

تتحدث هذه الآیات حول مقام عبودیه المسیح علیه السّلام،و نفی مقوله المشرکین بألوهیته و ألوهیه الأصنام،و هی تکمله للبحوث التی مرت فی الآیات السابقه حول دعوه موسی و محاربته للوثنیه الفرعونیه،و تحذیر لمشرکی عصر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و کل مشرکی العالم.

1- 1) -سیره ابن هشام،المجلد الأوّل،صفحه 385،بتلخیص قلیل.

و بالرغم من أنّ الآيات تتحدث بإبهام،إلاّ أنّ محتواها ليس معقّدا و لا غامضا للقرائن الموجوده فی نفس الآيات،و آيات القرآن الأخرى،رغم التفاسير المختلفه التی ذكرها المفسّرون.

تقول الآيه الأولى: وَ لَمّٰا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذٰا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (۱) .

أیّ مثل كان هذا؟و من الذی قاله فی حقّ عیسی بن مریم؟ هذا هو السؤال الذی اختلف المفسّرون فی جوابه علی اقوال،إلاّ أنّ الدقّه فی الآيات التاليه توضح أنّ المثل كان من جانب المشركين،و ضرب فيما يتعلق بالأصنام،لأنّا نقرأ فی الآيات التاليه: مٰا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاّٰ جَدَلاً .

بملاحظه هذه الحقيقه،و ما جاء فی سبب النّزول،يتّضح أن المراد من المثل هو ما قاله المشركون استهزاء لدى سماعهم الآيه الكريمه: إِنَّكُمْ وَ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ (۲) ،و كان ما قالوه هو أن عيسى بن مريم قد كان معبودا، فينبغی أن يكون فی جهنم بحكم هذه الآيه،و أی شیء أفضل من أن نكون نحن و أصنامنا مع عيسى؟!قالوا ذلك و ضحكوا و استهزءوا و سخروا! ثمّ استمرّوا: وَ قٰالُوا أَ آلِهَتُنٰا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ؟ فإذا كان من أصحاب الجحيم،فإنّ آلهتنا ليست بأفضل منه و لا أسمى.

و لكن،اعلم أنّ هؤلاء يعلمون الحقيقه،و مٰا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاّٰ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (۳) .

إنّ هؤلاء يعلمون جيدا أنّ الآلهه الذين يردون جهنم هم الذين كانوا راضين بعباده عابديهم،كفرعون الذی كان يدعوهم إلى عبادته،لا كالمسيح عليه السّلام الذی كان و لا يزال رافضا لعملهم هذا،و متبرءا منه.

ص: ۷۹

۱- ۱) -«يصدون»من ماده صد،و يكسر مضارعها،و هی تعنی الضحك و الصراخ،و إحداث الضجيج و الغوغاء،حيث يضعون يدا بيد عند السخريه و الاستهزاء عاده،يراجع لسان العرب،ماده:صدد.

۲- ۲) -الأنبياء،الآيه ۹۸.

۳- ۳) -«خصمون»جمع خصم،و هو الشخص الذی يجادل و يخاصم كثيرا.

بل: إِنْ هُوَ إِلاّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَ جَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ فقد كانت ولادته من غير أب آيه من آيات اللّه،و تكمله فى المهد آيه أخرى،و كانت كل معجزه من معجزاته علامه بينه على عظمه اللّه سبحانه،و على مقام النبوّه.

لقد كان عيسى مقرا طوال حياته بالعبوديه للّه،و دعا الجميع إلى عبوديته سبحانه،و لما كان موجودا فى أمته لم يسمح لأحد بالانحراف عن مسير التوحيد، و لكن المسيحيين أوجدوا خرافه ألوهيه المسيح،أو التثليث،بعده (۱) .

و الطريف أن نقرأ فى روايات عديده وردت عن طريق الشيعه و السنه،

أنّ النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قال لعلى عليه السّلام: «إنّ فيك مثلا من عيسى،أحبّه قوم فهلكوا فيه،و أبغضه قوم فهلكوا فيه» فقال المنافقون:أما رضى له مثلا إلاّ عيسى،فنزل قوله تعالى:

وَ لَمّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ

.

و ما قلناه متن روايه أوردها الحافظ أبو بكر بن مردويه-من علماء أهل السنه المعروفين-فى كتاب المناقب.طبقا لنقل كشف الغمه صفحه ۹۵.

۱- ۱) -احتملوا فى تفسير الآيات أعلاه احتمالات أخرى،و كل منها لا يتناسب مع محتوى الآيات: ۱-فقال البعض:إنّ المراد من المثل الذى ضربه المشركون هو أنّهم قالوا بعد ذكر المسيح و قصته فى آيات القرآن:إنّ محمّدا يهىء الأرضيه ليدعونا إلى عبادته،و القرآن فى مقام الدفاع عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يقول:لم يكن المسيح مدعيا للألوهيه،و سوف لن يدعيها هو أيضا. ۲-و قال البعض الآخر:إنّ المراد من المثل فى الآيات المذكوره هو التشبيه الذى ذكره اللّه سبحانه فى شأن المسيح فى الآيه (۵۹)من سوره آل عمران،حيث يقول: إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فإذا كان عيسى قد ولد من غير أب فإن ذلك لا يثير العجب،لأنّ آدم قد ولد من غير أب و أم،بل من التراب بأمر اللّه تعالى. ۳-و احتمل بعض آخر أنّ المراد من المثل هو قول المشركين حيث كانوا يقولون:إذا كان النصارى يعبدون المسيح، فلما ذا لا تكون آلهتنا التى هى أسمى منه،لائقه للعباده و أهلا لها؟ غير أنّ الالتفات إلى الخصوصيات التى ذكرت فى هذه الآيات يوضح أن أيّا من هذه التّفسيرات الثلاثه لا يصح،لأنّ الآيات تبيّن جيدا: أوّلا:أنّ المثل كان من ناحيه المشركين. ثانيا:كان الموضوع قد أثار ضجه و صخبا،و كان مضحكا بنظرهم. ثالثا:كان شيئا على خلاف مقام عبوديه المسيح عليه السّلام. رابعا:أنّه كان يحقق هدف هؤلاء،و هو الجدال فى أمر كان كاذبا. و هذه الخصائص لا تتناسب إلاّ مع ما قلناه فى المتن فقط.

و قـد نقل جمع آخر من علماء السـنه،و كبائر علماء الشـيعه هذه الحادثه فی كتب عديده،تاره بدون ذكر الآيه أعلاه،و أخری مع ذكرها (1) .

إنّ القرائن الموجوده فی الآيات توحی بأن هذا الحديث المعروف من قبيل تطبيق المصداق،لا أنه سـبب النّزول،و بتعبير آخر:فإنّ سبب نزول الآيه هو قصه عيسـی و قول المشركين و أصنامهم،لكن لما وقع لعلی عليه السّلام حادث شبيه لذاك بعد ذلك القول التاريخی للنبی صـلی اللّه عليه و آله و سـلّم،فإنّه صـلی اللّه عليه و آله و سلّم تلا هذه الآيه هنا ليبين أنّ هذا الحادث كان مصداقا لذاك من جهات مختلفه.

و لئلاـ يتوهموا أنّ اللّه سـبحانه محتاج لعبوديتهم،و أنّه يصـر عليها،فإنّه تعالی يقول فی الآيه التاليه: وَ لَوْ نَشٰاءُ لَجَعَلْنٰا مِنْكُمْ مَلاٰئِكَةً فِی الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ملائكه تخضع لأوامر اللّه،و لا تعرف عملا إلّا طاعته و عبادته.

و اختار جمع من المفسّرين تفسيرا آخر للآيه،يصبح معنی الآيه علی أساسه:

و لو نشاء لجعلنا أبناءكم ملائكه يخلفونكم فی الأرض.بناء علی هـذا فلا تعجبوا من أن يولـد المسـيح من دون أب،فإنّ اللّه عزّ و جلّ قادر علی أن يخلق ملكا من الإنسان،و هو نوع يختلف عنه (2) .

و لمـا كـان تولـد الملـك من الإنسـان لاـ يبـدوا مناسـبا،فقـد فسّره بعض كبـار المفسّرين بولاده الأبناء الـذين يتمتعون بصـفات الملائكه،و قالوا:إنّ المراد:لا تعجبوا من أن تكون لعبـد كالمسـيح القـدره علی إحياء الموتی،و إبراء المرضـی بإذن اللّه،و هو فی الوقت نفسه عبد مخلص مطيع لأمر اللّه،فإنّ اللّه قادر علی أن يخلق

1- 1) -لمزيـد الاطلاع راجعوا:كتاب إحقاق الحق،المجلد 3،صفحه 398 و ما بعدها،تفسير نور الثقلين،المجلد 4،صفحه 609. و ما بعدها،و تفسير مجمع البيان ذيل الآيات مورد البحث.

2- 2) -اختـار التّفسير الأوّل،الطبرسـی فی مجمع البيان،و الشـيخ الطوسـی فی التبيان،و أبو الفتوح الرازی و آخرون. أما التّفسير الثّانی فقـد نقله القرطبی و الآلوسـی فی روح المعانی،و الزمخشـری فی الكشاف،و المراغی،علی أنه المعنی الوحيـد للآيه،أو أنّه أحد معنيين لها.

من أبنائكم من تكون فيه كل صفات الملائكه و طبائعهم (١) .

إلّا أنّ التّفسير الأوّل ينسجم مع ظاهر الآيه أكثر من الجميع،و هذه التفاسير بعيده (٢) .

و الآيه التاليه إشاره إلى خصيصه أخرى من خصائص المسيح عليه السّلام فتقول:إنّ عيسى سبب العلم بالساعه وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسّاعَهِ إمّا أن ولادته من غير أب دليل على قدره اللّه اللامتناهيه،فتحل على ضوئها مسأله الحياه بعد الموت،أو من جهه نزول المسيح عليه السّلام من السماء فى آخر الزمان طبقا لروايات عديده،و نزوله هذا دليل على اقتراب قيام الساعه.

يقول جابر بن عبد اللّه:سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: «ينزل عيسى بن مريم، فيقول أميرهم:تعالى صلّ بنا،فيقول:لا،إن بعضكم على بعض أمراء تكرمه من اللّه لهذه الأمّه» (٣) .

و نقرأ

فى حديث آخر عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم و إمامكم منكم» (۴) .

و على أيه حال،فإنّ إطلاق(العلم)على المسيح نوع من التأكيد و المبالغه،و هو إشاره إلى أن نزوله من علامات القيامه حتما.

و احتمل أيضا أن يعود الضمير فى(أنه)على القرآن،و على هذا يكون معنى الآيه:إنّ نزول القرآن الذى هو آخر الكتب السماويه،دليل على اقتراب الساعه، و يخبر عن قيام القيامه.

غير أنّ الآيات السابقه و اللاحقه حول عيسى تقوى التّفسير الأوّل.

ثمّ تقول الآيه بعد ذلك:إنّ قيام الساعه حتم،و وقوعها قريب، فَلا تَمْتَرُنَّ بِها

۱- ١) -الميزان،ذيل الآيه مورد البحث.

۲- ٢) -طبقا للتفسير الأوّل،فإنّ(من)للبدليه،و بناء على التّفسيرين الثّانى و الثّالث فإنّ(من)للإنشاء،و الابتداء.

۳- ٣) -نقل هذا الحديث صاحب مجمع البيان عن صحيح مسلم فى ذيل الآيات مورد البحث.

۴- ۴) -مجمع البيان ذيل الآيه مورد البحث،و تفسير روح المعانى،المجلد ۵،صفحه ۸۸.

لا من حيث الإعتقاد بها و لا من حيث الغفله عنها.

وَ اتَّبِعُونِ هٰذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ

و أى صراط أكثر استقامه من الذى يخبركم بالمستقبل الخطير الذى ينتظركم،و يحذركم منه،و يدلكم على طريق النجاه من أخطار يوم البعث؟! إلّا أن الشيطان يريد أن يبقيكم فى عالم الغفله و الارتباط بها،فاحذروا: وَ لاٰ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطٰانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

لقد أظهر عداءه لكم منذ اليوم الأوّل،مرّه عند وسوسته لأبيكم و أمكم-آدم و حواء-و إخراجهما من الجنّه،و أخرى عند ما أقسم على إضلال بنى آدم و إغوائهم،إلاّ المخلصين منهم،فكيف تخضعون أمام هكذا عدو لدود أقسم على أذاكم و دفعكم إلى الهاويه السحيقه؟و كيف تسمحون له أن يتسلط على قلوبكم و أرواحكم،و أن يمنعكم عن طريق الحق بوساوسه المستمره؟!

ص:٨٣

الآيات [سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۶۳ الی ۶۵]

اشاره

وَ لَمّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَهِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ اَلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اَللّهَ وَ أَطِيعُونِ (۶۳) إِنَّ اَللّهَ هُوَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (۶۴) فَاخْتَلَفَ اَلْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (۶۵)

التّفسير

اشاره

الذين غالوا فی المسيح:

مرت الإشاره إلی جانب من خصائص حياه المسيح عليه السّلام فی الآيات السابقه، و تكمل هذه الآيات ذلك البحث،و تؤكّد بالخصوص علی دعوه المسيح إلی التوحيد الخالص،و نفی كل شكل من أشكال الشرك.

تقول الآيه أوّلا: وَ لَمّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَهِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ و بهذا فقد كانت«البينات»-أی آيات اللّه و المعجزات- رأسمال عيسی،إذ كانت تبين حقانيته من جانب،و تبين من جانب آخر الحقائق

ص :۸۴

المرتبطه بالمبدأ و المعاد و احتياجات حياه البشر.

و يصف عيسى عليه السّلام محتوى دعوته ب«الحكمه»فى عبارته،و نحن نعلم أن أساس الحكمه هو المنع من شىء بقصد إصلاحه،ثمّ أطلقت على كل العقائد الحقّه، و برامج الحياه الصحيحه التى تصون الإنسان من أنواع الانحراف فى العقيده و العمل،و تتناول تهذيب نفسه و أخلاقه،و على هذا فإنّ للحكمه هنا معنى واسعا يشمل«الحكمه العلميه»و«الحكمه العمليه».

و لهذه الحكمه-إضافه إلى ما مرّ-هدف آخر،و هو رفع الاختلافات التى تخلّ بنظام المجتمع،و تجعل الناس حيارى مضطربين،و لهذا السبب نرى المسيح عليه السّلام يؤكّد على هذه المسأله.

و هنا يطرح سؤال التفت إليه أغلب المفسّرين، و هو:لماذا يقول: قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَهِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ و لم لا يبيّن الجميع؟ و قد ذكرت أجوبه عديده لهذا السؤال،و أنسبها هو:

إنّ الاختلافات التى بين الناس نوعان:منها ما يكون مؤثرا فى مصيرهم من الناحيه العقائديه و العمليه،و منها ما يكون فى الأمور غير المصيريه،كالنظريات المختلفه حول نشأه المنظومه الشمسيه و السماوات،و كيفيه الأفلاك،و النجوم، و ماهيه روح الإنسان،و حقيقه الحياه،و أمثال ذلك.

و من الواضح أنّ الأنبياء مكلّفون أن ينهوا الاختلافات من النوع الأوّل و يقتلعوها بواسطه تبيان الحقائق،و لكنّهم غير مكلّفين برفع أى اختلاف كان حتى و إن لم يكن له تأثير فى مصير الإنسان مطلقا.

و يحتمل أيضا أن تبيان بعض الاختلافات نتيجه و غايه لدعوه الأنبياء،أى إنّهم سيوفقون أخيرا فى حل بعض هذه الاختلافات،أمّا حلّ جميع الاختلافات فى الدنيا فإنّه أمر غير ممكن،و لذلك تبيّن آيات متعدده من القرآن المجيد أن أحد خصائص القيامه هو ارتفاع كل الاختلافات و انتهاؤها،فنقرأ فى الآيه(٩٢)من

سوره النحل: وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَهِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

و قد جاء هذا المعنى فى الآيات،۵۵-آل عمران،۴۸-المائده،۱۶۴-الأنعام، ۶۹-الحج،و غيرها (۱) .

و تضيف الآيه فى النهايه: فَاتَّقُوا اللّهَ وَ أَطِيعُونِ .

بعد ذلك،و من أجل أن ترفع كل نوع من الإبهام فى مسأله عبوديته،تقول الآيه:

إِنَّ اللّهَ هُوَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ

.

الملفت للانتباه تكرار كلمه«الرب»مرّتين فى هذه الآيه،مرّه فى حقّه،و أخرى فى حق الناس،ليوضح للناس أنّى و إيّاكم متساوون،و ربّى و ربّكم واحد.و أنا مثلكم محتاج فى كل وجودى إلى الخالق المدبر،فهو مالكى و دليلى.

و للتأكيد أكثر يضيف: فَاعْبُدُوهُ إذ لا يستحق العباده غيره،و لا تليق إلاّ به، فهو الرب و الكل مربوبون،و هو المالك و الكل مملوكون.

ثمّ يؤكّد كلامه بجمله أخرى حتى لا تبقى لمتذرع ذريعه،فيقول: هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (۲) .

نعم،إنّ الصراط المستقيم هو طريق العبوديه للّه سبحانه...ذلك الطريق الذى لا انحراف فيه و لا اعوجاج،كما جاء فى الآيه(۶۱)من سوره يس: وَ أَنِ اعْبُدُونِى هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ .

لكن العجب أن يختلف أقوام من بعده مع كل هذه التأكيدات: (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ) (۳) :

ص:۸۶

۱- ۱) -قال بعض آخر من المفسّرين:إنّ(بعض)هنا بمعنى الكل،أو أن التعبير ب (بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ) إضافه موصوف إلى الصفه،أو أن هذا التعبير إشاره إلى أنّى أبيّن لكم أمور الدين و حسب،لا اختلافاتكم فى أمر الدنيا.إلاّ أن أيّا من هذه التفاسير لا يستحق الاهتمام.

۲- ۲) -ورد نظير هذه الآيه بتفاوت يسير فى سوره مريم-۳۶،و سوره الأنعام-۵۱،و تكرار هذا المعنى تأكيد على أن عيسى عليه السّلام قد أتمّ الحجه على جميع هؤلاء فى مورد عبوديته و كونه عبد اللّه سبحانه.

۳- ۳) -الضمير فى(بينهم)يعود إلى الذين خاطبهم المسيح عليه السّلام فى الآيه السابقه،و دعاهم إلى عبوديه اللّه سبحانه.

فالبعض ذهب إلى أنّه الرب الذى نزل إلى الأرض! و بعض آخر اعتبره ابن ربّه.

و آخرون بأنّه أحد الأقانيم الثلاثه(الذوات المقدسه الثلاثه:الأب،و الابن، و روح القدس).

و هناک فئه قليله فقط هم الـذين اعتبروه عبـد اللّه و رسوله،غير أن عقيده الأغلبيه هى التى هيمنت،و عمت مسأله التثليث و الآلهه الثلاثه عالم المسيحيه.

و قد نقل فى هذا الباب حديث تاريخى جميل أوردناه فى ذيل الآيه(۳۶)من سوره مريم.

و يحتمـل أيضـا فى تفسـير الآـيه،أنّ هـذا الاختلافـات لـم يكـن بين المسـيحيين و حسب،بـل حـدث بين اليهـود و النصـارى فى المسيـح،فغـالى أتباعه فيه،و أو صـلوه إلى مقام الألوهيه،فى حين اتهمه و أمّه الطاهره أعـداؤه بأشـنع الاتهامات،و هكـذا سـلوک الجـاهلين و عرفهم،بعضـهم صوب الإـفراط،و آخرون نحو التفريـط،أو هم- على حـد تعـبير أمير المؤمنين على عليه السّـلام-بين محب غال و بين مبغض قال،حيث

يقول عليه السّـلام: «هلـک فىّ رجلان:محب غال،و مبغض قال» (۱) ! و كم هى متشابهه أحوال هـذين العظيمين! و هـددهم اللّه سبحانه فى نهايه الآيه بعذاب يوم القيامه الأليم،فقال: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (۲) .

نعم،إنّ يوم القيامه يوم أليم،فطول حسابه أليم،و عقوباته أليمه،و حسرته و غمه أليمان،و خزيه و فضيحته أليمان أيضا.

***

۱- ۱) -نهج البلاغه.الكلمات القصار:۱۱۷.

۲- ۲) -ينبغى الانتباه إلى أن(أليم)صفه لليوم لا للعذاب.

الآيات [سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۶۶ الى ۶۹]

اشاره

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ اَلسّٰاعَهَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَهً وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ (۶۶) اَلْأَخِلاّٰءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ اَلْمُتَّقِينَ (۶۷) يٰا عِبٰادِ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اَلْيَوْمَ وَ لاٰ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (۶۸) اَلَّذِينَ آمَنُوا بِآيٰاتِنٰا وَ كٰانُوا مُسْلِمِينَ (۶۹)

التّفسير

ماذا تنتظرون غير عذاب الآخره؟ كان الكلام فى الآيات السابقه يدور حول عبده الأوثان العنودين،و كذلك حول المنحرفين و المشركين في أمّه عيسى عليه السّلام،و الآيات مورد البحث تجسد عاقبه أمرهم،يقول تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السّٰاعَهَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَهً وَ هُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ ؟ لقد طرح هذا السؤال بصوره الاستفهام الإنكارى،و هو فى الحقيقه بيان لواقع حال أمثال،هؤلاء الأفراد،كما نقول فى مقام ذم شخص لا يصغى إلى نصيحه ناصح،و يهيء عوامل فنائه بيده:إنّه بانتظار حتفه فقط!

ص: ۸۸

و المراد من«الساعه»فی هـذه الآیه-ککثیر من آیات القرآن الأخری-هو یوم القیامه،لأنّ الحوادث تقع سـریعه حتی کأنّها تحـدث فی ساعه واحده.

و جاءت هـذه الکلمه-أیضا-بمعنی لحفظه انتهاء الـدنیا،و لما لم یکن بین هـذین المعنیین کبیر فرق،فمن الممکن أن یکون هـذا التعبیر شاملا لکلا المعنیین.

و علی أیه حال،فقـد وصف قیام الساعه،الـذی یبدأ بانتهاء الدنیا المفاجئ، بوصـفین فی الآیه أعلاه:الأوّل:کونه بغته،و الآخر:عدم علم عامه الناس بتأریخ وقوعها و حدوثها.

من الممکن أن یحـدث حـدث فجأه،و لکنّا نتوقع حدوثه من قبل،و نکون علی اسـتعداد لمواجهه المشاکل التی تنجم عنه،إلاّ أن سوء الحظ و التعاسه فی أن تقع فاجعه قاسیه و صعبه جدّا،بصوره مفاجئه و نحن غافلون عنها تماما.

هکذا بالضبط حال المجرمین،فهم یؤخذون و هم فی غفله تامه،بحیث تصور الروایات الوارده

عن نبیّ الإسـلام الأـکرم صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم ذلـک فتقول: «تقوم السـاعه و الرجلاـن یحلبـان النعجه،و الرجلاـن یطویان الثوب،ثمّ قرأ صلی اللّه علیه و آله و سلّم: هَلْ یَنْظُرُونَ إِلاَّ السّاعَهَ أَنْ تَأْتِیَهُمْ بَغْتَهً وَ هُمْ لا یَشْعُرُونَ (۱) .

و أی شـیء آلم من أن یکون الإنسان غافلا أمام مثل هـذه الحادثه التی لیس فیها أی طریق أو منفـذ للرجوع و الخلاص،و یغرق فی أمواجهـا من دون أن یکون معـدّا لمسـتلزمات النجـاه؟ ثمّ رفعت الآـیه الغطـاء عن حـاله الأخلاـء الـذین یودّ بعضـهم بعضا،و یسیرون معا فی طریق المعصیه و الفساد،و الاغترار بزخارف الدنیا،فتقول: اَلْأَخِلاّءُ یَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِینَ (۲) .

ص: ۸۹

۱- ۱) -تفسیر روح البیان،المجلد ۲۵،صفحه ۸۹.

۲- ۲) -«الأخلاـء»جمـع(خلیـل)-من مـاده خله-بمعنی المـودّه و المحبّه،و أصـلها من الخلـل-علی وزن شـرف-أی الفاصـله بین جسمین،و لما کانت المحبه و الصداقه کأنّها تنفذ فی أعماق القلب و ثنایاه،فقد استعملت فیها هذه الکلمه.

إن هـذه الآيه التى تصف مشـهدا من مشاهد القيامه،تبيّن بوضوح أنّ المراد من الساعه فى الآيه السابقه هو يوم القيامه أيضا،اليوم الذى تنفصم فيه عرى العلاقات الأخويه و الصداقه و الرفقه،إلاّ العلاقات التى قامت للّه و فى اللّه و باسمه.

إن تبدل مثل هذه الموده إلى عداوه فى ذلك اليوم أمر طبيعى،لأنّ كلا منهم يرى صاحبه أساس تعاسته و سوء عاقبته،فأنت الذى دللتنى على هذا الطريق و دعوتنى إليه،و أنت الذى زينت الدنيا فى نظرى و رغبتنى فيها و أطمعتنى.

نعم،أنت الذى أغرقتنى فى بحر الغفله و الغرور،و جعلتنى جاهلا بمصيرى، غافلا عنه.

و هكـذا يقول كل واحـد منهم لصاحبه مثل هـذه المطالب،إلاّ المتقين الذين تبقى روابط أخوتهم،و أواصـر مودّتهم خالده،لأنّها تدور حول محور القيم و المعايير الخالده،و تتّضح نتائجها المثمره فى عرصه القيامه أكثر، فتمنحها قوّه إلى قوّتها.

من الطبيعى أنّ الأخلاء يعين بعضـهم بعضا فى أمور الحياه،فإن كانت خلتهم على أساس الشرّ و الفساد،فهم شـركاء فى الذنب و الجريمه،و إن كـانت على أسـاس الخير و الصـلاح فهم شـركاء فى الثواب و العطيه،و على هـذا فلاـ مجال للعجب من أن يتبـدل الخليل من القسم الأوّل الى عدوّ،و من القسم الثّانى إلى خليل يشتد حبّه و مودّته أكثر من ذى قبل.

يقول الإمام الصادق عليه السّلام: «ألا كل خلّه كانت فى الدنيا فى غير اللّه عزّ و جلّ فإنّها تصير عداوه يوم القيامه» (1) .

و الآيه التاليه-فى الحقيقه-تبيان لأوصاف المتقين و أحوالهم،و بيان لعاقبتهم التى تبعث على الفخر و الاعتزاز.

فى ذلك اليوم العصيب يقول لهم اللّه تعالى: يٰا عِبٰادِ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لاٰ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ .

ص: ٩٠

١- ١) -تفسير على بن إبراهيم،طبق نقل نور الثقلين،ج ۴:صفحه ۶۱۲.

كم هو جميل هذا النداء؟!نداء مباشر من اللّه سبحانه من دون واسطه توصله...

نـداء يبـدأ بأحسن الصـفات:يا عباد اللّه!نـداء يزيل قلق الإنسان فی يوم ليس فيه إلاّ القلق و الاضـطراب...نداء يطهر القلب من غم الماضی و حزنه،و ينقيه...

نعم،لهذا النداء هذه المزايا الأربعه المذكوره.

و تـبيّن آخر آيه-من هـذه الآيـات-هؤلاـء المتقين و العبـاد المكرمين بصوره أكثر وضوحـا،بـذكر جملتين أخريين،فتقول: اَلَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا مُسْلِمِينَ .

أجل،هؤلاء هم الذين يخاطبون بمثل هذا الخطاب العظيم،و يسبحون فی تلك النعم.

إن هـاتين الجملتين تعريف بليغ باعتقـادات هؤلاـء و أعمـالهم،فهمـا تبينـان إيمـانهم الـذی هو أسـاس عقيـدتهم الثـابت،و تبينان إسلامهم فی تسليمهم لأمر اللّه سبحانه و تنفيذ أوامره.

***

ص :۹۱

الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۷۰ الی ۷۳]

اشاره

اُدْخُلُوا اَلْجَنَّهَ أَنْتُمْ وَ أَزْوٰاجُکُمْ تُحْبَرُونَ (۷۰) یُطٰافُ عَلَیْهِمْ بِصِحٰافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَکْوٰابٍ وَ فِیهٰا مٰا تَشْتَهِیهِ اَلْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ اَلْأَعْیُنُ وَ أَنْتُمْ فِیهٰا خٰالِدُونَ (۷۱) وَ تِلْکَ اَلْجَنَّهُ اَلَّتِی أُورِثْتُمُوهٰا بِمٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۷۲) لَکُمْ فِیهٰا فٰاکِهَهٌ کَثِیرَهٌ مِنْهٰا تَأْکُلُونَ (۷۳)

التّفسیر

اشاره

فیها ما تشتهیه الأنفس و تلذ الأعین:

تبیّن هـذه الآیات جزاء عباد اللّه المخلصین،و المؤمنین الصالحین الذین مرّ وصفهم فی الآیات السابقه،و تبشرهم بالجنّه الخالده مع ذکر سبع نعم من نعمها النفیسه الغالیه.

تقول أوّلا: اُدْخُلُوا الْجَنَّهَ و بذلک فإنّ مضیفهم الحقیقی هو اللّه تعالی الذی یدعو ضیوفه و یقول لهم:أدخلوا الجنّه.

ثمّ أشارت إلی أول نعمه من تلک النعم،فقالت: أَنْتُمْ وَ أَزْوٰاجُکُمْ و من الواضح أنّ کون المؤمنین الرحماء إلی جانب زوجاتهم المؤمنات یمنحهما معا

ص: ۹۲

اللذه و السرور،فإذا كانا شريكين فی همّ الدنيا،فإنّهما سيكونان شريكين فی سرور الآخره و نشوتها.

و قد فسّر بعضهم«الأزواج»هنا بالمتساوين فی الدرجه و الأصدقاء و الأقارب،فلو صحّ فوجودهم نعمه عظيمه،إلّا أنّ ظاهر الآيه هو المعنی الأوّل.

ثمّ تضيف: تُحْبَرُونَ .

«تحبرون»من ماده حبر-وزن فكر-أی الأثر المطلوب،و تطلق أحيانا علی الزينه و آثار الفرح التی تظهر علی الوجه،و إذا قيل للعلماء أحبار،فلآثارهم التی تبقی بين المجتمعات البشريه،كما

يقول أمير المؤمنين علی عليه السّلام: «العلماء باقون ما بقی الدهر،أعيانهم مفقوده،و أمثالهم فی القلوب موجوده» (۱) .

و تقول فی بيان النعمه الثالثه: يُطٰافُ عَلَيْهِمْ بِصِحٰافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوٰابٍ فهم يضافون و يخدمون بأفضل الأوانی،و ألذّ الأطعمه،فی منتهی الهدوء و الاطمئنان و الصفاء.

«الصحاف»جمع صحفه،و هی فی الأصل من ماده صحف،أی التوسع،و تعنی هنا الأوانی الكبيره الواسعه و الأكواب جمع كوب،و هی أقداح الماء التی لا عروه لها.

و مع أنّ الكلام فی الآيه عن الصحاف الذهبيه،دون طعامهم و شرابهم،إلّا أن من البديهی أنّ الذين يخدمونهم لا يطوفون عليهم بصحاف خاليه مطلقا.

و تشير فی الرابعه و الخامسه إلی نعمتين أخريين جمعت فيهما كلّ نعم العالم الماديه و المعنويه،فتقول: وَ فِيهٰا مٰا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ ،و علی قول المرحوم الطبرسی فی مجمع البيان:لو أنّ جميع الخلائق قد اجتمعت لوصف أنواع نعم الجنّه،فسوف لا يقدرون أن يضيفوا شيئا علی ما جاء فی هذه الجمله أبدا.

و أی تعبير أجمل من هذا التعبير و أجمع منه؟فهو تعبير بسعه عالم الوجود،

۱- ۱) -نهج البلاغه،الكلمات القصار ۱۴۷.

و بسعبه ما يخطر فى أذهاننا اليوم و ما لا يخطر،تعبير ليس فوقه تعبير.

و الطريف أن مسأله شهيه النفس قد بيّنت منفصله عن لذه العين،و هذا الفصل عميق المعنى: فهل هو من قبيل ذكر الخاص بعد العام،من جهه أنّ للذّه النظر أهميه خاصّه تفوق اللذات الأخرى؟أم هو من جهه أن جمله: مٰا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ تبيّن لذات الذوق،و الشم و السمع و اللمس،أمّا جمله: تَلَذُّ الْأَعْيُنُ فهى تبيان للذه العين و النظر.

و يعتقد البعض أنّ جمله: مٰا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ إشاره إلى كلّ اللذات الجسميه، فى حين أن جمله: تَلَذُّ الْأَعْيُنُ مبينه للذات الروحيه،و أى لذه فى الجنه أسمى من أن ينظر الإنسان بعين القلب إلى جمال اللّه الذى لا يشبهه جمال،فإنّ لحظه من تلك اللحظات تفوق كل نعم الجنه الماديه.

و من البديهى أنّ شوق الحبيب كلما زاد،كانت لذه الإلقاء أعظم.

سؤال:

و هنا يطرح سؤال،و هو:هل أنّ سعه عموميه مفهوم هذه الآيه،دليل على أنّهم يطلبون من اللّه هناك أن يمنحهم أمورا كانت حراما فى الدنيا؟

و الجواب:

إنّ طرح هذا السؤال ناتج عن عدم الالتفات إلى نكته،و هى أنّ المحرمات و القبائح كالغذاء المضر لروح الإنسان،و من المسلم أنّ الروح السالمه الصحيحه لا تشتهى مثل هذه الغذاء،و تلك التى تميل أحيانا إلى السموم و الأغذيه المضره هى الأرواح المريضه.

إنّنا نرى،بعض المرضى يميلون حتى فى حاله المرض إلى تناول التراب أو أشياء أخرى من هذا القبيل،إلاّ أنّهم بمجرّد أن يزول عنهم المرض تزول عنهم

هذه الشهيه الكاذبه.

نعم،إنّ أصحاب الجنّه سوف لا يميلون أبدا إلى مثل هذه الأعمال،لأن ميل الروح و انجذابها إليها من خصائص أرواح أصحاب الجحيم المريضه.

إنّ هذا السؤال يشبه ما

ورد فى الحديث من أن أعرابيا أتى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم،و قال:

هل فى الجنّه إبل؟فإنّى أحبّها حبّا جمّا،فالتفت إليه النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم الذى كان يعلم أن فى الجنّه نعما سينسى معها الأعرابى الإبل،و أجابه بعباره قصيره فقال:«يا أعرابى،إن أدخلك اللّه الجنّه أصبت فيها ما اشتهت نفسك و لذت عينك» (۱) .

و بتعبير آخر:فهناک العالم الذى ينسجم فيه الإنسان مع الحقائق تماما.

و على كل حال،لما كانت قيمه النعمه فى كونها خالده،فقد طمأنت الآيه أصحاب النعيم من هذه الجهه عند ما ذكرت الصفه السادسه فقالت: وَ أَنْتُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ لئلاّ يكدر التفكير فى زوال هذه النعمه صفو عيشهم و لذّتهم،فيقلقوا من المستقبل و ما يخبئه.

و هنا،من أجل أن يتّضح أن كل نعم الجنّه هذه تعطى جزاء لا اعتباطا و عبثا، تضيف الآيه: وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهٰا بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

و الطريف فى الأمر أنّ الآيه تطرح مجازاه الأعمال و كون الجنّه فى مقابلها من جهه،و من جهه أخرى تجعلها إرثا،و هو يستعمل عاده فى الموارد التى تصل فيها النعمه إلى الإنسان من دون أن يبذل جهدا أو سعيا فى تحصيلها،و هذه إشاره إلى أنّ أعمالكم هى أساس خلاصكم و نجاتكم،إلاّ أن ما تحصلون عليه إذا ما قورن بأعمالكم فهو كالشيء المجانى المعطى من قبل اللّه تعالى، و كالهبه حصلتم عليها بفضله.

و يعتبر البعض هذا التعبير إشاره إلى ما قلناه سابقا من أن لكل إنسان منزلا فى الجنّه و محلا فى الجحيم،فيرث أصحاب الجنّه منازل أصحاب النّار،و يرث

۱- ۱) -روح البيان،المجلد ۸،صفحه ۳۹۱.

أصحاب النّار أمكنه أصحاب الجنّه! إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو هو الأنسب.

و الكلام فى النعمه السابعه و الأخيره فى ثمار الجنّه التى هى من أفضل نعم اللّه، فتقول الآيه: لَكُمْ فِيهٰا فٰاكِهَهٌ كَثِيرَهٌ مِنْهٰا تَأْكُلُونَ .

لقد كانت الصحاف و الأكواب بيانا لأنواع الأطعمه و الأشربه فى الواقع،أمّا الفواكه فلها حسابها الخاص،و قد أشير إليه فى آخر آيه من هذه الآيات.

و الجميل أنّها تبيّن بتعبير(منها)حقيقه أنّ فاكهه الجنّه كثيره جدّا بحيث لا تتناولون إلّا جزءا منها،و على هذا فإنّها لا تفنى،و أشجارها مثمره دائما.

و

جاء فى الحديث: «لا ينزع رجل فى الجنّه ثمره من ثمرها إلّا نبت مثلها مكانها» (۱) .

كانت هذه بعض نعم الجنّه التى تبعث الحياه فى النفوس،و هى بانتظار ذوى الإيمان القوى البيّن،و الأعمال الصالحه النبيله.

***

۱- ۱) -تفسير روح البيان،الجزء ۸،صفحه ۱۹۲.

الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۷۴ الی ۸۰]

اشاره

إِنَّ اَلْمُجْرِمِینَ فِی عَذٰابِ جَهَنَّمَ خٰالِدُونَ (۷۴) لاٰ یُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِیهِ مُبْلِسُونَ (۷۵) وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰکِنْ کٰانُوا هُمُ اَلظّٰالِمِینَ (۷۶) وَ نٰادَوْا یٰا مٰالِکُ لِیَقْضِ عَلَیْنٰا رَبُّکَ قٰالَ إِنَّکُمْ مٰاکِثُونَ (۷۷) لَقَدْ جِئْنٰاکُمْ بِالْحَقِّ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَکُمْ لِلْحَقِّ کٰارِهُونَ (۷۸) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنّٰا مُبْرِمُونَ (۷۹) أَمْ یَحْسَبُونَ أَنّٰا لاٰ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوٰاهُمْ بَلیٰ وَ رُسُلُنٰا لَدَیْهِمْ یَکْتُبُونَ (۸۰)

التّفسیر

اشاره

نتمنی أن نموت لنستریح من العذاب:

لقد فصّلت هذه الآیات القول فی مصیر المجرمین و الکافرین فی القیامه، لیتّضح الفرق بینه و بین مصیر المؤمنین-المطیعین لأمر اللّه-المشرف السعید من خلال المقارنه بین المصیرین.

تقول الآیه الأولی: إِنَّ الْمُجْرِمِینَ فِی عَذٰابِ جَهَنَّمَ خٰالِدُونَ .

«المجرم»من ماده جرم،و هو فی الأصل بمعنی القطع الذی یستعمل فی قطع

الثمار من الشجره-أى القطف-و كذلك فى قطع نفس الشجره،إلّا أنّه استعمل فيما بعد فى القيام بكل عمل سىء،و ربّما كان سبب هذا الاستعمال هو أنّ هذه الأعمال تفصل الإنسان عن ربّه و عن القيم الإنسانيه،و تبعده عنهما.

لكن من المسلم هنا أنّه لا يريد كل المجرمين،و إنّما المراد هم المجرمون الذين اتخذوا سبيل الكفر سبيلا لهم،بقرينه ذكر مسأله الخلود و العذاب الخالد،و بقرينه المقارنه بالمؤمنين الذين مرّ الكلام عنهم فى الآيات السابقه.و يبدو بعيدا ما قاله بعض المفسّرين من أنها تشمل كل المجرمين.

و لما كان من الممكن أن يخفف العذاب الدائمى بمرور الزمان،و تقل شدته تدريجيا،فإنّ الآيه التاليه تضيف: لاٰ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ،و على هذا فإنّ عذاب هؤلاء دائم من ناحيتى الزمان و الشدّه،لأنّ الفتور يعنى السكون بعد الحده،و اللين بعد الشده،و الضعف بعد القوّه كما يقول الراغب فى مفرداته.

«مبلس»من ماده«إبلاس»،و هى فى الأصل الحزن الذى يصيب الإنسان من شده التأثر و الانزعاج،و لما كان هذا الهم و الحزن يدعو الإنسان إلى السكوت، فقد استعملت ماده الإبلاس بمعنى السكوت و الامتناع عن الجواب أيضا.و لما كان الإنسان ييأس من خلاص نفسه و نجاته فى الشدائد العصيبه،فقد استعملت هذه الماده فى مورد اليأس أيضا،و لهذا المعنى سمى«إبليس»إبليس،إذ أنّه آيس من رحمه اللّه.

على أيه حال،فإنّ هاتين الآيتين قد أكدتا على ثلاث مسائل:مسأله الخلود، و عدم تخفيف العذاب،و الحزن و اليأس المطلق.و ما أشد العذاب الذى تمتزج فيه هذه الأمور الثلاثه و تجتمع.

و تنبه الآيه التاليه إلى أنّ هؤلاء هم الذين أرادوا هذا العذاب الأليم،و اشتروه بأعمالهم و بظلمهم لأنفسهم،فتقول: وَ مٰا ظَلَمْنٰاهُمْ وَ لٰكِنْ كٰانُوا هُمُ الظّٰالِمِينَ .

فكما أن الآيات السابقه قد بينت أن منبع كل تلك النعم اللامتناهيه هى أعمال

المؤمنين المتقين،فإن هـذه الآيات تعـد أعمال هؤلاء الظالمين سـبب هـذا العـذاب الخالـد و منبعه.و أی ظلم أكبر من أن يكذّب الإنسان بآيات اللّه سبحانه،و يضرب جذور سعادته بمعول الكفر و الافتراء: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ . (۱)

نعم،إن القرآن يرى اراده الإنسان و أعماله السبب الأساسی لكل سعاده أو شقاء،لا المسائل الظنيه و الوهميه التی اصطنعها البعض لأنفسهم.

ثمّ تطرقت الآيه إلى بيان جانب من مـذله هؤلاء و مسـكنتهم،فقالت، وَ نٰادَوْا يٰا مٰالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنٰا رَبُّكَ فمع أن كل امرئ يهرب من الموت و يريـد اسـتمرار الحيـاه و بقاءهـا،إلاّـ أنّه عنـد مـا تتوالی عليه المصـائب أحيانـا و يضـيق عليه الخنـاق يتمنى على اللّه الموت،و إذا كانت هذه الأمنيه قد تحدث أحيانا لبعض الناس فی الدنيا،فانّها تعمّ جميع المجرمين هناك،فكلهم يتمنى الموت.

و لكن حيث لا فائده من ذلك،فإنّ مالك النّار و خازنها يجيبهم: قٰالَ إِنَّكُمْ مٰاكِثُونَ (۲) .

و العجيب أنّ خازن النّار يجيبهم بعد ألف سـنه-برأی بعض المفسّـِرين-و بكل احتقار و عدم اهتمام،فما أشد إيلام هذا الاحتقار . (۳)

قـد يقـال:كيف يطلب هؤلاـء مثل هـذا الطلب مع يقينهم أن لا موت هناک؟غير أن مثل هـذا الطلب طبيعی من إنسان أحاطت به المصائب و الآلام،و قطع أمله من كل شیء.

أجـل،إنّ هؤلاـء عنـد ما يرون كل سـبل النجاه مغلقه فی وجوههم،سـيطلقون هـذه الصـرخه من أعماق قلوبهم،و لكن حق القول عليهم بالعذاب،فلا فائده من

۱- ۱) -الصف،الآيه ۷.

۲- ۲) -«مـاكثون»من مـاده(مكث)،و هو فی الأصـل التوقف المقترن بالانتظـار،و ربّمـا كـان هـذا التعبير من مالک اسـتهزاء،كما تقول-أحيانا-لمن يطلب شيئا لا يستحقه انتظر!

۳- ۳) -مجمع البيان،ذيل الآيات مورد البحث و قال البعض:إنّ المسافه بين السؤال و الجواب مائه سـنه،و آخرون:أربعون سنه، و مهما تكن فإنّها دليل على الاحتقار و عدم الاهتمام.

صراخهم،و لا صريخ لهم.

أمّا لماذا لا يطلب هؤلاء الموت من اللّه مباشره،بل يقولون لمالك: لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ ؟فلأنّهم فى ذلك اليوم محجوبون عن ربّهم،كما نقرأ ذلك فى الآيه (١۵)من سوره المطففين: كَلاّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ و لذلك يطلبون طلبتهم هذه من ملك العذاب.أو بسبب أن مالكا ملك مقرب عند اللّه سبحانه.

و تقول الآيه الأخرى،و التى هى فى الحقيقه عله لخلود هؤلاء فى نار جهنم:

لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ

.

و للمفسّرين رأيان مختلفان فى أن هذا الكلام هل هو من قبل مالك خازن النّار،و أن ضمير الجمع يعود على الملائكه و منهم مالك،أم أنّه كلام اللّه تعالى؟ السياق يوجب أن يكون الكلام كلام مالك،لأنّه أتى بعد كلامه السابق،إلاّ أنّ محتوى نفس الآيه ينسجم مع كونه كلام اللّه تعالى،و الشاهد الآخر لهذا الكلام الآيه(٧١)من سوره الزمر: وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ فهنا يعد الملائكه الرسل هم الذين جاؤوا بالحق،لا هم.

و للتعبير«بالحق»معنى واسع يشمل كل الحقائق المصيريه،و إن كانت مسأله التوحيد و المعاد و القرآن تأتى فى الدرجه الأولى.

و هذا التعبير يشير-فى الحقيقه-إلى أنّكم لم تخالفوا الأنبياء فحسب، و إنّما خالفتم الحق فى الواقع،و هذه المخالفه هى التى ساقتكم إلى العذاب الخالد الأبدى.

و تعكس الآيه التاليه جانبا من كراهيه هؤلاء للحق و اشمئزازهم منه،و كذلك مناصرتهم للباطل و التمسك به،فتقول: أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنّا مُبْرِمُونَ (١) فقد حاك هؤلاء الأشرار الدسائس و دبروا المؤامرات لإطفاء نور الإسلام،و قتل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يتورعوا فى إنزال الضربات بالإسلام و المسلمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

١- ١) -«أم»فى الآيه منقطعه،و هى بمعنى(بل)و الإبرام بمعنى الإحكام.

و فی المقابل أردنا أن نجازی هؤلاء فی هذه الحیاه الدنیا،و فی الآخره بأشد العذاب.

و یری بعض المفسّرین أن سبب نزول هذه الآیه هو قضیه مؤامره قتل النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قبل الهجره،و التی أشیر إلیها فی الآیه(۳۰)من سوره الأنفال: وَ إِذْ یَمْکُرُ بِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا... (۱) .

و الظاهر أن هذا من قبیل التطبیق،لا أنه سبب النّزول...

و الآیه الأخری بیان لإحدی علل التآمر،فتقول: أَمْ یَحْسَبُونَ أَنّٰا لاٰ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْوٰاهُمْ ؟فإن الأمر لیس کذلک،إذ نحن نسمع و رسلنا: بَلیٰ وَ رُسُلُنٰا لَدَیْهِمْ یَکْتُبُونَ .

«السر»هو ما یضمره الإنسان فی قلبه، أو ما یودعه من أسراره لدی إخوانه و أصدقائه،و«النجوی»هی الهمس فی الأذن.

نعم،فإنّ اللّه سبحانه لا یسمع نجواهم و همسهم فیما بینهم فحسب،بل یعلم ما یضمرونه فی أنفسهم أیضا،فإن السر و العلن لدیه سواء.

و الملائکه المکلفون بتسجیل أعمال البشر و أقوالهم یکتبون هذه الکلمات فی صحائف أعمالهم دائما،و إن کانت الحقائق بدون ذلک واضحه أیضا،لیروا جزاء أعمالهم و أقوالهم و مؤامراتهم فی الدنیا و الآخره.

***

۱- ۱) -الفخر الرازی،ذیل الآیات مورد البحث.

الآیات [سوره الزخرف (۴۳): الآیات ۸۱ الی ۸۵]

اشاره

قُلْ إِنْ کٰانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ اَلْعٰابِدِینَ (۸۱) سُبْحٰانَ رَبِّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ رَبِّ اَلْعَرْشِ عَمّٰا یَصِفُونَ (۸۲) فَذَرْهُمْ یَخُوضُوا وَ یَلْعَبُوا حَتّٰی یُلاٰقُوا یَوْمَهُمُ اَلَّذِی یُوعَدُونَ (۸۳) وَ هُوَ اَلَّذِی فِی اَلسَّمٰاءِ إِلٰهٌ وَ فِی اَلْأَرْضِ إِلٰهٌ وَ هُوَ اَلْحَکِیمُ اَلْعَلِیمُ (۸۴) وَ تَبٰارَکَ اَلَّذِی لَهُ مُلْکُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا وَ عِنْدَهُ عِلْمُ اَلسّٰاعَهِ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۸۵)

التّفسیر

ذرهم فی خوضهم یلعبون:

لما کان البحث فی الآیات السابقه-و خاصه فی بدایه السوره-عن مشرکی العرب و اعتقادهم بأنّ للّه ولدا،و أنّهم کانوا یظنون الملائکه بنات اللّه،و لما مر البحث فی عده آیات مضت عن المسیح علیه السّلام و دعوته إلی الوحدانیه الخالصه و العبودیه للّه وحده،فقد ورد البحث فی هذه الآیات فی نفی هذه العقائد الفاسده عن طریق آخر.

ص :۱۰۲

تقول الآیه: قُلْ إِنْ کٰانَ لِلرَّحْمٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعٰابِدِینَ لأن ایمانی باللّه أقوی من ایمانکم جمیعا،و معرفتی به أکبر،و علیه فیجب أن أعظّم ولده و أطیعه قبلکم.

و بالرغم من أنّ مضمون هذه الآیه بدا معقدا لجماعه من المفسّرین،فذکروا توجیهات مختلفه له کان بعضها عجیبا جدّا (۱) ، لکن لا یوجد فی الواقع أی تعقید فی محتوی الآیه،و هذا الأسلوب الرائع یستعمل مع الأفراد العنودین المتعصبین، کما لو قال شخص:إنّ فلانا أعلم من الجمیع،فی حین أنّه لا یعلم شیئا،فیقال له:

إذا کان هو الأعلم فأنا أوّل من یتبعه،و ذلک لیبذل القائل جهده فی البحث عن دلیل یدعم به مدعاه،و عند ما یصطدم بصخره الواقع یستیقظ من غفلته.

غایه ما فی الأمر أنّ هناک نکتتین یجب الالتفات إلیهما:

الأولی:أنّ العباده لا تعنی العباده فی کل الموارد،فقد تأتی أحیانا بمعنی الطاعه و التعظیم و الاحترام،و هی هنا بهذا المعنی،فعلی فرض أن للّه ولدا-و هو فرض محال-فلا دلیل علی عبادته،لکنّه لما کان-طبقا لهذا الفرض-ابن اللّه فیجب أن یکون مورد احترام و تقدیر و طاعه.

و الأخری:أنّ(لو)تستعمل بدل(أن)فی مثل هذه الموارد عاده فی أدب العرب،و هی تدل علی کون الشیء مستحیلا،و إنّما لم تستعمل فی الآیه-مورد البحث-مماشاه و انسجاما فی الکلام مع الطرف المقابل.

و علی هذا،فإنّ النّبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم یقول:لو کان للّه ولد لبادرت قبلکم إلی احترامه و تعظیمه،لیطمئن هؤلاء من استحاله أن یکون للّه ولد.

بعد هذا الکلام ذکرت الآیه دلیلا واضحا علی نفی هذه الادعاءات،فقالت:

۱- ۱) -فمثلا:إنّ بعض المفسّرین قد فسّر(إن)هنا بمعنی النفی،و(أنا أول العابدین)بمعنی أول من عبد اللّه،و علی هذا التّفسیر فإن معنی الآیه یصبح:لا ولد للّه أبدا،و أنا أوّل من عبد للّه! و فسر البعض الآخر(العابدین)بالذی یأبی العباده،و علی هذا یکون المعنی:إنّ کان للّه ولد فإنی سوف لا أعبد مثل هذا الرب أبدا،لأنه بأبوته لا یمکن أن یکون ربا. و واضح أن مثل هذه التفاسیر لا تنسجم مع ظاهر الآیه بأی وجه من الوجوه.

سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمّا يَصِفُونَ

فإنّ من كان مالكا للسماوات و الأرض و مدبرا لها،و ربّا للعرش العظيم، لا يحتاج إلى الولد،فهو الوجود اللامتناهى،و المحيط بكل عالم الوجود،و مربى كل عالم الخلقه،بل يحتاج الولد من يموت،و لا يستمر وجوده إلاّ عن طريق الولد.

الولد لازم لمن يحتاج العون و الأنس فى وقت العجز و الوحده.

و أخيرا فإن وجود الولد دليل على الجسمانيه و الانحصار فى حيّز الزمان و المكان.

إنّ ربّ العرش،و السماء و الأرض،و المنزّه عن كل هذه الأمور،غنى عن الولد.

و التعبير ب رَبِّ الْعَرْشِ بعد رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ من قبيل ذكر العام بعد الخاص،لأنّ العرش-و كما قلنا سابقا-يقال لمجموع عالم الوجود،و الذى هو عرش حكومه اللّه عزّ و جلّ.

و يحتمل أيضا أن يكون العرش إشاره إلى عالم ما وراء الطبيعه،فيكون فى مقابل السماوات و الأرض التى تشير إلى عالم الماده.

لمزيد الاطلاع على معنى العرش،راجع التّفسير الأمثل ذيل الآيه(۲۵۵)من سوره البقره،و أوسع منه ما جاء فى ذيل الآيه(۷)من سوره المؤمن.

ثمّ تضيف الآيه الأخرى كاحتقار لهؤلاء المعاندين و تهديد لهم،و هو بحد ذاته أسلوب آخر من أساليب البحث مع أمثال هؤلاء الأفراد فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ليجنوا عاقبه أعمالهم،و ليذوقوا و بال أمرهم.

من الواضح أن المراد من هذا اليوم الموعود هو يوم القيامه،و ما احتمله البعض من أن المراد هو لحظه الموت فيبدوا بعيدا جدّا،لأنّ الجزاء على الأعمال يكون فى يوم القيامه لا فى لحظه الموت.

إنّه نفس اليوم الموعود الذى أقسم اللّه تعالى به فى الآيه(۲)من سوره البروج، حيث تقول الآيه: وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ .

و تواصل الآیتان التالیتان البحث حول مسأله التوحید،و هما تشکلان نتیجه للآیات السابقه من جهه،و من جهه أخری دلیلا لتکملتها و إثباتها.و فیهما سبع من صفات اللّه سبحانه،و لجمیعها أثر فی تحکیم و تقویه مبانی التوحید.

فتقف الآیه الأولی بوجه المشرکین الذین کانوا یعتقدون بانفصال إله السماء عن إله الأرض،بل ابتدعوا للبحر إلها،و للصحراء إلها و آخر للحرب،و رابعا للصلح و السلم،و آلهه مختلفه و متعدده بتعدد الموجودات،فتقول: وَ هُوَ الَّذِی فِی السَّمٰاءِ إِلٰهٌ وَ فِی الْأَرْضِ إِلٰهٌ لأنّ کونه إلها فی السماء و الأرض یثبت کونه ربّا و معبودا فیهما-و قد مرّ ذلک فی الآیات السابقه-لأنّ المعبود الحقیقی هو ربّ العالم و مدبره،لا الأرباب المختلفه،و لا الملائکه،و لا المسیح و لا الأصنام،فکلها لیست أهلا لأن تکون أربابا و آلهه،إذ لیس لها مقام الربوبیه،فکلها مخلوقه فی أنفسها و مربوبه،و تتمتع بأرزاق اللّه،و کلها تعبده سبحانه.

و تقول فی الصفتین الثّانیه و الثّالثه وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْعَلِیمُ فکل أعماله تقوم علی أساس الدقّه و الحساب و النظم،و هو علیم بکل شیء و محیط به،و بذلک فإنّه یعلم أعمال العباد جیدا،و یجازیهم علیها طبقا لحکمته.

و تتحدث الآیه الثانیه فی الصفتین الرابعه و الخامسه،برکات وجوده الدائمه الوفیره،و عن امتلاکه السماء و الأرض و ما بینهما،فتقول: تَبٰارَکَ الَّذِی لَهُ مُلْکُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا .

«تبارک»من ماده برکه،و تعنی امتلاک النعمه الوفیره،أو الثبات و البقاء،أو کلیهما،و کلاهما یصدقان فی شأن اللّه تعالی،فإنّ وجوده باق و خالد،و هو مصدر النعم الکثیره.

و لیس للخیر الکثیر کمال المعنی إذا لم یکن ثابتا و باقیا،فإنّ الخیرات مهما کانت کثیره،فهی تعد قلیله إذا کانت مؤقته و سریعه الزوال.

و تضیف فی الصفتین السّادسه و السّابعه: وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّٰاعَهِ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ

و على هـذا فإذا أردتم الخير و البركه فاطلبوها منه لا من الأصـنام،فإن مصائركم إليه يوم القيامه،و هو المرجع الوحيد لكم،و بيده كل شيء،و ليس للأصنام و الآلهه أي دور في هذه الأمور.

***

ملاحظات

۱-لقـد تكررت(السـماوات و الأـرض)في هـذه الآيـات ثلاـث مرات:مرّه لبيـان كون اللّه ربّا و مـدبرا لهما،و أخرى في كونه إلها فيهمـا،و ثـالثه في كونه مالكـا و حاكما،و هـذه الأمور الثلاثه مترابطه ببعضـها،و هي في الحقيقه عله و معلول لبعضـها البعض،فهو مالك،و لذلك فهو ربّ،و هو في النتيجه إله.و وصفه بالحكيم و العليم إكمال لهذه المعاني.

۲-يسـتفاد من بعض الرّوايات الإسـلاميه أن تعبير الآيات المذكوره ب وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّمٰاءِ إِلٰهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلٰهٌ كان قد أصبح وسيله لبعض الزنادقه و المشركين لإثبات مدعاهم،و كانوا يفسّرون الآيه-حسب سفسطتهم-بأن في السماء إلها،و في الأرض إلها آخر غيره،في حين أنّ الآيه تقول بعكس ذلك،فهي تقول:إنّه الإله الـذي يعبد في السـماء و في الأرض،أي إنّه تعالى هو المعبود في كل مكان.

و مع ذلـك،فإنّ الزنادقه عنـد ما كانوا يطرحون هـذا المطلب كسؤال أمام الأئمّه المعصومين،فإنّهم عليهم السّـلام كانوا يجيبونهم على طريقه النقض و الحل:

فمن جمله ذلک ما

ورد في الكافي عن هشام بن الحكم،أنّه قال:قال أبو شاكر الديصاني (۱) : إن في القرآن آيه هي قولنا،قلت:ما هي؟قال:

ص:۱۰۶

۱- ۱) -كان أبو شاكر الـديصاني أحـد علماء فرقه الديصانيه،الذين كانوا يعتقدون بعباده إلهين،و يقولون بإله النور و إله الظلمه. (لغت نامه دهخدا ماده ديصان).

وَ هُوَ الَّذِی فِی السَّمٰاءِ إِلٰهٌ وَ فِی الْأَرْضِ إِلٰهٌ

فلم أدر بما أجیبه.

فحججت فخبرت أبا عبد اللّه علیه السّلام،فقال:«هذا کلام زندیق خبیث،إذا رجعت إلیه فقل له:ما اسمک بالکوفه؟فإنّه یقول:فلان،فقل له:ما اسمک فی البصره؟فإنّه یقول:فلان،فقل:کذلک اللّه ربّنا،فی السماء إله،و فی الأرض إله،و فی البحار إله، و فی القفار إله،و فی کل مکان إله».

قال:فقدمت فأتیت أبا شاکر فأخبرته،فقال:هذه نقلت من الحجاز (۱) .

و ذکر المفسّر الکبیر العلاّمه الطبرسی لتکرار لفظ الإله،فی هذه الآیه علتین:

إحداهما:التأکید علی کون اللّه تعالی إلها فی کل مکان.

و الأخری:أنه إشاره إلی أن ملائکه السماء تعبده،و البشر فی الأرض یعبدونه أیضا،و علی هذا فإنه إله الملائکه و بنی آدم و کل الموجودات فی السماوات و الأرض.

***

۱- ۱) -أصول الکافی،المجلد الأول،کتاب التوحید،باب الحرکه و الانتقال حدیث ۱۰.

الآيات [سوره الزخرف (۴۳): الآيات ۸۶ الی ۸۹]

اشاره

وَ لاٰ يَمْلِكُ اَلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ اَلشَّفٰاعَةَ إِلاّٰ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۸۶) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اَللّٰهُ فَأَنّٰى يُؤْفَكُونَ (۸۷) وَ قِيلِهِ يٰا رَبِّ إِنَّ هٰؤُلاٰءِ قَوْمٌ لاٰ يُؤْمِنُونَ (۸۸) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلاٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۸۹)

التّفسير

اشاره

من يملک الشفاعه؟

لا زال الحديث فی هذه الآيات-و هی آخر آيات سوره الزخرف-حول إبطال عقيده الشرک و تفنيدها،و عاقبه المشركين المرّه،و هی توضح بطلان عقيدتهم بدلائل أخرى.

تقول الآيه الأولى: وَ لاٰ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفٰاعَةَ فلا تقام الشفاعه عند اللّه إلاّ بإذنه،و لم يأذن اللّه الحكيم بها لهذه الأحجار و الأخشاب التی لا قيمه لها،و الفاقده للعقل و الشعور و الإدراک مطلقا.

لکن لما کانت الملائکه و أمثالها من بين آلهه هؤلاء،فقد استثنوا فی ذيل الآيه،

فقالت: إِلاّٰ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ و هم الذين أسلموا لوحدانيه اللّه سبحانه فى جميع المراحل،و أذعنوا لها.نعم،هؤلاء هم الذين يشفعون بإذن اللّه تعالى.

لكن ليس الأمر كما تتوهمون أنّهم يشفعون لأى كان،حتى و إن كان وثنيا و مشركا و منحرفا عن طريق التوحيد و ضالا عن الصراط المستقيم،بل وَ هُمْ يَعْلَمُونَ جيدا لمن يشفعون.

و على هذا فإنّهم يقطعون الأمل من شفاعه الملائكه لسببين:

الأوّل:أنّها كانت بنفسها تقرّ بوحدانيه اللّه و تشهد بها،و لذلك حصلت على إذن الشفاعه.

و الآخر:أنهم يعرفون جيدا من له أهليه الشفاعه و مستحقها (١) .

و اعتبر البعض جمله وَ هُمْ يَعْلَمُونَ مكمله لجمله إِلاّٰ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ و على هذا يصبح معنى الآيه:إنّ الذين يشهدون بالتوحيد و يعلمون حقيقته هم الذين يملكون حق الشفاعه فقط.إلاّ أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب.

و على أيه حال،فإن هذه الآيه تبيّن الشرط الأساس الذى ينبغى توفره فى الشفاعه عند اللّه تعالى،و هم الشاهدون بالحق،و العالمون به على الدوام و المحيطون بروح التوحيد جيدا،و هم كذلك عالمون بأحوال المشفوع لهم و أوضاعهم.

ثمّ تدين المشركين من أفواههم،و تجيبهم جوابا قاطعا،فتقول: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ .

لقد قلنا مرارا إن من النادر أن يوجد من بين مشركى العرب و غيرهم من يعتقد أن الأصنام هى الخالقه لهم،فإنّ الأعم الأغلب منهم يعتبرون الأصنام وسائط

١- ١) -طبقا لهذا التّفسير فإن استثناء(إلاّ من شهد بالحق)استثناء متصل،لكنه يصبح منقطعا فيما إذا كان المراد من جمله(الذين يدعون من دونه الشفاعه)خصوص الأصنام.لكن يبدو أن المعنى الأوّل هو الأنسب،خاصه بملاحظه(الذين)و هى للعاقل، أو التغليب من العاقل و غير العاقل.

و شفعاء یقربونهم إلی اللّه زلفی،أو أنها دلائل و علامات لأولیاء اللّه المقدسین،ثمّ یضمون إلیها ذریعه أن معبودنا یجب أن یکون موجودا ملموسا و محسوسا لنأنس به،فیعبدونها،و لذا فإنّهم متی ما سئلوا عن خالقهم فسیقولون:اللّه.

و قد ذکّر القرآن مرارا بحقیقه أن العباده لا تلیق إلاّ بخالق هذا الکون و مدبره، و إذا کنتم تعلمون أن اللّه هو الخالق و المدبر،فلم یبق لکم إلاّ أن تقصروا عبادتکم علیه،و تخصوه بها.

و لذلک فإنّ الآیه تقول فی نهایتها فَأَنّٰی یُؤْفَکُونَ و هو لوم و توبیخ لهم..

فإنّکم إذا علمتم حقیقه الأمر فلم تعرضون عن اللّه و تعبدون غیره؟ و تحدثت الآیه التالیه عن شکوی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی اللّه سبحانه من هؤلاء القوم المتعصبین الذین لا منطق لدیهم،فقالت: وَ قِیلِهِ یٰا رَبِّ إِنَّ هٰؤُلاٰءِ قَوْمٌ لاٰ یُؤْمِنُونَ .

إنّه یقول:لقد تحدثت مع هؤلاء القوم لیلا و نهارا،فأتیتهم من طریق التبشیر و الإنذار،و ذکرت لهم قصص الأقوام الماضین المؤلمه،و حذرتهم من عذابک، و رغبتهم فی رحمتک إن هم رجعوا عن طریق الضلال،و خلاصه القول:إنّی أبلغتهم الأمر ما استطعت إلی ذلک سبیلا،و قلت کل ما ینبغی أن یقال،إلاّ أن حراره کلامی لم تؤثر فی بروده قلوبهم،فهی کالحجاره أو أشدّ قسوه،فلم یؤمنوا (1) .

و یأمر اللّه سبحانه نبیّه فی آخر آیه أن فَاصْفَحْ عَنْهُمْ و لا یکن إعراضک عنهم إعراض افتراق و غضب و أذی و جرح للمشاعر، بل أعرض عنهم وَ قُلْ سَلاٰمٌ لا سلام تحیه و محبّه،بل سلام وداع و افتراق.

۱- ۱) -هنا اختلاف کبیر بین المفسّرین فی أن(قیله)معطوفه علی ماذا؟فالبعض یعتقد أنها معطوفه علی الساعه التی مرت قبل ثلاث آیات،و علی هذا یصبح معنی الجمله:إنّ اللّه عنده علم الساعه،و شکوی النّبی من الکفار. و البعض الآخر اعتبرها معطوفه علی(علم الساعه)بشرط أن تکون(علم)مقدره قبل(قیله)کمضاف محذوف.و هو لا یختلف کثیرا عن التّفسیر الأول. و اعتبر جماعه الواو واو القسم.و هناک احتمالات أخری لو ذکرناها هنا لطال بنا المقام. و هنا احتمال آخر لعله أفضل من کل ما قیل فی هذا الباب،و هو أنّها معطوفه علی محذوف جمله:(انی یؤفکون)،و تقدیر ذلک: (أنی یؤفکون عن عبادته و عن قیله یا رب إن هؤلاء قوم لا یؤمنون).

إنّ هذا السلام يشبه ذلک السلام الذی ورد فی الآیه(۶۳)من سوره الفرقان:

وَ إِذٰا خٰاطَبَهُمُ الْجٰاهِلُونَ قٰالُوا سَلاٰماً سلام هو علامه اللامبالاه بهم ممتزجه بالعلوّ و العزه.

و مع ذلک فإنّه تعالی یهددهم و یحذرهم بجمله عمیقه المعنی،لئلا یتصوروا أن اللّه تارکهم بعد هذا الفراق و الوداع،فیقول: فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ .

نعم،سوف یعلمون أی نار محرقه قد أوقدوها لأنفسهم بعنادهم،و أی عذاب ألیم قد هیأوا أسبابه لیطالهم فیما بعد؟ و قد ذکر البعض سبب نزول الآیه وَ لاٰ یَمْلِکُ الَّذِینَ یَدْعُونَ... و هو:أن «النضر بن الحارث»و نفرا من قریش قالوا:إنّ کان ما یقوله محمّد حقا،فلا حاجه لنا بشاعته،فإننا نحبّ الملائکه و هم أولیاؤنا،و هم أحق بالشفاعه،فنزلت هذه الآیه و نبهتهم علی أن الملائکه لا تشفع یوم القیامه إلاّ لمن یشهدون بالحق،أی للمؤمنین.

و هنا تنتهی سوره الزخرف.

اللّهم،قربنا منک و من أولیائک یوما بعد یوم،و زدنا حبا لک و لهم حتی تنالنا شفاعتهم.

اللّهم،احفظنا من کل شرک خفی و جلی.

إلهنا،قد وصفت یوم القیامه فی کتابک بصفات مهوله و مفزعه و تجعل الناس سکاری و ما هم بسکاری..

اللهم فعاملنا بفضلک فی ذلک الیوم و لا تعاملنا بعدلک، یا أرحم الراحمین.

آمین ربّ العالمین.

نهایه سوره الزخرف ***

ص:۱۱۱

سوره الدّخان

اشاره

مکیّه و عدد آیاتها تسع و خمسون آیه

ص :۱۱۳

محتوى سوره الدّخان:

هـذه السوره هى خـامس الحواميم السـبعه،و لمـا كـانت من السوره المكيه،فإنّها تتضـمن الأبحاث العامه لتلك السور،أى البحث حول المبدأ و المعاد و القرآن بصوره تامّه.و قد نسـجت آياتها و نظمت فى هذا الباب تنظيما تنزل معه ضرباتها الحاسمه المفزعه على القلوب الغافله الذاهله عن ربها،و تدعوها إلى الإيمان و التقوى،و الحق و العداله.

و يمكن تلخيص فصول هذه السوره فى سبعه:

١-بدايه السوره بالحروف المتقطعه،ثمّ بيان عظمه القرآن،مع تبيان نزوله فى ليله القدر أوّل مره.

٢-و تتحدث فى الفصل الثّانى عن التوحيد و وحدانيه اللّه سبحانه،و بيان بعض مظاهر عظمته فى عالم الوجود.

٣-و يتحدث قسم مهم منها عن مصير الكفار و عاقبتهم،و أنواع العقوبات الأليمه التى نزلت و ستنزل بهم.

۴-و تتحدث السوره فى فصل آخر عن قصه موسـى عليه السّـلام و بنى إسـرائيل مع قوم فرعون،و هزيمه قوم فرعون و هلاكهم و فنائهم،من أجل إيقاظ هؤلاء الغافلين.

۵-و تشـكل مسأله القيامه و أنواع العذاب الأليم الذى سينال أصحاب الجحيم، و المثوبات العظيمه التى تسر الروح،و التى سينالها المتقون،فصلا آخر من آيات هذه السوره.

ص: ١١۵

۶-و من المواضيع الأخرى التى طرحت فى هذه السوره موضوع الغايه من الخلق،و عدم كون خلق السماء و الأرض عبثا.

۷-و أخيرا تنتهى السوره ببيان عظمه القرآن الكريم كما بدأت بذلك.

و لما كان الكلام فى الآيه العاشره من هذه السوره عن«الدخان المبين»،فقد سميت بسوره الدخان.

فضل تلاوه هذه السوره

جاء فى حديث عن نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «من قرأ سوره الدخان ليله الجمعه و يوم الجمعه بنى اللّه له بيتا فى الجنّه» (۱) و

روى عنه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سوره الدخان فى ليله أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك» (۲) .

و

فى حديث آخر عن أبى حمزه الثمالى،عن الإمام الباقر عليه السّلام: «من قرأ سوره الدخان فى فرائضه و نوافله بعثه اللّه من الآمنين يوم القيامه،و أظله تحت ظل عرشه،و حاسبه حسابا يسيرا،و أعطى كتابه بيمينه» (۳) .

***

۱- ۱) -مجمع البيان،المجلد ۹،بدايه سوره الدخان.

۲- ۲) -المصدر السابق.

۳- ۳) -المصدر السابق.

الآیات [سوره الدخان (۴۴): الآیات ۱ الی ۸]

اشاره

بِسْمِ اَللَّهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ حم (۱) وَ اَلْکِتٰابِ اَلْمُبِینِ (۲) إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهٍ مُبٰارَکَهٍ إِنّٰا کُنّٰا مُنْذِرِینَ (۳) فِیهٰا یُفْرَقُ کُلُّ أَمْرٍ حَکِیمٍ (۴)
أَمْراً مِنْ عِنْدِنٰا إِنّٰا کُنّٰا مُرْسِلِینَ (۵) رَحْمَهً مِنْ رَبِّکَ إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِیعُ اَلْعَلِیمُ (۶) رَبِّ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَیْنَهُمٰا إِنْ کُنْتُمْ مُوقِنِینَ
(۷) لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ یُحْیِی وَ یُمِیتُ رَبُّکُمْ وَ رَبُّ آبٰائِکُمُ اَلْأَوَّلِینَ (۸)

التّفسیر

اشاره

نزول القرآن فی اللیله المبارکه:

نلاحظ فی بدایه هذه السوره-و کالسور الأربعه السابقه،و السورتین الآتیتین، و التی یکون مجموعها سبع سور هی سور الحوامیم-الحروف المقطعه(حم)،و قد بحثنا کثیرا فیما مضی حول الحروف المقطعه فی القرآن بصوره عامه (۱) ،و بحثت حروف(حم)خاصه فی بدایه أوّل سوره من الحوامیم(سوره المؤمن)و فی بدایه سوره فصلت.

ص: ۱۱۷

۱- ۱) -راجع تفسیر بدایه سوره البقره،بدایه سوره آل عمران،بدایه سوره الأعراف.

و جدیر بالانتباه أن بعض المفسّرین فسّر(حم)هنا بالقسم،فیصبح فی الآیه قسمان متتابعان:قسم بحروف الهجاء ک(حم)،و قسم بهذا الکتاب المقدس الذی یکون من هذه الحروف.

و کما قلنا،فإنّ الآیه الثانیه أقسمت بالقرآن الکریم،حیث تقول: وَ الْکِتٰابِ الْمُبِینِ ذلک الکتاب الواضح محتواه،و البینه معارفه...الحیه تعلیماته،البناءه أحکامه،الدقیقه برامجه و خططه،و هو الکتاب الذی یدل بنفسه علی کونه حقّا، کما أن بزوغ الشمس دلیل علی الشمس. (۱)

لکن لنر الآن ما هو القصد من وراء ذکر هذا القسم؟ الآیه التالیه توضح هذا الأمر،فتقول: إِنّٰا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهٍ مُبٰارَکَهٍ .

«المبارک»من ماده برکه،و هی الربح و المنفعه و الخلود و الدوام،فأی لیله هذه التی تکون مبدأ الخیرات،و منبع الإحسان و العطایا الدائمه؟ لقد فسّرها أغلب المفسّرین بلیله القدر،تلک اللیله العظیمه التی تغیرت فیها مقدرات البشر بنزول القرآن الکریم...تلک اللیله التی تقدر فیها مصائر الخلائق...

نعم،لقد نزل القرآن علی قلب النّبی المطهر فی لیله حاسمه مصیریه.

و تجدر الإشاره إلی أنّ ظاهر الآیه هو أنّ القرآن کله قد نزل فی لیله القدر.

أمّا ما هو الهدف الأساس من نزوله؟نهایه الآیه أشارت إلیه إذ قالت: إِنّٰا کُنّٰا مُنْذِرِینَ فإن سنتنا الدائمه هی إرسال الرسل لإنذار الظالمین و المشرکین،و کان إرسال نبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم بهذا الکتاب المبین آخر حلقه من هذه السلسله المبارکه المقدسه.

صحیح أنّ الأنبیاء علیهم السّلام ینذرون من جانب،و یبشرون من جانب آخر،لکن لما کان أساس دعوتهم هو مواجهه الظالمین و المجرمین و محاربتهم،کان أغلب

۱- ۱) -سنبحث حول فلسفه الأیمان و القسم فی القرآن،و الهدف الأساسی منها،فی تفسیر الجزء الأخیر من القرآن الکریم،فی ذیل الآیات الکثیره التی یلاحظ القسم فیها مکررا.إن شاء اللّه تعالی.

كلامهم عن الإنذار و التخويف.

نزول القرآن الدفعی و التدریجی:

١-نحن نعلم أن القرآن الكريم نزل على مدى ثلاث و عشرين سنه-و هی فتره نبوّة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إضافه إلی أن لمحتوى القرآن ارتباطا و علاقه بالحوادث المختلفه التی وقعت فی حیاه النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین طوال هذه ال(٢٣)سنه،بحیث أنها إذا فصلت عن القرآن الكريم فسیكون غیر مفهوم،و إذا كان الحال كذلك فكیف نزل القرآن الكريم كاملا فی لیله القدر؟ و فی معرض الإجابه على هذا السؤال،ذهب البعض هذا المعنى ببدایه نزول القرآن،و بناء على هذا فلا مانع من أن تكون بدایه نزوله فی لیله القدر،و ینزل الباقی خلال(٢٣)سنه.

غیر أن هذا التّفسیر-و كما قلنا-لا ینسجم مع ظاهر الآیه مورد البحث،و مع آیات أخرى فی القرآن المجید.

و للاجابه على هذا السؤال یجب الانتباه إلی أننا نقرأ فی هذا الآیه إِنّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَهٍ مُبارَكَهٍ من جهه،و من جهه أخرى جاء فی الآیه(١٨٥)من سوره البقره شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ و من جهه ثالثه نقرأ فی سوره القدر إِنّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَهِ الْقَدْرِ فیستفاد جیدا من مجموع هذه الآیات أن اللیله المباركه فی هذه الآیه إشاره إلی لیله القدر التی هی من لیالی شهر رمضان المبارك.

و إضافه إلی ما مر،فإنه یستفاد من آیات عدیده أن النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم كان عالما بالقرآن قبل نزوله التدریجی،كالآیه(١١۴)من سوره طه وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ یُقْضی إِلَیْكَ وَحْیُهُ .

و جاء فی الآیه(۶)من سوره القیامه لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ .

من مجموع هذه الآیات یمكن الاستنتاج أنه كان للقرآن نزولان:

الأوّل:نزوله دفعه واحده،حیث نزل من اللّه سبحانه علی قلب النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم الطاهر فی لیله القدر من شهر رمضان.

و الثّانی:النّزول التدریجی،حیث نزل علی مدی(۲۳)سنه بحسب الظروف و الحوادث و الاحتیاجات.

و الشاهد الآخر لهذا الکلام أن بعض الروایات قد عبرت بالإنزال،و بعضها الآخر بالنّزول،و الذی یفهم من متون اللغه أن التنزیل یستعمل فی الموارد التی ینزل فیها الشیء تدریجیا و متفرقا،أما الإنزال فله معنی واسع یشمل النّزول التدریجی و النّزول دفعه واحده. (۱)

و الطریف أنّ کل الآیات المذکوره التی تتحدث عن نزول القرآن فی لیله القدر و شهر رمضان قد عبرت بالإنزال،و هو یتوافق مع النّزول دفعه واحده،فی حین عبر بالتنزیل فقط فی الموارد التی دار الکلام فیها حول النّزول التدریجی للقرآن.

لکن،کیف کان هذا النّزول جمله علی قلب النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم؟هل کان علی هیئه هذا القرآن الذی بین أیدینا بآیاته و سوره المختلفه،أم أنّ مفاهیمه و حقائقه قد نزلت بصوره مختصره جامعه؟ لیس الأمر واضحا بدقّه،بل القدر المتیقن الذی نفهمه من القرائن-أعلاه-أن هذا القرآن قد نزل دفعه واحده فی لیله واحده علی قلب النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم مرّه،و نزل علی مدی(۲۳)سنه بصوره تدریجیه مرّه أخری.

و الشاهد الآخر لهذا الکلام،أنّ للتعبیر بالقرآن-فی الآیه أعلاه-ظهورا فی مجموع القرآن.

صحیح أنّ کلمه القرآن تطلق علی کل القرآن و جزئه،لکن لا یمکن إنکار أن ظاهر هذه الکلمه هو مجموع القرآن عند عدم وجود قرینه أخری معها.و التی فسر بها البعض هذه الآیه بأنها بدایه نزول القرآن،و قالوا:إنّ أوّل آیات القرآن نزلت

۱- ۱) -تراجع مفردات الراغب،ماده نزل.

فی شهر رمضان و لیله القدر،الأمر الذی یخالف ظاهر الآیات.

و أضعف منه قول القائل:لما کانت سوره الحمد-التی هی خلاصه لمجموع القرآن-قد نزلت فی لیله القدر،فقد عبر ب إِنّا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهِ الْقَدْرِ .

إن کل هذه الاحتمالات مخالفه لظاهر الآیات،لأن ظاهرها أن کل القرآن قد نزل فی لیله القدر.

الشیء الوحید الذی یبقی هنا هو ما نقرؤه فی روایات عدیده

رویت فی تفسیر علی بن إبراهیم.عن الإمام الباقر و الصادق و أبی الحسن موسی بن جعفر علیهم السّلام أنّهم قالوا فی تفسیر إِنّا أَنْزَلْنٰاهُ فِی لَیْلَهٍ مُبٰارَکَهٍ :«هی لیله القدر،أنزل اللّه عزّ و جلّ القرآن فیها إلی البیت المعمور جمله واحده،ثمّ نزل من البیت المعمور علی رسول اللّه فی طول عشرین سنه». (1)

(التفتوا جیدا إلی أن الروایه قد عبرت عن النّزول جمله واحد ب(أنزل)و عن النّزول التدریجی ب(نزل).

و أین هو«البیت المعمور»؟صرحت روایات عدیده-سیأتی تفصیلها فی ذیل الآیه(۴)من سوره الطور،إن شاء اللّه تعالی-بأنه بیت فی السماوات بمحاذاه الکعبه،و هو محل عباده الملائکه،و یحج إلیه کل یوم سبعون ألف ملک لا یعودون إلیه إلی یوم القیامه.

لکن فی أی سماء هو؟الرّوایات مختلفه،ففی کثیر منها أنه فی السماء الرابعه، و فی بعضها أنه فی السماء الأولی-السماء الدنیا-و جاء فی بعضها أنه فی السماء السابعه.

و نطالع

فی الحدیث الذی نقله العلاّمه الطبرسی فی مجمع البیان فی تفسیر سوره الطور عن علی علیه السّلام: «هو البیت فی السماء الرابعه بحیال الکعبه،تعمره

۱- ۱) -تفسیر نور الثقلین،المجلد ۴،ص ۶۲۰.و قد ذکر هذا الحدیث أن القرآن نزل تدریجیا فی عشرین سنه،فی حین أننا نعلم فتره النبوه التی نزل فیها القرآن کانت(۲۳)سنه،و لعله هذا القول اشتباه من الراوی،أو غلط فی نسخ الحدیث.

الملائکه بما یکون منها فیه من العباده،و یدخله کل یوم سبعون ألف ملک ثمّ لا یعودون إلیه أبدا» (۱) .

و علی أیه حال،فإنّ نزول القرآن جمله واحده إلی البیت المعمور فی لیله القدر لا ینافی علم النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم به مطلقا،فإنّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم لا سبیل له إلی اللوح المحفوظ الذی هو مکنون علم اللّه،إلاّ أنّه عالم بالعوالم الأخری.

و بتعبیر آخر،فإن ما استفدناه و فهمناه من الآیات السابقه،بأن القرآن نزل علی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم مرتین:نزولا دفعیا فی لیله القدر،و نزولا تدریجیا طوال(۲۳)عاما، لا ینافی الحدیث المذکور الذی یقول:إنّه نزل فی لیله القدر إلی البیت المعمور، لأن قلب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم مطلع علی البیت المعمور.

و قد اتضح من خلال ما قیل فی الجواب عن هذا السؤال،الإجابه عن سؤال آخر یقول:إذا کان القرآن نزل فی لیله القدر،فکیف کانت بدایه بعثه النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی السابع و العشرین من شهر رجب طبقا للروایات المشهوره؟حیث کان لنزوله فی رمضان صفه الجمع و الکلیه،فی حین أن أوّل آیاته نزلت فی(۲۷)رجب،کبدایه للنزول التدریجی،و بذلک فلا مشکله من هذه الناحیه.

و الآیه التالیه وصف و توضیح للیله القدر،حیث تقول: فِیهٰا یُفْرَقُ کُلُّ أَمْرٍ حَکِیمٍ .

التعبیر ب(یفرق)إشاره إلی أن کل الأمور و المسائل المصیریه تقدر فی تلک اللیله،و التعبیر ب«الحکیم»بیان لاستحکام هذا التقدیر،و عدم تغیره،و کونه حکیما.غایه ما فی الباب أن هذه الصفه تذکر عاده للّه سبحانه،و وصف الأمور الأخری بها من باب التأکید. (۲) .

ص: ۱۲۲

۱- ۱) -مجمع البیان،المجلد ۹،صفحه ۱۶۳.و قد جمع العلاّمه المجلسی فی بحار الأنوار،المجلد ۵۸،صفحه ۵۵ و ما بعدها، الروایات المتعلقه بالبیت المعمور.

۲- ۲) -ذکر فی تفسیر المیزان تفسیر آخر لهذه الآیه،خلاصته،إن الأمور هذا العالم مرحلتین:مرحله الإجمال و الإبهام،و التی عبر عنها ب(حکیم)،و مرحله التفصیل و الکثره،و التی عبر عنها ب(یفرق)المجلد ۱۸،صفحه ۱۴۰.

و هـذا البيان ينسـجم مع الرّوايات الكثيره التى تقول:إنّ مقـدرات كل بنى آدم لمـدّه سـنه تقـدر فى ليله القـدر،و كـذلك تفرق الأرزاق و الآجال و الأمور الأخرى فى تلك الليله.

و سـيأتى تفصـيل الكلام فى هـذا البحث و المسائل الأخرى التى ترتبط بليله القـدر،و عـدم التناقض بين هـذا التقدير،و بين حريه البشر،فى تفسير سوره القدر، إن شاء اللّه تعالى.

و تقول الآيه الأخرى لتأكيد أنّ القرآن منزل من قبل اللّه تعالى: أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنّا كُنّا مُرْسِلِينَ . (۱)

و لأجل تبيان العله الأساسيه لنزول القرآن و إرسال النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و كون المقـدرات فى ليله القـدر،تضيف الآيه: رَحْمَهً مِنْ رَبِّکَ . (۲)

نعم،فإن رحمته التى لا تحدّ توجب أن لا يترك العباد و شأنهم،بل يجب أن ترسل إليهم التعليمات اللازمه لترشدهم فى سيرهم إلى اللّه عبر ذلك المسير التكاملى المليء بالالتواءات و التعرجات،فإن كل عالم الوجود يصدر عن رحمته الواسعه و ينبع منها، و البشر أكثر تنعما بهذه الرحمه من كل الموجودات.

و تذكر نهايه هذه الآيه-و الآيات التاليه-سبع صفات للّه سبحانه،و كلها تبين توحيده و وحدانيته،فتقول: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فهو يسمع طلبات العباد،و هو عليم بأسرار قلوبهم.

ثمّ تقول،مبينه للصفه الثالثه رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ

ص :۱۲۳

۱- ۱) -هناك احتمالات مختلفه فى محل جمله(أمرا من عندنا..)من الإعراب،و إلى أى من بحوث الآيات السابقه تنظر؟ و أنسب هذه الاحتمالات أن تكون جمله(أمرا من عندنا)حالا لضمير مفعول(إنا أنزلناه)،أى:إنا أرسلنا القرآن،و كان ذلك أمرا من عندنا.و هـذا الاحتمال ينسجم فى هذه الصوره تماما من جمله(إنا كنا مرسلين)و التى تتحدث عن إرسال النبى صلى الله عليه و آله و سلم. و يحتمل أيضا أن يكون توضيحا ب(كل أمر حكيم)و نصبها على الاختصاص،فيكون المعنى:أعنى بهـذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا.

۲- ۲) -(رحمه من ربك)مفعول لأجله ب(إنا أنزلناه)،أو ل(يفرق كل أمر حكيم)،أو لكليهما.

(۱)

(۲)

لمّـا كـان كثير من المشـركين يعتقـدون بوجود آلهه و أرباب عديـدين،و كانوا يظنون أن لكل موجود من الموجودات إله.و لمّا كـان التعبير ب(ربّـك)فى الآـيه السـابقه يمكـن أن يـوهم أن ربّ النّبى صـلى اللّه عليـه و آلـه و سـلّم غير ربّ الموجـودات الأخرى،فإن هـذه الآيه أبطلت كل هذه الأوهام بجمله رَبِّ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا و أثبتت أن ربّ كل موجودات العالم واحد.

و جمله إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ التى وردت هنا بصيغه الجمله الشرطيه،تبعث على التساؤل:هل أن كون ربّ العالم ربّا،مشروط بمثل هذا الشرط؟ الظاهر أن المراد من ذكر هذه الجمله هو بيان أحد معنيين أو كليهما:

الأوّل:إذا كنتم طلاب يقين،فإنّ السبيل إلى ذلك هو أن تتفكروا فى ربوبيه اللّه المطلقه.

و الآـخر:إذا كنتم من أهـل اليقين فـإن أفضل مورد لتحصـيل هـذا اليقين هو أن تتفكروا فى آثار رحمه اللّه،فإنّكم إذا نظرتم إلى الآثـار فى كـل عالم الوجود دلتكم على أن اللّه ربّ كل شـىء،و إذا فلقتم قلب كل ذرّه رأيتم فيه دلاله على هـذه الربوبيه،ثمّ إذا لم توقنوا بعـد هـذا بكونه تعـالى ربا،فبأى شـىء فى هـذا العالم يمكن أن توقنوا و تؤمنوا؟ و تقول فى الصـفه الرابعه و الخامسه و السادسه لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ (۳) فحياتكم و مماتكم بيده،و هو سبحانه ربكم و رب العالمين،و على هذا فلا إله سواه،أو يكون من ليس له مقام الربوبيه و لا أهليتها،و لا يملكك الحياه و الموت ربّا

۱- ۱) -كلمه(ربّ)فى هذه الآيه بدل من(ربّ)فى الآيه السابقه.

۲- ۲) -جزاء الجمله الشـرطيه(إن كنتم موقنين)محـذوف،و تقـدير الكلاـم:إن كنتم من أهل اليقين،أو فى طلب اليقين،علمتم أن اللّه ربّ السماوات و الأرض و ما بينهما.

۳- ۳) -يمكـن أن تكـون جمله(لا إله إلا هو)استئنافيه،أو خبرا لمبتـدأ محـذوف تقـديره:هو لا إله إلا هو لا.إلا أن الاحتمال الأول هو الأنسب.

و معبودا؟! و تضيف فى الصفه السابعه وَ رَبُّ آبائِكَمُ الْأَوَّلِينَ فإذا قلتم:إنّكم إنّما تعبدون الأصنام،لأنّ الأصنام،لأن آباءكم كانوا يعبدونها،فاعلموا أن ربّهم هو اللّه الواحد الأحد أيضا،و علاقتكم بآبائكم و ارتباطكم بهم يوجب عليكم أن لا تعبدوا إلاّ اللّه،و أن لا تخضعوا إلاّ له،و إذا كان سبيلهم غير هذا السبيل فقد كانوا على خطأ بلا ريب.

من الواضح أنّ مسأله الحياه و الموت من شؤون اللّه و تدبيره،و إذا كانت الآيه قد ذكرتها بالخصوص،فلأن لها أهميه فائقه من جهه،و لأنّها إشاره ضمنيه إلى مسأله المعاد من جهه أخرى،و ليست هذه هى المره الأولى التى يؤكّد فيها القرآن على مسأله الحياه و الموت،بل بيّنها مرارا على أنّها من الأفعال المختصه باللّه تعالى، لأن مسأله الحياه و الموت أكثر المسائل تأثيرا فى حياه البشر و مصائرهم، و هى فى الوقت نفسه أعقد مسائل عالم الوجود،و أوضح دليل على قدره اللّه تعالى.

***

ملاحظه

اشاره

علاقه القرآن بليله القدر:

ممّا يجدر الانتباه إليه أنه ورد فى هذه الآيات تلميحا،و فى آيات سوره القدر تصريحا،أن القرآن نزل فى ليله القدر،و كم هو عميق هذا الكلام؟!ففى تلك الليله التى تقدر فيها مقدرات العباد و أرزاقهم،ينزل القرآن الكريم على قلب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم الطاهر،ألا يدل هذا على أن هناك علاقه صميميه بين مقدراتكم و مصائركم و بين محتوى هذا الكتاب السماوى؟ ألا يعنى هذا الكلام أن هناك علاقه لا تقبل الانفصال بين القرآن و بين حياتكم

المعنویه،بل و حتی حیاتکم المادیه؟فقد أدّی الی انتصارکم علی الأعداء، و شـموخکم و حریتکم و استقلالکم،و عمران مدنکم و رقیکم.

أجل،فی تلک اللیله التی کانت تقدر فیها المقدرات،أنزل القرآن أیضا.

***

الآيات [سوره الدخان (۴۴): الآيات ۹ الی ۱۶]

اشاره

بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ یَلْعَبُونَ (۹) فَارْتَقِبْ یَوْمَ تَأْتِی اَلسَّمٰاءُ بِدُخٰانٍ مُبِینٍ (۱۰) یَغْشَی اَلنّٰاسَ هٰذٰا عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۱۱) رَبَّنَا اکْشِفْ عَنَّا اَلْعَذٰابَ إِنّٰا مُؤْمِنُونَ (۱۲) أَنّٰی لَهُمُ اَلذِّکْریٰ وَ قَدْ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِینٌ (۱۳) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قٰالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (۱۴) إِنّٰا کٰاشِفُوا اَلْعَذٰابِ قَلِیلاً إِنَّکُمْ عٰائِدُونَ (۱۵) یَوْمَ نَبْطِشُ اَلْبَطْشَةَ اَلْکُبْریٰ إِنّٰا مُنْتَقِمُونَ (۱۶)

التّفسیر

اشاره

الدّخان القاتل:

لما کان الکلام فی الآیات السابقه فی أنّ هؤلاء إن کانوا طلّاب یقین،فإنّ سبل تحصیله کثیره،و تضیف أوّل آیه من هذه الآیات بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ یَلْعَبُونَ فإنّ شک هؤلاء فی حقانیه هذا الکتاب السماوی و فی نبوّتک،لیس نابعا من کون المسأله معقده صعبه،بل من عدم جدیتهم فی التعامل معها،فهم یتعاملون معها بهزل، فیستهزءون و یسخرون تاره،و یصفون أنفسهم بعدم الاطلاع و الإلمام و بالجهل

تاره أخرى،و يشغلون أنفسهم كل يوم بأسلوب لعب جديد.

«يلعبون»من ماده اللعاب-على قول الراغب-و هو البزاق السائل،و لما لم يكن للإنسان هدف مهم من اللعب،فقد شبه بالبزاق الذى يبصقه الفرد لا إراديا.

و مهما كان،فإن الحقيقه هى أن التعامل الجدى مع المسائل يعين الإنسان فى معرفه الحقائق،أمّا التعامل الهازل الفارغ فإنّه يلقى الحجب عليها و يمنعه من الوصول إليها.

ثمّ انتقلت الآيه التاليه إلى تهديد هؤلاء المنكرين المعاندين المتعصبين،في الوقت الذى وجهت الخطاب إلى النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فقالت: فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّمٰاءُ بِدُخٰانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النّٰاسَ هٰذٰا عَذٰابٌ أَلِيمٌ .

عند ذلك سيعم الخوف و الاضطراب كل وجودهم،و تزول الحجب من أمام أعينهم،فيقفون على خطئهم الكبير،و يتجهون إلى اللّه تعالى بالقول: رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذٰابَ إِنّٰا مُؤْمِنُونَ .

إلاّ أنّ اللّه عزّ و جلّ يرفض طلب هؤلاء و يقول: أَنّٰى لَهُمُ الذِّكْرىٰ وَ قَدْ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ رسول كان واضحا فى نفسه و تعليماته و برامجه و آياته و معجزاته، و مبينا لها جميعا.

غير أنّ هؤلاء بدل أن يذعنوا له،و يؤمنوا باللّه الواحد الأحد،و يتقبلوا أوامره بكل وجودهم،أعرضوا عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قٰالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ .

فكانوا يقولون تاره:إنّ غلاما روميا سمع قصص الأنبياء و أخبارهم يعلمه إياها،و هذه الآيات من اختراعه و إملائه على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمٰا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسٰانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هٰذٰا لِسٰانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (۱) و يقولون تاره أخرى:إنّه مصاب بالاختلال الفكرى و العقلى،و هذه الكلمات وليده فقدانه التوازن الفكرى.

۱- ۱) -النحل،الآيه ۱۰۳.

ثمّ تضيف الآيه التاليه: إِنّٰا كٰاشِفُوا الْعَذٰابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عٰائِدُونَ و من هنا يتّضح أنّهم عند ما يقعون فى قبضه العذاب،يندمون على ما بدر منهم من أفعال، و يصممون على تعديل سلوكهم و إصلاحه،إلاّ أن هذا الموقف الجديد مؤقت و سريع الزوال،فما أن تهدأ عاصفه الأحداث حتى يعودوا لما كانوا عليه من قبل.

و يقول سبحانه فى آخر آيه من هذه الآيات يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرىٰ إِنّٰا مُنْتَقِمُونَ . (۱)

«البطش»هو تناول الشيء بصوله،و هنا بمعنى الأخذ للانتقام الشديد،و وصف البطشه بالكبرى إشاره إلى العقوبه الشديده التى تنتظر هذه الفئه.

و الخلاصه:أنّه على فرض تخفيف العقوبات المؤقته فى حق هؤلاء،فإن العقوبات النهائيه العسيره تنتظرهم،و لا مفرّ لهم منها.

«منتقمون»من ماده الانتقام،و كما قلنا سابقا فإنّها تعنى العقوبه و الجزاء،و إن كانت كلمه الانتقام تعطى معنى آخر فى محادثاتنا اليوميه فى عصرنا الحاضر، حيث تعنى العقوبه المقترنه بإخماد نار الغضب و تفريغ ما فى القلب من انفعال و حب الانتقام،إلاّ أن هذا الأمر لا وجود له فى المعنى اللغوى للكلمه.

***

ملاحظه

اشاره

ما المراد من الدخان المبين؟

هناك أقوال بين المفسّرين حول المراد من الدخان الذى ذكر فى هذه الآيات كتعبير عن العذاب الإلهى،و توجد هنا نظريتان أساسيتان:

۱- ۱) -احتمل المفسّرون فى تركيب هذه الجمله احتمالات كثيره،و أكثرها قبولا من قبل المفسّرين،و هو المناسب أيضا لسياق الآيه:إن(يوم)متعلق بفعل(ننتقم)الذى يفهم من جمله(إنا منتقمون)و على هذا يكون التقدير:ننتقم منهم يوم نبطش البطشه الكبرى إنا منتقمون.

۱-إنّه إشاره إلى العقاب و العذاب الذى ابتلى به كفار قريش فى عصر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لأنّه لعنهم و دعا عليهم

قال: «اللهم سنين كسنى يوسف». و بعد ذلك أصاب مكّه قحط شديد،حتى أنّهم كانوا يرون كأن بين السماء و الأرض عمودا من الدخان من شده الجوع و العطش،و عسر الأمر عليهم حتى أكلوا الميته و عظام الحيوانات الميته.

فأتوا إلى النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا:يا محمّد،تأمرنا بصله الرحم و قد هلك قومك! لئن رفع عنا العذاب لنؤمنن.فدعا النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فارتفع العذاب و عم الخير و النعمه الوفيره،لكنّهم لم يعتبروا بذلك،بل عادوا إلى الكفر مره أخرى. (۱)

طبقا لهذا التّفسير فقد اعتبرت غزوه بدر هى البطشه الكبرى-أى العقوبه الشديده-لأن المشركين تلقوا من المسلمين فى بدر ضربات مهلكه ماحقه.

و طبقا لهذا التّفسير لم يكن للدخان وجود فى الحقيقه،بل إن السماء قد بدت للناس العطاشى الجائعين كعمود الدخان،و على هذا فذكر الدخان هنا من باب المجاز،و هو يشير إلى تلك الحاله الصعبه المؤلمه.

و قال البعض:إنّ الدخان يستعمل عاده فى كلام العرب كنايه عن الشر و البلاء الذى يعم و يغلب. (۲)

و يعتقد بعض آخر أنّه حين القحط و قلّه المطر تغطى السماء عاده أعمده الغبار، و قد عبر هنا عن هذه الحاله بالدخان،لأن المطر ينزل بالغبار إلى الأرض فيصفو الأفق. (۳)

و مع كل هذه الصفات،فإنّ استعمال كلمه الدخان هنا مجازا طبقا لهذا التّفسير.

۲-إن المراد من«الدخان المبين»هو ذلك الدخان الغليظ الذى سيغطى السماء

۱- ۱) -مجمع البيان،المجلد ۹،صفحه ۶۲،ذيل الآيات مورد البحث.

۲- ۲) -يقول الفخر الرازى:إنّ العرب يسمّون الشر الغالب بالدخان.المجلد ۲۷،صفحه ۲۴۲.

۳- ۳) -روح المعانى،المجلد ۲۵،ص ۱۰۷.

فی نهایه العالم،و علی أعتاب القیامه،فهو علامه لحلول اللحظات الأخیره لهذه الدنیا،و بدایه عذاب اللّه ألیم للظالمین و المفسدین.

عند ذلک سینتبه هؤلاء الظالمون من نوم غفلتهم،و یطلبون رفع العذاب و الرجوع إلی الحیاه الدنیویه العادیه،لکن أیدیهم ترد فی أفواههم.

و طبقا لهذا التّفسیر فإنّ الدخان معناه الحقیقی،و یکون مضمون هذه الآیات هو نفس ما ورد فی آیات القرآن الأخری،و هو أنّ المجرمین و الکافرین یرجون و هم علی أعتاب القیامه أو فیها-رفع العذاب عنهم،و الرجوع إلی الدنیا،لکن ذلک لا یقبل منهم و لا یحقق رجاؤهم. (۱)

الإشکال الوحید الذی یرد علی هذا التّفسیر أنّه لا ینسجم مع جمله إِنّٰا کٰاشِفُوا الْعَذٰابِ قَلِیلاً إِنَّکُمْ عٰائِدُونَ لأنّ العذاب الإلهی لا یخفف عند انتهاء الدنیا أو فی القیامه لیعود الناس إلی حاله الکفر و المعصیه.

أما إذا اعتبرنا هذه الجمله قضیه شرطیه-و إن کان ذلک یخالف الظاهر- فسیرتفع الإشکال حینئذ،لأن معنی الآیه یصبح:کلما کشفنا عنهم قلیلا- من العذاب فإنّهم یعودون إلی طریقتهم الأولی،و هذا فی الواقع شبیه بالآیه(۲۸)من سوره الأنعام وَ لَوْ رُدُّوا لَعٰادُوا لِمٰا نُهُوا عَنْهُ .

اضافه إلی أنّ تفسیر«البطشه الکبری»بأحداث یوم بدر،یبدو بعیدا عن الصواب،لکن تفسیرها بعقوبات القیامه (۲) مع الآیه تماما.

و الشاهد الآخر للتفسیر الثّانی هو الروایات الوارده عن النّبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم و التی تفسّر الدخان بالدخان الذی سیملأ العالم علی أعتاب قیام القیامه،کالروایه التی

یرویها حذیفه بن الیمان عن النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بأنّه ذکر أربع علامات لاقتراب القیامه:الأولی ظهور الدجال،و الأخری نزول عیسی علیه السّلام،و الثالثه النّار التی تظهر

۱- ۱) -تراجع الآیات ۲۷-۳۰،من سوره الأنعام.

۲- ۲) -یقول الراغب فی المفردات،البطش:هو تناول الشیء بصوله،و هو مقدمه العقوبه عاده.

من أرض عدن،و الدّخان.

فسأل حذيفه،يا رسول اللّه،و ما الدّخان؟فتلا رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمٰاءُ بِدُخٰانٍ مُبِينٍ يملأ ما بين المشرق و المغرب،يمكث أربعين يوما و ليله،أمّا المؤمن فيصيبه منه كهيئه الزكمه،و أمّا الكافر فبمنزله السكران يخرج من منخريه و أذنيه و دبره» (1) .

و

جاء في حديث آخر عن أبي مالك الأشعري عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّ ربّكم أنذركم ثلاثا:الدخان يأخذ منه المؤمن كالزكمه،و يأخذ الكافر فينفخ حتى يخرج من كل مسمع منه،و الثانيه الدابه،و الثالثه الدجال» (2) و قد قدمنا توضيحا كافيا حول دابه الأرض في ذيل الآيه(82)من سوره النمل.

و روى شبيه هذا المعنى حول الدخان عن أبي سعيد الحذري عن النّبي الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم. (3)

و يلاحظ نظير هذه التعبيرات،بصوره أكثر تفصيلا،في الروايات الوارده عن طرق أهل البيت عليهم السّلام،و من جملتها ما نقرأه

في روايه عن أمير المؤمنين علي عليه السّلام، أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «عشر قبل الساعه لا بدّ منها:السفياني،و الدجال، و الدخان،و الدّابه،و خروج القائم،و طلوع الشمس من مغربها،و نزول عيسى، و خسف بالمشرق،و خسف بجزيره العرب،و نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر». (4)

و من مجموع ما قيل،نستنتج أن التّفسير الثّاني هو الأنسب.

***

1- 1) -تفسير الدر المنثور،الجزء 6،صفحه 29.

2- 2) -المصدر السابق.

3- 3) -المصدر السابق.

4- 4) -بحار الأنوار،المجلد 52،صفحه 209.

الآیات [سوره الدخان (۴۴)]: الآیات ۱۷ الی ۲۱

اشاره

وَ لَقَدْ فَتَنّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جاءَهُمْ رَسُولٌ کَرِیمٌ (۱۷) أَنْ أَدُّوا إِلَیَّ عِبادَ اَللّهِ إِنِّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ (۱۸) وَ أَنْ لا تَعْلُوا عَلَی اَللّهِ إِنِّی آتِیکُمْ بِسُلْطانٍ مُبِینٍ (۱۹) وَ إِنِّی عُذْتُ بِرَبِّی وَ رَبِّکُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (۲۰) وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِی فَاعْتَزِلُونِ (۲۱)

التّفسیر

اشاره

إذا لم تؤمنوا فلا تصدّوا الآخرین عن الإیمان:

متابعه للآیات السابقه التی کانت تتحدث حول تمرد مشرکی العرب و عدم إذعانهم للحق،تشیر هذه الآیات إلی نموذج من الأمم الماضیه التی سارت فی نفس هذا المسیر،و ابتلیت أخیرا بالعذاب الألیم و الهزیمه النکراء،لیکون ذلک تسلیه للمؤمنین،و تحذیرا للمنکرین المعاندین.و ذلک النموذج هو قصّه موسی و فرعون،حیث تقول الآیه: وَ لَقَدْ فَتَنّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ .

«فتنّا»من ماده فتنه،و هی فی الأصل تعنی وضع الذهب فی فرن النّار لتخلیصه من الشوائب،ثمّ أطلقت علی کل امتحان و اختبار یجری لمعرفه نسبه خلوص

ص: ۱۳۳

البشر...ذلک الاختبار الذی یعم کل حیاه الإنسان و المجتمعات البشریه،و بتعبیر آخر،فإن کل مراحل حیاه الإنسان فی هذه الدنیا تطوی فی هذه الاختبارات، فإن هذه الدنیا دار امتحان و ابتلاء.

لقد کان قوم فرعون یعیشون أوج قوتهم و عظمتهم بامتلاکهم حکومه قویه، و ثروات ضخمه،و إمکانیات واسعه،فغرتهم هذه القدره العظیمه،و تلوثوا بأنواع المعاصی و الظلم و الجور.

ثمّ تضیف الآیه وَ جٰاءَهُمْ رَسُولٌ کَرِیمٌ فهو کریم من ناحیه الخلق و الطبیعه، و کریم من ناحیه العظیمه و المنزله عند اللّه،و کریم من ناحیه الأصل و النسب،و لم یکن هذا الرّسول إلاّ موسی بن عمران علیه السّلام. (1)

لقد خاطبهم موسی علیه السّلام بأسلوبه المؤدب جدّا،الملی بالود و المحبه،فقال: أَنْ أَدُّوا إِلَیَّ عِبٰادَ اللّٰهِ . (2)

و طبقا لهذا التّفسیر،فإنّ عِبٰادَ اللّٰهِ بحکم المخاطب،و المراد منهم الفراعنه، و بالرغم من أنّ هذا التعبیر یستعمل فی آیات القرآن فی شأن العباد الصالحین،إلاـ أنّه أطلق أیضا فی موارد عدیده علی الکفار و المجرمین،من أجل تحریک وجدانهم،و جذب قلوبهم نحو الحق (3) .

بناء علی هذا،فإنّ المراد من أَدُّوا إطاعه أمر اللّه سبحانه و تنفیذ أوامره.

و قد ذکر جماعه من المفسّرین تفسیرا آخر لهذه الجمله،فقالوا:المراد من عِبٰادَ اللّٰهِ بنو إسرائیل،و من أَدُّوا إیداعهم بید موسی،و رفع الذله و العبودیه

ص:134

1- 1) -یقول الراغب فی المفردات:الکرم إذا وصف اللّه تعالی به فهو اسم لإحسانه و إنعامه،نحو قوله: فَإِنَّ رَبِّی غَنِیٌّ کَرِیمٌ و إذا وصف ربّه الإنسان فهو اسم للأخلاق و الأفعال المحموده التی تظهر منه. و لقد ورد هذا الوصف لأمور أخری أیضا القرآن المجید،مثل:کتاب کریم،کل زوج کریم،رزق کریم مقام کریم،أجر کریم
2- 2) -«أن»فی جمله: أَنْ أَدُّوا إِلَیَّ عِبٰادَ اللّٰهِ تفسیر لفعل مقدر یفهم من الکلام السابق،و التقدیر:(جئتکم أن أدّوا إلیّ عباد اللّه).
3- 3) -کالآیه 17-الفرقان،و 13-سبأ،و 58-الفرقان،و غیرها.

عنهم،كما جاء فی الآیه(۱۷)من سوره الإسراء أَنْ أَرْسِلْ مَعَنٰا بَنِی إِسْرٰائِیلَ و ورد نظیر هذا المعنی فی الآیه ۱۰۵-الأعراف،و ۴۷-طه أیضا.

و الأمر الذی لا ینسجم مع هذا التّفسیر،هو أن جمله أَدُّوا تستعمل عاده فی أداء الأموال و الأمانات و التکالیف،لا فی مورد إیداع الأشخاص،و یتّضح هذا الموضوع جیدا بملاحظه موارد استعمال هذه الکلمه.

و علی أیه حال،فإنّه یضیف فی بقیه الآیه إِنِّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ و ذلک لنفی کل اتهام عن نفسه.

إنّ هذا التعبیر-فی الحقیقه-داحض للاتهامات الباطله التی ألصقها به الفراعنه،کالسحر،و السعی إلی التفوق و استلام الحکم فی أرض مصر،و طرد أصحابها الأصلیین،و التی أشیر إلیها فی الآیات المختلفه.

ثمّ یقول لهم موسی علیه السّلام بعد أن دعاهم إلی طاعه اللّه سبحانه،أو إطلاق سراح بنی إسرائیل و تحریرهم:إنّ مهمّتی الأخری أن أقول لکم: وَ أَنْ لاٰ تَعْلُوا عَلَی اللّٰهِ إِنِّی آتِیکُمْ بِسُلْطٰانٍ مُبِینٍ معجزاته بینه،و أدلته منطقیه واضحه.

و المراد من عدم العلو علی اللّه سبحانه،هو عدم القیام بأی عمل لا ینسجم مع أصول العبودیه،من المخالفه و التمرد،و حتی إیذاء رسل اللّه،أو ادعاء الألوهیه و أمثال ذلک.

و لما کان المستکبرون و عبید الدنیا لا یدعون أی تهمه و افتراء،إلاّ و ألصقوهما بمن یرونه مخالفا لمنافعهم و مصالحهم اللامشروعه بل لا یتورعون حتی عن قتله و إعدامه، لذا فإنّ موسی علیه السّلام یضیف للحد من مسلکهم هذا وَ إِنِّی عُذْتُ بِرَبِّی وَ رَبِّکُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ .

إنّ هذا التعبیر لعله إشاره إلی أنّی لا أخاف تهدیداتکم،و سأصمد حتی آخر نفس،و اللّه حافظی و حارسی،و کانت مثل هذه التعبیرات تمنع القاده الإلهیین حزما أکبر فی دعوتهم،و تزید فی انهیار إراده الأعداء و معنویاتهم،و تزید من

جانب آخر ثبات المحبين و المؤمنين و استقامتهم،لأنّهم يعلمون أن إمامهم و قائدهم يقاوم حتى اللحظات الأخيره.

و ربّما كان التأكيد على مسأله الرجم من جهه أن كثيرا من رسل اللّه قبل موسى عليه السّلام قد هددوا بالرجم،و من جملتهم نوح عليه السّلام قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (۱) و كذلك الحال بالنسبه إلى إبراهيم عليه السّلام لما هدده آزر و قال له: لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ (۲) ،و شعيب لما هدده الوثنيون قالوا له: وَ لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ (۳) أمّا اختيار الرجم من بين أنواع القتل،فلأنّه أشدّها جميعا.و على قول بعض أرباب اللغه فإن هذه الكلمه جاءت بمعنى مطلق القتل أيضا. (۴)

و احتمل كثير من المفسّرين أن يكون الرجم بمعنى الاتهام و إساءه الكلام،لأن هذه الكلمه قد استعملت فى هذا المعنى أيضا.و كانت هذه الاستعاذه فى الحقيقه مانعا من تأثير التهم التى اتهموا بها موسى فيما بعد.

و يمكن أن تكون هذه الكلمه قد استعملت فى معناها الواسع الذى يشمل كلا المعنيين.

و تخاطب الآيه الأخيره هؤلاء القوم فتقول: وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ لأن موسى عليه السّلام كان واثقا من نفوذه بين أوساط الناس،و مختلف طبقاتهم،بامتلاكه تلك المعجزات الباهرات،و الأدله القويه،و السلطان المبين،و أن ثورته ستؤتى أكلها بعد حين،و لذلك كان يرضى من هؤلاء القوم أن يتنحوا عن طريقه و لا يكونوا حاجزا بينه و بين الناس.

لكن،هل يمكن أن يهدأ هؤلاء الجبابره المغرورون و هم يرون الخطر يهدد

۱- ۱) -الشعراء،الآيه ۱۱۶.

۲- ۲) -مريم،الآيه ۴۶.

۳- ۳) -هود،الآيه ۹۱.

۴- ۴) -لسان العرب،مادة رجم.

مصـالحهم و ثرواتهم اللامشـروعه،و يقبلوا مثـل هـذا الاـقتراح و يـدعوا موسـی و شـأنه؟ الآیـات الآـتیه کفیله بأن تبیّن تتمه هـذه الأحادیث.

***

الآیات [سوره الدخان (۴۴): الآیات ۲۲ الی ۲۹]

اشاره

فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هٰؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (۲۲) فَأَسْرِ بِعِبادِی لَیْلًا إِنَّکُمْ مُتَّبَعُونَ (۲۳) وَ اُتْرُکِ اَلْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (۲۴) کَمْ تَرَکُوا مِنْ جَنّاتٍ وَ عُیُونٍ (۲۵) وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ کَرِیمٍ (۲۶) وَ نَعْمَهٍ کانُوا فِیها فاکِهِینَ (۲۷) کَذٰلِکَ وَ أَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِینَ (۲۸) فَما بَکَتْ عَلَیْهِمُ اَلسَّماءُ وَ اَلْأَرْضُ وَ ما کانُوا مُنْظَرِینَ (۲۹)

التّفسیر

ترکوا القصور و البساتین و الکنوز و ارتحلوا! لقد استخدم موسی علیه السّلام کلّ وسائل الهدایه للنفوذ إلی قلوب هؤلاء المجرمین الظلمه،إلاّ أنّها لم تؤثر فیهم أدنی تأثیر،و طرق کلّ باب ما من مجیب.

لذلک یئس منهم،و لم یر لهم علاجا إلاّ لعنهم و الدعاء علیهم،لأنّ الفاسدین الذین لا أمل فی هدایتهم لا یستحقون الحیاه فی قانون الخلقه،بل یجب أن ینزل علیهم عذاب اللّه و یجتثهم و یطهر الأرض من دنسهم،لذلک تقول الآیه الأولی من هذه الآیات:
فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هٰؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ .

انظر إلى أدب الدعاء،إنّه لا يقول:اللّهم افعل كذا و كذا،بل يكتفى بأنّ يقول:

اللّهمّ إن هؤلاء قوم مجرمون لا أمل فى هدايتهم و حسب! و قد استجاب اللّه سبحانه دعاءه،و كمقدمه لنزول العذاب على الفراعنه،و نجاه بنى إسرائيل منهم،أمر موسى عليه السّلام أنّ فَأَسْرِ بِعِبادِی لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ لكن لا تقلق من ذلك،فيجب أن يتبعكم هؤلاء ليلاقوا المصير الذى ينتظرهم.

إنّ موسى عليه السّلام مأمور بأنّ يتحرك ليلا بصحبه عباد اللّه المؤمنين،أى بنى إسرائيل،و جماعه من أهل مصر الذين مالت قلوبهم إلى الإيمان و لبّت دعوه موسى،و أن يأتى النيل،و يعبره بطريقه إعجازيه،ثمّ يسير إلى الأرض الموعوده، «فلسطين».

صحيح أنّ حركه موسى و أنصاره قد تمّت ليلا،إلاّ أنّ من المحتم أنّ لا تبقى حركه جماعيه عظيمه كهذه خافيه،عن أنظار الفراعنه مده طويله،و ربّما لم تمض عدّه ساعات حتى أوصل جواسيس فرعون هذا الخبر المهور-أو قل فرار العبيد الجماعى- إلى مسامعه،فأمر بمطاردتهم بجيش جرار.

و الطريف أنّ كلّ هذه الأمور التى حدثت جاءت ضمن إشاره موجزه فى الآيات أعلاه إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ .

إن ما حذف هنا من أجل الاختصار وضّح فى آيات أخرى من القرآن بعبارات موجزه،فمثلا نقرأ فى الآيه(٧٧)من سوره طه وَ لَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِی فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِی الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَ لا تَخْشى .

ثمّ تضيف الآيه التى بعدها:عند ما تصل إلى الساحل الآخر عليك أن تترك البحر بهدوء وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً و المراد من البحر فى هذه الآيات هو نهر النيل العظيم.

لقد ذكر المفسّرون و أرباب اللغه معنيين للرهو:هما الهدوء،و السعه و الانفتاح، و لا مانع هنا من اجتماعهما.

لکن لماذا صدر مثل هذا الأمر لموسی علیه السّلام؟ من الطبیعی أنّ موسی علیه السّلام و بنی إسرائیل کانوا راغبین فی أن یجتازوا البحر حتی تتصل المیاه مرّه أخری و تملأ هذا الفراغ،و یبتعدوا بسرعه عن منطقه الخطر، و یتجهوا بسلامه إلی الوطن الموعود،إلاّ أنّهم أمروا أنّ لا یعجلوا أثناء عبورهم نهر النیل،بل لیدعوا فرعون و آخر جندی من جنوده یردون النیل،فإنّ أمر إهلاکهم و إماتتهم قد صدر إلی أمواج النیل المتلاطمه الغاضبه،و لذلک تقول الآیه فی ختامها إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ .

هذا هو أمر اللّه عزّ و جلّ الحتمی الصادر بحق هؤلاء القوم،بأنّهم یجب أن یغرقوا جمیعا فی نهر النیل العظیم،الذی کان أساس ثروتهم و قوّتهم!و بأمر إلهی واحد تحول هذا النهر الذی کان عصب حیاتهم إلی أداه فنائهم و موتهم.

نعم،عند ما وصل فرعون و جنوده إلی شاطئ النیل کان بنو إسرائیل قد خرجوا من الجانب الآخر،و کان ظهور مثل ذلک الطریق الیابس وسط النیل کافیا وحده لأن یلفت نظر حتی الطفل الساذج إلی تحقق إعجاز إلهی عظیم فی البحر،إلاّ أنّ کبر أولئک الحمقی و غرورهم لم یسمح لهم بإدراک هذه الحقیقه الواضحه فیقفوا علی اشتباهاتهم و أخطائهم،و یتوجهوا إلی اللّه سبحانه! ربّما کانوا یظنون أنّ هذا التغیر الذی طرأ علی النیل قد تمّ بأمر فرعون أیضا! و ربّما قال هذا الکلام لجنوده،ثمّ ورد بنفسه ذلک الطریق فتبعه جنوده حتی الجندی الأخیر! لکن،أمواج النیل تلاطمت فجأه و انهالت علیهم کبناء شاهق انهدمت قواعده فانهار إلی الأرض،فغرقوا جمیعا.

و لنکته التی تلفت النظر فی هذه الآیات،هی اختصارها الفائق،و کونها بلیغه و معبره فی الوقت نفسه،فقد ذکر قصه مفصله فی ثلاث آیات-أو جمل-بحذف الجمل الإضافیه التی تفهم من القرائن أو الجمل الأخری،و نراها اکتفت بالقول:

فَدَعٰا رَبَّهُ أَنَّ هٰؤُلاٰءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ. فَأَسْرِ بِعِبٰادِی لَیْلاً إِنَّکُمْ مُتَّبَعُونَ، وَ اتْرُکِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ

.

إنّ التعبیر ب«مغرقون»مع أنّهم لم یکونوا قد غرقوا بعد إشاره إلی أنّ هذا الأمر الإلهی حتمی و قطعی.

و لنر الآن ماذا جری من الحوادث التی تدعو إلی الاعتبار بها،بعد غرق فرعون و الفراعنه.

یبیّن القرآن الکریم فی الآیات التالیه ترکه الفراعنه العظیمه التی ورثها بنو إسرائیل،ضمن خمسه مواضیع تکن الفهرس العام لکلّ حیاه الفراعنه،فیقول أوّلا: کَمْ تَرَکُوا مِنْ جَنّٰاتٍ وَ عُیُونٍ .

لقد کانت البساتین و العیون ثروتین من أهم و أروع ثروات هؤلاء،لأنّ مصر کانت أرضا خصبه ملیئه بالبساتین بوجود نهر النیل.و هذه العیون یمکن أن تکون إشاره الی العیون التی کانت تنبع هنا و هناک،أو أنّها جداول کانت تستمد میاهها من النیل،و تمر فی بساتین أولئک و حدائقهم الغناء الخضراء، و لیس بعیدا إطلاق العین علی هذه الجداول.

ثمّ یضیف القرآن الکریم وَ زُرُوعٍ وَ مَقٰامٍ کَرِیمٍ و کانت هاتان ثروتین مهمتین أخریین،فمن جهه کانت الزراعه العظیمه التی تعتمد علی النیل،حیث أنواع المواد الزراعیه الغذائیه و غیرها،و المحصولات التی امتدت فی جمیع أنحاء مصر،و کانوا یستخدمونها غذاء لهم و یصدرون الفائض منها إلی الخارج،و من جهه أخری کانت القصور و المساکن العامره،حیث أنّ من أهم مستلزمات حیاه الإنسان هو المسکن المناسب.

لا شکّ أنّ هذه القصور کریمه من الناحیه الظاهریه،و من وجهه نظر هؤلاء أنفسهم،و إلاّ فإنّ مساکن الطواغیت المزینه هذه،و التی تسبب الغفله عن اللّه،لا قیمه لها فی منطق القرآن.

و احتمل البعض أن يكون المراد من المقام الكريم مجالس الأنس و الطرب،أو المنابر التی کان یرتقیها المدّاحون و الشعراء للثناء علی فرعون.

لکن،الظاهر أنّ المعنی الأوّل أنسب من الجمیع.

و لما کان هؤلاء یمتلکون وسائل رفاه کثیره غیر الأمور الأربعه المهمّه التی مرّ ذکرها،فقد أشار القرآن إلیها جمیعا فی جمله مقتضبه،فقال: وَ نَعْمَهٍ کٰانُوا فِیهٰا فٰاکِهِینَ (۱) (۲) .

ثمّ یضیف کَذٰلِکَ وَ أَوْرَثْنٰاهٰا قَوْماً آخَرِینَ (۳) .

و المراد من قَوْماً آخَرِینَ هم بنو إسرائیل،حیث صرّح بذلک فی الآیه(۹۵) من سوره الشعراء.و التعبیر بالإرث إشاره إلی أنّهم حصلوا علی کلّ هذه الأموال و الثروات من دون أن یبذلوا أدنی جهد،أو یتحملوا أقل تعب و مشقّه،کما یحصل الإنسان علی الإرث دون أن یشقی و یجهد فی تحصیله.

و الجدیر بالانتباه أنّ الآیه المذکوره و نظیرتها فی سوره الشعراء توحیان بأنّ بنی إسرائیل قد عادوا إلی مصر بعد غرق الفراعنه و ورثوا میراثهم،و حکموا هناک، و سیر الحوادث یقتضی-أیضا-أنّ لا یدع موسی علیه السّلام مصر تعیش فراغا سیاسیا بعد انهیار دعائم حکومه الفراعنه فیها.

لکن هذا الکلام لا ینافی ما ورد فی آیات القرآن الکریم من أنّ بنی إسرائیل قد ساروا إلی الأرض الموعوده،أرض فلسطین،بعد خلاصهم من قبضه الفراعنه، و الذی جاء مفصلا فی القرآن،فمن الممکن أن تکون جماعه منهم قد أقاموا فی

۱- ۱) -«نعمه»بفتح النون تعنی التنعم،و بکسرها تعنی الإنعام،و قد صرح جماعه من المفسّرین و أرباب اللغه بهذا المعنی،فی حین یعتقد جمع آخر أنّ للإثنین معنی واحدا یشمل کلّ المنافع التی تستحق الالتفات و النظر.

۲- ۲) -فسّرت کلمه«فاکهین»بالاستمتاع بالفواکه تاره،و أخر بالأحادیث الفکاهیه الساره،و ثالثه بالتنعم و التلذذ،و المعنی الأخیر أجمع من الجمیع.

۳- ۳) -«کذلک»خبر لمبتدأ محذوف و التقدیر:الأمر کذلک،و یستعمل هذا التعبیر للتأکید.و احتمل البعض احتمالات أخری فی ترکیبها.

مصر بعد استيلائهم عليها كوكلاء لموسى عليه السّلام،و سار القسم الأعظم إلى فلسطين.

و لمزيد من الإيضاح حول هذا الكلام انظر ذيل الآيه(۵۹)من سوره الشعراء.

و تقول الآيه الأخيره من هذه الآيات فَمٰا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمٰاءُ وَ الْأَرْضُ وَ مٰا كٰانُوا مُنْظَرِينَ .

إنّ عدم بكاء السماء و الأرض ربّما كان كنايه عن حقارتهم،و عدم وجود ولى و لا نصير لهم ليحزن عليهم و يبكيهم،و من المتعارف بين العرب أنّهم إذا أرادوا تبيان أهميه مكانه الميت،يقولون:بكت عليه السماء و الأرض،و أظلمت الشمس و القمر لفقده.

و احتمل أيضا أنّ المراد بكاء أهل السماوات و الأرض،لأنّهم يبكون المؤمنين المقربين عند اللّه،لا الجبابره و الطواغيت و أمثاله.

و قال البعض:إنّ بكاء السماء و الأرض بكاء حقيقى،حيث تظهر احمرارا خاصا غير احمرار الغروب و الطلوع،كما نقرأ

فى روايه: «لما قتل الحسين بن على بن أبى طالب عليه السّلام بكت السماء عليه،و بكاؤها حمره أطرافها» (۱) .

و

فى روايه أخرى عن الإمام الصادق عليه السّلام: «بكت السماء على يحيى بن زكريا و على الحسين بن على(عليهما السلام)أربعين صباحا،و لم تبك إلاّ عليهما»قلت:

و ما بكاؤها؟قال:«كانت تطلع حمراء،و تغيب حمراء» (۲) .

غير أننا نقرأ

فى حديث روى عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما من مؤمن إلاّ و له باب يصعد منه عمله،و باب ينزل منه رزقه،فإذا مات بكيا عليه» (۳) .

و لا منافاه بين هذه الرّوايات،حيث كان لشهاده الحسين عليه السّلام و يحيى بن زكريا عليه السّلام صفه العموم فى كلّ السماء،و لما ورد فى الرّوايات الأخيره صفه

۱- ۱) -مجمع البيان،المجلد ۹،صفحه ۶۵ ذيل الآيه مورد البحث.
۲- ۲) -المصدر السابق.
۳- ۳) -المصدر السابق.

الخصوص (۱) .

علی أی حال،فلا تضاد بین هذه التفاسیر،و یمکن جمعها فی معنی الآیه.

نعم لم تبک السماء لموت هؤلاء الضالین الظالمین،و لم تحزن علیهم الأرض، فقد کانوا موجودات خبیثه،و کأنّما لم تکن لهم أدنی علاقه بعالم الوجود و دنیا البشریه،فلما طرد هؤلاء الأجانب من العالم لم یحس أحد بخلو مکانهم منهم،و لم یشعر أحد بفقدهم،لا علی وجه الأرض،و لا فی أطراف السماء،و لا فی أعماق قلوب البشر،و لذلک لم تذرف عین أحد دمعه لموتهم.

و ننهی الکلام فی هذه الآیات بذکر روایه عن أمیر المؤمنین علیه السّلام.

فقد ورد فی روایه أنّ أمیر المؤمنین علیا علیه السّلام لما مرّ علی المدائن،و رأی آثار کسری مشرفه علی السقوط و الانهیار،أنشد أحد أصحابه الذین کانوا معه:

جرت الریاح علی رسومهم*فکأنّهم کانوا علی میعاد! فقال أمیر المؤمنین علی علیه السّلام:«أ فلا قلت کَمْ تَرَکُوا مِنْ جَنّاتٍ وَ عُیُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ کَرِیمٍ وَ نَعْمَهٍ کانُوا فِیها فاکِهِینَ ... فَما بَکَتْ عَلَیْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ وَ ما کانُوا مُنْظَرِینَ (۲) .

***

۱- ۱) -روی فی الدر المنثور حدیث فی باب الجمع بین هذه الروایات.الدر المنثور،طبقا لنقل المیزان،المجلد ۱۸،صفحه ۱۵۱.

۲- ۲) -سفینه البحار،ج ۲،ص ۵۳۱(ماده مدن).

الآيات [سوره الدخان (۴۴): الآيات ۳۰ الی ۳۳]

اشاره

وَ لَقَدْ نَجَّيْنا بَنِی إِسْرائِيلَ مِنَ اَلْعَذابِ اَلْمُهِينِ (۳۰) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ اَلْمُسْرِفِينَ (۳۱) وَ لَقَدِ اِخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى اَلْعالَمِينَ (۳۲) وَ آتَيْناهُمْ مِنَ اَلْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ (۳۳)

التّفسير

اشاره

بنو إسرائيل فی بوتقه الاختبار:

كان الكلام فی الآيات السابقه عن غرق الفراعنه و هلاكهم،و انكسار شوكتهم و انتهاء حكومتهم،و انتقالها إلى الآخرين.و تتحدث هذه الآيات فی النقطه المقابله لذلك أی نجاه بنی إسرائيل و خلاصهم،فتقول: وَ لَقَدْ نَجَّيْنا بَنِی إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ من العذاب الجسمی و الروحی و الشاق،و الذی نفذ إلى أعماق أرواحهم..من ذبح الأطفال الذكور،و استحياء البنات لخدمه و قضاء المآرب،من السخره و الأعمال الشاقه جدّا،و أمثال ذلك.

فكم هو مؤلم أن يكون مصير أمه بيد هكذا عدوّ دموی شيطانی،و أن تبتلی بهكذا ظلمه لا يعرفون الرحمه و لا الانسانيه؟ نعم،لقد نجّی اللّه سبحانه هذه الأمّه المظلومه من قبضه هؤلاء الظالمين،أعظم

سفاکی الـدماء فی التأریـخ،فی ظل ثوره موسـی بن عمران علیه السّـلام،الرّبانیه،لذلک تضـیف الآیه مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ کٰانَ عٰالِیاً مِنَ الْمُسْرِفِینَ .

لیس المراد من«عالیا»هنا علو المنزله،بل هو إشاره إلی استشعاره العلو،و إنّما علوه فی الإسراف و التعدی،کما جاء ذلک أیضا فی الآیه(۴)من سوره القصص إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاٰ فِی الْأَرْضِ حتی أنّه ادعی الألوهیه،و سمی نفسه الرب الأعلی.

و«المسـرف»من ماده«إسـراف»،أی کلّ تجاوز للحـدود،سواء فی الأقوال أم الأفعال،و لـذلک اسـتعملت کلمه المسـرف فی آیات القرآن المختلفه فی شأن المجرمین الـذین یتعـدون الحـدود فی ظلمهم و فسادهم،و کـذلک أطلقت علی العصاه المسـرفین،کما نقرأ ذلک فی الآیه(۵۳)من سوره الزمر قُلْ یٰا عِبٰادِیَ الَّذِینَ أَسْرَفُوا عَلیٰ أَنْفُسِهِمْ لاٰ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَهِ اللّٰهِ .

و تشـیر الآیه التالیه إلی نعمه أخری من نعم اللّه سبحانه علی بنی إسرائیل، فتقول: وَ لَقَدِ اخْتَرْنٰاهُمْ عَلیٰ عِلْمٍ عَلَی الْعٰالَمِینَ إلاّ أنّهم لم یعرفوا قدر هذه النعمه، فکفروا و عوقبوا.

و علی هـذا فـإنّهم کانوا الأمه المختاره فی عصـرهم،لأنّ المراد من العالمین البشـر فی ذلک العصـر و الزمان لا فی کلّ القرون و الأعصار،لأنّ القرآن یخاطب الأمه الإسلامیه بصراحه فی الآیه(۱۱۰)من سوره آل عمران و یقول: کُنْتُمْ خَیْرَ أُمَّهٍ أُخْرِجَتْ لِلنّٰاسِ .

و کذلک الحال بالنسبه إلی الأراضـی التی ورثها بنو إسرائیل،إذ یقول القرآن الکریم فی الآیه(۱۳۷)من سوره الأعراف وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِینَ کٰانُوا یُسْتَضْعَفُونَ مَشٰارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغٰارِبَهَا الَّتِی بٰارَکْنٰا فِیهٰا فی حین أنّ بنی إسـرائیل لم یرثوا کلّ الأرض،و المراد شرق منطقتهم و غربها.

و یعتقـد بعض المفسّـرین أنّه کـان لبنی إسـرائیل بعض المیزات الـتی کـانت منحصـره فیهم علی مرّ التأریـخ،و من جملتهـا کـثره الأنبیاء،إذ لم یظهر فی أی قوم

هذا العدد من الأنبياء.

إلاّ أنّ هذا الكلام،إضافه إلى أنّه لا يثبت مزيتهم المطلقه هذه،فإنّه يدل على أنّها ليست مزيه أساسا،فربّما كانت كثره الأنبياء فيهم دليلا على غايه تمرد هؤلاء القوم و قمه عصيانهم،كما بيّنت الحوادث المختلفه بعد ظهور موسى عليه السّلام أنّهم لم يتركوا شيئا سيئا لم يفعلوه ضد هذا النّبى العظيم.

و على أيه حال،فإنّ ما ذكرناه أعلاه فى تفسير الآيه،هو المقبول من قبل كثير من المفسّرين فى شأن أهليه بنى إسرائيل النسبيه.

غير أنّ هؤلاء القوم المعاندين كانوا يؤذون أنبياءهم دائما-حسب ما يذكره القرآن -و كانوا يقفون أمام أحكام اللّه سبحانه بكلّ تصلب و عناد،بل إنّهم بمجرّد أنّ نجوا من النيل و أهواله طلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهه يعبدونها!و هذا يدلنا على إمكانيه أن يكون الهدف من الآيه ليس بيان خصيصه لبنى إسرائيل،بل بيان حقيقه أخرى.و عليه يصبح معنى الآيه:مع أننا نعلم أنّ هؤلاء سيسيئون استغلال نعم اللّه و مواهبه،فقد منحناهم التفوق لنختبرهم.

كما يستفاد من الآيه التاليه-أيضا-أنّ اللّه سبحانه قد منحهم مواهب اخرى ليبلوهم.

و لذا فإنّ هذا الاختبار الإلهى لا يدل على كونه مزيه لهؤلاء،و ليس هذا و حسب،بل هو ذم ضمنى أيضا،لأنّهم لم يشكروا هذه النعمه،و لم يؤدّوا حقها،و لم ينجحوا فى الامتحان.

و تشير آخر آيه من هذه الآيات إلى بعض المواهب الأخرى التى منحهم اللّه إيّاها،فتقول: وَ آتَيْنٰاهُمْ مِنَ الْآيٰاتِ مٰا فِيهِ بَلٰؤٌا مُبِينٌ فمره ظللنا عليهم الغمام فى صحراء سيناء،و فى وادى التيه و أخرى أنزلنا عليهم مائده خاصه من المن و السلوى،و ثالثه أجرينا لهم العيون من الصخور الصماء،و منحناهم أحيانا نعما ماديه و معنويه أخرى.إلاّ أنّ كلّ ذلك كان لغرض الابتلاء و الامتحان،لأنّ اللّه

سبحانه يختبر قوما بالمصيبه،و آخرين بالنعمه،كما نقرأ ذلك فى الآيه(۱۶۸)من سوره الأعراف: وَ بَلَوْنٰاهُمْ بِالْحَسَنٰاتِ وَ السَّيِّئٰاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

و ربّما كان الهدف من ذكر قصه بنى إسرائيل للمسلمين الأوائل،هو أنّ لا يخافوا من كثره الأعداء،و تعاظم قوّتهم،و ليطمئنوا بأنّ اللّه الذى أهلك الفراعنه و دمرهم،و أورثت بنى إسرائيل ملكهم و حكومتهم،سيمنّ عليهم فى القريب العاجل بمثل هذا النصر،و كما اختبر أولئك بهذه المواهب،فإنّكم ستوضعون أيضا فى بوتقه الامتحان و الاختبار،ليتّضح ماذا ستفعلون بعد الانتصار و تقلد الحكم؟ و هذا تحذير لكلّ الأمم و الأقوام فيما يتعلق بالانتصارات و المواهب التى يحصلون عليها بفضل اللّه و لطفه،فإنّ الامتحان عندئذ عسير.

***

ص :۱۴۸

الآيات [سوره الدخان (۴۴)]: الآيات ۳۴ الی ۳۶

اشاره

إِنَّ هٰؤُلاٰءِ لَيَقُولُونَ (۳۴) إِنْ هِيَ إِلاّٰ مَوْتَتُنَا اَلْأُولىٰ وَ مٰا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (۳۵) فَأْتُوا بِآبٰائِنٰا إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۳۶)

التّفسیر

اشاره

لا شیء بعد الموت!

بعد أنّ جسدت الآیات السابقه مشهدا من حیاه فرعون و الفراعنه،و عاقبه کفرهم و إنکارهم،تکرر الکلام عن المشرکین مرّه أخری،و أعادت هٰذه الآیات مسأله شکهم فی مسأله المعاد-و التی مرّت فی بدایه السوره-بصوره أخری، فقالت: إِنَّ هٰؤُلاٰءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلاّٰ مَوْتَتُنَا الْأُولىٰ و سوف لا نعود إلی الحیاه إطلاقا (۱) و ما یقوله محمّد عن المعاد و الحیاه بعد الموت و الثواب و العقاب،و الجنّه و النّار لا حقیقه له،فلا حشر و لا نشر أبدا! و هنا سؤال یطرح نفسه،و هو:لماذا یؤکّد المشرکون علی الموته الأولی فقط،

۱- ۱) -هنا اختلاف فی مرجع ضمیر(هی)فأرجعه بعض المفسّرین الی(الموته)،و هو المستفاد من سیاق الکلام،و بناء علی هذا یکون المعنی:ما الموته إلاّ موتتنا الأولی(تفسیر التبیان و مجمع البیان و الکشاف). فی حین اعتبر البعض الآخر مرجع الضمیر هو العاقبه و النهایه،و علی هذا یکون المعنی:ما عاقبه أمرنا إلاّ الموته الأولی (روح المعانی و المیزان)و لیس بینهما من تفاوت کثیر من ناحیه النتیجه.

و التی تعنی عـدم وجود موت آخر بعـد هـذا الموت،فی حین أنّ مرادهم نفی الحیـاه بعـد الموت،لا إنکار الموت الثانی و بتعبیر آخر فإنّ الأنبیاء کانوا یخبرون بالحیاه بعد الموت،لا بالموت مره ثانیه.

و نقول فی الإجابه:إنّ مرادهم عـدم وجود حاله أخری بعـد الموت،أی إنّنا نموت مرّه واحـده و ینتهی کلّ شـیء،و بعـد ذلک لا توجد هناک حیاه أخری و لا موت آخر،فکل ما هو موجود هذا الموت لا غیر.(فتأمل!) (۱) .

و هذا یشبه کثیرا ما ورد فی الآیه(۲۹)من سوره الأنعام،حیث تقول: وَ قٰالُوا إِنْ هِیَ إِلاّٰ حَیٰاتُنَا الـدُّنْیٰا وَ مٰا نَحْنُ بِمَبْعُوثِینَ ! ثمّ تنقل کلام هؤلاء الذین تشبثوا بدلیل واه لإثبات مدعاهم،إذا قالوا: فَأْتُوا بِآبٰائِنٰا إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ .

قـال البعض:إنّ هـذا کـان کلامـ أبی جهـل،حیث أنّه التفت إلی النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم و قـال:إن کنت صادقا فابعث جدک قصی بن کلاب،فإنّه کان رجلا صادقا لنسأله عمّا یکون بعد الموت (۲) .

من البـدیهی أنّ کلّ ذلک کان تـذرعا،و مع أنّ سـنّه اللّه لم تقم علی أن یحیی الأموات فی هـذه الـدنیا لیأتوا بأخبار ذلک العالم إلی هذا العالم،لکن علی فرض أن یتمّ هذا العمل من قبل الرّسول الأعظم صلی اللّه علیه و آله و سلّم،فسیعزف هؤلاء المتذرعون نغمه جدیده،و یضـربون علی وتر آخر،فیسـمون ذلک الفعل سـحرا مثلا،کما طلبوا المعاجز عدّه مرات،فلما أتاهم النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بها أنکروها أشد إنکار.

***

۱- ۱) -ذکر المفسّـِرون احتمالاـت أخری فی تفسیر هـذه الجمله،و تبـدو جمیعـا بعیـده،و من جملتها:أنّهم فسّـِروا الموته الأولی بالموت قبل الحیاه فی هـذه الـدنیا،و بناء علی هـذا یکون معنی الآیه:إنّ الموت الـذی تکون بعـده حیاه هو الموت الـذی متنا من قبل،أمّا الموت الثّانی فلا حیاه بعده أبدا.

۲- ۲) -مجمع البیان،المجلد ۹،صفحه ۶۶،و بعض التفاسیر الأخری.

ملاحظه

اشاره

عقیده المشرکین فی المعاد:

لم یکن للمشرکین بعامه-و مشرکی العرب بخاصه-مسلک متحد فی مسائلهم العقائدیه،بل إنّهم کانوا متفاوتین فیما بینهم مع أنّهم یشترکون فی الأصل فی عقیده الشرک.

فبعضهم لم یکن یعترف باللّه و لا بالمعاد،و هم الذین یتحدث القرآن عنهم بأنّهم کانوا یقولون: مٰا هِیَ إِلاّٰ حَیٰاتُنَا الدُّنْیٰا نَمُوتُ وَ نَحْیٰا وَ مٰا یُهْلِکُنٰا إِلاَّ الدَّهْرُ (۱) و بعضهم الآخر کانوا یعتقدون باللّه عزّ و جلّ،و یعتقدون أیضا أنّ الأصنام شفعاؤهم عند اللّه،إلاّ أنّهم کانوا ینکرون المعاد،و هم الذین کانوا یقولون: مَنْ یُحْیِ الْعِظٰامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ (۲) ،فأولئک کانوا یحجون إلی الأصنام،و یقدمون القرابین لها،و کانوا یعتقدون بالحلال و الحرام،و کان أکثر مشرکی العرب من هذه الفئه.

لکن هناک شواهد تدل علی أنّ هؤلاء کانوا یعتقدون ببقاء الروح بشکل ما، سواء علی هیئه التناسخ و انتقال الأرواح إلی الأبدان جدیده أم بشکل آخر (۳) .

و اعتقادهم بطیر اسمه(هامه)معروف،فقد ورد فی قصص العرب أنّه کان من بین العرب من یعتقد بأنّ روح الإنسان طائر انبسط فی جسمه،و عند ما یرحل الإنسان عن هذه الدنیا أو یقتل،یخرج هذا الطائر من جسمه و یدور حول جسده بصوره مرعبه،و ینوح عند قبره.

و کانوا یعتقدون-أیضا-أنّ هذا الطائر یکون صغیرا فی البدایه ثمّ یکبر حتی یصبح بحجم البوم،و هو یعیش دائما فی خوف و اضطراب،و یسکن الدیار الخالیه،و الخرائب،و القبور و مصارع القتلی!

ص:۱۵۱

۱- ۱) -الجاثیه،الآیه ۲۴.

۲- ۲) -سوره یس،الآیه ۷۸.

۳- ۳) -شرح نهج البلاغه،لابن أبی الحدید المعتزلی،المجلد ۱،صفحه ۱۱۷.

و كذلك كانوا يعتقدون أنّ شخصا إذا قتل ستصيح هامه على قبره:اسقونی فإنی صديه أی عطشانه (۱) .

لقد أبطل الإسلام كلّ هذه المعتقدات الخرافيه،و لذلک

روی عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «لا هامه» (۲) .

و علی أیه حال،فیبدو أنّ هؤلاء و إن لم یکونوا یعتقدون بالمعاد و حیاه الإنسان بعد موته،إلاّ أنّهم کانوا یقولون بالتناسخ و بقاء الأرواح بشکل ما.

أمّا المعاد الجسمانی علی الهیئه التی یذکرها القرآن الکریم،بأنّ تراب الإنسان یجمع مره أخری،و یعود إلی الحیاه من جدید،و أن لکلا الجسم و الروح معادا مشترکا،فإنّهم کانوا ینکرونه تماما،و لا ینکرونه فحسب،بل کانوا یخافونه.و قد أوضحه لهم القرآن بأسالیب مختلفه و أثبته لهم.

***

۱- ۱) -بلوغ الأرب،المجلد ۲،صفحه ۳۱۱.

۲- ۲) -المصدر السابق.

الآيات [سوره الدخان (۴۴): الآيات ۳۷ الی ۳۹]

اشاره

أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنٰاهُمْ إِنَّهُمْ كٰانُوا مُجْرِمِينَ (۳۷) وَ مٰا خَلَقْنَا اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا لاٰعِبِينَ (۳۸) مٰا خَلَقْنٰاهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ (۳۹)

التّفسير

اشاره

قوم تبع:

لقد كانت أرض اليمن-الواقعه فی جنوب الجزيره العربيه-من الأراضی العامره الغنيه،و كانت فی الماضی مهد الحضاره و التمدن،و كان يحكمها ملوك يسمّون«تبّعا»-و جمعها تبابعه-لأنّ قومهم كانوا يتبعونهم،أو لأنّ أحدهم كان يخلف الآخر و يتبعه فی الحكم.

و مهما يكن،فقد كان قوم تبع يشكلون مجتمعا قويا فی عدته و عدده،و لهم حكومتهم الواسعه المتراميه الأطراف.

و هذه الآيات تواصل البحث الذی ورد حول مشركی مكّه و عنادهم و إنكارهم

ص :۱۵۳

للمعاد-فتهدد أولئك المشركين من خلال الإشاره إلى قصه قوم تبع،بأنّ ما ينتظركم ليس العذاب الإلهى فى القيامه و حسب،بل سوف تلاقون فى هذه الدنيا أيضا مصيرا كمصير قوم تبع المجرمين الكافرين،فتقول: أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنٰاهُمْ إِنَّهُمْ كٰانُوا مُجْرِمِينَ .

من المعلوم أنّ سكان الحجاز كانوا مطلعين على قصه قوم تبع الذين كانوا يعيشون فى جوارهم،و لذلک لم تفصل الآيه كثيرا فى أحوالهم،بل اكتفت بالقول:

أنّ احذروا أن تلاقوا نفس المصير الذى لاقاه أولئک الأقوام الآخرون الذين كانوا يعيشون قربكم و حواليكم،و فى مسيركم إلى الشام،و فى أرض مصر.فعلى فرض أن بإمكانكم إنكار القيامه،فهل تستطيعون أن تنكروا العذاب الذى نزل بساحه هؤلاء القوم المجرمين العاصين؟ و المراد من اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أمثال قوم نوح و عاد و ثمود.

و سنبحث المراد من قوم تبع،فى ما يأتى،إن شاء اللّه تعالى.

ثمّ تعود الآيه التى بعدها إلى مسأله المعاد مرّه أخرى،و تثبت هذه الحقيقه باستدلال رائع،فتقول: وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا لاٰعِبِينَ (١) .

نعم،فإنّ لهذا الخلق العظيم الواسع هدفا،فإذا كان الموت بزعمكم نقطه النهايه بعد أيام من المأكل و المشرب و المنام و قضاء الشهوات الحيوانيه،و بعد ذلک ينتهى كلّ شيء بالموت،فسيكون هذا الخلق لعبا و لهوا و عبثا،لا فائده من ورائه و لا هدف.

و لا يمكن التصديق بأنّ اللّه القادر الحكيم قد خلق هذا النظام و الخلق العظيم من أجل عدّه أيّام سريعه الانقضاء لا هدف من ورائها،مع ما تقترن به أيّام الحياه هذه من أنواع الآلام و المصائب و المصاعب،أ فينتهى كلّ شيء بانتهائها!؟إنّ هذا

١- ١) -«لاعب»من ماده(لعب)،و يقول الراغب فى المفردات:لعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصدا صحيحا.و التثنيه فى (ما بينهما)من أجل أنّ المراد جنس السماء و الأرض.

الأمر لا ينسجم مطلقا مع حكمه اللّه.

بناء على هـذا،فإنّ مشاهـده وضع هذا العالم و تنظيمه،تلزمنا التصديق بأنّه مدخل و ممر إلى عالم أعظم أبدى،فلما ذا لا تتفكرون فى ذلـك؟ لقـد ذكر القرآن الكريـم هـذه الحقيقـه مرارا فى سـور المختلفه،فيقـول فى الآـيه (۱۶)من سـوره الأنبيـاء: وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا لاٰعِبِينَ .

و يقول فى الآيه(۶۲)من سوره الواقعه: وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولىٰ فَلَوْ لاٰ تَذَكَّرُونَ .

و على أيه حـال،فـإنّ هنالـك غـايه وراء خلق هـذا العـالم،و هنـاك عالمـا آخر يتبعه، فى حين أنّ المـذاهب الإلحاديه و المنكره للمعاد ترى بأنّ هذا الخلق عبث لا فائده من ورائه و لا هدف.

ثمّ تضيف الآيه التى بعدها لتأكيد الكلام: مٰا خَلَقْنٰاهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ .

إن كون هـذا الخلق حقـا يوجب أن يكون له هـدف عقلائى،و ذلك الهـدف لا يتحقق إلّا بوجود عالم آخر.إضافه إلى أنّ كونه حقـا يقضـى بـأنّ لاـ يتسـاوى المحسـنون و المسـيئون،و لمـا كنـا نرى كل واحـد من هاتين الفئتين قلّما يرى جزاء عمله فى هـذه الدنيا،فلا بد من وجود عالم آخر يجرى فيه الحساب و الثواب و العقاب،ليتلقى كل إنسان جزاء عمله،خيرا أم شرا.

و خلاـصه القول،فـإنّ الحق فى هـذه الآـيه إشاره إلى الهـدفيه فى الخلق،و اختبار البشـر و قانون التكامل،و كـذلك تنفيـذ أصول العداله: وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ لأنّهم لا يعملون الفكر فى التوصل إلى الحقائق،و إلّا فإنّ أدله المبدأ و المعاد واضحه بينه.

***

بحث

اشاره

من هم قوم تبّع؟

لقـد وردت كلمه(تبّع)فی القرآن الكريم مرتين فقـط:مره فی الآيات مورد البحث،و أخرى فی الآيه ۱۴ من سوره(ق)حيث تقول: وَ أَصْحٰابُ الْأَيْكَهِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ .

و كمـا أشـرنا من قبـل،فإنّ«تبعا»كان لقبا عاما لملوک اليمن،ككسـرى لسـلاطين إيران،و خاقان لملوک الترک،و فرعون لملوک مصر،و قيصر لسلاطين الروم.

و كـانت كلمه(تبع)تطلق على ملوک اليمن من جهه أنّهم كـانوا يـدعون النـاس إلى اتبـاعهم،أو لأنّ أحـدهم كان يتبع الآخر فی الحكم.

لكن يبدو أنّ القرآن الكريم يتحدث عن أحد ملوک اليمن خاصه-كما أنّ فرعون المعاصـر لموسى عليه السّلام،و الذی يتحدث عنه القرآن كان معينا و محددا-و ورد فی بعض الرّوايات أنّ اسمه«أسعد أبا كرب».

و يعتقـد بعض المفسّـِرين أنّه كان رجلا مؤمنا،و اعتبروا تعبير«قوم تبّع»الـذی ورد فی آيتين من القرآن دليلا على ذلک،حيث أنّه لم يذمّ فی هاتين الآيتين،بل ذم قومه،و الرّوايه المرويه عن النّبی صلى اللّه عليه و آله و سلّم شاهده على ذلک،ففی هذه

الروايه أنّه قال:

لا تسبوا تبعا فإنه كان قد أسلم (۱) .

و

جاء فی حـديث عن الإمام الصادق عليه السّـِلام: «إنّ تبّعا قال للأوس و الخزرج:كونوا هاهنا حتى يخرج هـذا النبی،أمّا لو أدركته لخدمته و خرجت معه» (۲) .

و ورد فی روايه أخرى:إنّ تبعـا لمـا قـدم المـدينه-من أحـد أسـفاره-و نزل بفنائها،بعث إلى أحبار اليهود الـذين كانوا يسـكنونها فقال:إنّی مخرب هذا البلد

۱- ۱) -مجمع البيان،المجلد ۹،صفحه ۶۶ ذيل الآيه مورد البحث،و أورد نظير هذا المعنى فی تفسير الدر المنثور،و كذلک ورد فی روح المعانی،المجلد ۲۵،صفحه ۱۱۶.

۲- ۲) -مجمع البيان ذيل الآيه مورد البحث.

حتی لا تقوم به یهودیه،و یرجع الأمر إلی دین العرب.

فقال له شامول الیهودی-و هو یومئذ أعلمهم-أیها الملک إنّ هذا بلد یکون إلیه مهاجر نبی من بنی إسماعیل،مولده بمکّه اسمه أحمد.ثمّ ذکروا له بعض شمائل نبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم فقال تبّع-و کأنّه کان عالما بالأمر-ما إلی هذا البلد من سبیل، و ما کان لیکون خرابها علی یدی (۱) .

بل ورد فی روایه فی ذیل تلک القصه أنّه قال لمن کان معه من الأوس و الخزرج:أقیموا بهذا البلد،فإنّ خرج النّبی الموعود فآزروه و انصروه،و أوصوا بذلک أولادکم،حتی أنّه کتب رساله أودعهم إیاها ذکر فیها إیمانه بالرّسول الأعظم صلی اللّه علیه و آله و سلّم (۲) .

و یروی صاحب أعلام القرآن أنّ تبّعا کان أحد ملوک الیمن الذین فتحوا العالم، فقد سار بجیشه إلی الهند و استولی علی بلدان تلک المنطقه.و قاد جیشا إلی مکّه، و کان یرید هدم الکعبه،فأصابه مرض عضال عجز الأطباء عن علاجه.

و کان من بین حاشیته جمع من العلماء،کان رئیسهم حکیما یدعی شامول، فقال له:إنّ مرضک بسبب سوء نیتک فی شأن الکعبه،و ستشفی إذا صرفت ذهنک عن هذه الفکره و استغفرت،فرجع تبع عما أراد و نذر أن یحترم الکعبه،فلما تحسن حاله کسا الکعبه ببرد یمانی.

و قد وردت قصّه کسوه الکعبه فی تواریخ أخری حتی بلغت حد التواتر.و کان تحرک الجیش هذا،و مسأله کسوه الکعبه فی القرن الخامس المیلادی،و یوجد الیوم فی مکّه مکان یسمی«دار التابعه» (۳) .

و علی أیه حال،فإنّ القسم الأعظم من تأریخ ملوک التبابعه فی الیمن لا یخلو

۱- ۱) -روح المعانی،المجلد الأوّل ۲۵،صفحه ۱۱۸.

۲- ۲) -المصدر السابق.

۳- ۳) -أعلام القرآن،ص ۲۵۷-۲۵۹(بتلخیص).

من الغموض من الناحيه التاريخيه،حيث لا نعلم كثيرا عن عددهم،و مدّه حكومتهم، و ربّما نواجه فى هذا الباب روايات متناقضه،و أكثر ما ورد فى الكتب الإسلاميه-سواء كتب التّفسير أو التأريخ أو الحديث-يتعلق بذلك الملك الذى أشار إليه القرآن فى موضعين.

***

الآيات [سوره الدخان (۴۴): الآيات ۴۰ الی ۴۲]

اشاره

إِنَّ يَوْمَ اَلْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (۴۰) يَوْمَ لاٰ يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَ لاٰ هُمْ يُنْصَرُونَ (۴۱) إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ اَللّٰهُ إِنَّهُ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلرَّحِيمُ (۴۲)

التّفسير

اشاره

يوم الفصل!

تمثل هـذه الآيات فى الحقيقه نتيجه الآيات السابقه التى بحثت مسأله المعاد، و التى استدل بها عن طريق حكمه خلق هـذا العالم على وجود البعث و الحياه الأخرى.

فتستنتج الآيه الأولى من هذا الاستدلال: إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ .

كم هو جميل هذا التعبير عن يوم القيامه بيوم الفصل!ذلك اليوم الذى فصل فيه الحق عن الباطل،و تمتاز صفوف المحسنين عن المسيئين،و يعتزل فيه الإنسان أعزّ أصدقائه،و أقرب أخلائه..نعم،إنّه موعد كلّ المجرمين (۱) .

۱- ۱) -احتمل المفسّرون احتمالات عديده فى مرجع الضمير فى(ميقاتهم)فالبعض أرجعه إلى كلّ البشر،و البعض خصوص الأقوام الذين أشير إليهم فى الآيات السابقه،أى قوم تبع و العصاه من قبلهم.غير أنّ المعنى الأوّل هو الأصح.

ثمّ ذکرت الآیه التالیه شرحا موجزا لیوم الفصل هذا،فقالت: یَوْمَ لاٰ یُغْنِی مَوْلًی عَنْ مَوْلًی شَیْئاً وَ لاٰ هُمْ یُنْصَرُونَ .

أجل،ذلک الیوم هو یوم الفصل و الافتراق،یوم یفارق الإنسان فیه کلّ شیء إلاّ عمله،و لا یملک المولی-بأی معنی کان،الصاحب،الولی،ولی النعمه،القریب، الجار،الناصر و أمثال ذلک-القدره علی حل أصغر مشکله من مشاکل القیامه.

«المولی»من ماده ولاء،و هی فی الأصل تعنی الاتصال بین شیئین بحیث لا یوجد بینهما حاجز،و له مصادیق کثیره وردت فی کتب اللغه کمعان مختلفه، تشترک جمیعا فی معناها الأصلی و جذرها (۱) .

فی ذلک الیوم لا یجیب الرفیق رفیقه،و تری الأقارب لا یحل بعضهم مشکله بعض،بل و تتبخر کلّ الخطط و تتقطع جمیع الأواصر الدنیویه کما نقرأ هذه الصوره فی الآیه(۴۶)من سوره الطور: یَوْمَ لاٰ یُغْنِی عَنْهُمْ کَیْدُهُمْ شَیْئاً وَ لاٰ هُمْ یُنْصَرُونَ .

أمّا ما هو الفرق بین«لا یغنی»و بین«لا هم ینصرون»؟فإنّ أحسن ما یقال هو:

أنّ الأوّل إشاره إلی أنّ أی فرد لا یقدر فی ذلک الیوم علی حل مشکله فرد آخر بصوره انفرادیه مستقله،و الثّانی إشاره إلی أنّهم عاجزون عن حل المشاکل حتی و إن تعاونوا فیما بینهم،لأنّ النصره تقال فی موضع یهبّ فیه شخص لمعونه آخر و مساندته حتی ینصره علی المشاکل.

لکن هناک جماعه واحده مستثناه فقط،و هی التی أشارت إلیها الآیه التالیه، فقالت: إِلاّٰ مَنْ رَحِمَ اللّٰهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ .

لا شک أنّ هذه الرحمه الإلهیه لا تمنح اعتباطا،بل تشمل الذین آمنوا و عملوا الصالحات فقط،و إذا کانوا قد بدر منهم زلل و معصیه،فإنّها لا تبلغ حدّا تقطع فیه

۱- ۱) -لقد ذکرت للمولی معان کثیره فی اللغه،وعدها البعض سبعه و عشرین معنی:۱-الرب ۲-العم ۳-ابن العم ۴-الابن ۵- ابن الأخت ۶-المعتق ۷-المعتق ۸-العبد ۹-المالک ۱۰-التابع ۱۱-المنعم علیه ۱۲-الشریک ۱۳-الحلیف ۱۴-الصاحب ۱۵-الجار ۱۶-النزیل ۱۷-الصهر ۱۸-القریب ۱۹-المنعم ۲۰-الفقید ۲۱-الولی ۲۲-الأولی بالشیء ۲۳-السید غیر المالک و المعتق ۲۴- المحبّ ۲۵-الناصر ۲۶-المتصرف فی الأمر ۲۷-المتولی فی الأمر.(الغدیر،المجلد ۱،صفحه ۳۶۲).

علاقتهم باللّه سبحانه،فهم يرفعون أكفهم إلى اللّه و يرجون رحمته،فيتنعمون بها، و يرتوون منها،و يتمتعون بشفاعه أوليائه.

من هنا يتّضح أنّ نفى وجود صديق و ولى و نصير فى ذلك اليوم لا ينافى مسأله الشفاعه،لأنّ الشفاعه أيضا لا تحصل إلاّ بإذن اللّه تعالى.

و الطريف أنّ الآيه قرنت وصفه سبحانه بكونه عزيزا و رحيما،و الأوّل إشاره إلى قدرته اللامتناهيه التى لا تعرف الهزيمه و الضعف،و الثّانى إشاره إلى رحمته التى لا حدود لها،و المهم أن تكون رحمته عين قدرته.

و قد روى فى بعض روايات أهل البيت عليهم السّلام أنّ المراد من جمله: إِلاّ مَنْ رَحِمَ اللّهُ وصى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أمير المؤمنين على عليه السّلام و شيعته (1) .

و لا يخفى أنّ الهدف منها هو بيان المصداق الواضح.

***

1- 1) -نور الثقلين،المجلد 4،صفحه 629.

الآيات [سوره الدخان (۴۴): الآيات ۴۳ الی ۵۰]

اشاره

إِنَّ شَجَرَهَ اَلزَّقُّوم (۴۳) طَعٰامُ اَلْأَثِیم (۴۴) کَالْمُهْلِ یَغْلِی فِی اَلْبُطُونِ (۴۵) کَغَلْیِ اَلْحَمِیم (۴۶) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلیٰ سَوٰاءِ اَلْجَحِیمِ (۴۷)
ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذٰابِ اَلْحَمِیم (۴۸) ذُقْ إِنَّکَ أَنْتَ اَلْعَزِیزُ اَلْکَرِیمُ (۴۹) إِنَّ هٰذٰا مٰا کُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (۵۰)

التّفسیر

اشاره

شجره الزقوم!

تصف هـذه الآیات أنواعا من عذاب الجحیم وصـفا مرعبا یهز الأعماق،و هی تکمل البحث الذی مرّ فی الآیات السابقه حول یوم الفصل و القیامه،فتقول: إِنَّ شَجَرَهَ الزَّقُّومِ طَعٰامُ الْأَثِیمِ فهؤلاء المجرمون هم الذین یأکلون هذا النبات المر القاتل،و الخبیث الطعام النتن الرائحه.

«الزّقوم»کما قلنا فی تفسیر الآیه(۶۲)من سوره الصافات-علی قول المفسّرین و أهل اللغه،اسم شجره لها أوراق صغیره و ثمره مرّه خشنه اللمس منتنه الرائحه،تنبت فی أرض تهامه من جزیره العرب،کان المشرکون یعرفونها،و هی

شجره عصيرها مرّ،و إذا أصابت البدن تورّم (۱) .

و يعتقد البعض أنّ الزقوم فی الأصل يعنی الابتلاع (۲) ،و يقول البعض:إنّها كلّ طعام خبيث فی النّار (۳) .

و جاء فی حديث أنّ هذه الكلمه لما نزلت فی القرآن قال كفار قريش:ما نعرف هذه الشجره،فأيّكم يعرف معنی الزقوم؟و كان هناك رجل من أفريقيه قال:هی عندنا التمر و الزبد-و ربّما قال ذلك استهزاء-فلما سمع أبو جهل ذلك قال مستهزئا:يا جاريه زقمينا،فأتته الجاريه بتمر و زبد،فقال لأصحابه:تزقموا بهذا الذی يخوفكم به محمّد (۴) .

و ينبغی الالتفات إلی أنّ«الشجره»تأتی فی لغه العرب و الاستعمالات القرآنيه بمعنی الشجره أحيانا،و بمعنی مطلق النبات أحيانا.

و«الأثيم»من ماده إثم،و هو المقيم علی الذنب،و المراد هنا الكفار المعاندون المعتقدون،المصرون علی الذنوب و المعاصی المكثرون منها.

ثمّ تضيف الآيه: كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ .

«المهل»-علی قول كثير من المفسّرين و أرباب اللغه-الفلز المذاب،و علی قول آخرين-كالراغب فی المفردات-هو درديّ الزيت،و هو ما يترسب فی الإناء،و هو شیء مرغوب فيه جدا،لكن يبدو أنّ المعنی الأوّل هو الأنسب.

«و الحميم»هو الماء الحار المغلی،و تطلق أحيانا علی الصديق الوثيق العلاقه و الصداقه،و المراد هنا هو المعنی الأول.

علی أی حال،فعند ما يدخل الزقوم بطون هؤلاء،فإنّه يولد حراره عاليه لا تطاق،و يغلی كما يغلی الماء،و بدل أن يمنحهم هذا الغذاء القوه و الطاقه فإنّه

۱- ۱) -مجمع البيان،تفسير روح البيان،تفسير روح المعانی.

۲- ۲) -لسان العرب ماده«زقم».

۳- ۳) -مفردات الراغب ماده(زقم).

۴- ۴) -تفسير القرطبی،المجلد ۸،صفحه ۵۵۲۹ ذيل الآيه(۶۲)من سوره الصافات.

يهبهم الشقاء و العذاب و الألم و المشقه.

ثمّ يخاطب سبحانه خزنه النّار،فيقول: خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلىٰ سَوٰاءِ الْجَحِيمِ .

«فاعتلوه»من ماده العتل،و هى الأخذ و السحب و الإلقاء.و هو ما يفعله حماه القانون و الشرطه مع المجرمين المتمردين،الذى لا يخضعون لأى قانون و لا يطبقونه.

«سواء»بمعنى الوسط،لأنّ المسافه إلى جميع الأطراف متساويه،و أخذ أمثال هؤلاء الأشخاص و إلقاؤهم فى وسط جهنم باعتبار أنّ الحراره أقوى ما تكون فى الوسط،و النّار تحيط بهم من كلّ جانب.

ثمّ تشير الآيه التاليه إلى نوع آخر من أنواع العقاب الأليم الذى يناله هؤلاء فتقول: ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذٰابِ الْحَمِيمِ (١) و بهذا فإنّهم يحترقون من الداخل،و تحيط النّار بكلّ وجودهم من الخارج،و إضافه إلى ذلك يصب على رؤوسهم الماء المغلى فى وسط الجحيم.

و قد ورد نظير هذا المعنى فى الآيه(١٩)من سوره الحج حيث تقول: يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ .

و بعد كلّ أنواع العذاب الجسمى هذه،تبدأ العقوبات الروحيه و النفسيه،فيقال لهذا المجرم المتمرد العاصى الكافر: ذُقْ إِنَّکَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ فأنت الذى كنت قد قيدت البؤساء فباتوا فى قبضتك تظلمهم كيف شئت،و تعذبهم حسبما تشتهى، و كنت تظن أنّك قوى لا تقهر،و عزيز لا يمكن أنّ تهان و يجب على الجميع احترامك و تقديرك.

نعم،أنت الذى ركبك الغرور فلم تدع ذنبا لم ترتكبه،و لا موبقه لم تأتها،فذق الآن نتيجه أعمالك التى تجسدت أمامك،و كما أحرقت أجسام الناس و آلمت

١- ١) -عذاب الحميم من قبيل الإضافه البيانيه،أى إنّ هذا الماء المحرق عذاب يصب على هؤلاء.

أرواحهم،فليحترق الآن داخلك و خارجك بنار غضب اللّه و الماء المغلى الذى يصهر ما فى بطونهم و الجلود.

و

جاء فى حديث أنّ النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم أخذ يوما بيد أبى جهل و قال: «أولى لك فأولى»فغضب أبو جهل و جرّ يده و قال:بأى شيء تهددنى؟ما تستطيع أنت و صاحبك أن تفعلا بى شيئا،إنّى لمن أعز هذا الوادى و أكرمه.

و الآيه ناظره إلى هذا المعنى،فتقول:عند ما يلقونه فى جهنم يقولون له:ذق يا عزيز مكّه و كريمها (۱) .

و يضيف القرآن الكريم فى آخر آيه-من الآيات مورد البحث-مخاطبا إيّاهم:

إِنَّ هٰذٰا مٰا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ

فكم ذكّرناكم بحقّانيه هذا اليوم و حقيقته فى مختلف آيات القرآن و بمختلف الأدله؟! ألم نقل لكم: كَذٰلِكَ الْخُرُوجُ ؟ (۲) .

ألم نقل: كَذٰلِكَ النُّشُورُ ؟ (۳) .

ألم نقل: وَ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيرٌ ؟ (۴) .

ألم نقل: أَ فَعَيِينٰا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ؟ (۵) .

و خلاصه القول:قد قلنا لكم الحقيقه و أوضحناها بطرق مختلفه،لكن لم تكن لكم آذان تسمعون بها.

***

۱- ۱) -تفسير المراغى،المجلد ۲۵،صفحه ۱۳۵ ذيل الآيات مورد البحث،و تفسير روح المعانى،و التّفسير الكبير للفخر الرازى.

۲- ۲) -سوره ق،الآيه ۱۱.

۳- ۳) -سوره فاطر،الآيه ۹.

۴- ۴) -سوره التغابن،الآيه ۷.

۵- ۵) -سوره ق،الآيه ۱۵.

بحث

اشاره

العقوبات الجسميه و الروحيه:

نحن نعلم،و طبقا لصريح القرآن،أنّ للمعاد جانبا جسميا،و آخر روحيا،و على ذلك فمن الطبيعى أن تكون العقوبات و المثوبات متصفتين بهما كذلك،و لذلك أشير فى آيات القرآن الكريم و الرّوايات الإسلاميه إلى كلا القسمين،غايه ما فى الأمر أنّ انتباه الناس و إحساسهم لمّا كان منصبا على الأمور الجسميه غالبا،لذلك يلاحظ أنّ التفصيل فى العقوبات و المثوبات الماديه أكثر،لكن لا يعنى هذا أن الإشاره إلى المثوبات و العقوبات المعنويه قليله.

و قد رأينا فى الآيات أعلاه نموذجا لهذا المطلب،فمع ذكر عدّه أقسام من العقوبات الجسميه الأليمه،هناك إشاره وجيزه عميقه المحتوى إلى الجزاء الروحى الذى سينال المستكبرين.

و تلاحظ فى آيات أخرى من القرآن الإشاره إلى المثوبات الروحيه أيضا، فيقول اللّه تعالى فى موضع: وَ رِضْوٰانٌ مِنَ اللّٰهِ أَكْبَرُ (1) .

و يقول فى موضع آخر: سَلاٰمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (2) .

و أخيرا يقول فى موضع ثالث: وَ نَزَعْنٰا مٰا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوٰاناً عَلىٰ سُرُرٍ مُتَقٰابِلِينَ (3) .

و لا يخفى أنّه لا يمكن وصف اللذائذ المعنويه غالبا و خاصّه فى ذلك العالم الواسع،و لذلك فقد أشير إليها فى القرآن إشاره غامضه عاده،أمّا العقوبات الروحيه التى تكون بالتحقير و الإهانه،التوبيخ و التقريع،و الأسف و الهم و الحزن،فقد وصفتها الآيات و أوضحتها،و قد قرأنا نماذج منها فى الآيات أعلاه.

***

۱- ۱) -سوره التوبه،الآيه ۷۲.

۲- ۲) -سوره يس،الآيه ۵۸.

۳- ۳) -سوره الحجر،الآيه ۴۷.

الآيات [سوره الدخان (۴۴): الآيات ۵۱ الی ۵۷]

اشاره

إِنَّ اَلْمُتَّقِینَ فِی مَقٰامٍ أَمِینٍ (۵۱) فِی جَنّٰاتٍ وَ عُیُونٍ (۵۲) یَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقٰابِلِینَ (۵۳) کَذٰلِکَ وَ زَوَّجْنٰاهُمْ بِحُورٍ عِینٍ (۵۴) یَدْعُونَ فِیهٰا بِکُلِّ فٰاکِهَهٍ آمِنِینَ (۵۵) لاٰ یَذُوقُونَ فِیهَا اَلْمَوْتَ إِلاَّ اَلْمَوْتَهَ اَلْأُولیٰ وَ وَقٰاهُمْ عَذٰابَ اَلْجَحِیمِ (۵۶) فَضْلاً مِنْ رَبِّکَ ذٰلِکَ هُوَ اَلْفَوْزُ اَلْعَظِیمُ (۵۷)

التّفسیر

اشاره

المتقون و مختلف نعم الجنّه:

لما کان الکلام فی الآیات السابقه عن العقوبات الألیمه لأهل النّار،فإنّ هذه الآیات تذکر المواهب و النعم المعده لأهل الجنّه،لتتضح أهمیه کلّ منهما من خلال المقارنه بینهما.

و قد لخصت هذه المواهب فی سبعه أقسام:

الأولی:هی إِنَّ الْمُتَّقِینَ فِی مَقٰامٍ أَمِینٍ (۱) علی هذا فلا یصیبهم أی إزعاج أو

ص:۱۶۷

۱- ۱) -ممّا یستحق الانتباه أنّ(أمین)قد ذکر وصفا للمقام،فکأن مقام أهل الجنّه أمین بنفسه و لا یخون أهل الجنّه مطلقا،و مثل هذه التعبیرات تأتی عاده للتأکید و المبالغه.

خوف،بل هم فی أمن کامل من الآفات و البلایا،من الغم و الأحزان،و من الشیاطین و الطواغیت.

ثمّ تطرقت الآیات إلی النعمه الثانیه فقال: فِی جَنّٰاتٍ وَ عُیُونٍ .

إن التعبیر بالجنات یمکن أن یکون إشاره إلی تعدد الحدائق و البساتین التی یتمتع بها کلّ فرد من أهل الجنّه،فهی تحت تصرفه،أو تکون إشاره إلی مقاماتهم المختلفه و درجاتهم المتفاوته،لأنّ حدائق الجنّه و بساتینها غیر متساویه،بل تختلف باختلاف درجات أصحاب الجنّه.

و تشیر الثالثه إلی ملابسهم الجمیله،فتقول: یَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقٰابِلِینَ .

«السندس»یقال للأقمشه الحریریه الناعمه الرقیقه،و أضاف البعض قید کونها مذهّبه.

و«الإستبرق»هی الأقمشه الحریریه السمیکه،و یعتقد بعض المفسّرین و أهل اللغه أنها معربه من الکلمه الفارسیه(أستبر)أو(ستبر)أی السمیک.و یحتمل أن یکون أصلها عربیا مأخوذا من البرق أی التلألؤ،حیث أنّ لهذه الأقمشه بریقا خاصّا.

طبعا،لیس فی الجنّه حرّ شدید أو برد قارص لیتوقاه أهل الجنّه بارتداء هذا الملابس،بل هذه إشاره إلی الألبسه المتنوعه المعده لهم.

و کما قلنا سابقا،فإنّ کلماتنا و ألفاظنا-هذه التی وضعت لرفع حاجات الحیاه الیومیه فی دنیانا-عاجزه عن وصف مسائل ذلک العالم الکامل العظیم،بل هی قادره علی الإشاره إلیها و حسب.

و اعتقد البعض أنّ اختلاف هذه الألبسه إشاره إلی تفاوت مقامات القرب بین أصحاب النعیم.

ثمّ إنّ كون أهل الجنّه متقابلين مع بعضهم البعض،و زوال أى تفاوت و تكبر لأحد على آخر،إشاره إلى روح الأنس و الأخوه التى تسود مجالسهم،تلك المجالس و الحلقات التى لا يرى فيها إلاّ الصفاء و المودّه و تسامى الروح.

و تصل النوبه فى النعمه الرابعه إلى أزواجهم،فتقول: كَذٰلِكَ وَ زَوَّجْنٰاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ .

«الحور»جمع حوراء و أحور،و تقال لمن اشتد سواد عينه،و اشتد بياض بياضها.و«العين»جمع أعين و عيناء،أى أوسع العين،و لما كان أكثر جمال الإنسان فى عينيه،فإنّ الآيه تصف عيون الحور العين الجميله الساحره.و قد ذكرت محاسنهن الأخرى بأسلوب رائع فى آيات أخرى من القرآن.

ثمّ تناولت الآيه الأخرى النعمه الخامسه لأصحاب الجنّه فقالت: يَدْعُونَ فِيهٰا بِكُلِّ فٰاكِهَهٍ آمِنِينَ فلا توجد فى الجنّه تلك هنا المشكلات و الصعوبات التى كانوا يعانونها فى تناول فاكهه الدنيا،فإنّها قريبه منهم و فى متناولهم،و على هذا فليس هناك بذل جهد لاقتطاف الأثمار من الأشجار العاليه،إذ قُطُوفُهٰا دٰانِيَهٌ (۱) .

و إليهم يرجع اختيار الفاكهه التى يشتهونها: وَ فٰاكِهَهٍ مِمّٰا يَتَخَيَّرُونَ (۲) .

و لا أثر هنا للأمراض و الاضطرابات التى قد تحدث فى هذه الدنيا على أثر تناول الفواكه،و كذلك لا خوف من فسادها و قلتها،فهم فى راحه و أمن و اطمئنان من الجهات.

و على أيه حال،فإذا كان الزقوم طعام أهل النّار الذى يغلى فى بطونهم كغلى الحميم،فإنّ طعام الجنّه هى الفواكه اللذيذه الخاليه من كلّ أذى و إزعاج.

خلود الجنّه و نعمها هى النعمه السادسه من نعم اللّه سبحانه على المتقين،لأنّ الذى يقلق فكر الإنسان عند الوصال و اللقاء هو خوف الفراق،و لذلك تقول الآيه:

۱- ۱) -سوره الحاقه،الآيه ۲۳.

۲- ۲) -سوره الواقعه،الآيه ۲۰.

لاٰ يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الْأُولىٰ

.

و الطريف أنّ القرآن الكريم قد بيّن كون نعم الجنّه خالده بتعابير مختلفه،فيقول تاره: خٰالِدِينَ فِيهٰا (١) و يقول أخرى: عَطٰاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (٢) أمّا لماذا عبر ب اَلْمَوْتَةَ الْأُولىٰ فسيأتى بيانه فى التأملات،إن شاء اللّه تعالى.

و أخيرا يبيّن القرآن الكريم السابع من النعم و آخرها،فيقول: وَ وَقٰاهُمْ عَذٰابَ الْجَحِيمِ فإنّ كمال هذه النعم إنما يتم عند ما يخلو فكر أصحاب الجنّه من احتمال العذاب،و عدم انشغالهم به،لئلا يقلقوا فيتكدر صفوهم فلا تكمل تلك النعم حينئذ.

و هذا التعبير يشير إلى أنّ المتقين إن كانوا خائفين مما بدر منهم من هفوات، فإنّ اللّه سبحانه سيعفو عنها بلطفه و كرمه،و يطمئنهم بأنّ لا يدعوا للخوف إلى أنفسهم سبيلا-و بتعبير آخر،فإنّ غير المعصومين مبتلون بالهفوات شاؤوا أم أبوا، و هم فى خوف و قلق منها ما داموا غير مطمئنين بشمول العفو الإلهى لهم،و هذه الآيه تمنحهم الاطمئنان و الراحه و الأمان من هذه الجهه.

و هنا يطرح سؤال،و هو:إنّ بعض المؤمنين يقضون مدّه فى الجحيم بذنوب اقترفوها،ليتطهروا منها،ثمّ يدخلون الجنّه، فهل تشملهم الآيه المذكوره؟ و يمكن القول فى معرض الإجابه عن هذا السؤال،بأنّ الآيه تتحدث عن المتقين ذوى الدرجات الساميه،و الذين يردون الجنّه من أوّل وهله،أما الفئه الأخرى فهى ساكته عنهم.

و يحتمل أيضا أنّ هؤلاء عند ما يدخلون الجنّه فلن يخشوا بعد ذلك العوده إلى النّار،بل يبقون من الأمن الدائم،و هذا يعنى أنّ الآيه أعلاه ترسم صوره هؤلاء و حالهم بعد دخولهم الجنّه.

و أشارت آخر آيه-من هذه الآيات-إلى جميع النعم السبعه،و كنتيجه لما مر

ص:١٧٠

١- ١) -ورد هذا التعبير فى آيات كثير من القرآن،و من جملتها:آل عمران-١٣٦،١٥ النساء-١٢٢،١٣،المائده-٨٥،و غيرها.

٢- ٢) -سوره هود،الآيه ١١٠.

تقول: فَضْلاً مِنْ رَبِّکَ ذٰلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ (۱) .

صحیح،إنّ المتقین قد عملوا الکثیر من الصالحات و الحسنات،إلاّ أنّ من المسلّم أن تلک الأعمال جمیعا لا تستحق کلّ هذه النعم الخالده،بل هی فضل من اللّه سبحانه،إذ جعل کلّ هذه النعم و العطایا تحت تصرفهم و وهبهم إیّاها.

هذا إضافه إلی أنّ هؤلاء لم یکونوا قادرین علی کسب کلّ هذه الحسنات و لا علی فعل الحسنات لو لم یشملهم فضل اللّه و توفیقه،و لطفه،فهو الذی منحهم العقل و العلم،و هو الذی أرسل الأنبیاء و الکتب السماویه،و هو الذی غمرهم بتوفیق الهدایه و العمل.

نعم،إنّ استغلال هذه المنح العظمی،و الوصول إلی کلّ تلک العطایا و الثواب، إنّما تمّ بفضله سبحانه إذ وهبهم إیّاها،و لم یکن هذا الفوز العظیم لیحصل إلاّ فی ظل لطفه و کرمه.

بحث

اشاره

ما هی الموته الأولی؟

قرأنا فی الآیات المذکوره أعلاه،أنّ أصحاب الجنه لا یذوقون إلاّ الموته الأولی،و هنا تطرح أسئله ثلاثه:

الأول:ما المراد من الموته الأولی؟فإنّ کان المراد الموت الذی تنتهی به الحیاه الدنیا،فلما تقول الآیه: لاٰ یَذُوقُونَ فِیهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَهَ الْأُولیٰ فی حین أنّهم قد ذاقوها،و علیه یجب أن یأتی الفعل بصیغه الماضی لا المضارع؟ و للإجابه عن هذا السؤال اعتبر البعض(إلاّ)فی جمله إِلاَّ الْمَوْتَهَ الْأُولیٰ

۱- ۱) -احتملت عدّه احتمالات فی إعراب(فضلا):أحدها:إنّها مفعول مطلق لفعل محذوف،و التقدیر:فضلهم فضلا،و الآخر:أنّه مفعول لأجله،أو أنّها حال.

بمعنی(بعد)،و قالوا:إنّ معنی الآیه هو أنّهم لا یذوقون موتا بعد موتتهم الأولی.

و قدّر البعض الآخر تقدیرا فی الکلام فقالوا:إنّ التقدیر هو:إلاّ الموته الأولی التی ذاقوها (۱) .

الثانی:هو:لماذا ورد الکلام عن الموته الأولی فقط،فی حین أننا نعلم أنّ الإنسان یذوق الموت مرّتین:مرّه عند انتهاء حیاته،و أخری بعد حیاه البرزخ؟ و قد ذکروا للإجابه علی هذا السؤال عده إجابات کلها غیر مرضیه،فآثرنا عدم ذکرها لعدم استحقاقها الذکر.

و الأفضل أن یقال:إنّ الحیاه و الموت فی البرزخ لا یشبهان أبدا الحیاه و الموت العادیین،بل إنّ حیاه القیامه تشبه الحیاه الدنیا من وجوه عدیده بمقتضی المعاد الجسمانی،غایه ما هناک أنّها فی مستوی أعلی و أسمی،و لذلک یقال لأصحاب الجنّه:لا موته بعد الموته الأولی التی ذقتموها، و لما کانت الحیاه و الموت فی البرزخ لا شباهه لهما بحیاه الدنیا و موتها لذا لم یرد الکلام حولهما (۲) .

السؤال الثّالث هو:إنّ عدم وجود الموت فی القیامه لا ینحصر بأصحاب الجنّه، بل أصحاب النّار لا یموتون أیضا،فلما ذا أکّدت الآیه علی أصحاب الجنّه؟ للمرحوم الطبرسی جواب رائع عن ذلک،فهو یقول:إنّ ذلک بشاره لأهل الجنّه، بأن لهم حیاه خالده هنیئه،أما أصحاب النّار الذین یعتبر کلّ لحظه من لحظات حیاتهم موتا،و کأنّهم یحیون و یموتون دائما،فلا معنی لهذا الکلام فی حقهم.

و علی أیه حال،فإنّ التعبیر هنا ب لاٰ یَذُوقُونَ إشاره إلی أنّ أصحاب الجنّه لا یرون و لا یعانون أدنی أثر من آثار الموت.

و جمیل أنّ نقرأ

فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّ اللّه تعالی یقول لبعض أهل

۱- ۱) -بناء علی هذا فإنّ الاستثناء أعلاه منقطع أیضا لأنّ أصحاب الجنّه لا یذوقون مثل هذا الموت،بل ذاقوه من قبل(فتأمل!).

۲- ۲) -الحیاه و الموت فی البرزخ فی ذیل الآیه(۱۱)من سوره المؤمن.

الجنّه:«و عزتی و جلالی،و علوی و ارتفاع مکانی لأنحلنّ لهم الیوم خمسه أشیاء:

ألا إنّهم شباب لا یهرمون،و أصحاء لا یسقمون،و أغنیاء لا یفتقرون،و فرحون لا یحزنون،و أحیاء لا یموتون»ثمّ تلا هذه الآیه: لاٰ یَذُوقُونَ فِیهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَهَ الْأُولیٰ (۱) .

***

ص :۱۷۳

۱- ۱) -أصول الکافی،طبقا لنقل تفسیر نور الثقلین،المجلد ۴،صفحه ۶۳۴.

الآیتان [سوره الدخان (۴۴): الآیات ۵۸ الی ۵۹]

اشاره

فَإِنَّمٰا یَسَّرْنٰاهُ بِلِسٰانِکَ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ (۵۸) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (۵۹)

التّفسیر

اشاره

ارتقب فإنهم مرتقبون!

قلنا:إنّ سوره الدخان بدأت ببیان عظمه القرآن و عمقه،و تنتهی بهذه الآیات التی تبیّن کذلک التأثیر العمیق لآیات القرآن الکریم،لتنسجم بذلک بدایه السوره مع نهایتها،و ما هو مبیّن أیضا بین البدایه و النهایه هو التأکید علی مواعظ القرآن و نصحه.

تقول الآیه الأولی: فَإِنَّمٰا یَسَّرْنٰاهُ بِلِسٰانِکَ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ فمع أنّ محتواه عمیق جدا،و أبعاده مترامیه،لکنه بسیط واضح،یفهمه الجمیع،و تقتبس من أنواره کلّ الطبقات،أمثاله جمیله رائعه،و تشبیهاته واقعیه بلیغه،و قصصه حقیقیه تربویه، دلائله واضحه محکمه،و بیانه مع عمقه بسیط سهل،مختصر عمیق المحتوی،و هو فی الوقت نفسه ذو حلاوه و جاذبیه،ینفذ إلی أعماق قلوب البشر،فینبه الغافلین،

ص: ۱۷۴

و يعلم الجاهلين،و يذكر من كان له قلب.

و قد ذكر بعض المفسّرين تفسيرا آخر لهذه الآيه،يكون معنى الآيه طبقا له:إنّك و إن كنت أميّا لم تدرس و تتعلم،لكنك تستطيع أن تقرأ بكلّ يسر و سهوله هذه الآيات العميقه الغنيه المحتوى، و التى تبين الوحى و الإعجاز الإلهى.غير أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

و هذه الآيه-فى الواقع-شبيهه بالآيه التى تكررت عدّه مرات فى سوره القمر:

وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟! لكن لما كان هناك جماعه لم يذعنوا لأمر اللّه،و لم يسلموا و يستسلموا رغم ذكر كل هذه الأوصاف،فقد هددتهم الآيه الأخيره و حذرتهم فقالت: فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ فانتظر ما وعدك اللّه بالنصر على الكفار،و لينتظروا الهزيمه و الخسران...

انتظر نزول عذاب اللّه الأليم على هؤلاء المعاندين الظالمين،ودعهم ينتظرون هزيمتك و عدم تحقق أهدافك الساميه،ليعلم أى الانتظارين هو الصحيح؟ بناء على هذا،ينبغى أنّ لا يستفاد أبدا من الآيه أنّ اللّه سبحانه يأمر نبيّه أن يكف كليا عن إبلاغهم رسالته،و ينهى نشاطه و فعالياته و جهاده،و يكتفى بأنّ يكون منتظرا للنتيجه،و إنّما هو نوع تهديد لأولئك المتعصبين عسى أن يستيقظوا من سباتهم،و ينتبهوا من غفلتهم.

***

ملاحظات

۱-«ارتقب»فى الأصل مأخوذه من الرقبه،و لما كان من ينتظر شيئا يمد رقبته نحوه دائما،فقد جاءت بمعنى انتظار الشىء و مراقبته.

۲-إنّ الآيـات إعلاـء تبين بوضوح أنّ القرآن الكريم لاـ يختص بطبقه خـاصّه أو قوم معينين، بل هو لإفهام الجميع و تـذكيرهم و إثـاره تفكرهم،و على هـذا،فـإنّ أولئك الـذين يجعلون القرآن مجموعه من المفاهيم المبهمه الألغاز المحيره التى لا يفهمها و لا يعلمها إلّا طبقه خاصّه،بل و حتى هذه الطبقه لا تفهم منه شيئا و لا تدرك أبعاده،غافلون فى الحقيقه عن روح القرآن.

إنّ القرآن يجب أن يحيـا بين النـاس و يحضـر بينهم حيثمـا كانوا،فى المـدينه و القريه،فى الخلاء و الملأ،فى المـدار الابتـدائيه و الجامعات،فى المسـجد و ميادين الحرب،و فى كلّ مكان يوجد فيه إنسان،لأنّ اللّه سـبحانه قد يسّـره ليتذكر الجميع و يقتبسوا من أنواره ما يضيئون به حياتهم.

و كـذلك قضت هـذه الآـيه ببطلاـن أفكار أولئك الـذين حبسوا القرآن فى إطار طريقه تلاوته و قواعـد تجويـده و تعقيـداتها،و أصـبح همهم الوحيـد أداء ألفاظه من مخارجها،و مراعاه آداب الوقف و الوصل فتقول لهم:إنّ كلّ ذلك من أجل التـذكر الـذى يكون عامـل حركه و باعثا على العمـل فى الحيـاه،فـإنّ رعـايه ظواهر الألفـاظ صـحيح فى محله،إلّا أنّه ليس الهـدف النهائى،بل الهدف هو فهم معانى القرآن لا ألفاظه.

-۳

ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّـلام: «لولا تيسيره لما قدر أحد من خلقه أن يتلفظ بحرف من القرآن،و أنى لهم ذلك و هو كلام من لم يزل و لا يزال» (۱) .

اللّهمّ اجعلنا ممن يتعظ بالقرآن العظيم،و يتذكر و يتدبر فيه،و يجعل حياته فى جميع أبعادها تبعا لمفاهيمه و أحكامه.

اللّهمّ امنحنا من ذلك الأمن الذى و هبته المتقين، فجعلتهم مطمئنين موقنين

ص :۱۷۶

۱- ۱) -تفسير روح البيان،المجلد ۸،صفحه ۴۳۳.

أمام عواصف الأحداث و المصاعب الجمه التی تعترضهم.

إلهنا...إنّ مواهبک لا تحصی،و رحمتک لا تحد،و عذابک ألیم،و لیست أعمالنا بالتی تجعلنا مؤهلین لنیل رحمتک و النجاه من عذابک.

اللّهمّ فانشر علینا من رحمتک،و أفض علینا من فضلک الذی وعدت به المتقین من عبادک،و إلاّ فلا سبیل لنا إلی جنتک الخالده.

آمین ربّ العالمین نهایه سوره الدخان ***

ص :۱۷۷

سوره الجاثیه

اشاره

مکیّه و عدد آیاتها سبع و ثلاثون آیه

ص :۱۷۹

«سوره الجاثیه»

محتوى السوره:

هـذه السوره-و هی سـادس الحوامیم-من السوره المکیه،و قـد نزلت فی وقت کانت المواجهه بین المسـلمین و مشـرکی مکّه قد اشـتدت و سادت الأجواء الاجتماعیه فی مکّه،و لـذلک فإنّها أکّدت علی المسائل المتعلقه بالتوحید، و محاربه الشـرک،و تهدید الظالمین بمحکمه القیامه،و التنبیه إلی کتابه الأعمال و تسجیلها،و کذلک التنبیه إلی عاقبه الأقوام المتمردین الماضین.

و یمکن تلخیص محتوی هذه السوره فی سبعه فصول:

۱-عظمه القرآن المجید و أهمیته.

۲-بیان جانب من دلائل التوحید أمام المشرکین.

۳-ذکر بعض ادعاءات الدهریین،و الردّ علیها بجواب قاطع.

۴-إشاره وجیزه إلی عاقبه بعض الأقوام الماضین-کبنی إسرائیل-کشاهد علی مباحث هذه السوره.

۵-تهدید الضالین المصرین علی عقائدهم المنحرفه و المتعصبین لها تهدیدا شدیدا.

۶-الدعوه إلی العفو و الصفح،لکن مع الحزم و عدم الانحراف عن طریق الحق.

۷-الإشارات البلیغه المعبره إلی مشاهد القیامه المهوله،و خاصه صحیفه

الأعمال التی تشتمل علی کلّ أعمال الإنسان دون زیاده أو نقصان.

و تبدأ هذه السوره بصفات و أسماء اللّه عزّ و جلّ العظیمه کالعزیز و الحکیم، و تنتهی بها أیضا.

و اسمها مقتبس من الآیه ۲۸ منها،و«الجاثیه»تعنی الجثو علی الرکب،و هی إشاره الی وضع کثیر من الناس فی ساحه القیامه،فی محکمه العدل الإلهیه تلک.

و قد ذکر المرحوم الطبرسی فی مجمع البیان اسما آخر لهذه السوره غیر مشهور،و هو(الشریعه)مستلهم من الآیه(۱۸)من هذه السوره.

فضل تلاوه السوره:

نقرأ

فی حدیث عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «من قرأ حامیم الجاثیه ستر اللّه عورته،و سکن روعته عند الحساب» (۱) .

و

ورد فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام: «من قرأ سوره الجاثیه کان ثوابها أنّ لا یری النّار أبدا،و لا یسمع زفیر جهنم و لا شهیقها،و هو مع محمّد» (۲) .

***

۱- ۱) -تفسیر مجمع البیان،بدایه سوره الجاثیه.

۲- ۲) -تفسیر البرهان،بدایه سوره الجاثیه،المجلد ۴،ص ۱۶۷.

الآيات [سوره الجاثيه (۴۵): الآيات ۱ الی ۶]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ حم (۱) تَنْزِيلُ اَلْكِتٰابِ مِنَ اَللّٰهِ اَلْعَزِيزِ اَلْحَكِيمِ (۲) إِنَّ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ لَآيٰاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (۳) وَ فِی
خَلْقِكُمْ وَ مٰا يَبُثُّ مِنْ دٰابَّةٍ آيٰاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۴) وَ اِخْتِلاٰفِ اَللَّيْلِ وَ اَلنَّهٰارِ وَ مٰا أَنْزَلَ اَللّٰهُ مِنَ اَلسَّمٰاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيٰا بِهِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهٰا وَ تَصْرِيفِ اَلرِّيٰاحِ آيٰاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۵) تِلْكَ آيٰاتُ اَللّٰهِ نَتْلُوهٰا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اَللّٰهِ وَ آيٰاتِهِ يُؤْمِنُونَ (۶)

التّفسير

اشاره

آيات اللّه فی كلّ مكان:

قلنا:إنّ هذه هی السوره هی سادس السور التی تبدأ بالحروف المتقطعه(حم) و هی تشكل مع السوره الآتيه-أی سوره الأحقاف-سور الحواميم السبعه.

و قد بحثنا مرارا فی تفسير الحروف المتقطعه فی بدايات سوره البقره و آل

ص :۱۸۳

عمران،و کذلک فی الحوامیم.

یقول المرحوم الطبرسی فی بدایه هذه السوره:إنّ أحسن ما یقال هو أنّ(حم) اسم هذه السوره.ثمّ ینقل عن بعض المفسّرین،أنّ تسمیه هذه السوره ب(حم) للإشاره إلی أنّ هذا القرآن المعجز بتمامه یتکون من حروف الألف باء.

نعم،إنّ کتاب النور و الهدایه و الإرشاد و حل المعضلات و معجزه نبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم الخالده هذا،یترکب من هذه الحروف البسیطه،و غایه العظمه أن یتکون أمر بهذه الأهمیه من هذه الحروف السهله البسیطه.

و ربّما کان هذا هو السبب فی أن تتحدث الآیه التالیه عن عظمه القرآن مباشره فتقول: تَنْزِیلُ الْکِتٰابِ مِنَ اللّٰهِ الْعَزِیزِ الْحَکِیمِ (1) .

«العزیز»هو القوی الذی لا یقهر،و«الحکیم»هو العارف بأسرار کلّ شیء، و تقوم کل أفعاله علی أساس الحکمه و الدقه،و من الواضح أنّ الحکمه التامه و القوّه اللامحدوده من لوازم تنزیل مثل هذا الکتاب العظیم،و هما غیر موجودتین إلاّ فی اللّه العزیز المتعال.

و الطریف أنّ هذه الآیه قد وردت علی هذه الهیئه فی بدایه أربع سور من القرآن الکریم،ثلاث منها من الحوامیم-و هی المؤمن و الجاثیه و الأحقاف-و الأخری من غیر الحوامیم،و هی سوره الزمر.و هذا التکرار و التأکید یهدف إلی جلب انتباه الجمیع إلی عمق أسرار القرآن و عظمه محتواه،لئلا ینظروا ببساطه و عدم تدبر إلی أیه عباره أو تعبیر من تعابیره،و لئلا یظنوا أنّ هذه الکلمه أو تلک لا محل لها و لا فائده من ذکرها،لکی لا یقنعوا بحدّ معین من فهمه و إدراکه،بل ینبغی أن یکونوا فی سعی دؤوب للتوصل إلی أعمق ممّا أدرکوه.

***

1- 1) -(تنزیل الکتاب)خبر لمبتدأ محذوف،و التقدیر:(هذا تنزیل الکتاب)،ثمّ إنّ(تنزیل)مصدر جاء هنا بمعنی اسم المفعول، و هو من قبیل إضافه الموصوف إلی الصفه،و تقدیر الکلام:هذا کتاب منزل...

و هنا نکته تستحق الالتفات،و هی أنّ صفه(العزیز)قد وردت أحیانا لوصف نفس القرآن،مثل: وَ إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (۱) ،فإنّه عزیز لاـ تصل إلیه أیدی الذین یقولون بعدم فائدته،و لاـ ینقص مر الزمان من أهمیته،و لا تبلی حقائقه و لا تفقد قیمتها،و یفضح المحرفین أو من یحاول تحریفه، و یشق طریقه إلی الأمام دائما رغم کل ما یوضع أمامه من عراقیل.

و قد تأتی هذه الصفه فی حق منزله جل و علا،کما فی هذه الآیه،و کلاهما صحیح.

ثمّ تناولت الآیه التی بعدها بیان آیات اللّه سبحانه و دلائل عظمته فی الآفاق و الأنفس،فقالت: إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ .

إن عظمه السماوات من جانب،و نظامها العجیب الذی مرّت علیه ملایین السنین الذی لم ینحرف عما سار علیه قید أنمله،من جانب آخر،و نظام خلقه الأرض و عجائبها،من جانب ثالث،یکون کلّ منها آیه من آیات اللّه سبحانه.

إنّ للأرض-علی قول بعض العلماء-أربع عشره حرکه،و تدور حول نفسها بسرعه مذهله،و کذلک تدور حول الشمس بحرکه سریعه،و أخری مع المنظومه الشمسیه ضمن مجرّه«درب التبانه»،و هی تسیر فی طریق لا نهایه له،و سفر لا حدّ له،و مع ذلک فهی من الهدوء و الاستقرار بمکان،بحیث یستقر علیها الإنسان و کل الموجودات الحیه فلا یشعرون بأی اضطراب و تزلزل،حتی و لا بقدر رأس الإبره.

و هی لیست بتلک الصلابه التی لا یمکن معها أن تزرع،و تبنی علیها الدور و البنایات،و لا هی رخوه و لا یمکن الثبات علیها،و الاستقرار فیها.

و قد هیئت فیها أنواع المعادن و وسائل الحیاه لملیارات البشر،سواء الماضون منهم و الحاضرون و الآتون،و هی جمیله تسحر الإنسان،و تفتنه.

و الجبال و البحار و جو الأرض-أیضا-کلّ منها آیه و سرّ من الأسرار.

ص: ۱۸۵

۱- ۱) -سوره فصلت،۴۱.

غير أنّ علامات التوحيد هذه،و عظمه اللّه تعالى إنّما يلتفت إليها و ينتفع بها المؤمنون،أى طلاب الحق و السائرون فى طريق اللّه،أمّا عمى القلوب المغرورون المغفلون،فهم محرومون من إدراكها و الإحساس بها.

ثمّ انتقلت السوره من آيات الآفاق إلى آيات الأنفس،فقالت: وَ فِي خَلْقِكُمْ وَ مٰا يَبُثُّ مِنْ دٰابَّةٍ آيٰاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ .

كما ورد فى العباره المعروفه و المنسوبه إلى أمير المؤمنين على عليه السّلام:«أ تحسب انّك جرم صغير،و فيك انطوى العالم الأكبر»،و كلّ ما هو موجود فى ذلك العالم الكبير يوجد منه نموذج مصغر فى داخل جسم الإنسان و روحه.

إنّ خصاله و صفاته مركبه من خصال الكائنات الحيه و صفاتها،و تنوع خلقته عصاره مجموعه من حوادث هذا العالم الكبير.

إنّ بناء خليه من خلاياه كبناء مدينه صناعيه عظيمه مليئه بالأسرار،و خلق شعره منه-بخصائصها و أسرارها المختلفه التى اكتشفت بقدره العلم و تطوره-آيه عظيمه من آيات اللّه العظيم.

إنّ وجود آلاف الكيلو مترات من العروق و الشرايين و الأورده الكبيره و الصغيره،و الأوعيه الدمويه الصغيره جدّا و الشعيرات المتناهيه فى الصغر فى بدن الإنسان،و آلاف الكيلومترات من طرق المواصلات و أسلاك الاتصالات فى سلسله الأعصاب،و كيفيه ارتباطها و اتصالها بمركز القياده فى المخ،و الذى هو مزيج فذّ من العقد و الأسرار،و قوى فى الوقت نفسه،و كذلك طريقه عمل كلّ جهاز من أجهزه البدن الداخليه و انسجامها العجيب فى مواجهه الأحداث المفاجئه، و الدفاع المستميت للقوى المحافظه على البدن ضد هجوم العوامل الخارجيه...كلّ واحد من هذه الأمور يشكل-بحد ذاته-آيه عظمى من آيات اللّه سبحانه.

و إذا تجاوزنا الإنسان،فإنّ مئات الآلاف من أنواع الكائنات الحيه،ابتداء من الحيوانات المجهريه و حتى الحيوانات العملاقه،بخصائصها و بناء أجهزتها

المختلفه تماما،و التی قد یصرف جمع من العلماء کلّ أعمارهم أحیانا لمطالعه حیاه و سلوک نوع واحد منها،و مع أنّ آلاف الکتب قد کتبت حول أسرار هذه المخلوقات،فإنّ ما نعلمه عنها قلیل بالنسبه إلی ما نجهله منها...کلّ واحد من هذه المخلوقات آیه بنفسه، و دلیل علی علم مبدئ الخلقه و حکمته و قدرته اللامتناهیه.

لکن،لماذا یعیش جماعه عشرات السنین فی ظل هذه الآیات،و یمرون علیها، دون أن یطلعوا حتی علی واحده منها!؟ إنّ سبب ذلک هو ما یقرره القرآن الکریم من أنّ هذه الآیات خاصّه للمؤمنین و طلاب الیقین و أصحاب الفکر و العقل،و لأولئک الذین فتحوا أبواب قلوبهم لمعرفه الحقیقه،بکلّ وجودهم الظامئ للعلم و الیقین لیرتووا من صافی نبعه و فیضه،فلا تعزب عن نظرهم أدنی حرکه و لا أصغر موجود،و یفکرون فیه الساعات الطوال،لیجعلوا منه سلما للارتقاء إلی اللّه سبحانه،و سجلا لمعرفته جلّ و علا،و لیذوبوا فی مناجاته،و لیملؤوا أقداح قلوبهم من خمره عشقه فینتشوا منها.

و تذکر الآیه التالیه ثلاث مواهب أخری لکلّ منها أثره الهام فی حیاه الإنسان و الکائنات الحیه الأخری،و کل منها آیه من آیات اللّه تعالی،و هی مواهب«النور» و«الماء»و«الهواء»،فتقول: وَ اخْتِلاٰفِ اللَّیْلِ وَ النَّهٰارِ وَ مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنَ السَّمٰاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْیٰا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا وَ تَصْرِیفِ الرِّیٰاحِ آیٰاتٌ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ .

إنّ نظام«النور و الظلمه»،و حدوث اللیل و النهار حیث یخلف کلّ منهما الآخر نظام موزون دقیق جدّا،و هو عجیب فی وضعه و سننه و قانونه،فإذا کان النهار دائمیا،أو أطول من اللازم،فسترتفع الحراره حتی تحترق الکائنات الحیه،و لو کان اللیل سرمدا،أو طویلا جدّا لانجمدت الموجودات من شدّه البرد.

و یحتمل فی تفسیر الآیه أنّ لا یکون المراد من اختلاف اللیل و النهار تعاقبهما، بل هو إشاره إلی اختلاف المده و تفاوت اللیل و النهار،فی فصول السنه،فیعود

نفعه على الإنسان من خلال ما ينتج عن هذا الاختلاف من المحاصيل الزراعيه المختلفه و النباتات و الفواكه،و نزول الثلوج و هطول الأمطار و البركات الأخرى.

و الطريف أنّ العلماء يقولون:بالرغم من التفاوت الشديد بين مناطق الأرض المختلفه من ناحيه طول الليل و النهار و قصرهما،فإنّنا إذا حسبنا مجموع أيّام السنه فسنرى أنّ كلّ المناطق تستقبل نفس النسبه من أشعه الشمس تماما (۱) .

ثمّ تتناول الحديث فى الفقره الثانيه عن الرزق السماوى،أى«المطر»و الذى لا كلام فى لطافه طبعه و رقته،و لا بحث فى قدرته على الإحياء،و بعثه الحياه فى كلّ الأرجاء و منحها الجمال و الروعه.

و لم لا يكون كذلك،و الماء يشكل الجانب الأكبر و القسم الأساسى من بدن الإنسان،و كثير من الحيوانات الأخرى،و النباتات؟ ثمّ تتحدث فى الفقره الثالثه عن هبوب الرياح..تلك الرياح التى تنقل الهواء المليء بالأوكسجين من مكان إلى آخر،و تضعه تحت تصرف الكائنات الحيه، و تبعد الهواء الملوث بالكاربون إلى الصحارى و الغابات لتصفيته،ثمّ إعادته إلى المدن.

و العجيب أنّ هاتين المجموعتين من الكائنات الحيه-أى الحيوانات و النباتات -متعاكسه فى العمل تماما،فالأولى تأخذ الأوكسجين و تعطى غاز ثانى أوكسيد الكاربون،و الثانيه على العكس تتنفس ثانى أوكسيد الكاربون و تزفر الأوكسجين،ليقوم التوازن فى نظام الحياه،و لكى لا ينفذ مخزون الهواء النقى المفيد من جو الأرض بمرور الزمان.

إنّ هبوب الرياح،إضافه إلى ذلك فانّه يلقح النباتات فيجعلها حامله للأثمار و المحاصيل،و ينقل أنواع البذور إلى الأراضى المختلفه لبذرها هناك،و ينمى

۱- ۱) -وردت بحوث مفصله حول اختلاف الليل و النهار،فى سوره البقره-ذيل الآيه ۱۶۴ و فى سوره آل عمران ذيل الآيه ۱۹۰، و فى سوره يونس ذيل الآيه ۶،و فى ذيل الآيه ۷۱ من سوره القصص.

المراتع الطبیعیه و الغابات،و یهیج الأمواج المتلاطمه فی قلوب المحیطات،و یبعث الحرکه و الحیاه فی البحار و یثیر أمواجها العظیمه،و یحفظ الماء من التعفن و الفساد،و هذه الریاح نفسها هی التی تحرک السفن علی وجه المحیطات و البحار و تجریها .(۱)

و الطریف أنّ هذه الآیات تتحدث أوّلا عن آیات السماء و الأرض و تقول فی نهایه الآیه الأولی:إنّها آیات«للمؤمنین»،ثمّ تتناول الحدیث فی خلق الکائنات الحیه فتقول فی نهایه الآیه الثانیه:إنّها آیات«للموقنین»،و بعد ذلک تتکلم فی أنظمه النور و الظلمه،و الریاح و الأمطار،ثمّ تقول:إنّها آیات للذین«یعقلون».

إنّ هذا التفاوت فی التعبیر لعله بسبب أنّ الإنسان یطوی ثلاث مراحل فی سیره إلی معرفه اللّه سبحانه لیصل إلی هدفه،فالأولی مرحله«التفکر»،و الثانیه مرحله«الیقین»و العلم،و بعدها مرحله«الإیمان»أو ما یسمی بعقد القلب،و لما کان الإیمان أشرف هذه المراحل،ثمّ یأتی بعده الیقین،و فی المرحله الثالثه یأتی التفکیر،فقد وردت هذه المراحل حسب هذا الترتیب فی الآیات المذکوره،و إن کانت المراحل من ناحیه الوجود الخارجی تبدأ بمرحله التفکر،ثمّ الیقین،ثمّ الإیمان.

و بتعبیر آخر فإنّ أهل الإیمان یرتقون إلی هذه المرحله من خلال مشاهده آیات اللّه سبحانه،أمّا الذین لیسوا منهم فلیصلوا إلی مرحله الیقین أو إلی مرحله التفکر علی أقل التقادیر.

و قد ذکر المفسّرون فی هذا الباب وجوها أخری أیضا،و ما قلناه هو الأنسب.

و تقول الآیه الأخیره،إجمالا للبحوث الماضیه،و تبیانا لعظمه آیات القرآن و أهمیتها: تِلْکَ آیٰاتُ اللّٰهِ نَتْلُوهٰا عَلَیْکَ بِالْحَقِّ .

هل أنّ کلمه«تلک»إشاره إلی آیات القرآن،أم إلی آیات اللّه و العلامات الداله

۱- ۱) -لقد وردت بحوث مفصله حول آثار الریاح و الأمطار فی ذیل الآیات ۴۶-۵۰ من سوره الروم.

علیه فی الآفاق و الأنفس،و التی مرّت الإشاره إلیها فی الآیات السابقه؟ کلّ محتمل،إلاّ أنّ الظاهر هو أنّ المراد الآیات القرآنیه بقرینه التعبیر بالتلاوه، غایه ما فی الأمر أنّ هذه الآیات القرآنیه آیات اللّه سبحانه فی کلّ عالم الوجود، و علی هذا فیمکن الجمع بین التّفسیرین(فتأمل!).

و علی أیه حال،فإنّ(التلاوه)من ماده(تلو)أی الإتیان بالکلام بعد الکلام متعاقبا،و بناء علی هذا فإنّ تلاوه آیات القرآن تعنی قراءتها بصوره متوالیه متعاقبه.

و التعبیر بالحق إشاره إلی محتوی هذه الآیات،و هو أیضا إشاره إلی کون نبوّه النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و الوحی الإلهی حقّا.و بعباره أخری،فإنّ هذه الآیات بلیغه معبره تضمنت فی طیاتها الاستدلال علی حقانیتها و حقانیه من جاءها.

و حقّا إذا لم یؤمن هؤلاء بهذه الآیات فبأی شیء سوف یؤمنون؟و لذلک تعقب الآیه: فَبِأَیِّ حَدِیثٍ بَعْدَ اللّهِ وَ آیاتِهِ یُؤْمِنُونَ (۱) .

و علی قول«الطبرسی»فی مجمع البیان،فإنّ الحدیث إشاره إلی قصص الأقوام الماضین،و أحداثهم التی تبعث علی الإعتبار بهم،فی حین أنّ الآیات تقال للدلائل التی تمیز الحق من الباطل و الصحیح من السقیم،و آیات القرآن المجید تتحدث عن الإثنین معا.

حقا إنّ للقرآن الکریم محتوی عمیقا من ناحیه الاستدلال و البراهین علی التوحید،و کذلک فهو یحتوی علی مواعظ و إرشادات تجذب العباد إلی اللّه سبحانه حتی القلوب التی لها أدنی استعداد-أو أرضیه صالحه-و تدعوا کلّ مرتبط بالحق الی الطهاره و التقوی،فإذا لم تؤثر هذه الآیات البینات فی أحد فلا أمل فی هدایته بعد ذلک.

***

۱- ۱) -للتعبیر ب(بعد اللّه)محذوف،و التقدیر:فبأی حدیث بعد حدیث اللّه.

الآيات [سوره الجاثيه (۴۵): الآيات ۷ الى ۱۰]

اشاره

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آياتِ اَللّهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٨) وَ إِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اِتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَ لا مَا اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اَللّهِ أَوْلِياءَ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٠)

التّفسير

اشاره

ويل لكلّ أفاك أثيم:

رسمت الآيات السابقه صوره عن فريق يسمعون كلام اللّه مدعما بمختلف أدله التوحيد و المواعظ و الإرشاد،فلا يترك أثرا فى قلوبهم القاسيه.

أمّا هذه الآيات فتتناول بالتفصيل عواقب أعمال هذا الفريق،فتقول:أوّلا:

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفّاكٍ أَثِيمٍ

.

«الأفاك»صيغه مبالغه،و هى تعنى الشخص الذى يكثر الكذب جدّا،و تقال أحيانا لمن يكذب كذبه عظيمه حتى و إن لم يكثر من الكذب.

و«الأثيم»من ماده إثم،أی المجرم و العاصی،و تعطی أیضا صفه المبالغه.

و یتّضح من هذه الآیه جیدا أنّ الذین یقفون موقف الخصم العنید المتعصب أمام آیات اللّه سبحانه هم الذین غمرت المعصیه کیانهم،فانغمسوا فی الذنوب و الآثام و الکذب،لا أولئک الصادقون الطاهرون،فإنّهم یذعنون لها لطهارتهم،و نقاء سریرتهم.

ثمّ تشیر الآیه التالیه إلی کیفیه اتخاذهم لموضع الخصام هذا،فتقول: یَسْمَعُ آیاتِ اللّهِ تُتْلی عَلَیْهِ ثُمَّ یُصِرُّ مُسْتَکْبِراً کَأَنْ لَمْ یَسْمَعْها (1) و لهذا فإنّه بحکم تلوثه بالذنب و الکذب،و الغرور و الکبر و العجب،یمر کأن لم یسمع کلّ هذه الآیات، و کأنه أصم أو أنّه یعتبر نفسه کذلک،کما ورد لک فی الآیه(۷)من سوره لقمان:

وَ إِذا تُتْلی عَلَیْهِ آیاتُنا وَلّی مُسْتَکْبِراً کَأَنْ لَمْ یَسْمَعْها کَأَنَّ فِی أُذُنَیْهِ وَقْراً .

و تهدده الآیه فی نهایتها بالعذاب الشدید،فتقول: فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِیمٍ فکما أنّه آذی قلب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و المؤمنین و آلمهم،فإنّنا سنبتلیه بعذاب ألیم أیضا،لأنّ عذاب القیامه تجسّم لأعمال البشر فی الحیاه الدنیا.

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرین ذکر سبب نزول لهذه الآیه و الآیه التی تلیها، و اعتبروهما إشاره إلی أبی جهل أو النظر بن الحارث،ذلک أنّهم کانوا قد جمعوا قصصا و أساطیر من العجم لیلهوا بها الناس و یصرفوهم عن دین الحق.

لکن من الواضح أنّ هذه الآیه لا تختص بهم،بل و لا بمشرکی العرب أیضا،فهی تشمل کلّ المجرمین الکاذبین المستکبرین فی کلّ عصر و زمان،و کلّ الذین یصرون کأن لم یسمعوا آیات اللّه سبحانه و نداءات الأنبیاء و کلمات الأئمّه و العظماء،لأنّها لا تنسجم مع شهواتهم و میولهم و رغباتهم المنحرفه،و لا تؤید أفکارهم الشیطانیه،و لا توافق عاداتهم الخاطئه و أعرافهم البالیه و تقالیدهم العمیاء.

۱- ۱) -یمکن أن تکون عباده(یسمع آیات اللّه)جمله مستأنفه،أو هی وصف آخر ل(کل).

نعم،بشّر كلّ أولئك بالعذاب الأليم.

و لما كان العذاب لا ينسجم مع البشاره،فإنّ هذا التعبير ورد من باب السخريه و الاستهزاء.

ثمّ تضيف الآيه التى بعدها: وَ إِذٰا عَلِمَ مِنْ آيٰاتِنٰا شَيْئاً اتَّخَذَهٰا هُزُواً (۱) .

فى الحقيقه،توجد لدى هؤلاء الجاهلين الأنانيين حالتان:

الأولى:أنّهم غالبا ما يسمعون آيات اللّه فلا يعبؤون بها،و يمرون عليها دون اهتمام و تعظيم،فكأنّهم لم يسمعوها أيضا.

و الأخرى:أنّهم إذا سمعوها و أرادوا أن يهتموا بها،فليس لهم من رد فعل إزاءها إلاّ الاستهزاء و السخريه.و كلهم مشتركون فى هاتين الحالتين،فمرّه هذه،و أخرى تلك،و بناء على هذا فلا تعارض بين هذه الآيه و التى قبلها.

و الطريف أنّها تقول أوّلاـ وَ إِذٰا عَلِمَ مِنْ آيٰاتِنٰا شَيْئاً ثمّ لاـ تقول:إنّه يستهزئ فيما بعد بما علم،بل تقول:إنّه يتخذ كلّ آياتنا هزوا،سواء التى علمها و التى لم يعلمها،و غايه الجهل أن ينكر الإنسان شيئا أو يستهزئ به و هو لم يفهمه أصلا، و هذا خير دليل على عناد أولئك و تعصبهم.

ثمّ تصف الآيه عقاب هؤلاء فى النهايه فتقول: أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِينٌ و لم لا يكون الأمر كذلك،فإنّ هؤلاء كانوا يريدون أن يضفوا على أنفسهم الهيبه و العزه و المكانه الاجتماعيه من خلال الاستهزاء بآيات اللّه سبحانه،إلاّ أنّ اللّه تعالى سيجعل عقابهم تحقيرهم و مذلتهم و هوانهم،و يبتليهم بعذاب القيامه المهين المذل، فيسحبون على وجوههم مصفّدين مكبلين ثمّ يرمون على تلك الحال فى جهنم، و يلاحقهم مع ذلك تقريع ملائكه العذاب و سخريتهم.

و من هنا يتّضح لماذا وصف العذاب بالأليم فى الآيه السابقه،و بالمهين هنا،

۱- ۱) -ينبغى الالتفات إلى أنّ ضمير(اتخذها)لا يعود على(شيئا)،بل على(آياتنا).

و بالعظيم فى الآيه التاليه،فكلّ منها يناسب نوعيه جرم هؤلاء و كيفيته.

و توضح الآيه التاليه العذاب المهين،فتقول: مِنْ وَرٰائِهِمْ جَهَنَّمُ .

إن التعبير بالوراء مع أنّ جهنّم أمامهم و سيصلونها فى المستقبل،يمكن أن يكون ناظرا إلى أنّ هؤلاء قد أقبلوا على الدنيا و نبذوا الآخره و العذاب وراء ظهورهم، و هو تعبير مألوف،إذ يقال للإنسان إذا لم يهتم بأمر،تركه وراء ظهره،و القرآن الكريم يقول: إِنَّ هٰؤُلاٰءِ يُحِبُّونَ الْعٰاجِلَهَ وَ يَذَرُونَ وَرٰاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (۱) .

و قال جمع من المفسّرين أيضا:إنّ كلمه(وراء)من ماده المواراه،و تقال لكلّ شيء خفى على الإنسان و حجب عنه،سواء كان خلفه و لا يراه،أم أمامه لكنّه بعيد لا يراه،و على هذا فإنّ لكلمه(وراء)معنى جامعا يطلق على مصداقين متضادين (۲) .

و ليس ببعيد إذا قلنا:إنّ التعبير بالوراء إشاره إلى مسأله العله و المعلول،فمثلا نقول:إذا تناولت الغذاء الفلانى غير الجيد فستمرض بعد ذلك،أى إنّ تناول الغذاء يكون عله لذلك المرض،و هنا أيضا تكون أعمال هؤلاء عله لعذاب الجحيم المهين.

و على أيه حال،فإنّ الآيه تضيف مواصله الحديث أنّ هؤلاء إن كانوا يظنون أنّ أموالهم الطائله و آلهتهم التى ابتدعوها ستحل شيئا من أثقالهم،و أنّها ستغنى عنهم من اللّه شيئا،فإنّهم قد وقعوا فى اشتباه عظيم،حيث: وَ لاٰ يُغْنِي عَنْهُمْ مٰا كَسَبُوا شَيْئاً وَ لاٰ مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَوْلِيٰاءَ .

و لما لم يكن هناك سبيل نجاه و فرار من هذا المصير،فإنّ هؤلاء يجب أن يبقوا فى عذاب اللّه و نار غضبه: وَ لَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ .

ص:۱۹۴

۱- ۱) -سوره الدهر،الآيه ۲۷.

۲- ۲) -قال البعض أيضا:إنّ كلمه(وراء)إنّ أضيفت إلى الفاعل أعطت معنى الوراء،و إن أضيفت إلى المفعول أعطت معنى الأمام. روح البيان،المجلد ۸،صفحه ۴۳۹.لكن لا دليل على هذا المدعى.

و لقد استصغر هؤلاء آيات اللّه سبحانه،و لذلک سیعظم اللّه عذابهم،و قد اغتر هؤلاء و تفاخروا فألقاهم اللّه فی العذاب الألیم! إن هذا العذاب عظیم من کلّ الجهات،فهو عظیم فی خلوده،و شدته،و باقترانه بالتحقیر،و الإهانه،و عظیم فی نفوذه إلی نخاع و قلوب المجرمین..

نعم..إنّ الذنب العظیم،أمام اللّه العظیم،لا یکون جزاؤه إلاّ العذاب العظیم.

***

الآيات [سوره الجاثيه (۴۵): الآيات ۱۱ الی ۱۵]

اشاره

هٰذا هُدىً وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيٰاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذٰابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (١١) اَللّٰهُ اَلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ اَلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ اَلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا
مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَ سَخَّرَ لَكُمْ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي اَلْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ
(١٣) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ أَيّٰامَ اَللّٰهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (١۴) مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسٰاءَ
فَعَلَيْهٰا ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١۵)

التّفسير

اشاره

كل شىء مسخر للإنسان:

مواصله للبحوث التى وردت فى الآيات السابقه حول عظمه آيات اللّه،تتناول هذه الآيات نفس الموضوع،فتقول: هٰذا هُدىً فهو يميز بين الحق و الباطل، و يضىء حياه الإنسان،و يأخذ بيد سالكى طريق الحق ليوصلهم إلى هدفهم

ص: ۱۹۶

و منزلهم المقصود،لكن: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ .

«الرجز»يعنى الاضطراب و الاهتزاز و عدم الانتظار،كما يقول الراغب فى مفرداته،و تقول العرب:رجز البعير إذا تقاربت خطواته و اضطرب لضعف فيه.

و تطلق هذه الكلمه أيضا على مرض الطاعون و الابتلاءات الصعبه،أو العواصف الثلجيه الشديده،و الوساوس الشيطانيه و أمثال ذلك،لأنّ كلّ هذه الأمور تبعث على الاضطراب و التزلزل و عدم الانتظام و الانضباط،و إنّما يقال لأشعار الحرب(رجز)لأنّها مقاطع قصيره متقاربه،أو لأنّها تلقى الرعب و الاضطراب بين صفوف الأعداء.

ثمّ تحول زمان الحديث إلى بحث التوحيد الذى مرّ ذكره فى الآيات الأولى لهذه السوره،فتعطى المشركين دروسا،بليغه مؤثره فى توحيد اللّه سبحانه و معرفته.

فتاره تدغدغ عواطفهم،و تقول: اَللّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

من الذى أودع فى ماده السفن الأصليه خاصيه الطفو على الماء و عدم الغطس؟و من الذى جعل الماء فراشا ناعما حركتها حتى استطاعت أن تسير فيه بكلّ سهوله و يسر؟و من الذى أمر الرياح أن تمرّ على سطح المحيطات بصوره منتظمه لتحرك السفن و تسيرها؟أو يحل قوّه البخار محل الهواء ليزيد من سرعه هذه السفن العظيمه؟ نحن نعلم أنّ أكبر وسائط نقل الإنسان و أهمها فى الماضى و الحاضر هى السفن الصغيره و الكبيره،و التى تنقل على مدار السنه ملايين البشر،و أكثر من ذلك البضائع التجاريه من أقصى نقاط العالم إلى المناطق المختلفه،و قد تكون السفن أحيانا بسعه مدينه صغيره،و سكانها بعدد سكانها،و هى مجهزه بمختلف الوسائل و الأموال.

حقا لو لم تكن هذه القوى الثلاث،أ فيكون بمقدور الإنسان أن يحل مشاكل حمله و نقله بواسطه المراكب العاديه البسيطه؟حتى هذه المراكب و الوسائط البسيطه هى بحدّ ذاتها من نعمه سبحانه،و هى فعاله فى مجالها.

و الطريف أنّ الآيه(۳۲)من سوره إبراهيم تقول: وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ أمّا هنا فإنّ الآيه تقول: سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ لأنّ التأكيد هناك كان على تسخير البحار،و لذلك اتبعتها بقولها: وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ أمّا هنا فإنّ الآيه ناظره إلى تسخير الفلك،و على أيه حال،فإنّهما معا مسخران للإنسان بأمر اللّه سبحانه،و هما فى خدمته.

إنّ الهدف من هذا التسخير هو أن تبتغوا من فضل اللّه،و هذا التعبير يأتى عاده فى مورد التجاره و النشاطات الاقتصاديه،و من الطبيعى أنّ نقل المسافرين من مكان الى آخر فى ضمن هذا التسخير.

و الهدف من الاستفاده من فضل اللّه هو إثاره حسن الشكر لدى البشر،لتعبئه عواطفهم لأداء شكر المنعم،و بعد ذلك يسيرون فى طريق معرفه اللّه سبحانه.

كلمه«الفلك»-و كما قلنا سابقا-تستعمل للمفرد و الجمع.

و لمزيد من التفصيل حول تسخير البحار و الفلك،و منافعها و بركاتها،راجعوا ذيل الآيه(۱۴)سوره النحل.

بعد بيان السفن التى لها تماس مباشر بحياه البشر اليوميه،تطرقت الآيه التى بعدها إلى مسأله تسخير سائر الموجودات بصوره عامه،فتقول: وَ سَخَّرَ لَكُمْ مٰا فِي السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ .

فقد كرّمكم إلى درجه أنّ سخر لكم كلّ موجودات العالم،و جعلها فى خدمتكم و لتأمين مصالحكم و منافعكم،فالشمس و القمر،و الرياح و المطر،و الجبال و الوديان،و الغابات و الصحارى،و النباتات و الحيوانات،و المعادن و المنابع الغنيه التى تحت الأرض،و بالجمله فإنّه أمر كلّ هذه الموجودات أن تكون فى خدمتكم،

و مطیعه لأمركم،و منفذه لإرادتكم،لتتمتعوا بنعمه و مواهبه سبحانه،و لا تذهلوا فی سكره الغفله عنه.

و مما يستحق الانتباه أنّه يقول: جَمِيعاً مِنْهُ (١) فإذا كانت كلّ النعم منه،و هو خالقها و ربها و مدبرها جميعا،فلما ذا يعرض الإنسان عنه و يلجأ إلى غيره، و يتسكع على اعتبار المخلوقات الضعيفه،و يبقى فی غفله و ذهول عن المنعم الحقيقی عليه؟و لذلك تضيف الآيه فی النهايه: إِنَّ فِی ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

لقد كانت الآيه السابقه تلامس عاطفه الإنسان و تحاول إثارتها،و هنا تحاول هذه الآيه تحريك عقل الإنسان و فكره،فما أعظم رحمه ربّنا سبحانه!!إنّه يتحدث مع عباده بكلّ لسان و أسلوب يمكن أن يطبع أثره،فمرّه بحديث القلب،و أخرى بلسان الفكر،و الهدف واحد من كلّ ذلك،ألا و هو إيقاظ الغافلين و دفعهم إلى سلوك السبيل القويم.

و قد أوردنا بحثا مفصلا حول تسخير مختلف موجودات العالم فی ذيل الآيات ٣١-٣٣ من سوره إبراهيم.

ثمّ تطرقت الآيه التاليه إلى ذكر قانون أخلاقی يحدد كيفيه التعامل مع الكفار لتكمل أبحاثها المنطقيه السابقه عن هذا الطريق،فحولت الخطاب إلى النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم و قالت: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ أَيّٰامَ اللّٰهِ .

فمن الممكن أن تكون معامله هؤلاء قاسيه،و تعبيراتهم خشنه غير مؤدبه، و ألفاظهم بذيئه،و ذلك لبعدهم عن مبادئ الإيمان و أسس التربيه الإلهيه،غير أنّ عليكم أن تقابلوهم بكلّ رحابه صدر لئلا يصروا على كفرهم و يزيدوا فی تعصبهم،

---

١ - ١) -ثمّه احتمالات عديده فی إعراب(جميعا منه)و تركيبها،فقد احتمل الزمخشری فی الكشاف احتمالين:الأول:إنّ(جميعا منه)حال ل(ما فی السموات و ما فی الأرض)أی إنّها جميعا مسخره لكم لكنّها منه سبحانه.و الآخر:إنّه خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير:هی منه جميعا. و احتمل البعض أيضا أن تكون تأكيدا ل(ما فی السموات و ما فی الأرض).

فتعبد المسافه بينهم و بين الحق.

إنّ حسن الخلق و الصفح و رحابه الصدر يقلل من ضغوط هؤلاء و عدائهم من جهه،كما أنّه يمكن أن يكون عاملا لجذبهم إلى الإيمان و إقبالهم عليه.

و قد ورد نظير هذا الأمر الأخلاقى كثيرا فى القرآن الكريم كقوله تعالى:

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلاٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

(۱)

إنّ التصلب فى التعامل مع الجاهلين و الإصرار على عقوبتهم لا يثمر فى العاده، بل إن تجاهلهم و الاعتزاز بالنفس أمامهم هو الأسلوب الناجح فى إيقاظهم،و هو عامل مؤثر فى هدايتهم.

و ليس هذا قانونا عاما بالطبع،إذ لا يمكن إنكار وجود حالات لا يمكن معالجتها و مواجهتها إلّا بالغلظه و الشدّه،غير أنّها قليله.

و النكته الأخرى هنا أنّ كلّ الأيّام هى أيّام اللّه،إلّا أنّ(أيّام اللّه)قد أطلقت على أيّام خاصّه،للدلاله على عظمتها و أهميتها.

لقد ورد هذا التعبير فى موضعين من القرآن المجيد:أحدهما فى هذه الآيه، و الآخر فى سوره إبراهيم،و له هناك معنى أوسع و أشمل.

و قد فسّرت«أيّام»فى الرّوايات الإسلاميه بتفاسير مختلفه،و من جملتها ما ورد فى تفسير على بن إبراهيم بأنّ أيّام اللّه ثلاثه:يوم قيام المهدى،و يوم الموت، و يوم القيامه (۲) .

و نقرأ فى حديث آخر عن النّبى الأكرم(صلى اللّه عليه و آله و سلّم):«أيام اللّه نعماؤه و بلاؤه ببلائه» (۳) .

و على أيه حال،فإنّ هذا التعبير يبين أهميه يوم القيامه،يوم تجلى حاكميه اللّه

۱- ۱) -سوره الزخرف،الآيه ۸۹.

۲- ۲) -تفسير نور الثقلين،المجلد ۲،صفحه ۵۲۶.

۳- ۳) -المصدر السابق.

تعالی علی کلّ فرد،و علی کلّ شیء،و هو یوم العدل و القانون و المحکمه الکبری.

لکن،و من أجل أنّ لا یستغل مثل هؤلاء الأفراد هـذا الصـفح الجمیل و العفو و التسامی،فقـد أضافت الآیه: لِیَجْزِیَ قَوْماً بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ .

لقـد اعتبر بعض المفسّـرین هذه الجمله تهدیدا للکفار و المجرمین،فی حین أنّ البعض الآخر اعتبرها بشاره للمؤمنین لهذا العفو و الصـفح.لکن لا مانع من أن تکون تهدید لتلک الفئه من جانب،و بشاره لهذه الجماعه من جانب آخر،کما أشـیر إلی هذا المعنی فی الآیه التالیه أیضا.

تقول الآیه: مَنْ عَمِلَ صٰالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسٰاءَ فَعَلَیْهٰا ثُمَّ إِلیٰ رَبِّکُمْ تُرْجَعُونَ .

إن هـذا التعبیر الـذی ورد فی القرآن الکریم مرارا،و بعبارات مختلفه، یشـکل جوابا لمن یقول:ماذا یضـر عصـیاننا اللّه تعالی،و ما تنفعه طاعتنا؟و لماذا هـذا الإصـرار علی طاعه و أوامره،و الانتهاء عن معاصـیه؟ فتقول هذه الآیات:إنّ کلّ ضـرر ذلک و کلّ نفعه یعود علیکم،فأنتم الذین تسلکون مراقی الکمال فی ظل الأعمال الصالحه،و تحلقون إلی سماء قرب اللّه عزّ و جلّ،کما أنّکم أنتم الذین تهوون إلی الحضیض نتیجه ارتکابکم الآثام و المعاصی،فتبتعدون عن اللّه عزّ و جلّ و تستحقون بذلک اللعنه الأبدیه.

إن کلّ أمور التکلیف،و إرسال الرسل،و إنزال الکتب تهـدف إلی هـذا المراد السامی،و لذلک یقرر القرآن الحکیم وَ مَنْ یَشْکُرْ فَإِنَّمٰا یَشْکُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللّٰهَ غَنِیٌّ حَمِیدٌ (۱) و یقول فی موضع آخر: فَمَنِ اهْتَدیٰ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمٰا یَضِلُّ عَلَیْهٰا (۲) و نقرأ فی موضع ثالث: وَ مَنْ تَزَکّٰی فَإِنَّمٰا یَتَزَکّٰی لِنَفْسِهِ وَ إِلَی اللّٰهِ الْمَصِیرُ (۳)

۱- ۱) -لقمان،الآیه ۱۲.

۲- ۲) -الزمر،الآیه ۴۱.

۳- ۳) -فاطر،الآیه ۱۸.

و خلاصه القول:إنّ أمثال هذه التعابير تبين حقيقه أنّ دعوه الداعين إلى اللّه سبحانه خدمه للبشر فى جميع أبعادها،و ليست خدمه للّه الغنى عن كلّ شىء،و لا لأنبيائه الذين أجرهم على اللّه فقط.

إنّ الانتباه إلى هذه الحقيقه يعدّ عاملا مهما فى السير نحو طاعه اللّه سبحانه، و الابتعاد عن معصيته.

***

ص :٢٠٢

الآيات [سوره الجاثيه (۴۵): الآيات ۱۶ الی ۲۰]

اشاره

وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِی إِسْرائِيلَ اَلْكِتابَ وَ اَلْحُكْمَ وَ اَلنُّبُوَّهَ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ اَلطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَی اَلْعالَمِينَ (۱۶) وَ آتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ اَلْأَمْرِ
فَمَا اِخْتَلَفُوا إِلاّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ اَلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّکَ يَقْضِی بَيْنَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيامَهِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱۷) ثُمَّ جَعَلْناکَ عَلی
شَرِيعَهٍ مِنَ اَلْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ اَلَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (۱۸) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْکَ مِنَ اَللّهِ شَيْئاً وَ إِنَّ اَلظّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ
وَ اَللّهُ وَلِيُّ اَلْمُتَّقِينَ (۱۹) هذا بَصائِرُ لِلنّاسِ وَ هُدیً وَ رَحْمَهٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۲۰)

التّفسير

آتَيْنا بَنِی إِسْرائِيلَ

كل ذلك،و لكن...

متابعه للبحوث التی وردت فی الآيات السابقه حول نعم اللّه المختلفه و شكرها و العمل الصالح،تتناول هذه الآيات نموذجا من حياه بعض الأقوام الماضين

ص :۲۰۳

الذین غمرتهم نعم اللّه سبحانه،إلاّ أنّهم کفروا بها و لم یرعوها حق رعایتها.

تقول الآیه الأولی: وَ لَقَدْ آتَیْنا بَنِی إِسْرائِیلَ الْکِتابَ وَ الْحُکْمَ وَ النُّبُوَّهَ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّیِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَی الْعالَمِینَ .

تبیّن هذه الآیه فی مجموعها خمس نعم أنعم اللّه بها علی بنی إسرائیل، و بالإضافه إلی النعمه الأخری التی سیأتی ذکرها فی الآیه التالیه تشکل ست نعم عظیمه.

النعمه الأولی هی الکتاب السماوی،أی التوراه التی کانت مبینه للمعارف الدینیه و الحلال و الحرام،طریق الهدایه و السعاده.

و الثانیه مقام الحکومه و القضاء،لأنا نعلم أنّهم کانوا یمتلکون حکومه قویه مترامیه الأطراف،فلم یکن داود و سلیمان وحدهما حاکمین و حسب،بل إنّ کثیرا من بنی إسرائیل قد تسلموا زمام الأمور فی زمانهم و عصورهم.

«الحکم»فی التعبیرات القرآنیه یعنی عاده القضاء و الحکومه،لکن لما کان مقام القضاء،یشکل جزء من برنامج الحکومه دائما،و لا یمکن للقاضی أن یؤدی واجبه من دون حمایه الدوله و قوّتها،فإنّه یدل دلاله التزامیه علی مسأله التصدی و تسلم زمام الأمور.

و نقرأ فی الآیه(۴۴)من سوره المائده فی شأن التوراه: یَحْکُمُ بِهَا النَّبِیُّونَ الَّذِینَ أَسْلَمُوا .

أمّا النعمه الثالثه فقد کانت نعمه مقام النّبوه،حیث اصطفی اللّه سبحانه أنبیاء کثیرین من بنی إسرائیل.

و قد ورد فی روایه أنّ عدد أنبیاء بنی إسرائیل بلغ ألف نبی (۱) ،و فی روایه أخری:إن عدد أنبیاء بنی إسرائیل أربعه آلاف نبی (۲) .

ص:۲۰۴

۱- ۱) -مجمع البیان،المجلد ۹،صفحه ۷۵.

۲- ۲) -بحار الأنوار،الطبعه الجدیده،المجلد ۱۱ صفحه ۳۱.

و کل هذه کانت مواهب و نعما من اللّه سبحانه.

و تتحدث الآیه فی الفقره الرابعه حدیثا جامعا شاملا عن المواهب المادیه، فتقول: وَ رَزَقْنٰاهُمْ مِنَ الطَّیِّبٰاتِ .

النعمه الخامسه،هی تفوقهم و قوّتهم التی لا ینازعهم فیها أحد،کما توضح الآیه ذلک فی ختامها فتضیف: وَ فَضَّلْنٰاهُمْ عَلَی الْعٰالَمِینَ .

لا شک أنّ المراد من«العالمین»هنا هم سکان ذلک العصر،لأنّ الآیه (۱۱۰)من سوره آل عمران تقول بصراحه: کُنْتُمْ خَیْرَ أُمَّهٍ أُخْرِجَتْ لِلنّٰاسِ .

و کذلک نعلم أنّ الرّسول الأعظم صلی اللّه علیه و آله و سلّم هو أشرف الأنبیاء و سیدهم،و بناء علی هذا فإنّ أمته أیضا تکون خیر الأمم،کما ورد ذلک فی الآیه(۸۹)من سوره النحل:

وَ یَوْمَ نَبْعَثُ فِی کُلِّ أُمَّهٍ شَهِیداً عَلَیْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنٰا بِکَ شَهِیداً عَلیٰ هٰؤُلاٰءِ .

و تشیر الآیه التالیه إلی الموهبه السادسه التی منحها اللّه سبحانه لهؤلاء المنکرین للجمیل،فتقول: وَ آتَیْنٰاهُمْ بَیِّنٰاتٍ مِنَ الْأَمْرِ .

«البینات»یمکن أن تکون إشاره إلی المعجزات الواضحه التی أعطاها اللّه سبحانه موسی بن عمران علیه السلام و سائر أنبیاء بنی إسرائیل،أو أنّها إشاره إلی الدلائل و البراهین المنطقیه الواضحه،و القوانین و الأحکام المتقنه الدقیقه.

و قد احتمل بعض المفسّرین أن یکون هذا التعبیر إشاره إلی العلامات الواضحه التی تتعلق بنبی الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم،و التی علمها هؤلاء،و کان باستطاعتهم أن یعرفوا نبی الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم من خلالها کمعرفتهم بأبنائهم: اَلَّذِینَ آتَیْنٰاهُمُ الْکِتٰابَ یَعْرِفُونَهُ کَمٰا یَعْرِفُونَ أَبْنٰاءَهُمْ (۱) .

لکن لا مانع من أن تکون کلّ هذه المعانی مجتمعه فی الآیه.

و علی أیه حال،فمع وجود هذه المواهب و النعم العظیمه،و الدلائل البینه الواضحه لا یبقی مجال للاختلاف،إلاّ أنّ الکافرین بالنعم هؤلاء ما لبثوا أنّ

۱- ۱) -البقره،الآیه ۱۴۶.

اختلفوا،کما یصور القرآن الکریم ذلک فی تتمه هذه الآیه إذ یقول: فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاّ مِنْ بَعْدِ مٰا جٰاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْیاً بَیْنَهُمْ .

نعم،لقـد رفع هؤلاء رایه الطغیان،و أنشبت کلّ جماعه أظفارها فی جسـد جماعه أخری،و اتخذوا حتی عوامل الوحده و الألفه و الانسـجام سـببا للاختلاف و التباغض و الشـحناء،و تنـازعوا أمرهـم بینهـم فـذهبت ریحهـم و ضـعفت قـوتهم،و أفـل نجم عظمتهم،فزالت دولتهم،و أصبحوا مشردین فی بقاع الأرض ضربت علیهم الذله أینما ثقفوا.

و قال البعض:إنّ المراد هو الاختلاف الـذی وقع بینهم بعد علمهم و اطلاعهم الکافی علی صـفات نبیّ الإسـلام صـلی اللّه علیه و آله و سلّم.

و یهددهم القرآن الکریم فی نهایه الآیه بقوله: إِنَّ رَبَّکَ یَقْضِی بَیْنَهُمْ یَوْمَ الْقِیٰامَهِ فِیمٰا کٰانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ و بهذا فقد فقدوا قوتهم و عظمتهم فی هذه الدنیا بکفرانهم النعمه،و اختلافهم فیما بینهم،و اشتروا لأنفسهم عذاب الآخره.

بعـد بیـان المواهب الـتی منّ اللّه تعـالی بهـا علی بنی إسـرائیل،و کفرانهـا من قبلهم، ورد الحـدیث عن موهبه عظیمه أهـداها اللّه سبحانه لنبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین، فقالت الآیه: ثُمَّ جَعَلْنٰاکَ عَلیٰ شَرِیعَهٍ مِنَ الْأَمْرِ .

«الشـریعه»تعنی الطریق التی تسـتحدث للوصول إلی الماء الموجود عنـد ضـفاف الأنهر التی یکون مسـتوی الماء فیها أخفض من الساحل،ثمّ أطلقت علی کلّ طریق یوصل الإنسان إلی هدفه و مقصوده.

إن اسـتعمال هذا التعبیر فی مورد دین الحق،بسـبب أنّه یوصل الإنسان إلی مصدر الوحی و رضـی اللّه سـبحانه،و السعاده الخالده التی هی بمثابه الماء للحیاه المعنویه.

لقد استعملت هذه الکلمه مرّه واحده فی القرآن الکریم،و فی شأن الإسلام فقط.

و المراد من«الأمر»هنا هو دين الحق الذی مرّت الإشاره إلیه فی الآیه السابقه أیضا،حیث قالت: بَیِّنٰاتٍ مِنَ الْأَمْرِ .

و لما کان هذا المسیر مسیر النجاه و النصر،فإنّ اللّه سبحانه یأمر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بعد ذلک أنّ فَاتَّبِعْهٰا .

و کذلک لما کانت النقطه المقابله لیس إلاّ اتباع أهواء الجاهلین و رغباتهم،فإنّ الآیه تضیف فی النهایه: وَ لاٰ تَتَّبِعْ أَهْوٰاءَ الَّذِینَ لاٰ یَعْلَمُونَ .

فی الحقیقه،لا یوجد إلاّ طریقان:طریق الأنبیاء و الوحی،و طریق أهواء الجاهلین و میولهم،فإذا ولّی الإنسان دبره للأوّل فسیقع فی الثّانی،و إذا توجه الإنسان إلی ذلک السبیل فسینفصل عن خط الأنبیاء و یبتعد عنهم،و بذلک فإنّ القرآن أبطل کلّ البرامج الإصلاحیه التی لا تستمد تعلیماتها من مصدر الوحی الإلهی.

و الجدیر بالانتباه أنّ بعض المفسّرین قالوا:إنّ رؤساء قریش أتوا النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و قالوا:ارجع إلی دین آبائک،فإنّهم کانوا أفضل منک و أسلم.و کان النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لا یزال فی مکّه،فنزلت الآیه أعلاه (1) و أجابتهم بأن طریق الوصول إلی الحق هو الوحی السماوی الذی نزل علیک،لا ما یملیه هوی هؤلاء الجاهلین و رغبتهم.

لقد کان القاده المخلصون یواجهون دائما وساوس الجاهلین هذه عند ما یأتون بدین جدید و یطرحون أفکارا بناءه طاهره،فقد کان الجهال یطرحون علیهم:أ أنتم أعلم أم الآباء السابقون و العظماء الذین جاؤوا قبلکم؟و کانوا یصرون علی الاستمرار فی ذلک الطریق،و إذا کان مثل هذا الاقتراح یمکن أن ینزل إلی حیز التطبیق و الواقع العملی،فلیس بوسع الإنسان أن یخطو خطوه فی طریق التکامل.

و تعتبر الآیه التالیه تبیانا لعله النهی عن الاستسلام أمام مقترحات المشرکین و قبول طلباتهم،فتقول: إِنَّهُمْ لَنْ یُغْنُوا عَنْکَ مِنَ اللّٰهِ شَیْئاً فإذا ما اتبعت دینهم

1- 1) -التفسیر الکبیر للفخر الرازی،المجلد ٢٧،صفحه ٢۶۵.

الباطل فأحاط بک عذاب اللّه تعالی فإنّهم عاجزون عن أن یهبوا لنجدتک و إنقاذک، و لو أنّ اللّه سبحانه سلب منک نعمه فإنّهم غیر قادرین علی إرجاعها إلیک.

و مع أنّ الخطاب فی هذه الآیات موجه إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلاّ أنّ المراد منه جمیع المؤمنین.

ثمّ تضیف الآیه: وَ إِنَّ الظّالِمِینَ بَعْضُهُمْ أَوْلِیاءُ بَعْضٍ فکلهم من جنس واحد، و یسلکون نفس المسیر،و نسجهم واحد،و کلهم ضعفاء عاجزون.

لکن لا تذهب بک الظنون بأنک وحید،و من معک قلیل و لا ناصر لکم و لا معین، بل: وَ اللّهُ وَلِیُّ الْمُتَّقِینَ .

صحیح أنّ جمع هؤلاء عظیم فی الظاهر،و فی أیدیهم الأموال الطائله و الإمکانیات الهائله،لکن کلّ ذلک لا یعتبر إلاّ ذره عدیمه القیمه إزاء قدره اللّه التی لا تقهر،و خزائنه التی لا تفنی.

و کتأکید لما مرّ،و دعوه إلی اتباع دین اللّه القویم،تقول آخر آیه من هذه الآیات:

هذا بَصائِرُ لِلنّاسِ وَ هُدیً وَ رَحْمَهٌ لِقَوْمٍ یُوقِنُونَ

.

«البصائر»جمع بصیره،و هی النظر،و مع أنّ هذه اللفظه أکثر ما تستعمل فی و جهات النظر الفکریه و النظریات العقلیه،إلاّ أنّها تطلق علی کلّ الأمور التی هی أساس فهم المعانی و إدراکها.

و الطریف أنّها تقول:إنّ هذا القرآن و الشریعه بصائر،أی عین البصیره،ثمّ أنّها لیست،بصیره،بل بصائر،و لا تقتصر علی بعد واحد،بل تعطی الإنسان الأفکار و النظریات الصحیحه فی کافه مجالات حیاته.

و قد ورد نظیر هذا التعبیر فی آیات أخری من القرآن الکریم،کالآیه(۱۰۴)من سوره الأنعام،حیث تقول: قَدْ جاءَکُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّکُمْ .

و قد طرحت هنا فی هذه الآیه ثلاثه مواضیع:البصائر و الهدی و الرحمه،و هی حسب التسلسل عله و معلول لبعضها البعض،فإنّ الآیات الواضحه و الشریعه

المبصّره تدفع الإنسان نحو الهدايه بدورها أساس رحمه اللّه.

و الجميل فى الأمر أنّ الآيه تذكر أنّ البصائر لعامه الناس،أمّا الهدى و الرحمه فخصت الموقنين بهما،و يجب أن يكون الأمر كذلك،لأنّ آيات القرآن ليست مقصوره على قوم بالخصوص،بل يشترك فيها كلّ البشر الذين دخلوا فى كلمه (الناس)فى كلّ زمان و مكان،غير أنّ من الطبيعى أن يكون الهدى فرع اليقين،و أن تكون الرحمه وليدته،فلا تشمل الجميع حينئذ.

و على أيه حال،فإنّ ما تقوله الآيه من أنّ القرآن عين البصيره،و عين الهدايه و الرحمه،تعبير جميل يعبر عن عظمه هذا الكتاب السماوى و تأثيره و عمقه بالنسبه لأولئك السالكين طريقه،و الباحثين عن الحقيقه.

***

الآيات [سوره الجاثیه (۴۵): الآیات ۲۱ الی ۲۳]

اشاره

أَمْ حَسِبَ اَلَّذِینَ اِجْتَرَحُوا اَلسَّیِّئٰاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ کَالَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ سَوٰاءً مَحْیٰاهُمْ وَ مَمٰاتُهُمْ سٰاءَ مٰا یَحْکُمُونَ (٢١) وَ خَلَقَ اَللّٰهُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِتُجْزیٰ کُلُّ نَفْسٍ بِمٰا کَسَبَتْ وَ هُمْ لاٰ یُظْلَمُونَ (٢٢) أَ فَرَأَیْتَ مَنِ اِتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ وَ أَضَلَّهُ اَللّٰهُ عَلیٰ عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلیٰ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلیٰ بَصَرِهِ غِشٰاوَهً فَمَنْ یَهْدِیهِ مِنْ بَعْدِ اَللّٰهِ أَ فَلاٰ تَذَکَّرُونَ (٢٣)

التّفسیر

اشاره

لیسوا سواء محیاهم و مماتهم:

متـابعه للآیـات السابقه التی کان الکلام فیها یـدور حول فئتین هما:المؤمنون و الکافرون،أو المتقون و المجرمون،فإنّ أولی هـذه الآیـات قـد جمعتهمـا فی مقـارنه أصـولیه بینهمـا،فقـالت: أَمْ حَسِبَ الَّذِینَ اجْتَرَحُوا السَّیِّئٰاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ کَالَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ سَوٰاءً مَحْیٰاهُمْ وَ مَمٰاتُهُمْ سٰاءَ مٰا یَحْکُمُونَ .

هل یمکن أن یتساوی النور و الظلمه،و العلم و الجهل،و الحسن و القبیح،

ص: ۲۱۰

و الإيمان و الكفر؟ هل يمكن أن تكون نتيجه هـذه الأمور غير المتساويه متساويه؟ كلا،فإنّ الأمر ليس كـذلک،إذ المؤمنون ذوو الأعمـال الصالحـات يختلفون عن المجرمين الكـافرين،و يفترقون عنهم فى كـلّ شـىء،إذ أنّ كلاـ من الإيمـان و الكفر، و العمل الصالح و الطالح،يصبغ كلّ الحياه بلونه.

و هذه الآيه نظير الآيه(۲۸)من سوره ص،حيث تقول: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِی الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِینَ کَالْفُجّارِ ؟ أو كالآـيتين ۳۵،۳۶،مـن سـوره القلـم حيـث: أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ «اجترحوا»فى الأصل من الجرح الـذى يصـيب بـدن الإنسان أثر مرض ضـرر، و لما كان ارتكاب الـذنب و المعصـيه كأنّما يجرح روح المـذنب،فقد استعملت كلمه الاجتراح بمعنى ارتكاب الذنب،و تسـتعمل أحيانا بمعنى أوسع يدخل فيه كلّ اكتساب.و إنّما يقال لأعضاء البدن:جوارح،لأنّ الإنسان يحقق مقاصده و رغباته بواسطتها،و يحصل على ما يريد،و يكتسب ما يشاء بواسطتها.

و على أيه حـال،فـإنّ الآـيه تقول:إنّه لظن خاطئ أن يتصوروا أنّ الإيمان و العمل الصالـح،أو الكفر و المعصـيه،لا يترک أثره فى حياه الإنسان،فإنّ حياه هذين الفريقين و مماتهم يتفاوتان تماما:

فـالمؤمنون يتمتعون باطمئنـان خاص فى ظل الإيمان و العمل الصالـح،بحيث لا تؤثر فى نفوسـهم أصـعب الحوادث و أقساها،فى حين أنّ الكـافرين و الملوثين بالمعصـيه و الـذنوب مضـطربون دائمـا،فـإنّ كـانوا فى نعمه فهم معـذبون دائما من خوف زوالها و فقدانها،و إن كانوا فى مصيبه و شدّه فلا طاقه لهم على تحملها و مواجهتها.

و تصور الآيه(۸۲)من سوره الأنعام حال المؤمنين،فتقول: اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ

يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ .

إنّ المؤمنين مطمئنون بمواعيد اللّه سبحانه،و هم يرتعون فی رحمته و لطفه: إِنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ .

فنور الهدايه يضىء قلوب الفريق الأوّل لتشرق بنور ربّها،فيسيرون بخطى ثابته نحو هدفهم المقدس: اَللّٰهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ (١) .

أمّا الفريق الثّانی،فليس لديهم هدف واضح يطمحون إلی بلوغه،و لا هدی بيّن يسيرون فی ظله،بل هم سكاری تتقاذفهم أمواج الحيره فی بحر الضلاله و الكفر:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ .

هذا فی الحياه الدنيا،أما عند الموت الذی هو نافذه تطل علی عالم البقاء، و باب للآخره،فإنّ الحال كما تصوره الآيه(٣٢)من سوره النحل حيث تقول:

اَلَّذِينَ تَتَوَفّاهُمُ الْمَلاٰئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

أمّا المجرمون الكافرون،فإنّ الآيتين(٢٨)-(٢٩)من سوره النحل تتحدثان معهم بأسلوب آخر،فتقولان: اَلَّذِينَ تَتَوَفّاهُمُ الْمَلاٰئِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلىٰ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ .

و خلاصه القول،فإنّ التفاوت و الاختلاف موجود بين هاتين الفئتين فی كافه شؤون الحياه و الموت،و فی عالم البرزخ و القيامه (٢) .

١- ١) -البقره،الآيه ٢٥٧.

٢- ٢) -ثمّه احتمالات أخری فی تفسير الآيه المذكوره و من جملتها ما ذكر من أنّ المراد من جمله(سواء محياهم و مماتهم)أنّ موت المجرمين الكافرين و حياتهم واحد لا فرق فيه،فلا خير فيهم و لا طاعه لهم حال حياتهم،و لا فی موتهم،فهم أحياء لكنّهم أموات،و علی هذا التّفسير فإنّ كلا الضميرين يعودان علی المجرمين. و الاحتمال الآخر:أنّ المراد من الحياه يوم القيامه،أی أنّ المؤمنين و الكافرين لا يتساوون عند الموت و عند بعثهم يوم القيامه.

أمّا الآيه التاليه فإنّه فى الحقيقه تفسير لسابقتها و تعليل لها،إذ تقول: وَ خَلَقَ اللّهُ السَّماوٰاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِتُجْزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ ،فكل العالم يوحى بأنّ خالقه قد خلقه و جعله يقوم على محور الحق،و أن يحكم العدل و الحق كلّ مكان،و إذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يجعل اللّه الذين آمنوا و عملوا الصالحات كالمجرمين الكافرين،فيكون هذا الأمر استثناء من قانون الخلقه؟ من الطبيعى أنّه يجب أن يتمتع أولئك الذين يتحركون حركه تنسجم مع قانون الحق و العداله هذا،و لا يحيدون عنه ببركات عالم الوجود و ينعمون بألطاف اللّه سبحانه،كما يجب أن يكون أولئك الذين يسيرون عكس هذا الطريق و يخالفون القانون طعمه للنّار المحرقه،و محطا لغضب اللّه عزّ و جلّ،و هذا ما تقتضيه العداله.

و من هنا يتّضح أنّ العداله لا تعنى المساواه،بل العداله أن يحصل كلّ فرد على ما يناسبه من المواهب و النعم حسب مؤهلاته و قابلياته.

و كذلك فإنّ الآيه الأخيره من هذه الآيات توضيح و تعليل آخر لعدم المساواه بين الكافرين و المؤمنين،إذ تقول: أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ وَ أَضَلَّهُ اللّهُ عَلىٰ عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشٰاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللّهِ أَ فَلاٰ تَذَكَّرُونَ .

و هنا سؤال يطرح نفسه،و هو:كيف يمكن أن يتخذ الإنسان إلهه هواه؟ غير أنّ من الواضح الجلى أنّ الإنسان عند ما يضرب صفحا عن أوامر اللّه سبحانه،و يتبع ما تمليه عليه شهواته،و يقدم طاعتها على طاعه اللّه سبحانه و يعتبر ذلك حقّا،فقد عبد هواه،و هذا عين معنى العباده،إذ أنّ أحد المعانى المعروفه للعباده هو الطاعه.

و قد ورد فى القرآن الكريم الكثير ممّا يبيّن هذا المعنى كعباده الشيطان أو

(۲)

إلّا أن ظاهر الآيه هو ما ذكرناه أعلاه.

عباده أحبار اليهود،فيقول القرآن-مثلا-فى الآيه(۶۰)من سوره يس: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰا بَنِي آدَمَ أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا الشَّيْطٰانَ .

و يقول فى الآيه(۳۱)من سوره التوبه: اِتَّخَذُوا أَحْبٰارَهُمْ وَ رُهْبٰانَهُمْ أَرْبٰاباً مِنْ دُونِ اللّٰهِ .

و

جاء فى حديث عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السلام أنهما قالا: «أما و اللّه ما صاموا لهم،و لا صلوا،و لكنّهم أحلوا لهم حراما و حرموا عليهم حلالا، فاتبعوهم،و عبدوهم من حيث لا يشعرون» (۱) .

غير أنّ بعض المفسّرين يعتبر هذا التعبير إشاره إلى الوثنيين من قريش،الذين إذا ما عشقوا شيئا و أحبوه صنعوا على صورته صنما ثمّ عبدوه و عظموه،و كلما رأوا شيئا آخر أعجبهم أكثر من صنمهم أعرضوا عن الأوّل و توجهوا إلى عباده الثّانى،و على هذا فإنّ إلههم كان الشيء الذى ترتضيه أنفسهم و تهواه (۲) .

إلاّ أنّ تعبير: مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوٰاهُ أكثر انسجاما مع التّفسير الأوّل.

أما فى مورد جمله: أَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلىٰ عِلْمٍ فالتّفسير المعروف هو أنّ اللّه سبحانه قد أضلهم لعلمه بأنّهم لا يستحقون الهدايه،و هو إشاره إلى أنّ هؤلاء قد أطفأوا بأيديهم كلّ مصابيح الهدايه و حطموها،و أغلقوا فى وجوههم كلّ سبل النجاه، و دمروا وراءهم جسور العوده إلى طريق الحق،فعند ذلك سلبهم اللّه تعالى رحمته و لطفه،و أفقدهم القدره على تشخيص الصالح من الطالح،و تركهم فى ظلمات لا يبصرون،و كأنّما ختم على قلبهم و سمعهم،و جعل على أبصارهم غشاوه.

و ما كلّ ذلك فى الحقيقه إلاّ آثار لما اختط هؤلاء لأنفسهم من مسير،و نتيجه مشؤومه لعباده الآلهه التى اتخذوها.

و لا صنم فى الحقيقه أخطر من إتباع هوى النفس الذى يوصد كلّ أبواب

۱- ۱) -نور الثقلين،المجلد ۲،صفحه ۲۰۹.

۲- ۲) -تفسير الدر المنثور،المجلد ۶،صفحه ۳۵.

الرحمه و طرق النجاه بوجه الإنسان؟و كم هو بليغ و عميق

الحديث المروى عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما عبد تحت السماء إله أبغض إلى اللّه من الهوى» (۱) .

إلاّ أنّ بعض المفسّرين يعتبر هذه الجمله إشاره إلى أنّ متبعى الهوى هؤلاء قد اختاروا طريق الضلاله طريقا لهم عن علم و درايه،لأنّ العلم لا يقارن الهدايه دائما،كما لا تكون الضلاله دائما قرينه الجهل.

إنّ العلم الذى يتمسك الإنسان بلوازمه أساس الهدايه،فعليه كى يصل إلى مراده و هدفه أن يتحرك على هدى هذا العلم،و ألا يكون كأولئك الكفار العنودين الذين قال بحقهم القرآن: وَ جَحَدُوا بِهٰا وَ اسْتَيْقَنَتْهٰا أَنْفُسُهُمْ (۲) (۳) .

إلاّ أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب بملاحظه أنّ مرجع الضمائر فى الآيه إلى اللّه سبحانه،لأنّها تقول: أَضَلَّهُ اللّٰهُ (عَلىٰ عِلْمٍ)وَ خَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ .

ممّا قلناه يتّضح جيدا أنّ الآيه تدل-من قريب أو بعيد-على مذهب الجبريه، بل هى تأكيد على أصل الإختيار و تعيين الإنسان مصيره بنفسه.

لقد أوردنا بحوثا أكثر تفصيلا و إيضاحا حول ختم اللّه على قلب الإنسان و سمعه،و إلقاء الغشاوه على قلبه فى ذيل الآيه(۷)من سوره البقره (۴) .

***

ملاحظات

اشاره

۱-أخطر الأصنام صنم هوى النفس

قرأنا فى حديث أنّ أبغض الآلهه إلى اللّه هوى النفس،و لا مبالغه فى هذا الحديث قط،لأنّ الأصنام العاديه موجودات لا خصائص لها و لا صفات فعاله

۱- ۱) -تفسير القرطبى،المجلد ۹،صفحه ۵۹۸۷،و تفسير روح البيان،و تفسير المراغى ذيل الآيات مورد البحث.

۲- ۲) -النمل،الآيه ۱۴.

۳- ۳) -تفسير الميزان،المجلد ۱۸،صفحه ۱۸۷.

۴- ۴) -المجلد الأول،التّفسير الأمثل،ذيل الآيه(۷)من سوره البقره.

مهمه،أما صنم الهوى و أتباعه،فإنّه يغوى الإنسان و يسوقه إلى ارتكاب أنواع المعاصى،و الانزلاق فى هاويه الانحراف.

و بصوره عامّه،يمكن القول بأنّ لهذا الصنم من الخصوصيات ما جعله مستحقا لصفه أبغض الآلهه و الأصنام،فهو يزين القبائح و السيئات فى نظر الإنسان حتى يصل إلى درجه يفخر عندها بتلك الأعمال الطالحه،و يكون مصداقا لقوله تعالى:

وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً

(۱)

.

۲-أفضل طريق لنفوذ الشيطان هو اتباع الهوى:فما دام الشيطان لا يمتلك قاعده و أساسا يستند إليه فى داخل الإنسان،فلا قدره له على الوسوسه و دفع الإنسان الى الانحراف و المعصيه،و ما تلك القاعده و الأساس إلّا اتباع الهوى و هو ذات الشيء الذى أسقط الشيطان و أرداه،و طرده من صف الملائكه،و أبعده عن مقام القرب من اللّه.

۳-إنّ اتباع الهوى يسلب الإنسان أهم وسائل الهدايه،و هى الإدراك الصحيح للحقائق،و يلقى الحجب على عقل الإنسان و عينه،و قد أشارت هذه الآيات إلى هذا الموضوع بصراحه بعد ذكر مسأله اتباع الهوى و اتخاذه إلها،و آيات القرآن الأخرى شاهده على هذه الحقيقه أيضا.

۴-إنّ اتباع الهوى يوصل الإنسان إلى مرحله محاربه اللّه-و العياذ باللّه-كما ابتلى بها إمام عباد الهوى-أى الشيطان الرجيم-فاعترض على حكمه اللّه سبحانه لمّا أمره بالسجود لآدم،و اعتبره أمرا عاريا عن الحكمه! ۵-عواقب اتباع الهوى مشؤومه و أليمه،بحيث أنّ لحظه من لحظات اتباع الهوى قد يصاحبها عمر من الندامه و الأسف و الحسره،و لحظه-يتبع فيها الهوى- قد تجعل كلّ حسنات الإنسان و أعماله الصالحه التى عملها طوال عمره هباء منثورا،و لذلك ورد التأكيد على الحيطه و اليقظه فى هذا الأمر و التحذير الشديد منه

۱- ۱) -الكهف،الآيه ۱۰۴.

فی آیات القرآن و الرّوایات الإسلامیه.

فقد ورد فی الحدیث المعروف عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «إن أخوف ما أخاف علی أمتی الهوی و طول الأمل،أما الهوی فإنّه یصد عن الحق،و أمّا طول الأمل فینسی الآخره» (۱) .

و

فی حدیث آخر عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام أنّه سئل:أی سلطان أغلب و أقوی؟قال:«الهوی» (۲) .

و

جاء فی حدیث آخر عن الإمام زین العابدین علیه السّلام: «إن اللّه تعالی یقول:

و عزتی و عظمتی،و جلالی و بهائی،و علوی و ارتفاع مکانی،لا یؤثر عبد هوای علی هواه إلاّ جعلت همه فی آخرته،و غناه فی قلبه،و کففت عنه ضیعته،و ضمنت السماوات و الأرض رزقه،و أتته الدنیا و هی راغمه» (۳) .

و

ورد فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: «احذروا أهواءکم کما تحذرون أعداءکم،فلیس شیء أعدی للرجال من اتباع أهوائهم و حصائد ألسنتهم» (۴) .

و أخیرا

ورد فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «إنی لأرجو النجاه لهذه الأمه لمن عرف حقنا منهم إلاّ لأحد ثلاثه:صاحب سلطان جائر،و صاحب هوی،و الفاسق المعلن» (۵) .

و فی هذا الباب آیات و روایات کثیره غنیه المضمون.

و ننهی هذا الحدیث بجمله عمیقه المعنی ذکرها البعض کسبب نزول،و کشاهد علی مرادنا،فیقول أحد المفسّرین:طاف أبو جهل بالبیت ذات لیله و معه الولید بن المغیره، فتحدثا فی شأن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم،فقال أبو جهل:و اللّه إنی لأعلم أنّه صادق.

۱- ۱) -بحار الأنوار،المجلد ۷۰،صفحه ۷۵،۷۶،۷۷.

۲- ۲) -المصدر السابق.

۳- ۳) -المصدر السابق.

۴- ۴) -أصول الكافى،المجلد ۲ باب أتباع الهوى الحديث ۱.

۵- ۵) -بحار الأنوار،المجلد ۷۰،صفحه ۷۶.

فقال له:مه،و ما دلک علی ذلک؟ قال:یا أبا عبـد شـمس،کنا نسـمیه فی صـباه الصادق الأمین،فلما تم عقله،و کمل رشده نسـمیه الکذاب الخائن!و اللّه إنی لأعلم أنّه صادق.

قال:فما یمنعک من أن تصـدقه و تؤمن به؟ قال:تتحـدث عنی بنات قریش أنی اتبعت یتیم أبی طالب من أجل کسـره! و اللات و العزی لن أتبعه أبدا.

فنزلت الآیه: وَ خَتَمَ عَلیٰ سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ (۱) .

***

۱- ۱) -تفسیر المراغی،المجلد ۲۵،صفحه ۲۷.

الآيتان [سوره الجاثيه (۴۵): الآيات ۲۴ الی ۲۵]

اشاره

وَ قٰالُوا مٰا هِيَ إِلاّٰ حَيٰاتُنَا اَلدُّنْيٰا نَمُوتُ وَ نَحْيٰا وَ مٰا يُهْلِكُنٰا إِلاَّ اَلدَّهْرُ وَ مٰا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّٰ يَظُنُّونَ (۲۴) وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ مٰا كٰانَ حُجَّتَهُمْ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا اِئْتُوا بِآبٰائِنٰا إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۲۵)

التّفسیر

اشاره

عقائد الدهریین:

فی هذه الآیات بحث آخر حول منکری التوحید،غایه ما هناک أنّه ذکر هنا اسم جماعه خاصّه منهم،و هم«الدهریون»الذین ینکرون وجود صانع حکیم لعالم الوجود مطلقا،فی حین أنّ أکثر المشرکین کانوا یؤمنون ظاهرا باللّه،و کانوا یعتبرون الأصنام شفعاء عند اللّه،فتقول الآیه أولا: وَ قٰالُوا مٰا هِيَ إِلاّٰ حَيٰاتُنَا الدُّنْيٰا نَمُوتُ وَ نَحْيٰا فکما یموت من یموت منا،یولد من یولد منّا و بذلک یستمر النسل البشری: وَ مٰا يُهْلِكُنٰا إِلاَّ الدَّهْرُ و بهذا فإنّهم ینکرون المعاد کما ینکرون المبدأ، و الجمله الأولی ناظره إلی إنکارهم المعاد،أمّا الجمله الثانیه فتشیر إلی إنکار

ص:۲۱۹

المبدأ.

و الجدير بالانتباه أنّ هذا التعبير قد ورد فى آيتين أخريين من آيات القرآن الأخرى،فنقرأ فى الآيه(۲۹)من سوره الأنعام: وَ قٰالُوا إِنْ هِیَ إِلاّٰ حَیٰاتُنَا الدُّنْیٰا وَ مٰا نَحْنُ بِمَبْعُوثِینَ .

و جاء فى الآيه(۳۷)من سوره المؤمنون: إِنْ هِیَ إِلاّٰ حَیٰاتُنَا الدُّنْیٰا نَمُوتُ وَ نَحْیٰا وَ مٰا نَحْنُ بِمَبْعُوثِینَ .

إلاّ أنّ التأكيد فى الآيتين على إنكار المعاد و حسب،و لم يرد إنكار المبدأ و المعاد معا إلاّ فى هذه الآيه مورد البحث.

و من الواضح أنّ هؤلاء إنّما كانوا يؤكدون على المعاد أكثر من المبدأ لخوفهم و اضطرابهم منه الذى قد يغير مسير حياتهم المليئه بالشهوات و الخاضعه لها.

و قد ذكر المفسّرون عدّه تفاسير لجمله نَمُوتُ وَ نَحْیٰا :

الأوّل:و هو ما ذكرناه،بأنّ الكبار يغادرون الحياه ليحل محلهم المواليد.

الثّانى:أنّ الجمله من قبيل التأخير و التقديم،و معناها:إنّنا نحيا ثمّ نموت،و لا شیء غير هذه الحياه و الموت.

الثّالث:أنّ البعض يموتون و يبقى البعض الآخر،و إن كان الجميع سوف يموتون فى النهايه.

الرّابع:أننا كنا فى البدايه أموات لا روح فينا،ثمّ منحنا الحياه و دبت فينا.

غير أنّ التّفسير الأوّل هو أنسب الجميع و أفضلها.

و على أيه حال،فإنّ جماعه من الماديين فى العصور الخاليه كانوا يعتقدون أنّ الدهر هو الفاعل أو الزمان فى هذا العالم-أو بتعبير جماعه آخرين:إنّ الفاعل هو دوران الأفلاك و أوضاع الكواكب-و كانوا ينهون سلسله الحوادث إلى الأفلاك، و يعتقدون أنّ كلّ ما يقع فى هذا العالم بسببها (۱) ،حتى أنّ جماعه من فلاسفه

۱- ۱) -احتمل البعض احتمالا خامسا فى تفسير هذه الجمله،و هو أنّها إلى عقيده التناسخ التى كان يعتقد بها جمع من

الدهريين و أمثالهم كانوا يقولون بوجود عقل للأفلاک،و يعتقدون أنّ تدبير هذا العالم بيدها.

إن هـذه العقائـد الخرافيه انقرضت بمرور الزمـان،خـاصّه و قـد ثبت بتقـدم علم الهيئه عـدم وجود شـیء بـاسم الأفلاک-الکرات المتـداخله الصـافيه-فی الوجود الخـارجی أصـلا،و أن لنجوم العالم العلوی بناء کبناء الکره الأرضـيه بتفاوت ما غايه فی الأمر أنّ بعضها مظلم و يكتسب نوره من الكرات الأخرى،و بعضها الآخر مشتعل و منير.

إنّ الدهريين كانوا يذمون الدهر و يسبونه أحيانا عند ما تقع حوادث مرّه مؤلمه.

غير أنّه

ورد فی الأحاديث الإسـلاميه عن النّبی الأكرم صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم «لا تسـبوا الدهر،فإنّ اللّه هو الدهر» (۱) ، و هو إشاره إلی أنّ الدهر لفظ ليس إلّا،فإنّ اللّه سبحانه هو مدبر هذا العالم و مديره،فإنّكم إنّ أسأتم القول بحق مدبر هذا العالم و مديره،فقد أسأتم بحق اللّه عزّ و جلّ من حيث لا تشعرون.

و الشاهد علی هذا الكلام حديث آخر

روی كحديث قدسی عن اللّه تعالی أنّه قال:«يؤذينی ابن آدم يسب الدهر،و أنا الدهر!بيدی الأمر،أقلب الليل و النهار» (۲) .

لكن قد استعمل الدهر فی بعض التعبيرات بمعنی أبناء الأيّام،و أهل الزمان الذين شكا العظماء من عدم وفائهم،كما نقل

فی الشعر المنقول عن الإمام الحسين عليه السّلام، حيث أنشد ليله عاشوراء:

يـا دهر أف لـک من خليل*كم لک بالإشـراق و الأصـيل من صاحب و طالب قتيل*و الـدهر لا يقنع بالقليل و على هـذا فللـدهر معنيان:الدهر بمعنی الأفلاک و الأيّام،و الذی كان محل

(۱)

-الوثنيين،حيث كانوا يقولون:إنّنا نموت دائما ثمّ نحيا فی أبدان أخرى فی هذا العالم.إلّا أنّ هذا التّفسير لا ينسجم مع جمله (و ما يهلكنا إلّا الدهر)و التی تتحدث عن الهلاک و الفناء فقط.(فتأمل!).

۱- ۱) -تفسير مجمع البيان،المجلد ۹،صفحه ۷۸.

۲- ۲) -تفسير القرطبی،المجلد ۹،صفحه ۵۹۹۱.

اهتمام الدهريين،حيث كانوا يظنونه حاكما على نظام الوجود و حياه البشر.

و الدهر بمعنى أهل العصر و الزمان و أبناء الأيّام.

و من المسلّم أنّ الدهر بالمعنى الأوّل أمر وهمى،أو نقول أنّه اشتباه فى التعبير حيث أطلق اسم«الدهر»بدل اسم اللّه المتعالى الحاكم على كلّ عالم الوجود.أمّا الدهر بالمعنى الثّانى فهو الشيء الذى ذمه كثير من الأئمه و العظماء،لأنّهم كانوا يرون أهل زمانهم خادعين مذبذبين لا وفاء لهم.

على أيه حال،فإنّ القرآن الكريم أجاب هؤلاء العبثيين بجمله وجيزه عميقه، تلاحظ فى موارد أخرى من القرآن الكريم أيضا،فقال: وَ مٰا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّٰ يَظُنُّونَ .

و قد ورد نظير هذا المعنى فى الآيه(٢٨)من سوره النجم فى من يظنون أنّ الملائكه بنات اللّه سبحانه: وَ مٰا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنَّ الظَّنَّ لاٰ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً .

و قد ورد هذا المعنى أيضا فى القول بقتل المسيح،النساء-١٥٧،و عقيده مشركى العرب فى الأصنام،يونس-۶۶.

و هذا أبسط و أوضح دليل يلقى على هؤلاء بأنّكم لا تملكون أى شاهد أو دليل منطقى على مدعاكم،بل تستندون فى دعواكم إلى الظن و التخمين فقط.

و أشارت الآيه التاليه إلى إحدى ذرائع هؤلاء الواهيه و حججهم الباطله فيما يتعلق بالمعاد،فقالت: وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ مٰا كٰانَ حُجَّتَهُمْ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا ائْتُوا بِآبٰائِنٰا إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (١) .

كان هؤلاء يرددون أنّ إذا كان حياه الأموات و بعثهم حقّا فأحيوا آباءنا كنموذج لادعائكم،حتى نعرف مدى صدقكم،و لنسألهم عمّا يجرى بعد الموت، و هل يصدّقون ما تقولونه أم يكذبونه؟

١- ١) -«حجتهم»فى الآيه المذكوره خبر كان،و(أن قالوا...)اسمها.

نعم،هـذا هو دليلهم الأ ـجوف لأ ـنّ اللّه سـبحانه قـد أبـان للبشـر قـدرته على إحيـاء الأموات بطرق مختلفه،فإنشاء أوّل الإنسان من الـتراب،و تحولاـت النطفـه العجيبـه فى الرحـم،و خلـق السـماء الواسـعه و الأ ـرض،و إحيـاء الأراضـى الميته بعـد هطـول الأمطـار عليها،ذكرت كلها كأسانيـد حيه على إمكان القيامه و البعث الجديـد، و كأفضل دليل على هـذا المعنى،و بعـد كلّ هـذا لا حاجه إلى دليل آخر.

و بغض النظر عن ذلـك،فـإنّ هؤلاء كانوا قـد أثبتوا أنّهم لا هـدف لهم إلّا التـذرع و التوسل بالحجـج،للاسـتمرار فى ضـلالهم و اعتقادهم المنحرف،فإذا كشف لهم عن مشـهد إحياء الأموات فرضا فرأوه بأم أعينهم،فإنّهم سـيقولون مباشره:إنّه سحر، كما قالوا ذلك فى الموارد المشابهه.

إنّ التعبير ب«الحجه»فى مورد قول هؤلاء الفارغ هو كنايه فى الحقيقه عن أنّ هؤلاء لا دليل لهم إلّا عدم الدليل.

***

ص :۲۲۳

الآیات [سوره الجاثیه (۴۵): الآیات ۲۶ الی ۳۱]

اشاره

قُلِ اَللّٰهُ یُحْیِیکُمْ ثُمَّ یُمِیتُکُمْ ثُمَّ یَجْمَعُکُمْ إِلیٰ یَوْمِ اَلْقِیٰامَهِ لاٰ رَیْبَ فِیهِ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ (۲۶) وَ لِلّٰهِ مُلْکُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ
اَلْأَرْضِ وَ یَوْمَ تَقُومُ اَلسّٰاعَهُ یَوْمَئِذٍ یَخْسَرُ اَلْمُبْطِلُونَ (۲۷) وَ تَریٰ کُلَّ أُمَّهٍ جٰاثِیَهً کُلُّ أُمَّهٍ تُدْعیٰ إِلیٰ کِتٰابِهَا اَلْیَوْمَ تُجْزَوْنَ مٰا کُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ (۲۸) هٰذٰا کِتٰابُنٰا یَنْطِقُ عَلَیْکُمْ بِالْحَقِّ إِنّٰا کُنّٰا نَسْتَنْسِخُ مٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۹) فَأَمَّا اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ فَیُدْخِلُهُمْ
رَبُّهُمْ فِی رَحْمَتِهِ ذٰلِکَ هُوَ اَلْفَوْزُ اَلْمُبِینُ (۳۰) وَ أَمَّا اَلَّذِینَ کَفَرُوا أَ فَلَمْ تَکُنْ آیٰاتِی تُتْلیٰ عَلَیْکُمْ فَاسْتَکْبَرْتُمْ وَ کُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِینَ
(۳۱)

ص: ۲۲۴

التّفسير

اشاره

الكلّ جاث فی محكمه العدل الإلهی:

هذه الآیات فی الحقیقه جواب آخر علی كلام الدهریین،الذین كانوا ینكرون المبدأ و المعاد،و قد أشیر إلی كلامهم،فی الآیات السابقه،فتقول الآیه أوّلا: قُلِ اللّهُ یُحْیِیكُمْ ثُمَّ یُمِیتُكُمْ ثُمَّ یَجْمَعُكُمْ إِلی یَوْمِ الْقِیامَهِ لا رَیْبَ فِیهِ .

لم یكن هؤلاء یعتقدون باللّه و لا بالیوم الآخر،و محتوی هذه الآیه استدلال علیهما معا،حیث أكّدت علی مسأله الحیاه الأولی.و بتعبیر آخر،فإنّ هؤلاء لا یستطیعون أن ینكروا أصل وجود الحیاه الأولی،و نشأه الموجودات الحیه من موجودات میته،و هذا یشكل من جهه دلیلا علی وجود عقل و علم كلی شامل،إذ هل یمكن أن توجد الحیاه علی هذه الهیئه المدهشه،و التنظیم الدقیق و الأسرار العجیبه المعقده،و الصور المتعدده،و التی أذهلت عقول كلّ العلماء،من دون أن یكون لها خالق قادر عالم؟ و لهذا نری آیات القرآن المختلفه تؤكّد علی مسأله الحیاه كأحد آیات التوحید و أدلته البینه.

و من جهه أخری،تقول لهم:كیف یكون القادر علی إنشاء الحیاه الأولی عاجزا عن إعادتها ثانیا؟ أمّا التعبیر ب لا رَیْبَ فِیهِ حول القیامه،و الذی یخبر عن حتمیه وقوعها و حدوثها،لا عن إمكانها،فهو إشاره إلی قانون العدل الإلهی،حیث لم یصل كلّ صاحب حق الی حقّه فی هذه الحیاه الدنیا،و لم یلاق كلّ المعتدین و الظالمین جزاءهم،و لو لا محكمه القیامه العادله،فإن العداله الإلهیه لا مفهوم لها حینئذ.

و لما كان كثیر من الناس لا یتأمل هذه الدلائل و لا یدقق النظر فیها،فإنّ الآیه تضیف فی النهایه: وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا یَعْلَمُونَ .

إن أحد أسماء یوم القیامه المار ذكره فی هذه الآیه هو: یَوْمَ الْجَمْعِ لأنّ جمیع

الخلق من الأولين و الآخرين،و على اختلاف طبقات البشر و أصنافهم يجمعون فى ذلك اليوم فى مكان واحد.و قد ورد هذا التعبير فى عدّه آيات أخرى من القرآن الكريم أيضا،و من جملتها الشورى-٧،و التغابن-٩.

أمّا الآيه التاليه فهى دليل آخر على مسأله المعاد،و قد قرأنا الشبهه المطروحه حوله فى آيات القرآن الأخرى،فتقول: وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ فلما كان مالكا لتمام عالم الوجود الواسع و حاكما عليه،فمن المسلم أن يكون قادرا على إحياء الموتى،و مع وجود تلك القدره المطلقه لا تكون عمليه الإحياء بالأمر العسير.

لقد جعل اللّه سبحانه هذا العالم مزرعه للآخره،و متجرا وافر الربح إلى ذلك العالم،و لذلك يقول سبحانه فى نهايه الآيه: وَ يَوْمَ تَقُومُ السّٰاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ لأنّهم فقدوا رأس مالهم-و هو العمر-و لم يتجروا فيه،و لم يشتروا متاعا إلّا الحسره و الندم.

إنّ الحياه و العقل و الذكاء و مواهب الحياه الأخرى هى رأس مال الإنسان فى سوق التجاره هذا،لكن اتباع الباطل يبادلونه بمتاع فان سريع الزوال،و لذلك فإنّهم حين يأتون يوم القيامه،يوم لا ينفع إلّا القلب السليم و الإيمان و العمل الصالح سيرون خسارتهم الباهظه بأم أعينهم،و لات ساعه مندم.

«يخسر»من الخسران،و هو فقدان رأس المال،و ينسب أحيانا إلى نفس الإنسان-كما يقول الراغب فى المفردات-فيقال:خسر فلان،و أحيانا إلى تجارته فيقال:خسرت تجارته.

و مع أنّ أبناء الدنيا لا يستعملون هذا التعبير إلّا فى موارد المال و المقام و المواهب الماديه،مع أنّ الأهم من الخساره الماديه هو فقدان رأس مال العقل و الإيمان و الثواب.

أمّا«المبطل»-من ماده«إبطال»-فلها فى اللغه معان مختلفه،كإبطال الشىء،

و الکذب،و الاستهزاء و المزاح،و طرح أمر باطل و ذکره،و کلّ هذه المعانی یمکن أن تقبل فی مورد الآیه.

الأشخاص الذین أبطلوا الحق،و الذین نشروا عقیده الباطل و أهدافه،و الذین کذبوا أنبیاء اللّه،و سخروا من کلامهم،سیرون خسرانهم المبین فی ذلک الیوم.

و تجسّد الآیه التالیه مشهد القیامه بتعبیر بلیغ مؤثر جدّا،فتقول: وَ تَریٰ کُلَّ أُمَّهٍ جٰاثِیَهً .

یستفاد من بعض کلمات المفسّرین أنّ أصحاب الدعوی فی الماضی کانوا یجلسون علی هذه الهیئه فی مجلس القضاء لیمیزوا عن الآخرین،و سیجثو الجمیع یوم القیامه فی تلک المحکمه الکبری لتتم محاکمتهم.

و یمکن أیضا أن یکون هذا التعبیر علامه علی استعدادهم لتقبل أی أمر أو حکم یصدر بحقّهم،لأنّ من کان علی أهبه الاستعداد یجثو علی الرکب.

أو أنّه إشاره إلی ضعف هؤلاء و عجزهم و خوفهم و اضطرابهم الذی سیعانونه.

و جمع کلّ هذه المعانی فی مفهوم الآیه ممکن أیضا.

و للجاثیه معان أخری،من جملتها الجمع الکثیر المتراکم،أو جماعه جماعه، و یمکن أن تکون إشاره إلی تراکم البشر و ازدحامهم فی محکمه العدل الإلهی،أو جلوس کلّ أمه و فئه علی حده و بمعزل عن الأمم الأخری.إلاّ أنّ المعنی الأوّل هو الأنسب و الأشهر.

ثمّ تبیّن الآیه ثانی مشاهد القیامه،فتقول: کُلُّ أُمَّهٍ تُدْعیٰ إِلیٰ کِتٰابِهَا الْیَوْمَ تُجْزَوْنَ مٰا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فإنّ هذا الکتاب صحیفه أعمال سجلت فیها کلّ الحسنات و السیئات،و القبائح و الأفعال الجمیله،و أقوال الإنسان و أعماله،و علی حدّ تعبیر القرآن الکریم: لاٰ یُغٰادِرُ صَغِیرَهً وَ لاٰ کَبِیرَهً إِلاّٰ أَحْصٰاهٰا (۱) .

و تعبیر کُلُّ أُمَّهٍ تُدْعیٰ إِلیٰ کِتٰابِهَا یوحی بأنّ لکلّ أمه کتابا یتعلق بأفرادها

۱- ۱) -الکهف،الآیه ۴۹.

جميعا،إضافه إلى صحيفه الأعمال الخاصّه بكلّ فرد و لا يبدو هذا الأمر عجيبا إذا علمنا أنّ للإنسان نوعين من الأعمال:الأعمال الفرديه،و الأعمال الجماعيه، و لذلك فإن وجود نوعين من صحائف الأعمال يبدو طبيعيا جدّا من هذه الناحيه (۱) .

و التعبير ب«تدعى»يوحى بأنّ هؤلاء يدعون إلى قراءه ما فى كتبهم،و هذا المعنى نظير ما ورد فى الآيه(۱۴)من سوره الإسراء: اِقْرَأْ كِتٰابَكَ كَفىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً .

ثمّ يأتيهم الخطاب من قبل اللّه مرّه أخرى،فيقول مؤكّدا: هٰذٰا كِتٰابُنٰا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ فقد كنتم تفعلون كلّ ما يحلو لكم،و لم تكونوا تصدقون مطلقا أنّ كلّ أعمالكم هذه تسجل فى مكان ما،و لكن إِنّٰا كُنّٰا نَسْتَنْسِخُ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

«نستنسخ»من ماده«استنساخ»،و هى فى الأصل مأخوذه من النسخ،و هو إزاله الشىء بشىء آخر،فيقال مثلا:نسخت الشمس الظل.ثمّ استعملت فى كتابه كتاب عن كتاب آخر من دون أن يمحى الكتاب الأوّل.

و هنا يبدو سؤال،و هو:إذا كان اللّه سبحانه قد أمر باستنساخ أعمال ابن آدم،ذلك يستلزم أن يكون هناك كتاب قبل النسخ تكتب فيه تلك الأعمال؟و لذلك فإنّ البعض يعتقد أنّ صحائف أعمال كلّ البشر قد كتبت فى اللوح المحفوظ، و الملائكه الموكلون بحفظ أعمال الإنسان يستنسخونها من ذلك اللوح المحفوظ.

إلاّ أنّ هذا المعنى لا يتلاءم كثيرا مع الآيه مورد البحث،بل الملائم أحد معنيين هما:إمّا أن يكون الاستنساخ هنا بمعنى أصل الكتابه-كما قاله بعض المفسّرين- أو أنّ نفس أعمال الإنسان كالكتاب التكوينى تنسخ عنه الملائكه الحفظه و تصوره،و لذلك فقد ورد فى آيات أخر من القرآن الكريم التعبير بالكتابه بدل

۱- ۱) -احتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد من الكتاب فى الآيه أعلاه،هو الكتاب السماوى الذى أنزل على تلك الأمه. إلاّ ظاهر الآيه يدل على أنّه صحيفه الأعمال،خاصه بملاحظه الآيه التاليه،و أكثر المفسّرين على ذلك أيضا.

الاستنساخ،کما نقرأ ذلک فی الآیه(۱۲)من سوره یس: إِنّٰا نَحْنُ نُحْیِ الْمَوْتیٰ وَ نَکْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ (۱) .

و قد ورد تفصیل أوسع حول أنواع الکتب التی تسجل فیها الأعمال-صحیفه الأعمال الشخصیه،و صحیفه أعمال الأمم،و الکتاب الجامع العام لکلّ أفراد البشر-فی ذیل الآیه(۱۲)من سوره یس.

و تبیّن الآیه التالیه الجلسه الختامیه للمحکمه و إصدار قرار الحکم،حیث تنال کلّ فئه جزاء أعمالها،فتقول: فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ فَیُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِی رَحْمَتِهِ .

إن ذکر«فاء التفریع»هنا دلیل علی أنّ نتیجه حفظ الأعمال و المحاسبه و تلک المحکمه الإلهیه العادله،هی دخول المؤمنین فی رحمه اللّه سبحانه.

و طبقا لهذه الآیه،فإنّ الإیمان-وحده-غیر کاف لأنّ یجعل المؤمنین یتنعمون بهذه الموهبه العظیمه و العطیه الجزیله،بل إنّ العمل الصالح شرط لذلک أیضا.

و التعبیر ب«ربّهم»یحکی عن لطف اللّه الخاص،یکتمل بتعبیر«الرحمه»بدل «الجنّه».

و تبلغ بهم نهایه الآیه أوج الکمال حینما تقول: ذٰلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِینُ .

إنّ ل«رحمه اللّه»معنی واسعا یشمل الدنیا و الآخره،و قد أطلقت فی آیات القرآن الکریم علی معان کثیره،فتاره تطلق علی مسأله الهدایه،و أخری علی الإنقاذ من قبضه الأعداء،و ثالثه علی المطر الغزیر المبارک،و رابعه علی نعم أخری کنعمه النور و الظلمه،و أطلقت فی موارد کثیره علی الجنّه و مواهب اللّه سبحانه فی القیامه.

۱- ۱) - ورد فی روایه عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: «إن للّه ملائکه ینزلون کلّ یوم یکتبون فیه أعمال بنی آدم». و یقول الشیخ الطوسی فی التبیان فی ذیل الآیه مورد البحث بعد نقل هذه الروایه:و معنی نستنسخ نستکتب الحفظه ما یستحقونه من ثواب و عقاب،و نلقی ما عداه ممّا أثبته الحفظه،لأنّهم یثبتونه جمیعا.

جمله ذٰلِکَ الْفَوْزُ الْمُبِینُ تکررت مرّه أخری فی الآیه(۱۶)من سوره الأنعام،غایه ما هناک أنّ الفوز المبین قیل هناک لأولئک الذین ینجون من عذاب اللّه عزّ و جلّ: مَنْ یُصْرَفْ عَنْهُ یَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذٰلِکَ الْفَوْزُ الْمُبِینُ أمّا هنا فقد قیلت فیمن دخل الجنّه و فی رحمه اللّه،و کلاهما فی الواقع فوز عظیم:النجاه من العذاب،و الدخول فی مستقر رحمه اللّه سبحانه.

و هنا قد یرد هذا السؤال،و هو:هل أنّ المؤمنین الذین لیس لهم عمل صالح لا یدخلون الجنّه؟ و الجواب:إنّهم یدخلونها لکن بعد أن یروا جزاءهم فی جهنم حتی یطهروا، فإنّ الذین یردون مستقر رحمه اللّه هذا بعد الحساب مباشره هم أصحاب العمل الصالح مضافا إلی إیمانهم،و حسب.

کلمه«الفوز»-کما یقول الراغب فی مفرداته-تعنی الظفر المقترن بالسلامه، و قد استعملت فی(۱۹)موردا من آیات القرآن المجید،فوصف الفوز مرّه بالمبین، و أخری بالکبیر،أمّا فی غالب الآیات فقد وصف بالعظیم.و هو مستعمل عاده فی شأن الجنّه،إلاّ أنّه استعمل فی بعض الموارد فی شأن التوفیق لطاعه اللّه و مغفره الذنوب و أمثال ذلک.

و تذکر الآیه الآتیه مصیر من یقع فی الطرف المقابل لأولئک السابقین،فتقول:

وَ أَمَّا الَّذِینَ کَفَرُوا أَ فَلَمْ تَکُنْ آیٰاتِی تُتْلیٰ عَلَیْکُمْ فَاسْتَکْبَرْتُمْ وَ کُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِینَ

.

و ممّا یلفت النظر أنّ الکلام فی هذه الآیه عن الکفر فقط،و أمّا أعمال السوء التی هی عامل الدخول فی عذاب اللّه و سببه فلم یجر لها ذکر،و ذلک لأنّ الکفر وحده کاف لأنّ یدخل صاحبه العذاب،أو لأنّ التعبیر بالمجرمین فی ذیل الآیه کاف لبیان هذا المعنی.

و النکته الأخری هنا أنّه لم یرد کلام عن عقوبات الجحیم،بل الکلام عن التوبیخ الإلهی لهم و تقریعهم،و هو یعتبر أشد العذاب و أکبره،و تهون معه الجحیم

كلّ عذابها.

و هنا نكته تستحق الانتباه،و هی:أنّه يستفاد من هذه الآيه أنّ اللّه سبحانه لن يعذب أحدا من دون أن يبعث الأنبياء و يرسل الرسل و ينزل آياته-أو كما يصطلح عليه تأكيد أحكام العقل بأحكام الشرع-و هذا منتهى لطفه و رحمته سبحانه.

و آخر ملاحظه هی أنّ أكبر مشاكل هؤلاء القوم هو استكبارهم على آيات اللّه من جهه،و تماديهم فی المعصيه و الإجرام من جهه أخرى،و هذا يستفاد من جمله وَ كُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ .

***

الآیات [سوره الجاثیه (۴۵): الآیات ۳۲ الی ۳۷]

اشاره

وَ إِذا قِیلَ إِنَّ وَعْدَ اَللّهِ حَقٌّ وَ اَلسّاعَهُ لا رَیْبَ فِیها قُلْتُمْ ما نَدْرِی مَا اَلسّاعَهُ إِنْ نَظُنُّ إِلاّ ظَنًّا وَ ما نَحْنُ بِمُسْتَیْقِنِینَ (۳۲) وَ بَدا لَهُمْ
سَیِّئاتُ ما عَمِلُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما کانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (۳۳) وَ قِیلَ اَلْیَوْمَ نَنْساکُمْ کَما نَسِیتُمْ لِقاءَ یَوْمِکُمْ هذا وَ مَأْواکُمُ اَلنّارُ وَ ما لَکُمْ
مِنْ ناصِرِینَ (۳۴) ذلِکُمْ بِأَنَّکُمُ اِتَّخَذْتُمْ آیاتِ اَللّهِ هُزُواً وَ غَرَّتْکُمُ اَلْحَیاهُ اَلدُّنْیا فَالْیَوْمَ لا یُخْرَجُونَ مِنْها وَ لا هُمْ یُسْتَعْتَبُونَ (۳۵) فَلِلّهِ
اَلْحَمْدُ رَبِّ اَلسَّماواتِ وَ رَبِّ اَلْأَرْضِ رَبِّ اَلْعالَمِینَ (۳۶) وَ لَهُ اَلْکِبْرِیاءُ فِی اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ هُوَ اَلْعَزِیزُ اَلْحَکِیمُ (۳۷)

التّفسير

اشاره

یوم تبدو السیئات:

الآیه الأولی من هذه الآیات توضیح لما ذکر فی الآیات السابقه بصوره مجمله،توضیح لمسأله استکبار الکافرین علی آیات اللّه و دعوه الأنبیاء،فتقول:

وَ إِذٰا قِیلَ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَ السّٰاعَهُ لاٰ رَیْبَ فِیهٰا قُلْتُمْ مٰا نَدْرِی مَا السّٰاعَهُ إِنْ نَظُنُّ إِلاّٰ ظَنًّا وَ مٰا نَحْنُ بِمُسْتَیْقِنِینَ

.

التعبیر ب مٰا نَدْرِی مَا السّٰاعَهُ فی حین أنّ معنی القیامه لم یکن غامضا علیهم أو مبهما،و إن کان شک کلّ لدیهم ففی وجودها،ممّا یوحی بأنّهم کانوا فی موضع تکبر و عدم اهتمام،و لو کانت لدی هؤلاء روح تتبع الحق و طلبه لرأوا أنّ ماهیه یوم القیامه أمر واضح،کما أنّ الدلیل علیها بیّن جلی.و من هنا یتّضح الجواب عن سؤال طرح هنا،و هو:أنّ هؤلاء إنّ کانوا-حقا-فی شکّ الأمر،فلا تثریب علیهم و لا إثم؟لکن الشک لم یکن ناشئا من عدم وضوح الحق،بل ناتج عن الکبر و الغرور و العناد التعصب.

و یحتمل أیضا أن یکون هدفهم من تهافت کلامهم و تناقضه السخریه و الاستهزاء.

و تتحدث الآیه التالیه عن جزاء هؤلاء و عقابهم،ذلک الجزاء الذی لا یشبه عقوبات المحاکم الدنیویه،فتقول: وَ بَدٰا لَهُمْ سَیِّئٰاتُ مٰا عَمِلُوا فستتجسد القبائح و السیئات أمام أعینهم،و تتّضح لهم،و تکون لهم قرینا دائما یتأذون من وجوده إلی جانبهم و یتعذبون من صحبته: وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا کٰانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ (1) .

و الأشد ألما من کلّ ذلک هو الخطاب الذی یخاطبهم به اللّه الرحمن الرحیم، فیقول سبحانه: وَ قِیلَ الْیَوْمَ نَنْسٰاکُمْ کَمٰا نَسِیتُمْ لِقٰاءَ یَوْمِکُمْ هٰذٰا .

ص:233

1- (1) -«حاق»من ماده(حوق)،و هی فی الأصل بمعنی الورود،و النّزول،و الإصابه،و الإحاطه.و قال البعض:إنّ أصلها(حق)-بمعنی التحقیق-فأبدلت القاف الأولی إلی واو،ثمّ إلی ألف.

لقد ورد هذا التعبير بصيغ مختلفه فی القرآن الکریم مرارا،ففی الآیه(۵۱)من سوره الأعراف: فَالْیَوْمَ نَنْساهُمْ کَما نَسُوا لِقاءَ یَوْمِهِمْ هذا .

و جاء هذا المعنی أیضا بأسلوب آخر فی الآیه(۱۴)من سوره ألم السجده.

لا شک أنّ النسیان لا معنی له بالنسبه إلی اللّه سبحانه الذی یحیط علمه بکلّ عالم الوجود،لکنّه هنا کنایه لطیفه عن احتقار الإنسان المجرم العاصی و عدم الاهتمام به،و یلاحظ هذا التعبیر حتی فی محادثاتنا الیومیه،فنقول:انس فلانا الذی لا وفاء له،أی عامله کإنسان منسی،و لا تمنحه المحبه و العطف و الوداد، و اترک تفقد أحواله،و لا تذهب إلیه أبدا.

ثمّ إنّ هذا التعبیر تأکید آخر-بصوره ضمنیه-علی مسأله تجسم الأعمال، و تناسب الجریمه و العقاب،لأنّ نسیانهم یوم القیامه فی الدنیا یؤدی إلی أن ینساهم اللّه یوم القیامه،و ما أعظم مصیبه نسیان اللّه الرحمن الرحیم لفرد من الأفراد،و حرمانه من جمیع ألطافه و مننه.

و ذکر المفسّرون هنا تفاسیر مختلفه للنسیان تتلخص جمیعا فی المعنی المذکور أعلاه،و لذلک لا نری حاجه لتکرارها.

ثمّ إنّ المراد من نسیان لقاء یوم القیامه،نسیان لقاء کلّ المسائل و الحوادث التی تقع فی ذلک الیوم،سواء الحساب أم غیره،حیث کانوا ینکرونها.

و یحتمل أیضا أن یکون المراد نسیان لقاء اللّه سبحانه فی ذلک الیوم،لأنّ یوم القیامه قد وصف فی القرآن المجید بیوم لقاء اللّه،و المراد منه الشهود الباطنی.

و تتابع الآیه الحدیث،فتقول: وَ مَأْواکُمُ النّارُ و إذا کنتم تظنون أنّ أحدا سیهب لنصرتکم و غوثکم،فاقطعوا الأمل من ذلک،و اعلموا أنّه وَ ما لَکُمْ مِنْ ناصِرِینَ .

أمّا لماذا ابتلیتم بمثل هذا المصیر؟ف ذلِکُمْ بِأَنَّکُمُ اتَّخَذْتُمْ آیاتِ اللّهِ هُزُواً وَ غَرَّتْکُمُ الْحَیاهُ الدُّنْیا .

و أساسا فإنّ«الغرور»و«الاستهزاء»لا ینفصلان عن بعضهما عاده،فإنّ الأفراد

المغرورين و المتكبرين الذين ينظرون إلى الآخرين بعين الاحتقار يتخذونهم هزوا و يسخرون منهم،و مصدر الغرور فی الواقع هو متاع الدنيا و قدرتها و ثروتها الزائله المؤقته،و التی تدع الأفراد الضيقی الصدور فی غفله تامه لا يعيرون معها لدعوه رسل اللّه أدنی اهتمام،و لا يكلفون أنفسهم حتی النظر فيها للوقوف علی صوابها من عدمه.

و تكرر الآيه ما ورد فی الآيه السابقه و تؤكّده بأسلوب آخر،فتقول:

فَالْيَوْمَ لاٰ يُخْرَجُونَ مِنْهٰا وَ لاٰ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ

(١)

،فقد كان الكلام هناك عن مأواهم و مقرهم الثابت،و الكلام هنا عن عدم خروجهم من النّار..حيث قال هناك:ما لهم من ناصرين،و هنا يقول: لا يقبل منهم عذر،و النتيجه هی أنّ لا سبيل لنجاتهم.

و فی نهايه هذه السوره،و لإكمال بحث التوحيد و المعاد،و الذی كان يشكل أكثر مباحث هذه السوره،تبيّن الآيتان الأخيرتان وحده ربوبيه اللّه و عظمته، و قدرته و حكمته،و تذكر خمس صفات من صفات اللّه سبحانه فی هذا الجانب، فتقول أولا: فَلِلّٰهِ الْحَمْدُ لأنه رَبِّ السَّمٰاوٰاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ .

«الرّب»بمعنى المالك و المدبر،و الحاكم و المصلح،و بناء علی هذا فكلّ خير و بركه تأتی منه سبحانه و لذلك،ترجع إليه كلّ المحامد و الثناء،فحتی الثناء علی الورد،و صفاء العيون،و عذوبه النسيم،و جمال النجوم،حمد له و ثناء عليه،فإنّها جميعا تصدر عنه،و تنمو بفضله و رعايته.

و الطريف أنّه يقول مرّه:ربّ السماوات،و أخری:ربّ الأرض،و ثالثه:ربّ عالم الوجود و العالمين،ليفند الإعتقاد بالآلهه المتعدده التی جعلوها للموجودات المختلفه،و يدعو الجميع إلی توحيد اللّه سبحانه و الإعتقاد بأحديته.

و بعد وصف ذاته المقدسه بمقام الحمد و الربوبيه،تضيف الآيه فی الصفه الثالثه:

وَ لَهُ الْكِبْرِيٰاءُ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ

لأنّ آثار عظمته ظاهره فی السماء

١- ١) -أعطينا التوضيح اللازم حول معنی(يستعتبون)و أصلها فی ذيل الآيه(٥٧)من سوره الروم.

المترامیه الأطراف،و الأرض الواسعه الفضاء،و فی کلّ زاویه من زوایا العالم.

لقد کان الکلام فی الآیه السابقه عن مقام الربوبیه،أی کونه تعالی مالکا لأمور عالم الوجود و مدبرا لها،و الکلام هنا عن عظمته،فکلما دققنا النظر فی خلق السماء و الأرض و تأملناه،سنزداد معرفه بهذه الحقیقه،و تزداد بصیرتنا بها.

و أخیرا تقول الآیه فی الوصفین الرابع و الخامس: وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ و بذلک تکمل مجموعه العلم و القدره و العظمه و الربوبیه و المحمودیه،و التی هی مجموعه من أهم صفات اللّه،و أسمائه الحسنی.

و لعلها تشیر إلی أن:له الحمد فاحمدوه،و هو الرب فاشکروا له،و له الکبریاء فکبروه،و هو العزیز الحکیم فأطیعوه.

و بوصف اللّه سبحانه بالعزیز و الحکیم تنتهی سوره الجاثیه کما بدأت بهما،و کل محتواها و ما تضمنته شاهد علی عزّه اللّه سبحانه و حکمته السامیه.

اللّهمّ،إنا نقسم علیک بکبریائک و عظمتک،و بمقام ربوبیتک،و عزتک و حکمتک،تثبت أقدامنا فی طریق طاعه أوامرک.

اللّهمّ،إنّ کلّ حمد و ثناء نؤدیه فبتوفیق منک، و کلّ ما لدینا من برکاتک و ألطافک،فأدم اللّهمّ هذه النعم و زدها علینا.

إلهنا:نحن غارقون فی بحر إحسانک و کرمک،فوفقنا لأداء شکرک.

آمین یا ربّ العالمین.

نهایه سوره الجاثیه ***

بدایه الجزء السّادس و العشرون من القرآن الکریم

سوره الأحقاف

اشاره

مکیّه و عدد آیاتها خمس و ثلاثون آیه

ص :۲۳۷

سوره الأحقاف

محتوى السوره:

هذه السوره من السور المكيه-و إن كان جمع من المفسّرين ذهبوا إلى أنّ بعض آياتها قد نزلت فی المدينه،و سنبحث ذلک فی شرح تلک الآيات إن شاء اللّه تعالى -و لما كان زمان نزولها و ظروفه زمان مواجهه الشرک،و الدعوه إلى التوحيد و المعاد و مسائل الإسلام الأساسيه،فإنها تتحدث حول هذه الأمور،و تدور حول هذه المحاور.

و يمكن القول باختصار،أنّ هذه السوره تتابع الأهداف التاليه:

۱-بيان عظمه القرآن.

۲-محاربه كلّ أنواع الشرک و الوثنيه بشكل قاطع.

۳-توجيه الناس إلى مسأله المعاد و محكمه العدل الإلهى.

۴-إنذار المشركين و المجرمين من خلال بيان جانب من قصه قوم عاد،الذين كانوا يسكنون أرض«الأحقاف»،و منها أخذ اسم هذه السوره.

۵-الإشاره إلى سعه دعوه نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و كونها عامّه تتخطى حتى حدود البشر،أى إنّها تشمل طائفه الجن أيضا.

۶-ترغيب المؤمنين و ترهيب الكافرين و إنذارهم،و إيجاد دوافع الخوف و الرجاء.

۷-دعوه نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى التحلی بالصبر و الاستقامه الى أبعد الحدود،

و الاقتداء بسيره الأنبياء الماضين.

فضل هذه السوره:

ورد فى حديث عن النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى فضل هذه السوره: «من قرأ سوره الأحقاف أعطى من الأجر بعدد كلّ رمل فى الدنيا عشر حسنات،و محى عنه عشر سيئات،و رفع له عشر درجات» (۱) .

و لما كانت«الأحقاف»جمع حقف،و هى الكثبان الرمليه التى تتجمع على هيئات مختلفه،مستطيله و متعرجه نتيجه هبوب الرياح فى الصحارى،و كان يقال لأرض قوم عاد«الأحقاف»لأنّها كانت حصباء على هذه الشاكله،فإنّ تعبير الحديث أعلاه ناظر إلى هذا المعنى.

و من البديهى أنّ كلّ هذه الحسنات و الدرجات لا تمنح لمجرّد التلاوه اللفظيه، بل التلاوه البناءه المؤديه إلى السير فى طريق الإيمان و التقوى،و لمحتوى سوره الأحقاف هذا الأثر حقّا إذا كان الإنسان طالب حقيقه و مستعدا للعمل و التطبيق.

و

جاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من قرأ كلّ ليله أو كلّ جمعه سوره الأحقاف لم يصبه اللّه عزّ و جلّ بروعه فى الحياه الدنيا،و آمنه من فزع يوم القيامه إن شاء» (۲) .

***

۱- ۱) -تفسير مجمع البيان،بدايه سوره الأحقاف.

۲- ۲) -تفسير مجمع البيان،و نور الثقلين بدايه سوره الأحقاف.

الآيات [سوره الأحقاف (۴۶): الآيات ۱ الى ۳]

اشاره

بِسْمِ اَللّهِ اَلرَّحْمنِ اَلرَّحِيمِ حم (۱) تَنْزِيلُ اَلْكِتابِ مِنَ اَللّهِ اَلْعَزِيزِ اَلْحَكِيمِ (۲) ما خَلَقْنَا اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلاّ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا عَمّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (۳)

التّفسير

اشاره

خلق هذا العالم على أساس الحق:

هذه السوره هى آخر سوره تبدأ ب حم و تسمى جميعا الحواميم.

و قد كانت لنا بحوث كثيره حول الحروف المتقطعه بعامه،و(حم)بخاصه،فى بدايات سور البقره و آل عمران و الأعراف سور الحواميم السابقه، فلا حاجه لتكرارها هنا.

و نكتفى هنا بالقول بأنّ هذه الآيات التى تهزّ الأعماق،و تحرك الوجدان،و التى تضمنها القرآن الكريم بين دفتيه تتكون من حروف الهجاء البسيطه،من الألف و الباء،و الحاء و الميم و أمثالها،و كفى بها دليلا على عظمه اللّه سبحانه إذ أظهر هذا المركّب العظيم من مثل هذه المفردات البسيطه،و لو تأملنا فيه كثيرا،و فكرنا فى أسراره حتى القيامه فسيبقى فيه من الأسرار الخافيه الكثير الكثير.

و ربّما كان هذا هو السبب فى أن تضيف الآيه مباشره: تَنْزِيلُ الْكِتٰابِ مِنَ اللّٰهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ .

إنّه نفس التعبير الذى ورد فى بدايه ثلاث سور من الحواميم،و هى:المؤمن، و الجاثيه،و الأحقاف.

و لا شكّ فى الحاجه إلى قوّه لا تقهر،و حكمه لا حد لها،لكى تنزل مثل هذا الكتاب.

ثمّ تحولت الآيات من كتاب التدوين إلى كتاب التكوين،فتحدثت الآيه عن عظمه السماوات و الأرض و كونهما حقا،فقالت: مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا إِلاّٰ بِالْحَقِّ فلا ترى فى كتاب سمائه كلمه تخالف الحق،و لا تجد فى مجموع عالم خلقه شيئا نشازا لا ينسجم و الحق،فالكل منسق منتظم،و كله مقترن بالحق.

لكن،كما أنّ لهذا الكون بدايه،فإنّ له نهايه أيضا،و لذلك تضيف الآيه: وَ أَجَلٍ مُسَمًّى فإذا حل الأجل ستفنى الدنيا بما فيها،و لما كان هذا العالم مقترنا بالحق و يسير ضمن منهجه،و له هدف مرجو،فمن الطبيعى أن يوجد عالم آخر تبحث فيه الأعمال و تعلن فيه النتائج،و بناء على هذا،فإنّ كون هذا العالم حقّا دليل بنفسه على وجود المعاد،و إلاّ فإنّه سيكون لغوا و عبثا لا فائده فيه،و سيقترن حين ذلك بكثير من المظالم و المفاسد.

لكن مع أنّ القرآن حق،و خلق العالم حق أيضا: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمّٰا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ فالآيات القرآنيه تهددهم و تنذرهم بصوره متلاحقه متواليه،و تحذرهم بأن محكمه عظمى أمامهم،هذا من جانب،و من جانب آخر فإنّ نظام الخلقه بدقته و أنظمته الخاصّه يدل بنفسه على أنّ فى الأمر حسابا و نظاما،غير أنّ هؤلاء الغافلين لم يلتفتوا لا إلى هذا و لا إلى ذلك.

كلمه«معرضون»-من الإعراض-تشير إلى أنّ هؤلاء إذا نظروا إلى آيات

التکوین و التدوین فسیدرکون الحقائق،إلاّ أنّهم أعرضوا بوجوههم عنها،و فروا من الحق لئلا یغیر من أسلوب تقالیدهم و أهوائهم و میولهم و شهواتهم و إتباعهم لها.

***

الآيات [سوره الأحقاف (۴۶): الآيات ۴ الى ۶]

اشاره

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ مٰا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ أَرُونِي مٰا ذٰا خَلَقُوا مِنَ اَلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ اِئْتُونِي بِكِتٰابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذٰا أَوْ أَثٰارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۴) وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مَنْ لاٰ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلىٰ يَوْمِ اَلْقِيٰامَةِ وَ هُمْ عَنْ دُعٰائِهِمْ غٰافِلُونَ (۵) وَ إِذٰا حُشِرَ اَلنّٰاسُ كٰانُوا لَهُمْ أَعْدٰاءً وَ كٰانُوا بِعِبٰادَتِهِمْ كٰافِرِينَ (۶)

التّفسير

اشاره

أضل الناس:

كان الكلام فى الآيات السابقه عن خلق السماوات و الأرض و أنّها جميعا من صنع اللّه العزيز الحكيم،و لازم ذلك أن لا يكون فى الكون إله سواه،لأنّ من له أهليه الألوهيه هو خالق العالم و مدبره،و هاتان الصفتان قد جمعتا فى الذات المقدسه.

و من أجل تكمله هذا البحث،تخاطب هذه الآيات النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و تقول: قُلْ

أَ رَأَيْتُمْ مٰا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَرُونِی مٰا ذٰا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْکٌ فِی السَّمٰاوٰاتِ

.

إذا کنتم تقرون بأنّ الأصنام لا دخل لها فی خلق الموجودات الأرضیه مطلقا، و لا فی خلق الشمس و القمر و النجوم و موجودات العالم العلوی،و تقولون بصراحه بأن اللّه هو خالقها جمیعا (1) ،فعلام تمدون أکفکم إلی الأصنام التی لا تضرّ و لا تنفع،و لا تسمع و لا تعقل،تستمدون منها العون فی حلّ معضلاتکم،و دفع البلاء عنکم،و استجلاب البرکات إلیکم؟ و إذا قلتم-علی سبیل الفرض-إنّها شریکه فی أمر الخلق و التکوین ف اِئْتُونِی بِکِتٰابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذٰا أَوْ أَثٰارَهٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ کُنْتُمْ صٰادِقِینَ .

و خلاصه القول،فإنّ الدلیل إمّا أن یکون نقلیا عن طریق الوحی السماوی،أو عقلیا منطقیا،أو بشهاده العلماء و تقریرهم،أمّا أنتم فلستم مستندین إلی الوحی و الکتاب السماوی فی دعواکم حول الأصنام،و غیر قادرین من طریق العقل علی إثبات اشتراکها فی خلق السماوات و الأرض و بالتالی إثبات کونها آلهه،و لم یرد أثر من أقوال العلماء الماضین ما یؤید رأیکم و یدعم اعتقادکم،و من هنا یتبیّن أنّ دینکم و معتقدکم لا یعدو کونه حفنه من الخرافات المستهجنه،و الأوهام الکاذبه.

بناء علی هذا،فإنّ جمله أَرُونِی مٰا ذٰا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ... إشاره إلی دلیل العقل،و جمله اِئْتُونِی بِکِتٰابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذٰا إشاره إلی الوحی السماوی،و التعبیر ب أَثٰارَهٍ مِنْ عِلْمٍ إشاره إلی سنن الأنبیاء الماضین و أوصیائهم،أو آثار العلماء السابقین (2) .و قد ذکر علماء اللغه و المفسّرون عدهّ معان لکلمه«أثاره»-علی وزن حلاوه-فمنها:بقیه الشیء،الروایه،العلامه.لکنّ الظاهر أنّها تعود إلی معنی واحد،

1- 1) -لقد ورد هذا المعنی فی أربع آیات من القرآن،و طالعوا تفصیلا أکثر حول هذا المطلب فی ذیل الآیه(25)من سوره الزخرف من التّفسیر الأمثل.

2- 2) -نقرأ فی حدیث روی عن الإمام الباقر علیه السّلام فی أصول الکافی فی تفسیر جمله(أو أثاره من علم)أنّه قال: «إنّما عنی بذلک علم أوصیاء الأنبیاء». نور الثقلین،المجلد 5،صفحه 9.

و هو الأثر الذی یبقی من الشیء و یدل علی وجوده.

و قد وردت مثل هذه المناظره و المحاکمه مع الوثنیین فی الآیه(۴۰)من سوره فاطر،حیث تقول: قُلْ أَ رَأَیْتُمْ شُرَکاءَکُمُ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَرُونِی مٰا ذٰا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْکٌ فِی السَّمٰاوٰاتِ أَمْ آتَیْنٰاهُمْ کِتٰاباً فَهُمْ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ یَعِدُ الظّٰالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاّٰ غُرُوراً .

و ممّا یلفت النظر أنّه یقول فی مورد الأرض: مٰا ذٰا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أمّا فی مورد السماء فیقول: أَمْ لَهُمْ شِرْکٌ فِی السَّمٰاوٰاتِ أی إنّ الکلام فی الموردین عن الاشتراک،لأنّ الشرک فی العباده یجب أن ینشأ من الشرک فی الخالقیه و تدبیر النشأه.

و هنا یطرح سؤال،و هو:إذا کان المشرکون یعتقدون-عاده-أنّ أمر الخلق مختص باللّه سبحانه،فلما ذا یطالبون بأحد هذه الأدله الثالثه؟ و یمکن الإجابه بأنّ هذه المطالبه موجهه إلی فئه قلیله بین عبده الأوثان، یحتمل أنّهم کانوا یقولون باشتراک الأصنام فی الخلق،أو أنّها طرحت علی سبیل الفرض،أی إنّکم إذا ظننتم یوما أنّ الأصنام شریکه فی خلق العالم،فاعلموا أن لا دلیل لکم علی ذلک،لا من النقل و لا من العقل.

بعد ذلک تبیّن الآیه التالیه عمق ضلاله هؤلاء المشرکین و انحرافهم،فتقول:

وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ یَدْعُوا مِنْ دُونِ اللّهِ مَنْ لاٰ یَسْتَجِیبُ لَهُ إِلیٰ یَوْمِ الْقِیٰامَهِ

و لا یقف الأمر عند عدم إجابتهم و حسب،بل إنّهم لا یسمعون کلامهم: وَ هُمْ عَنْ دُعٰائِهِمْ غٰافِلُونَ .

و یری بعض المفسّرین أنّ مرجع الضمیر فی هذه الآیه إلی الأصنام الجامده المیته،باعتبار أنّ أکثر آلهه مشرکی العرب کانت الأصنام.و اعتبره البعض إشاره إلی الملائکه و البشر الذین عبدوا من دون اللّه،لأنّ عبده الملائکه و الجن لم یکونوا قلّه بین العرب،و التعبیرات المختلفه لهذه الآیه،و المتناسبه مع ذوی العقول تؤید

هذا المعنى.

لكن لاـ مـانع من أن نفسـر الآـيه بمعناها الواسع،فتـدخل فيه كلّ هـذه المعبودات، سواء الحيه و الميته،العاقله و غير العاقله،فتكون التعابير متناسبه مع ذوى العقول من باب التغليب.

و عند ما تقول الآيه:إنّهم لا يجيبونهم إلى يوم القيامه،فإنّ ذلك لا يعنى أنّهم سيجيبونهم يوم القيامه-ما ظن البعض ذلك-بل إنّ هـذا التعبير متداول فى النفى المؤيد،كما نقول مثلا:لو أصـررت على فلان إلى يوم القيامه لما أقرضك،أى أنّه سوف لا يقوم بها العمل أبدا،لا أنّه سيلبى طلبك فى يوم القيامه.

و سـبب ذلـك معلوم أيضـا،لأـنّ كلّ سـعى و جهـد و تلبيه طلب و قضاء حاجه نافع فى هـذه الحياه الـدنيا،فإذا انتهت انتهى معها إمكان القيام بكلّ هذه الأعمال.

و الأشد أسفا من ذلك أنّه: وَ إِذا حُشِرَ النّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَ كانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ .

أمّـا المعبـودات من العقلاـء،فـإنّهم سـيهبون لإظهـار عـدائهم لهؤلاـء الضـالين، فالمسـيح عليه السّـلام يظهر اشـمئزازه و تنفره من عابـديه،و تتبرأ الملائكه منهم،بل و حتى الشـياطين و الجن تظهر عدم رضاها.و أمّا المعبودات التى لا عقل لها و لا حياه، فإنّ اللّه سبحانه سمحها العقل و الحياه لتنطق بالبراءه من هؤلاء العبده و تبدى غضبها عليهم.

لقـد ورد نظير هـذا المعنى فى آيـات القرآن الأخرى،و من جملتها الآيه(۱۴ من سوره فاطر،حيث تقول: إِنْ تَـدْعُوهُمْ لا يَسْـمَعُوا دُعاءَكُمْ وَ لَوْ سَـمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيامَهِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ . و كررت فى الآيات مورد البحث كلّ هذه المسائل بتفاوت يسير.

لكن كيف ينكر المعبودون عبـاده عابـديهم،و هى ممّـا لاـ ينكر؟ ربّمـا كـان ذلـك إشـاره إلى أنّهم كـانوا يعبـدون أهواءهم فى الحقيقه،و لم يكونوا

یعبدون تلک الآلهه،لأنّ أساس الوثنیه عباده الهوی.

و هنـا نکته تسـتحق الانتبـاه،و هی:إنّ عـداء المعبودین لعبـدتهم یوم القیـامه لم یرد التأکیـد علیه هنا فقط،بل نقرأ ذلک أیضا فی الآیه(۲۵)من سوره العنکبوت علی لسان إبراهیم علیه السّلام بطل التوحید و محطم الأصنام إذ یقول: وَ قالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثاناً مَوَدَّهَ بَیْنِکُمْ فِی الْحَیاهِ الدُّنْیا ثُمَّ یَوْمَ الْقِیامَهِ یَکْفُرُ بَعْضُکُمْ بِبَعْضٍ وَ یَلْعَنُ بَعْضُکُمْ بَعْضاً .

و جاء فی الآیه(۸۲)من سوره مریم: کَلاّ سَیَکْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَ یَکُونُونَ عَلَیْهِمْ ضِدًّا .

***

الآيات [سوره الأحقاف (۴۶): الآيات ۷ الی ۱۰]

اشاره

وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ هٰذٰا سِحْرٌ مُبِينٌ (۷) أَمْ يَقُولُونَ اِفْتَرٰاهُ قُلْ إِنِ اِفْتَرَيْتُهُ فَلاٰ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اَللّٰهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمٰا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ هُوَ اَلْغَفُورُ اَلرَّحِيمُ (۸) قُلْ مٰا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ اَلرُّسُلِ وَ مٰا أَدْرِي مٰا يُفْعَلُ بِي وَ لاٰ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ وَ مٰا أَنَا إِلاّٰ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۹) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كٰانَ مِنْ عِنْدِ اَللّٰهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرٰائِيلَ عَلىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اِسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يَهْدِي اَلْقَوْمَ اَلظّٰالِمِينَ (۱۰)

التّفسير

اشاره

لم أكن أوّل نبيّ!!

يستمر الحديث في هذه الآيات عن حال المشركين،و كيفيه تعاملهم مع آيات اللّه،فتقول: وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ قٰالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ هٰذٰا

سِحْرٌ مُبِينٌ

فهم لا يستطيعون إنكار نفوذ القرآن السريع فى القلوب،و جاذبيته التى لا تقاوم من جهه،و هم من جهه أخرى غير مستعدين لأن يخضعوا أمام عظمته و كونه حقّا،و لذلك فإنّهم يفسّرون هذا النفوذ القوى بتفسير خاطئ منحرف و يقولون:إنّه سحر مبين،و هذا القول-بحدّ ذاته-اعتراف ضمنى واضح بتأثير القرآن الخارق فى قلوب البشر.

بناء على هذا فإنّ«الحق»-فى الآيه المذكوره-إشاره إلى آيات القرآن،و إن كان البعض قد فسّرها بالنبوّه،أو الإسلام،أو معجزات النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم الأخرى،إلاّ أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب بملاحظه بدايه الآيه.

غير أنّ هؤلاء لم يكتفوا بإطلاق هذه التهمه و إلصاقها به،بل إنّهم تمادوا فخطوا خطوه أوسع،و أكثر صراحه: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ .

إنّ اللّه سبحانه يأمر نبيّه هنا بأن يجيبهم بجواب قاطع،و يعطيهم البرهان الجلي بأنّه قل لهم إذا كان كذلك فاللازم أن يفضحنى و لا تستطيعون الدفاع عنّى مقابل عقابه: قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللّهِ شَيْئاً (١) فكيف يمكن أن يظهر اللّه سبحانه هذه الآيات البينات و المعجزه الخالده على يد كذّاب؟إنّ هذا بعيد عن حكمه اللّه و لطفه.

و هذا كما ورد فى الآيات(۴۴)-(۴۷)من سوره الحاقه: وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ .

بناء على هذا،هل يمكن أن أقدم على مثل هذا العمل الخطير من أجلكم؟ و كيف تصدّقون أنّ بالإمكان أن أكذب مثل هذه الكذبه ثمّ يبقينى اللّه حيا،بل و يمنحنى معاجز أخر؟

۱- ۱) -جمله(إن افتريته)جمله شرطيه حذف جزاؤها،و التقدير:إن افتريته أخذنى و عاجلنى بالعقوبه.

ثمّ يضيف مهددا: هُوَ أَعْلَمُ بِمٰا تُفِيضُونَ فِيهِ (۱) و سيعاقبكم فى الوقت اللازم.

نعم،إنّه يعلم كلّ ما رميتمونى به من التهم،و أنّكم وقفتم بوجه رسوله،و كنتم تصدون الناس عن الإيمان بالحق بنفثكم السموم بينهم.

ثمّ يقول فى الجمله التاليه كتأكيد أكبر مقترن بتعامل مؤدب جدّا: كَفىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ فهو يعلم صدق دعوتى،و سعيى و جهدى فى إبلاغ الرساله، كما يعلم كذبكم و افتراءكم و العوائق التى تضعونها فى طريقى،و هذا كاف لى و لكم.

و من أجل أن يدلهم على طريق الرجوع إلى الحق،و يعلمهم بأنّه مفتوح إن أرادوا العوده،يقول: وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ فهو يعفو عن التائبين و يغفر لهم، و يدخلهم فى رحمته.

و يضيف فى الآيه التاليه: قُلْ مٰا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَ مٰا أَدْرِي مٰا يُفْعَلُ بِي وَ لاٰ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّٰ مٰا يُوحىٰ إِلَيَّ وَ مٰا أَنَا إِلاّٰ نَذِيرٌ مُبِينٌ .

إنّ هذه الجمل الوجيزه الغنيه المحتوى تجيب عن كثير من إشكالات المشركين،و من جملتها أنّهم كانوا يتعجبون أحيانا-فى مسأله بعثه النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم- كيف يمكن أن يتصل إنسان باللّه و يرتبط به؟ و أحيانا كانوا يقولون:لماذا يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق؟ و تاره كانوا يطلبون معاجز عجيبه غريبه،و كان كلّ منهم يتمنى شيئا.

و كانوا يظنون أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم مستودع لعلم الغيب،فيطلبون منه أن يخبرهم بكلّ حوادث المستقبل.

و أخيرا فإنّهم كانوا يعجبون أحيانا من دعوته لنبذ الآلهه و التوجّه إلى عباده اللّه

۱- ۱) -«ما»فى جمله(ما تفيضون فيه)يمكن أن تكون موصوله،و تعنى التهم غير الصحيحه،و التى كان يعلمها النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و بناء على هذا فإنّ ضمير(فيه)يعود إليها.و إن كانت مصدريه فإنّ الضمير(فيه)يعود إلى القرآن أو إلى الحق،و هنا تكون (تفيضون)بمعنى الدخول فى عمل ما بقصد الإفساد و التخريب.

و توحیده.

و هذه الآیه إشاره إجمالیه إلی أجوبه جمیع هذه الأسئله،و قطع لکلّ تلک الأعذار الواهیه.

یقول النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنا لست أوّل نبیّ دعا إلی التوحید،فقد جاء قبلی أنبیاء کثیرون کلهم کانوا بشرا،و کانوا یلبسون الثیاب و یأکلون الطعام،و لم یدّع أحد منهم أنّه یعلم الغیب المطلق،بل کانوا یقولون:إنّنا نعلم من أمور الغیب ما یعلمنا اللّه إیّاه فقط.

و لم یستسلم أحد منهم أمام المعاجز التی کان یقترحها الناس،و التی کانت تقوم علی أساس الرغبه و المیول.

کل ذلک لیعلم الجمیع أنّ النّبی أیضا عبد من عباد اللّه،و علمه و قدرته محدوده بما یریده اللّه سبحانه و یمنحه،فإنّ العلم المطلق و القدره المطلقه للّه جلّ و علاء و حسب.

هذه الحقائق کان یجب علی الناس أن یعلموها و یدرکوها،لینتهوا من إشکالاتهم الجوفاء.

کل ذلک ورد بعد البحث الذی مرّ فی الآیات السابقه،حیث کانوا یرمون النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بالسحر مرّه،و بالافتراء أخری،لیعلم أنّ منبع هذه الاتهامات و مصدرها هو تلک الأوهام التی أجیب عنها فی هذه الآیه.

و من هنا یتّضح أن مفاد هذه الآیه لا یتنافی مع الآیات الأخری التی توحی بأنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم یعلم الغیب،کالذی ورد فی سوره الفتح حول فتح مکّه و دخول المسجد الحرام-الآیه ۲۷ من سوره الفتح-أو ما ورد فی شأن المسیح علیه السّلام حیث یقول: أُنَبِّئُکُمْ بِمٰا تَأْکُلُونَ وَ مٰا تَدَّخِرُونَ فِی بُیُوتِکُمْ (۱) ،و أمثال ذلک،لأنّ الآیه مورد البحث تنفی علم الغیب المطلق،لا مطلق علم الغیب،و بتعبیر آخر،فإنّ الآیه

۱- ۱) -آل عمران،الآیه ۴۹.

تنفی علم الغیب الاستقلالی،أمّا تلک الآیات فتتحدث عن علم الغیب الذی ینال ببرکه التعلیم الإلهی.

و الشاهد علی هذا الکلام الآیتان(۲۶)-(۲۷)من سوره الجن: عٰالِمُ الْغَیْبِ فَلاٰ یُظْهِرُ عَلیٰ غَیْبِهِ أَحَداً إِلاّٰ مَنِ ارْتَضیٰ مِنْ رَسُولٍ .

و قد ذکر بعض المفسّرین سبب نزول للآیه مورد البحث،فقالوا:إنّ عبء المشاکل و ضغطها لما زاد علی أصحاب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی مکّه،رأی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی المنام أنّه یهاجر إلی أرض ذات نخیل و أشجار و ماء کثیر،فذکر ذلک لأصحابه، ففرحوا لذلک و ظنّوا أنّهم سیرون فرجا وسعه بعد أذی المشرکین،فصبروا مدّه فلم یروا أثرا لذلک،فقالوا:یا رسول اللّه،لم نر ما أخبرتنا به،فمتی سنهاجر إلی تلک الأرض التی رأیتها فی منامک؟فسکت النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فنزلت هذه الآیه: وَ مٰا أَدْرِی مٰا یُفْعَلُ بِی وَ لاٰ بِکُمْ (۱) .

إلاّ أنّ سبب النّزول هذا یبدو بعیدا،لأنّ المخاطبین فی هذه الآیات أعداء النّبی لا أصحابه،لکن یمکن أن یکون هذا من باب التطبیق،أی أنّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم تمسّک بهذه الآیه و أجاب بها أصحابه حینما طرحوا هذا السؤال.

و تضیف آخر آیه من هذه الآیات،و لتکمله ما ورد فی الآیات السابقه: قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کٰانَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَ کَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شٰاهِدٌ مِنْ بَنِی إِسْرٰائِیلَ عَلیٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اسْتَکْبَرْتُمْ إِنَّ اللّٰهَ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الظّٰالِمِینَ (۲) .

و للمفسّرین أقوال فی الشاهد من بنی إسرائیل الذی شهد علی کون القرآن المجید حقّا...

قال البعض:إنّه موسی بن عمران علیه السّلام الذی أخبر فی عصره بظهور نبیّ الإسلام، و أعطی أوصافه و علاماته.

ص:۲۵۳

۱- ۱) -تفسیر الفخر الرازی،المجلد ۲۸،صفحه ۸.

۲- ۲) -جزاء الجمله الشرطیه:(إن کان من عند اللّه)محذوف،و تقدیره:(من أضل منکم).

إلّا أنّ هـذا الاحتمال غير صـحيح بملاحظه جمله: فَآمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ التى توحى بأنّ هـذا الشاهـد من بنى إسـرائيل قـد آمن بنبىّ الإسـلام صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم فى الوقت الذى اسـتكبر فيه المشركون و لم يؤمنوا،لأنّ ظاهر الجمله يوحى بأنّ هذا الشاهد كان موجودا فى عصر نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و آمن به،بينما اختار الآخرون طريق الاستكبار و الكفر.

و قـال آخرون:إنّه كان رجلا من علماء أهل الكتاب،كان يحيا فى مكّه. و مع أنّ أنصار الـدين اليهودى و المسـيحى كانوا قله فى مكّه،لكن لا يعنى هـذا أنّ أحـدا منهم لم يكن فيها،و مع ذلك فلا يعرف من كان هذا العالم من بنى إسـرائيل؟و ما هو اسـمه؟ و هـذا التّفسـير باطـل منهم أيضا لأنّه لم يكن هناك عالم معروف من أهل الكتاب فى مكّه فى عصـر ظهور النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم،و لم تذكر التواريخ اسما له (۱) .

طبعا،يمتاز هذا التّفسير و الذى قبله بأنّهما ينسجمان مع كون كلّ سوره الأحقاف مكيه.

و التّفسـير الثّالث الـذى ارتضاه أكثر المفسّـرين،هو أنّ هـذا الشاهـد كان«عبد اللّه بن سـلام»عالم اليهود المعروف،الذى آمن فى المدينه و التحق بصفوف المسلمين.

و

قد ورد-فى حديث- أنّ النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم انطلق حتى دخل كنيسه اليهود يوم عيدهم،فكرهوا دخوله عليهم،فقال لهم رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم:«يا معشـر اليهود أرونى اثنى عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله إلّا اللّه و أنّ محمّدا رسول اللّه،يحـط اللّه عن كلّ يهودى تحت أديم السـماء الغضب الـذى عليه»فسـكتوا فما أجابه منهم أحـد،ثمّ ردّ عليهم فلم يجبه أحـد ثلاثا،فقال:«أبيتم،فو اللّه لأنا الحاشـر،و أنا العاقب،و أن المقض،آمنتم أو كـذبتم»ثمّ انصـرف حتى كاد يخرج،فإذا رجل من خلفه، فقال:كما أنت يا محمّد فأقبل،فقال ذلك الرجل:أى رجل تعلمونى فيكم يا

ص :۲۵۴

۱- ۱) -التعبير هنا ب(شاهد)بصيغه النكره للتعظيم،و هو يوحى بأنّه كان شخصا معروفا عظيما.

معشر الیهود؟فقالوا:و اللّه ما نعلم فینا رجلا أعلم بکتاب اللّه و لا أفقه منک و لا من أبیک و لا من جدک،فقال:فإنّی أشهد باللّه إنّه النّبی الذی تجدونه مکتوبا فی التوراه و الإنجیل،قالوا:کذبت،ردوا علیه و قالوا شرّا،فقال رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم:«کذبتم،لن یقبل منکم قولکم»-و لم یکن هذا الرجل غیر عبد اللّه بن سلام-فنزلت الآیه:

قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کٰانَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ...

(۱)

.

و طبقا لهذا التّفسیر،فإنّ هذه الآیه نزلت فی المدینه بالرغم من أنّ السوره مکیّه،و هذا لیس منحصرا بالآیه مورد البحث،بل یلاحظ-أحیانا-فی سور القرآن الأخری وجود آیات مکیه فی طیات السور المدنیه و بالعکس،و هذا یبیّن أنّ النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان یأمر بوضع الآیه مع ما یناسبها من مفاد السوره من دون الالتفات إلی تاریخ نزولها.

و یبدو من جهات عدیده أنّ هذا التّفسیر هو الأنسب.

***

۱- ۱) -تفسیر المراغی،المجلد ۲۶،صفحه ۱۴.

الآيات [سوره الأحقاف (۴۶): الآيات ۱۱ الی ۱۴]

اشاره

وَ قالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هٰذا إِفْكٌ قَدِيمٌ (۱۱) وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسىٰ إِماماً وَ رَحْمَةً وَ هٰذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (۱۲) إِنَّ اَلَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اَللّٰهُ ثُمَّ اِسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۱۳) أُولٰئِكَ أَصْحابُ اَلْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۴)

سبب النّزول

ذکر المفسّرون أسباب نزول عدیده للآیه الأولی من هذه الآیات:

۱-إنّ هـذه الآیه نزلت فی«أبی ذر الغفاری»الـذی أسـلم فی مکّه،ثمّ تابعته فی الإیمان قبیلته-بنو غفار-و لما کانت قبیله بنی غفار من سکان البادیه و کانوا فقراء،قال کفار قریش-و کانوا أثریاء من أهل المدن-:لو کان الإسلام خیرا ما

ص :۲۵۶

سبقنا إليه غفار الحلفاء،فنزلت هذه الآيه و أجابتهم.

۲-كانت فی مكّه جاريه روميه يقال لها«زنيره» (۱) ،لبت دعوه النّبی صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى الإسلام،فقال زعماء قريش:لو كان ما جاء به محمّد خيرا ما سبقتنا إليه زنيره.

۳-إنّ جماعه من قبائل البوادی أسلموا قبل سكان مكّه،فقال أشراف مكّه:لو كان الإسلام خيرا ما سبقتنا إليه رعاه الإبل.

۴-إنّ جماعه من الرجال الطاهرين و الفقراء كبلال و صهيب و عمار،قد اعتنقوا الإسلام،فقال زعماء مكّه:أ يمكن أن يكون دين محمّد خيرا و يسبقنا إليه هؤلاء؟ ۵-إنّ عبد اللّه بن سلام و جماعه من أصحابه لما آمنوا،قال جماعه من اليهود:

لو كان دين محمّد خيرا ما سبقونا إليه (۲) .

و يمكن تلخيص أسباب النّزول الأربعه الأولى بالقول بأنّ الإسلام لاقى ترحيبا واسعا و امتدادا سريعا بين الطبقات الفقيره و سكان البوادی،و ذلک لأنّهم لم يكونوا يمتلكون منافع غير مشروعه لتهدد بالخطر،و لم يكن الغرور قد ركبهم و ملأ عقولهم،و قلوبهم أطهر من قلوب المترفين و متبعی الشهوات و الرغبات.

لقد عدّ الإقبال الواسع على الإسلام من قبل هذه الفئه،و الذی كان يشكل أقوى نقاط هذا الدين،نقطه ضعف كبيره من قبل المستكبرين فقالوا:أی دين هذا الذی يتبعه سكان البوادی و الفقراء و الحفاه و الجواری و العبيد؟إذا كان دينا مقبولا و معقولا فلا ينبغی أن يكون أتباعه من طبقه فقيره واطئه اجتماعيا،و نتخلف نحن أعيان المجتمع و أشرافه عن اتباعه.

و الطريف أنّ نمط التفكير المنحرف هذا من أكثر أنماط التفكير رواجا اليوم بين الأثرياء و المترفين فيما يتعلّق بالدين،حيث يقولون:إنّ الدين ينفع الفقراء و الحفاه،و كلّ منهما ينفع صاحبه و ينسجم معه،و نحن فی مستوى أسمى منه

۱- ۱) -كانت«زنيّره»بكسر الزای و تشديد النون من السابقات إلى الإسلام،و لذلک كان أبو جهل يؤذيها و يعذبها.

۲- ۲) -تفسير القرطبی،المجلد ۹،صفحه ۶۰۰۹.

و أعلى.

و قد أجاب القرآن هؤلاء جوابا شافيا كافيا سيّتضح فى تفسير هذه الآيات.

أمّا سبب النّزول الخامس الذى ذكر أعلاه،و القائل بأنّ المراد هو عبد اللّه بن سلام و أصحابه، فمع أنّه نقل عن أكثر المفسّرين على قول الطبرسى فى مجمع البيان،و القرطبى فى تفسيره،إلاّ أنّه يبدو بعيدا من جهتين:

الأولى:إنّ التعبير ب اَلَّذِينَ كَفَرُوا بصوره مطلقه يستعمل عاده فى مورد المشركين،لا فى أهل الكتاب و اليهود و النصارى.

و الأخرى:إنّ عبد اللّه بن سلام لم يكن رجلا مجهولات أو ضعيف الشخصيه بين اليهود ليقولوا فيه:إنّ الإسلام لو كان خيرا ما سبقنا هذا و أصحابه إليه.

***

التّفسير

اشاره

شرط الإنتصار الإيمان و الاستقامه:

تستمر هذه الآيات فى تحليل أقوال المشركين و أفعالهم،ثمّ تقريعهم و ملامتهم بعد ذلك،فتشير أوّلا إلى ما نطق به هؤلاء من كلام بعيد عن المنطق السليم،مبنىّ على أساس الكبر و الغرور،فتقول: وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كٰانَ خَيْراً مٰا سَبَقُونٰا إِلَيْهِ .(۱)

فما هؤلاء إلاّ حفنه من الفقراء الحفاه من سكان القرى،و العبيد الذين لا حظ لهم من العلم و المعرفه إلاّ القليل،فكيف يمكن أن يعلم هؤلاء الحق و أن يقبلوا عليه و نحن-أعيان المجتمع و أشرافه-فى غفله عنه؟

۱- ۱) -بحث المفسّرون كثيرا فى معنى«اللام»فى(الذين آمنوا)إلاّ أنّ أنسب الاحتمالات جميعا هو أن«اللام»بمعنى(فى) و بناء على هذا فإنّ معنى الجمله:إنّ الكافرين قالوا فى المؤمنين،و لا يأتى فى هذه الحاله إشكال من جهه كون فعل(سبقونا) للغائب.فى حين أنّ البعض قد اعتبر اللام لام التعليل!و قال آخرون(الذين آمنوا)هنا مخاطبون،و جمله(سبقونا)بمعنى سبقتمونا!

لقـد غفل هؤلاء عن أن العيب فيهم لا فى الإسـلام،فلو لا حجب الكبر و الغرور الملقاه على قلوبهم و لولا أنّهم سـكرى من خمره المال و الجاه و المقام،و لو لا أنّ غرورهم و تكبرهم يمنعهم من التحقيق فى أمر هـذا الـدين،إذن لا نجـذبوا بسـرعه الى الإسـلام كما انجذب الفقراء إليه.

و لذلک فإنّ الآيه تجيبهم فى نهايتها بهذا التعبير اللطيف: وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هٰذٰا إِفْكٌ قَدِيمٌ (۱) أى إنّ هؤلاء ما أرادوا أن يهتدوا بآيات القرآن،لا أن القصور فى قابليه القرآن على الهدايه.

و التعبير ب«الإفک القديم»شبيه بتهمه أخرى حكيت عنهم فى آيات القرآن الأخرى،إذ قالوا: أَسٰاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۲) .

جمله«سيقولون»بصيغه المضارع،تـدل على أنّهم كانوا يرمون القرآن بهـذه التهمه دائما،و كانوا يتخـذون هذا الاتهام غطاء لعدم إيمانهم.

ثمّ تطرقت الآيه إلى دليل آخر لإثبات كون القرآن حقا،و لنفى تهمه المشـركين إذ كانوا يقولون:هـذا إفک قـديم،فقالت:إنّ من علامات صـدق هذا الكتاب العظيم أنّ كتاب موسـى الذى يعتبر إماما أى قدوه للناس و رحمه قد أخبر عن هذا النبى و صـفاته.و هـذا القرآن أيضا كتاب منسـجم فى آياته و فيه العلائم المذكوره فى التوراه: وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتٰابُ مُوسىٰ إِمٰاماً وَ رَحْمَةً وَ هٰذٰا كِتٰابٌ مُصَدِّقٌ و إذا كـان الأـمر كـذلک،فكيف تقولون:هـذا إفـک قـديم؟ لقـد أكّـد القرآن فى آياته مرارا على أنّه مصـدق للتوراه و الإنجيل،أى إنّه يتفق مع العلامات و الصـفات التى وردت فى هذين الكتابين السـماويين حول نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قد كانت هذه العلامات دقيقه إلى الحد الذى يقول القرآن الكريم:

۱- ۱) -(إذ)فى هـذه الآيه ظرفيه،و يعتقـد البعض أنّها متعلقه(سـيقولون)،و يقولون:إنّ وجود الفاء غير مانع.إلاّ أنّ البعض الآخر-كالزمخشـرى فى الكشـاف-يرى أنّه بمـا أنّ الفعل بعـدها ماض،و(سـيقولون)فعل مضارع فلا يمكن أن يكون متعلقها،بل متعلقها محذوف،و التقدير:«و إذا لم يهتدوا به ظهر عنادهم»إلاّ أنّ الاحتمال الأوّل أكثر انسجاما مع معنى الآيه.

۲- ۲) -الفرقان،الآيه ۵.

اَلَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ يَعْرِفُونَهُ كَمٰا يَعْرِفُونَ أَبْنٰاءَهُمْ

(۱)

.

و قد ورد نظير معنى الآيه مورد البحث فى الآيه(۱۷)من سوره هود: أَ فَمَنْ كٰانَ عَلىٰ بَيِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شٰاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتٰابُ مُوسىٰ إِمٰاماً وَ رَحْمَهً أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ .

و التعبير ب إِمٰاماً وَ رَحْمَهً يحتمل أن يكون من جهه أن ذكر الإمام يستدعى أحيانا أن تخطر فى الذهن مسأله التكليف الشاق الصعب،نتيجه الذكريات التى كانت لديهم عن أئمتهم،إلاّ أنّ ذكر الرحمه يبدل هذا الخطور الذهنى إلى ما يبعث على الاطمئنان،فهو يقول:إنّ هذا الإمام توأم الرحمه و مقترن بها،فحتى إذا أتاكم بالتكاليف و الأوامر فهى رحمه أيضا،و أى رحمه أعم و أسمى من تربيه نفوس هؤلاء القوم؟! ثمّ تضيف بعد ذلك: لِسٰاناً عَرَبِيًّا يفهمه الجميع و يستفيدون منه.

ثمّ تبيّن فى النهايه الهدف الرئيسى من نزول القرآن فى جملتين قصيرتين، فتقول: لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرىٰ لِلْمُحْسِنِينَ و إذا لا حظنا أنّ جمله(ينذر) مضارعه تدل على الاستمرار و الدوام،فسيتّضح أنّ إنذار القرآن كبشارته دائمى مستمر،فهو يحذر الظالمين و المجرمين على مدى التأريخ و يخوفهم و ينذرهم، و يبشر المحسنين على الدوام.

و ممّا يلفت النظر أنّ الآيه جعلت الظالمين فى مقابل المحسنين لأنّ للظلم هنا معنى واسعا يشمل كلّ إساءه و مخالفه،و من الطبيعى أنّ الظلم إمّا بحق الآخرين أو بحق النفس.

و الآيه التاليه تفسير للمحسنين الذين ورد ذكرهم فى الآيه التى قبلها،فتقول:

إِنَّ الَّذِينَ قٰالُوا رَبُّنَا اللّٰهُ ثُمَّ اسْتَقٰامُوا فَلاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ

(۲)

.

۱- ۱) -البقره،الآيه ۱۴۶.

۲- ۲) -اَلَّذِينَ قٰالُوا رَبُّنَا اللّٰهُ مبتدأ،و جمله(لا خوف عليهم)خبره،و الفاء لا تأتى مع الخبر إلاّ فى الموارد التى يكون فى

لقد جمعت فی الواقع کلّ مراتب الإیمان،و کلّ الأعمال الصالحه فی هاتین الجملتین،لأنّ التوحید أساس کلّ المعتقدات الصحیحه،و کلّ أصول العقائد ترجع الی أصل التوحید.کما أنّ الاستقامه و الصبر و التحمل و الصمود أساس کلّ الأعمال الصالحه،لأنّنا نعلم أنّه یمکن تلخیص کلّ أعمال الخیر فی ثلاثه:«الصبر علی الطاعه»، و«الصبر عن المعصیه»،و«الصبر علی المصیبه».

و بناء علی هذا،فإنّ«المحسنین»هم السائرون علی خط التوحید من الناحیه العقائدیه،و فی خط الاستقامه و الصبر من الناحیه العملیه.

و من البدیهی أنّ أمثال هؤلاء الأفراد لا یخافون من حوادث المستقبل،و لا یغتمون لما مضی.

و قد ورد نظیر هذا المعنی-بتوضیح أکثر-فی الآیه(۳۰)من سوره فصلت حیث تقول: إِنَّ الَّذِینَ قٰالُوا رَبُّنَا اللّٰهُ ثُمَّ اسْتَقٰامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَیْهِمُ الْمَلاٰئِکَهُ أَلاّٰ تَخٰافُوا وَ لاٰ تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّهِ الَّتِی کُنْتُمْ تُوعَدُونَ .

إنّ هذه الآیه تضیف شیئین:

الأوّل:أنّهم بشروا بعدم الخوف و الحزن من قبل الملائکه،فی حین سکتت الآیه مورد البحث عن هذا.

و الثّانی:أنّه إضافه إلی نفی الخوف و الحزن عنهم،فقد وردت البشاره بالجنّه أیضا فی آیه سوره فصلت،فی حین أنّ هذه البشاره وردت فی الآیه اللاحقه فی محل کلامنا.

و علی أیه حال،فإنّ الآیتین تبحثان مطلقا واحدا،غایته أن أحداهما أکثر تفصیلا من الأخری.

و نقرأ فی تفسیر علی بن إبراهیم فی تفسیر جمله: إِنَّ الَّذِینَ قٰالُوا رَبُّنَا اللّٰهُ ثُمَّ اسْتَقٰامُوا قال:استقاموا علی ولایه علی أمیر المؤمنین علیه السّلام.و ذلک أنّ إدامه خط

۲)

الجمله مفهوم الشرطیه کالآیه مورد البحث.

أمیر المؤمنین علیه السّلام فی جوانب العلم و العمل،و العداله و التقوی،و خاصّه فی العصور المظلمه الحالکه،أمر لا یمکن تحققه بـدون الاسـتقامه،و بنـاء علی هـذا فـإنّه یعـد أحـد مصادیق الواضـحه للآیه مورد البحث،لا أنّ معناها منحصـر به،بحیث لا تشـمل الاستقامه فی الجهاد و طاعه اللّه سبحانه،و محاربه هوی النفس و الشیطان.

و قد أوردنا شرحا مفصلا حول مسأله الاستقامه فی ذیل الآیه(۳۰)من سوره فصلت (۱) .

و تبشـر آخر آیه من هذه الآیات الموحدین المحسـنین بأهم بشاره و أثمنها، فتقول: أُولٰئِکَ أَصْحٰابُ الْجَنَّهِ خٰالِدِینَ فِیهٰا جَزٰاءً بِمٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ .

إنّ ظاهر الآیه یعطی مفهوم الحصـر،کما اسـتفاد ذلک البعض،أی أنّ أصـحاب الجنّه هم أهل التوحید و الاستقامه فقط،أمّا الذین ارتکبوا المعاصی منهم،فإنّهم و إن کانوا فی النتیجه من أصحاب الجنّه،إلّا أنّهم لیسوا من أصحابها منذ بدایه الأمر.

التعبیر ب«الأصحاب»إشاره إلی اجتماعهم الدائم و تنعمهم الخالد بنعم الجنّه.

و تعبیر: جَزٰاءً بِمٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ یـدل من جهه علی أنّ الجنّه لا تمنح مجانا،بل إنّ لها ثمنا یجب أن یؤدی،و یشـیر من جهه أخری إلی أصل حریه الإنسان و اختیاره.

***

ص :۲۶۲

۱- ۱) -راجع التّفسیر الأمثل،سوره فصلت،الآیه ۳۰.

الآيات [سوره الأحقاف (۴۶): الآيات ۱۵ الى ۱۶]

اشاره

وَ وَصَّيْنَا اَلْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ كُرْهاً وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ اَلَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَ إِنِّي مِنَ اَلْمُسْلِمِينَ (۱۵) أُولئِكَ اَلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ نَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ اَلْجَنَّةِ وَعْدَ اَلصِّدْقِ اَلَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (۱۶)

التّفسير

اشاره

أيّها الإنسان أحسن إلى والديک:

هذه الآيات و التی تليها،توضيح-فی الحقيقه-لما يتعلق بالفريقين:الظالم و المحسن،اللذين أشير إليهما إجمالا فی الآيات السابقه.

و تتناول الآيه الأولى وضع المحسنين،و تبدأ بمسأله الإحسان إلى الوالدين

ص :۲۶۳

و شکر جهودهم و أتعابهم التی بذلوها،و الذی یعتبر مقدمه لشکر اللّه سبحانه، فتقول: وَ وَصَّیْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَیْهِ إِحْساناً (۱) .

«الوصیه»و«التوصیه»بمعنی مطلق الوصیه،و لا ینحصر معناها بالوصایا بما بعد الموت،و لذلک فسّرها جماعه هنا بأنّها الأمر و التشریع.

ثمّ تطرّقت إلی سبب وجوب معرفه حقّ الأمّ،فقالت: حَمَلَتْهُ أُمُّهُ کُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ کُرْهاً وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً تضحی خلالها الأم أعظم التضحیات،و تؤثر ولدها علی نفسها أیّما إیثار.

إنّ حاله الأم تختلف منذ الأیّام الأولی لانعقاد النطفه،فتتوالی علیها الصعوبات،و هناک حاله تسمی حاله(الوحام)هی أصعب الحالات التی تواجهها الأم،و یقول الأطباء عنها:إنّها تنشأ نتیجه قلّه المواد التی تحدث فی جسم الأم نتیجه إیثارها ولدها علی نفسها.

و کلما تکامل نمو الجنین امتص موادا أکثر من عصاره روح الأم و جسدها، تترک أثرها علی عظامها و أعصابها،فیسلبها أحیانا نومها و غذاءها و راحتها و هدوأها،أمّا فی آخر فتره الحمل فیصعب علیها حتی المشی و الجلوس و القیام، إلاّ أنّها تتحمل کلّ هذه المصاعب بصبر و رحابه صدر و عشق للولید الذی سیفتح عینیه علی الدنیا عمّا قریب،و یبتسم بوجه أمّه.

و تحل فتره وضع الحمل،و هی من أعسر لحظات حیاه الأم،حتی أنّ الأم أحیانا تبذل نفسها و حیاتها من أجل سلامه الولید.

علی کلّ حال،تضع الأم حملها الثقیل لتبدأ مرحله صعبه أخری،مرحله مراقبه الطفل المستمره لیل نهار...مرحله یجب أن تلبی فیها کلّ احتیاجات الطفل الذی

۱- ۱) -«التوصیه»تتعدی عاده بمفعولین،غایته أنّ المفعول الثّانی یقترن بالباء أو(الی)،و بناء علی هذا فإنّ(إحسانا)لا یمکن أن تکون المفعول الثّانی فی الجمله،إلاّ أن نعتبر(وصینا)بمعنی(ألزمنا)التی تتعدی بمفعولین دون حاجه إلی حرف جر،أو أن نقول:إنّ فی الآیه محذوفا،نقدره:و وصینا الإنسان بأن یحسن بوالدیه إحسانا،ففی هذه الحاله تکون(إحسانا)مفعولا مطلقا لفعل محذوف.

ليست لـديه أيه قـدره على بيانهـا و توضـيحها،فـإن آلمه شـيء لاـ يقـوى على تعيين محـل الأـلم،و إذا كـان يشـكو من الجوع و العطش،و الحر و البرد،فهو عاجز عن التعبير عن شـكواه،إلاّ بالصـراخ و الـدموع،و يجب على الأم أن تحـدد كلّ واحـده من هذه الاحتياجات و تؤمنها بتفحصها و صبرها و طول أناتها.

إنّ نظافه الوليد فى هذه المرحله مشكله مضنيه،و تأمين غذائه الذى يستخلص من عصاره الأم،إيثار كبير.

و الأمراض المختلفه التى تصيب الطفل فى هذه المرحله،مشكله أخرى يجب على الأم أن تتحملها بصبرها الخارق.

إنّ القرآن الكريم عند ما تحدّث عن مصاعب الأم هنا،و لم يورد شـيئا عن الأب،لا لأنّه لا أهميه للأب،فهو يشارك الأم فى كثير من هذه المشاكل،بل لأنّ سهم الأم من المصاعب أوفر،فلهذا أكّد عليها.

و هنـا يطرح سؤال،و هو:إنّ فتره الرضـاع ذكرت فى الآيه(٢٣٣)من سوره البقره على أنّها سـنتان كاملتان-٢۴-شهرا-: وَ الْوٰالِدٰاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كٰامِلَيْنِ لِمَنْ أَرٰادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضٰاعَةَ فى حين أنّ الآيه مورد البحث قـد ذكرت أنّ مجموع فتره الحمل و الرضاع ثلاثون شـهرا،فهل من الممكن أن تكون مدّه الحمل ستّه أشهر؟ لقد أجاب الفقهاء و المفسّرون،عن هذا السؤال-استلهاما من الرّوايـات الإسـلاميه-بالإيجاب و قالوا:إنّ أقل مـدّه الحمل سـته أشـهر،و أكثر مـدّه تفيـد فى الرضاع(٢۴)شـهرا،حتى نقل عن جماعه من الأطباء القدامى كجالينوس و ابن سينا أنّهم قالوا:إنّهم كانوا قد شاهدوا بأمّ أعينهم وليدا ولد سته أشهر.

ثـمّ إنّـه يمكـن أن يسـتفاد مـن هـذا التعـبير القرآنى أنّـه كلمـا قصـرت فـتره الحمـل يجب أن تطـول فـتره الرضـاع بحيث يكـون المجموع(٣٠)شهرا.

و قد نقل عن ابن عباس أنّ فتره الحمل إن كانت(٩)أشهر فيجب أن يرضع

الولد(۲۱)شهرا،و إن كان الحمل سته أشهر وجب أن يرضع الطفل(۲۴)شهرا.

و القانون الطبيعی یوجب ذلک أيضا.لأنّ نواقص فتره الحمل يجب أن تجبر بفتره الرضاع.

ثمّ تضيف الآیه:إنّ حياه هذا الإنسان تستمر حَتّی إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً (۱) .

یعتقد بعض المفسّرين أنّ بلوغ الأشد منسجم مع بلوغ الأربعين سنه،و هو للتأكيد،إلّا أنّ ظاهر الآیه هو أنّ بلوغ الأشد إشاره إلى البلوغ الجسمی،و بلوغ الأربعين سنه إشاره إلى البلوغ الفکری و العقلی،لأنّ من المعروف أنّ الإنسان يصل إلى مرحله الكمال العقلی فی سن الأربعين غالبا،و قالوا:إنّ أغلب الأنبياء قد بعثوا فی سن الأربعين.

ثمّ إنّ هناک بحثا فی أنّ بلوغ القدره الجسميه فی أی سن يتم؟فالبعض يعتبره سن البلوغ المعروف،و الذی أشير إليه فی الآیه(۳۴)من سوره الإسراء فی شأن اليتامى،فی حين صرّحت بعض الروايات بأنّه سن الثامنه عشره عاما.

طبعا،لا مانع من أن يعطی هذا التعبير معانی مختلفه فی موارد مختلفه تتّضح من خلال القرائن.

و

قد ورد فی حديث: «إنّ الشيطان يمر يده على وجه من زاد على الأربعين و لم يتب،و يقول:بأبی وجه لا يفلح» (۲) .

و نقل عن ابن عباس:من أتى عليه الأربعون سنه فلم يغلب خيره شرّه،فليتجهز إلى النّار.

و على أی حال،فإنّ القرآن الكريم يضيف فی متابعه هذا الحديث:إنّ الإنسان

۱- ۱) -(حتی)هنا غايه لجمله محذوفه،و التقدير:و عاش الإنسان و استمرت حياته حتى إذا بلغ أشدّه.و اعتبرها البعض غايه ل(وصينا)أو لمراقبه الوالدين لولدهما،و كلاهما يبدو بعيدا،إذ لا تنتهی توصيه اللّه سبحانه بالإحسان إلى الوالدين فی سن الأربعين،و لا تستمر مراقبه الوالدين لولدهما حتى يصل الأربعين.

۲- ۲) -تفسیر روح المعانی،المجلد ۲۶،صفحه ۱۷.

العاقل المؤمن إذا بلغ سن الأربعين،يطلب من ربّه ثلاث طلبات،فيقول أولا:

قٰالَ رَبِّ أَوْزِعْنِی أَنْ أَشْکُرَ نِعْمَتَکَ الَّتِی أَنْعَمْتَ عَلَیَّ وَ عَلیٰ وٰالِدَیَّ

(۱)

.

إنّ هذا التعبیر یوحی بأنّ الإنسان یدرک فی هذه السن عمق نعم اللّه سبحانه وسعتها،و کذلک یدرک ما تحمله أبواه من الجهود المضنیه حتی بلغ هذا المقدار من العمر،و ذلک لأنّه غالبا ما یصبح فی هذا العمر أبا إن کان ذکرا،و أمّا إن کانت أنثی، و یری بأم عینه کلّ تلک الجهود التی بذلت من أجله،و مدی الإیثار الذی آثره أبواه فی سبیله،و شکرا لسعیهما یتوجّه لا إرادیا لشکر اللّه سبحانه.

أمّا طلبه الثّانی فهو: وَ أَنْ أَعْمَلَ صٰالِحاً تَرْضٰاهُ .

و أخیرا یقدم طلبه الأخیر فیقول: وَ أَصْلِحْ لِی فِی ذُرِّیَّتِی .

إنّ التعبیر ب(لی)یشیر ضمنیه إشاره إلی أنّه یرجو أن یکون أولاده فی وضع من الصلاح و الخیر بحیث تعود نتائجه و حسناته علیه.

و التعبیر ب(فی ذریتی)بصوره مطلقه،یشیر الی استمرار الخیر و الصلاح فی کلّ نسله و ذریته.

و الطریف أنّه یشرک أبویه فی دعائه الأوّل،و أولاده فی الدعاء الثالث،أمّا الدعاء الثّانی فیخص نفسه به،و هکذا یکون الإنسان الصالح،فإنّه إذا نظر إلی نفسه بعین،ینظر بالأخری إلی الآخرین الذین تفضلوا علیه و لهم حق فی رقبته.

و تبیّن الآیه فی نهایتها مطلبین،کلّ منهما تبیان لبرنامج عملی مؤثر،فتقول:

إِنِّی تُبْتُ إِلَیْکَ

فقد بلغت مرحله یجب أن أعین فیها مسیر حیاتی،و أسیر فی ذلک الخط ما حییت.

نعم،لقد بلغت الأربعین،و یقبح بعبد مثلی أن یأتیک و لم یغسل نفسه بماء التوبه، و لم یطهرها بالعوده إلی طریق ربّه و یقرع باب رحمته.

و الآخر: وَ إِنِّی مِنَ الْمُسْلِمِینَ .

۱- ۱) -«أوزعنى»من ماده(الإيزاع)التى وردت بعدّه معان:الإلهام،و المنع من الانحراف،و إيجاد العشق و المحبه،و التوفيق.

إنّ هـاتين الجملتين تأكيـد لتلك الأدعيه الثلاثه و مترتبه عليها،و معناهما:بما إنّى تبت إليك،و أسـلمت لأوامرك،فأنت أيضا منّ عليّ برحمتك،و اشملنى بنعمك و فضلك.

و الآـيه التـاليه،بيـان بليغ لأـجر هؤلاـء المؤمنين الشـاكرين و ثوابهم،و قـد أشـارت إلى مكافآت مهمّه ثلاث، فقالت أوّلا: أُولٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مٰا عَمِلُوا .

أى بشـاره أعظم من أن يتقبـل اللّه القـادر المنـان عمـل عبـد ضـعيف لا قـدر له،و هـذا القبول بحـدّ ذاته،و بغض النظر عن آثاره الأخرى،فخر عظيم،و موهبه معنويه عاليه.

إنّ اللّه سـبحانه يتقبـل كـلّ الأعمـال الصـالحه،فلمـا ذا يقـول هنـا: نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مٰا عَمِلُوا ؟ و فى معرض الإجـابه على هـذا السؤال،قـال جمع من المفسّـرين:إنّ المراد من أحسن الأعمـال:الواجبـات و المسـتحبات التى تكون فى مقابل المباحات التى هى أعمال حسنه لكنّها لا تقع موقع القبول،و لا يتعلق بها أجر و ثواب (۱) .

و الجواب الآـخر:إنّ اللّه سـبحانه يجعـل أحسـن أعمـال هؤلاـء معيـارا للقبـول، و حـتى أعمـالهم الـتى تـأتى فى مرتبه أدنى من الأـهميه،فـإنّه يجعلهـا كأحسن الأعمال بفضـله و رحمته.إنّ هـذا يشـبه تماما أن يعرض بائع أجناسا مختلفه بأسـعار متفاوته،إلاّ أنّ المشترى يشتريها جميعا بثمن أعلاها و أفضلها تكرما منه و فضلا، و مهما قيل فى لطف اللّه و فضله فليس عجبا.

و الهبه الثّانيه هى تطهيرهم،فتقول: وَ نَتَجٰاوَزُ عَنْ سَيِّئٰاتِهِمْ .

و الموهبه الثّالثه هى أنّهم فِي أَصْحٰابِ الْجَنَّهِ (۲) ،فيطهرون من الهفوات التى

۱- ۱) -الطبرسى فى مجمع البيان،و العلاّمه الطباطبائى فى الميزان،و الفخر الرازى فى التّفسير الكبير،و غيرهم فى ذيل الآيه مورد البحث.

۲- ۲) -(فى أصحاب الجنّه)متعلق بمحذوف هو حال لضمير(هم)و التقدير:حال كونهم موجودين فى أصحاب الجنّه.

كانت منهم،و يكونون فى جوار الصالحين المطهرين المقربين عند اللّه سبحانه.

و يستفاد بصوره ضمنيه من هذا التعبير أنّ المراد من أَصْحابِ الْجَنَّهِ هنا العباد المقرّبون الذين لم يصبهم غبار المعاصى،و هؤلاء المؤمنون التائبون يكونون فى مصافهم بعد أن ينالوا غفران اللّه و رضاه.

و تضيف الآيه فى نهايتها-كتأكيد على هذه النعم التى مرّ ذكرها- وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كانُوا يُوعَدُونَ (۱) و كيف لا يكون وعد صدق فى حين أنّ خلف الوعد أمّا أن يكون عن ندم أو جهل،أم عن ضعف و عجز،و اللّه سبحانه منزه عن هذه الأمور جميعا.

***

ملاحظات

۱-إنّ هذه الآيات تجسيد للإنسان المؤمن من أصحاب الجنّه،الذى يطوى أوّلا مرحله الكمال الجسمى،ثمّ مرحله الكمال العقلى،ثمّ يصل إلى مقام شكر نعم اللّه تعالى،و شكر متاعب والديه،و التوبه عمّا بدر منه من هفوات و سقطات و معاص،و يهتم أكثر بالقيام بالأعمال الصالحه،و من جملتها تربيه الأولاد،و أخيرا يرقى إلى مقام التسليم المطلق للّه تعالى و لأوامره،و هذا هو الذى يغمره فى رحمه اللّه و مغفرته و نعمه المختلفه التى لا تحصى.

نعم،ينبغى أن يعرف أهل الجنّه من هذه الصفات.

۲-إنّ التعبير ب وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ إشاره إلى أنّ مسأله الإحسان إلى الوالدين من الأصول الإنسانيه،ينجذب إليها و يقوم بها حتى أولئك الذين لا يلتزمون بدين أو مذهب،و بناء على هذا،فإنّ الذين يعرضون عن أداء هذه الوظيفه،و يرفضون القيام بهذا الواجب،ليسوا مسلمين حقيقيين،بل لا يستحقون اسم الإنسان.

۱- ۱) -(وعد الصدق)مفعول مطلق لفعل محذوف،و التقدير:يعدهم وعد الصدق الذى كانوا يوعدون بلسان الأنبياء و الرسل.

۳-إنّ التعبير ب«إحسانا»و بملاحظه أنّ النكره فی هذه الموارد لبيان عظمه الأمر و أهميته،و يشير إلى أنّه يجب-بأمر اللّه سبحانه-الإحسان إلى الأبوين إحسانا جميلا مقابله لخدماتهم الجليله التی أسدوها.

۴-لأنّ آلام و معاناه الأم فی طريق تربيه الطفل محسوسه و ملموسه أكثر،و لأنّ جهود الأم أكثر أهميه إذا ما قورنت بجهود الأب،كان التأكيد أكثر على قدر الأم فی الرّوايات الإسلاميه.

فقد ورد فی حديث أنّ رجلا أتى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قال:من أبر؟قال:«أمّك»، قال:ثمّ من؟قال:«أمّك»،قال:ثمّ من؟قال:«أمّك»،قال:ثمّ من؟قال:«أباك» (۱) .

و

جاء فی حديث آخر ،أنّ رجلا كان قد حمل أمّه العجوز العاجزه،و كان يطوف بها،فأتى النّبی صلى اللّه عليه و آله و سلّم،و قال:هل أديت حقّها:قال:«لا و لا بزفره واحده» (۲) .

۵-لقد أولت الآيات القرآنيه العلاقات العائليه،و احترام الأبوين و إكرامهم، و العنايه بتربيه الأولاد،اهتماما فائقا،و قد أشير إليها جميعا فی الآيات المذكوره، و ذلك لأنّ المجتمع الإنسانی الكبير يتكون من خلايا و تشكيلات أصغر تسمى العائله،كما أنّ البنايه الضخمه تتكون من غرف،و هی بدورها من الطابوق و الحجر.

من البديهی أنّه كلّما كانت هذه التقسيمات الصغيره أكثر انسجاما و ترابطا،كان أساس المجتمع أقوى و أشد ثباتا،و أحد عوامل التمزق و الاختلال الاجتماعی فی المجتمعات الصناعيه فی عصرنا الحاضر هو انحلال نظام العائله،فلا احترام من قبل الأولاد،و لا عطف من الآباء و الأمهات،و لا علاقه حب و حنان و عاطفه من الأزواج.

إنّ المشهد المؤلم لدور رعايه المسنين فی المجتمعات الصناعيه اليوم،و التی

۱- ۱) -روح المعانی،المجلد ۲۶،صفحه ۱۶.

۲- ۲) -فی ظلال القرآن،المجلد ۷،صفحه ۴۱۵.

تحتضن العجزه من الآباء و الأمهات الذين طردوا من العائله،شاهد معبر جدّا عن هذه الحقيقه المرّه.

فالرجال و النساء الذين صرفوا عمرا طويلا فى الخدمه لمنح المجتمع أبناء عديدين،يطردون تماما فى الأيّام التى يكونون فيها بأشد الحاجه إلى عواطف الأبناء و محبتهم و معونتهم،و يبقون فى تلك الدور يعدون الأيّام فى انتظار لحظه الموت،و قد سمّروا أعينهم فى الباب بانتظار صديق أو قريب يفتحها...و لا تفتح عليهم إلاّ مرّه أو مرّتين فى السنه! حقا،إنّ تصور مثل هذه الحاله ينغص على الإنسان عيشه منذ البدايه، و هذا هو عرف دنيا الماده و التمدن و أسلوبها حينما يطرح منها الإيمان و الدين.

۶-إنّ جمله: وَ أَنْ أَعْمَلَ صٰالِحاً تَرْضٰاهُ تبيّن أنّ العمل الصالح هو العمل الذى يبعث على رضى اللّه سبحانه،و تعبير: أَحْسَنَ مٰا عَمِلُوا و الذى ورد فى آيات عديده من القرآن المجيد،يبيّن فضل اللّه الذى لا يحصى فى مقام مكافأه العباد و جزائهم،حيث يجعل أحسن أعمالهم معيارا لكلّ أعمالهم الحسنه فى الحساب.

و المثوبه.

***

الآیات [سوره الأحقاف (۴۶): الآیات ۱۷ الی ۱۹]

اشاره

وَ اَلَّذِی قٰالَ لِوٰالِدَیْهِ أُفٍّ لَکُمٰا أَ تَعِدٰانِنِی أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَتِ اَلْقُرُونُ مِنْ قَبْلِی وَ هُمٰا یَسْتَغِیثٰانِ اَللّٰهَ وَیْلَکَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اَللّٰهِ حَقٌّ فَیَقُولُ مٰا هٰذٰا إِلاّٰ أَسٰاطِیرُ اَلْأَوَّلِینَ (۱۷) أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ حَقَّ عَلَیْهِمُ اَلْقَوْلُ فِی أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ إِنَّهُمْ کٰانُوا خٰاسِرِینَ (۱۸) وَ لِکُلٍّ دَرَجٰاتٌ مِمّٰا عَمِلُوا وَ لِیُوَفِّیَهُمْ أَعْمٰالَهُمْ وَ هُمْ لاٰ یُظْلَمُونَ (۱۹)

التّفسیر

اشاره

مضیّعو حقوق الوالدین:

کان الکلام فی الآیات السابقه عن المؤمنین الذین سلکوا طریق القرب من اللّه، فبلغوا الغایه و وسعتهم رحمه اللّه،و کرمهم لطفه،و کلّ ذلک فی ظل الإیمان و العمل الصالح،و شکر نعم اللّه سبحانه،و الالتفات إلی حقوق الأبوین و الذریه و أدائها.

أمّا هذه الآیات،فیدور الکلام فیها عمّن یقفون فی الطرف المقابل،و هم الکافرون المنکرون للجمیل و الحق،و العاقون لوالدیهم،فتقول: وَ الَّذِی قٰالَ

لِوٰالِدَیْهِ أُفٍّ لَکُمٰا أَ تَعِدٰانِنِی أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِی

(۱)

.

إلاّ أنّ أبویه المؤمنین لم یستسلما أمام هذا الولد العاق الضال،فتقول الآیه:

وَ هُمٰا یَسْتَغِیثٰانِ اللّٰهَ وَیْلَکَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ

غیر أنّه یأبی إلاّ أن یسیر فی طریق الضلاله و العناد الذی اختطه لنفسه،و لذلک نراه یجیبهما بکلّ تکبر و غرور و لا مبالاه: فَیَقُولُ مٰا هٰذٰا إِلاّٰ أَسٰاطِیرُ الْأَوَّلِینَ ،فما تقولانه عن المعاد و الحساب لیس إلاّ خرافات و قصص کاذبه أتتکم من الماضین من قبلکم،و لست بالذی یعتقد بها و ینقاد لها.

إنّ الصفات التی یمکن أن تستخرج من هذه الآیه حول هذه الفئه من الأبناء الضالین عدّه صفات:عدم احترام منزله الأبوین،و الإساءه لهما،لأنّ(أف)فی الأصل تعنی کلّ شیء قذر،و هی تقال فی مقام التحقیر و الإهانه (۲) .

و قال البعض:إنّها تعنی الأقذار التی تجتمع تحت الأظافر،و هی قذره ملوثه،و لا قیمه لها (۳) .

و الصفه الأخری هی أنّهم مضافا إلی عدم إیمانهم بیوم القیامه و البعث و الجزاء،فإنّهم یسخرون منه و یستهزئون به،و یعدونه من الأساطیر و الأوهام الخرافیه الباطله.

و الصفه الأخری أنّهم لا أذن سامعه لهم،و لا یذعنون للحق،و قد امتلأت نفوسهم بروح الغرور و الکبر و الأنانیه.

نعم،فبالرغم من أن الأبوین الحریصین یبذلان قصاری جهودهما،و کلّ ما فی

۱- ۱) -«و الذی قال»مبتدأ،و خبره-باعتقاد کثیر من المفسّرین-(أولئک الذین)..الذی ورد فی الآیه التالیه،و لا منافاه بین کون المبتدأ مفردا و الخبر-أولئک-جمعا،لأنّ المراد منه الجنس. لکن یحتمل أیضا أن یکون خبره محذوفا،و تقدیره الکلام:«و فی مقابل الذین مضی وصفهم الذی قال لوالدیه»و فی هذه الحاله تکون الآیه التالیه مستقله،کما أن آیه: أُولٰئِکَ الَّذِینَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ... مستقله.

۲- ۲) -مفردات الراغب.

۳- ۳) -أوردنا بحوثا أخری حول معنی(أف)فی سوره الإسراء الآیه ۲۳.

وسعهما لإنقاذه من دوامه الجهل و الغفله،لئلا يبتلى هذا الابن العزيز بعذاب اللّه الأليم،إلاّ أنّه يأبى إلاّ الاستمرار فى طريق غيه و كفره،و يصر على ذلك،و أخيرا يتركه أبواه و شأنه بعد اليأس منه.

و كما بيّنت الآيات السابقه ثواب المؤمنين العاملين للصالحات،فإنّ هذه الآيات تبيّن عاقبه أعمال الكافرين الضالين المتجرئين على اللّه،فتقول: أُولٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كٰانُوا خٰاسِرِينَ (1) ،و أى خساره أعظم من أنّهم خسروا كلّ رأس مال وجودهم إذا اشتروا به غضب اللّه عزّ و جلّ و سخطه.

و من خلال المقارنه بين هذين الفريقين-أصحاب النعيم و أصحاب الجحيم- فى هذه الآيات نقف على هذه الأمور:

إنّ أولئك يطوون مدارج رشدهم و كمالهم،فى حين أنّ هؤلاء فقدوا كلّ ما يملكون،فهم خاسرون.

أولئك يقدرون الجميل و يشكرونه حتى من أبويهم،و هؤلاء منكرون للجميل معتقدون لا أدب لهم حتى مع والديهم.

أولئك مع المقربين إلى اللّه فى الجنّه،و هؤلاء مع الكافرين فى النّار،فكلّ منهم يلتحق بأمثاله و من على شاكلته.

أولئك يتوبون من الهفوات التى تصدر عنهم،و يذعنون للحق،أمّا هؤلاء فهم قوم طغاه عتاه متمردون،أنانيّون و متكبرون.

و ممّا يستحق الالتفات أنّ هؤلاء المعاندين يستندون فى انحرافاتهم إلى وضع الأقوام الماضين و سيحشرون معهم إلى النّار أيضا.

أمّا الآيه الأخيره من هذه الآيات فإنّها تشير أوّلا إلى تفاوت درجات كلا

---

۱ – ۱) -جمله(حقّ عليهم القول)إشاره إلى كلام اللّه الذى قاله سبحانه فى عقوبه الكافرين و المجرمين،و التقدير:حقّ عليهم القول بأنّهم أهل النّار...و(فى أمم)فى محل حال.

الفریقین،فتقول: وَ لِكُلٍّ دَرَجٰاتٌ مِمّٰا عَمِلُوا (۱) فلیس کلّ أصحاب الجنّه أو أصحاب النّار فی درجه واحده،بل إنّ لکلّ منهما درجات و مراتب تختلف باختلاف أعمالهم،و حسب خلوص نیّتهم و میزان معرفتهم،و أصل العداله هو الحاکم هنا تماما.

«الدرجات»جمع درجه،و تقال عاده للسلالم التی یصعد الإنسان بتسلقها إلی الأعلی،و«الدرکات»جمع درک،و هی تقال للسلّم الذی ینزل منه الإنسان إلی الأسفل،و لذلک یقال فی شأن الجنّه:درجات،و فی شأن النّار:درکات،لکن لما کانت الآیه مورد البحث قد تحدثت عنهما معا،و لأهمیه مقام أصحاب الجنّه،ورد لفظ(الدرجات)للاثنین،و هو من باب التغلیب (۲) .

ثمّ تضیف الآیه: وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمٰالَهُمْ و هذا التعبیر إشاره أخری إلی مسأله تجسم الأعمال،حیث أنّ أعمال ابن آدم ستکون معه هناک،فتکون أعماله الصالحه باعثا علی الرحمه به و اطمئنانه،و أعماله الطالحه سببا للبلاء و العذاب الألم.

و تقول الآیه أخیرا کتأکید علی ذلک: وَ هُمْ لاٰ يُظْلَمُونَ لأنّهم سیرون أعمالهم و جزاءها،فکیف یمکن تصور الظلم و الجور؟ هذا إضافه إلی أنّ درجات هؤلاء و درکاتهم قد عیّنت بدقّه،حتی أنّ لأصغر الأعمال،حسنا کان أم قبیحا،أثره فی مصیرهم،و مع هذه الحال لا معنی للظلم حینئذ.

***

ملاحظه کیف حرّفت هذه الآیه من قبل بنی أمیه؟

ورد فی روایه أنّ«معاویه»أرسل رساله إلی«مروان»-و إلیه علی المدینه-

---

۱- ۱) -(من)فی(ممّا عملوا)للابتداء-أو کما تسمی نشویه-أو بمعنی التعلیل،أی:من أجل ما عملوا.

۲ - ۲) -«درک»-بسکون الوسط-و درک-بفتحه-بمعنی أعمق نقطه فی العمق،و جاءت-أحیانا-الدرک-بالفتحه-بمعنی الخساره،و الدرک-بالسکون-بمعنی فهم الشیء و إدراکه،لمناسبته الوصول إلی عمقه و حقیقته.

یأمره بأخذ البیعه من الناس لابنه یزید،و کان«عبد الرحمن بن أبی بکر»حاضرا فی المجلس،فقال:یرید معاویه أن یجعل هذا الأمر هرقلیا و کسرویا-ملکی الروم و فارس-إذا مات الآباء جعلوا أبناءهم مکانهم،و إن لم یکونوا أهلا لذلک، أو کانوا فساقا؟ فصاح مروان من علی المنبر:صه،فأنت الذی نزلت فیه: وَ الَّذِی قٰالَ لِوٰالِدَیْهِ أُفٍّ لَکُمٰا .

و کانت«عائشه»حاضره،فقالت:کذبت،و إنّی لأعلم فیمن نزلت هذه الآیه، و لو شئت لأخبرتک باسمه و نسبه،لکن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم لعن أباک و أنت فی صلبه، فأنت فضض من لعنه رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم (۱) .

أجل...و لقد کان ذنب عبد الرحمن عشقه و محبّته لأمیر المؤمنین علی علیه السّلام،و هو أمر کان یسوء بنی أمیه کثیرا،هذا من جهه.

و من جهه أخری فإنّه کان مخالفا لصیروره الخلافه وراثیه،و تبدیلها إلی سلطنه،و کان یعتبر أخذ البیعه لیزید نوعا من الانحراف نحو الکسرویه و الهرقلیه، و لذلک أصبح غرضا لأعداء الإسلام الألداء،أی آل أمیّه،فحرّفوا آیات القرآن فیه.

و کم هو مناسب الجواب الذی أجابت به عائشه مروان بأنّ اللّه سبحانه لعن أباک إذ کنت خلفه،و هو إشاره إلی الآیه(۶۰)من سوره الإسراء حیث تقول:

وَ الشَّجَرَهَ الْمَلْعُونَهَ فِی الْقُرْآنِ

(۲)

.

***

۱- ۱) -أبو الفتوح الرازی فی تفسیره،المجلد ۱۰،صفحه ۱۵۹،و نقل هذه الروایه بتفاوت یسیر فی مجلد ۹،صفحه ۶۰۱۷.

۲- ۲) -یراجع لتفسیر هذه الآیه ذیل الآیه(۶۰)من سوره الإسراء.و ینبغی الالتفات إلی أنّ«مروان بن الحکم»هو ابن«أبی العاص»،و هذا بدوره ابن«أمیّه»أیضا.

الآیه [سوره الأحقاف (۴۶): آیه ۲۰]

اشاره

وَ یَوْمَ یُعْرَضُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا عَلَی اَلنّٰارِ أَذْهَبْتُمْ طَیِّبٰاتِکُمْ فِی حَیٰاتِکُمُ اَلدُّنْیٰا وَ اِسْتَمْتَعْتُمْ بِهٰا فَالْیَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذٰابَ اَلْهُونِ بِمٰا کُنْتُمْ تَسْتَکْبِرُونَ فِی اَلْأَرْضِ بِغَیْرِ اَلْحَقِّ وَ بِمٰا کُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (۲۰)

التّفسیر

اشاره

الزهد و الادخار للآخره:

تستمر هـذه الآیه فی البحث حول عقوبه الکافرین و المجرمین،و تـذکر جانبا من أنواع العذاب الجسـمی و الروحی الذی سینال هؤلاء،فتقول: وَ یَوْمَ یُعْرَضُ الَّذِینَ کَفَرُوا عَلَی النّٰارِ أَذْهَبْتُمْ طَیِّبٰاتِکُمْ فِی حَیٰاتِکُمُ الدُّنْیٰا... (۱) .

نعم،فقـد کنتم غارقین فی الشـهوات،و لم تکونوا تعرفون شـیئا إلّا التمتع بطیّبات هـذا العالم و نعمه المادیه،و من أجل أن تکونوا متحللین من کلّ القیود فی هذا المجال،أنکرتم المعاد لتطلقوا لأنفسکم العنان،و سخرتم هذه المواهب من أجل إنزال کلّ أنواع الظلم و الجور بحق الآخرین.

---

۱ – ۱) -(یوم)ظرف متعلق بفعـل محـذوف یسـتفاد من الجمـل التـالیه،و التقـدیر:و یوم یعرض الـذین کفروا علی النّـار یقال لهم أذهبتم طیّباتکم...

فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذٰابَ الْهُونِ بِمٰا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمٰا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ

فاليوم ترون جزاء كلّ ذلك التمتع الباطل،و اتباع الشهوات الأعمى، و عباده الهوى،و الاستكبار و الفسق و الفجور و تذوقون العذاب المذل و المهين بسبب تلكم الأعمال.

***

بحوث

۱-تقول هذه الآيه:إنّ الكفار يعرضون على النّار فی القيامه،و قد ورد نظير هذا فی الآيه(۴۶)من سوره المؤمنين حول عذاب الفراعنه فی البرزخ،إذ تقول:

اَلنّٰارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهٰا غُدُوًّا وَ عَشِيًّا فی حين أنّنا نقرأ فی بعض آيات القرآن الأخرى أنّ جهنّم تعرض على الكافرين: وَ عَرَضْنٰا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكٰافِرِينَ عَرْضاً (۱) .

لذلك قال بعض المفسّرين:إنّ فی القيامه نوعين من العرض:فقبل الحساب تعرض جهنّم على المجرمين ليملأ وجودهم الخوف و الهلع،و هذا بحدّ ذاته عقاب و عذاب نفسی،و بعد الحساب و إلقائهم فی جهنّم يعرضونهم على عذاب اللّه (۲) .

و قال البعض:إنّ فی العباره نوع قلب،و إنّ المراد من عرض الكفار على النّار هو عرض النّار على الكافرين،إذ لا عقل و لا إدراك للنار حتى يعرض عليها الكافرون،فی حين أنّ العرض يتم فی الموارد التی يكون المعروض عليه فيها ذا شعور و إدراك.

لكن لا يمكن أن يرد على هذا الجواب بأنّ بعض الآيات ذكرت وجود إدراك و شعور لدى النّار،حتى أنّ اللّه سبحانه يخاطبها و تجيب،فيقول سبحانه:

۱- ۱) -الكهف،الآيه ۱۰۰.

۲- ۲) -تفسير الميزان،المجلد ۱۸،صفحه ۲۲۳ ذيل الآيات مورد البحث.

هَلِ امْتَلَأْتِ فتقول: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (۱) .

و الحق أنّ حقيقه العرض هی رفع الموانع بین شیئین حتی یتقابلا_ و یکونا وجها لوجه،و کذا الحال بالنسبه إلی الکافرین و النّار،فإنّ الحواجز ترفع من بینهما، فیمکن القول فی هذه الصوره:إنّ الکافرین یعرضون علی النّار،کما تعرض علیهم،و کلا التعبیرین صحیح.

و علی أیه حال،فلا حاجه لأن نعتبر العرض بمعنی الدخول فی النّار کما ذکره «الطبرسی»فی مجمع البیان،بل إنّ هذا العرض بحدّ ذاته نوع من العذاب الأليم المرعب،حیث یری الکافرون بأعینهم کلّ أقسام جهنّم من الخارج قبل أن یردوها،و لیشاهدوا مصیرهم المشؤوم و یتعذّبوا و یتألموا له.

۲-إنّ جمله: أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ تعنی التمتع بلذائذ الدنیا،و التعبیر ب«أذهبتم» لأنّ هذه اللذائذ و النعم تفنی بالتمتع بها و استهلاکها.

و من المسلّم أنّ التمتع بمواهب اللّه و نعمه فی هذه الدنیا لیس أمرا مذموما قبیحا،بل المذموم هو الغرق فی اللذات المادیه،و نسیان ذکر اللّه و القیامه،أو التمتع بها بصوره غیر مشروعه و التلوث بالمعاصی عن طریقها،و غصب حقوق الآخرین فیما یتعلق بها.

و ممّا یلفت الانتباه أنّ هذا التعبیر لم یرد إلاّ فی هذه الآیه من القرآن الکریم، و هو إشاره إلی أنّ الإنسان یعزب أحیانا عن لذات الدنیا و یعرض عنها،أو أنّه لا یأخذ منها إلاّ ما یقوّم به صلبه،و یتقوّی به علی القیام بالواجبات الإلهیه،و کأنّه فی هذه الصوره قد ادخر هذه الطیبات لآخرته.

غیر أنّ الکثیرین یتکالبون علی هذه التمتعات الدنیویه کالحیوانات و لا یحدّهم شیء فی الالتذاذ بهذه الطیبات و افنائها جمیعا،و لا یکتفون بعدم ادخار شیء لآخرتهم،بل یحملون معهم أحمالا من الأوزار،و لهؤلاء یقول القرآن:

۱- ۱) -سوره ق،الآیه ۳۰.

أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا

.

و قد نقل فی بعض کتب اللغه أنّ المراد من الجمله:أنفقتم طیبات ما رزقتم فی شهواتکم و فی ملاذ الدنیا،و لم تنفقوها فی مرضاه اللّه (۱) .

۳-للطیبات معنی واسع یشمل کلّ مواهب الدنیا،و مع أنّ بعض المفسّرین قد فسّرها بقوّه الشباب فقط،إلاّ أنّ الحق هو أنّ الشباب یمکن أن یکون مصداقا لا غیر.

۴-إنّ التعبیر ب عَذَابَ الْهُونِ بمثابه ردّ فعل لاستکبار هؤلاء فی الأرض،لأنّ العقوبه الإلهیه،تتناسب تماما مع نوع الذنب و المعصیه،فأولئک الذین تکبّروا علی خلق اللّه،بل و حتی علی أنبیائه،و لم یخضعوا لأی تشریع إلهی،یجب أن یلاقوا جزاءهم بذله و حقاره و مهانه.

۵-لقد ذکر فی ذیل هذه الآیه ذنبان لأصحاب الجحیم،الأوّل:الاستکبار، و الثّانی:الفسق.و یمکن أن یکون الأوّل إشاره إلی عدم إیمانهم بآیات اللّه و بعث عن ترک أصول الدین،و الآخر عن تضییع فروع الدین (۲) .

۶-إنّ التعبیر بغیر الحق لا یعنی أنّ الاستکبار نوعان:حق،و غیر حق،بل إنّ هذه التعابیر تقال عاده للتأکید،و نظائرها کثیر.

۷-زهد الأئمه العظماء لقد وردت فی مختلف مصادر الحدیث و التّفسیر روایات کثیره عن زهد أئمّه الإسلام العظماء،و استندوا فیه بالخصوص إلی الآیه مورد البحث،و من جملتها:

جاء فی حدیث أنّ عمر أتی یوما رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی مشربه أم إبراهیم-و هو

۱- ۱) -مجمع البحرین،ماده ذهب.

۲- ۲) -تفسیر المیزان،المجلد ۱۸،صفحه ۲۲۴.

موضع قرب المدينه-و كان مضطجعا على حصير من الخوص،و جزء من بدنه الشريف على التراب،و كانت تحت رأسه و ساده من ليف النخل،فسلّم و جلس، و قال:أنت نبيّ اللّه و أفضل خلقه،هذا كسرى و قيصر ينامان على أسره الذهب و فرش الديباج و الحرير، و أنت على هذا الحال؟!فقال صلى اللّه عليه و آله و سلّم:«أولئك قوم عجلت طيّباتهم و هى و شيكه الانقطاع،و إنّما أخرت لنا طيباتنا» (١) .

و نقرأ

فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه أتى يوما بحلوى،فامتنع من تناولها،فقالوا:أ تراها حراما؟قال:«لا،و لكنى أخشى أن تتوق نفسى فأطلبه،ثمّ تلا هذه الآيه: أَذْهَبْتُمْ طَيِّبٰاتِكُمْ فِي حَيٰاتِكُمُ الدُّنْيٰا... (٢) .

و

جاء فى حديث آخر: «أنّ أمير المؤمنين عليه السّلام اشتهى كبدا مشويه على خبزه لينه،فأقام حولا يشتهيها،و ذكر ذلك للحسن عليه السّلام و هو صائم يوما من الأيّام فصنعها له،فلما أراد أن يفطر قرّبها إليه،فوقف سائل بالباب،فقال:يا بنى احملها إليه،لا تقرأ صحيفتنا غدا: أَذْهَبْتُمْ طَيِّبٰاتِكُمْ فِي حَيٰاتِكُمُ الدُّنْيٰا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهٰا (٣) .

***

١- ١) -مجمع البيان،المجلد ٩،صفحه ٨٨.

٢- ٢) -تفسير البرهان،المجلد ۴،صفحه ١٧۵،ذيل الآيه مورد البحث.

٣- ٣) -سفينه البحار،الجزء الثانى،ماده كبد.

الآيات [سوره الأحقاف (۴۶): الآيات ۲۱ الی ۲۵]

اشاره

وَ اُذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَ قَدْ خَلَتِ اَلنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اَللّهَ إِنِّى أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۲۱) قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ اَلصّادِقِينَ (۲۲) قالَ إِنَّمَا اَلْعِلْمُ عِنْدَ اَللّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَ لٰكِنِّى أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (۲۳) فَلَمّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هٰذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اِسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ (۲۴) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرىٰ إِلاّ مَساكِنُهُمْ كَذٰلِكَ نَجْزِى اَلْقَوْمَ اَلْمُجْرِمِينَ (۲۵)

التّفسير

اشاره

قوم عاد و الريح المدمره:

لما كان القرآن يذكر قضايا كليه،ثمّ يتطرق إلى بيان مصاديق واضحه لها،

ص: ۲۸۲

ليطبق تلك الكليات.فإنّه هنا يسلك نفس السبيل،فبعد أن فصل حال المستكبرين المتمردين،تطرّق إلى ذكر قصه قوم عاد الذين هم صوره واضحه لأولئك العتاه، فتقول الآيه: وَ اذْكُرْ أَخا عادٍ .

إنّ التعبير بالأخ يعكس منتهى صفاء هذا النّبى العظيم و حرصه على قومه،و قد ورد هذا التعبير فى القرآن المجيد-كما نعلم-فى مورد عده أنبياء عظام كانوا إخوه لأقوامهم حريصين رحماء بهم،لم يبخلوا من أجلهم بأى نوع من الإيثار و التضحيه.

و يمكن أن يكون هذا التعبير إشاره إلى علاقه القرابه و الرحم بين هؤلاء الأنبياء و أقوامهم.

ثمّ تضيف الآيه: إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ .

«الأحقاف»-كما قلنا سابقا-تعنى الكثبان الرمليه التى تتشكل على هيئه مستطيل أو تعرجات و منحنيات،على أثر هبوب العواصف فى الصحارى،و يتّضح من هذا التعبير أنّ أرض قوم عاد كانت أرضا حصباء كبيره.

و ذهب البعض أنّها فى قلب جزيره العرب بين نجد و الأحساء و حضرموت و عمان.

إلاّ أنّ هذا المعنى يبدو بعيدا،حيث يظهر من آيات القرآن الأخرى-فى سوره الشعراء-أنّ قوم عاد كانوا يعيشون فى مكان كثير المياه و الأشجار الجميله،و مثل هذا الحال بعيد جدّا عن قلب الجزيره.

و ذهب جمع آخر من المفسّرين أنّها فى الجزء الجنوبى للجزيره حول اليمن،أو فى سواحل بحر العرب (۱) .

و احتمل البعض أنّ الأحقاف كانت منطقه فى أرض العراق فى مناطق كلده

۱- ۱) -فى ظلال القرآن،ذيل الآيات مورد البحث.

و بابل (۱) .

و نقل عن الطبری أنّ الأحقاف اسم جبل فی الشام (۲) .

لکن یبدو أنّ القول بأنّ هذه المنطقه تقع جنوب الجزیره العربیه قرب أرض الیمن،هو الأقرب،بملاحظه ملاءمته المعنی اللغوی للأحقاف،و بملاحظه أنّ أرضهم کانت غزیره المیاه و فیره الأشجار،فی نفس الوقت الذی لم تکن فیه بمأمن من العواصف الرملیه.

و جمله: وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ إشاره إلی الأنبیاء الذین بعثوا قبله،بعضهم قریب عهد به،و هم الذین عبّر عنهم القرآن ب مِنْ بَیْنِ یَدَیْهِ و البعض الآخر تقادمت الفتره الزمنیه بینهم و بینه الذین عبّر عنهم ب مِنْ خَلْفِهِ .

أمّا ما احتمله البعض من أنّ المراد من هذه الجمله الأنبیاء الذین جاؤوا قبل هود و بعده،فیبدو بعیدا جدّا،و لا ینسجم مع جمله: وَ قَدْ خَلَتِ التی تعنی الزمن الماضی.

و لنر الآن ماذا کان محتوی دعوه هذا النّبی العظیم؟ یقول القرآن الکریم: أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّهَ ثمّ هدّدهم بقوله: إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ عَذابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ .

و بالرغم من أنّ التعبیر ب یَوْمٍ عَظِیمٍ جاء بمعنی یوم القیامه غالبا،إلاّ أنّه أطلق أحیانا فی آیات القرآن علی الأیّام القاسیه المرعبه التی مرّت علی الأمم،و هذا المعنی هو المراد هنا،لأنّنا نقرأ فی متابعه هذه الآیات أنّ قوم عاد قد ابتلوا بعذاب اللّه فی یوم عسر مرعب و انتهی أمرهم.

إلاّ أنّ هؤلاء القوم المتمردین وقفوا بوجه هذه الدعوه الإلهیه،و خاطبوا هودا:

۱- ۱) -طبقا لنقل المرحوم الشعرانی فی هامش تفسیر أبی الفتوح الرازی،المجلد ۱۰،صفحه ۱۶۵.

۲- ۲) -المصدر السابق.

قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ

(۱) .

هاتين الجملتين تبيّنان بوضوح مدى انحراف هؤلاء القوم و تعصبهم،فهم فى الجمله الأولى يقولون:إنّ دعوتک کاذبه:لأنّها تخالف آلهتنا التى تعوّدنا على عبادتها،و هى إرث ورثناه عن آبائنا.

و نراهم فى الجمله الثّانيه يطلبون وقوع العذاب!ذلك العذاب الذى إن نزل بهم فلا رجعه معه مطلقا،و أى ذى لب يتمنّى نزول مثل هذا العذاب،حتى و إن لم يكن لديه يقين بوقوعه؟ إلاّ أنّ هودا عليه السّلام قال فى ردّه على هذا الطلب المتهور الذى يدل على الجنون:

قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّهِ

فهو الذى يعلم متى و فى أى ظروف ينزل عذاب الاستئصال،فلا هو مرتبط بطلبكم و تمنيكم،و لا هو تابع لرغبتى،بل يجب أن يتمّ الهدف و يتحقق،ألا و هو إتمام الحجّه عليكم،فإنّ حكمته سبحانه تقتضى ذلك.

ثمّ يضيف: وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ فهو مهمتى الأساسيه،و مسئوليتى الرئيسيه،أمّا اتخاذ القرار فى شأن طاعه اللّه و أوامره فهو أمر يتعلق بكم،و إراده نزول العذاب و مشيئته تتعلق به سبحانه.

وَ لكِنِّی أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ

و جهلكم هذا هو أساس تعاستكم و شقائكم،فإنّ الجهل المقترن بالكبر و الغرور و هو الذى يمنعكم من دراسه دعوه رسل اللّه،و لا يأذن لكم فى التحقيق فيها...ذلك الجهل الذى يحملكم على الإصرار على نزول عذاب اللّه ليهلككم،و لو كان لديكم أدنى وعى أو تعقل لكنتم تحتملون-على الأقل-وجود احتمال إيجابى فى مقابل كلّ الاحتمالات السلبيه،و الذى إذا ما تحقق فسوف لا يبقى لكم أثر.

و أخيرا لم تؤثر نصائح هود عليه السّلام المفيده،و إرشاداته الأخويه فى قساه القلوب أولئك،و بدل أن يقبلوا الحق لجّوا فى غيّهم و باطلهم،و تعصبوا له،و حتى نوح عليه السّلام

۱- ۱) -«لتأفكنا»من ماده«إفک»،أى الكذب و الانحراف عن الحق.

کـذّبه قومه بهـذا الادعاء الواهی و هو أنّک إن کنت صادقا فیما تقول فأین عـذابک الموعود؟ و الآن،و قـد تمّت الحجه بالقـدر الکـافی،و أظهر أولئـک عـدم أهلیتهم للبقـاء،و عـدم اسـتحقاقهم للحیـاه،فإنّ حکمه اللّه سـبحانه توجب أن یرسل علیهم«عـذاب الاستئصال»،ذلک العذاب الذی یجتث کلّ شیء و لا یبقی و لا یذر.

و فجأه رأوا سحابا قد ظهر فی الأفق،و اتسع بسرعه: فَلَمّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِیَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا (1) .

قـال المفسّـرون:إنّ المطر انقطع مـدّه عن قوم عـاد،و أصـبح الهواء حارا جافا خانقا،فلمّا وقع بصر قوم عاد علی السـحب المظلمه الواسعه فی الأفق البعید،و هی تتجه صوبهم فرحوا لذلک جدّا و هبّوا لاستقبالها،و جاؤوا إلی جوانب الودیان و السهول و مجاری السیول و المیاه.لیروا منظر نزول المطر المبارک لیحیوا من جدید،و تسر بذلک نفوسهم.

لکن،قیل لهم سریعا بأنّ هذا لیس سحابا ممطرا: بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِیحٌ فِیها عَذابٌ أَلِیمٌ .

و الظاهر أنّ المتکلم بهذا الکلام هو اللّه سبحانه،أو أنّ هودا لمّا سمع صرخات فرحهم و استبشارهم قال لهم ذلک.

نعم،إنّها ریح مدمّره: تُدَمِّرُ کُلَّ شَیْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها .

قال بعض المفسّـرین:إنّ المراد من کُلَّ شَـیْءٍ البشـر و دوابهم و أموالهم،لأنّ الجمله التالیه تقول: فَأَصْـبَحُوا لا یُری إِلاّ مَساکِنُهُمْ و هذا یوحی بأنّ مساکنهم کانت سالمه،أمّا هم فقد هلکوا،و ألقت الریاح القویه أجسادهم فی الصحاری البعیده،أو فی البحر.

1- 1) -«عارض»من ماده(عرض)،و هنا بمعنی السـحاب الـذی ینتشـر فی عرض السـماء،و ربّما کان هـذا أحد علامات السـحب الممطره بأنّها تتسع فی ذلک الأفق ثمّ تصعد.و«الأودیه»جمع واد،و هو المنخفض و مجری السیول و المیاه.

و قال البعض:إنّهم لم يلتفتوا إلى أنّ هذه السحب السوداء هى رياح قويه مغبره، إلاّ عند ما وصلت قريبا من ديارهم،و رفعت دوابهم و رعاتهم -الذين كانوا فى الصحارى المحيطه بهم-من الأرض و رمتهم فى الهواء،و رأوا أنّها تقتلع الخيام من مكانها و تلقيها فى الهواء حتى كانت تبدو كالجواد! عند ما رأوا ذلك المشهد،فروا و التجأوا إلى دورهم و أغلقوا الأبواب عليهم،إلاّ أنّ الأعاصير اقتلعت الأبواب و ألقتها على الأرض-أو حملتها معها-و رمت أجساد هؤلاء بالأحقاف،و هى الرمال المتحركه.

و جاء فى الآيه(٧)من سوره الحاقه: سَخَّرَهٰا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيٰالٍ وَ ثَمٰانِيَةَ أَيّٰامٍ و هكذا بقى هؤلاء القوم يئنّون تحت تل من الرمال و التراب،ثمّ أزالت الرياح القويه التراب فظهرت أبدانهم مرّه أخرى،فحملتها و ألقتها فى البحر (١) .

و تشير الآيه فى النهايه إلى حقيقه،و هى أنّ هذا المصير غير مختص بهؤلاء القوم الضالين،بل: كَذٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ .

و هذا إنذار و تحذير لكلّ المجرمين العصاه،و الكافرين المعاندين الأنانيين، بأنّكم إن سلكتم هذا الطريق فسوف لن يكون مصيركم أحسن حالا من هؤلاء، فإنّه تعالى قد يأمر الرياح بأن تهلككم،ذات الرياح التى يعبر القرآن الكريم بأنّها:

بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ لأنّ الرياح تتصف بصفه الأمر الإلهى المطلوب منها.

و قد يبدل الأرض التى هى مهد استقرار الإنسان و اطمئنانه،إلى قبر له بزلزله شديده.

و قد يبدّل المطر الذى هو أساس حياه كلّ الكائنات الحيه،إلى سيول جارفه تغرق كل شيء.

نعم،إنّه عزّ و جلّ يجعل جنود الحياه جنود موت و فناء،و كم هو مؤلم الموت

١- ١) -تفسير الفخر الرازى،المجلد ٢٨،صفحه ٢٨،ذيل الآيات مورد البحث،و جاء هذا المعنى أيضا فى تفسير القرطبى، المجلد ٩،صفحه ٦٠٢٦.

الـذی یـأتی من سـبب الحیـاه و أساسـها؟خـاصّه إذا کان الأمر کما فی قوم هود إذ فرحوا و سـروا فی البـدایه ثمّ جاءتهم البطشـه لیکون العذاب أشد و آلم.

و الطریف أنّه یقول:إنّ هذه الریاح،هی فی الأصل أمواج هوائیه لطیفه تتحوّل إعصار یدمّر کلّ شیء بأمر اللّه (۱) .

***

ص:۲۸۸

۱- ۱) -«تدمّر»من ماده تدمیر،و هو الإهلاک و الإفناء.

الآيات [سوره الأحقاف (۴۶): الآيات ۲۶ الى ۲۸]

اشاره

وَ لَقَدْ مَكَّنّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اَللّهِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۲۶) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ اَلْقُرى وَ صَرَّفْنَا اَلْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۲۷) فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ اَلَّذِينَ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اَللّهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذلِكَ إِفْكُهُمْ وَ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (۲۸)

التّفسير

اشاره

لستم بأقوى من قوم عاد أبدا:

إنّ هذه الآيات بمثابه استنتاج للآيات السابقه التى كانت تتحدث عن عقاب قوم عاد الأليم،فتخاطب مشركى مكّه و تقول: وَ لَقَدْ مَكَّنّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنّاكُمْ

فِيهِ

(۱)

فقد کانوا أقوی منکم من الناحیه الجسمیه،و أقدر منکم من ناحیه المال و الثروه و الإمکانات المادیه،فإذا کان بإمکان القوّه الجسمیه و المال و الثروه و التطور المادی أن تنقذ أحدا من قبضه الجزاء الإلهی،فکان ینبغی علی قوم عاد أن یصمدوا أمام العاصفه و لا یکونوا کالقشه فی مهب الریاح،تتقاذفهم کیف شاءت و لا یبقی من آثارهم إلاّ أطلال مساکنهم! إنّ هذه الآیه شبیهه بما ورد فی سوره الفجر فی شأن قوم عاد: أَ لَمْ تَرَ کَیْفَ فَعَلَ رَبُّکَ بِعٰادٍ إِرَمَ ذٰاتِ الْعِمٰادِ الَّتِی لَمْ یُخْلَقْ مِثْلُهٰا فِی الْبِلاٰدِ (۲) .

أو هی نظیر ما جاء فی الآیه(۳۶)من سوره ق: وَ کَمْ أَهْلَکْنٰا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً .

و خلاصه القول:إنّ الذین کانوا أشدّ منکم و أقوی،عجزوا عن الوقوف أمام عاصفه العذاب الإلهی،فکیف بکم إذن؟ ثمّ تضیف الآیه: وَ جَعَلْنٰا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصٰاراً وَ أَفْئِدَهً (۳) فقد کانوا أقویاء فی مجال إدراک الحقائق و تشخیصها أیضا،و کانوا یدرکون الأمور جیدا،و کانوا یستغلون هذه المواهب الإلهیه من أجل تأمین حاجاتهم و مآربهم المادیه علی أحسن وجه،لکن: فَمٰا أَغْنیٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لاٰ أَبْصٰارُهُمْ وَ لاٰ أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَیْءٍ إِذْ کٰانُوا یَجْحَدُونَ بِآیٰاتِ اللّٰهِ (۴) و أخیرا: وَ حٰاقَ بِهِمْ مٰا کٰانُوا بِهِ یَسْتَهْزِؤُنَ .

نعم،لقد کان أولئک مجهزین بالوسائل المادیه،و بوسائل إدراک الحقیقه،إلاّ أنّهم لما کانوا یتعاملون مع آیات اللّه بمنطق الاستکبار و العناد،و کانوا یتلقون کلام

۱- ۱) -«إن»فی جمله(إن مکّناکم فیه)نافیه و لدینا شواهد متعدده من آیات القرآن الکریم وردت فی المتن.إلاّ أنّ البعض اعتبرها شرطیه،أو زائده و لا نری ذلک صوابا.

۲- ۲) -الفجر،الآیات ۶ إلی ۸.

۳- ۳) -یجدر الانتباه إلی أنّ الأبصار و الأفئده وردت بصیغه الجمع،فی حین أنّ السمع قد ورد بصیغه المفرد،و یمکن أن یکون هذا الاختلاف بسبب أنّ للسمع معنی المصدر،و المصدر یستعمل دائما بصیغه المفرد،أو لوحده المسموعات أما تفاوت المرئیات و المدرکات.

۴- ۴) -من فی(من شیء)زائده و للتأکید،أی لم ینفعهم أی شیء.

الأنبياء بالسخريه و الاستهزاء،لم ينفذ نور الحق إلى قلوبهم،و هذا الكبر و الغرور و العداء للحق هو الذى أدى إلى أنّ لا يستفيدوا و لا يستخدموا وسائل الهدايه و المعرفه كالعين و الأذن و العقل،ليجدوا طريق النجاه و يسلكوه،فكانت عاقبتهم أن ابتلوا بذلك المصير المشؤوم الذى أشارت إليه الآيات السابقه.

فإذا كان أولئك القوم قد عجزوا عن القيام بأى عمل مع كلّ تلك القدرات و الإمكانيات التى كانوا يمتلكونها،و أصبحت جثثهم الهامده،كالريشه فى مهب الرياح تتقاذفهم من كلّ جانب بكلّ مذله و احتقار،أولى لكم أن تعتبروا إذا أنتم أضعف منهم و أعجز.

و ليس عسيرا على اللّه تعالى أن يأخذكم بأشد العذاب نتيجه أعمالكم و جرائمكم،و أن يجعل عوامل حياتكم أسباب فنائكم،و هذا خطاب لمشركى مكّه،و لكلّ البشر المغرورين الظالمين العتاه على مر التأريخ،و فى كلّ الأعصار و الأمصار.

و حقا فإنّ الأمر كما يقول القرآن الكريم،فلسنا أوّل من وطأ الأرض،فقد كان قبلنا أقوام كثيرون يعيشون فيها،و لديهم الكثير من الإمكانيات و القدرات،فكم هو جميل أن نجعل تأريخ أولئك مرآه لأنفسنا لنعتبر به،و لنرى من خلاله مستقبلنا و مصيرنا.

ثمّ تخاطب الآيه مشركى مكّه من أجل التأكيد على هذا المعنى،و لزياده الموعظه و النصيحه،فتقول: وَ لَقَدْ أَهْلَكْنٰا مٰا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرىٰ .

أولئك الأقوام الذين لا تبعد أوطانهم كثيرا عنكم،و كان مستقرهم فى أطراف جزيره العرب،فقوم عاد كانوا يعيشون فى أرض الأحقاف فى جنوب الجزيره، و قوم ثمود فى أرض يقال لها«حجر»فى شمالها، و قوم سبأ الذين لاقوا ذلك المصير المؤلم فى أرض اليمن،و قوم شعيب فى أرض مدين فى طريقكم الشام، و كان قوم لوط يعيشون فى هذه المنطقه،و ابتلوا بأنواع العذاب لكثره معاصيهم و كفرهم.

لقد كان كلّ قوم من أولئك عبره،و كان كلّ منهم شاهدا ناطقا معبرا،يسأل:كيف لا يستيقظ هؤلاء و لا يعون مع كلّ وسائل التوعيه هذه؟! ثمّ تضيف الآيه بعد ذلك: وَ صَرَّفْنَا اَلْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فتاره أريناهم المعجزات و خوارق العادات،و أخرى أنعمنا عليهم،و ثالثه بلوناهم بالبلاء و المصائب،و رابعه عن طريق وصف الصالحين المحسنين،و أخرى بوصف المجرمين،و أخرى وعظناهم بعذاب الاستئصال الذى أهلكنا به الآخرين.إلاّ أنّ الكبر و الغرور و العجب لم يدع لهؤلاء سبيلا إلى الهدايه.

و توبخ الآيه الأخيره من هذه الآيات هؤلاء العصاه،و تذمهم بهذا البيان: فَلَوْ لاَ نَصَرَهُمُ اَلَّذِينَ اِتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ قُرْبٰاناً آلِهَةً (۱) .

حقّا،إذا كانت هذه آلهه على حق،فلما ذا لا تعين أتباعها و عبادها،و تنصرهم فى تلك الظروف الحساسه،و لا تنقذهم من قبضه العذاب المهول المرعب؟إنّ هذا بنفسه دليل محكم على بطلان عقيدتهم حيث كانوا يظنّون أنّ هذه الآلهه المخترعه هى ملجأهم و حماهم فى يوم تعاستهم و شقائهم.

ثمّ تضيف: بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ فإنّ هذه الموجودات التى لا قيمه لها و لا أهميه، و التى ليست مبدأ لأى أثر،و لا تأتى بأى فائده،و هى عند العسر صماء عمياء، فكيف تستحق الألوهيه و تكون أهلا لها؟ و أخيرا تقول الآيه: وَ ذٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ فإنّ هذا الهلاك و الشقاء، و هذا العذاب الأليم،و اختفاء الآلهه وقت الشدّه و العسر،كان نتيجه لأكاذيب أولئك و أوهامهم و افتراءاتهم . (۲)

***

۱ – ۱) -المفعول الأوّل ل(اتخذوا)محذوف،و(آلهه)مفعولها الثانى،و(قربانا)حال،و التقدير:اتخذوهم آلهه من دون اللّه حال كونهم متقربا بهم،و يحتمل أيضا أن تكون(قربانا)مفعولا لأجله.و قد احتملت احتمالات أخرى فى تركيب الآيه،لكنّها لا تستحق الاهتمام.

۲ – ۲) -بناء على هذا فإنّ للآيه محذوفا،و التقدير:و ذلك نتيجه إفكهم.و يحتمل أيضا أن لا يحتاج الآيه إلى محذوف،و فى هذه الحاله يصبح المعنى:كان هذا كذبهم و افتراءهم،غير أنّ المعنى الأوّل يبدو هو الأنسب.

الآیات [سوره الأحقاف (۴۶): الآیات ۲۹ الی ۳۲]

اشاره

وَ إِذْ صَرَفْنٰا إِلَیْکَ نَفَراً مِنَ اَلْجِنِّ یَسْتَمِعُونَ اَلْقُرْآنَ فَلَمّٰا حَضَرُوهُ قٰالُوا أَنْصِتُوا فَلَمّٰا قُضِیَ وَلَّوْا إِلیٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِینَ (۲۹) قٰالُوا یٰا قَوْمَنٰا إِنّٰا سَمِعْنٰا کِتٰاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسیٰ مُصَدِّقاً لِمٰا بَیْنَ یَدَیْهِ یَهْدِی إِلَی اَلْحَقِّ وَ إِلیٰ طَرِیقٍ مُسْتَقِیمٍ (۳۰) یٰا قَوْمَنٰا أَجِیبُوا دٰاعِیَ اَللّٰهِ وَ آمِنُوا بِهِ یَغْفِرْ لَکُمْ مِنْ ذُنُوبِکُمْ وَ یُجِرْکُمْ مِنْ عَذٰابٍ أَلِیمٍ (۳۱) وَ مَنْ لاٰ یُجِبْ دٰاعِیَ اَللّٰهِ فَلَیْسَ بِمُعْجِزٍ فِی اَلْأَرْضِ وَ لَیْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِیٰاءُ أُولٰئِکَ فِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ (۳۲)

سبب النّزول

وردت روایات مختلفه فی سبب نزول هذه الآیات،و من جملتها:أنّ رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم خرج من مکّه إلی سوق عکاظ فی الطائف-و کان معه زید بن حارثه- من أجل أن یدعو الناس إلی الإسلام،إلاّ أنّ أحدا لم یجبه،فاضطر الی الرجوع إلی مکّه،و فی طریق عودته وصل إلی موضع یقال له:وادی الجن،فبدأ بتلاوه القرآن

ص :۲۹۳

فی جوف اللیل،و کانت طائفه من الجن یمرون من هناک،فلما سمعوا قراءه النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم للقرآن أصغوا إلیه و قال بعضهم لبعض:اسکتوا و أنصتوا،فلما أتمّ رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم تلاوته آمنوا به،و أتوا قومهم کرسل یدعونهم إلی الإسلام،فآمن لهم جماعه،و أتوا جمیعا الی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فعلّمهم رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم الإسلام،فنزلت هذه الآیات و آیات سوره الجن (۱) .

و نقل جماعه عن ابن عباس سبب نزول آخر یقرب من سبب النّزول السابق، باختلاف:إنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان مشتغلا بصلاه الصبح و کان یقرأ القرآن فیها،و کان جماعه من الجن فی حاله بحث و تحقیق،إذا کان انقطاع أخبار السماء عنهم قد أقلقهم،فسمعوا صوت تلاوه النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فقالوا:هذا سبب انقطاع أخبار السماء عنّا،فرجعوا إلی قومهم و دعوهم إلی الإسلام (۲) .

و قد أورد العلاّمه الطبرسی فی مجمع البیان سببا ثالثا للنزول هنا،و هو یرتبط بقصه سفر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی الطائف و خلاصته:

بعد وفاه أبی طالب صعب الأمر علی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فرحل إلی الطائف لعله یجد أنصار،فبرز إلیه أشراف الطائف و کذّبوه أشدّ تکذیب،و رموا النّبی بالحجاره حتی سالت الدماء من قدمیه،فأعیاه التعب،فأتی إلی جنب بستان و استظل بظل نخله، و کانت الدماء تسیل منه.

و کان البستان لعتبه بن ربیعه و شیبه بن ربیعه،و کانا من أثریاء قریش،فتأذی النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم من رؤیتهما لعلمه بعدائهما للإسلام من قبل،فأرسلا غلامهما«عداسا» -و کان رجلا نصرانیا-إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بطبق من العنب،فقال النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لعداس:

«من أی أرض أنت»؟قال:من نینوی،قال:«من مدینه العبد الصالح یونس بن

۱- ۱) -تفسیر علی بن إبراهیم طبقا لنقل نور الثقلین،المجلد ۵،صفحه ۱۹،باختصار یسیر.

۲- ۲) -ورد هذا الحدیث الذی أوردنا ملخصه فی صحیح البخاری و مسلم و مسند أحمد بصوره مفصله،طبقا لنقل فی ظلال القرآن،المجلد ۷،صفحه ۴۲۹.

متی»،فقال:و ما یدریک من یونس بن متی؟قال:«أنا رسول اللّه،و اللّه تعالی أخبرنی خبر یونس بن متی»فعرف عداس صدق النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فخرّ ساجدا للّه تعالی،و وقع علی قدمی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم یقبلهما.

فلما رجع لامه عتبه و شیبه علی ما صنع،فقال:لقد أخبرنی هذا الرجل الصالح بما یجهله أهل هذه البلاد من أمر نبیّنا یونس،فضحکا و قالا:لا یفتننک عن نصرانیتک،فإنّه رجل خداع! فرجع النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی مکّه،و لم یکن حاصل سفره هذا إلاّ مؤمن واحد،فوصل نخلا فی جوف اللیل،فما إن حلّ حتی تهیّأ للصلاه،و کان جماعه من الجن من أهل نصیبین أو الیمن یمرون من هناک،فسمعوا صوت تلاوه القرآن فی صلاه الصبح فأصغوا إلیه و آمنوا (1) .

***

التّفسیر

اشاره

إیمان طائفه من الجن:

جاء فی هذه الآیات-و کما أشیر فی سبب النّزول-بحث مختصر حول إیمان طائفه من الجن بنبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم و کتابه السماوی،لتوضح لمشرکی مکّه حقیقه، هی:کیف تؤمن طائفه من الجن البعیدین-ظاهرا-بهذا النبی الذی هو من الإنس، و بعث من بین أظهرکم،و أنتم تصرون علی الکفر،و تستمرون فی عنادکم و مخالفتکم؟ و سیکون لنا بحث مفصل حول(الجن)و خصوصیاته فی تفسیر سوره الجن إن شاء اللّه تعالی،و نتناول هنا تفسیر الآیات مورد البحث فقط.

---

۱ - ۱) -مجمع البیان،المجلد ۹،صفحه ۹۲.و أورد هذه القصه باختلاف یسیر ابن هشام فی تأریخه(السیره النبویه)،المجلد ۲، صفحه ۶۲-۶۳.

لقد کانت قصه قوم عاد تحذیرا لمشرکی مکّه فی الحقیقه،و قصه إیمان طائفه من الجن تحذیرا آخر.

تقول الآیه أوّلا: وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَیْکَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ یَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ .

إنّ التعبیر ب(صرفنا)-من ماده صرف،یعنی نقل الشیء و تبدیله من حاله إلی اخری-و لعله إشاره إلی أنّ الجن کانوا یصغون إلی أخبار السماء عن طریق استراق السمع،و مع ظهور نبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم رجعوا إلیه و اتّجهوا نحو القرآن.

و«النفر»کما یقول الراغب فی مفرداته-عدّه رجال یمکنهم النفر،و المشهور بین أرباب اللغه أنّه الجماعه من الثلاثه إلی العشره،و أوصلها البعض إلی الأربعین.

ثمّ تضیف الآیه: فَلَمّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا و ذلک حینما کان النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم یتلو آیات القرآن فی جوف اللیل،أو فی صلاه الصبح.

«انصتوا»من ماده إنصات،و هو السکوت مع الاستماع و الانتباه.

و أخیرا أضاء نور الإیمان قلوب هؤلاء،فلمسوا فی أعماقهم کون آیات القرآن حقا،و لذلک: فَلَمّا قُضِیَ وَلَّوْا إِلی قَوْمِهِمْ مُنْذِرِینَ و هذا دأب المؤمنین دائما،فی أن یطلعوا الآخرین علی الحقائق التی اطلعوا علیها،و یدلوهم علی مصادر إیمانهم و منابعه الفیاضه.

و تبیّن الآیه التالیه کیفیه دعوه هؤلاء قومهم عند عودتهم إلیهم،تلک الدعوه المتناسقه الدقیقه،الوجیزه و العمیقه المعنی: قالُوا یا قَوْمَنا إِنّا سَمِعْنا کِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسی .

و من صفاته أنّا رأیناه یصدق الکتب السماویه السالفه و یتطابق معها فی محتواها،و فیه العلائم الوارده فی تلک الکتب: مُصَدِّقاً لِما بَیْنَ یَدَیْهِ (۱) .

و صفته الأخری أنّه: یَهْدِی إِلَی الْحَقِّ بحیث أنّ کلّ من یستند إلی عقله و فطرته یری آیات حقانیته واضحه جلیه.

۱- ۱) -لقد أوردنا تفسیر هذه الجمله مفصلا فی ذیل الآیه ۴۱ من سوره البقره.

و آخر صفه أنّه يهدى إلى الرشد: وَ إِلىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ .

إنّ التفاوت بين الدعوه إلى الحق و الى الصراط المستقيم،يكمن ظاهرا فى أنّ الأوّل إشاره إلى العقائد الحقه،و الثّانى إلى البرامج العمليه المستقيمه الصحيحه.

و جمله: أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسىٰ و جمله: مُصَدِّقاً لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ تؤيدان أنّ هذه الطائفه كانوا مؤمنين بالكتب السماويه السابقه،و خاصه كتاب موسى عليه السّلام،و كانوا يبحثون عن الحق.

و إذا رأينا أنّ الكلام لم يرد عن كتاب عيسى الذى أنزل بعد موسى عليه السّلام،فليس ذلك بسبب ما روى عن ابن عباس من أنّ الجن لم يكونوا مطلعين على نزول الإنجيل مطلقا،إذ أنّ الجن كانوا مطلعين على أخبار السماوات و عالمين بها، فكيف يمكن أن يغفلوا عن أخبار الأرض إلى هذا الحد؟بل بسبب أنّ التوراه كانت هى الكتاب الأساسى،فحتى المسيحيون كانوا قد أخذوا و يأخذون أحكام شريعتهم عنها.

ثمّ أضافوا: يٰا قَوْمَنٰا أَجِيبُوا دٰاعِيَ اللّٰهِ وَ آمِنُوا بِهِ إذ ستمنحون حينها مكافأتين عظيمتين: يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذٰابٍ أَلِيمٍ (۱) .

المراد من: دٰاعِيَ اللّٰهِ نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم الذى كان يرشدهم إلى اللّه سبحانه، و لما كان أغلب خوف الإنسان و اضطرابه من الذنوب و عذاب القيامه الأليم،فقد ذكروا لهم الأمن تجاه هذين الأمرين،ليلفت انتباههم قبل كلّ شىء.

و اعتبر جمع من المفسّرين كلمه(من)فى(من ذنوبكم)زائده،ليكون ذلك تأكيدا على غفران جميع الذنوب فى ظل الإيمان.فى حين اعتبرها البعض تبعيضيه،و أنّها إشاره إلى تلك الذنوب التى اقترفوها قبل إيمانهم،أو الذنوب التى تتعلق باللّه سبحانه،لا بحق الناس.

غير أنّ الأنسب هو كون(من)زائده و للتأكيد،و الآيه الشريفه تشمل كلّ

۱- ۱) -«يجركم»من ماده(إجاره)،و قد وردت بمعان مختلفه:الإغاثه،الإنقاذ من العذاب الإيواء،و الحفظ.

الذنوب.

و تـذكر الآيه الأخيره-من هـذه الآيات-كلام مبلغى الجن،فتقول: وَ مَنْ لاٰ يُجِبْ دٰاعِيَ اللّٰهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰاءُ ينصرونه من عذاب اللّه،و لذلك فإنّ: أُولٰئِكَ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ .

أى ضـلال أشـد و أسوأ و أجلى من أن يهبّ الإنسان إلى محاربه الحق و نبىّ اللّه، بل حتى إلى محاربه اللّه الذى لا ملجأ له سواه فى كلّ عالم الوجود،و لا يستطيع الإنسان أن يفر من حكومته إلى مكان آخر؟! و قد قلنا مرارا:إنّ(معجز)-أو سائر مشتقات هذه الكلمه-تعنى فى مثل هذه الموارد العجز عن المطارده و التعقيب و المجازاه،و بتعبير آخر:الفرار من قبضه العقاب.

و عبـاره(فى الأـرض)إشـاره إلى أنّكم حيثمـا تـذهبون فى الأـرض فإنّه ملك اللّه و سلطانه،و لا يمكن أن تكونوا خارج حـدود قدرته و قبضته،و إذا كانت الآيه لا تتحدث عن السماء،فلأنّ مكان الإنس و الجن هو الأرض على كلّ حال.

***

بحثان

اشاره

١-الإعلام المؤثر

كما قلنا سابقا،فإنّ البحث حول الجن و كيفيه حياتهم و الخصوصيات الاخرى المتعلقه بهم ستأتى فى تفسير سوره الجن إن شاء اللّه تعالى،و الذى يستفاد من هذه الآيات أنّ الجن موجودات عاقله لها إدراك و شعور،و هم مكلّفون بالواجبات الإلهيه،و فيهم المؤمن و الكافر،و لديهم الاطلاع الكافى على الدعوات الإلهيه.

و المسأله الملفته للنظر فى هذه الآيات هو الأسلوب الذى اتبعه هؤلاء للتبليغ من أجل الإسلام بين قومهم،فهم بعد حضورهم عند النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و سماعهم آيات

القرآن،و اطلاعهم على محتواها،أتوا قومهم مسرعين و شرعوا بدعوتهم.

لقد تحدّثوا أوّلا عن كون القرآن حقّا،و أثبتوا ذلك بأدله ثلاثه،ثمّ بدأوا بترغيبهم،فبشروهم بالنجاه و الخلاص من قبضه عذاب الآخره فى ظل الإيمان بهذا الكتاب السماوى،و كان ذلك تأكيدا على مسأله المعاد من جانب،و صرف الاهتمام إلى قيم الآخره الأصيله فى مقابل قيم الدنيا الزائله الفانيه من جانب آخر.

ثمّ نبّهوهم فى المرحله الثّالثه على أخطار ترك الإيمان،و حذروهم تحذيرا مقترنا بالاستدلال و الحرص،و أخيرا بيّنوا لهم عاقبه الانحراف عن هذا المسير، فالانحراف عنه هو الضلال المبين.

إنّ هذا الأسلوب فى التبليغ و الإعلام أسلوب مؤثر نافع لكلّ فرد و لكلّ فئه.

٢-أفضل دليل على عظمه القرآن محتواه

يظهر جليا من الآيات أعلاه-و آيات سوره الجن-أنّ هذه الفرقه من الجن قد انجذبوا إلى القرآن و انشدوا إليه بمجرّد سماع آياته،و لا يوجد أى دليل على أنّهم قد طلبوا من نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم معجزه أخرى.

لقد اعتبر هؤلاء انسجام القرآن المجيد مع آيات الكتب السابقه من جهه،و أنّه يدعوا الى الحق من جهه ثانيه،و استقامه برامجه العمليه و تخطيطه من جهه ثالثه، كافيا لأن يدل على كونه حقّا.

و الحق أنّ الأمر كذلك،فإنّ التدبّر فى محتوى القرآن و التحقيق فيه يغنينا عن الحاجه إلى أى دليل آخر.

إنّ كتابا لشخص أمى لم يدرس،و فى محيط ملىء بالجهل و الخرافات،يكون فيه هذا المحتوى السامى،و العقائد الطاهره النقيه،و التوحيد الخالص،و القوانين المحكمه المنسجمه،و الاستدلالات القويه القاطعه،و البرامج المتينه البنّاءه،

و المواعظ و الإرشادات العاليه الجليه،و بتلك الجاذبيه القويه،و الجمال المذهل، كل ذلک يشكل بنفسه أفضل دليل على حقانيه هذا الكتاب السماوى،فإنّ ظهور الشمس دليل على ظهورها-كما يقول المثل- (۱) .

***

ص :۳۰۰

۱- ۱) -كان لنا بحث مفصّل حول إعجاز القرآن فى التّفسير الأمثل،ذيل الآيه(۲۳)من سوره البقره.

الآیات [سوره الأحقاف (۴۶): الآیات ۳۳ الی ۳۵]

اشاره

أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّ اَللّٰهَ اَلَّذِی خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ وَ لَمْ یَعْیَ بِخَلْقِهِنَّ بِقٰادِرٍ عَلیٰ أَنْ یُحْیِیَ اَلْمَوْتیٰ بَلیٰ إِنَّهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۳۳) وَ یَوْمَ یُعْرَضُ اَلَّذِینَ کَفَرُوا عَلَی اَلنّٰارِ أَ لَیْسَ هٰذٰا بِالْحَقِّ قٰالُوا بَلیٰ وَ رَبِّنٰا قٰالَ فَذُوقُوا اَلْعَذٰابَ بِمٰا کُنْتُمْ تَکْفُرُونَ (۳۴) فَاصْبِرْ کَمٰا صَبَرَ أُولُوا اَلْعَزْمِ مِنَ اَلرُّسُلِ وَ لاٰ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ کَأَنَّهُمْ یَوْمَ یَرَوْنَ مٰا یُوعَدُونَ لَمْ یَلْبَثُوا إِلاّٰ سٰاعَةً مِنْ نَهٰارٍ بَلاٰغٌ فَهَلْ یُهْلَکُ إِلاَّ اَلْقَوْمُ اَلْفٰاسِقُونَ (۳۵)

التّفسیر

اشاره

فاصبر کما صبر أولوا العزم:

تواصل هذه الآیات-و هی آخر آیات سوره الأحقاف-البحث حول المعاد، حیث جاءت الإشاره إلی مسأله المعاد فی الآیات السابقه حکایه عن لسان مبلغی الجن.هذا من جهه.

ص: ۳۰۱

و من جهه أخرى فإنّ سوره الأحقاف تتحدث في فصولها الأولى عن مسأله التوحيد،و عظمه القرآن المجيد،و إثبات نبوه نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم،و تبحث في آخر فصل من هذه السوره مسأله المعاد لتكمل بذلك البحث في الأصول الاعتقاديه الثلاثه.

تقول الآيه الأولى: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فإنّ خلق السماوات و الأرض مع موجوداتها المختلفه المتنوعه علامه قدرته تعالى على كلّ شىء،لأنّ كل ما يقع في دائره مخلوق للّه في هذا العالم، فإذا كان الأمر كذلك،فكيف يمكن أن يكون عاجزا عن إعاده حياه البشر؟و هذا بحدّ ذاته دليل قاطع مفحم على مسأله إمكان المعاد.

و أساسا فإنّ أفضل دليل على إمكان أى شىء وقوعه،فكيف ندع إلى أنفسنا سبيلا للشك في قدره اللّه المطلقه على مسأله المعاد و نحن نرى نشأه الموجودات الحيه و تولدها من موجودات ميته،و على هذا النطاق الواسع؟ هذا أحد أدله المعاد العديده التى يؤكد عليها القرآن و يستند إليها في آيات مختلفه،و من جملتها الآيه(٨١)من سوره يس (١) .

و تجسّد الآيه التاليه مشهدا من العذاب الأليم المحيط بالمجرمين و منكرى المعاد،فتقول: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّارِ .

أجل،فمرّه تعرض النّار على الكافرين،و أخرى يعرضون الكافرين على النّار، و لكل من العرضين هدف أشير إليه قبل عدّه آيات.

و عند ما يعرضون الكافرين على النّار،و يرون ألسنه لهبها العظيمه المحرقه المرعبه يقال لهم: أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ ؟و هل تستطيعون اليوم أن تنكروا البعث و محكمه اللّه العادله،و ثوابه و عقابه،و تقولون:ما هذا إلاّ أساطير الأولين؟

ص: ٣٠٢

١- ١) -طالع التفصيل حول هذا الموضوع،و أدلّه المعاد المختلفه في ذيل آخر آيات سوره يس.

غير أنّ أولئك الذين لا حيله لهم: قَالُوا بَلىٰ وَ رَبِّنا فهنا يقول اللّه سبحانه،أو ملائكه العذاب: قٰالَ فَذُوقُوا الْعَذٰابَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ .

و بهـذا فإنّهم يرون كلّ الحقائق بأم أعينهم فى ذلك اليوم و يعترفون بذلك الاعتراف الذى لن ينفعهم،و سوف لن تكون نتيجته إلّا الهم و الحسره،و تأنيب الضمير و العذاب الروحى.

و يأمر اللّه سبحانه نبيّه فى آخر آيه من هـذه الآيـات،و هى آخر آيه فى سوره الأحقـاف،على أسـاس ملاحظه ما مرّ فى الآيات السابقه حول المعاد و عقاب الكافرين،أن: فَاصْبِرْ كَمٰا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ فلست الوحيـد الذى واجه مخالفه هؤلاء القوم و عداوتهم،فقد واجه أولو العزم هذه المشاكل و ثبتوا أمامها و اسـتقاموا،فنبىّ اللّه العظيم نوح عليه السّلام دعا قومه(٩٥٠)سنه،و لم يؤمن به إلّا فئه قليله،و كان قومه يؤذونه دائما،و يسخرون منه.

و ألقوا إبراهيم عليه السّلام فى النّار،و هـددوا موسـى عليه السّلام بالقتل،و كان قلبه قد امتلأ قيحا من عصـيانهم،و كانوا يريدون قتل المسيح عليه السّلام بعد أن آذوه كثيرا،فأنجاه اللّه منهم.

و خلاصه القول:إنّ الأمر كان و ما يزال كذلك ما كانت الدنيا،و لا يمكن التغلب على هذه المشاكل إلّا بقوّه الصبر و الاسـتقامه و الثبات.

من هم أولو العزم من الرسل؟

هناك بحث و اختلاف كبير جدّا بين المفسّرين فى:من هم أولو العزم؟و قبل أن نحقق فى هذا،ينبغى أن نحقق فى معنى(العزم)،لأنّ(أولو العزم)بمعنى ذوى العزم.

«العزم»بمعنى الإراده الصلبه القويه،و يقول الراغب فى مفرداته:إنّ العزم هو عقد القلب على إمضاء الأمر.

و قد استعملت كلمه العزم فى مورد الصبر فى آيات القرآن المجيد أحيانا،كقوله

تعالی: وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذٰلِکَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (۱) .

و جاءت أحیانا بمعنی الوفاء بالعهد،کقوله تعالی: وَ لَقَدْ عَهِدْنٰا إِلیٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِیَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (۲) .

لکن بملاحظه أنّ أصحاب الشرائع و الأدیان الجدیده من الأنبیاء قد ابتلوا بمشاکل أکثر،و واجهوا مصاعب أشد،و کانوا بحاجه إلی عزم و إراده أقوی و أشد لمواجهتها،فقد أطلق علی هذه الفئه من الأنبیاء(أولو العزم)و الآیه مورد البحث إشاره إلی هذا المعنی ظاهرا.و هی تشیر ضمنا إلی أن نبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم من هذه الفئه،لأنّها تقول: فَاصْبِرْ کَمٰا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ .

و إذا کان البعض قد فسّر العزم و العزیمه بمعنی الحکم و الشریعه فمن هذه الجهه، و إلاّ فإنّ کلمه العزم لم تأت فی اللغه بمعنی الشریعه.

و علی أیه حال،فطبقا لهذا المعنی تکون(من)فی(من الرسل)تبعیضیه، و إشاره إلی فئه خاصّه من الأنبیاء کانوا أصحاب شریعه،و هم الذین أشارت إلیهم الآیه ۷ من سوره الأحزاب: وَ إِذْ أَخَذْنٰا مِنَ النَّبِیِّینَ مِیثٰاقَهُمْ وَ مِنْکَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْرٰاهِیمَ وَ مُوسیٰ وَ عِیسَی ابْنِ مَرْیَمَ وَ أَخَذْنٰا مِنْهُمْ مِیثٰاقاً غَلِیظاً .

فقد أشارت الآیه إلی هؤلاء الأنبیاء الخمسه بعد ذکر جمیع الأنبیاء بصیغه الجمع،و هذا دلیل علی خصوصیتهم.

و تتحدث الآیه(۱۳)من سوره الشوری عنهم أیضا،فتقول: شَرَعَ لَکُمْ مِنَ الدِّینِ مٰا وَصّٰی بِهِ نُوحاً وَ الَّذِی أَوْحَیْنٰا إِلَیْکَ وَ مٰا وَصَّیْنٰا بِهِ إِبْرٰاهِیمَ وَ مُوسیٰ وَ عِیسیٰ .

و قد رویت فی هذا الباب روایات کثیره فی مصادر الشیعه و السنّه،تدل علی أنّ الأنبیاء أولی العزم کانوا خمسه،کما

ورد فی حدیث عن الإمامین الباقر

۱- ۱) -الشوری،الآیه ۴۳.

۲- ۲) -سوره طه،الآیه ۱۱۵.

و الصادق عليهما السلام: «و منهم خمسه:أولهم نوح،ثمّ إبراهيم ثمّ موسى،ثمّ عيسى،ثمّ محمّد» (۱) .

و

جاء فى حديث آخر عن الإمام على بن الحسين عليه السّلام: «منهم خمسه أولو العزم من المرسلين:نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمّد». و عند ما يسأل الراوى:لم سموا(أولو العزم)؟

يقول الإمام عليه السّلام مجيبا: «لأنّهم بعثوا إلى شرقها و غربها،و جنّها و إنسها» (۲) .

و كذلك

ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «ساده النبيّين و المرسلين خمسه، و هم أولو العزم من الرسل،و عليهم دارت الرحى:نوح،و إبراهيم،و موسى، و عيسى،و محمّد» (۳) .

و روى هذا المعنى فى تفسير الدر المنثور عن ابن عباس أيضا،بأنّ الأنبياء أولى العزم هم هؤلاء الخمسه (۴) .

إلاّ أنّ بعض المفسّرين يعتقد أنّ(أولو العزم)إشاره إلى الأنبياء الذين أمروا بمحاربه الأعداء و جهادهم.

و اعتبر البعض عددهم(۳۱۳) نفرا (۵) ،و يرى البعض أنّ جميع الأنبياء(أولو عزم)أى أصحاب إراده (۶) صلبه و طبقا لهذا القول،فإنّ(من)فى(من الرسل)بيانيه لا تبعيضيه.

إلاّ أنّ التّفسير الأوّل أصح منها جميعا،و تؤيده الروايات الإسلاميه.

ثمّ يضيف القرآن بعد ذلك: وَ لاٰ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ أى للكفار لأنّ القيامه ستحل

ص: ۳۰۵

۱- ۱) -مجمع البيان،المجلد ۹،صفحه ۹۴،ذيل الآيات مورد البحث.

۲- ۲) -بحار الأنوار،المجلد ۱۱،صفحه ۵۸،حديث ۶۱،و يتحدث الحديث ۵۵،صفحه ۵۶،من المجلد المذكور بصراحه فى هذا الباب.

۳- ۳) -الكافى،المجلد ۱،باب طبقات الأنبياء و الرسل،حديث ۳.

۴- ۴) -الدر المنثور،المجلد ۶،صفحه ۴۵.

۵- ۵) -المصدر السابق.

۶- ۶) -المصدر السابق.

سریعا،و سیرون بأعینهم ما أطلقوه علیها و ادعوه فیها،و یجزون أشدّ العذاب، و عندها سیطلعون علی أخطائهم،و یعرفون ما کانوا علیه من الضلاله و الغی.

إنّ عمر الدنیا قصیر جدّا بالنسبه إلی عمر الآخره،حتی: کَأَنَّهُمْ یَوْمَ یَرَوْنَ مٰا یُوعَدُونَ لَمْ یَلْبَثُوا إِلاّ سٰاعَهً مِنْ نَهٰارٍ .

إنّ هذا الإحساس بقصر عمر الدنیا بالنسبه إلی الآخره،إمّا بسبب أنّ هذه الحیاه لیست إلاّ ساعه أمام تلک الحیاه الخالده حقیقه و واقعا،أو لأنّ الدنیا تنقضی علیهم سریعا حتی کأنّها لم تکن إلاّ ساعه،أو من جهه أنّهم لا یرون حاصل کلّ عمرهم الذی لم یستغلوه و یستفیدوا منه الاستفاده الصحیحه إلاّ ساعه لا أکثر.

هنا سیغطی سیل الأحزان و الحسره قلوب هؤلاء،و لات حین ندم،إذ لا سبیل الی الرجوع.

لهذا نری النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و

قد سئل:کم ما بین الدنیا و الآخره؟فقال:«غمضه عین، ثمّ یقول:قال اللّه تعالی: کَأَنَّهُمْ یَوْمَ یَرَوْنَ مٰا یُوعَدُونَ لَمْ یَلْبَثُوا إِلاّ سٰاعَهً مِنْ نَهٰارٍ » (۱) . و هذا یوحی بأنّ التعبیر بالساعه لا تعنی مقدار الساعه المتعارفه،بل هو إشاره إلی الزمان القلیل القصیر.

ثمّ تضیف الآیه کتحذیر لکلّ البشر«بلاغ» (۲) لکلّ أولئک الذین خرجوا عن خط العبودیه للّه تعالی..لأولئک الغارقین فی بحر الحیاه الدنیا السریعه الزوال و الفناء،و العابدین شهواتها..و أخیرا هو بلاغ لکلّ سکان هذا العالم الفانی.

و تقول فی آخر جمله تتضمن استفهاما عمیق المعنی،و ینطوی علی التهدید:

فَهَلْ یُهْلَکُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفٰاسِقُونَ

؟ ***

ص:۳۰۶

۱- ۱) -روضه الواعظین،طبقا لنقل نور الثقلین،المجلد ۵،صفحه ۲۵.

۲- ۲) -«بلاغ»خبر لمبتدأ محذوف،و التقدیر:هذا القرآن بلاغ،أو:هذا الوعظ و الإنذار بلاغ.

ملاحظه کان نبیّ الإسلام مثال الصبر و الاستقامه:

إنّ حیاه أنبیاء اللّه العظام-و خاصه نبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم-تبیان لمقاومتهم اللامحدوده أمام الحوادث الصعبه و الشدائد العسیره،و العواصف الهوجاء، و المشاکل القاصمه،و لما کان طریق الحق ملیئا بهذه المشاکل دائما،فیجب علی سالکیه أن یستلهموا العبر من أولئک العظماء فی هذا المسیر.

إنّنا ننظر عاده من نقطه مضیئه فی تاریخ الإسلام إلی أیّام مرّت علی الإسلام و نبیّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم صعبه مظلمه،و هذه النظره من المستقبل إلی الماضی تجسم الوقائع و الحقائق بشکل آخر،فینبغی علینا أن ندرک أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان وحیدا فریدا لا یری فی أفق الحیاه أیه علامه للانتصار.

فأعداؤه شمروا عن سواعدهم للفتک به،حتی أنّ أقاربه و عشیرته کانوا فی الخط الأوّل فی هذه المجابهه! کان یذهب دائما إلی قبائل العرب و یدعوهم،و لکن لم یکن یجیبه أحد.

کانوا یرجمونه حتی تسیل الدماء من عقبیه،لکنه لم یکن یکف عن عمله.

لقد فرضوا علیه الحصار الاجتماعی و الاقتصادی و السیاسی بحیث أغلقوا جمیع الأبواب و الطرق بوجهه و بوجه أتباعه،حتی مات بعضهم جوعا،و أقعد المرض بعضهم الآخر.

لقد مرّت علی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أیّام یصعب علی القلم و اللسان وصفها،فعند ما جاء إلی الطائف لیدعو الناس إلی الإسلام،لم یکتفوا بعدم إجابه دعوته،بل رموه بالحجاره حتی سال الدم من قدمیه.

لقد کانوا یحثون الجهلاء من الناس علی أن یصرخوا،و یسیئوا فی کلامهم إلیه، فیضطر إلی أن یلتجئ إلی بستان و یستظل بظل شجره،و یناجی ربّه

فیقول: «اللّهمّ إلیک أشکو ضعف قوتی،و قله حیلتی،و هو انی علی الناس،یا أرحم الراحمین:أنت

رب المستضعفين،و أنت ربی،إلی من تکلنی؟إلی بعید یتجهمنی؟أم إلی عدو ملکته أمری؟إن لم یکن بک علی غضب فلا أبالی...» (۱) .

کانوا یسمونه ساحرا تاره،و أخری یخاطبونه بالمجنون.

کانوا یلقون التراب و الرماد علی رأسه حینا،و حینا یجمعون علی قتله، فیحاصرون بیته بالسیوف و الرماح.

إلّا أنّه رغم کلّ تلک الظروف استمر فی صبره و صموده و استقامته.

و أخیرا جنی الثمره الطیبه لهذه الشجره المبارکه،فقد عمّ دینه شرق العالم و غربه،لا جزیره العرب وحدها،و یدوّی الیوم صوت انتصاره صباح مساء فی کلّ أرجاء الدنیا،و فی قارات العالم الخمسه،و هذا هو معنی: فَاصْبِرْ کَمٰا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ .

و هذا هو طریق محاربه الشیاطین،و طریق الإنتصار علیهم،و الوصول إلی الأهداف الإلهیه السامیه.

إذا کان الأمر کذلک،فکیف یطمح طلاب الراحه و السلامه إلی أن یصلوا إلی أهدافهم الکبیره من دون صبر و تحمل للعذاب و الآلام؟ و کیف یأمل مسلمو الیوم أن ینتصروا علی کلّ هؤلاء الأعداء الذین اجتمعت کلمتهم علی إفنائهم و القضاء علیهم،دون الاستلهام من دین نبی الإسلام الأصیل؟ و القاده الإسلامیون بخاصه مأمورون بهذا الأمر قبل الجمیع،کما

ورد فی حدیث عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: «إنّ الصبر علی ولاه الأمر مفروض،لقول اللّه عزّ و جلّ لنبیّه: فَاصْبِرْ کَمٰا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ و إیجابه مثل ذلک علی أولیائه و أهل طاعته بقوله: لَقَدْ کٰانَ لَکُمْ فِی رَسُولِ اللّٰهِ أُسْوَهٌ حَسَنَهٌ » (۲) .

اللّهمّ امنحنا هذه الموهبه العظیمه،هذه العطیه السماویه،و هذا الصبر و الثبات

۱- ۱) -سیره ابن هشام،المجلد ۲،صفحه ۶۱.

۲- ۲) -احتجاج الطبرسی طبقا لنقل نور الثقلین،المجلد ۵،صفحه ۲۳.

و الاستقامه أمام المشاكل.

اللّهمّ وفقنا لحفظ مشعل النور الذى حمله أولو العزم من أنبيائک،و خاصه خاتم النبيين محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم،من أجل هدايه البشريه بعد تحملهم الجهود المضنيه، و وفقنا لأن نكون أهلا لحراسته.

إلهنا!إنّ أعداء الحق متحدون و متحزّبون ضده،و لا يرتدعون عن اقتراف أيه جريمه و جنايه،اللّهمّ فامنحنا صبرا و ثباتا أعظم مما لديهم لئلا نركع أمام سيل المشاكل و عظمتها،و وفقنا لأن نتخطى الأمواج و العواصف و نتركها وراءنا،و هذا لا يتمّ إلّا بعونک و لطفک اللامحدود.

آمين يا ربّ العالمين.

نهايه سوره الأحقاف ***

ص: ۳۰۹

سوره محمّد

اشاره

مدنيّه و عدد آياتها ثمان و ثلاثون آيه

ص :۳۱۱

محتوى السوره:

سمّيت هذه السوره بسوره محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم لأنّ اسمه الشريف قد ذكر فى الآيه الثانيه،و اسمها الآخر هو سوره القتال،و الواقع أنّ مسأله الجهاد و قتال أعداء الإسلام هو أهم موضوع ألقى ظلاله على هذه السوره،فى حين أنّ جزءا مهما آخر من آيات هذه السوره يتناول المقارنه بين حال المؤمنين و الكافرين و خصائصهم و صفاتهم،و كذلك المصير الذى ينتهى إليه كلّ منهما فى الحياه الآخره.

و يمكن تلخيص محتوى السوره بصوره عامه فى عده فصول:

١-مسأله الإيمان و الكفر،و المقارنه بين أحوال المؤمنين و الكفار فى هذه الدنيا و فى الحياه الآخره.

٢-بحوث معبره بليغه و صريحه حول مسأله الجهاد و قتال المشركين، و التعليمات الخاصه فيما يتعلق بأسرى الحرب.

٣-شرح أحوال المنافقين الذين كان لهم نشاطات هدّامه كثيره حين نزول هذه الآيات فى المدينه.

۴-فصل آخر يتناول مسأله السير فى الأرض،و تدبر مصير الأقوام الماضين و عاقبتهم،كدرس للاعتبار و الاتعاظ.

۵-و فى جانب من آيات هذه السوره ذكرت مسأله الاختبار الإلهى لمناسبتها موضوع القتال و الجهاد.

۶-ورد الحديث فى فصل آخر عن مسأله الإنفاق الذى يعتبر بحدّ ذاته نوعا

من الجهاد،و جاء الحديث عن مسأله البخل الذى يقع فى الطرف المقابل.

۷-و تناولت بعض آیات هذه السوره-لمناسبه موضوعها-مسأله الصلح مع الكفار-الصلح الذى يكون أساسا لهزيمه المسلمين و ذلّتهم-و نهت عنه.

و بالجمله،فبملاحظه أنّ هذه السوره قد نزلت فى المدينه حينما كان الاشتباك شديدا بين المسلمين و أعداء الإسلام،و على قول بعض المفسّرين أنّها نزلت أثناء معركه أحد أو بعدها بقليل،فإنّ أهم مسأله فيها هى قضيه الجهاد و الحرب،و تدور بقيه المسائل حول ذلك المحور..الحرب المصيريه التى تميّز المؤمنين عن الكافرين و المنافقين..الحرب التى كانت تثبت دعائم الإسلام،و ردّت كيد الأعداء الذين هبّوا للقضاء على الإسلام و المسلمين فى نحورهم-و أوقفتهم عند حدّهم.

فضل تلاوه السوره:

جاء فى حديث عن نبى الإسلام الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «من قرأ سوره محمّد كان حقّا على اللّه أن يسقيه من أنهار الجنّه» (۱) .

و

روى فى كتاب ثواب الأعمال عن الصادق عليه السّلام،أنّه قال: «من قرأ سوره الذين كفروا-سوره محمّد لم يرتب أبدا،و لم يدخله شكّ فى دينه،و لم يبتله اللّه بفقر أبدا،و لا خوف سلطان أبدا،و لم يزل محفوظا من الشرك و الكفر أبدا حتى يموت، فإذا مات و كلّ اللّه به فى قبره ألف ملك يصلون فى قبره،و يكون ثواب صلاتهم له و يشيعونه حتى يوقفوه موقف الأمن عند اللّه عزّ و جلّ،و يكون فى أمان اللّه،و أمان محمّد» (۲) .

من الواضح أنّ الذين جرى محتوى هذه السوره فى دمائهم،و تشبّعت به

۱- ۱) -مجمع البيان،المجلد ۹،بدايه سوره محمّد.

۲- ۲) -ثواب الأعمال،طبقا لنقل نور الثقلين،المجلد ۵،صفحه ۲۵.

أرواحهم،و هم أشداء فی جهاد الأعداء اللدودین القساه،و الذین لم یدعوا للشک و التزلزل الی أنفسهم سبیلا،تکون أسس دینهم قویه،و إیمانهم صلبا،و لا یملکهم خوف و لا تنالهم ذله و لا یعتریهم فقر،و هم فی الآخره منعمون فی جوار رحمه اللّه.

و

جاء فی حدیث آخر أنّ الإمام علیه السّلام قال: «من أراد أن یعرف حالنا و حال أعدائنا فلیقرأ سوره محمّد فإنّه یراها آیه فینا و آیه فیهم» (۱) .

و قد نقل هذا الحدیث مفسرو السنّه أیضا،کالآلوسی فی روح المعانی (۲) و السیوطی فی الدر المنثور (۳) .

و هذه السوره تبیان لحقیقه أنّ أهل بیت النّبی علیه السّلام کانوا نموذجا لأکمل الإیمان و أتمه،و أنّ بنیّ أمیه کانوا المثال البارز للکفر و النفاق.

صحیح أنّه لم یرد تصریح باسم أهل البیت و لا باسم بنی أمیه فی هذه السوره، لکن لمّا کان البحث فیها عن فئه المؤمنین و المنافقین و خصائص کلّ منهما،فإنّها تشیر قبل کلّ شیء إلی مصداقین واضحین،و لا مانع فی نفس الوقت من أن تشمل السوره سائر المؤمنین و المنافقین.

***

۱- ۱) -مجمع البیان،المجلد ۹،أوّل السوره.

۲- ۲) -روح المعانی،المجلد ۲۶،صفحه ۳۳.

۳- ۳) -الدر المنثور،المجلد ۶،ص ۴۶.

الآيات [سوره محمد (۴۷): الآيات ۱ الی ۳]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ أَضَلَّ أَعْمٰالَهُمْ (۱) وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ وَ آمَنُوا بِمٰا نُزِّلَ عَلىٰ مُحَمَّدٍ وَ هُوَ اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئٰاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بٰالَهُمْ (۲) ذٰلِكَ بِأَنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا اِتَّبَعُوا اَلْبٰاطِلَ وَ أَنَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا اِتَّبَعُوا اَلْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اَللّٰهُ لِلنّٰاسِ أَمْثٰالَهُمْ (۳)

التّفسير

اشاره

المؤمنون أنصار الحق،و الكافرون أنصار الباطل:

إنّ هذه الآيات الثلاث تعتبر فی الحقيقه مقدمه لأمر حربی مهم صدر فی الآيه الرابعه،فبيّنت الأولى منها وضع الكافرين و حالهم،و الثانيه حال المؤمنين، و قارنت ثالثتهما بين الإثنين،و ذلك لتتهيأ الأرضيه و الاستعداد للجهاد الدينی ضد الأعداء الظالمين العتاه باتضاح حال الفئتين.

تقول الآيه الأولى: اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ أَضَلَّ أَعْمٰالَهُمْ و هی

إشاره الی زعماء الكفر و مشركی مكّه الذين كانوا يشعلون نار الحروب ضد الإسلام،و لم يكتفوا بكونهم كفارا،بل كانوا يصدون الآخرين عن سبيل اللّه بأنواع الحيل و الخدع و المخططات.

و مع أنّ بعض المفسّرين-كالزمخشری فی الكشّاف-فسّر«الصدّ»هنا بمعنى الإعراض عن الإيمان،فی مقابل الآيه التاليه التی تتحدث عن الإيمان،إلاّ أنّ الإحاطه بموارد استعمال هذه الكلمه فی القرآن الكريم توجب الحفاظ على معناها الأصلی،و هو المنع.

و المراد من: أَضَلَّ أَعْمٰالَهُمْ أنّه يحبطها و يجعلها هباء منثورا،لأنّ الإحباط و الإضاعه كنايه عن بقاء الشیء بدون حمايه و لا عماد،و لازم ذلک زواله و فناؤه.

و على أيه حال،فإنّ بعض المفسّرين يرون أنّ هذه الجمله إشاره إلى الذين نحروا الإبل يوم بدر و أطعموها الناس،إذ نحر أبو جهل عشره من الإبل،و مثله صفوان،و سهيل بن عمر،لإطعام جيش الكفر (1) .لكن لمّا كانت هذه الأعمال من أجل التفاخر و مكائد الشيطان فقد أحبطت جميعا.

غير أنّ الظاهر أنّها لا تنحصر بهذا المعنى،بل إنّ كلّ أعمالهم التی قاموا بها، و ظاهرها معونه للفقراء و الضعفاء،أو إقراء للضيف،أو غير ذلک ستحبط لعدم إيمانهم.

و بغض النظر عن ذلک،فإنّ اللّه سبحانه قد أحبط كلّ مؤامراتهم و ما قاموا به من أعمال لمحو الإسلام و القضاء على المسلمين،و حال بينهم و بين الوصول إلى أهدافهم الخبيثه.

و الآيه التاليه وصف لوضع المؤمنين الذين يقفون فی الصف المقابل للكافرين الذين وردت صفاتهم فی الآيه السابقه،فتقول:

١- ١) -روح المعانی،المجلد ٢۶،صفحه ٣٣.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ وَ آمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بالَهُمْ

(۱)

.

إنّ ذكر الإيمان بما نزل على نبيّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم بعد ذكر الإيمان بصوره مطلقه، تأكيد على تعليمات هذا النّبى العظيم و مناهجه،و هو من قبيل ذكر الخاص بعد العام،و تبيان لحقيقه أنّ الإيمان باللّه سبحانه لا يتمّ أبدا بدون الإيمان بما نزل على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و يحتمل أيضا أن تكون الجمله الأولى إشاره إلى الإيمان باللّه تعالى،و لها جانب عقائدى،و هذه الجمله إشاره إلى الإيمان بمحتوى الإسلام و تعليمات النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم،و لها الجانب العملى.

و بتعبير آخر،فإنّ الإيمان باللّه سبحانه لا يكفى وحده،بل يجب أن يؤمنوا بما نزل على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم،و أن يكون لهم إيمان بالقرآن،إيمان بالجهاد،إيمان بالصلاه و الصوم،و إيمان بالقيم الأخلاقيه التى نزلت عليه.ذلك الإيمان الذى يكون مبدأ للحركه،و تأكيدا على العمل الصالح.

و ممّا يستحق الانتباه أنّ الآيه تقول بعد ذكر هذه الجمله: وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ و هى تعنى أنّ إيمانهم لم يكن تقليدا،أو أنّه لم يقم على دليل و حجه،بل إنّهم آمنوا بعد أن رأوا الحق فيه.

و عباره مِنْ رَبِّهِمْ تأكيد على حقيقه أنّ الحق يأتى دائما من قبل اللّه سبحانه، فهو يصدر منه،و يعود إليه.

و الجدير بالالتفات إليه أنّ الآيه تبيّن ثوابين للمؤمنين الذين يعملون الصالحات،فى مقابل العقابين اللذين ذكرا للكفار الصادين عن سبيل اللّه:أو لهما:

التكفير عن السيئات التى لا يخلو منها أى إنسان غير معصوم،و الثانى:إصلاح البال.

لقد جاء«البال»بمعان مختلفه،فجاء بمعنى الحال،العمل،القلب،و على قول

۱- ۱) -اعتبر جماعه من المفسّرين جمله(و هو الحق من ربّهم)جمله معترضه.

الراغب:بمعنى الحالات العظيمه الأهميه،و بناء على هـذا فإنّ إصـلاح البال يعنى تنظيم كلّ شؤون الحياه و الأمور المصـيريه،و هو يشـمل-طبعـا-الفوز فى الـدنيا، و النجـاه فى الآـخره،على عكس المصـير الـذى يلاقيه الكفار،إذ لا يصـلون إلى ثمره جهودهم و مساعيهم،و لا نصيب لهم إلّا الهزيمه و الخسران بحكم: أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ .

و يمكن القول بأنّ غفران ذنوبهم نتيجه إيمانهم،و أنّ إصلاح بالهم نتيجه أعمالهم الصالحه.

إنّ للمؤمنين هـدوءا فكريا و اطمئنانا روحيا من جهه،و توفيقا و نجاحا فى برامجهم العمليه من جهه ثانيه،فإنّ لإصـلاح البال إطارا واسعا يشمل الجميع،و أى نعمه أعظم من أن تكون للإنسان روح هادئه،و قلب مطمئن،و برامج مفيده بنّاءه.

و بيّنت الآيه الأخيره العله الأساسـيه لهذا الإنتصار و تلك الهزيمه من خلال مقارنه مختصـره بليغه،فقالت: ذٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ .

هنا يكمن سرّ المسأله بأنّ خطّى الإيمان و الكفر يتفرعان عن خطّى الحق و الباطل،فالحق يعنى الحقائق العينيه،و أسماها ذات اللّه المقدّسه،و تليها الحقائق المتعلقه بحياه الإنسان،و القوانين الحاكمه فى علاقته باللّه تعالى،و فى علاقته بالآخرين.

و الباطل يعنى الظنون،و الأوهام،و المكائد و الخدع،و الأساطير و الخرافات، و الأفعال الجوفاء التى لا هدف من ورائها،و كلّ نوع من الانحراف عن القوانين الحاكمه فى عالم الوجود.

نعم،إنّ المؤمنين يتبعون الحق و ينصرونه،و الكفار يتبعون الباطل و يؤازرونه، و هنا يكمن سرّ انتصار هؤلاء،و هزيمه أولئك.

ص :۳۱۹

يقول القرآن الكريم: وَ مٰا خَلَقْنَا السَّمٰاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا بٰاطِلاً (۱) .

و فسّر البعض«الباطل»بالشيطان،و آخرون بالعبثيه،لكن كما قلنا،فإنّ للباطل معنى واسعا يشمل هذين التّفسيرين و غيرهما.

و تضيف الآيه في النهايه: كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ لِلنّٰاسِ أَمْثٰالَهُمْ أي:كما أنّه سبحانه قد بيّن الخطوط العامّه لحياه المؤمنين و الكفار،و عقائدهم و برامجهم العمليه و نتائج أعمالهم في هذه الآيات،فإنّه يوضح مصير حياتهم و عواقب أعمالهم.

يقول الراغب في مفرداته:المثل عباره عن قول يشبه قولا في شيء آخر بينهما مشابهه يبيّن أحدهما الآخر.

و يستفاد من كلام آخر له أنّ هذه الكلمه تستعمل أحيانا بمعنى«المشابهه»، و أحيانا بمعنى«الوصف».

و الظاهر أنّ المراد في هذه الآيه هو المعنى الثاني،أي إنّ اللّه سبحانه يصف حال الناس هكذا،كما مثّل الجنّه في الآيه(۱۵)من سوره محمّد: مَثَلُ الْجَنَّهِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .

و على أيه حال،فالذي يستفاد من هذه الآيه جيدا،أنّنا كلما اقتربنا من الحق اقتربنا من الإيمان،و سنكون أبعد عن حقيقه الإيمان و أقرب إلى الكفر بتلك النسبه التي تميل بها أعمالنا نحو الباطل،فإنّ أساسي الإيمان و الكفر هما الحق و الباطل.

***

۱- ۱) -سوره ص،الآيه ۲۷.

الآيات [سوره محمد (۴۷): الآيات ۴ الی ۶]

اشاره

فَإِذا لَقِيتُمُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ اَلرِّقابِ حَتّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا اَلْوَثاقَ فَإِمّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمّا فِداءً حَتّى تَضَعَ اَلْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَ لَوْ يَشاءُ اَللّهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَ لكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَ اَلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اَللّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (۴) سَيَهْدِيهِمْ وَ يُصْلِحُ بالَهُمْ (۵) وَ يُدْخِلُهُمُ اَلْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ (۶)

التّفسير

اشاره

يجب الحزم في ساحه الحرب:

كما قلنا سائقا،فإنّ الآيات السابقه كانت مقدمه لتهيئه المسلمين من أجل إصدار أمر حربي مهم ذكر في الآيات مورد البحث،فتقول الآيه: فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ (۱) .

ص: ۳۲۱

۱- ۱) -«ضرب»مصدر مفعول مطلق لفعل مقدر،و التقدير:اضربوا ضرب الرقاب،كما صرّحت الآيه(۱۲)من سوره الأنفال بذلك إذ قالت: فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ .

من البـديهى أن«ضـرب الرقـاب»كنـايه عن القتـل،و على هـذا فلا ضـروره لأن يبـذل المقاتلون قصارى جهـدهم لأداء هـذا الأمر بالخصوص،فإنّ الهدف هو دحر العدو و القضاء عليه،و لما كان ضرب الرقاب أوضح مصداق له،فقد أكّدت الآيه عليه.

و على أيه حال،فإنّ هـذا الحكم مرتبط بساحه القتال،لأنّ«لقيتم»-من ماده اللقاء-تعنى الحرب و القتال فى مثل هذه الموارد،و فى نفس هذه الآيه قرائن عديده تشـهد لهذا المعنى كمسأله أسـر الأسـرى،و لفظه الحرب،و الشـهاده فى سبيل اللّه،و التى وردت فى ذيل الآيه.

و خلاصه القول:إنّ اللقاء يسـتعمل-أحيانا-بمعنى اللقاء بأى شكل كان، و أحيانا بمعنى المواجهه و المجابهه فى ميدان الحرب،و استعمل فى القرآن المجيد بكلا المعنيين،و الآيه مورد البحث ناظره إلى المعنى الثّانى.

و من هنا يتّضح أنّ أولئك الذين حوّروا هذه الآيه و فسّروها بأنّ الإسلام يقول:

حيثما وجـدتم كافرا فاقتلوه،لم يريـدوا إلاّ الإساءه إلى الإسـلام،و اتخاذ الآيه بمعناها المحرّف حربه ضـد الـدين الحنيف،محاوله منهم لتشويه صوره الإسلام الناصعه،و إلاّ فإنّ الآيه صريحه فى اللقاء فى ساحه الحرب و ميدان القتال.

من البـديهى أنّ الإنسان إذا واجه عـدوا شـرسا فى ميـدان القتال،و لم يقابله بحزم و لم يكل له الضـربات القاصـمه و لم يذقه حرّ سيفه ليهلكه،فإنّه هو الذى سيهلكك، و هذا القانون منطقى تماما.

ثمّ تضيف الآيه: حَتّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ .

«أثخنتموهم»من ماده ثخن،بمعنى الغلظه و الصلابه،و لهذا تطلق على النصر و الغلبه الواضحه،و السيطره الكامله على العدو.

و بـالرغم من أنّ أغلب المفسّـرين فسّـروا هـذه الجمله بكـثره القتـل فى العـدو و شـدّته،إلاّـ أنّ هـذا المعنى لاـ يوجـد فى أصـلها اللغوى،كما قلنا،و لكن لمّا كان دفع

خطر العدو غير ممكن أحيانا إلّا بكثره القتل فيه،فيمكن أن تكون مسأله القتل أحد مصاديق هذه الجمله فى مثل هذه الظروف،لا أنّها معناها الأصلى (۱) .

و على كلّ حال،فإنّ الآيه المذكوره تبيّن تعليما عسكريا دقيقا،و هو أنّه يجب أن لا يقدم على أسر الأسرى قبل تحطيم صفوف العدو و القضاء على آخر حصن لمقاومته،لأنّ الإقدام على الأسر قد يكون سببا فى تزلزل وضع المسلمين فى الحرب،و سيعوق المسلمين الاهتمام بأمر الأسرى و نقلهم إلى خلف الجبهات عن أداء واجبهم الأساسى.

و عباره فَشُدُّوا الْوَثاقَ و بملاحظه أنّ الوثاق هو الحبل،أو كلّ ما يربط به، يشير الى إتقان العمل فى شدّ وثاق الأسرى،لئلا يستغل الأسير فرصه يفر فيها،ثمّ يوجّه ضربه إلى الإسلام و المسلمين.

و تبيّن الجمله التاليه حكم أسرى الحرب الذى يجب أن يقام بحقّهم بعد انتهاء الحرب،فتقول: فَإِمّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمّا فِداءً و على هذا لا يمكن قتل الأسير الحربى بعد انتهاء الحرب،بل إنّ ولى أمر المسلمين-طبقا للمصلحه التى يراها-يطلق سراحهم مقابل عوض أحيانا،و بلا عوض أحيانا أخرى،و هذا العوض-فى الحقيقه-نوع من الغرامه الحربيه التى يجب أن يدفعها العدو.

طبعا يوجد حكم ثالث فى الإسلام فيما يتعلق بهذا الموضوع،و هو استعباد الأسرى،إلّا أنّه ليس أمرا واجبا،بل هو راجع إلى ولى أمر المسلمين ينفّذه عند ما يراه ضروره فى ظروف خاصه،و لعلّه لم يرد فى القرآن بصراحه لهذا السبب،بل بيّنته الرّوايات الإسلاميه فقط.

يقول فقيهنا المعروف«الفاضل المقداد»فى«كنز العرفان»:إنّ ما روى عن مذهب أهل البيت عليهم السّلام أنّ الأسير لو أسر بعد انتهاء الحرب فإنّ إمام المسلمين مخيّر بين ثلاث:إمّا إطلاقه دون شرط،أو تحريره مقابل أخذ الفديه،أو جعله

۱- ۱) -ينقل صاحب لسان العرب عن ابن الأعرابى أنّ:أثخن:إذا غلب و قهر.

عبدا،و لا يجوز قتله بأى وجه.

و يقول فى موضع آخر من كلامه:إنّ مسأله الرق استفيدت من الروايات،لا من متن الآيه (۱) .

و قد وردت هذه المسأله فى سائر الكتب الفقهيه أيضا (۲) .

و سنشير إلى هذا المطلب فى بحث الرق الذى سيأتى فى ذيل هذه الآيات.

ثمّ تضيف الآيه بعد ذلك: حَتّٰى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزٰارَهٰا (۳) فلا تكفوا عن القتال حتى تحطّموا قوى العدو و يصبح عاجزا عن مواجهتكم،و عندها سيخمد لهيب الحرب.

«الأوزار»جمع وزر،و هو الحمل الثقيل،و يطلق أحيانا على المعاصى،لأنّها تثقل كاهل صاحبها.

و الطريف أنّ هذه الأوزار نسبت إلى الحرب فى الآيه،إذ تقول: حَتّٰى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزٰارَهٰا و هذه الأحمال الثقيله كنايه عن أنواع الأسلحه و المشاكل الملقاه على عاتق المقاتلين،و التى يواجهونها،و هى بعهدتهم ما كانت الحرب قائمه.

لكن متى تنتهى الحرب بين الإسلام و الكفر؟ سؤال أجاب عنه المفسّرون إجابات مختلفه:

فالبعض-كابن عباس-قال:حتى لا تبقى و ثنيه على وجه البسيطه،و حتى يقتلع دين الشرك و تجتث جذوره.

و قال البعض الآخر:إنّ الحرب بين الإسلام و الكفر قائمه حتى ينتصر المسلمون على الدجال،و هذا القول يستند إلى

حديث روى عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «و الجهاد ماض مذ بعثنى اللّه إلى أن يقاتل آخر أمّتى

ص: ۳۲۴

۱- ۱) -كنز العرفان،المجلد ۱،صفحه ۳۶۵.

۲- ۲) -الشرائع،كتاب الجهاد.شرح اللمعه،أحكام الغنيمه.

۳- ۳) -«حتى»غايه ل(فضرب الرقاب).و احتملت احتمالات أخرى لا تستحق الاهتمام.

الدجال» (۱) .

البحث حول«الـدجّال»بحث واسع،لکن القـدر المعلوم أنّ الـدجّال رجـل خـدّاع، أو رجال خـدّاعون ینشـطون فی آخر الزمان من أجل إضـلال الناس عن أصل التوحیـد و الحق و العـداله،و سیقضـی علیهم المهـدی(عج)بقدرته العظیمه،و علی هذا فإنّ الحرب قائمه بین الحق و الباطل ما عاش الدجّالون علی وجه الأرض.

إنّ للإسـلام نوعین من المحـاربه مع الکفر:أحـدهما الحروب المرحلیه کـالغزوات الـتی غزاهـا النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سلّم حیث کانت السـیوف تغمد بعد انتهاء کل غزوه.و الآخر هو الحرب المسـتمره ضد الشرک و الکفر،و الظلم و الفساد،و هذا النوع مستمر حتی زمن اتساع حکومه العدل العالمیه،و ظهورها علی الأرض جمیعا علی ید المهدی(عج).

ثمّ تضـیف الآـیه: ذٰلِکَ وَ لَوْ یَشٰاءُ اللّٰهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ (۲) بـالصواعق السـماویه، و الزلازل،و العواصف،و الابتلاءات الأخری،لکن باب الاختبار و میدانه سیغلق فی هذه الصوره: وَ لٰکِنْ لِیَبْلُوَا بَعْضَکُمْ بِبَعْضٍ .

هذه المسأله هی فلسفه الحرب،و النکته الأساسیه فی صراع الحق و الباطل، ففی هذه الحروب ستتمیز صفوف المؤمنین الحقیقیین و العاملین من أجل دینهم عن المتکلمین فی المجالس المتخاذلین فی ساعه العسـره،و بذلک سـتتفتح براعم الاستعدادات،و تحیا قوّه الاستقامه و الرجوله،و یتحقق الهدف الأصلی للحیاه الدنیا،و هو الابتلاء و تنمیه قوّه الإیمان و القیم الإنسانیه الأخری.

إذا کـان المؤمنـون یتوقعـون علی ذواتهم و ینشـغلون بالحیـاه الیـومیه الرتیبه، و فی کـل مره تطغی فیهـا جمـاعه من المشـرکین و الظالمین یدحضهم اللّه سبحانه بالقوی الغیبیه،و یدمّرهم بالطرق الإعجازیه،فإنّ المجتمع سیکون خاملا ضعیفا

۱- ۱) -مجمع البیان،المجلد ۹،صفحه ۹۸.

۲- ۲) -«ذلک»خبر لمبتدأ محذوف،و التقدیر:الأمر کذلک.

عاجزا،ليس له من الإسلام و الإيمان إلّا اسمه.

و خلاصه القول:إنّ اللّه سبحانه غنى عن سعينا و جهادنا من أجل تثبيت دعائم دينه،بل نحن الذين نتربّى فى ميدان جهاد الأعداء،و نحن الذين نحتاج إلى هذا الجهاد المقدّس.

و قد ذكر هذا المعنى فى آيات القرآن الأخرى بصيغ أخرى،فنقرأ فى الآيه (۱۴۲)من سوره آل عمران: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّهَ وَ لَمّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصّابِرِينَ .

و جاء فى الآيه التى سبقتها: وَ لِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكافِرِينَ .

و تحدّثت آخر جمله من الآيه مورد البحث عن الشهداء الذين قدّموا أرواحهم هديه لدينهم فى هذه الحروب،و لهم فضل كبير على المجتمع الإسلامى،فقالت:

وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ

.

فلن تذهب جهودهم و آلامهم و تضحياتهم سدى،بل كلها محفوظه عند اللّه سبحانه،فستبقى آثار تضحياتهم فى هذه الدنيا،و كلّ نداء(لا إله إلّا اللّه) يطرق سمع البشر يمثل ثمره جهود أولئك الشهداء،و كلّ سجده يسجدها مسلم بين يدى اللّه هى من بركات تضحياتهم،فبمساعيهم تحطّمت قيود المذلّه و العبوديه،و عزّه المسلمين و رفعتهم رهينه ما بذلوه من الأرواح و التضحيات.

هذه هى أحدى مواهب اللّه فى شأن الشهداء.

و هناك ثلاث مواهب أخرى أضيفت فى الآيات التاليه:

تقول الآيه أوّلا: سَيَهْدِيهِمْ إلى المقامات الساميه،و الفوز العظيم،و رضوان اللّه تعالى.

و الأخرى: يُصْلِحُ بالَهُمْ فيهبهم هدوء الروح،و اطمئنان الخاطر،و النشاط المعنوى و الروحى،و الانسجام مع صفاء ملائكه اللّه و معنوياتهم،حيث يجعلهم جلساءهم و ندماءهم فى مجالس أنسهم و لذّتهم،و يدعوهم إلى ضيافته فى جوار

رحمته.

و الموهبه الأخيره هی: وَ یُدْخِلُهُمُ الْجَنَّهَ عَرَّفَها لَهُمْ .

قال بعض المفسّرین:إنّه تعالی لم یبیّن لهم الصفات الکلیه للجنّات العلی و روضه الرضوان و حسب،بل عرف لهم صفات قصورهم فی الجنّه و علاماتها، بحیث أنّهم عند ما یردون الجنّه یتوجّهون إلی قصورهم مباشره (۱) .

و فسر البعض(عرّفها)بأنّها من ماده«عرف»-علی زنه فکر-و هو العطر الطیب الرائحه،أی إنّ اللّه سبحانه سیدخلهم الجنّه التی عطّرها جمیعا استقبالا لضیوفه.

إلّا أنّ التّفسیر الأوّل یبدو هو الأنسب.

و قال البعض:إذا ضممنا هذه الآیات إلی آیه: وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِینَ قُتِلُوا فِی سَبِیلِ اللّهِ أَمْواتاً (۲) ،سیتّضح أنّ المراد من إصلاح البال إحیاؤهم حیاه یصلحون بها للحضور عند ربّهم بانکشاف الغطاء (۳) .

***

بحوث

اشاره

۱-مقام الشهداء السامی

تمرّ فی تأریخ الشعوب أیام تحدق الأخطار فیها بتلک الأمم و الشعوب،و لا یمکن دفع هذه الأخطار و الحفاظ علی الأهداف المقدّسه العظیمه إلاّ بالتضحیه و الفداء و تقدیم القرابین الکثیره،و هنا یجب أن یتوجّه المؤمنون المضحّون إلی ساحات القتال،لیحفظوا دین الحق بسفک دمائهم،و یسمی هؤلاء الأفراد فی

۱- ۱) -مجمع البیان،المجلد ۹،صفحه ۹۸.

۲- ۲) -آل عمران،الآیه ۱۶۹.

۳- ۳) -المیزان،المجلد ۱۸،صفحه ۲۴۴.

منطق الإسلام ب«الشهداء».

إنّ إطلاق كلمه الشهيد-من ماده الشهود-على هؤلاء،إمّا لحضورهم فی میدان الجهاد ضد أعداء الحق،أو لأنّهم يشاهدون ملائكه الرحمه لحظه شهادتهم، أو لمشاهدتهم النعم العظيمه التی أعدّت لهم،أو لحضورهم عند اللّه،كما جاء فی الآيه الشريفه: وَ لاٰ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِی سَبِيلِ اللّٰهِ أَمْوٰاتاً بَلْ أَحْيٰاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (۱) .

و قلّ من يصل إلى درجه الشهيد فی الإسلام..أولئك الشهداء الذين يذهبون ساحه الحرب بين الحق و الباطل عن وعی و خلوص نيّه،و يقدّمون آخر قطره من دمائهم الزكيه فی هذا السبيل.

و تلاحظ فی المصادر الإسلاميه روايات عجيبه حول مقام الشهداء،تحكی عظمه عمل الشهداء،و قيمته الفذّه.

فتقرأ

فی حديث عن رسول اللّه صلی اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّ فوق كلّ بر برا حتى يقتل الرجل شهيدا فی سبيل اللّه» (۲) .

و

جاء فی حديث آخر روی عنه صلی اللّه عليه و آله و سلّم: «المجاهدون فی اللّه قوّاد أهل الجنّه» (۳) .

و نطالع

فی حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام: «ما من قطره أحبّ إلى اللّه من قطره دم فی سبيل اللّه،أو قطره من دموع عين فی سواد الليل من خشيه اللّه،و ما من قدم أحبّ إلى اللّه من خطوه إلى ذی رحم،أو خطوه يتمّ بها زحفا فی سبيل اللّه» (۴) .

و إذا قلبنا أوراق تأريخ الإسلام،فسنرى الشهداء قد سجّلوا القسم الأعظم من الافتخارات،و هم الذين قدّموا القسط الأوفر من الخدمه.

۱- ۱) -آل عمران،الآيه ۱۶۹.

۲- ۲) -بحار الأنوار،المجلد ۱۰۰،صفحه ۱۵.

۳- ۳) -المصدر السابق.

۴- ۴) -بحار الأنوار،المجلد ۱۰۰،صفحه ۱۴.

و ليس هذا فی الأمس فقط،فإنّ ثقافه الشـهاده المصـيريه اليوم ترعب العدو أيضا،و تمزّق صـفوفه،و تمنعه من النفوذ إلی حصون الإسلام،و تزرع اليأس فی نفسه من إمكان تخطّيها،فما أكثر بركه ثقافه الشهاده للمسلمين،و ما أشدّها علی أعداء الدين.

لكن،لا شكّ أنّ الشـهاده ليست هدفا،بل الهدف هو الإنتصار علی العدو، و حراسه دين اللّه و الحفاظ عليه،إلّا أنّ هؤلاء الحراس علی دينهم يجب أن يكونوا علی أهبّه الاستعداد،بحيث إذا احتـاج الحال بـذل النفوس و الـدماء فإنّهم لا يتأخّرون عن بـذلها،بل يبادرون إلی البذل و التضحيه و الإيثار،و هذا هو معنی كون الأمّه منجبه للشهداء،لا أنّهم يطلبون الشهاده كهدف نهائی.

لهذا نقرأ

فی نهايه حديث مفصل روی عن أمير المؤمنين عليه السّـلام عن رسول اللّه صـلی اللّه عليه و آله و سلّم فی شأن مقام الشهداء أنّ النّبی صـلی اللّه عليه و آله و سـلّم أقسم و قال:«و الذی نفسـی بيده،لو كان الأنبياء فی طريقهم لترجلوا لهم لمّا يرون من بهائهم،و يشفع الرجل منهم فی سبعين ألفا من أهل بيته و جيرته»(١).

و هناك نكته تستحق الاهتمام،و هی أنّ للشهاده فی ثقافه الإسلام معنيين مختلفين:معنی«خاص»،و آخر«عام»واسع.

أمّا الخاص فهو القتل فی سبيل اللّه فی معركه الجهاد،و له أحكامه الخاصه فی الفقه الإسـلامی،و من جملتها أنّ الشـهيد لا يغسل و لا يكفن،بل يـدفن بثيابه و دمائه إذا توفی فی ميـدان المعركه!! أمّا المعنی العام الواسع للشـهاده،فهو أن يقتل الإنسان فی طريق تـأديه الواجب الإلـهی،فـإنّ كـلّ من يرحـل عن الـدنيا و هو فی حاله أداء هـذا الواجب يعـد شـهيدا، و لـذلك ورد فی الروايات الإسلاميه أنّ عده فئات يغادرون الدنيا و هم شهداء:

-١

روی عن نبی الإسلام الأكرم صلی اللّه عليه و آله و سلّم: «إذا جاء الموت طالب العلم و هو علی

هذا الحال مات شهيدا» (۱) .

۲-

يقول أمير المؤمنين على عليه السّلام: «من مات على فراشه و هو على معرفه حق ربّه،و حق رسوله و أهل بيته،مات شهيدا» (۲) .

۳-نقرأ

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من قتل دون ماله فهو شهيد» (۳) .

و كذلك آخرون يقتلون فى طريق الحق،أو يموتون فيه،و من هنا تتّضح عظمه ثقافه الإسلام هذه،و مدى سعتها.

و ننهى هذا البحث بحديث

عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام،عن آبائه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «أوّل من يدخل الجنّه الشهيد» (۴) .

۲-أهداف القتال فى الإسلام

إنّ القتال لا يعتبر فى الإسلام قيمه من القيم،بل يعتبر ضد القيم من جهه كونه باعثا على الخراب و التدمير،و إزهاق الأنفس،و إهدار القوى و الإمكانيات التى يمكن أن تسخّر لخدمه الإنسان و سعادته و رفاهه،و لذلك جعل فى بعض الآيات القرآنيه فى مصاف العقوبات الإلهيه،فنرى الآيه(۶۵)من سوره الأنعام تقول:

قُلْ هُوَ الْقٰادِرُ عَلىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذٰاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ .

فقد اعتبر القتال هنا بمثابه الصاعقه و الزلزله و الابتلاءات الأرضيه و السماويه، و لذلك فإنّ الإسلام يمتنع عن القتال و الحرب ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

أمّا إذا تعرّض وجود الأمّه للخطر،أو أنّ أهدافه المقدّسه الساميه أصبحت

۱- ۱) -سفينه البحار،المجلد الأول،ماده شهد.

۲- ۲) -نهج البلاغه،الخطبه ۱۹۰،آخر الخطبه.

۳- ۳) -سفينه البحار،المجلد الأول،ماده شهد.

۴- ۴) -بحار الأنوار،المجلد ۷۱،صفحه ۲۷۲.

مهدده بالسقوط،فإنّ القتال هنا يعتبر قيمه ساميه،و يكتسب عنوان الجهاد فی سبیل اللّه،و لذلک توجد فی الإسلام أنواع من الجهاد:الجهاد الابتدائی،المحرر للأمم،و الجهاد الدفاعی،و الجهاد من أجل إخماد نار الفتنه و الشرک و الوثنیه،و قد أوردنا تفصیلها فی موضع آخر (۱) .

بناء علی هذا فإنّ الجهاد الإسلامی علی خلاف ما یدّعیه أعداء الإسلام من أنّه یعنی فرض العقیده علی الآخرین،بل إنّ العقیده المفروضه لا قیمه لها فی الإسلام، لکن الجهاد یتعلق بالموارد التی یشن فیها العدو الحرب ضد الأمّه الإسلامیه،أو عند ما یسلبها الحریات التی منحها اللّه إیّاها،أو أنّه یرید أن یهدر حقوقها و یصادرها،أو أنّ ظالما قد أخذ بأنفاس مظلوم فیجب علی المسلمین حینئذ أن یهبوا لنصره المظلوم،حتی و إن أدّی الأمر إلی قتال القوم الظالمین.

و قد عکست الآیات السابقه هذا المعنی فی عباره لطیفه وجیزه،حینما تقول:

ذٰلِکَ بِأَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبٰاطِلَ وَ أَنَّ الَّذِینَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ

و علی هذا فإنّ الحرب هی حرب بین الحق و الباطل،لا أنّها وسیله لتکوین الدوله، و محاوله توسیع رقعتها،و الإغاره علی أموال الآخرین،و التسلّط و إعمال القوه و الإرهاب.

و لهذا السبب-أیضا-قرأنا فی الروایه التی أوردناها فی تفسیر هذه الآیات أنّ نار الحرب لن تخمد فی المجتمع الإنسانی إلاّ بعد القضاء علی الدجّالین،و تطهیر الأرض من دنسهم.

و هنا نکته تستحق الانتباه،و هی أنّ الإسلام قد أکّد علی مسأله التعایش السلمی مع أتباع الأدیان السماویه الأخری،و قد وردت فی الآیات و الرّوایات و الفقه الإسلامی بحوث مفصله فی هذا الباب تحت عنوان(أحکام أهل الذمّه)فإذا کان الإسلام یؤیّد فرض العقیده و الإکراه علیها،و یتوسّل بالقوه و السیف من أجل

۱- ۱) -التّفسیر الأمثل،ذیل الآیه ۱۹۳ من سوره البقره.

تحقیق أهدافه،فأی معنی إذن لقانون أهل الذمّه و التعایش السلمی؟

٣-أحکام أسری الحرب

قلنـا:یجب علی المسـلمین أن لاـ یفکروا فی أسـر أفراد العـدو إلاّـ بعـد هزیمه العـدو الکـامله و انـدحاره التام،لأنّ هـذا التفکیر و الانشغال بالأسری قد یتضمّن أخطارا جسیمه.

غیر أنّ أسـلوب الآیات-مورد البحث-یـدل علی وجوب الإقـدام علی أسـر أفراد العـدو بعد هزیمته،فالآیه تقول: فَإِذٰا لَقِیتُمُ الَّذِینَ کَفَرُوا فَضَـرْبَ الرِّقٰابِ ثمّ تضـیف: حَتّٰی إِذٰا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُـدُّوا الْوَثٰاقَ و علی هذا یجب أسـرهم بدل قتلهم بعد الإنتصار علیهم،و هو أمر لا بدّ منه،لأنّ العدو إذا ترک و شأنه فمن الممکن أن ینظم قواه مرّه أخری لیهجم علی المسلمین من جدید.

إلاّ أنّ الحال یختلف بعـد الأسـر،إذ یکون الأسـیر أمانه إلهیه بیـد المسـلمین رغم کلّ الجرائم التی ارتکبها،و یجب أن تراعی فیه حقوق کثیره.

إنّ القرآن یمجد أولئک الذین آثروا الأسـیر علی أنفسـهم،و قدّموا له طعامهم، فیقول: وَ یُطْعِمُونَ الطَّعٰامَ عَلیٰ حُبِّهِ مِسْکِیناً وَ یَتِیماً وَ أَسِـیراً و هـذه الآـیه-طبقـا لروایه معروفه-نزلت فی علی و فـاطمه و الحسن و الحسـین علیهم السّـلام،إذ کانوا صائمین و أعطوا إفطارهم لمسکین مرّه و لیتیم أخری،لأسیر ثالثه.

و حتی الأسری الذین یقتلون بعد الحرب استثناء،إمّا لکونهم خطرین،أو لارتکابهم جرائم خاصّه،فإنّ الإسلام أمر أن یحسن إلیهم قبل تنفیذ الحکم بحقّهم،کما نری ذلک

فی حدیث عن علی علیه السّلام: «إطعام الأسیر و الإحسان إلیه حق واجب،و إنّ قتلته من الغد» (١) .

١- ١) -وسائل الشیعه،المجلد ١١،صفحه ۶٩.

و الأحاديث فى هذا الباب كثيره (۱) ،حتى أنّه

ورد فى حديث عن الإمام على بن الحسين عليه السّلام أنّه قال: «إذا أخذت أسيرا فعجز عن المشى و ليس معك محمل فأرسله و لا تقتله، فإنّك لا تدرى ما حكم الإمام فيه» (۲) .

بل ورد فى التأريخ فى أحوال أئمه أهل البيت عليهم السّلام أنّهم كانوا يطعمون الأسرى من نفس الطعام الذى كانوا يتناولونه.

إلّا أنّ حكم الأسير-و كما قلنا فى تفسير الآيات-بعد انتهاء الحرب أحد ثلاثه:إمّا إطلاق سراحه من دون قيد أو شرط،أو إطلاق سراحه مقابل دفع غرامه ماليه هى الفديه،أو استرقاقه،و اختيار أحد هذه الأمور الثلاثه منوط بنظر إمام المسلمين،فهو الذى يختار ما يراه الأصلح بعد الأخذ بنظر الإعتبار ظروف الأسرى،و مصالح الإسلام و المسلمين من الناحيه الداخليه و الخارجيه،و بعد ذلك يأمر بتنفيذ ما اختاره.

بناء على هذا،فليس لأخذ الفديه أو الاسترقاق صفه الإلزام و الوجوب،بل هما تابعان للمصالح التى يراها إمام المسلمين،فإذا لم تكن مصلحه فيهما فله أن يغض النظر عنهما،و يطلق سراح الأسرى دون طلب الفديه.

و قد بحثنا حول فلسفه أخذ الفديه بصوره مفصله لدى تفسير الآيه ۷۰ من سوره الأنفال.

۴-الرق فى الإسلام

اشاره

بالرغم من أنّ مسأله«استرقاق أسرى الحرب»لم ترد فى القرآن المجيد كحكم حتمى،لكن لا يمكن إنكار ورود أحكام فى القرآن فيما يتعلق بالعبيد،و هى تثبت وجود أصل الرقيه حتى فى زمان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و صدر الإسلام،كالأحكام المتعلقه

۱- ۱) -يراجع فروع الكافى،المجلد ۵،صفحه ۳۵،باب الرفق بالأسير و إطعامه.

۲- ۲) -المصدر السابق.

بالزواج من العبيـد،أو كونهم محرما،أو مسأله المكاتبه(و هى اتفاق يتحرر بموجبه العبـد بعـد أدائه مبلغا من المال يتفق عليه)و قد وردت هذه الأحكام فى آيات عديده من القرآن فى سوره النساء،النحل،المؤمنون،النور،الروم،و الأحزاب.

و هنا يعترض البعض على الإسـلام بأنّه:لماذا لم يلغ هـذا الدين الإلهى مسأله الرق تماما مع ما يحتويه من القيم الإنسانيه الساميه،و لم يعلن تحرير كـلّ العبيـد من خلال إصـدار حكم قطعى؟! صـحيح أنّ الإسـلام أوصـى كثيرا بالرقيق،إلّا أنّ المهم هو تحريرهم بدون قيد شرط،فلما ذا يكون الإنسان مملوكا لإنسان آخر مثله،و يفقد الحريه التى هى أعظم عطايا اللّه سبحانه؟!

الجواب:

يجب القول فى جمله موجزه:إنّ للإسـلام برنامجا دقيقا مدروسا لتحرير العبيد، تؤدى نهايته إلى تحرير جميع العبيد تدريجيا،دون أن يكون لهذه الحريه ردّ فعل سلبى فى المجتمع.

و قبل أن نتناول توضيح هذه الخطه الإسلاميه الدقيقه،نرى لزاما ذكر عده نقاط كمقدمه:

۱-الإسـلام لم يكن المبتـدع للرق مطلقـا،بـل إنّه لمّـا ظهر كانت مسأله العبوديه و الرقيق قـد عمّت أرجاء العالم،و كانت معجونه بظلام المجتمعات البشريه و بوجودها،بل استمرت مسأله الرقيق فى كلّ المجتمعات حتى بعد الإسلام أيضا، و بقيت مستمره حتى قبل مائه عام حيث بـدأت ثوره تحرير الرقيق، حيث لم تعد مسأله الرقيق مقبوله بشـكلها القديم نتيجه اختلاف نظام حياه البشـر،و تغيره عمّا كان عليه.

إنّ إلغاء العبوديه بدأ من أوربا،ثمّ اتسع فى سائر الدول و من جملتها أمريكا

ص:۳۳۴

و آسيا.

لقد استمر الرق فى إنجلترا حتى سنه ۱۸۴۰،و فى فرنسا حتى سنه ۱۸۴۸،و فى هولندا إلى سنه ۱۸۶۳،و فى أمريكا إلى سنه ۱۸۶۵،ثمّ عقد مؤتمر بروكسل فأصدر قرارا بإلغاء الرق فى أنحاء العالم،و كان ذلك سنه ۱۸۹۰،أى قبل أقل من مائه عام.

۲-تغيير شكل الرق فى دنيا اليوم:صحيح أنّ الغربيين كانوا قد سبقوا إلى إلغاء الرق،إلاّ أنّنا عند ما نحقق فى المسأله بدقه،نرى أنّ الرق لم تقتلع جذوره،بل إنّه تحور من حاله إلى أخرى أخطر و أكثر رعبا،أى إنّه اتخذ شكل استعمار الشعوب، و استرقاق المستعمرات،بحيث كلما ضعف الرق الفردى قوى الاسترقاق الجماعى و الاستعمار،فإنّ الإمبراطوريه البريطانيه التى كانت سبّاقه إلى إلغاء الرق،تعتبر السبّاقه أيضا فى استعمار الشعوب.

إنّ الجرائم التى ارتكبها المستعمرون الغربيون طوال مده استعمارهم لم تكن أقل من جرائم مرحله العبوديه،بل كانت أوسع و أشدّ إجراما.

و حتى بعد تحرر المستعمرات،فإنّ استعباد الأمم قد استمر،لأنّ هذه الحريه كانت حريه سياسيه،أمّا الاستعمار الاقتصادى و الثقافى فلا يزال حاكما فى كثير من المستعمرات التى نالت حريتها،و غيرها.

و أمّا الدول الشيوعيه التى نادت قبل الجميع بإلغاء العبوديه،و اتخذتها ذريعه فى ثورتها،فإنّها بالذات مبتلاه بنوع من الاسترقاق العام الذى يندى له الجبين، فإنّ الشعوب التى تعيش فى ظل هذه الدول تكون كالعبيد تماما لا يملكون من أمرهم شيئا،و يعيّن أعضاء الحزب الشيوعى كلّ مقدراتهم و ما يتعلق بشؤون حياتهم،و إذا ما أبدى أحد وجهه نظر مخالفه فإمّا أن يرسل إلى المخيّمات الإجباريه،أو يلقى فى دهاليز السجون،و إذا كان من العلماء فإنّه يبعث إلى دار المجانين باعتباره مختل العقل و مصابا بمرض نفسى و عصبى.

و الخلاصه:إنّ الرق لا- يتبع الاسم،فإنّ القبيح و المرفوض هو محتوى الرق، و نحن نعلم أنّ مفهوم الرق قائم فى الدول الاستعماريه و الدول الشيوعيه بأسوأ أشكاله.

و النتيجه:إنّ إلغاء الرق فى العالم كان صوريا،و لم يكن فى الحقيقه إلّا تبديل للصوره و الشكل الظاهرى.

۳-مصير الرقيق المؤلم فى الماضى

لقد كان للرقيق على مرّ التاريخ مصير مؤلم جدّا،و لنأخذ على سبيل المثال عبيد الرومان-باعتبارهم قوما متمدنين-كنموذج،فإنّهم-على حدّ قول كاتب «روح القوانين»-كانوا تعساء بحيث لم يكونوا عبيدا لفرد،و إنّما كانوا يعتبرون عبيدا لكل المجتمع،و كان باستطاعه كلّ شخص أن يعذّب عبده و يؤذيه كما يحلو له دون خوف من القانون.لقد كانت حياه أولئك أسوأ من حياه الحيوانات فى الواقع.

لقد كان الكثير من الرقيق يموتون فى الفتره بين اصطيادهم من المستعمرات الأفريقيه و حتى عرضهم فى الأسواق للبيع،و ما تبقى منهم كان يتخذ وسيله للاستغلال فى العمل.و كان تجار العبيد الطامعون لا يعطونهم من الغذاء إلّا ما يبقيهم أحيآء و قادرين على العمل،أمّا عند كبرهم و عجزهم و ابتلائهم بأمراض يصعب علاجها،فإنّهم كانوا يتركونهم و شأنهم ليسلموا الروح بشكل أليم.و لذلك كان اسم الرق يقترن بسيل من الجرائم المرعبه على مرّ التاريخ.

و باتضاح هذه النكات نعود إلى خطه الإسلام فى تحريره العبيد تدريجيا، و نتناولها بصوره مختصره.

۴-خطه الإسلام لتحرير العبيد

اشاره

إنّ ما يغفل عنه غالبا هو أنّ ظاهره سلبيه إذا توغّلت فى مفاصل المجتمع،

فهناک حاجه إلی فتره زمنیه لاقتلاع جذورها،و لکلّ حرکه غیر مدروسه ردّ فعل سلبی،تماما کما إذا ابتلی إنسان بمرض خطیر،و قد استفحل هذا المرض فی بدنه، أو من اعتاد علی تناول المخدرات لعشرات السنین حتی تطبع علی هذه الطبیعه المستهجنه،ففی هذه الموارد یجب الاعتماد علی برامج زمنیه لعلاجه قد تطول و قد تقصر.

و نقول بأسلوب أکثر صراحه:لو أنّ الإسلام کان قد أصدر أمرا عاما بتحریر کل العبید،فربّما کان الضرر أکثر،و قد یهلک منهم عدد أکثر،لأنّ الرقیق کانوا یشکلون نصف المجتمع أحیانا،و لیس لهم عمل مستقل یتکسبون به،و لا دار أو ملجأ،أو وسیله ما لإدامه الحیاه.

إنّ هؤلاء لو تحرّروا فی ساعه معینه من یوم معین فستظهر علی الساحه فجأه جماعه عظیمه عاطله عن العمل،و عندها ستکون حیاتهم مهدده و ربّما أدّی إلی إرباک نظام المجتمع،و عند ما یلح علیه الحرمان فسیجد نفسه مضطرا إلی الهجوم علی ممتلکات الآخرین،فتنشب الصراعات و الاشتباکات و نزف الدماء.

هنا ندرک الغایه من التحریر التدریجی،و ذلک لیستوعبهم المجتمع و لا یشمئز منهم،و حینئذ سوف لا تتعرض أرواحهم للخطر،کما لا یتهدد أمن المجتمع،و قد اتبع الإسلام هذا البرنامج الدقیق تماما.

إنّ تطبیق و ترجمه هذا البرنامج الإنسانی علی أرض الواقع العملی له قواعد کثیره نذکر هنا رؤوس نقاطها بصوره موجزه و کفهرس،أمّا تفصیلها فیحتاج إلی کتاب مستقل:

الماده الأولی:غلق مصادر الرق

لقد کان للرق علی طول التاریخ أسباب کثیره،فلم یقتصر الاستبعاد علی أسری الحرب،و المدینین الذین یعجزون عن أداء دیونهم،حیث کانت القوّه

و الغلبه تبيح الاسترقاق و الاستعباد،بل إنّ الدوله القويه كانت ترسل فرق من جيوشها و هم مدجّجون بأنواع الأسلحه إلى الدول الأفريقيه المتخلفه و أمثالها، ليأسروا شعوب تلك الدول جماعات جماعات،ثمّ يرسلونهم بواسطه السفن إلى أسواق بلدان آسيا و أوربا.

لقد منع الإسلام كلّ هذه المسائل،و وقف حائلا دونها،و لم يبح الاسترقاق إلاّ فى مورد واحد،و هو أسرى الحرب،و حتى هذا لم يكن يتصف بالوجوب و الإلزام،بل إنّ الإسلام قد أجاز-و كما قلنا فى تفسير الآيات المذكوره-إطلاق سراح الأسرى مقابل فديه يؤدّونها تبعا لمصلحه الإسلام و المسلمين.

و لم تكن فى تلك الأيام سجون يسجن فيها أسرى الحرب حتى يتبيّن وضعهم و ماذا يجب فعله معهم،بل كان الطريق الوحيد هو تقسيمهم بين العوائل، و الاحتفاظ بهم كرقيق.

من البديهى أنّ هذه الظروف إذا تغيّرت فلا دليل على أنّ إمام المسلمين ملزم بأن يرضى برق الأسرى،بل هو قادر على تحريرهم إمّا منّا أو فداء،لأنّ الإسلام خيّر الإمام المسلمين فى هذا الأمر،كى يقدم على اختيار الأصلح من خلال مراعاه المصلحه،و بهذا فإنّ مصادر الرق الجديده قد أغلقت فى الإسلام.

الماده الثانيه:فتح نافذه الحريه

لقد وضع الإسلام برنامجا واسعا لتحرير العبيد،بحيث أنّ المسلمين لو عملوا بموجبه فإنّ كلّ العبيد كانوا سيتحررون فى مده وجيزه و بصوره تدريجيه،و كان المجتمع سيستوعبهم و يؤمّن لهم ما يحتاجونه من اللوازم الحياتيه،من عمل و مسكن و غير ذلك.

و إليك رؤوس نقاط هذا البرنامج:

أ-إنّ أحد الموارد الثمانيه لصرف الزكاه فى الإسلام شراء العبيد و عتقهم (۱) ، و بهذا فقد خصصت ميزانيه دائميه فى بيت المال لتنفيذ هذا الأمر،و هى مستمره حتى إعتاق العبيد جميعا.

ب-و لتكميل هذا المطلب وضع الإسلام أحكاما يستطيع العبيد من خلالها أن يعقدوا اتفاقيات مع مالكيهم،على أن يؤدّوا إليهم مبلغا من المال يتفق عليه مقابل الحصول على حريتهم.و قد جاء فى الفقه الإسلامى فصل فى هذا الباب تحت عنوان المكاتبه (۲) .

ج-إنّ عتق العبيد يعتبر أحد أهم العبادات و الأعمال الصالحه فى الإسلام،و قد كان أئمه أهل البيت عليهم السّلام من السابقين فى هذا المضمار،حتى كتبوا فى أحوال على عليه السّلام أنّه أعتق ألف مملوك من كد يده (۳) .

د-لقد كان أئمه أهل البيت عليهم السّلام يعتقون العبيد لأدنى عذر ليكونوا قدوه للآخرين،حتى أنّ أحد غلمان الإمام الباقر عليه السّلام عمل عملا صالحا،

فقال له الإمام:

«اذهب فأنت حر،فإنّى أكره أن أستخدم رجلا من أهل الجنّه» (۴) .

و جاء فى أحوال الإمام السجاد على بن الحسين عليه السّلام،أنّ جاريه كانت تسكب عليه الماء،فسقط الإبريق من يدها فشجّه،فرفع رأسه إليها، فقالت: وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ ،قال:«قد كظمت غيظى»قالت: وَ الْعافِينَ عَنِ النّاسِ ،قال:«عفا اللّه عنك»،قالت: وَ اللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ قال:«فاذهبى فأنت حرّه لوجه اللّه» (۵) .

ه-ورد فى بعض الرّوايات الإسلاميه أنّ العبيد يتحرّرون تلقائيا بعد مرور سبع سنين،

ففى روايه عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من كان مؤمنا فقد عتق بعد سبع سنين،

۱- ۱) -التوبه،الآيه ۶۰.

۲- ۲) -كان لنا بحث مفصل حول المكاتبه و أحكامها الرائعه فى ذيل الآيه(۳۴)من سوره النور.

۳- ۳) -بحار الأنوار،المجلد ۴۱،صفحه ۴۳.

۴- ۴) -الوسائل،المجلد ۱۶،صفحه ۳۲.

۵- ۵) -نور الثقلين،المجلد ۱،ص ۳۹۰.

أعتقه صاحبه أم لم يعتقه،و لا يحل خدمه من كان مؤمنا بعد سبع سنين» (۱) .

و

روى فی هذا الباب حديث من النّبی الأكرم صلی اللّه عليه و آله و سلّم،أنّه قال: «ما زال جبرئيل يوصينی بالمملوک حتی ظننت أنّه سيضرب له أجلا يعتق فيه» (۲) .

و-إذا كان العبد مشتركا بين اثنين،و أعتق أحدهما نصيبه،وجب عليه شراء نصيب شريكه و أعتقا العبد (۳) .

و إذا أعتق مالک العبد بعضه سرت الحريه إلی باقيه فيعتق جميعه (۴) .

ز-إذا ملک إنسان أباه،أو أمّه،أو أجداده،أو أبناءه،أو عمّه،أو عمّته،أو خاله، أو خالته،أو أخاه،أو أخته،أو ابن أخيه،أو ابن أخته،فإنّهم يعتقون فورا.

ح-إذا استولد المالک جاريته فلا يجوز بيعها،و تعتق من سهم ولدها من الميراث.و قد كان هذا الأمر سببا فی عتق الكثير من العبيد،لأنّ الجواری كن بمنزله زوجات مالكيهن،و كان لهن أولاد منهم.

ط-لقد جعل عتق العبيد كفاره لكثير من الذنوب من الإسلام،ككفاره القتل الخطأ،و كفاره ترک الصوم عمدا،و كفاره اليمين،و غيرها.

ی-إذا عاقب المالک عبده ببعض العقوبات الشديده،فإنّ العبد ينعتق تلقائيا (۵) .

الماده الثالثه:إحياء شخصيه الرقيق

عند ما كان العبيد يطوون مسيرهم نحو الحريه طبقا لبرنامج الإسلام الدقيق، أقدم الإسلام علی خطوات واسعه لإحياء حقوقهم و شخصيتهم الإنسانيه،حتی أنّه

۱- ۱) -وسائل الشيعه،المجلد ۱۶،صفحه ۳۶.

۲- ۲) -المصدر السابق،صفحه ۳۷.

۳- ۳) -الشرائع،كتاب العتق،وسائل الشيعه،المجلد ۱۶،صفحه ۲۱.

۴- ۴) -الشرائع،كتاب العتق.

۵- ۵) -وسائل الشيعه،المجلد ۱۶،صفحه ۲۶.

لم يفرق أبدا بين العبيد و الأحرار من ناحيه الشخصيه الإنسانيه،و جعل التقوى معيارا للتمييز بينهم،و لذلك أجاز للعبيد أن يتقلّدوا مسئوليات مهمّه،و يتسنّموا مناصب اجتماعيه مهمّه،حتى أنّ العبيد يمكنهم أن يشغلوا منصب القضاء (۱) .

و قد أنيطت بالعبيد فی زمن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم مراكز هامه و حسّاسه،ابتداء من قياده الجيش،و حتى المناصب الحسّاسه الأخرى.

و قد كان الكثير من كبار صحابه النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم عبيدا،أو رقيقا أعتقوا،و كان الكثير منهم يؤدّون واجبهم كمستشارين و معاونين لعظماء الإسلام و قادته،و يمكن ذكر أسماء سلمان و بلال و عمار بن ياسر و قنبر من ضمن هذه القافله.

و بعد أن انتهت غزوه بنی المصطلق تزوّج النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بجاريه عتيقه من هذه القبيله،و كان هذا الزواج سببا فی إطلاق سراح كلّ أسرى القبيله.

الماده الرابعه:المعامله الإنسانيه مع العبيد

لقد وردت فی الإسلام تعليمات كثيره حول الرفق بالعبيد و مداراتهم،حتى أنّها أشركتهم فی حياه مالكيهم.

يقول النّبی الأكرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «إخوانكم جعلهم اللّه تحت أيديكم،فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممّا يأكل،و ليكسه ممّا يلبس،و لا يكلفه ما يغلبه،فإن كان ما يغلبه فليعنه» (۲) .

و

يقول علی علیه السّلام لغلامه قنبر: «أنا أستحيى من ربّی أن أتفضل عليك،لأنّ رسول اللّه يقول:ألبسوهم ممّا يلبسون،و أطعموهم ممّا تأكلون» (۳) .

و

يقول الإمام الصادق علیه السّلام: «و إن كان أبی ليأمرهم-أی غلمانه-فيقول:كما

۱- ۱) -الشرائع،كتاب القضاء.

۲- ۲) -بحار الأنوار،المجلد ۷۴،صفحه ۱۴۱،حديث ۱۱.

۳- ۳) -المصدر السابق،صفحه ۱۴۴،حديث ۱۹.

أنتم،فيأتى،فإن كان ثقيلا قال:بسم اللّه،ثمّ عمل معهم» (1) .

لقد كانت معامله الإسلام مع العبيد فى هذه المرحله الانتقاليه حسنه إلى الحدّ الذى أكّد عليها حتى الغرباء عن الإسلام و حمدوها و مجّدوها.

و كنموذج لذلك نذكر ما يقوله«جرجى زيدان»فى تأريخ تمدّنه:إنّ الإسلام رحيم بالعبيد كلّ الرحمه،و قد أوصى نبىّ الإسلام بالعبيد كثيرا،و من جمله ما قاله:

لا تكلفوا العبد ما لا يطيق،و أطعموه ممّا تأكلون.

و يقول فى موضع آخر:لا تنادوا مماليككم بيا غلام،و يا جاريه،بل قولوا:يا بنى،و يا ابنتى! و القرآن أيضا أوصى بالرقيق وصايا رائعه،فهو يقول:اعبدوا اللّه و لا تشركوا به شيئا،و لا تعاملوا آباءكم و أمّهاتكم و أولى أرحامكم و اليتامى و الفقراء و الجيران، البعيد منهم و القريب،و الأصدقاء،و المشرّدين،و الرقيق،إلاّ بالحسنى،فإنّ اللّه لا يرضى بالعجب و الرضى من النفس (2) .

الماده الخامسه:أقبح الأعمال بيع الإنسان

يعد بيع العبيد و شراؤهم من أبغض المعاملات فى الإسلام،حتى ورد فى

حديث عن النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «شرّ الناس من باع الناس» (3) . و هذا التعبير كاف لتوضيح وجهه نظر الإسلام فى شأن العبيد،و يبيّن اتجاه حركه البرامج الإسلاميه، و ما تريد تحقيقه و الوصول إليه.

و الأروع من ذلك أنّ الإسلام قد اعتبر سلب حريه البشر،و تبديلهم إلى سلعه تباع و تشترى،من الذنوب التى لا تغفر،

فقد ورد فى حديث عن نبىّ الإسلام

1- 1) -المصدر السابق،صفحه 142،حديث 13.

2- 2) -تاريخ التمدّن،المجلد 4،صفحه 54.

3- 3) -المستدرك،المجلد 2،كتاب التجاره،باب 19،حديث 1.

الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّ اللّه تعالی غافر کلّ ذنب إلاّ من جحد مهرا،أو اغتصب أجیرا أجره،أو باع رجلا حرا» (۱) . و طبقا لهذا الحدیث فإنّ اغتصاب حقوق النساء، و العمال،و سلب حریه البشر ثلاثه ذنوب لا تغفر.

و کما قلنا سابقا،فإنّ الإسلام لم یبح الاسترقاق إلاّ فی مورد أسری الحرب، و حتی فی هذا المورد لا یکون الاسترقاق إلزامیا،و کان ذلک فی عصر ظهور الإسلام،غیر أنّنا نری العبودیه و الاسترقاق متفشّیه فی الدول الغربیه بعد عدّه قرون من ظهور الإسلام حیث کان المستعمرون یشنّون الحملات و الهجمات الشرسه علی بلدان السود،و یقبضون علی البشر الأحرار و یحوّلونهم إلی رقیق یباعون و یشترون،و قد بلغ بیع و شراء العبید حدّا رهیبا،بحیث کان یباع فی کلّ سنه(۲۰۰،۰۰۰)عبدا فی بریطانیا أواخر القرن الثامن عشر،و کانوا یأخذون مائه ألف نسمه من أفریقیا کل عام،و یرسلونهم إلی أمریکا کعبید (۲) .

و خلاصه القول:إنّ الذین یعترضون علی برنامج الإسلام فی مسأله الرقیق قد سمعوا کلاما لم یتأمّلوا فیه،و لم یطّلعوا الاطلاع الکافی علی أصول البرنامج و هدفه،و هو«تحریر العبید تدریجیا»،و من دون خسائر،أو إنّهم وقعوا تحت تأثیر المغرضین الذین یظنون أنّ هذه نقطه ضعف کبیره فی الإسلام،و طلبوا لها و زمروا، و سخّروا لها وسائل الإعلام،إلاّ أنّ الظنّ لا یغنی من الحق شیئا.

***

۱- ۱) -بحار الأنوار،المجلد ۱۰۳،صفحه ۱۶۸،حدیث ۱۱.

۲- ۲) -المیزان،الجزء ۶،صفحه ۳۶۸.

الآيات [سوره محمد (۴۷): الآيات ۷ الى ۱۱]

اشاره

يا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اَللّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (٧) وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (٨) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اَللّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (٩) أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِی اَلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اَللّهُ عَلَيْهِمْ وَ لِلْكافِرِينَ أَمْثالُها (١٠) ذلِكَ بِأَنَّ اَللّهَ مَوْلَى اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ اَلْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ (١١)

التّفسير

إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ:

تستمر هذه الآيات فی ترغيب المؤمنين فی جهاد أعداء الحق،و هی ترغّبهم فی الجهاد بتعبير رائع بليغ،فتقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ .

إنّ التأكيد على مسأله«الإيمان»إشاره إلى أنّ إحدى علامات الإيمان الحقيقی هو جهاد أعداء الحق.

ص: ۳۴۴

و عباره تَنْصُرُوا اللّهَ تعنی-بوضوح-نصره دینه،و نصره نبیّه،و شریعته و تعلیماته،و لذلک وردت نصره اللّه إلی جانب نصره رسوله فی بعض آیات القرآن الکریم،کما نقرأ فی الآیه(۸)من سوره الحشر: وَ یَنْصُرُونَ اللّهَ وَ رَسُولَهُ أُولٰئِکَ هُمُ الصّادِقُونَ .

و مع أنّ قدره اللّه سبحانه غیر محدوده،و لا قیمه لقدره المخلوقات حیال قدرته،غیر أنّه یعبّر بنصره اللّه لیوضح أهمیه الجهاد و الدفاع عن دین اللّه،و لا یوجد تعبیر أعظم من هذا لتبیان أهمیه هذا الموضوع.

و لنر ما هو هذا الوعد الذی وعد اللّه به المجاهدین إذا ما دافعوا عن دینه؟ یقول أوّلا یَنْصُرْکُمْ أمّا کیف یتمّ ذلک؟فإنّ الطرق کثیره،فهو سبحانه یلقی فی قلوبکم نور الإیمان،و فی نفوسکم و أرواحکم التقوی،و فی إرادتکم القوّه و التصمیم أکثر،و فی أفکارکم الهدوء و الاطمئنان.

و من جانب آخر یرسل الملائکه لمدکم و نصرتکم،و یغیّر مسار الحوادث لصالحکم،و یجعل أفئده الناس تهوی إلیکم،و یجعل کلماتکم نافذه فی القلوب، و یصیّر نشاطاتکم و جهودکم مثمره.نعم،إنّ نصره اللّه تحیط بالجسم و الروح،من الداخل و الخارج.

إلّا أنّه سبحانه یؤکّد علی مسأله تثبیت الأقدام من بین کلّ أشکال النصره، و ذلک لأنّ الثبات أمام العدو أهم رمز للانتصار،و إنّما یکسب الحرب الذین یصمدون و یستقیمون أکثر،و لذلک نقرأ فی قصه محاربه طالوت-القائد العظیم لبنی إسرائیل-لجالوت-المتسلّط الجائر القوی-أنّ المؤمنین القلیلین الذین کانوا معه عند ما واجهوا جیش العدو الجرار،قالوا: رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَیْنا صَبْراً وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَی الْقَوْمِ الْکافِرِینَ .

و نقرأ فی الآیه التی بعدها: فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللّهِ .

أجل،إنّ نتیجه ثبات القدم هی النصر المؤزّر علی العدو.

و لمّا كانت حشود العدو العظيمه،و أنواع معداتهم و تجهيزاتهم قد تشغل فكر المجاهدين فى سبيل اللّه أحيانا، فإنّ الآيه التاليه تضيف: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمٰالَهُمْ (١) .

«تعس»-على وزن نحس-بمعنى الانزلاق و الهوى،و ما فسّره البعض بأنّه الهلاك و الانحطاط،فهو لازمه فى الواقع لا معناه.

و على كلّ حال،فإنّ المقارنه بين هذين الفريقين عميقه المعنى جدّا،فالقرآن يقول فى شأن المؤمنين يُثَبِّتْ أَقْدٰامَكُمْ و فى شأن الكافرين أَضَلَّ أَعْمٰالَهُمْ .

و بصيغه اللعنه،ليكون التعبير أبلغ و أكثر جاذبيه و تأثيرا.

نعم،إنّ الكافرين إذا انزلقوا و زلّت أقدامهم،فليس هناك من يأخذ بأيديهم لينقذهم من الهلكه،بل إنّهم سينحدرون إلى الهاويه سريعا و بسهوله،أمّا المؤمنون، فإنّ الملائكه الرحمه تهب لنجدتهم و نصرتهم،و يحفظونهم من المنزلقات و المنحدرات،كما نقرأ ذلك فى موضع آخر،حيث تقول الآيه(٣٠)من سوره فصلت: إِنَّ الَّذِينَ قٰالُوا رَبُّنَا اللّٰهُ ثُمَّ اسْتَقٰامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاٰئِكَةُ .

إنّ أعمال المؤمنين مباركه،أمّا أعمال الكافرين فإنّها بائره و لذلك فهى تزول و تفنى سريعا.

و تبيّن الآيه التاليه علّه سقوط هؤلاء،و جعل أعمالهم هباء منثورا،فتقول:

ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ فَأَحْبَطَ أَعْمٰالَهُمْ

.

لقد أنزل اللّه سبحانه دين التوحيد قبل كلّ شىء،إلاّ أن هؤلاء نبذوه وراء ظهورهم و أقبلوا نحو الشرك.

لقد أمر اللّه سبحانه بالحق و العداله،و العفّه و التقوى،غير أنّهم أعرضوا عنها جميعا،و اتجهوا صوب الظلم و الفساد،بل إنّهم تشمئز قلوبهم إذا ذكر اسم اللّه تعالى

١- ١) -«تعسا»مفعول مطلق لفعل مقدّر،و التقدير:تعسهم تعسا،و جمله(أضلّ أعمالهم)عطف على هذا الفعل المقدّر،و كلاهما بصيغه اللعنه،مثل(قاتلهم اللّه)،و من الواضح أنّ اللعنه من قبل اللّه تعنى وقوعها.

وحده: وَ إِذٰا ذُكِرَ اللّٰهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ (۱) .

و إذا كان هؤلاء يتنفّرون من هـذه الأمور،فمن الطبيعى أن لا يخطوا خطوه فى هذا المسـير،و لقد كانت كلّ مساعيهم و جهودهم فى مسير الباطل و خدمته،فمن الطبيعى أيضا أن تحبط كلّ هذه الأعمال.

و جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام:«كرهوا ما أنزل اللّه فى حق على» (۲) .

و معلوم أنّ التعبير مٰا أَنْزَلَ اللّٰهُ معنى واسـعا،و مسأله ولاـيه أمير المؤمنين على عليه السّـلام أحـد مصـاديقه الواضـحه،لا أنّ معناه منحصر فيها.

و لمّـا كـان القرآن الكريم فى كثير من الموارد يعرض للظـالمين العاصـين نمـاذج محسوسه،فقـد دعاهم هنا أيضا إلى التـدبّر فى أحوال الماضـين،فقـال: أَ فَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَهُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ ؟ و من أجل أن لا يظنّ هؤلاء أنّ ذلك المصير المشؤوم كان مختصّا بالأقوام الطاغين الماضين،فقد أضافت الآيه: وَ لِلْكٰافِرِينَ أَمْثٰالُهٰا (۳) .

فلاـ يظنّوا أنّهم فى منـأى من العقـاب المشـابه لـذلك العقـاب إن هـم عملوا أعمالا تشابه أعمال الماضـين،فليسـيروا فى الأرض و لينظروا آثار الذين من قبلهم،ثمّ لينظروا مستقبلهم من خلال سنن التأريخ.

و الجـدير بالانتبـاه أنّ(دمّر)من مـاده(تـدمير)،و هى من الأصـل بمعنى الإهلاك و الإفناء،أمّا إذا أتت مع(على)فإنّها تعنى إهلاك كـلّ شـىء حتى الأولاد و الأهل و العشـيره و الأموال الخاصّه بالإنسان (۴) .و على هذا فإنّ هذا التعبير بيان لمصـيبه أليمه،خاصـه بملاحظه لفظ(على)الـذى يسـتعمل عاده فى مورد التسـلط،و بـذلك يصـبح معنى الجمله،إنّ اللّه عزّ و جلّ قـد صبّ عـذابه على رؤوس هؤلاء الأقوام

۱- ۱) -الزمر،الآيه ۴۵.

۲- ۲) -مجمع البيان،ذيل الآيات مورد البحث.

۳- ۳) -ضمير«أمثالها»يعود إلى العاقبه التى تستفاد من الجمله السابقه.

۴- ۴) -تفسير روح المعانى،و روح البيان،و الفخر الرازى.

و أموالهم و كلّ ما يتعلّق بهم فأفناها جميعا.

و قد بحثنا موضوع«السير فى الأرض»-و الذى يؤكّد عليه القرآن المجيد مرارا كبرنامج توعيه مؤثر-بصوره مفصّله فى ذيل الآيه(١٣٧)من سوره آل عمران،و الآيه(۴۵)من سوره الروم.

و تناولت آخر آيه-من الآيات مورد البحث-سبب حمايه اللّه المطلقه للمؤمنين و دفاعه عنهم،و إهلاكه الكافرين الطغاه،فتقول: ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكٰافِرِينَ لاٰ مَوْلىٰ لَهُمْ (١) .

«المولى»بمعنى الولي و الناصر،و بذلك فإنّ اللّه سبحانه قد تولّى أمر المؤمنين و دفاعه عنهم،و إهلاكه الكافرين الطغاه،فتقول: ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ،مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكٰافِرِينَ لاٰ مَوْلىٰ لَهُمْ (٢) .

«المولى»بمعنى الولي و الناصر،و بذلك فإنّ اللّه سبحانه قد تولّى أمر المؤمنين و نصرتهم،أمّا الكافرون فقد أخرجهم من ظل ولايته،و من الواضح أنّه تعالى يعين أولئك المستظلين بظل ولايته،و يدفع عنهم النوائب،و يزيل عن طريقهم العراقيل، و يثبت أقدامهم،و أخيرا فإنّهم ينالون مرادهم بنصره اللّه و معونته.أمّا أولئك الخارجون عن ولايته فإنّ أعمالهم ستحبط، و تكون عاقبتهم الهلاك.

و هنا يأتى سؤال،و هو:إنّ الآيه مورد البحث قد ذكرت أنّ اللّه سبحانه مولى المؤمنين فقط،فى حين أنّه سبحانه وصف فى بعض آيات القرآن الأخرى بأنّه مولى الجميع حتى الكافرين،كما فى الآيه(٣٠)من سوره سوره يونس حيث تقول: وَ رُدُّوا إِلَى اللّٰهِ مَوْلاٰهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ .

و تتّضح الإجابه على هذا السؤال بملاحظه نكته واحده،و هى:إنّ ولايه اللّه العامّه-و هى كونها خالقا مدبّرا-تعم الجميع،أمّا الولايه الخاصّه،و عنايته الخاصه المقترنه بأنواع الحمايه و النصره،فإنّها لا تشمل إلّا المؤمنين (٣) .

و قال البعض:إنّ هذه الآيه أرجى آيه فى القرآن،لأنّها أدخلت كلّ المؤمنين،

١- ١،٢) -المشار إليه ب(ذلك)هى عاقبه المؤمنين الحسنه،و عاقبه الكافرين المشؤومه،و اللتان أشير إليهما فى الآيات السابقه.

٢- ٣) -فسّر البعض-كالآلوسى فى روح المعانى-«المولى»فى الآيه مورد البحث بالناصر،و فى آيه سوره يونس و أمثالها. بالمالك

٣-

العـالم منهم و الجاهـل،الزاهـد و الراغب،الصـغير و الكبير،المرأه و الرجـل،الشـاب و الكهـل،أدخلتهم تحت حمـايه اللّه و رعـايته الخـاصه،و لم تسـتثن حتى المؤمنين العاصـين،فهو سـبحانه يظهر رعـايته فى المواقف الحسّاسه و اللحظات الحرجه، و الحوادث و المصائب و النكبات،و كلّ فرد منّا قد أحسّ بهذه الرعايه طيله مده حياته،و فى التأريخ شواهد كثيره على ذلك.

و

قد ورد فى حديث أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان بعد غزوه تحت شجره وحيدا فحمل عليه مشرك بسيف فقال له:من يخلّصـك منّى؟فقـال النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم:«اللّه»فسـقط المشـرك-فأخـذت الكـافر رعـده، و هـوى على الأـرض-السيف،فأخذه النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قال له:«فمن يخلّصك منّى»؟قال:لا أحد،ثمّ أسلم (1) .

نعم،اللّه مولى الذين آمنوا،و إنّ الكافرين لا مولى لهم.

***

1- 1) -روح البيان،المجلد 8،صفحه 503.

الآيات [سوره محمد (۴۷): الآيات ۱۲ الى ۱۴]

اشاره

إِنَّ اَللّٰهَ يُدْخِلُ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَمٰا تَأْكُلُ اَلْأَنْعٰامُ وَ اَلنّٰارُ مَثْوىً لَهُمْ (۱۲) وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ اَلَّتِى أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنٰاهُمْ فَلاٰ نٰاصِرَ لَهُمْ (۱۳) أَ فَمَنْ كٰانَ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اِتَّبَعُوا أَهْوٰاءَهُمْ (۱۴)

التّفسير

اشاره

عاقبه المؤمنين و الكافرين:

لمّا كانت الآيات السابقه تتحدّث عن الصراع الدائم بين الحق و الباطل، و الإيمان و الكفر،فإنّ الآيات مورد البحث تبيّن عاقبه المؤمنين و الكفّار من خلال مقارنه واضحه،و هى بذلك تريد أن توضح أنّ هذين الفريقين لا يختلفان فى الحياه الدنيا و حسب،بل إنّ الاختلاف بينهما سيكون أوسع فى الآخره،فتقول:

إِنَّ اللّٰهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَ النّارُ مَثْويً لَهُمْ

(۱)

.

صحيح أنّ كلا الفريقين يعيشون فى الدنيا،و يتنعّمون بمواهبها و لذّاتها،إلاّ أنّ الفرق يكمن فى أنّ هدف المؤمنين هو القيام بالأعمال الصالحه،و الأعمال المفيده البنّاءه لجلب رضى اللّه تعالى.أمّا الكافرون فإنّ هدفهم ينصب على الأكل و الشرب و النوم و التمتّع بالذّات الحياه.

المؤمنون يتحرّكون حركه واعيه هادفه،و الكافرون يحيون بلا هدف، و يموتون بلا هدف،كالأنعام تماما.

المؤمنون يضعون شروطا كثيره للتمتع بنعم الحياه،فهم يدقّقون فى مشروعيه طرق الحصول عليها،كما يدقّقون كيف ينفقونها،أمّا الكافرون فإنّهم كالدّواب لا يهمها أن يكون علفها من أرض صاحبها أن يكون مغصوبا،و سواء كان من حق يتيم أو عجوز بائسه أم لا؟ عند ما يتنعّم المؤمنون بنعمه،فإنّهم يفكّرون فى واهبها،و يتدبّرون فى آياته، و يشكرونه عليها،أمّا الكافر الغافل فلا يفكّر فى أى شىء لغفلته،و هو يضيف إلى حمله حملا جديدا من الظلم و الذنوب باستمرار،و يدنى نفسه من الهلاك بعد أن تثقله الأوزار،حاله فى ذلك حال الأغنام السمينه،فهى كلّما تأكل أكثر،و تسمن أكثر،تكون أقرب إلى الذبح.

و قال البعض:إنّ الفرق بين المؤمنين و الكافرين،أنّ المؤمن لا يخلو أكله من ثلاث:الورع عند الطلب،و استعمال الأدب،و الأكل للسبب.و الكافر يطلب للنهمه، و يأكل للشهوه،و عيشه فى غفله.

و ممّا يستحق الانتباه أنّ القرآن الكريم يقول فى شأن المؤمنين: إِنَّ اللّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ جَنّاتٍ و يقول فى الكافرين وَ النّارُ مَثْويً لَهُمْ فإنّ التعبير الأوّل يدلّ على احترام المؤمنين و تقديرهم،و إنّ اللّه سبحانه يدخلهم

۱- ۱) -كما تأكل..فى محل نصب مفعول مطلق مقدّر،و التقدير:يأكلون أكلا كما تأكل الأنعام.

الجنّه،أمّا التعبير الثّانی،فإنّه یوحی باحتقار الکفّار الذین خرجوا من ولایته، و عدم الاهتمام بهم.

و استفاد بعض المفسّرین من جمله: وَ النّٰارُ مَثْویً لَهُمْ -أی محلهم النّار-أنّهم الآن فی النّار،لأنّ الجمله لیست بصیغه الفعل المضارع و المستقبل،و إنّما هی تخبر عن الحال.

و الحقیقه کذلک،لأنّ أعمال هؤلاء و أفکارهم نار بحد ذاتها،و هم مبتلون بها، و قد أحاطت بهم جهنّم من کلّ مکان،و إن کان هؤلاء الذین هم کالأنعام فی غفله، کما نقرأ ذلک فی الآیه(۴۹)من سوره التوبه: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَهٌ بِالْکٰافِرِینَ .

و فی بعض آیات القرآن الأخری شبّه أصحاب النّار بالأنعام،بل هم أضلّ منها:

أُولٰئِکَ کَالْأَنْعٰامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولٰئِکَ هُمُ الْغٰافِلُونَ

(۱)

،و قد أوردنا فی ذیل هذه الآیه شرحا مفصّلا.

و من أجل إکمال هذا الهدف تقارن الآیه التالیه بین مشرکی مکّه و عبده الأوثان الماضین،و بعباره أوضح،فإنّها تهدّدهم تهدیدا شدیدا،و تؤکّد ضمنیا علی بعض جرائمهم الشنیعه التی تدلّ علی جواز قتالهم فتقول: وَ کَأَیِّنْ مِنْ قَرْیَهٍ هِیَ أَشَدُّ قُوَّهً مِنْ قَرْیَتِکَ الَّتِی أَخْرَجَتْکَ أَهْلَکْنٰاهُمْ فَلاٰ نٰاصِرَ لَهُمْ .

فلا یظنّ هؤلاء أنّ الدنیا مستوسقه لهم إلی درجه أنّهم اجترؤوا علی إخراج أشرف رسل اللّه من أقدس المدن،فإنّ الأمر لا یدوم کذلک،فهم بالقیاس إلی قوم عاد و ثمود و الفراعنه،و جیش أبرهه موجودات ضعیفه عاجزه،و اللّه قادر علی تدمیرهم بکلّ سهوله،و القضاء علیهم یسیر علی اللّه سبحانه.

و

جاء فی روایه عن ابن عباس: إنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لمّا خرج من مکّه إلی غار ثور، توجّه إلی مکّه و قال:«أنت أحبّ البلاد إلی اللّه،و أنت أحبّ البلاد إلیّ،و لو لا المشرکون أهلک أخرجونی لما خرجت منک» ،فنزلت الآیه أعلاه تبشّر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم

۱- ۱) -الأعراف،الآیه ۱۷۹.

بنصر اللّه،و تهدّد الأعداء بالعذاب و العقاب (۱) .

و طبقا لسبب النّزول هذا تكون الآیه مکیّه،لکن یبدو أنّ سبب النّزول هذا یتعلّق بالآیه(۸۵)من سوره القصص،و قد ذکره کثیر من المفسّرین هناک،فهو ینسجم مع تلک الآیه أکثر،إذ تقول: إِنَّ الَّذِی فَرَضَ عَلَیْکَ الْقُرْآنَ لَرٰادُّکَ إِلیٰ مَعٰادٍ (۲) .

و الملفت للنظر أنّ الآیه نسبت الإخراج إلی نفس مکّه،فی حین أنّ المراد أهلها،و هذه کنایه لطیفه عن تسلّط فئه معیّنه،علی مقدرات المدینه،و قد ورد نظیر ذلک فی مواضع أخری من القرآن المجید.

ثمّ إنّ التعبیر بالقریه-و کما قلنا ذلک مرارا-یطلق علی کلّ مدینه و أرض عامره مسکونه،و لا یخص المعنی المتعارف للقریه.

و تطرح آخر الآیات-مورد البحث-مقارنه أخری بین المؤمنین و الکفار...بین فئتین تختلفان فی کلّ شیء،فإحداهما مؤمنه تعمل الصالحات،و تحیا الاخری حیاه حیوانیه بکلّ معنی الکلمه..بین فریقین،أحدهما مستظل بظل ولایه اللّه سبحانه،و الآخر لا مولی له و لا ناصر،فتقول: أَ فَمَنْ کٰانَ عَلیٰ بَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ کَمَنْ زُیِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْوٰاءَهُمْ ؟ إنّ الفریق الأوّل قد اختاروا طریقهم عن معرفه صحیحه،و رؤیه واقعیه،و عن یقین و دلیل و برهان قطعی، و هم یرون طریقهم و هدفهم بوضوح،و یسیرون نحوه بسرعه.

أمّا الفریق الثّانی فقد ابتلوا بسوء التشخیص،و عدم إدراک الواقع،و ظلمه المسیر و الهدف،فهم فی ظلمات الأوهام حائرون.و العامل الأساس فی هذه الحیره و الضلاله هو اتباع الهوی و الشهوات،لأنّ الهوی و الشهوات تلقی الحجب

۱- ۱) -تفسیر القرطبی،المجلد ۹،صفحه ۶۰۵۵.

۲- ۲) -لمزید من التفصیل حول هذا المطلب یراجع تفسیر الآیه(۸۵)من سوره القصص.

على عقل الإنسان و فكره،فتصوّر له القبيح حسنا،كما نرى أناسا يفخرون بأعمالهم التى ينـدى لها الجبين،و هى وصمه عار فى جباههم،كما جاء ذلك فى الآيه(۱۰۳)من سوره الكهف: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاهِ الدُّنْيَا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً أُولٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ لِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَهِ وَزْناً .

«البينه»تعنى الدليل الواضح الجلى،و هى هنا إشاره إلى القرآن،و معاجز الرّسول الأعظم صلى اللّه عليه و آله و سلّم،و الدلائل العقليه الأخرى.

و من الواضح أنّ الاستفهام فى جمله: أَ فَمَنْ كَانَ... استفهام إنكارى،أى إنّ هذين الفريقين لا يتساويان أبدا.

و لكن من الذى يزيّن أعمال السوء فى أنظار عبده الهوى و متبعيه؟أهو اللّه سبحانه،أم هم أنفسهم،أم الشياطين؟ ينبغى أن يقال:إنّها تصح جميعا،لأنّ التزيين نسب إلى الثلاثه فى آيات القرآن، فتقول الآيه(۴)من سوره النمل: إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَهِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ .

و جاء فى آيات عديده أخرى،و من جملتها الآيه(۳۸)من سوره العنكبوت، التى تقول: وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ .

و ظاهر الآيه مورد البحث،و بملاحظه الجمله: وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ أنّ هذا التزيين ناشئ عن اتباع الهوى،و قضيه كون الهوى و الشهوات تسلب الإنسان القدره على الحس و التشخيص و الإدراك الصحيح للحقائق،قضيه يمكن إدراكها بوضوح.

إنّ نسبه التزيين إلى الشيطان-طبعا-صحيحه أيضا،لأنّه هو الذى ينصب المكائد و يوسوس للإنسان أن يلجها،و يزيّن له اتباع الهوى.

و أمّا نسبته إلى اللّه سبحانه فلأنّه مسبب الأسباب،و إليه يرجع كلّ سبب،فهو الذى أعطى النّار الأحراق،و منح الهوى قدره تغطيه الحقائق و إلقاء الحجب عليها

لئلا يدركها من يتبعه،و قد أظهر هذا التأثير و أعلنه من قبل،و لذلك فإنّ أصل المسؤوليه يرجع إلى نفس الإنسان.

و يعتقد البعض أنّ جمله: أَ فَمَنْ كٰانَ عَلىٰ بَيِّنَهٍ مِنْ رَبِّهِ إشاره إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و الجمله التاليه ناظره إلى كفار مكّه،غير أنّ الظاهر هو أنّ للآيه معنى واسعا،و هذا من مصاديقه.

***

ص :۳۵۵

الآیه [سوره محمد (۴۷): آیه ۱۵]

اشاره

مَثَلُ اَلْجَنَّهِ اَلَّتِی وُعِدَ اَلْمُتَّقُونَ فِیهٰا أَنْهٰارٌ مِنْ مٰاءٍ غَیْرِ آسِنٍ وَ أَنْهٰارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ یَتَغَیَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهٰارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّهٍ لِلشّٰارِبِینَ وَ أَنْهٰارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّی وَ لَهُمْ فِیهٰا مِنْ کُلِّ اَلثَّمَرٰاتِ وَ مَغْفِرَهٌ مِنْ رَبِّهِمْ کَمَنْ هُوَ خٰالِدٌ فِی اَلنّٰارِ وَ سُقُوا مٰاءً حَمِیماً فَقَطَّعَ أَمْعٰاءَهُمْ (۱۵)

التّفسیر

اشاره

وصف آخر للجنّه:

إنّ هذه الآیه وصف لمصیر کلّ من المؤمنین و الکافرین،فالفئه الأولی الذین یعملون الصالحات،و الثانیه زیّن لهم سوء أعمالهم.

و قد رفعت هذه الآیه الغطاء عن سته أنواع من نعم أهل النعیم،و عن نوعین من أنواع العذاب الألیم لأصحاب الجحیم،و هی تحدد عاقبه کلا الفریقین و توضحها.

تتحدث الآیه عن أربعه أنهار فی الجنّه،لکلّ منها سائله و محتواه الخاص،ثمّ تتحدث عن فواکه الجنّه،و أخیرا عن بعض المواهب المعنویه.

ص :۳۵۶

تقول الآیه أوّلا: مَثَلُ الْجَنَّهِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِیهٰا أَنْهٰارٌ مِنْ مٰاءٍ غَیْرِ آسِنٍ (۱) .

«الآسن»یعنی النتن،و بناء علی هـذا،فإنّ مٰاءٍ غَیْرِ آسِنٍ تعنی الماء الذی لا یتغیّر طعمه و رائحته لطول بقائه و غیره ذلک،و هذا أوّل نهر من أنهار الجنّه،و فیه ماء زلال جار طیب الطعم و الرائحه.

ثمّ تضیف: وَ أَنْهٰارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ یَتَغَیَّرْ طَعْمُهُ و ذلک أنّ الجنّه مکان لا یعتریه الفساد،و لا تتغیّر أطعمه الجنّه بمرور الزمن،و إنّما تتغیّر الأطعمه فی هذه الحیاه الدنیا،لوجود أنواع المیکروبات التی تفسد المواد الغذائیه بسرعه.

ثمّ تطرّقت إلی ثالث نهر من أنهار الجنّه،فقالت: وَ أَنْهٰارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّهٍ لِلشّٰارِبِینَ .

و أخیرا تبیّن الآیه رابع أنهار الجنّه بأنّه: وَ أَنْهٰارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّی .

و علاوه علی هذه الأنهار المختلفه التی خلق کلّ منها لغرض،فقد تحدّثت الآیه عن فواکه الجنّه فی الموهبه الخامسه،فقالت الآیه: وَ لَهُمْ فِیهٰا مِنْ کُلِّ الثَّمَرٰاتِ (۲) فستوضع بین أیدیهم و تحت تصرفهم کلّ الثمرات و الفواکه المتنوّعه الطعم و الرائحه،سواء التی یمکن تصوّرها،أو التی لا یمکن أن تخطر علی أذهاننا الیوم و یصعب تصوّرها.

و أخیرا تتحدث عن الموهبه السادسه التی تختلف عن المواهب المادیه السابقه،إذ أنّ هذه الهبه معنویه روحیه،فتقول: وَ مَغْفِرَهٌ مِنْ رَبِّهِمْ إذ ستمحو رحمته الواسعه کل هفواتهم و سقطاتهم،و سیمنحهم اللّه الاطمئنان و الهدوء و الرضی،و یجعلهم من المرضیین عنده و المحبّبین إلیه،و سیکونون مصداق لقوله

---

۱ – ۱) -للمفسّرین بحوث کثیره حول ترکیب هذه الآیه الشریفه،و الأنسب منها جمیعا أن یقال:(مثل الجنّه)مبتدأ،و خبره محذوف،و التقدیر:مثل الجنّه التی وعد المتقون جنّه فیها أنهار،و هذه الآیه تشبه-فی الحقیقه-الآیه(۳۵)من سوره الرعد التی تقول: مَثَلُ الْجَنَّهِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ .

۲- ۲) -للجمله محذوف،و للتقدیر:لهم فیها أنواع من کل الثمرات.

تعالی: رَضِیَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذٰلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ (۱) .

و بذلک فإنّ المؤمنین الطاهرین الصالحین یتمتّعون بأنواع المواهب المادیه و المعنویه فی الجنان الخالده،و فی جوار رحمه اللّه.

و لنر الآن ماذا سیکون مصیر الفریق المقابل للمؤمنین،أی الکفار؟ تقول الآیه متابعه لحدیثها: کَمَنْ هُوَ خٰالِدٌ فِی النّٰارِ وَ سُقُوا مٰاءً حَمِیماً فَقَطَّعَ أَمْعٰاءَهُمْ (۲) .

«الأمعاء»جمع«معی»-علی وزن سعی-و«معا»-علی وزن غنا-و تطلق أحیانا علی کلّ ما فی البطن،و تقطیعها إشاره إلی شدّه حراره هذا الشراب الجهنّمی المرعب،و قوّه إحراقه.

***

ملاحظات

اشاره

۱-أنهار الجنّه الأربعه

یستفاد من آیات القرآن المجید جیدا أنّ فی الجنّه أنهارا و عیونا مختلفه،و لکلّ منها فائده و لذّه خاصّه،و قد ورد ذکر أربعه نماذج منها فی الآیه المذکوره، و ستأتی نماذج أخری فی سوره الدهر،و سنذکرها فی تفسیرها،إن شاء اللّه تعالی.

إنّ التعبیر ب«الأنهار»فی شأن هذه الأنواع الأربعه،یوحی بأنّ کلا منها لیس نهرا واحدا،بل أنهار عدیده.

لقد قلنا مرارا:إنّ نعم الجنّه لیست بالشیء الذی یمکن التحدّث عنه بألفاظ محادثاتنا الیومیه فی حیاتنا الدنیا،فإنّ هذه الألفاظ قاصره عن أن تجسدها

۱- ۱) -سوره المائده،۱۱۹.

۲- ۲) -لقد وردت أبحاث کثیره فی ترکیب هذه الآیه أیضا،و الأنسب منها جمیعا أنّ للآیه تقدیرا هو:أ فمن هو خالد فی الجنّه التی هذه صفاتها کمن هو خالد فی النّار؟

تماما،أو أن تعبر عنها بما يعكس حقيقتها،و كلّ ما تقدر عليه هو أن ترسم فی الأذهان شبحا باهت اللون عن تلك الحقائق العظيمه.

لقد أشارت الآيه-مورد البحث-إلی أنهار الماء و اللبن و الخمر و العسل،إذ يمكن أن يكون الأوّل لرفع العطش،و أمّا الثّانی كغذاء،و الثّالث يبعث النشاط و الحيويه،و الرابعه يوجد القوّه و اللذّه.

و الطريف أنّه يستفاد من آيات القرآن الأخری أنّ كلّ أصحاب الجنّه لا يشربون من كل هذه الأشربه،بل أنّ لها مراتب يشرب أصحاب كلّ مرتبه من الأشربه الموجوده فی درجتهم،فنقرأ فی الآيه(۲۸)من سوره المطففين: عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ .

۲-الشراب الطهور

لا يخفی أنّ خمر الجنّه و شرابها لا علاقه له بخمر الدنيا الملوّث مطلقا،بل هو كما يصفه القرآن فی موضع آخر: لاٰ فِيهٰا غَوْلٌ وَ لاٰ هُمْ عَنْهٰا يُنْزَفُونَ (۱) ،و ليس فيه إلاّ العقل و النشاط و اللذّه الروحيه.

۳-أشربه لا يعتريها الفساد

جاء فی وصف أنهار الجنّه مره أنّ ماءها غَيْرِ آسِنٍ ،و أخری لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ،و هو يوحی بأنّ أشربه الجنّه و أطعمتها تبقی علی طراوتها وجدتها،و لم لا تكون كذلك؟و إنّما تتغيّر الأطعمه و تفسد بفعل الميكروبات المفسده،و لولاها فإنّ أطعمه الدنيا تبقی هی الأخری علی حالتها الأولی،و لما لم يكن للموجودات المفسده مكان فی الجنّه،فإنّ كلّ أشيائها صافيه و نظيفه و طريه طازجه دائما.

ص: ۳۵۹

۱- ۱) -سوره الصافات،۴۷.

۴-لماذا الفواكه؟

لقد أكّدت الآيه مورد البحث،و كثير من آيات القرآن الأخرى على الفواكه من بين الأطعمه،الفواكه المتنوّعه المذاق، و هذا يبيّن أنّ الفاكهه أهم أغذيه الجنّه، و حتى فى هذه الدنيا،فإنّ الفاكهه أفضل و أسلم غذاء للإنسان.

۵-جمله سُقُوا بصيغه الفعل المبنى للمجهول،توضح أنّ أصحاب الجحيم يسقون الماء الحميم بالقوه،لا بإرادتهم،و بدل الارتواء فى تلك النّار المحرقه فإنّه يقطّع أمعاءهم،و كما هى طبيعه الجحيم،فإنّهم يرجعون إلى حالتهم الأولى،حيث لا موت هناك.

***

ص: ۳۶۰

الآیات [سوره محمد (۴۷): الآیات ۱۶ الی ۱۹]

اشاره

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتّٰى إِذٰا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قٰالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ مٰا ذٰا قٰالَ آنِفاً أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ طَبَعَ اَللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ
اِتَّبَعُوا أَهْوٰاءَهُمْ (۱۶) وَ اَلَّذِينَ اِهْتَدَوْا زٰادَهُمْ هُدىً وَ آتٰاهُمْ تَقْوٰاهُمْ (۱۷) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ اَلسّٰاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جٰاءَ أَشْرٰاطُهٰا
فَأَنّٰى لَهُمْ إِذٰا جٰاءَتْهُمْ ذِكْرٰاهُمْ (۱۸) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلاَّ اَللّٰهُ وَ اِسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ اَلْمُؤْمِنٰاتِ وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ
مَثْوٰاكُمْ (۱۹)

التّفسیر

اشاره

ظهرت علامات القیامه!

تعکس هـذه الآیـات صوره عن وضع المنافقین،و طریق تعاملهم مع الوحی الإلهی،و کلمات النّبی الأکرم صـلی اللّه علیه و آله و سلّم،و مسأله قتال أعداء الإسلام و محاربتهم.

و قد ورد الحدیث حول المنافقین فی السور المدنیه کثیرا،فی حین لا نری أثرا

ص: ۳۶۱

للحديث حولهم فی السور المکیه،و ذلک لأنّ مسأله النفاق ظهرت بعد انتصار الإسلام و تسلّمه السلطه و القوّه،حیث أصبح المشرکون فی موقع ضعف و انهیار، بحیث لم یکن باستطاعتهم إظهار مخالفتهم،و لذلک اضطروا إلی التلبّس بالإسلام لیأمنوا غضب المسلمین الحقیقیین،أمّا فی الباطن فإنّهم لم یألوا جهدا فی التآمر ضد الإسلام،و کان یهود المدینه الذین کانوا یتمتّعون بقوه عسکریه و اقتصادیه لا یستهان بها،یعتبرون سندا للمنافقین.

و علی أی حال،فقد توغّل هؤلاء بین المسلمین المخلصین،و کانوا یحضرون عند النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و یشارکون فی صلاه الجمعه، إلاّ أنّ تعاملهم تجاه آیات القرآن کان یفضح ما تنطوی علیه سرائرهم و قلوبهم المریضه.

تقول الآیه الأولی من الآیات مورد البحث: وَ مِنْهُمْ مَنْ یَسْتَمِعُ إِلَیْکَ حَتّٰی إِذٰا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِکَ قٰالُوا لِلَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ مٰا ذٰا قٰالَ آنِفاً و کان مرادهم من ذلک الرجل هو النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

إنّ تعبیر هؤلاء فی شأن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و کلماته البلیغه،کان من القبح و البذاءه إلی درجه تدل علی أنّهم لم یؤمنوا بالوحی السماوی قط.

«آنفا»من ماده(أنف)،و لما کان للأنف بروزا متمیّزا فی وجه الإنسان،فإنّ هذه الکلمه تستعمل فی شأن أشراف القوم،و کذلک تستعمل فی مورد الزمان المتقدم علی زمان الحال،کما جاء فی الآیه مورد البحث.

ثمّ إنّ التعبیر ب لِلَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ یوحی بأنّ إحدی علامات المؤمن امتلاکه الوعی الکافی،فکما أنّ العلم مصدر الإیمان،فکذلک هو ولید الإیمان و حاصله.

إلاّ أنّ القرآن الکریم قد أجابهم جوابا قاطعا،فقال:إنّ کلام النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لم یکن غامضا و لا معقّدا،بل أُولٰئِکَ الَّذِینَ طَبَعَ اللّٰهُ عَلیٰ قُلُوبِهِمْ وَ اتَّبَعُوا أَهْوٰاءَهُمْ .

و فی الحقیقه فإنّ الجمله الثّانیه علّه للجمله الاولی،أی إنّ اتباع الهوی یسلب الإنسان القدره علی إدراک الحقائق و تمییزها،و یلقی الحجاب علی قلبه،بحیث

أنّ قلوب متبعى الهوى تصبح كالظرف المختوم،فلا يدخله شىء،و لا يخرج منه شىء.

و يقف المؤمنون الحقيقيون فى الطرف المقابل لهؤلاء،و عنهم تتحدّث الآيه التاليه فتقول: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زٰادَهُمْ هُدىً وَ آتٰاهُمْ تَقْوٰاهُمْ .

نعم،لقد خطا هؤلاء الخطوه الأولى بأنفسهم،و استخدموا عقلهم و فطرتهم فى هذا المسير،ثمّ أخذ اللّه سبحانه بيدهم كما وعدهم من قبل،فزادهم هدى إلى هداهم،و ألقى نور الإيمان فى قلوبهم،و شرح صدورهم و رزقهم حسن الفكره و النظر.هذا من الناحيه العقائديه.

و أمّا من الناحيه العمليه فإنّه سبحانه يحيى فيهم روح التقوى،حتى أنّهم يشمئزون من الذنب و المعصيه،و يعشقون الطاعه و العمل الصالح.

إنّ هؤلاء يقفون من الناحيتين فى الطرف المقابل للمنافقين الذين أشارت إليهم الآيه السابقه،فقد طبع على قلوبهم فلا يفقهون شيئا من جهه،و من جهه اخرى فإنّهم يتّبعون أهواءهم فى العمل،أمّا المؤمنون فإنّ هدايتهم تعظم يوما بعد يوم، و تتضاعف تقواهم فى مجال العمل.

و تحذّر الآيه التاليه أولئك المستهزئين الذين لا إيمان لهم،فتقول: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السّٰاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جٰاءَ أَشْرٰاطُهٰا فَأَنّٰى لَهُمْ إِذٰا جٰاءَتْهُمْ ذِكْرٰاهُمْ .

أجل،إنّ هؤلاء لم يذعنوا للحق حيث كان الإيمان واجبا عليهم،و مفيدا لهم، بل كانوا فى طغيانهم يعمهون،و بآيات اللّه يستهزئون،غير أنّهم يوم يرون الحوادث المرعبه و بدايه القيامه تهزّ العالم و تزلزله،يصيبهم الفزع و يظهرون خضوعهم و يؤمنون،و لا ينفعهم يومئذ إيمانهم و خضوعهم.

إنّ هذه العباره تشبه تماما أن نقول لإنسان:أ تنتظر حتى يشرف بك مرضك على الموت،و لا ينفع حينئذ علاج،ثمّ تدعو الطبيب و تأتى بالدواء؟انهض و اسرع إلى المعالجه و تناول الدواء قبل أن تفقد هذه الفرصه،فإنّ السعى الآن ذو فائده،

و بعد اليوم لا ينفع.

«الأشراط»جمع(شرط)،و هى العلامه،و على هذا فإنّ أشراط الساعه إشاره إلى علامات اقتراب القيامه.

و للمفسرين أقوال كثيره حول المراد من علامات اقتراب القيامه هنا،حتى كتبت رسائل مختصره و مفصّله،فى هذا الباب.إلاّ أنّ الكثير يعتقدون أنّ المراد من «أشراط الساعه»فى الآيه-مورد البحث-هو ظهور شخص النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و يشهد لذلك

الحديث المروى عنه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «بعثت أنا و الساعه كهاتين»و ضمّ إصبعيه السبابه و الوسطى (۱) .

و عدّ البعض مسأله«شقّ القمر»،و قسما آخر من حوادث عصر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من أشراط الساعه أيضا.

لقد وردت أحاديث عديده فى هذا الباب،و قد اعتبرت شيوع كثير من المعاصى بين الناس بالذات من علامات اقتراب القيامه،كالحديث الذى

يرويه «الفتال النيسابورى»(ره)فى روضه الواعظين،عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من أشراط الساعه أن يرفع العلم،و يظهر الجهل،و يشرب الخمر،و يفشو الزنا» (۲) .

بل،حتى الحوادث المهمّه و المؤثره،كقيام المهدى-أرواحنا له الفداء-عدّت من أشراط الساعه.

لكن ينبغى أن نذكر أنّنا نبحث تاره فى أشراط الساعه بصوره مطلقه،فنسأل:ما هى علامات اقتراب القيامه؟و أخرى نبحث فى مورد خصوص الآيه.و المطلب فى مورد الآيه هو ما قلناه.و أمّا حول علامات اقتراب القيامه بصوره مطلقه فقد وردت بحوث و روايات كثيره فى الكتب الإسلاميه المعروفه،و سنشير إليها فيما يأتى (۳) .

---

۱ - ۱) -مجمع البيان،تفسير القرطبى،تفسير فى ظلال القرآن،و تفاسير أخرى،فى ذيل الآيات مورد البحث،بتفاوت يسير فى التعبير.

۲- ۲) -نور الثقلين،المجلد ۵،صفحه ۳۷.

۳- ۳) -يتّضح ممّا قلناه أنّ ليس المراد من جمله:(فقد جاء أشراطها)تحقق كلّ علامات القيامه و ظهورها فى عصر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بل المراد أنّ بعضها قد ظهر،و هو يخبر عن اقتراب القيامه،و إنّ كانت بعض الأشراط ستتحقق و تتّضح فيما بعد.

هـل أن ظهور النـبی من علامـات قرب القیـامه؟ یطرح هنـا سؤال،و هو:کیف عـدوا ظهور النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم من علامات اقتراب القیامه،و قد مرّ إلی الآن خمسه عشر قرنا و لا أثر للقیامه؟ و الإجابه عن هذا السؤال تتّضح بملاحظه واحده،و هی أنّنا یجب أن نقارن بین ما مرّ من الـدنیا و ما بقی منها،و سـیظهر من خلال هـذه المقارنه أن ما بقی من عمر الدنیا قلیل جدا،و هو سریع الانقضاء،کما

ورد فی حـدیث عن النّبی الأـکرم صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم، أنّه کـان یخطب فی أصـحابه قبیـل الغروب،فقال:«و الـذی نفس محمّد بیده ما مثل ما مضی من الدنیا فیما بقی منها إلاّ مثل ما مضی من یومکم هذا فیما بقی منه، و ما بقی منه إلاّ الیسیر» (۱) .

و تقول آخر آیه من هـذه الآیـات و کاسـتخلاص لنتیجه البحوث التی وردت فی الآیـات السـابقه حول الإیمان و الکفر،و مصـیر المؤمنین و الکفّـار: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاـ إِلَهَ إِلاَّـ اللَّهُ أی:اثبت علی خـط التوحیـد،فـإنّه الـدواء الشافی،و اعلم أنّ أفضل وسـیله للنجاه هو التوحید الذی بیّنت الآیات السالفه آثاره.

و بناء علی هـذا،فلا یعنی هـذا الکلام أنّ النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم لم یکن عالما بالتوحیـد بل المراد الاسـتمرار فی هذا الخط،و هذا یشـبه تماما ما ذکروه فی تفسـیر الآیه: اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِیمَ فی سوره الحمد،بأنّها لا تعنی عدم الهدایه من قبل،بل تعنی:

ثبّتنا علی خط الهدایه.

و یحتمل أیضا أن یکون المراد التدبّر فی أمر التوحید أکثر،و الارتقاء إلی المقامات الأسمی،حیث أنّه کلمّا تدبّر البشر فیه أکثر،و طالعوا آیات اللّه بدقّه أکبر، فإنّهم سیصـلون إلی مراتب أرقی،و التدبّر بما قیل فی الآیات السالفه فی مورد الإیمان و الکفر،عامل یؤثر بحدّ ذاته فی زیاده الإیمان و الکفر.

۱- ۱) -روح المعانی،المجلد ۲۶،صفحه ۴۸.

و التّفسیر الثّالث أنّ المراد:الجوانب العملیه للتوحید،أی:اعلم أنّ الملجأ و المأوی الوحید فی العالم هو اللّه تعالی،فالتجئ إلیه،و لا تطلب حل معضلاتک إلاّ منه،و لا تخف سیل المشاکل،و لا تخش کثره الأعداء.

و لا تنافی بین هذه التفاسیر الثلاثه،فمن الممکن أن تجمع فی معنی الآیه.

و بعد هذه المسأله العقائدیه،تعود الآیه إلی مسأله التقوی و العفّه عن المعصیه، فتقول: وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِکَ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ .

لا یخفی أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لم یرتکب ذنبا قط بحکم مقام العصمه،و أمثال هذه التعابیر إشاره إلی ترک الأولی،فإنّ حسنات الأبرار سیئات المقرّبین،أو إلی أنّه قدوه للمسلمین.

و

جاء فی حدیث: أنّ حذیفه بن الیمان یقول:کنت رجلا ذرب اللسان علی أهلی،فقلت:یا رسول اللّه إنّی لأخشی أن یدخلنی لسانی فی النّار،فقال صلی اللّه علیه و آله و سلّم:

«فأین أنت من الاستغفار؟إنّی لأستغفر اللّه فی الیوم مائه مرّه» (۱) .و جاء فی بعض الروایات أنّه کان یستغفر فی الیوم سبعین مرّه.

إذا کان الآخرون یستغفرون ممّا ارتکبوا من المعاصی و الذنوب،فإنّ النّبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم یستغفر اللّه من تلک اللحظه التی شغل فیها عن ذکره،أو أنّه ترک فعل الأحسن و فعل الحسن.

و هنا نکته جدیره بالانتباه،و هی أنّ اللّه سبحانه قد شفع للمؤمنین و المؤمنات، و أمر نبیّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم أن یستغفر لهم لتسعهم رحمته،و من هنا یتبیّن عمق مسأله «الشفاعه»فی الدنیا و الآخره،و کذلک تتبیّن أهمیه التوسّل و کونه مشروعا.

و یقول سبحانه فی ذیل الآیه،و کتبیان للعلّه وَ اللّٰهُ یَعْلَمُ مُتَقَلَّبَکُمْ وَ مَثْوٰاکُمْ فهو یعلم ظاهرکم و باطنکم،کتمانکم و علانیتکم،سرّکم و نجواکم،بل و یعلم حتی نیّاتکم،و ما توسوس به أنفسکم،و یخطر علی أذهانکم،و ما یجری فی ضمائرکم،

۱- ۱) -مجمع البیان،المجلد ۹،صفحه ۱۰۲،ذیل الآیات مورد البحث.

و یعلم حرکاتکم و سکناتکم،و لهذا وجب علیکم التوجّه إلیه و رفع الأکف بین یدیهو و طلب العفو و المغفره و الرحمه منه.

«المتقلّب»:هو المکان الذی یکثر التردّد علیه،و«المثوی»هو محل الاستقرار (۱) .

و الظاهر أنّ لهاتین الکلمتین معنی واسعا یشمل کلّ حرکات ابن آدم و سکناته، سواء التی فی الدنیا أم فی الآخره،فی فتره کونه جنینا أم کونه من سکان القبور، و إن کان کثیر من المفسّرین قد ذکر لهما معانی محدده:

فقال بعضهم:إنّ المراد حرکه الإنسان فی النهار،و سکونه فی اللیل.

و قال آخرون:إنّ المراد مسیر الإنسان فی الحیاه الدنیا،و استقراره فی الآخره.

و قال بعض آخر:إنّ المراد تقلّب الإنسان فی أصلاب الآباء و أرحام الأمهات، و ثباته فی القبر.

و أخیرا ذکر البعض أنّ المراد:حرکاته فی السفر،و سکناته فی الحضر.

و لکن کما قلنا،فإنّ للآیه معنی واسعا یشمل کلّ هذه المعانی.

***

بحث

اشاره

ما هی أشراط الساعه؟

قلنا سابقا:إنّ الأشراط جمع شرط،و هی العلامه،و یقال لعلامات اقتراب القیامه:أشراط الساعه،و قد بحثت کثیرا فی مصادر الشیعه و السنّه،و لم یشر القرآن إلیها إلاّ فی هذه الآیه.

و من أجمع الأحادیث و أکثرها تفصیلا فی هذا الباب،الحدیث الذی

رواه ابن

۱- ۱) -بناء علی هـذا،فإنّ(متقلّب)اسم مفعول جاء هنا بمعنی المکان،إلاّ أنّ جماعه یعتبرونه مصـدرا میمیا یعنی الانتقال من حال الی حال.غیر أنّ المعنی الأوّل هو الأنسب بملاحظه قرینه مقابلته بالمثوی الذی لا ریب فی کونه اسم مکان.

عباس عن النّبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی قضیه حجّه الوداع، و هو یعلّمنا کثیرا من المسائل،و یحتوی علی نکات و دقائق کثیره،و لهذا نورده کاملا:

قال ابن عباس:حججنا مع رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم حجّه الوداع و هی آخر حجّه حجّها رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی حیاته-فأخذ بحلقه باب الکعبه ثمّ أقبل علینا بوجهه فقال:

«ألا أخبرکم بأشراط الساعه»؟فکان أدنی الناس منه یومئذ سلمان رحمه اللّه علیه فقال:بلی یا رسول اللّه.

قال صلی اللّه علیه و آله و سلّم:«إنّ من أشراط الساعه إضاعه الصلوات،و اتباع الشهوات،و المیل مع الأهواء،و تعظیم أصحاب المال،و بیع الدین بالدنیا،فعندها یذاب قلب المؤمن فی جوفه کما یذاب الملح فی الماء مما یری من المنکر فلا یستطیع أن یغیّره».

قال سلمان:و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟ قال:«إی و الذی نفسی بیده.یا سلمان:إنّ عندها یلیهم أمراء جوره،و وزراء فسقه،و عرفاء ظلمه،و أمناء خونه».

فقال سلمان:و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟ قال:«إی و الذی نفسی بیده.یا سلمان:إنّ عندها یکون المنکر معروفا، و المعروف منکرا،و یؤتمن الخائن،و یخوّن الأمین،و یصدّق الکاذب،و یکذّب الصادق».

قال سلمان:و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟ قال:«إی و الذی نفسی بیده.یا سلمان:فعندها تکون إماره النساء،و مشاوره الإماء،و قعود الصبیان علی المنابر،و یکون الکذب ظرفا،و الزکاه مغرما،و الفیء مغنما،و یجفو الرجل والدیه و یبرّ صدیقه،و یطلع الکوکب المذنب».

قال سلمان:و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟ قال:«إی و الذی نفسی بیده.یا سلمان:و عندها تشارک المرأه زوجها فی التجاره[و یبذل کل منهما قصاری جهد خارج المنزل لتحصیل المال]

و یکون

المطر غيضا،و يغيض الكرام غيضا،و يحتقر الرجل المعسر،فعندها تقارب الأسواق، قال هذا:لم أبع شيئا،و قال هذا:لم أربح شيئا،فلا ترى إلاّ ذاما للّه».

قال سلمان:و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟ قال:«إى و الذى نفسى بيده.يا سلمان:فعندها يليهم أقوام إن تكلّموا قتلوهم، و إن سكتوا استباحوهم،ليستأثرون بفيئهم،و ليطؤن حرمتهم،و ليسفكن دماءهم، و ليملؤن قلوبهم دغلا-و رعبا،فلا تراهم إلاّ وجلين خائفين مرعوبين مرهوبين».

فقال سلمان:و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟ قال:«إى و الذى نفسى بيده.يا سلمان:إنّ عندها يؤتى بشىء من المشرق، و شىء من المغرب[فقوانين من الشرق،و قوانين من الغرب]

يلون أمّتى،فالويل لضعفاء أمّتى منهم،و الويل لهم من اللّه،لا يرحمون صغيرا،و لا يوقّرون كبيرا،و لا يتجافون عن مسىء،جثّتهم جثه الآدميين،و قلوبهم قلوب الشياطين».

قال سلمان:و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟ قال:«إى و الذى نفسى بيده.يا سلمان: و عندها يكتفى الرجال بالرجال و النساء بالنساء،و يغار على الغلمان كما يغار على الجاريه فى بيت أهلها،و تشبه الرجال بالنساء،و النساء بالرجال،و تركب ذوات الفروج السروج[و يظهرن أنفسهن]

فعليهن من أمّتى لعنه اللّه».

قال سلمان:و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟ قال:«إى و الذى نفسى بيده.يا سلمان:إنّ عندها تزخرف المساجد كما تزخرف الكنائس و تحلى المصاحف[دون أن يعمل بها]

و تطول المنارات،و تكثر الصفوف،قلوب متباغضه،و ألسن مختلفه».

قال سلمان:و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟ قال:«إى و الذى نفسى بيده.يا سلمان:و عندها تحلّى ذكور أمّتى بالذهب، و يلبسون الحرير و الديباج،و يتّخذون جلود النمور صفافا».

قال سلمان:و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟ قال:«إى و الذى نفسى بيده.يا سلمان:و عندها يظهر الزنا،و يتعاملون بالعينه و الرشا،و يوضع الدين و ترفع الدنيا».

قال سلمان:و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟ قال:«إى و الذى نفسى بيده.يا سلمان:و عندها يكثر الطلاق،فلا يقام للّه حد، و لن يضرّوا اللّه شيئا[و إنّما يضرّون أنفسهم]

».

قال سلمان:و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟ قال:«إى و الذى نفسى بيده.يا سلمان:و عندها تظهر القينات و المعازف، و تليهم أشرار أمّتى».

قال سلمان:و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟ قال:«إى و الذى نفسى بيده.يا سلمان:و عندها يحج أغنياء أمّتى للنزهه،و يحج أوساطها للتجاره، و يحج فقراؤهم للرياء و السمعه،فعندها يكون أقوام يتعلّمون القرآن لغير اللّه،و يتّخذونه مزامير،و يكون أقوام يتفقّهون لغير اللّه،و يكثر أولاد الزنا،و يتغنّون بالقرآن،و يتهافتون بالدنيا».

قال سلمان:و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟ قال:«إى و الذى نفسى بيده.يا سلمان:ذاك إذا انتهكت المحارم،و اكتسبت المآثم،و سلّط الأشرار على الأخيار،و يفشو الكذب،و تظهر اللجاجه،و تفشو الفاقه،و يتباهون فى اللباس،و يمطرون فى غير أوان المطر،و يستحسنون الكوبه و المعازف،و ينكرون الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر،حتى يكون المؤمن فى ذلك الزمان أذلّ من الأمه،و يظهر قرّاؤهم و عبادهم فيما بينهم التلاوم،فأولئك يدعون فى ملكوت السماوات الأرجاس الأنجاس».

قال سلمان:و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟ قال:«إى و الذى نفسى بيده.يا سلمان:فعندها لا يخشى الغنى على الفقير،

حتى أنّ السائل يسأل فى الناس فيما بين الجمعتين لا يصيب أحدا يضع فى كفه شيئا».

قال سلمان:و إنّ هذا لكائن يا رسول اللّه؟ قال:«إى و الذى نفسى بيده.يا سلمان:فعندها يتكلم الرويبضه».

قال سلمان:ما الرويبضه يا رسول اللّه فداك أبى و أمّى؟ قال:«يتكلّم فى أمر العامه من لم يكن يتكلّم،فلم يلبثوا إلاّ قليلا حتى تخور الأرض خوره،فلا يظن كلّ قوم إلاّ أنّها خارت فى ناحيتهم،فيمكثون ما شاء اللّه، ثمّ يمكثون فى مكثهم،فتلقى لهم الأرض أفلاذ أكبادها»قال:«ذهبا و فضه»،ثمّ أومأ بيده إلى الأساطين،فقال:مثل هذا،فيومئذ لا ينفع ذهب و لا فضه-و يحل أمر اللّه-فهذا يعنى معنى قوله: فَقَدْ جٰاءَ أَشْرٰاطُهٰا (۱) .

***

۱- ۱) -تفسير على بن إبراهيم طبقا لنقل نور الثقلين،و تفسير الصافى،ذيل الآيه مورد البحث.

الآیات [سوره محمد (۴۷): الآیات ۲۰ الی ۲۴]

اشاره

وَ یَقُولُ اَلَّذِینَ آمَنُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذٰا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْکَمَةٌ وَ ذُکِرَ فِیهَا اَلْقِتٰالُ رَأَیْتَ اَلَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ یَنْظُرُونَ إِلَیْکَ نَظَرَ اَلْمَغْشِیِّ عَلَیْهِ مِنَ اَلْمَوْتِ فَأَوْلیٰ لَهُمْ (۲۰) طٰاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذٰا عَزَمَ اَلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اَللّٰهَ لَکٰانَ خَیْراً لَهُمْ (۲۱) فَهَلْ عَسَیْتُمْ إِنْ تَوَلَّیْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِی اَلْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحٰامَکُمْ (۲۲) أُولٰئِکَ اَلَّذِینَ لَعَنَهُمُ اَللّٰهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمیٰ أَبْصٰارَهُمْ (۲۳) أَ فَلاٰ یَتَدَبَّرُونَ اَلْقُرْآنَ أَمْ عَلیٰ قُلُوبٍ أَقْفٰالُهٰا (۲۴)

التّفسیر

اشاره

یخافون حتی من اسم الجهاد!

تبیّن هـذه الآیـات المواقف المختلفه للمؤمنین و المنافقین تجاه الأمر بالجهاد، تکمله للأبحاث التی مرّت فی الآیات السابقه حول هذین الفریقین.

ص: ۳۷۲

تقول الآیه الأولی: وَ یَقُولُ الَّذِینَ آمَنُوا لَوْ لاٰ نُزِّلَتْ سُورَهٌ سوره یکون فیها أمر بالجهاد،یوضح واجبنا تجاه الأعداء القساه الجلّادین الذین لا منطق لهم...

سوره تبعث آیاتها نور الهدایه فی قلوبنا،و تضیء أرواحنا بنورها الوهّاج،هذا حال المؤمنین.

و أمّا المنافقون: فَإِذٰا أُنْزِلَتْ سُورَهٌ مُحْکَمَهٌ وَ ذُکِرَ فِیهَا الْقِتٰالُ رَأَیْتَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ یَنْظُرُونَ إِلَیْکَ نَظَرَ الْمَغْشِیِّ عَلَیْهِ مِنَ الْمَوْتِ .

فعند سماع اسم الحرب یصیبهم الهلع،و یضطرب کیانهم أجمع،و تتوقف عقولهم عن التفکیر،و تتسمّر عیونهم،و ینظرون إلیک کمن یوشک علی الموت، و هذا أبلغ و أروع تعبیر عن حال المنافقین الجبناء الخائفین.

إنّ سبب اختلاف تعامل المؤمنین و المنافقین مع أمر الجهاد،ینبع من أن الفریق الأوّل قد علقوا آمالهم باللّه سبحانه لإیمانهم القوی به،فهم یرجون عنایته و لطفه و نصرته،و لا خوف لدیهم من الشهاده فی سبیله.

إنّ میدان الجهاد بالنسبه إلی هؤلاء میدان إظهار عشقهم لمحبوبهم،میدان الشرف و الفضیله،میدان تفجّر الاستعدادت و القابلیات،و هو میدان الثبات و المقاومه و الإنتصار،و لا معنی للخوف فی مثل هذا المیدان.

إلاّ أنّه بالنسبه إلی المنافقین میدان موت و فناء و تعاسه،میدان هزیمه و مفارقه لذائذ الدنیا،و هو أخیرا میدان مظلم یعقبه مستقبل مرعب غامض! و المراد من«السوره المحکمه»-باعتقاد بعض المفسّرین-هی السور التی ذکرت فیها مسأله الجهاد.لکن لا دلیل علی هذا التّفسیر،بل الظاهر أنّ«المحکم» هنا بمعنی المستحکم و الثابت و القاطع،و الخالی من أی غموض أو إبهام،حیث یقع المتشابه فی مقابله أحیانا،و لمّا کانت آیات الجهاد تتمتّع عاده بحزم استثنائی، فإنّها تنسجم مع مفهوم هذه اللفظ أکثر،إلاّ أنّها لیست منحصره فیه.

و التعبیر ب اَلَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ تعبیر یستعمل فی لسان القرآن فی شأن

المنافقين عاده،و ما احتمله بعض المفسّرين من أنّ المراد ضعفاء الإيمان لا ينسجم مع سائر آيات القرآن،بل و لا مع الآيات السابقه لهذه الآيات و التى بعدها،التى تتحدّث جميعا عن المنافقين.

و على أيه حال،فإنّ الآيه تضيف فى النهايه جمله قصيره،فتقول: فَأَوْلىٰ لَهُمْ .

إنّ جمله فَأَوْلىٰ لَهُمْ تعبّر فى الأدب العربى عن التهديد و اللعنه،و تمنّى التعاسه و الفناء للآخر (۱) .

و فسّرها البعض بأنّها تعنى:الموت أولى لهم،و لا مانع من الجمع بينها كما أوردنا فى تفسير الآيه.

و تضيف الآيه التاليه: طٰاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ (۲) .

إنّ التعبير ب قَوْلٌ مَعْرُوفٌ يمكن أن يكون فى مقابل الكلمات الهزيله المنكره التى كان يتفوّه بها المنافقون بعد نزول آيات الجهاد،فقد كانوا يقولون تاره لاٰ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ (۳) ،و أخرى: وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنٰافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مٰا وَعَدَنَا اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ إِلاّٰ غُرُوراً (۴) ،و ثالثه كانوا يقولون: هَلُمَّ إِلَيْنٰا (۵) ،من أجل إضعاف المؤمنين و إعاقتهم عن التوجّه إلى ميدان الجهاد.

و لم يكونوا يكتفون بعدم ترغيب الناس فى أمر الجهاد،بل كانوا يبذلون قصارى جهودهم من أجل صدّهم عن الجهاد،أو تثبيط معنوياتهم و عزائمهم على الأقل.

ثمّ تضيف الآيه: فَإِذٰا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللّٰهَ لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ و سيرفع

۱- ۱) -اعتقد جماعه أنّ معنى الجمله يصبح:يليه مكروه،و هو يعادل معنى ويل لهم.
۲- ۲) -(طاعه)مبتدأ،و خبره محذوف،و التقدير:طاعه و قول معروف أمثل لهم،و اعتبرها البعض خبرا لمبتدأ محذوف،و كان التقدير:أمرنا طاعه،إلاّ أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب.
۳- ۳) -التوبه،الآيه ۸۱.
۴- ۴) -الأحزاب،الآيه ۱۲.
۵- ۵) -الأحزاب،الآيه ۱۸.

رؤوسهم فی الدنیا،و یمنحهم العزّه و الفخر،و یؤدّی إلی أن ینالوا الثواب الجزیل، و الأجر الکبیر،و الفوز العظیم فی الآخره.

و جمله عَزَمَ الْأَمْرُ تشیر فی الأساس إلی استحکام العمل،إلاّ أنّ المراد منها هنا الجهاد،بقرینه الآیات التی سبقتها و التی تلیها.

و تضیف الآیه التالیه: فَهَلْ عَسَیْتُمْ إِنْ تَوَلَّیْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِی الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحٰامَکُمْ (۱) لأنّکم إن أعرضتم عن القرآن و التوحید،فإنّکم سترجعون إلی جاهلیّتکم حتما،و لم یکن فی الجاهلیه إلاّ الفساد فی الأرض،و الإغاره و القتل و سفک الدماء،و قطیعه الرحم،و وأد البنات.هذا إذا کانت«تولیّتم»من ماده «تولّی»بمعنی الإعراض.

غیر أنّ کثیرا من المفسّرین احتمل أن تکون من ماده«ولایه»،أی:الحکومه، فیکون المعنی:إنّکم إذا تولیّتم زمام السلطه فلا یتوقع منکم إلاّ الضلال و الفساد و سفک الدماء و قطیعه الرحم.

و کأنّ جمعا من المنافقین قد اعتذر من أجل أن یفرّ من میدان الجهاد بأنّا کیف نطأ ساحه الحرب و نقتل أرحامنا و نسفک دماءهم،و عندها سنکون من المفسدین فی الأرض؟ فیجیبهم القرآن قائلا:ألم تقتلوا أرحامکم و تسفکوا دماءهم،و لم یظهر منکم إلاّ الفساد فی الأرض یوم کانت الحکومه بأیدیکم؟إن هذا إلاّ تذرّع و تهرّب،فإنّ الهدف من الحرب فی الإسلام هو إخماد نار الفتنه،لا الفساد فی الأرض،و الهدف اقتلاع جذور الظلم و إزالته من الوجود،لا قطع الرحم.

و قد ورد فی بعض الروایات الوارده عن أهل البیت علیهم السّلام أنّ هذه الآیه فی بنی

۱- ۱) -بالرغم من أنّ القلیل من المفسّرین قد بحث فی ترکیب هذه الآیه،لکن یبدو أنّ(إن تولیّتم)جمله شرطیه وقعت بین اسم «عسی»و خبرها،و جزاء إن الشرطیه مجموع جمله(فهل عسیتم أن تفسدوا فی الأرض)،و التقدیر:إن تولیّتم عن کتاب اللّه فهل یترقب منکم إلاّ الفساد فی الأرض؟

أميه الذين لم يرحموا صغيرا و لا كبيرا،بل سفكوا دماء الجميع حتى أقاربهم لمّا تسلّموا زمام الحكم (١) .

من المعلوم أنّ بنى أميه جميعا،ابتداء من أبى سفيان إلى أبنائه و أحفاده،كانوا مصداقا واضحا لهذه الآيه،و هذا هو المراد من الروايه،إذ أنّ للآيه معنى واسعا يشمل كلّ المنافقين الظالمين و المفسدين.

و توضح الآيه التاليه المصير النهائى لهؤلاء القوم المنافقين المفسدين المتذرّعين بأوهى الحجج فتقول: أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمىٰ أَبْصٰارَهُمْ .

إنّ هؤلاء يظنّون أنّ الجهاد الإسلامى القائم على أساس الحق و العداله،قطيعه للرحم،و فسادا فى الأرض،أمّا كلّ الجرائم التى ارتكبوها فى الجاهليه،و الدماء البريئه التى سفكوها أيّام تسلطهم،و الأطفال الأبرياء الذين وأدوهم و دفنوهم و هم أحياء يستغيثون،كانت قائمه على أساس الحق و العدل!لعنهم اللّه إذ لا أذن واعيه لهم،و لا عين ناظره بصيره! و نقرأ

فى روايه عن الإمام على بن الحسين،أنّه قال لولده الإمام الباقر عليه السّلام:

«إيّاك و مصاحبه القاطع لرحمه،فإنّى وجدته ملعونا فى كتاب اللّه عزّ و جلّ فى ثلاثه مواضع،قال اللّه عزّ و جلّ:فهل عسيتم...» (٢) .

«الرحم»فى الأصل محل استقرار الجنين فى بطن أمّه،ثمّ أطلق هذا التعبير على كل الأقرباء،لأنّهم نشأوا و ولدوا من رحم واحد.

و

جاء فى حديث آخر عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «ثلاثه لا يدخلون الجنّه:مدمن خمر،و مدمن سحر،و قاطع رحم» (٣) .

١- ١) -راجع:نور الثقلين،المجلد ۵،صفحه ۴٠.

٢- ٢) -أصول الكافى،المجلد ٢،باب«من تكره مجالسته»،الحديث ٧.أمّا الآيتان اللتان وردتا فى بقيه الحديث فإحداهما الآيه (٢۵)من سوره الرعد،و الأخرى الآيه(٢٧)من سوره البقره،و قد ورد اللعن فى إحداهما صريحا،و فى الأخرى كنايه و تلميحا.

٣- ٣) -التّفسير الأمثل ذيل الآيه(٧٧)من سوره المائده(نقلا عن الخصال).

و لا ـ يخفى أنّ لعن اللّه تعالى لهؤلاء القوم،و طردهم من رحمته،و كذلك سلبهم القدره على إدراك الحقائق،لا ـ يستلزم الجبر،لأنّ ذلك جزاء أعمالهم،وردّ فعل لسلوكهم و أفعالهم.

و تناول آخر آيه من هذه الآيات ذكر العله الحقيقيه لانحراف هؤلاء القوم التعساء،فقالت: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها ؟ نعم،إنّ عامل مسكنه هؤلاء و ضياعهم أحد اثنين:إمّا أنّهم لا يتدبّرون في القرآن،برنامج الهدايه الإلهيه،و الوصفه الطبيه الشافيه تماما،أو أنّهم يتدبّرونه،إلّا أنّ قلوبهم مقفله نتيجه اتباع الهوى و الأعمال التي قاموا بها من قبل،و هي مقفله بشكل لا تنفذ معه أي حقيقه إلى قلوبهم.

و بتعبير آخر،فإنّهم كرجل ضلّ طريقه في الظلمات،فلا سراج في يده،و لا هو يبصر إذ هو أعمى،فلو كان معه سراج،و كان مبصرا،فإنّ الاهتداء إلى الطريق في أي مكان سهل و يسير.

«الأقفال»جمع قفل،و هي في الأصل من ماده القفول أي الرجوع،أو من القفيل،أي الأشياء اليابسه،و لمّا كان المتعارف أنّهم إذا أغلقوا الباب و قفلوها بقفل، فكلّ من يأت يقفل راجعا،و كذلك لمّا كان القفل شيئا صلبا لا ينفذ فيه شيء،لذا فقد أطلقت هذه الكلمه على هذه الآله الخاصه.

***

بحث

اشاره

القرآن كتاب فكر و عمل:

تؤكّد آيات القرآن المختلفه على حقيقه أنّ هذا الكتاب السماوي العظيم ليس للتلاوه و حسب،بل إنّ الهدف النهائي منه هو الذكر، و التدبّر في عواقب الأمور و الإنذار،و إخراج البشر من الظلمات،و الشفاء و الرحمه و الهدايه.

فنقرأ فی الآیه(۵۰)من سوره الأنبیاء: وَ هٰذٰا ذِکْرٌ مُبٰارَکٌ أَنْزَلْنٰاهُ .

و فی الآیه(۲۹)من سوره ص: کِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَیْکَ مُبٰارَکٌ لِیَدَّبَّرُوا آیٰاتِهِ .

و جاء فی الآیه(۱۹)من سوره الأنعام: وَ أُوحِیَ إِلَیَّ هٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَکُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ .

و تقول الآیه الأولی من سوره إبراهیم: کِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَیْکَ لِتُخْرِجَ النّٰاسَ مِنَ الظُّلُمٰاتِ إِلَی النُّورِ .

و أخیرا،جاء فی الآیه(۸۲)من سوره الإسراء: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مٰا هُوَ شِفٰاءٌ وَ رَحْمَهٌ لِلْمُؤْمِنِینَ .

و لهذا،فإنّ القرآن الکریم یجب أن یأخذ مکانه من حیاه المسلمین،و یکون فی صمیمها لا علی هامشها،و علیهم أن یجعلوه قدوتهم و أسوتهم،و أن ینفذوا کلّ أوامره،و أن یجعلوا خطوط حیاتهم و طبیعتها منسجمه معه.

لکنّ،جماعه من المسلمین-مع الأسف الشدید-لا یتعاملون مع القرآن إلاّ علی أنّه مجموعه أوراد و أذکار،فهم یتلونه جمیعا تلاوه مجرّده،و یهتمون أشدّ الاهتمام بالتجوید و مخارج الحروف و حسن الصوت،و أکثر شقاء المسلمین و تعاستهم یکمن فی أنّهم أخرجوا القرآن عن کونه دستورا جامعا لحیاه البشر، و اکتفوا بتردید ألفاظه،و قنعوا بذلک.

و الجدیر بالانتباه أنّ الآیات مورد البحث تقول بصراحه:إنّ هؤلاء المنافقین المرضی القلوب لم یتدبّروا فی القرآن،فلاقوا هذا المصیر الأسود.

«التدبّر»من ماده دبر،و هو تحقیق و بحث نتائج الشیء و عواقبه،بعکس «التفکر»الذی یقال غالبا عن علل الشیء و أسبابه،و استعمل کلا التعبیرین فی القرآن.

لکن،ینبغی أن لا ننسی أنّ الاستفاده من القرآن تحتاج إلی نوع من تهذیب النفس و جهادها،و إن کان القرآن بنفسه معینا فی تهذیبها،لأنّ القلوب إذا کانت

مقفله بأقفال الهوى و الشهوه،و الكبر و الغرور،و اللجاجه و التعصّب،فسوف لا يلجها نور الحق،و قد أشارت الآيات-مورد البحث-إلى هذا المعنى.

و ما

أروع كلام أمير المؤمنين على عليه السّلام فى خطبته حول صفات المتّقين،إذ يقول: «أمّا الليل فصافون أقدامهم،تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا،يحزنون به أنفسهم،و يستثيرون به دواء دائهم،فإذا مرّوا بآيه فيها تشويق ركنوا إليها طمعا، و تطّلعت نفوسهم إليها شوقا،و ظنّوا أنّها نصب أعينهم،و إذا مرّوا بآيه فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم،و ظنّوا أنّ زفير جهنّم و شهيقها فى أصول آذانهم» (۱) .

حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام:

ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير جمله: أَمْ عَلىٰ قُلُوبٍ أَقْفٰالُهٰا :«إنّ لك قلبا و مسامع،و إنّ اللّه إذا أراد أن يهدى عبدا فتح مسامع قلبه،و إذا أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه فلا يصلح أبدا،و هو قول اللّه عزّ و جلّ: أَمْ عَلىٰ قُلُوبٍ أَقْفٰالُهٰا (۲) .

***

۱- ۱) -نهج البلاغه،الخطبه ۱۹۳،المعروفه بخطبه همام.

۲- ۲) -نور الثقلين،المجلد ۵،صفحه ۴۱.

الآیات [سوره محمد (۴۷): الآیات ۲۵ الی ۲۸]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِینَ اِرْتَدُّوا عَلیٰ أَدْبٰارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَیَّنَ لَهُمُ اَلْهُدَی اَلشَّیْطٰانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلیٰ لَهُمْ (۲۵) ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا لِلَّذِینَ کَرِهُوا مٰا نَزَّلَ اَللّٰهُ سَنُطِیعُکُمْ فِی بَعْضِ اَلْأَمْرِ وَ اَللّٰهُ یَعْلَمُ إِسْرٰارَهُمْ (۲۶) فَکَیْفَ إِذٰا تَوَفَّتْهُمُ اَلْمَلاٰئِکَةُ یَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبٰارَهُمْ (۲۷) ذٰلِکَ بِأَنَّهُمُ اِتَّبَعُوا مٰا أَسْخَطَ اَللّٰهَ وَ کَرِهُوا رِضْوٰانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمٰالَهُمْ (۲۸)

التّفسیر

اشاره

أ فلا یتدبّرون القرآن:

تواصل هـذه الآیات الکلام حول المنافقین و مواقفهم المختلفه،فتقول: إِنَّ الَّذِینَ ارْتَدُّوا عَلیٰ أَدْبٰارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَیَّنَ لَهُمُ الْهُدَی الشَّیْطٰانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلیٰ لَهُمْ .

و بالرغم من أنّ البعض احتمل أنّ هذه الآیه تتحدّث عن جماعه من الذین

ص: ۳۸۰

كفروا من أهل الكتاب الذين كانوا يذكرون علامات النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قبل ظهوره،و ذلك استنادا إلى ما ورد فى كتبهم السماويه،و كانوا ينتظرونه على أحر من الجمر،إلاّ أنّهم أعرضوا عنه بعد ظهوره و اتضاح هذه العلامات و تحقّقها،و منعتهم شهواتهم و مصالحهم من الإيمان به.

بالرغم من ذلك،فإنّ القرائن الموجوده فى الآيات السابقه و اللاحقه تبيّن جيدا أنّ هذه الآيه تتحدث أيضا عن المنافقين الذين جاؤوا و رأوا بأمّ أعينهم الدلائل الدالّه على حقانيه النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم،و سمعوا آياته،إلاّ أنّهم أدبروا اتباعا لأهوائهم و شهواتهم،و طاعه لوساوس الشيطان.

«سوّل»من ماده سؤل-على وزن قفل-و هى الحاجه التى يحرص عليها الإنسان (1) ،و«التسويل»بمعنى الترغيب و التشويق إلى الأمور التى يحرص عليها، و نسبته إلى الشيطان بسبب الوساوس التى يلقيها فى نفس الإنسان،و تمنع من هدايته.

و جمله وَ أَمْلىٰ لَهُمْ من ماده«إملاء»،و هو زرع طول الأمل فيهم،و الآمال البعيده المدى،و التى تشغل الإنسان،فتصدّه عن الحق و الهدى.

و تشرح الآيه التاليه علّه هذا التسويل و التزيين الشيطانى،فتقول: ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قٰالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مٰا نَزَّلَ اللّٰهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ و هذا دأب المنافقين فى البحث عن العصاه و المخالفين،و إذا لم يكونوا مشتركين و متفقين معهم فى كلّ المواقف،فإنّهم يتعاونون معهم على أساس المقدار المتفق عليه من مواقفهم،بل و يطيعونهم إذا اقتضى الأمر.

بل قد اتجه منافقو المدينه نحو يهود المدينه-و هم«بنو النضير»و«بنو قريظه»

1- 1) -و لذلك فإنّ البعض قد فسّرها بمعنى الأمل،كما نقرأ ذلك فى الآيه(36)من سوره طه: قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يٰا مُوسىٰ .

الـذين كـانوا يبشـرون بالإسـلام قبل بعثه النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم،أمّا بعـد ظهوره و مبعثه،و تعرّض مصالحهم للخطر،و لحسـدهم و كبرهم،فـإنّهم اعتبروا الإسـلام دينـا باطلاـو غير سـليم-و لمّـا كـان هنـاك قـدر مشترك بين المنـافقين و اليهود فى مخالفتهم النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم،و تآمرهـم ضد الإسـلام،فإنّهم اتفقوا مع اليهود على العمل المشترك ضد الإسـلام و المسلمين.

و ربّما كان تعبير فِي بَعْضِ اَلْأَمْرِ إشاره إلى أنّنا نتعاون معكم فى هذا الجزء فقط،فإنّكم تخالفون عباده الأصنام،و تعتقدون بالبعث و القيامه،و نحن لا نتفق معكم فى هذه الأمور (١) .

هذا الكلام شبيه بما جاء فى الآيه(١١)من سوره الحشـر: أَ لَمْ تَرَ إِلَى اَلَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ اَلْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ .

و تهدد الآيات هؤلاء فى نهايتها فتقول: وَ اَللّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ فهو عليم بكفرهم الباطن و نفاقهم،و بتآمرهم مع اليهود،و سـيعاقبهم و يجـازيهم فى الوقت المنـاسب.و عليم بمـا كان يخفيه اليهود من حسـدهم و عـدائهم و عنادهم،فقـد كانوا يعرفون علامات نبىّ الإسـلام صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم كما يعرفون أبناءهم بشهاده كتابهم،و كانوا يذكرون هذه العلامات للناس من قبل،إلاّ أنّهم أخفوها جميعا بعد ظهوره،و اللّه عليم بهذا الإخفاء و محاوله طمس الحق.

و

جاء فى حـديث عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السّـلام: أنّ المراد من كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اَللّهُ بنو أميّه الذين كرهوا نزول أمر اللّه تعالى فى ولايه على عليه السّلام (٢) .

١- ١) -ثمّه احتمالات عديده أخرى فى تفسير هذه الآيه،لا ينسـجم أى منها مع الآيات السابقه و اللاحقه،و لذلك أعرضـنا عن ذكرها.

٢- ٢) -مجمع البيان،المجلد ٩،صفحه ١٠٥.

و واضح أنّ هذا النوع تطبيق و بيان مصداق،و ليس حصرا لمعنى الآيه.

و الآيه التاليه بمثابه توضيح لهذا التهديد المبهم،فتقول: فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَهُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ (1) .

نعم،إنّ هؤلاء الملائكه مأمورون أن يذيقوا هؤلاء العذاب و هم على أعتاب الموت ليذوقوا و بال الكفر و النفاق و العناد،و هم يضربون وجوههم لأنّها اتجهت نحو أعداء اللّه،و يضربون أدبارهم لأنّهم أدبروا عن آيات اللّه و نبيّه.

و هذا المعنى نظير ما ورد في الآيه(50)من سوره الأنفال حول الكفار و المنافقين: وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَهُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ .

و تناولت آخر آيه من هذه الآيات بيان علّه هذا العذاب الإلهي و هم على إعتاب الموت،فتقول: ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللّهَ وَ كَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ .

لأنّ رضى اللّه سبحانه هو شرط قبول الأعمال و كلّ سعي و جهد،و بناء على هذا،فمن الطبيعي أن تحبط أعمال أولئك الذين يصرون على إغضاب اللّه عزّ و جلّ و إسخاطه،و يخالفون ما يرتضيه،و يودعون هذه الدنيا و هم خالو الوفاض،قد أثقلتهم أوزارهم،و أرهقتهم ذنوبهم.

إنّ حال هؤلاء القوم يخالف تماما حال المؤمنين الذين تستقبلهم الملائكه بوجوه ضاحكه عند ما يشرفون على الموت،و تبشّرهم بما أعد اللّه لهم: اَلَّذِينَ تَتَوَفّاهُمُ الْمَلائِكَهُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّهَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (2) .

و ممّا يلفت النظر أنّ الجمله فعليه في مورد غضب اللّه تعالى: ما أَسْخَطَ اللّهَ و هي أسميه في مورد رضاه: رِضْوانَهُ ،و قال بعض المفسّرين:إنّ هذا التفاوت

ص:383

1- 1) -كيف،خبر لمبتدأ محذوف،و التقدير:فكيف حالهم...

2- 2) -النحل،الآيه 32.

فی التعبیر یتضمن نکته لطیفه،و هی أنّ غضب اللّه قد یحدث و قد لا یحدث،أمّا رضاه و رحمته فهی مستمره دائمه.

و واضح أیضا أنّ غضب اللّه تعالی و سخطه لا یعنی التأثر النفسی،کما أنّ رضاه سبحانه لا یعنی انبساط الروح و انشراح الأسارير،بل هما كما

ورد فی حدیث الإمام الصادق علیه السّلام: «غضب اللّه عقابه،و رضاه ثوابه» (1) .

***

1- 1) -توحید الصدوق،طبق نقل المیزان،المجلد 18،صفحه 266.

الآيات [سوره محمد (۴۷): الآيات ۲۹ الی ۳۱]

اشاره

أَمْ حَسِبَ اَلَّذِينَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اَللَّهُ أَضْغٰانَهُمْ (۲۹) وَ لَوْ نَشٰاءُ لَأَرَيْنٰاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمٰاهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِی لَحْنِ اَلْقَوْلِ وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ أَعْمٰالَكُمْ (۳۰) وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتّٰی نَعْلَمَ اَلْمُجٰاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ اَلصّٰابِرِينَ وَ نَبْلُوَا أَخْبٰارَكُمْ (۳۱)

التّفسير

اشاره

يعرف المنافقون من لحن قولهم:

تشير هذه الآيات إلی جانب آخر فی صفات المنافقين و علاماتهم، و تؤكّد بالخصوص علی أنّهم يظنّون أنّ باستطاعتهم أن يخفوا واقعهم و صورتهم الحقيقيه عن النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين دائما،و أن ينقذوا أنفسهم بذلك من الفضيحه الكبری، فتقول أوّلا: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللّٰهُ أَضْغٰانَهُمْ (۱) .

«الأضغان»جمع ضغن،و هو الحقد الشديد.

۱- ۱) -اعتبر البعض(أم)فی الآيه أعلاه استفهاميه،و البعض الآخر اعتبرها منقطعه بمعنی بل،و يبدو أنّ الأوّل هو الأفضل.

نعم،لقد کانت قلوب هؤلاء مملوءه غیظا و حقدا شدیدا علی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و المؤمنین،و کانوا یتحیّنون الفرص لإنزال الضربه بهم،فهنا یحذّرهم القرآن بأن لا یظنّوا أنّ بإمکانهم أن یخفوا وجههم الحقیقی دائما، و لذلک فإنّ الآیه التالیه تضیف:

وَ لَوْ نَشٰاءُ لَأَرَیْنٰاکَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِیمٰاهُمْ

فنجعل فی وجوههم علامات تعرفهم بها إذا رأیتهم،و تراهم رأی العین فتنظر واقعهم عند ما تنظر ظاهرهم.

ثمّ تضیف: وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِی لَحْنِ الْقَوْلِ فیمکنک فی الحال أن تعرفهم من خلال نمط کلامهم.

یقول الراغب فی مفرداته:«اللحن»عباره عن صرف الکلام عن قواعده و سننه،أو إعرابه علی خلاف حاله،أو الکنایه بالقول بدلا من الصراحه.و المراد فی الآیه مورد البحث هو المعنی الثّالث،أی:یمکن معرفه المنافقین مرضی القلوب من خلال الکنایه فی کلامهم،و تعبیراتهم المؤذیه التی تنطوی علی النفاق.

حینما یکون الکلام عن الجهاد،فإنّهم یسعون إلی إضعاف إراده الناس و معنویاتهم،و حینما یکون الکلام عن الحق و العداله،فإنّهم یحرّفونه بنحو من الأنحاء،و إذا ما أتی الحدیث عن الصالحین المتّقین السابقین إلی الإسلام،فإنّهم یسعون إلی تشویه سمعتهم،و تقلیل أهمیتهم و مکانتهم،و لذلک روی عن«أبی سعید الخدری»حدیثه المعروف الذی یقول فیه:لحن القول بغضهم علی بن أبی طالب،و کنّا نعرف المنافقین علی عهد رسول اللّه ببغضهم علی بن أبی طالب (1) .

نعم،لقد کانت إحدی العلامات البارزه للمنافقین أنّهم کانوا یعادون أوّل من آمن من الرجال،و أول مضح فی سبیل الإسلام،و یبغضونه.

۱- ۱) -مجمع البیان،ذیل الآیات مورد البحث.ثمّ إنّ جماعه من کبار العامّه نقلوا مضمون هذا الحدیث فی کتبهم،و من جملتهم: أحمد بن حنبل فی کتاب الفضائل،و ابن عبد البر فی الإستیعاب،و الذهبی فی تاریخ أوّل الإسلام،و ابن الأثیر فی جامع الأصول، و العلاّمه الگنجی فی کفایه الطالب،و محب الدین الطبری فی الریاض النضره،و السیوطی فی الدر المنثور،و الآلوسی فی روح المعانی،و أورده جماعه آخرون فی کتبهم،و هو یبیّن أنّها إحدی الروایات المسلمه عن الرّسول الأعظم صلی اللّه علیه و آله و سلّم لمزید من الإیضاح یراجع إحقاق الحق،المجلد الثّالث،صفحه ۱۱۰ و ما بعدها.

إنّ الإنسان لا يستطيع عاده أن يكتم ما ينطوى عليه ضميره لمده طويله دون أن يظهر ذلك فى كنايات كلامه و إشاراته و لحنه،و لذلك نقرأ

فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السّلام: «ما أضمر أحد شيئا إلاّ ظهر فى فلتات لسانه،و صفحات وجهه» (۱) .

و قد ذكرت آيات القرآن الأخرى كلمات المنافقين الجارحه،و التى هى مصداق للحن القول هذا،أو حركاتهم المشبوهه،و لعلّه لهذا السبب قال بعض المفسّرين:إنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان يعرف المنافقين جيدا،من خلال علاماتهم،بعد نزول هذه الآيه.

و الشاهد على هذا الكلام هو أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أمر بأن لا يصلّى على من مات منهم و لا يقوم على قبره داعيا اللّه له: وَ لاٰ تُصَلِّ عَلىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مٰاتَ أَبَداً وَ لاٰ تَقُمْ عَلىٰ قَبْرِهِ (۲) .

لقد كان الجهاد بالذات من المواقف التى كان المنافقون يعكسون فيها ما يعيشونه فى داخلهم،و قد أشارت آيات كثيره فى القرآن الكريم،و خاصّه فى سوره التوبه و الأحزاب إلى وضع هؤلاء قبل الحرب حين جمع المساعدات و إعداد العدّه للحرب،و فى أثناء الحرب فى ساحتها إذا اشتد هجوم العدو و استعرت حملته،و بعد الحرب عند تقسيم الغنائم،حتى وصل الأمر بالمنافقين إلى أن يعرفهم حتى المسلمون العاديّون فى هذه المشاهد و المواقف.

و اليوم أيضا لا تصعب معرفه المنافقين من لحن قولهم و مواقفهم المضاده فى المسائل الاجتماعيه المهمه،و خاصه عند الاضطرابات أو الحروب،و يمكن التعرف عليهم بأدنى دقه فى أقوالهم و أفعالهم،و ما أروع أن يعى المسلمون أمرهم و يستيقظوا و يستلهموا من هذه الآيه تعليماتها ليعرفوا هذه الفئه الحاقده الخطره

۱- ۱) -نهج البلاغه،الكلمات القصار،الجمله ۲۶.

۲- ۲) -التوبه،الآيه ۸۴.

و يفضحوها.

و أخيرا تضيف الآيه: وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ أَعْمٰالَكُمْ فهو يعلم أعمال المؤمنين ما ظهر منها و ما بطن،و يعلم أعمال المنافقين،و إذا افترضنا أنّ هؤلاء قادرون على إخفاء واقعهم الحقيقى عن الناس،فهل باستطاعتهم إخفاءه عن اللّه الذى هو معهم فى سرّهم و علانيهم،و خلوتهم و اجتماعهم؟ و تضيف الآيه التاليه مؤكّده و موضحه طرقا أخرى لتمييز المؤمنين عن المنافقين: وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتّٰى نَعْلَمَ الْمُجٰاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصّٰابِرِينَ الحقيقيين من المتظاهرين بالجهاد و الصبر.

و مع أنّ لهذا الابتلاء و الاختبار أبعادا واسعه،و مجالات رحبه تشمل الصبر و الثبات فى أداء كلّ الواجبات و التكاليف،و لكن المراد منه هنا الامتحان فى ساحه الحرب و القتال لمناسبته كلمه«المجاهدين»،و الآيات السابقه و اللاحقه، و الحق أنّ ميدان الجهاد ساحه اختبار عسير و شديد،و قلّما يستطيع المرء أن يخفى واقعه فى أمثال هذه الميادين.

و تقول الآيه الأخيره: وَ نَبْلُوَا أَخْبٰارَكُمْ .

قال كثير من المفسّرين:إنّ المراد من الأخبار هنا أعمال البشر،و ذلك أن عملا ما إذا صدر من الإنسان،فإنّه سينتشر بين الناس كخبر.

و قال آخرون:إنّ المراد من الأخبار هنا:الأسرار الداخليه،لأنّ أعمال الناس تخبر عن هذه الأسرار.

و يحتمل أن تكون الأخبار هنا بمعنى الأخبار التى يخبر بها الناس عن وضعهم و عهودهم و مواثيقهم،فالمنافقون-مثلا-كانوا قد عاهدوا النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن لا يرجعوا عن القتال،فى حين أنّهم نقضوا عهدهم: وَ لَقَدْ كٰانُوا عٰاهَدُوا اللّٰهَ مِنْ قَبْلُ لاٰ يُوَلُّونَ الْأَدْبٰارَ (1) .

1- 1) -الأحزاب،الآيه ١٥.

و نراهم فى موضع آخر: وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاّ فِراراً (١) .

و بهذا فإنّ اللّه سبحانه يختبر أعمال البشر،كما يختبر أقوالهم و أخبارهم.و طبقا لهذا التّفسير فإنّ لهاتين الجملتين فى الآيه مورد البحث معنيين متفاوتين،مع أنّ إحداهما تؤكّد الأخرى طبقا للتفاسير السابقه.

و على أيه حال،فليست هذه المره الأولى التى يخبر اللّه سبحانه الناس فيها بأنّى أبلوكم لتمييز صفوفكم،و ليعرف المؤمنون الحقيقيون و ضعفاء الإيمان و المنافقون،و قد ذكرت مسأله الامتحان و الابتلاء هذه فى آيات كثيره من القرآن الكريم.

و قد بحثنا المسائل المتعلقه بالاختبار الإلهى فى ذيل الآيه(١۵۵)من سوره البقره،و كذلك وردت فى بدايه سوره العنكبوت.

ثمّ إنّ جمله حَتّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ لا تعنى أنّ اللّه لا يعلمهم،بل المراد تحقق هذا المعلوم عمليا،و تشخيص هؤلاء المجاهدين،فالمعنى:ليتحقق علم اللّه سبحانه فى الخارج،و تحصل العينيه،و تتميز الصفوف.

***

١- ١) -الأحزاب،الآيه ١٣.

الآيات [سوره محمد (۴۷): الآيات ۳۲ الى ۳۴]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اَللّهِ وَ شَاقُّوا اَلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ اَلْهُدىٰ لَنْ يَضُرُّوا اَللّهَ شَيْئاً وَ سَيُحْبِطُ أَعْمٰالَهُمْ (۳۲) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اَللّهَ وَ أَطِيعُوا اَلرَّسُولَ وَ لاٰ تُبْطِلُوا أَعْمٰالَكُمْ (۳۳) إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اَللّهِ ثُمَّ مٰاتُوا وَ هُمْ كُفّٰارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اَللّهُ لَهُمْ (۳۴)

التّفسير

اشاره

الذين يموتون على الكفر لن يغفر اللّه لهم:

بعد البحوث المختلفه التى دارت حول المنافقين فى الآيات السابقه،تبحث هذه الآيات وضع جماعه أخرى من الكفار،فتقول: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللّهَ شَيْئاً وَ سَيُحْبِطُ أَعْمٰالَهُمْ حتى و إن عملوا خيرا،لأنّه لم يكن مقترنا بالإيمان.

هؤلاء يمكن أن يكونوا مشركى مكّه،أو الكفار من يهود المدينه،أو كليهما، لأنّ التعبير ب«الكفر»،و«الصد عن سبيل اللّه»،و شَاقُّوا الرَّسُولَ قد ورد بحقّ

الفريقين فى آيات القرآن الكريم.

أمّا«تبيّن الهدى»،فقد كان عن طريق المعجزات بالنسبه إلى مشركى مكّه، و عن طريق الكتب السماويه بالنسبه إلى أهل الكتاب.

و«إحباط أعمالهم»إمّا أن يكون إشاره إلى أعمال الخير التى قد يقومون بها أحيانا كإقراء الضيف،و الإنفاق،و معونه ابن السبيل،أو أن يكون إشاره إلى عدم تأثير خطط هؤلاء و مؤامراتهم ضد الإسلام.

و على أيه حال،فقد كان هؤلاء الجماعه متّصفين بثلاث صفات:الكفر،و الصد عن سبيل اللّه،و العداء للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم،إذ كانت إحداها تتعلق باللّه سبحانه،و الأخرى بعباد اللّه،و الثالثه برسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و بعد أن تبيّن حال المنافقين،و الخطوط العامه لأوضاعهم، وجّهت الآيه التاليه الخطاب إلى المؤمنين مبيّنه خطهم و حالهم،فقالت: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لاٰ تُبْطِلُوا أَعْمٰالَكُمْ .

فى الواقع،إنّ أسلوب حياه المؤمنين و برنامجهم يقع فى الطرف المقابل للكفار و المنافقين فى كلّ شىء،فهؤلاء يعصون أمر اللّه سبحانه،و أولئك يطيعونه،هؤلاء يعادون النبى،و أولئك يطيعون أمر هو هؤلاء تحبط أعمالهم لكفرهم و ريائهم و منّتهم،أمّا أولئك فإنّ أعمالهم محفوظه عند اللّه سبحانه و سيثابون عليها، لاجتنابهم هذه الأمور.

و على كلّ حال،فإنّ أسلوب الآيه يوحى بأنّ من بين المؤمنين أفرادا كانوا قد قصروا فى طاعه اللّه و رسوله و فى حفظ أعمالهم عن التلوث بالباطل،و لذلك فإنّ اللّه سبحانه يحذّرهم فى هذه الآيه.

و الشاهد لهذا الكلام سبب النّزول الذى ذكره البعض لهذه الآيه،و هو:إنّ«بنى أسد»كانوا قد أسلموا و أتوا رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فقالوا:إنّنا نؤثرك على أنفسنا،و نحن و أهلونا رهن إشارتك و أمرك.غير أنّ أسلوبهم فى الكلام كانت تلوح منه المنّه،

فنزلت الآيه أعلاه،و حذّرتهم من ذلک.

و استدل بعض الفقهاء بجمله: وَ لاٰ تُبْطِلُوا أَعْمٰالَکُمْ على حرمه قطع الصلاه، و لکنّ الآیه مورد البحث و ما قبلها و ما بعدها شاهده على أنّها لا تتعلق بهذا الأمر، بل عدم الإبطال عن طریق الشرک و الریاء و المن و أمثال ذلک.

و جاءت الآیه الأخیره من هذه الآیات موضحه و مؤکّده لما مرّ فی الآیات السابقه حول الکفار،و تهدی إلى الصراط المستقیم من یرید التوبه إلى طریق الرجوع، فتقول: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ ثُمَّ مٰاتُوا وَ هُمْ کُفّٰارٌ فَلَنْ یَغْفِرَ اللّٰهُ لَهُمْ لأنّ أبواب التوبه ستغلق بنزول الموت،و یحمل هؤلاء أوزارهم و أوزار الذین یضلّونهم،فکیف یغفر اللّه لهم؟ و بهذا،فقد ورد الحدیث فی مجموع هذه الآیات عن ثلاث مجموعات:الکفّار، و المنافقون،و المؤمنون،و تحدّدت صفات کلّ منهم و مصیره.

***

بحث

اشاره

عوامل إحباط ثواب العمل:

من المسائل الأساسیه التی أکدت علیها آیات القرآن المختلفه،و منها الآیه مورد البحث،هی أن یحذر المؤمنون من أن تحبط أعمالهم کالکفار،و بتعبیر آخر:

فإنّ نفس العمل شیء،و الحفاظ علیه شیء أهمّ،فإنّ العمل الصالح السالم المفید، هو العمل الذی یکون منذ البدایه سالما من العیوب و أن یحافظ علیه من الخلل و العیب حتى نهایه العمر.

و العوامل التی تؤدی إلى إحباط أعمال الإنسان،أو تهددها بذلک الخطر کثیره، و من جملتها:

۱-المن و الأذى کما یقول القرآن الکریم: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تُبْطِلُوا

ص: ۳۹۲

صَدَقٰاتِکَمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذیٰ کَالَّذِی یُنْفِقُ مٰالَهُ رِئٰاءَ النّٰاسِ وَ لاٰ یُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ

(۱)

.فهنا ذکر عاملان لبطلان العمل:أحدهما المنّ و الأذی،و الآخر الریاء و الکفر،فالأوّل یأتی بعد العمل و الثّانی قرینه،و هما کالنّار یحرقان الأعمال الصالحه.

۲-العجب عامل آخر فی إحباط آثار العمل،کما

ورد ذلک فی الحدیث:

«العجب یأکل الحسنات کما تأکل النّار الحطب» (۲) .

۳-الحسد-أیضا-أحد هذه الأسباب،و الذی ورد فیه تعبیر شبیه بما ورد فی العجب،فقد روی عن الرّسول الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال:«إیّاکم و الحسد،فإنّ الحسد یأکل الحسنات کما تأکل النّار الحطب» (۳) .

و کما تذهب الحسنات السیئات إِنَّ الْحَسَنٰاتِ یُذْهِبْنَ السَّیِّئٰاتِ (۴) ،فإنّ السیئات تمحو کلّ الحسنات أحیانا.

۴-المحافظه علی الإیمان إلی آخر لحظات العمر،و هذا أهم شرط لبقاء آثار العمل،لأنّ القرآن یقول بصراحه: وَ لَقَدْ أُوحِیَ إِلَیْکَ وَ إِلَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکَ لَئِنْ أَشْرَکْتَ لَیَحْبَطَنَّ عَمَلُکَ وَ لَتَکُونَنَّ مِنَ الْخٰاسِرِینَ (۵) .

من هنا نعرف أهمیه و مشاکل و صعوبات مسأله المحافظه علی الأعمال،و لذلک

ورد فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه قال: «الإبقاء علی العمل أشدّ من العمل»، قال-أی الراوی-:و ما الإبقاء علی العمل؟قال:«یصل الرجل بصله،و ینفق نفقه للّه وحده لا شریک له فکتب له سرّا،ثمّ یذکرها فتمحی فتکتب له علانیه،ثمّ

۱- ۱) -البقره،الآیه ۲۶۴.

۲- ۲) -روح البیان،المجلد ۸،صفحه ۵۲۲.

۳- ۳) -بحار الأنوار،المجلد ۷۳،صفحه ۲۵۵.

۴- ۴) -هود،الآیه ۱۱۴.

۵- ۵) -الزمر،الآیه ۶۵.

یذکرها فتمحی و تکتب له ریاء» (۱) .

و قد أشارت الآیه-مورد البحث-إشاره خفیه إلی هذه الأمور حیث تقول:

وَ لاٰ تُبْطِلُوا أَعْمٰالَکُمْ

(۲)

.

***

ص :۳۹۴

۱- ۱) -الکافی،المجلد الثانی،باب الریاء،الحدیث ۱۶.

۲- ۲) -لمزید من الإیضاح و التفصیل حول مسأله إحباط العمل راجع ذیل الآیه(۲۱۷)من سوره البقره.

الآیه [سوره محمد (۴۷): آیه ۳۵]

اشاره

فَلاٰ تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى اَلسَّلْمِ وَ أَنْتُمُ اَلْأَعْلَوْنَ وَ اَللّٰهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمٰالَكُمْ (۳۵)

التّفسیر

اشاره

الصلح المذل!!

متابعه للآیات السابقه التی کانت تتحدّث حول مسأله الجهاد،تشیر هذه الآیه إلی أحد الأمور الهامه فی مسأله الجهاد،و هو أنّ ضعفاء الإیمان یطرحون غالبا مسأله الصلح للفرار من مسئولیه الجهاد،و مصاعب میدان الحرب.

من المسلّم أنّ الصلح خیر و حسن جدّا،لکن فی محله،إذ یکون حینها صلحا یحقق الأهداف الإسلامیه السامیه،و یحفظ ماء وجه المسلمین و حیثیتهم و هیبتهم و عظمتهم.أمّا الصلح الذی یؤدی إلی ذلّتهم و انکسار شوکتهم فلا،و لذلک تقول الآیه الشریفه:الآن و قد سمعتم الأوامر الإلهیه فی الجهاد فَلاٰ تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ (1) .

أی:الآن و قد لاحت علائم انتصارکم و تفوّقکم،کیف تذلّون أنفسکم و ترضون

۱- ۱) -«تدعوا»مجزوم،و هو معطوف علی(لا تهنوا)،و المعنی:لا تهنوا و لا تدعوا إلی السلم.

بالمهانه باقتراح الصلح الذی لا یعنی إلاّ التراجع و الهزیمه؟فلیس هذا صلحا فی الواقع،بل هو استسلام و خضوع ینبع من الضعف و الانهیار، و هو نوع من طلب الراحه و العافیه،و یقبح بکم أن تتحملوا عواقبه الألیمه الخطره.

و من أجل رفع معنویات المسلمین المجاهدین تضیف الآیه: وَ اللّٰهُ مَعَکُمْ وَ لَنْ یَتِرَکُمْ أَعْمٰالَکُمْ فإنّ من کان اللّه معه تکون کلّ عوامل الإنتصار مسخّره له، فلا یحس بالوحشه أبدا،و لا یدع للضعف و الانهزام سبیلا إلی نفسه،و لا یستسلم للعدو باسم الصلح و لن یدع نتائج دماء الشهداء و مکاسبها تذهب سدی فی اللحظات الحسّاسه.

لَنْ یَتِرَکُمْ

من ماده«الوتر»،و هو المنفرد،و لذلک یقال لمن قتل قریبه،و بقی وحیدا:وتر.و جاء أیضا بمعنی النقصان.

و فی الآیه-مورد البحث-کنایه جمیله عن هذا المطلب،بأنّ اللّه سبحانه لن یترککم وحدکم،بل سیقرنکم بثواب أعمالکم،خاصّه و أنّکم تعلمون أنّکم لن تخطوا خطوه إلاّ کتبت لکم،فلم یکن اللّه لینقص من أجرکم شیئا،بل سیضاعفه و یزید علیه من فضله و کرمه.

اتضح ممّا قلناه أنّ الآیه مورد البحث لا تنافی مطلقا الآیه(۶۱)من سوره الأنفال حیث تقول: وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهٰا وَ تَوَکَّلْ عَلَی اللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ لنجعل إحداهما ناسخه للأخری،بل إنّ کلا منها ناظره إلی مورد خاص، فإحداهما تنظر إلی الصلح المعقول، و الأخری إلی الصلح الذی لیس فی محله فإنّ أحدهما صلح یحفظ مصالح المسلمین،و الآخر صلح یطرحه ضعفاء المسلمین و هم علی أبواب النصر،و لذلک فإنّ تتمه آیه سوره الأنفال تقول: وَ إِنْ یُرِیدُوا أَنْ یَخْدَعُوکَ فَإِنَّ حَسْبَکَ اللّٰهُ .

و

قد أشار أمیر المؤمنین علی علیه السّلام إلی کلا الصالحین فی عهده لمالک الأشتر،

حیث یقول: «و لا تدفعنّ صلحا دعاک إلیه عدوّک و للّه فیه رضی» (۱) .

إنّ طرح قضیه الصلح من ناحیه العدو من جهه،و کونه مقترنا برضی اللّه سبحانه من جهه أخری،یبیّن انقسام الصلح إلی القسمین اللذین أشرنا إلیهما فیما قلناه.

و علی أیه حال،فإنّ أمراء المسلمین و أولیاء أمورهم یجب أن یکونوا فی غایه الحذر فی تشخیص موارد الصلح و الحرب،و التی هی من أعقد المسائل و أدقّها، لأنّ أدنی اشتباه فی المحاسبه سیستتبع عواقب و خیمه فی هذا المجال.

***

۱- ۱) -نهج البلاغه،الرساله ۵۳.

الآيات [سوره محمد (۴۷): الآيات ۳۶ الی ۳۸]

اشاره

إِنَّمَا اَلْحَيَاةُ اَلدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لاَ يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (۳۶) إِنْ يَسْئَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (۳۷) هَا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَ اَللّٰهُ اَلْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ اَلْفُقَرَاءُ وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (۳۸)

التّفسير

اشاره

إن تتولّوا سيمنح اللّه الرساله قوما آخرين:

قلنا:إنّ سوره محمّد هی سوره الجهاد،فبأمر الجهاد بدأت،و به تنتهی، و الآيات مورد البحث-و هی آخر آيات هذه السوره-تتناول مسأله أخرى من مسائل حياه البشر فی هذا الميدان،فتطرح كون الحياه الدنيا لا قيمه لها لزياده ترغيب المسلمين و دعوتهم إلى طاعه اللّه سبحانه عموما،و الى أمر الجهاد بالخصوص،لأنّ حبّ الدنيا و الانشداد إليها أحد عوامل المهمّه التی تعوّق عن

الجهاد،فتقول: إِنَّمَا الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ .

«اللعب»يقال للأعمال التى تتصف بنوع من الخيال للوصول إلى هدف خيالى، و«اللهو»يقال لكلّ عمل يشتغل الإنسان به فيصرفه عن المسائل الأساسيه.

و الحق أنّ الدنيا لعب و لهو ليس إلاّ،فلا يحصل منها أنس و ارتياح،و ليس لها دوام و بقاء،و إنّما هى لحظات كلمح البصر،و لذات زائله تحفّها الآلام و المتاعب.

ثمّ تضيف الآيه: وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لاٰ يَسْئَلْكُمْ أَمْوٰالَكُمْ (1) فلا أنّ اللّه يسألكم أجرا مقابل الهدايه و الرشاد و كلّ تلك الهبات العظيمه فى الدنيا و الآخره،و لا رسوله،فإنّ اللّه تعالى غنى عن العالمين،و لا يحتاج رسوله إلى غير اللّه.

و إذا كان الشىء الزهيد من أموالكم يؤخذ كزكاه و خمس و حقوق شرعيه أخرى،فإنّه يعود عليكم و يصرف فيكم،لحمايه يتاماكم و مساكينكم و ضعفائكم و أبناء السبيل منكم،و للدفاع عن أمن بلادكم و استقلالها،و لاستقرار النظام و الأمن،و لتأمين احتياجاتكم،و عمران دياركم.

بناء على هذا،فحتى هذا المقدار اليسير هو من أجلكم و منفعتكم،فإنّ اللّه و رسوله فى غنى عنكم،و بذلك فلا منافاه بين مفهوم هذه الآيه و آيات الزكاه و الإنفاق و أمثالها.

ثمّه احتمالات أخرى عديده فى تفسير جمله: وَ لاٰ يَسْئَلْكُمْ أَمْوٰالَكُمْ و لرفع ما يبدو فى الظاهر تناقضا:

فقال البعض:إنّه تعالى لا يسألكم شيئا من أموالكم مقابل الهدايه و الثواب.

و قال آخرون:إنّه تعالى لا يسألكم كلّ أموالكم،بل يريد قسما منها فقط.

و قال جماعه:إنّ هذه الجمله إشاره إلى أنّ أموال الجميع من اللّه سبحانه،و إن كانت ودائع بأيدينا أيّاما قليله.

١- ١) -جمله(لا يسألكم)مجزومه،و معطوفه على جزاء الجمله الشرطيه،أى:يؤتكم.

لکن أفضلها جمیعا هو التّفسیر الأول.

و علی أیه حال،فلا ینبغی نسیان أنّ جانبا من الجهاد هو الجهاد بالأموال،و من الطبیعی أنّ کلّ جهاد للعدو و قتال ضده یحتاج إلی أموال و میزانیات یجب أن تجمع و تهیّأ من قبل المسلمین الزاهدین فی الدنیا و غیر المتعلّقین بها.و الآیات مورد البحث تهیء-فی الحقیقه-الأرضیه الفکریه و الثقافیه لهذه المسأله.

و لتبیان تعلّق أغلب الناس بأموالهم و ثرواتهم الشخصیه تضیف الآیه التالیه:

إِنْ یَسْئَلْکُمُوهٰا فَیُحْفِکُمْ تَبْخَلُوا وَ یُخْرِجْ أَضْغٰانَکُمْ

.

«یحفکم»من ماده إحفاء،أی:الإصرار و الإلحاح فی المطالبه و السؤال،و هی فی الأصل من حفأ،و هو المشی حافیا،و هذا التعبیر کنایه عن الأعمال التی یتابعها الإنسان إلی أبعد الحدود،و من هنا کان إحفاء الشارب یعنی تقصیره ما أمکن.

و«الأضغان»جمع ضغن،و هو بمعنی الحقد الشدید،و قد أشرنا إلیه سابقا.

و خلاصه القول:فإنّ الآیه تبیّن التعلّق الشدید لکثیر من الناس بالأمور المالیه، و هی فی الحقیقه نوع من اللوم و لتوبیخ لهؤلاء،و فی نفس الوقت ترغیب فی ترک هذا الارتباط،و تشویق إلی هذا المعنی،فإنّ تعلّقهم بلغ حدّا أنّ اللّه سبحانه إذا سألهم شیئا من أموالهم فإنّهم یغضبون و یحقدون علیه! و بذلک فإنّ الآیه تردید أن توقظ أرواح البشر الغاطّه فی نومها العمیق بسوط التقریع و الملامه و العتاب،لیرفعوا عن أعناقهم قیود الذل و العبودیه للأموال، و یصبحوا فی حال یضحّون عندها بکلّ ما لدیهم فی سبیل اللّه،و یقدّمون ما عندهم بین یدیه،و لا یرجون فی مقابل ما یعطون إلاّ الإیمان به و تقواه و رضاه عنهم.

و الآیه الأخیره-من الآیات مورد البحث،و هی آخر آیه من سوره محمّد- تأکید آخر علی ما مرّ فی الآیات السابقه حول المسائل المادیه و تعلّق الناس بها، و مسأله الإنفاق فی سبیل اللّه،فتقول: هٰا أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِی سَبِیلِ اللّٰهِ فَمِنْکُمْ مَنْ یَبْخَلُ .

و هنا يأتى سؤال،و هو:إنّ الآيات السابقه قد ذكرت أنّ اللّه لا يسألكم أموالكم، فكيف أمرت هذه الآيه بالإنفاق فى سبيل اللّه؟ غير أنّ تتمه الآيه تجيب عن هذا السؤال عن طريقين،فتقول أولا: وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمٰا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ (۱) لأنّ ثمره الإنفاق تعود عليكم أنفسكم فى الدنيا و الآخره، حيث يقل التفاوت الطبقى،و عندها سيعم الأمن و الهدوء فى المجتمع،و تحل المحبّه و الصفاء محل العداوه و الحقد.هذا ثوابكم الدنيوى.

و أمّا فى الآخره،فستمنحون مقابل كلّ درهم أو دينار تنفقونه الهبات و النعم العظيمه التى لم تخطر على قلب بشر،و على هذا فإنّ من يبخل يبخل عن نفسه! و بتعبير آخر:فإنّ الإنفاق هنا يعنى أكثر ما يعنى الإنفاق فى أمر الجهاد،و التعبير ب فِي سَبِيلِ اللّٰهِ يلائم هذا المعنى أيضا،و من الواضح أنّ أى نوع من المساهمه فى تقدّم أمر الجهاد سيضمن وجود المجتمع و استقلاله و شرفه.

و الجواب الآخر هو: وَ اللّٰهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَرٰاءُ فهو غنى عن إنفاقكم فى سبيله،و غنى عن طاعتكم،و إنّما أنتم الفقراء إلى لطفه و رحمته و ثوابه و كرمه فى الدنيا و الآخره.

إنّ الموجودات الممكنه-و ما سوى اللّه سبحانه-متسربله فى الفقر جميعا، و الغنى بذاته هو اللّه سبحانه لا غير،فإنّها فقيره إليه دائما،حتى فى أصل وجودها، و تستمد العون من منبع الفيض الأزلى كلّ لحظه،فإذا انقطعت عنها رعايته و لطفه لحظه،فسينتهى وجودها،و تخرّ أبدانها جثثا هامده! و تحذر الجمله الأخير جميع المسلمين أن اعرفوا قدر هذه النعمه الجليله، و الموهبه العظيمه،حيث جعلكم سبحانه حماه دينه القويم و أنصار دينه و أتباع رسوله و أصحابه،فحذار أن تقصروا فى تعظيم هذه النعمه و إكبارها،إذ: وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاٰ يَكُونُوا أَمْثٰالَكُمْ .

ص:۴۰۱

۱- ۱) -«البخل»يتعدّى مره بعن،و أخر بعلى،و على الأوّل يعنى المنع،و على الثّانى يعنى الإضرار.

أجل،إنّ هذا الحمل لن يسقط على الأرض أبدا،و هذه الرساله العظيمه لا يمكن أن يتوقّف مسيرها،فإن أنتم لم تستمروا فی موقفكم فی الذب عن دين اللّه، و استصغرتم شأن هذه الرساله العظيمه،فإنّ اللّه سبحانه سوف يأتی بقوم يتحمّلون أعباء هذه الرساله..أولئك قوم يفوقونكم مرّات فی الإيثار و التضحيه و بذل الأنفس و الأموال و الإنفاق فی سبيل اللّه! و قد جاء نظير هذا التهديد فی الآيه(۵۴)من سوره المائده،حيث تقول: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِی اللّٰهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكٰافِرِينَ يُجٰاهِدُونَ فِی سَبِيلِ اللّٰهِ وَ لاٰ يَخٰافُونَ لَوْمَةَ لاٰئِمٍ .

و الطريف أنّ أكثر المفسّرين قد نقلوا فی ذيل الآيه-مورد البحث-

أنّ جماعه من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم سألوه بعد نزول هذه الآيه:من هؤلاء الذين ذكرهم اللّه فی كتابه؟و كان«سلمان»جالسا قريبا من النّبی صلى اللّه عليه و آله و سلّم،فضرب النّبی صلى اللّه عليه و آله و سلّم بيده على فخذ سلمان-و فی روايه على كتفه-و قال:«هذا و قومه،و الذی نفسی بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس».

لقد أورد هذا الحديث و أمثاله محدّثو السنّه المعروفون فی كتبهم المعروفه، كالبيهقی و الترمذی،و عليه اتفاق مفسّری الشيعه و السنّه المشهورين،كصاحب تفسير القرطبی،و روح البيان،و مجمع البيان،و الفخر الرازی،و المراغی،و أبی الفتوح الرازی و أمثالهم.

و ورد فی تفسير الدر المنثور عده أحاديث فی هذا الباب فی ذيل الآيه مورد البحث (۱) .

و

روى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام،يكمل الحديث السابق،إذ يقول:

«و اللّه أبدل بهم خيرا منهم الموالی» (۲) .

۱- ۱) -الدر المنثور،المجلد ۶،صفحه ۶۷.

۲- ۲) -تفسير مجمع البيان،الجزء ۹،صفحه ۱۰۸.

إذا نظرنا إلى تاريخ الإسلام و العلوم الإسلاميه بدقّه،و بنظره بعيده عن التعصّب،و لا حظنا سهم المسلمون غير العرب الإيرانيين خاصه-فى ميادين الجهاد و محاربه العدو من جهه،و تنقيح العلوم الإسلاميه،و تدوينها من جهه أخرى،فسنطلع على حقيقه هذا الحديث،و تفصيل هذا الكلام طويل.

اللّهمّ!ثبت أقدامنا فى طريق الجهاد و الإيثار و التضحيه فى سبيل دينك القويم.

اللّهمّ!لا تسلبنا ما منحتنا من الفخر العظيم إذ جعلتنا دعاه لدينك الحنيف.

إلهنا!زد فى قوّتنا و إيماننا،و تضحياتنا و إخلاصنا فى هذا الوقت الذى هبّت فيه عواصف الشرق و الغرب الهوجاء لمحو آثار دينك.

آمين يا رب العالمين.

نهايه سوره محمّد ***

سوره الفتح

اشاره

مدنیّه و عدد آیاتها تسع و عشرون آیه

ص :۴۰۵

محتوى السوره

هذه السوره كما هو ظاهر من اسـمها تحمل رساله الفتح و النصـر!الفتح و النصـر على أعداء الإسـلام،الفتح المبين و الأكيد«سواء كان هذا الفتح متعلقا بفتح مكّه أو بصلح الحديبيّه أو فتح خيبر أو كان هذا الفتح بشكل مطلق».

و من أجـل أن نفهم محتوى هـذه السوره فينبغى أن نعرف-قبـل كلّ شـىء-أنّ هـذه السوره نزلت فى السـنه السادسه للهجره بعد قضيّه«صلح الحديبيه».

و بيان ذلك..أنّ النّبى الكريم صلى اللّه عليه و آله و سلّم صمّم فى السنّه السادسه للهجره مع أصحابه من المهاجرين و الأنصار و بـاقى المسـلمين أن يتحرّكوا نحو مكّه للعمره،و كـان من قبـل قـد أخبر المسـلمين بـأنّه رأى رؤيـا فى منـامه و كأنّه مشـغول بأداء مناسـكه مع أصـحابه فى المسـجد الحرام معتمرين فعقـد المسـلمون إحرامهم عنـد«ذى الحليفه» «المنطقه التى تقرب من المـدينه المنوّره»و تحرّكوا نحو مكّه المكرّمه فى إبل كثيره لتنحر«يوم الهدى»هناك.

و كـانت الحـاله التى يتحرك النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم عليها توحى بصوره جيـده أنّه لا هـدف لـديه سوى هـذه العباده الكبرى...إلى أن وصل النّبى منطقه الحديبيّه«و هى قريه على مقربه من مكّه و لا تبعد عنها أكثر من عشرين كيلو مترا».

إلاّ أنّ قريشا علمت بوصول النّبى إلى الحديبيّه فأوصدت بوجهه الطريق و منعته من الدخول إلى مكّه المكرمه.

و بهذا ألغت قريش جميع السنن التى ترتبط بأمن المسجد الحرام و ضيوف اللّه و الشهر الحرام و وضعتها تحت أقدامها..إذ كانت تعتقد بحرمه الأشهر الحرام«و من ضمنها شهر ذى القعده الذى عزم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فيه على العمره» و خاصّه إذا كان الناس حال الإحرام فلا ينبغى التعرّض لهم حتى لو كان المحرم قاتل واحد من رجالهم،و رئى محرما فى مناسكه فلا يمس بسوء أبدا».

و فى هذا المكان أى«الحديبيه»جرى ما جرى بين رسول اللّه و المشركين من الكلام حتى انتهى إلى عقد معاهده الصلح بين المسلمين و بين المشركين من أهل مكّه و قد سمّى هذا الصلح بصلح الحديبيّه و سنتحدث عنه فى الصفحات المقبله بإذن اللّه.

و على كلّ حال فقد منع النّبى أن يدخل مكّه و يؤدى مناسك العمره..فاضطر النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يأمر أصحابه بأن ينحروا إبلهم و يحلقوا رؤوسهم و يحلّوا من إحرامهم!و أن يعودوا نحو المدينه! و هنا غمر المسلمين طوفان من الحزن و الغم و ربّما تغلّب الشك و الترديد على قلوب بعض الأفراد ضعيفى الإيمان! و عن عبد اللّه بن مسعود قال:أقبل رسول اللّه من الحديبيّه فجعلت ناقته تثقل فتقدّمنا فأنزل اللّه عليه إِنّٰا فَتَحْنٰا لَکَ فَتْحاً مُبِيناً فأدركنا رسول اللّه و به من السرور ما شاء اللّه.فأخبر أنّها نزلت عليه (۱) .

و من هنا فإنّه يبدو واضحا هذا الجو الخاص الحاكم على هذه السوره و بمراجعه إجماليه للسوره يمكن القول إنّها تتألف من سبعه أقسام!..

۱-تبدأ السوره بموضوع البشرى بالفتح كما أنّ آياتها الأخيره لها علاقه بهذا الموضوع أيضا،و فيها تأكيد على تحقق رؤيا النّبى التى تدور حول دخوله و أصحابه مكّه و أداء مناسك العمره.

۱- ۱) -مجمع البيان،سوره الفتح،و مثله فى تفسير القمى و فى ظلال القرآن.

۲-یتحدّث قسم آخر من هذه السوره عن الحوادث المتعلّقه بصلح الحدیبیه و نزول السکینه علی قلوب المؤمنین و«بیعه الرضوان»و ما إلی ذلک!..

۳-و یتحدّث قسم ثالث منها عن مقام النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و هدفه الأسمی.

۴-و یکشف القسم الرابع الستار عن غدر المنافقین و نقضهم العهد و نکثهم له و یعطی أمثله من أعذارهم الواهیه فی مسأله عدم مشارکتهم النّبی جهاده المشرکین و الکفّار.

۵-و فی قسم آخر یقع الکلام علی طلبات«المنافقین»فی غیر محلّها.

۶-و القسم السادس یوضح من هم المعذورون الذین لا حرج علیهم! ۷-و أخیرا...فإنّ القسم السابع یتحدّث عن خصائص أصحاب النّبی و أتباعه فی طریقته و سنّته و صفاتهم التی یتمیّزون بها..و بشکل عام فإنّ آیات هذه السوره حسّاسه للغایه کما أنّها مصیریّه و خاصّه لمسلمی الیوم الذین یواجهون الحوادث المختلفه فی مجتمعاتهم الإسلامیه ففیها إلهام کبیر لهم!...

فضیله تلاوه سوره الفتح:

تلاحظ روایات عجیبه فی فضیله هذه السوره فی المصادر الإسلامیه ففی حدیث عن أنس أنّه قال:حین کنّا نعود من الحدیبیّه و کان المشرکون قد منعونا من الدخول الی مکّه و أداء مناسک العمره فکنّا فی حزن و غم شدیدین فأنزل اللّه آیته إِنّا فَتَحْنا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً... .

فقال النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «لقد أنزلت علیّ آیه هی أحبّ إلیّ من الدنیا کلّها» و

فی بعض الروایات: «لقد أنزلت علیّ سوره هی أحبّ من الدنیا کلّها» (۱) .

و یقول عبد اللّه بن مسعود حین کنّا نرجع من الحدیبیّه و نزلت إِنّا فَتَحْنا علی

۱- ۱) -مجمع البیان،الجزء التاسع،الصفحه ۱۰۸.

النّبی سرّ سرورا لا یعلم مداه إلاّ اللّه (۱) .

و نقرأ

فی حدیث آخر عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قوله: «من قرأها فکأنّما شهد مع محمّد فتح مکّه». و

فی روایه «فکأنّما کان مع من بایع محمّدا تحت الشجره» (۲) .

و أخیرا نقرأ

حدیثا للإمام الصادق علیه السّلام یقول فیه: «حصّنوا أموالکم و نساءکم و ما ملکت إیمانکم من التلف بقراءه إِنّا فَتَحْنا فإنّه إذا کان ممّن یدمن قراءتها نادی مناد یوم القیامه حتی یسمع الخلائق أنت من عبادی المخلصین،الحقوه بالصالحین من عبادی و أدخلوه جنّات النعیم و اسقوه من رحیق مختوم بمزاج الکافور» (۳) .

و من الواضح أنّ کلّ هذه الفضیله و الفخر لا یحصل بتلاوه خالیه من التفکّر،بل الهدف الأصلی من تلاوه هذه السوره هو تطبیق أعمال القارئ و خلقه و طبعه علی مفاد هذه السوره و مضامینها.

***

۱- ۱) -المصدر السابق،ص ۱۰۹.

۲- ۲) -مجمع البیان الجزء التاسع،ص ۱۰۸.

۳- ۳) -ثواب الأعمال طبقا لما ورد فی تفسیر نور الثقلین،ج ۵،ص ۴۶.

الآیه [سوره الفتح (۴۸): آیه ۱]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ إِنّٰا فَتَحْنٰا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً (۱)

التّفسیر

اشاره

الفتح المبین:

فی الآیه الأولی من هذه السوره بشری عظیمه للنبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم بشری هی عند النّبی طبقا لبعض الرّوایات أحبّ إلیه من الدنیا و ما فیها إذ تقول الآیه: إِنّٰا فَتَحْنٰا لَکَ فَتْحاً مُبِیناً .

...فَتْحاً مُبِیناً

تظهر آثاره فی حیاه المسلمین فی فتره وجیزه،و فی فتره مدیده أیضا..و ذلک فی انتشار الإسلام...فتحا یقل نظیره أو ینعدم نظیره فی طول تاریخ الإسلام و علی امتداده.

و هنا کلام عریض و بحث طویل بین المفسّرین...حول المراد من هذا الفتح أیّ فتح هو؟! فأکثر المفسّرین یرون أنّه إشاره إلی ما کان من نصیب للمسلمین من الفتح الکبیر علی أثر«صلح الحدیبیه» (۱) .

۱- ۱) -اختار هذا التّفسیر جماعه منهم أبو الفتوح الرازی فی تفسیره،و الآلوسی فی روح المعانی،و الفیض الکاشانی فی تفسیر

و بعض ذهبوا إلى أنّه«فتح مكّه».

و آخرون قالوا بأنّه«فتح خيبر».

و آخرون أنّه إشاره إلى انفتاح أسرار العلوم على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

غير أنّ قرائن كثيره لدينا ترجح أنّ هذا الفتح هو ما يتعلّق بموضوع صلح الحديبيه.

و من الأفضل و قبل الولوج فى تفسير الآيات أن نعرض و لو بشكل مضغوط قصه صلح الحديبيّه ليتّضح«المقام»و ليكون هذا العرض الموجز بمثابه شأن نزول الآيات أيضا.

قصّه«صلح الحديبيه»:

فى السنه السادسه للهجره و فى شهر ذى القعده منها تحرّك النّبى نحو مكّه لأداء مناسك العمره و رغب المسلمين جميعا فى هذا الأمر..غير أنّ قسما منهم امتنع عن ذلك،فى حين أنّ معظم المهاجرين و الأنصار و جماعه من أهل الباديه عزموا على الاعتمار (۱) مع النّبى فساروا نحو مكّه!...

فأحرم هؤلاء المسلمون الذين كانوا مع النّبى و كان عددهم فى حدود«الألف و الأربعمائه»و لم يحملوا من أسلحه الحرب شيئا سوى السيوف التى كانت تعدّ أسلحه للسفر فحسب!.

و لمّا وصل النّبى إلى«عسفان»التى لا تبعد عن مكّه كثيرا أخبر أنّ قريشا تهيّأت لصدّه و صمّمت على منعه من الدخول إلى مكّه.و لمّا بلغ النّبى الحديبيّه [و هى قريه على مسافه عشرين كيلو مترا من مكّه و سمّيت بذلك لوجود بئر فيها

(۱)

الصافى و العلاّمه الطباطبائى فى الميزان..فى حين أنّ بعض المفسّرين يرجحون أنّ المراد من هذا الفتح هو فتح مكّه كما هو فى تفسير التبيان للطوسى،و الكشاف للزمخشرى و تفسير الفخر الرازى و غيرهم..أمّا العلاّمه الطبرسى فقد جمع بين القولين فى مجمع البيان مع أقوال أخرى إلاّ أنّه يميل إلى تفسير الطائفه الثانيه..

۱- ۱) -الاعتمار مصدر من:اعتمر و العمره أو اسم مصدر من عمر و كلا المصدرين بمعنى واحد و هو الزياره مطلقا(لغه)غير أنّه اصطلح عليهما فى زياره بيت اللّه خاصّه.

أو شجره]

أمر أصحابه أن يحطّوا رحالهم فيها.فقالوا:يا رسول اللّه ليس هنا ماء و لا ـ كلأ،فهيّأ النّبى عن طريق الاعجاز لهم ماء من البئر الموجوده فى تلك المنطقه..و بدأ التزاور بين سفراء النّبى و ممثليه و سفراء قريش و ممثليها لتحلّ المشكله على أى نحو كان،و أخيرا جاء عروه بن مسعود الثقفى الذى كان رجلا ـ حازما عند النّبى فقال له النبى:«إنّا لم نجىء لقتال أحد و لكن جئنا معتمرين...».

و هذا و قد لاحظ عروه الثقفى،ضمنا حاله الأصحاب و هم يكتنفون نبيّهم عند وضوئه فلا يدعون قطره تهوى إلى الأرض منه.

و حين رجع عروه إلى قريش قال:لقد ذهبت إلى قصور كسرى و قيصر و النجاشى فلم أر قائدا فى قومه كعظمه محمّد بين أصحابه...و قال عروه لرجال قريش أيضا إذا كنتم تتصورون أنّ أصحاب محمّد يتركونه فأنتم فى خطأ كبير...فأنتم فى مواجهه أمثال هؤلاء الرجال الذين يؤثرون على أنفسهم فاعرفوا كيف تواجهونهم!؟ ثمّ أنّ النّبى أمر عمر أن يمضى إلى مكّه ليطلع أشراف قريش على الهدف من سفر النّبى فاعتذر عمر و قال إنّ بينه و بين قريش عداوه شديده و هو منها على حذر فالأفضل أن يرسل عثمان بن عفان ليبادر إلى هذا العمل،فمضى عثمان إلى مكّه و لم تمض فتره حتى شاع بين المسلمين خبر مفاده أنّ عثمان قتل،فاستعد النّبى لأن يواجه قريشا بشدّه!فطلب بتجديد البيعه من أصحابه فبايعوه تحت الشجره بيعه سمّيت«بيعه الرضوان»و تعاهدوا على مواصله الجهاد حتى آخر نفس؛إلاّ أنّه لم يمض زمن يسير حتى عاد عثمان سالما و أرسلت قريش على أثره سهيل بن عمرو للمصالحه مع النّبى غير أنّها أكّدت على النّبى أنّه لا يدخل مكّه فى عامه هذا أبدا.

و بعد كلام طويل تمّ عقد الصلح بين الطرفين و كان من موادّه ما بيّناه آنفا و هو أن يغض المسلمون النظر عن موضوع العمره لذلك العام و أن يأتوا فى العام القابل

ص:۴۱۳

الی مکّه شریطه أن لا یمکثوا فی مکّه أکثر من ثلاثه أیّام و أن لا یحملوا سلاحا غیر سلاح السفر کما کان من مواد العقد أمور أخری تدور حول سلامه الأرواح و الأموال التی تعود للمسلمین و الذین یأتون مکّه منهم[من قبل المدینه]

و من مواد العقد أیضا إیقاف القتال بین المسلمین و المشرکین لعشر سنین و أن یکون مسلمو مکّه أحرارا فی أداء مناسکهم و فرائضهم الإسلامیه.

و کان هذا العقد[أو هذه المعاهده]

بمثابه عدم التعرض لکلا الجانبین و لحسم المعارک المستمرّه بین المسلمین و المشرکین بصوره مؤقته.

و کان مؤدّی هذه المعاهده و ما یتضمّنه عقد الصلح بالنحو التالی:

«قال النّبی لعلی اکتب:بسم اللّه الرحمن الرحیم:فقال سهیل بن عمرو الذی کان سفیر المشرکین لا أعرف هذه العباره بل لیکتب بسمک اللّهمّ!فقال النّبی لعلی اکتب:بسمک اللّهمّ:ثمّ قال النّبی لعلی اکتب:هذا ما صالح علیه محمّد رسول اللّه سهیل بن عمرو،فقال سهیل:لو کنّا نعرفک رسول اللّه لما حاربناک فاکتب اسمک و اسم أبیک فحسب.فقال النبیّ:لا مانع من ذلک اکتب هذا ما صالح علیه محمّد بن عبد اللّه سهیل بن عمرو أن یترک القتال عشر سنین لیجد الناس مأمنهم ثانیه، و إضافه إلی ذلک من یأت محمّدا من قریس مسلما دون إذن ولیّه فیجب إعادته الی أهله و من جاء قریشا من أصحاب محمّد فلا یجب إعادته إلی محمّد! و الجمیع أحرار فمن شاء دخل فی عهد محمّد و من شاء دخل فی عهد قریش! و یتعهّد الطرفان أن لا یخون کلّ منهما[صاحبه]

الآخر و أن یحترم ماله و نفسه! ثمّ بعد هذا لیس لمحمّد هذا العام أن یدخل مکّه،لکن فی العام المقبل تخرج قریش من مکّه لثلاثه أیّام و یأتی محمّد و أصحابه إلی مکّه علی أن لا یمکثوا فیها أکثر من ثلاثه أیّام و یؤدّوا مناسک العمره ثمّ یعودوا إلی أهلهم شریطه أن لا یحملوا معهم سلاحا سوی السیف الذی هو من عده السفر و أن یکون فی الغمد و شهد علی هذه المعاهده جماعه من المسلمین و جماعه من المشرکین و أملی المعاهده علی

بن أبی طالب علیه السّلام» (۱) .

و ذکر العلاّمه المجلسی فی«بحار الأنوار»مواد أخری منها:

«ینبغی أن یکون الإسلام فی مکّه غیر خفی و أن لا یجبر أحد فی اختیار مذهبه و أن لا ینال المسلمین أذی من المشرکین» (۲) .

و هذا المضمون کان موجودا فی التعبیر السابق بصوره إجمالیه.

و هنا أمر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أن تنحر الإبل التی جیء بها مع المسلمین و أن یحلق المسلمون رؤوسهم و أن یتحلّلوا من إحرامهم!..

لکن هذا الأمر کان علی بعض المسلمین عسیره للغایه و غیر مستساغ أیضا..

لأنّ التحلل من الإحرام فی نظرهم دون أداء العمره غیر ممکن!!لکنّ النّبی تقدّم بنفسه و نحر«هدیه»و تحلّل من إحرامه و أشعر المسلمین أنّ هذا«استثناء»فی قانون الإحرام أمر به اللّه سبحانه نبیّه! و لمّا رأی المسلمون ذلک من نبیّهم أذعنوا للأمر الواقع و نفذوا أمر النّبی بدقه و عزموا علی التوجّه نحو المدینه من هناک،غیر أنّه کان بعضهم یحسّ کأنّ جبلا من الهم و الحزن یجثم علی صدره لأنّ ظاهر القضیه أنّ هذا السفر کان غیر موفّق بل مجموعه من الهزائم!لکنّ مثل هذا و أضرابه لم یعلموا ما ینطوی وراء صلح الحدیبیه من انتصارات للمسلمین و لمستقبل الإسلام.و فی ذلک الحین نزلت سوره الفتح و أعطت للنبی الکریم بشری کبری بالفتح المبین (۳) .

***

ص :۴۱۵

۱- ۱) -منقول بتصرّف یسیر عن تأریخ الطبری،ج ۲،ص ۲۸۱.

۲- ۲) -بحار الأنوار،الجزء العشرون،ص ۳۵۲.

۳- ۳) -راجع سیره ابن هشام،ج ۳،ص ۳۲۱-۳۲۴،تفسیر مجمع البیان و تفسیر فی ظلال القرآن و الکامل لابن الأثیر،ج ۲ و مصادر أخری[مع شیء من التلخیص طبعا] .

الآثار السياسيه و الاجتماعيه و المذهبيه لصلح الحديبيه:

يتّضح بمقايسه إجماليه بين حال المسلمين فى السنه السادسه للهجره«أى عند صلح الحديبيه»و حالهم بعدها بسنتين حيث تحرّك المسلمون لفتح مكّه بعشره آلاف مقاتل ليردّوا على نقض العهد بشدّه،و قد فتحوا مكّه دون أيه مواجهه عسكريه لأنّ قريشا لم تجد فى نفسها القدره على المقاومه أبدا.

يتّضح بهذه المقايسه الإجماليه-سعه ردّ الفعل-التى أحدثتها معاهده صلح الحديبيه!..

و باختصار فإنّ المسلمين حصلوا على امتيازات عديده من وراء هذا الصلح و فتحا كبيرا نذكرها على النحو التالى:

۱-بيّنوا عمليا للمضللين من أهل مكّه أنّهم ليس لديهم نيّه للحرب و سفك الدماء و أنّهم يحترمون مكّه و كعبتها المقدسه و كان هذا الأمر سببا لاكتساب قلوب الكثيرين نحو الإسلام.

۲-اعترفت قريش لأوّل مرّه بالإسلام و المسلمين«بصوره رسميه»و كان ذلك سببا لتثبيت موقعهم فى جزيره العرب!...

۳-استطاع المسلمون بعد صلح الحديبيّه أن يمضوا حيث يشاءون و أن تبقى أرواحهم و أموالهم فى مأمن من الخطر و اتصلوا بالمشركين من قريب اتصالا أثمر نتيجته،فكان أن عرف المشركون الإسلام بصوره أكثر و استرعى أنظارهم نحوه!.

۴-انفتح الطريق بعد صلح الحديبيّه لنشر الإسلام فى الجزيره العربيه.و أثار موقف النّبى الإيجابى من الصلح القبائل العربيه و أصلح نظرتها إلى الإسلام و رسوله الكريم.و حصل المسلمون على مجال إعلامى واسع فى هذا الصدد.

۵-هيّأ صلح الحديبيّه الطريق لفتح«خيبر»و استئصال هذه الغده السرطانيه «المتمثله باليهود»و التى كانت تشكل خطرا مهمّا«بالفعل و القوّه»على الإسلام و المسلمين!

۶-و أساسا فإنّ استيحاش قريش من مواجهه الجيش الذى كان يتألّف من ألف و أربعمائه مسلم فحسب و لا يحمل أى منهم سلاحا سوى سلاح السفر و قبول قريش بمعاهده الصلح كان بنفسه أيضا عاملا مهما على تقويه المعنويات عند المسلمين و هزيمه أعداء الإسلام إلى درجه أنّهم كانوا يتهيّبون من مواجهه المسلمين!.

۷-و بعد صلح الحديبيّه كتب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كتبا و(رسائل)متعدده إلى رؤساء الدول الكبرى(إيران و الروم و الحبشه)و ملوك العالم البارزين يدعوهم فيها إلى الإسلام،و هذا بنفسه يدل على أن صلح الحديبيّه أعطى المسلمين الثقه بأنفسهم و أن ينفتحوا لا على الجزيره العربيه فحسب بل على آفاق العالم قاطبه! *** و الآن لنعد ثانيه إلى تفسير الآيات!...

نستطيع أن ندرك ممّا ذكر آنفا-بشكل جيد-أنّ صلح الحديبيّه كان بحق انتصارا للإسلام و فتحا للإسلام و المسلمين فلا غرابه أن يعبّر عنه القرآن بالفتح المبين!.

ثمّ بعد هذا كله فإنّ هناك قرائن كثيره تؤيد هذا التّفسير..

۱-جمله-فتحنا-التى جاءت بصيغه الفعل الماضى تدل على أنّ هذا الأمر قد تحقق عند نزول الآيات فى حين أنّه لم يكن وقتئذ أى شىء سوى صلح الحديبيه!.

۲-زمان نزول الآيات المشار إليها آنفا و الآيات الأخرى المذكوره فى هذه السوره التى تمدح المؤمنين و تذم المنافقين و المشركين فى صلح الحديبيّه كلّ ذلك شاهد آخر على هذا المعنى،و الآيه(۲۷)من سوره الفتح التى تؤكّد على تحقق رؤيا النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لَقَدْ صَدَقَ اللّٰهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللّٰهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ هى شاهد بليغ على أنّ

ص: ۴۱۷

هذه السوره نزلت بعد الحديبيّه و قبل فتح مكّه!.

٣-هناك روايات كثيره تعبّر عن صلح الحديبيّه بأنّه«الفتح المبين»!و من ضمنها ما ورد فى تفسير«جوامع الجامع»أنّه حين كان النّبى راجعا من الحديبيّه و نزلت عليه سوره الفتح..قال أحد أصحابه:ما هذا الفتح؟!لقد صددنا عن البيت و صدّ هدينا!.

فقال النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «بئس الكلام«هذا»بل هو أعظم الفتوح قد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح و يسألوكم القضيّه!و رغبوا إليكم فى الأمان و قد رأوا منكم ما كرهوا...» (١) .

ثمّ ذكّرهم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ما تحمل المشركون من مساءه يوم بدر و يوم الأحزاب فصدّق المسلمون رسولهم على أنّ هذا أعظم الفتوح و أنّهم قضوا عن عدم اطلاعهم بما قالوا (٢) .

يقول«الزهرى»و هو من التابعين:لم يكن فتح أعظم من الحديبيّه و ذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكّن الإسلام فى قلوبهم و أسلم فى ثلاث سنين خلق كثير كثر بهم سواد الإسلام.

ففى هذه الأحاديث إشاره إلى جانب من الامتيازات التى حصل عليها المسلمون ببركه صلح الحديبيه.

إلاّ أنّ حديثا واحدا ورد عن الإمام الرضا«على بن موسى»عليه السّلام يقول إِنّا فَتَحْنا نزلت بعد«فتح مكّه» (٣) .

بيد أنّه يمكن توجيه هذه الروايه ببساطه بالقول بأنّ صلح الحديبيّه كان مقدمه لفتح مكّه بعد سنتين،فيرتفع الإشكال.

١- ١) -جوامع الجامع«طبقا لنور الثقلين،ج ۵،ص ۴٨،الحديث التاسع».

٢- ٢) -الدر المنثور،ج ۶،ص ۶٨-٣-نور الثقلين،ج ۵،ص ۴٨.

٣- ٣) -نور الثقلين،ج ۵،ص ۴٨.

أو بتعبير آخر أنّ«صلح الحديبيه»كان سببا لفتح خيبر فى فتره وجيزه«فى السنه السابعه للهجره»و أوسع من ذلك كان سببا لفتح مكّه(السنه الثامنه للهجره) و انتصارات الإسلام فى مجالات شتى من حيث النفوذ فى قلوب العالمين!.

و بهذا يمكن الجمع بين التفاسير الأربعه مع هذا القيد و هو أنّ صلح الحديبيّه يشكل المحور الأصلى لهذه التفاسير!.

***

الآيتان [سوره الفتح (۴۸): الآيات ۲ الی ۳]

اشاره

لِيَغْفِرَ لَکَ اَللّٰهُ مٰا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ مٰا تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْکَ وَ يَهْدِيَکَ صِرٰاطاً مُسْتَقِيماً (۲) وَ يَنْصُرَکَ اَللّٰهُ نَصْراً عَزِيزاً (۳)

التّفسير

اشاره

نتائج الفتح المبين الكبرى:

فی هاتين الآيتين بيان للنتائج المباركه من«الفتح المبين»[صلح الحديبيه]

و التی ورد ذكره فی الآيه السابقه فتقول الآيتان: لِيَغْفِرَ لَكَ اللّٰهُ مٰا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مٰا تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيَكَ صِرٰاطاً مُسْتَقِيماً، وَ يَنْصُرَكَ اللّٰهُ نَصْراً عَزِيزاً .

و بهذا فإنّ اللّه منح نبيّه الكريم فی ظل هذا الفتح المبين أربع مواهب عظيمه هی «المغفره»،و«إتمام النعمه»،و«الهدايه»و«النصر».

***

ص : ۴۲۰

بحثان

اشاره

۱-الإجابه علی بعض الأسئله المهمه:

تثار هنا أسئله کثیره دأب المفسّرون منذ زمن قدیم حتی یومنا هذا بالإجابه علی هذه الأسئله! و من هذه الأسئله،الأسئله الثلاثه التالیه حول قوله تعالی لنبیّه:لیغفر لک اللّه ما تقدّم من ذنبک و ما تأخّر!.

۱-ما المراد من العباره الآنفه لِيَغْفِرَ لَكَ اللّٰهُ مع أنّ النّبی معصوم من الذنب؟! ۲-و علی فرض أن نغض النظر عن هذا الإشکال!فما علاقه المغفره بالفتح و صلح الحدیبیه؟! ۳-و إذا کان المقصود من قوله تعالی«و ما تأخّر»هو الذنوب المستقبلیه! فکیف یمکن أن تکون الذنوب الآتیه تحت دائره العفو و المغفره.ألیس مثل هذا التعبیر ترخیصا لارتکاب الذنب؟! و قد أجاب کلّ من المفسّرین بنحو خاص علی مثل هذه الإشکالات،و لکن للحصول علی الإجابه«الجامعه»لهذه الإشکالات و التّفسیر الدقیق لهذه الآیات لا بدّ من ذکر مقدمه لهذا البحث و هی:

إنّ المهم هو العثور علی العلاقه الخفیّه بین فتح الحدیبیّه و مغفره الذنب لأنّها المفتاح الأصیل للإجابه علی الأسئله الثّلاثه المتقدّمه! و بالتدقیق فی الحوادث التاریخیه و ما تمخّضت عنه نصل إلی هذه النتیجه، و هی أنّه حین یظهر أیّ مذهب حق و یبرز فی عالم الوجود فإنّ أصحاب السنن الخرافیه الذین یرون أنفسهم و وجودهم فی خطر یکیلون التهم و الأمور التافهه إلیه و یشیعون الشائعات و الأباطیل و ینشرون الأراجیف الکاذبه بصدده و ینسبون إلیه الذنوب العدیده و ینتظرون عاقبته و إلی أین ستصل؟! فإذا واجه هذا المذهب فی مسیره الاندحار فإنّ ذلک یکون ذریعه قویه

لإثبات النسب الباطله ضدّه على أيدى أعدائه و يصرخون:ألم نقل كذا و كذا!! و لكن حين ينال الانتصار و تحظى مناهجه و خططه بالموفقيه فإنّ تلك النسب تمضى كما لو كانوا قد رقموا على الماء!!و تتبدّل جميع أقوالهم إلى حسرات و ندامه و يقولون عندئذ لم نكن نعلم! و خاصّه فى شأن النّبى محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم كانت هذه التصوّرات و الذنوب التى و صموها به كثيره!!إذ عدّوه باغيا للحرب و القتال و مثيرا لنار الفتنه معتدا بنفسه لا يقبل التفاهم و ما إلى ذلك! و قد كشف صلح الحديبيّه أنّ مذهبه على خلاف ما يزعمه أعداؤه إذ كان مذهبا «تقدّميا»إلهيا..و كان آيات قرآنه ضامنه لتربيه النفوس الإنسانيه و طاويه لصحائف الظلم و الاضطهاد و الحرب و النزيف الدموى!.

فهو يحترم كعبه اللّه و بيته العتيق و لا يهاجم أيه جماعه أو قبيله دون سبب،فهو رجل منطقىّ و يعشقه اتباعه،و يدعو جميع الناس بحقّ إلى محبوبهم«اللّه»و إذا لم يضطره أعداؤه إلى الحرب فهو داعيه للسلام و الصلح و الدعه!..

و على هذا فقد غسل صلح الحديبيّه جميع الذنوب التى كانت قبل الهجره و بعد الهجره قد نسبت إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أو جميع الذنوب التى نسبت إليه قبل هذا الحادث أو ستنسب إليه فى المستقبل احتمالا...و حيث أنّ اللّه جعل هذا الفتح نصيب النّبى فيمكن أن يقال أن اللّه غفر للنبى ذنوبه جميعا.

و النتيجه أنّ هذه الذنوب لم تكن ذنوبا حقيقيه أو واقعيه بل كانت ذنوبا تصوريه و فى أفكار الناس و ظنّهم فحسب،و كما نقرأ فى الآيه(۱۴)من سوره الشعراء فى قصه موسى قوله مخاطبا ربّه وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخٰافُ أَنْ يَقْتُلُونِ فى حين أنّ ذنبه لم يكن سوى نصره المظلوم من بنى إسرائيل و سحق ظلم الفراعنه لا غير!.

و بديهى أنّ هذا الفعل لا يعدّ ذنبا،بل دفاع عن المظلومين و لكنّه كان يعدّ ذنبا

فی نظر الفراعنه و أتباعهم.

و بتعبير آخر أنّ«الـذنب»فی اللغه يعنی الآثار السيئه و التبعات التی تنتـج عن العمل غير المطلوب،فكان ظهور الإسـلام فی البدايه تدميرا لحياه المشركين،غير أنّ انتصاراته المتلاحقه و المتتابعه كانت سببا لنسيان تلك التبعات.

فمثلا لو كان لـدينا بيت قديم يوشك على الخراب و لكنّنا نلتجئ إليه و لنا به علاقه وطيده فقام أحد الناس بتخريبه فإنّنا نغضـب منه و نخطّئه على فعله و لكنّه بعـد بنـائه من جديـد محكمـا سامقـا فـإنّ أحكامنـا السابقه تمضـی أدراج الرياح! و هكـذا بالنسبه لمشـركی مكّه سواء قبـل هجره النّبی أم بعـدها إذ كانت أفكارهم و أذهانهم مبلبله عن الإسـلام و شـخص النّبی بالـذات،غير أنّ انتصارات الإسـلام أزالت هـذه التصورات و الأفكار! أجل:لو أخـذنا مسأله العلاقه بين مغفره هـذه الـذنوب و فتـح الحديبيّه بنظر الاعتبـار لا تضـح الموضوع بجلاء،و اسـتفدنا العلاقه من«اللام»فی«ليغفر لك اللّه» فی كونها مفتاح«الرمز»لفتـح معنى الآيه المغلق! غير أنّ من لم يلتفت إلى هـذه«اللطيفه»...جعـل عصـمه النّبی صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم موضع اسـتفهام و قال:«و العياذ باللّه»أنّ لديه ذنوبا غفرها اللّه بفتح«الحديبيه»أو حمل الآيه على خلاف ظاهر معناها و أنّ المراد(الذنوب عامّه).

و قال بعضـهم:بل هی ذنوب الناس التی ارتكبوها فی حقّ النّبی كأذاهم و الإساءه إليه و قـد غفرها اللّه بفتـح«الحديبيه»[و فی هذه الصوره يكون الذنب قد أضيف إلى مفعوله معنى لا إلى فاعله]

.

أو حملوا الذنب على[ترك الأولى]

.

و بعضهم فسّر ذلك بالفرض فقال:ليغفر لك الذنب الذی لو كنت عملته فرضا أو ستعمله فقد غفر اللّه كلّ ذلك لك!

لكن من المعلوم أنّ كلّ هذه التفاسير لا تتجاوز التكلّف و التمحّل و دون أی

دلیل!إذ لو خدشنا فی عصمه الأنبیاء..لأنکرنا فلسفه وجودهم،لأنّ النّبی ینبغی أن یکون قدوه فی کلّ شیء،فکیف یمکن المذنب أن یفی بهذا المنهج و یؤدّی حقّه؟! زد علی ذلک،فالمذنب بنفسه یحتاج إلی قائد یرشده و یدلّه لیهتدی به.

و هناک تفاسیر أخری تخالف ظاهر الآیه،و الإشکال المهم فیها أنّها تقطع العلاقه ما بین مغفره الذنب و الفتح«صلح الحدیبیه».

فأحسن التفاسیر هو ما ذکرناه آنفا،و هو ما یجیب علی الأسئله الثلاثه المتقدّمه فی مکان واحد!و یبیّن ارتباط الجمل فی الآیه..

کل ذلک هو فی شأن الموهبه الأولی من المواهب الأربعه التی وهبها اللّه نبیّه فی صلح الحدیبیه!.

أمّا«إتمام النعمه»علی النّبی و هدایته إیّاه الصراط المستقیم و نصره النصر العزیز..بعد الفتح فی الحدیبیّه فلیست هذه الأمور ممّا تخفی علی أحد..فقد انتشر الإسلام بسرعه و سخّر القلوب المهیّأه!و ظهرت عظمه تعلیماته للجمیع و أبطل السموم(المضادّه)و تمّت نعمه اللّه علی النّبی و علی المسلمین و هداهم الصراط المستقیم نحو الانتصارات حتی أنّ جیش الإسلام لم یجد أیه مقاومه فی فتح مکّه و فتح أکبر حصن للمشرکین!.

٢-المراد من«ما تقدّم»و«ما تأخّر»..

قرأنا فی الآیه السابقه قوله تعالی: لِیَغْفِرَ لَکَ اللّهُ مٰا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَ مٰا تَأَخَّرَ فما المراد من هذا النص«ما تقدّم و ما تأخّر»اختلف المفسّرون فی بیان الآیه:

فقال بعضهم:المراد بما تقدّم هو عصیان آدم و حواء و ترک الأولی من قبلهما، أمّا المراد بما تأخّر فهو ذنوب أمّه محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

و قال بعضهم:«ما تقدّم»إشاره إلی المسائل المتعلّقه بما قبل النبوه،و«ما

تأخّر»إشاره إلى المسائل المتعلّقه بما بعدها..

و قال بعضهم:المراد بما تقدّم هو ما تقدّم على صلح الحديبيه،و ما تأخّر أى ما تأخّر عنها من أمور و حوادث!.

و لكن مع ملاحظه التّفسير الذى أوضحناه فى أصل معنى الآيه و خاصه العلاقه بين مغفره الذنب مع مسأله فتح الحديبيه،يبدو بجلاء أنّ المراد هو التهم الباطله التى و صمها المشركون-بزعمهم-بالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى ما سبق و ما لحق و لو لم يتحقّق هذا النصر العظيم لكانوا يتصوّرون أنّ جميع هذه الذنوب قطعيه..

غير أنّ هذا الانتصار الذى تحقّق للنبى طوى جميع الأباطيل و التهم(المتقدّمه) فى حقّ النّبى و ما سيتّهم به فى المستقبل فى حال عدم انتصاره!.

و الشاهد الآخر على هذا التّفسير هو

الحديث المنقول عن الإمام الرضا على بن موسى عليهما السلام إذ سأله المأمون عن تفسير هذه الآيه فقال: «لم يكن أحد عند مشركى أهل مكّه أعظم ذنبا من رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم لأنّهم كانوا يعبدون من دون اللّه ثلاثمائه و ثلاثين صنما فلمّا جاءهم بالدعوه إلى كلمه الإخلاص«التوحيد»كبر ذلك عليهم و قالوا:أجعل الآلهه إلها واحدا إنّ هذا لشىء عجاب إلى أن قالوا ما سمعنا بهذا فى الملّه الآخره إن هذا إلاّ اختلاق (1) .

فلمّا فتح اللّه تعالى على نبيّه مكّه قال اللّه تعالى: إِنّٰا فَتَحْنٰا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللّٰهُ مٰا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مٰا تَأَخَّرَ عند مشركى أهل مكّه بدعائك إلى توحيد اللّه فيما تقدّم و ما تأخّر لأنّ مشركى مكّه أسلم بعضهم و خرج بعضهم عن مكّه و من بقى منهم لم يقدر على إنكار التوحيد عليه إذ دعا الناس إليه فصار ذنبه عندهم مغفورا بظهوره عليهم»فلمّا سمع المأمون كلام الرضا قال له:«أحسنت،بارك اللّه فيك يا أبا الحسن».

***

۱- ۱) -راجع فى هذا الصدد سوره فى الآيه ۴-۷ و تفسير الصافى نقلا عن عيون الأخبار-و راجع نور الثقلين الجزء الخامس، ص ۵۶.

الآیه [سوره الفتح (۴۸): آیه ۴]

اشاره

هُوَ اَلَّذِی أَنْزَلَ اَلسَّکِینَهَ فِی قُلُوبِ اَلْمُؤْمِنِینَ لِیَزْدَادُوا إِیمَاناً مَعَ إِیمَانِهِمْ وَ لِلّٰهِ جُنُودُ اَلسَّمَاوَاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ کَانَ اَللّٰهُ عَلِیماً حَکِیماً (۴)

التّفسیر

اشاره

نزول السکینه علی قلوب المؤمنین:

ما قرأناه فی الآیات السابقه هو ما أعطاه اللّه من مواهب عظیمه لنبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم بالفتح المبین«صلح الحدیبیه»،أمّا فی الآیه أعلاه فالکلام عن الموهبه العظیمه التی تلطف اللّه بها علی جمیع المؤمنین إذ تقول الآیه:

هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ السَّکِینَهَ فِی قُلُوبِ الْمُؤْمِنِینَ لِیَزْدَادُوا إِیمَاناً مَعَ إِیمَانِهِمْ

.

و لم لا تنزل السکینه و الاطمئنان علی قلوب المؤمنین؟ وَ لِلّٰهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ کَانَ اللّٰهُ عَلِیماً حَکِیماً .

ماذا کانت هذه السکینه؟!

من الضروری هنا أن نعود إلی قصه«صلح الحدیبیّه»و أن نتصوّر أنفسنا فی

فضاء الحديبيّه و فی جوّها لنطّلع علی عمق هذه الآیه.

لقد کان النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قد رأی رؤیا«رحمانیه و إلهیه»أنّه دخل المسجد الحرام مع أصحابه،و علی أثر رؤیاه تحرّک نحو زیاره بیت اللّه مع أصحابه و کان أغلب أصحابه یتوقّعون أنّ هذه الرؤیا الصالحه سیتحقّق تعبیرها فی هذا السفر نفسه، لکنّ الذی قدّره اللّه کان شیئا آخر!هذا کلّه من جانب.

و من جانب آخر کان المسلمون قد أحرموا و جاءوا بالإبل لیهدوها أو ینحروها،و لکنّهم و علی خلاف ما توقّعوا لم یوفّقوا لزیاره بیت اللّه،و أمر النّبی أن ینحروا الإبل فی الحدیبیّه التی توقّفوا فیها هناك.و أن یحلّوا من إحرامهم،و کان ذلک أمرا صعبا علیهم و لا یمکن تصدیقه،لأنّ آدابهم و سننهم و تعلیمات الإسلام أیضا تنصّ علی عدم الخروج و الإحلال من الإحرام ما لم یتمّ أداء المناسک الخاصه بالعمره.

و من جانب ثالث کان من مواد معاهده الصلح فی الحدیبیه،ماده تقضی بإعاده المسلمین من یلجأ إلیهم من قریش و یعلن إسلامه و یدخل المدینه!و لا یلزم العکس،و کان هذا الموضوع صعبا علی المسلمین للغایه.

و من جانب رابع،فإنّ قریشا لم ترغب أن تکتب کلمه«رسول اللّه»التی کان یدعی بها النّبی محمّد و أصرّ ممثلها سهیل بن عمرو علی حذف الکلمه من معاهده الصلح،و لم یوافق حتی علی کتابهبسم اللّه الرحمن الرحیم،و أصرّ أن یکتب مکانها«بسمک اللّهمّ»،التی کانت تنسجم مع سنّه أهل مکّه، فهذه الأمور کلّ واحد منها کان غیر مرغوب فیه،فکیف بجمیعها؟و لذلک تزلزلت قلوب بعض ضعاف الإیمان من أصحاب النّبی إلی درجه أنّه حین نزلت سوره إِنّٰا فَتَحْنٰا قالوا أی فتح هذا؟! هنا ینبغی أن یشمل لطف اللّه حال المسلمین و أن ینزل علیهم السکینه و الاطمئنان و أن لا یوجد فی قلوبهم الضعف و الفتور فحسب،بل

لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ

و تنطبق مصداقيه الآيه عليهم،فإنّ الآيه نزلت فى مثل هذه الظروف.

«السكينه»فى الأصل مشتقه من«السكون»،و معناها الاطمئنان و الدعه و ما يزيل كل أنواع الشك و التردّد و الوحشه من الإنسان و يجعله ثابت القدم فى طوفان الحوادث! و هذه السكينه يمكن أن يكون لها جانب عقائدى فيزيل ضعف تزلزل العقيده أو يكون لها جانب عملى بحيث يهب الإنسان ثبات القدم و المقاومه و الاستقامه و الصبر.

و بالطبع فإنّ البحوث السابقه و تعبيرات الآيه نفسها تتناسب مع استعمال السكينه فى معناها الأوّل أكثر.

فى حين أنّها فى الآيه(۲۴۸)من سوره البقره فى قصه«طالوت و جالوت» تعوّل على الأسس العمليه أكثر! و قد ذكر جماعه من المفسّرين معانى أخر للسكينه و ترجع فى نهايتها إلى هذا التّفسير أيضا.

الطريف أنّ«السكينه»فى بعض الرّوايات فسّرت بالإيمان (۱) كما فسّرت فى بعضها بنسيم الجنّه الذى يبدو فى هيئه الإنسان و يمنح المؤمنين الاطمئنان (۲) ! و كل هذه التفاسير تأييد لما قلناه،لأنّ السكينه وليده الإيمان،و هى تهب الاطمئنان كنسيم الجنّه! و ينبغى الالتفات أيضا إلى هذه اللطيفه فى شأن السكينه،إذ عبّر عنها بالإنزال هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ السَّكِينَهَ و نعلم أنّ هذا التعبير فى القرآن قد يعنى الخلق و الإيجاد و إيلاء النعمه أحيانا..و حيث أنّها من عال إلى دان فقد ورد فى شأنها التعبير بالإنزال!.

***

۱- ۱) -تفسير البرهان،ج ۲،ص ۱۱۴.

۲- ۲) -المصدر السابق.

ملاحظات

اشاره

١-السكينه التى لا نظير لها!

إذا لم يكن للإيمان أيه ثمره سوى مسأله السكينه لكان على الإنسان أن يتقبّله! فكيف به و هو يرى آثاره و ثمراته و بركاته!.

و التحقيق فى حال المؤمنين و حال غير المؤمنين يكشف هذه الحقيقه،و هى أنّ الفئه الثّانيه يعانون حاله الاضطراب و القلق الدائم،فى حين أنّ الجماعه الأولى فى اطمئنان خاطر عديم النظير...

و فى ظل الاطمئنان،فإنّهم لاٰ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللّٰهَ (١) .

كما أنّهم فى مواصله نهجهم لا يؤثر اللوم و التهديد فيهم أبدا وَ لاٰ يَخٰافُونَ لَوْمَهَ لاٰئِمٍ (٢) .

و هم يتمسّكون بأصلين مهمّين فى حفظ هذه السكينه،و هما:عدم الحزن على ما فاتهم،و عدم التعلّق و الفرح بما لديهم،فهم مصداق لقوله تعالى: لِكَيْلاٰ تَأْسَوْا عَلىٰ مٰا فٰاتَكُمْ وَ لاٰ تَفْرَحُوا بِمٰا آتٰاكُمْ (٣) .

و أخيرا فإنّهم لا يضعفوا أبدا أمام الشدائد،و لا يركعوا مقابل الأعداء و يتحلّون بشعار وَ لاٰ تَهِنُوا وَ لاٰ تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۴) .

إنّ المؤمن لا يرى نفسه وحيدا فى ميدان الخطوب و الحوادث بل يحسّ بيد اللّه على رأسه و يلمس إعانه الملائكه و نصرتهم له،فى حين أنّ غير المؤمنين يحكمهم الاضطراب فى أحاديثهم و سلوكهم و لا سيما عند هبوب العواصف و طوفان الأحداث إذ يرى كلّ ذلك منهم بصوره بيّنه!

١- ١) -الأحزاب،الآيه ٣٩.

٢- ٢) -المائده،الآيه ۵۴.

٣- ٣) -الحديد،الآيه ٢٣.

۴- ۴) -آل عمران،الآيه ١٣٩.

۲-سلسله مراتب الإيمان:

الإيمـان،سواء بمعنى العلم و المعرفه،أم روح التسـليم و الإذعـان للحق فـإنّ له درجـات و سلسـله مراتب،لأـنّ العلم له درجـات،و التسليم و الإذعان لهما درجات مختلفه أيضا،حتى العشق و الحب الذى هو توأم الإيمان يتفاوت من حاله إلى أخرى! فالآيه محل البحث التى تقول: لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ تأكيـد على هـذه الحقيقه أيضا..و على هـذا فلا ينبغى للمؤمن أن يتوقّف فى مرحله واحده من مراحل الإيمان،بل عليه أن يتسامى إلى درجاته العليا عن طريق بناء شخصيّته و العلم و العمل.

ففى حديث عن الإمام الصادق أنّه قال: «إنّ الإيمان عشر درجات بمنزله السلم يصعد منه مرقاه بعد مرقاه» (۱) .

كما

نقرأ عنه حديثا آخر إذ قال: «إنّ اللّه عزّ و جلّ وضع الإيمان على سـبعه أسهم على البر و الصدق و اليقين و الرضا و الوفاء و العلم و الحلم فمن جعـل فيه السبعه الأسـهم فهـو كامـل محتمـل و قسّم لبعض النـاس السـهم و السـهمين و لبعض الثلاـثه حـتى انتهوا إلى(ال)سبعه».

ثمّ يضـيف الإمـام عليه السّـلام: «لاـ تحملوا على صـاحب السـهم سـهمين و لاـ على صـاحب السـهمين ثلاثه فتبهضوهم»..ثمّ قال كذلك حتى انتهى إلى(ال)سبعه (۲) .

و من هنا يتّضـح ما نقل عن بعضـهم أنّ الإيمان ليس فيه زياده و لا نقصان لا أساس له،لأنّه لا ينسـجم مع الثوابت العلميّه و لا مع الرّوايات الإسلاميه!.

۱- ۱) -بحار الأنوار،ج ۶۹،ص ۱۶۵.

۲- ۲) -الكافى،ج ۲،باب درجات الإيمان،حديث ۱.

۳-ركنى السكينه:

قرأنا فى ذيل الآيه محل البحث جملتين،كلّ منهما تمثّل ركنا من أركان «السكينه»و الاطمئنان للمؤمنين.

فالأولى جمله وَ لِلّٰهِ جُنُودُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ .

و الأخرى جمله وَ كٰانَ اللّٰهُ عَلِيماً حَكِيماً .

فالأولى تقول للإنسان:إذا كنت مع اللّه فإنّ جميع ما فى الأرض و السماء معك!.

و الأخرى تقول:إنّ اللّه يعلم حاجاتك و مشاكلك كما يعلم سعيك و طاعتك و عبادتك.

و مع الإيمان بهذين«الأصلين»كيف يمكن أن لا يحكم الاطمئنان و سكينه القلب وجود الإنسان! ***

ص:۴۳۱

الآیات [سوره الفتح (۴۸): الآیات ۵ الی ۷]

اشاره

لِيُدْخِلَ اَلْمُؤْمِنِينَ وَ اَلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ كَانَ ذٰلِكَ عِنْدَ اَللّٰهِ فَوْزاً عَظِيماً (۵) وَ يُعَذِّبَ اَلْمُنَافِقِينَ وَ اَلْمُنَافِقَاتِ وَ اَلْمُشْرِكِينَ وَ اَلْمُشْرِكَاتِ اَلظَّانِّينَ بِاللّٰهِ ظَنَّ اَلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ اَلسَّوْءِ وَ غَضِبَ اَللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ سَاءَتْ مَصِيراً (۶) وَ لِلّٰهِ جُنُودُ اَلسَّمَاوَاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ كَانَ اَللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۷)

التّفسیر

اشاره

نتیجه أخری من الفتح المبین:

نقل جماعه من مفسّری الشیعه و أهل السنّه أنّه حین بشّر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم«بالفتح المبین»و«إتمام النعمه»و«الهدایه»و«النصره»..قال بعض المسلمین ممّن کان مستاء من صلح الحدیبیّه:هنیئا لک یا رسول اللّه!لقد بیّن لک اللّه ماذا یفعل بک!

ص: ۴۳۲

فما ذا يفعل بنا فنزلت الآيه لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ (۱) .

و على كلّ حال،فإنّ هذه الآيات تتحدّث عن علاقه صلح الحديبيّه و آثاره وردّ الفعل المختلف فى أفكار الناس و نتائجه المثمره،و كذلك عاقبه كلّ من الفريقين اللذين امتحنا فى هذه«البوتقه»و المختبر-فتقول الآيه الأولى من هذه الآيات محل البحث لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا .فلا تسلب هذه النعمه الكبرى عنهم أبدا...

و إضافه إلى ذلك فإنّ اللّه يعفو عنهم وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئٰاتِهِمْ وَ كٰانَ ذٰلِكَ عِنْدَ اللّٰهِ فَوْزاً عَظِيماً (۲) .

و بهذا فإنّ اللّه قد وهب المؤمنين بإزاء ما وهب لنبيّه فى فتحه المبين من المواهب الأربعه موهبتين عظميين هما«الجنّه خالدين فيها»و«التكفير عن سيّئاتهم»بالإضافه إلى إنزال السكينه على قلوبهم و مجموع هذه المواهب الثلاث يعدّ فوزا عظيما لأولئك الذين خرجوا من الامتحان بنجاح و سلامه!.

و كلمه«الفوز»التى توصف فى القرآن غالبا ب«العظيم»و أحيانا توصف ب«المبين»أو«الكبير»بناء على ما يقول«الراغب»فى«مفرداته»معناها الانتصار و نيل الخيرات المقرون بالسلامه،و ذلك فى صوره ما لو كان فيه النجاه فى الآخره و إن اقترن مع زوال بعض المواهب الدنيويه.

و طبقا للروايه المعروفه عن أمير المؤمنين على عليه السّلام حين ضربه اللعين عبد الرحمن بن ملجم فى محراب العباده بالسيف على أمّ رأسه قال هاتفا

«فزت و ربّ الكعبه» و كأنّه يقول فزت بأنّى أمضيت ختم صحيفتى بدم رأسى.

ص:۴۳۳

۱- ۱) -تفسير المراغى،ج ۲۶،ص ۸۵ و تفسير أبو الفتوح الرازى،ج ۱۰،ص ۲۶ و تفسير روح المعانى للآلوسى،ج ۲۶،ص ۸۶.

۲- ۲) -طبقا لهذا البيان فإنّ جملتى«ليدخل»و كذلك«و يعذّب»اللتين هما فى الآيه التاليه معطوفان على جمله ليغفر،و قد اختار جماعه من المفسّرين هذا الرأى كالشيخ الطوسى فى«التبيان»و الطبرسى فى«مجمع البيان»و أبو الفتوح الرازى فى تفسيره، غير أنّ جماعه آخرين قالوا أنّ ما سبق آنفا معطوف على جمله ليزدادوا إيمانا و هذا لا ينسجم مع شأن النّزول و لا مجازاه الكفّار.

أجل قد تبلغ الامتحانات الإلهيه درجه أن تضعضع الإيمان الضعيف و تغيّر القلوب،و إنّما يثبت المؤمنين الصادقون الذين تحلّوا بالسكينه و الاطمئنان و سينعمون فی يوم القيامه بنتائجه،و ذلک هو الفوز العظيم حقّا!.

غير أنّ إزاء هذه الجماعه،جماعه المنافقين و المشركين الذين تتحدّث الآيه التاليه عن عاقبتهم بهذا الوصف فتقول: وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ الظّانِّينَ بِاللّهِ ظَنَّ السَّوْءِ .

أجل،لقد ظنّ المنافقون حين تحرّک النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم و معه المؤمنون من المدينه أن لا يعودوا نحوها سالمين كما تتحدّث عنهم الآيه(١٢)من هذه السوره ذاتها فتقول: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلیٰ أَهْلِيهِمْ أَبَداً .

كما ظنّ المشركون أيضا أنّ محمّدا لن يعود إلى المدينه سالما مع قلّه العدد و العدد و سيأفل كوكب الإسلام عاجلا...ثمّ يفصل القرآن ببيان عذاب هؤلاء و عقابهم و يجعله تحت عناوين أربعه فيقول أوّلا: عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ (١) .

«الدائره»فی اللغه هی الحوادث و ما ينجم عنها أو ما يتّفق للإنسان فی حياته، فهی أعم من أن تكون حسنه أو سيئه غير أنّها هنا بقرينه كلمه«السوء»يراد منها الحوادث غير المطلوبه!.

و ثانيا: وَ غَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِمْ .

و ثالثا: وَ لَعَنَهُمْ .

و رابعا و أخيرا:فإنّه بالمرصاد وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً .

و الذی يسترعی الانتباه أنّه فی الحديبيّه كان أغلب الحاضرين من المسلمين رجالا،و فی مقابلهم من المنافقين و المشركين رجالا أيضا،غير أنّ الآيات الآنفه أشركت الرجال و النساء فی ذلک الفوز العظيم،و هذا العذاب الأليم،و ذلک لأنّ

---

١ - ١) -«سوء»على زنه«نوع»كما يقول صاحب صحاح اللغه فيه معنى مصدری،و السوء)على وزن(نور)اسم مصدر،غير أنّ صاحب الكشّاف يقول أنّ كليهما،بمعنى واحد.

الرجال المؤمنين أو المنافقين الذين يقاتلون فی«ساحات القتال»لا يحقّقون أهدافهم إلّا أن تدعمهم النساء بالدعم اللازم.

و أساسا فإنّ الإسلام ليس دين الرجال فحسب فيهمل شخصيّه المرأه،بل يهتمّ بها،فی كلّ موطن يوهم الكلام بالاقتصار على الرجل مع عدم ذكر المرأه فيه يصرّح بذكرها ليعلم أنّ الإسلام دين الجميع دون استثناء رجالا و نساء.

و فی آخر آيه من الآيات محل البحث إشاره أخرى إلى عظمه قدره اللّه فتقول الآيه: وَ لِلّٰهِ جُنُودُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ كٰانَ اللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً .

و قد ورد هذا التعبير مرّه فی ذيل مقامات أهل الإيمان و مواهبهم،و مرّه هنا فی ذيل الآيه التی تحكی عن عقاب المنافقين و المشركين...ليتّضح أنّ اللّه الذی له جنود السماوات و الأرض جميعا قادر على الأمرين،فهو قادر أن تشمل رحمته مستحقيها من عباده الصالحين و ناصريه،كما أنّه قادر على أن ينزل غضبه و انتقامه نارا تحرق المجرمين.

و ممّا يستلفت النظر أنّ القرآن حين يذكر المؤمنين يصف اللّه بالعلم و الحكمه، و هما يناسبان مقام الرحمه،و لكنّه حين يذكر المنافقين و المشركين يصف اللّه بالعزه و الحكمه،و هما يناسبان العذاب!

ما المراد من«جنود السماوات و الأرض»؟!

هذا التعبير له معنى واسع حيث يشمل الملائكه«و هی من جنود السماء»كما يشمل جنودا أخر كالصواعق و الزلازل و الطوفانات و السيول و الأمواج و القوى الغيبيه غير المرئيه التی لا نعرف عنها شيئا...لأنّ جميع هذه الأشياء هی جنود اللّه و هی مطيعه لأوامره!.

ص: ۴۳۵

من هم الظانّون باللّه ظنّ السوء؟!

قد يكون سوء الظن تاره بالنفس،و قد يكون سوء الظن بالآخرين،كما قد يكون باللّه،و بهذا التقسيم و على منواله يكون«حسن الظن»أيضا.

أمّا سوء الظن بالنفس إذا لم يبلغ درجه الإفراط فهو سلّم إلى التكامل و يدفع الإنسان إلى التدقيق فى أعماله و الإخلاص فيها،و يكون حاجزا عن العجب و الغرور منه عند قيامه بالأعمال الصالحه.

و بهذا

فإنّ الإمام عليا عليه السّلام يصف المتّقين فى جوابه لهمّام قائلا:«فهم لأنفسهم متّهمون،و من أعمالهم مشفقون،إذا زكّى أحد منهم خاف ممّا يقال له،فيقول:أنا أعلم بنفسى من غيرى و ربّى أعلم بى منّى بنفسى،اللّهمّ لا تؤاخذنى بما يقولون و اجعلنى أفضل ممّا يظنّون و اغفر لى ما لا يعلمون» (۱) .

و إذا كان سوء الظن بالناس فهو ممنوع إلاّ أن يغلب الفساد فى المجتمع حيث لا ينبغى هناك حسن الظن«و سيأتى بيان هذا الموضوع بإذن اللّه ذيل الآيه ۱۲ من سوره الحجرات».

أمّا سوء الظن باللّه أى سوء الظن بوعده أو رحمته و كرمه الذى لا حدّ له فهو قبيح و مذموم،و قد يدلّ على ضعف الإيمان و ربّما دلّ على عدم الإيمان! و يشير القرآن عدّه مرّات إلى سوء ظنّ ضعاف الإيمان أو عديمى الإيمان..

و خاصه عند بروز الحوادث الاجتماعيه الصعبه و طوفان الابتلاء و الامتحان، و كيف أنّ المؤمنين يبقون ثابتى الأقدام عند هذه الحوادث و هم فى كمال حسن الظن و الاطمئنان بلطف اللّه..و لكنّ ضعيفى الإيمان يطلقون لسان الشكوى،كما كان ذلك فى قصه الحديبيّه،حيث إنّ المنافقين و من على شاكلتهم أساءوا الظنّ، و قالوا أنّ محمّدا و أصحابه يمضون فى سفرهم هذا و لا يعودون بعده،فكأنّهم نسوا و عود اللّه أو أنّهم اتهموها.

۱- ۱) -نهج البلاغه.

و النموذج الآخر ما حدث فی ساحه یوم الأحزاب حین زلزل المسلمون زلزالا شدیدا و وقعوا تحت التأثیر و المحنه الصعبه فهناك ذمّ اللّه المسیئین الظنّ به فقال: إِذْ جٰاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زٰاغَتِ الْأَبْصٰارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنٰاجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللّٰهِ الظُّنُونَا، هُنٰالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزٰالاً شَدِيداً (۱) .

و قد عبّرت الآیه(۱۵۴)من سوره آل عمران عن مثل هذه الظنون ب«ظنّ الجاهلیه».

و علی كلّ حال،فطنّ حسن الظن باللّه و رحمته و وعده و كرمه و لطفه و عنایته من علائم الإیمان المهمّه و من الأسباب المؤثّره فی النجاه و السعاده!.

حتی أنّه

ورد فی بعض أحادیث الرّسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم قوله: «لیس من عبد یظنّ باللّه خیرا إلاّ كان عند ظنّه به» (۲) .

كما

ورد عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام أنّه قال: «أحسن باللّه الظن فإنّ اللّه عزّ و جلّ یقول أنا عند ظنّ عبدی المؤمن بی إن خیر فخیر و إن شر فشر» (۳) .

و أخیرا

فقد ورد حدیث آخر عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم یقول فیه: «إنّ حسن الظنّ باللّه عزّ و جلّ ثمن الجنّه» (۴) !.

فأی قیمه أیسر من هذا...و أیّ متاع أعظم قیمه منه!؟ ***

ص: ۴۳۷

۱- ۱) -الأحزاب،الآیتان ۱۰-۱۱.

۲- ۲) -بحار الأنوار،ج ۷۰،ص ۳۸۴.

۳- ۳) -بحار الأنوار ج ۷۰،ص ۳۸۵.

۴- ۴) -المصدر السابق.

الآيات [سوره الفتح (۴۸): الآيات ۸ الی ۱۰]

اشاره

إِنّا أَرْسَلْناکَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۸) لِتُؤْمِنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُکْرَةً وَ أَصِيلاً (۹) إِنَّ اَلَّذِينَ يُبايِعُونَکَ إِنَّما يُبايِعُونَ اَللّهَ يَدُ اَللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَکَثَ فَإِنَّما يَنْکُثُ عَلى نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اَللّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (۱۰)

التّفسير

اشاره

مکانه النّبی و واجب الناس تجاهه!

قلنا إنّ بعض الجهلاء اعترضوا بشدّه علی صلح الحديبيّه و حتی أنّ بعض تعبيراتهم لم تخل من عدم الاحترام بالنسبه إلی النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم و کان مجموع هذه الأمور يستوجب أن يؤکّد القرآن مرّه أخری علی عظمه النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم و جلاله قدره!.

لذلک فإنّ الآيه الأولی من الآيات أعلاه تخاطب النّبی فتقول: إِنّا أَرْسَلْناکَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً .

و هذه ثلاثه أوصاف بارزه هی من أهم ما يتمتّع به النّبی من صفات و مقام.کونه

«شاهدا»و«مبشّرا»،و«نذيرا».

«شاهدا»على جميع الأمّه الإسلاميه،بل هو شاهد على جميع الأمم كما نقرأ هذا التعبير فى الآيه(۴۱)من سوره النساء فَكَيْفَ إِذٰا جِئْنٰا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنٰا بِكَ عَلىٰ هٰؤُلاٰءِ شَهِيداً .

و نقرأ فى الآيه(۵)من سوره التوبه قوله تعالى: وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ .

و أساسا فإنّ لكلّ إنسان شهودا كثيرين!.

أولهم اللّه الذى هو عالم الغيب و الشهاده المطّلع على جميع أعماله و نيّاته!.

و من بعده الملائكه المأمورون بحفظ أعماله كما ورد التعبير فى الآيه(۲۱)من سوره(ق) وَ جٰاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهٰا سٰائِقٌ وَ شَهِيدٌ .

ثمّ أعضاء بدن الإنسان و حتى جلده شاهد عليه... يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (۱) .

و جاء فى الآيه ۲۱ من سوره فصلت فى هذا الصدد أيضا: وَ قٰالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنٰا قٰالُوا أَنْطَقَنَا اللّٰهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .

و«الأرض»أيضا،من زمره الشهود و كما جاء فى سوره الزلزله يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبٰارَهٰا .

و طبقا لبعض الروايات فإنّ«الزمان»أحد الشهود أيضا،إذ نقرأ

فى بعض أحاديث الإمام على عليه السّلام قوله: «ما من يوم يمرّ على بنى آدم إلاّ قال له ذلك اليوم أنا يوم جديد و أنا عليك شهيد فافعل فىّ خيرا و اعمل فىّ خيرا،اشهد لك يوم القيامه فإنّك لن ترانى بعد هذا أبدا» (۲) ، (۳) .

۱- ۱) -النور،الآيه ۲۴.

۲- ۲) -نور الثقلين،ج ۵،ص ۱۱۲.

۳- ۳) -مرّ البحث عن الشهود فى محكمه القيامه ذيل الآيات ۲۰-۲۲ من سوره فصلت.

و لا شک أنّ شهاده اللّه وحدها کافیه،لکنّ تعدّد الشهود فیه إتمام للحجّه أکثر و له أثر تربویّ-أقوی-فی الناس...

و علی کلّ حال فإنّ القرآن الکریم بیّن هذه الأوصاف الثلاثه و هی الشهاده و البشاره و الإنذار التی هی من الأوصاف الأساسیه للنبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لتکون مقدمه لما ورد فی الآیه التی بعدها.

و فی الآیه التالیه خمسه أوامر مهمّه-هی فی الحقیقه بمثابه الهدف من سمات النبی المذکوره آنفا:و تشکل أمرین فی طاعه اللّه و تسبیحه و تقدیره،و ثلاثه أوامر منها فی«طاعه»رسوله و«الدفاع عنه»و«تعظیم مقامه»،إذ تقول الآیه: لِتُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُکْرَهً وَ أَصِیلاً .

کلمه«تعزّروه»مشتقه من ماده تعزیر،و هو فی الأصل یعنی«المنع»ثمّ توسّعوا فیه فأطلق علی کلّ دفاع و نصره و إعانه للشخص فی مقابل أعدائه کما یطلق علی بعض العقوبات المانعه عن الذنب«التعزیر»أیضا.

و کلمه«توقّروه»مشتقه من ماده توقیر،و جذورها«الوقر»و معناها الثقل..

فیکون معنی التوقیر هنا التعظیم و التکریم.

و طبقا لهذا التّفسیر فإنّ الضمیرین فی«تعزّروه»و«توقّروه»یعودان علی شخص النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و الهدف من ذلک هو الدفاع عنه بوجه أعدائه و تعظیمه و احترامه«و قد اختار هذا التّفسیر الشیخ الطوسی فی«التبیان»و«الطبرسی»فی مجمع البیان و غیرهما أیضا».

غیر أنّ جماعه من المفسّرین (1) ذهبوا إلی أنّ جمیع الضمائر فی الآیه تعود علی اللّه،و المراد بالتعزیز و التوقیر هنا نصره دین اللّه و تعظیمه و تکریمه دینه و دلیلهم علی هذا التّفسیر انسجام جمیع الضمائر بعضها مع بعض.

۱- ۱) -منهم الزمخشری فی«الکشاف»و الآلوسی فی«روح المعانی»و«الفیض الکاشانی»فی تفسیر الصافی و«العلاّمه الطباطبائی فی المیزان».

غير أنّ التّفسير الأوّل يبدو أقرب،لأنّ«التعزير»أولا:معناه فى الأصل المنع و ذبّ الأعداء و الدفاع عن«الشخص»،و لا يصحّ ذلك فى شأن اللّه إلاّ على سبيل «المجاز»فحسب! و أهم من ذلك هو شأن نزول الآيه،إذ أنّها نزلت بعد صلح الحديبيه و كان بعضهم يسىء التعامل مع النّبى و لا يحترم مقامه الكريم،و قد نزلت الآيه لتنبه المسلمين على ما ينبغى عليهم من الوظائف بالنسبه إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

ثمّ لا ـ ينبغى أن ننسى أنّ الآـيه هى بمثابه النتيجه للآيه السابقه التى وصفت النّبى بأنّه«شاهد و مبشر و نذير»و هذا الأمر يهىء الأرضيه المناسبه للآيه التى بعدها.

و فى آخر آيه من الآيات محل البحث إشاره قصيره إلى مسأله«بيعه الرضوان» و قد جاء التفصيل عنها فى الآيه(١٨)من السوره ذاتها! و توضيح ذلك هو:كما قلناه آنفا إنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم رأى فى منامه كما تقول التواريخ أنّه دخل مع أصحابه مكّه،فتوجّه على أثر هذه الرؤيا مع ألف و أربعمائه صحابى إلى مكّه،إلاّ أنّ قريشا صمّمت على منعه و هو على مقربه من مكّه...فتوقف النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم مع أصحابه فى منطقه الحديبيّه...و تمّ تبادل المبعوثين بين قريش و النّبى حتى انتهى الأمر إلى معاهده صلح الحديبيّه! و فى عمليه تبادل السفراء و المبعوثين،أمر عثمان مرّه أن يبلغ أهل مكّه-من قبل النّبى-أنّه لا يريد الحرب و لا القتال و إنّما يريد العمره فحسب،إلاّ أنّ المشركين من أهل مكّه أوقفوا عثمان مؤقتا و كان هذا الأمر سببا أن يشيع بين المسلمين خبر قتل عثمان،و لو كان هذا الموضوع صحيحا لكان دليلا على إعلان قريش الحرب و منازله النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لذلك

فإنّ النّبى قال: «لا نبارح مكاننا «الحديبيّه»حتى نأخذ البيعه من قومنا»، فطلب تجديد البيعه...فاجتمع المسلمون و بايعوا النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم تحت شجره هناك على أن لا يتركوا النبى وراءهم ظهريّا و أن يقاتلوا مع النّبى أعداءه و يذبّوا عنه ما دام فيهم طاقه على ذلك.

فبلغ هذا الأمر سمع المشركين و دبّ الرعب فيهم،و هذا ما دعاهم إلى الصلح مع النبی.و من هنا سمّيت مبايعه المسلمين نبيّهم تحت الشجره بيعه الرضوان حيث وردت الإشاره إليها فی الآيه(۱۸)من السوره ذاتها: لَقَدْ رَضِیَ اللّٰهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبٰايِعُونَکَ تَحْتَ الشَّجَرَهِ .

و على كلّ حال فإنّ القرآن يتحدّث عن مبايعه المسلمين فی الآيه محلّ البحث فيقول: إِنَّ الَّذِينَ يُبٰايِعُونَکَ إِنَّمٰا يُبٰايِعُونَ اللّٰهَ يَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ! و«البيعه»معناها المعاهده على اتّباع الشخص و طاعته،و كان المرسوم أو الشائع بين الناس أنّ الذی يعاهد الآخر و يبايعه يمد يده إليه و يظهر وفاءه و معاهدته عن هذا الطريق لذلک الشخص أو لذلک«القائد»المبايع!.

و حيث أنّ الناس يمدّون أيديهم«بعضهم إلى بعض»عند البيع و ما شاكله من المعاملات و يعقدون المعامله بمد الأيدی و«المصافحه»فقد أطلقت كلمه«البيعه» على هذه العقود و العهود أيضا.و خاصه أنّهم عند«البيعه»كأنّما يقدّمون أرواحهم لدى العقد مع الشخص الذی يظهرون وفاءهم له.

و على هذا يتّضح معنى يَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ..إذ إنّ هذا التعبير كنايه عن أنّ بيعه النّبی هی بيعه اللّه،فكأنّ اللّه قد جعل يده على أيديهم فهم لا يبايعون النّبی فحسب بل يبايعون اللّه،و أمثال هذه الكنايه كثيره فی اللغه العربيه!.

و بناء على هذا التّفسير فإنّ من يرى بأنّ معنى هذه الجمله يَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ هو أنّ قدره اللّه فوق قدرتهم أو أنّ نصره اللّه أعظم من نصره الناس و أمثال ذلک لا يتناسب تأويله مع شأن نزول الآيه و مفادها و إن كان هذا الموضوع بحدّ ذاته صحيحا.

ثمّ يضيف القرآن الكريم قائلا: فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمٰا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفىٰ بِمٰا عٰاهَدَ عَلَيْهُ اللّٰهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (۱) .

ص :۴۴۲

۱- ۱) -ينبغی الالتفات إلى أنّ كلمه(عليه)فی الآيه الآنفه جاءت على خلاف ما نعهده،إذ ضمّ الضمير و هو الهاء هنا،و قد وجّه

کلمه«نکث»مشتقه من«نکث»و معناها الفتح و البسط ثمّ استعملت فی نقض العهد (۱) .

و القرآن فی هـذه الآـیه ینـذر جمیع المبـایعین للنبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم أنّ یثبتوا علی عهـدهم و بیعتهم فمن ثبت علی العهد فسیؤتیه اللّه أجرا عظیما و من نکث فإنّما یعود ضـرره علیه و لا ینال اللّه ضرره أبدا.. بل إنّه یهدّد وجود المجتمع و کرامته و عظمته و یعرّضه للخطر بنقضه البیعه!.

و

قـد ورد-فی کلاـم-عن أمیر المؤمنین علیه السّـلام قوله: «إنّ فی النّار لمـدینه یقال لها الحصـینه،أ فلا تسألونی ما فیها؟!فقیل له:ما فیها یا أمیر المؤمنین؟!قال:فیها أیدی الناکثین» (۲) .

و من هنا یتّضح بجلاء قبح نقض البیعه من وجهه نظر الإسـلام!!و فی هذا المجال هناک بحوث فی«البیعه فی الإسلام»و حتی«قبل الإسلام»و کیفیه البیعه و أحکامها ستأتی بأذن اللّه فی ذیل الآیه(۱۸)من هذه السوره ذاتها!.

***

(۱)

بعض المفسّـرین إلی أنّ هـذا أصـله«هو»و بعد حذف الواو یأتی مضـمونا أحیانا مثل له و عنه و یأتی مکسورا أحیانا لأنه یلی الیاء ککلمـه«علیـه اللّه»و حیث أنّ کلمه«علیه»هنـا تلاهـا لفـظ الجلاـله فقـد ضم الضـمیر فی«علیه»ینسـجم مـع تضـخیم اللاـم فی لفظ الجلاله«اللّه».

۱- ۱) -«النکث»بفتح النون مصدر و«النکث»بکسر النون اسم مصدر.

۲- ۲) -بحار الأنوار،الجزء ۶۷،الصفحه ۱۸۶.

الآیات [سوره الفتح (۴۸): الآیات ۱۱ الی ۱۴]

اشاره

سَيَقُولُ لَكَ اَلْمُخَلَّفُونَ مِنَ اَلْأَعْرٰابِ شَغَلَتْنٰا أَمْوٰالُنٰا وَ أَهْلُونٰا فَاسْتَغْفِرْ لَنٰا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مٰا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اَللّٰهِ شَيْئاً إِنْ أَرٰادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرٰادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كٰانَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۱۱) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ اَلرَّسُولُ وَ اَلْمُؤْمِنُونَ إِلىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَ زُيِّنَ ذٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ اَلسَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (۱۲) وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنّٰا أَعْتَدْنٰا لِلْكٰافِرِينَ سَعِيراً (۱۳) وَ لِلّٰهِ مُلْكُ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰاءُ وَ كٰانَ اَللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً (۱۴)

التّفسير

اشاره

اعتذار المخلفين:

ذكرنا-فى تفسير الآيات الآنفه-أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم توجّه من المدينه إلى مكّه مع ألف و أربعمائه من صحابته«للعمره»!.

ص: ۴۴۴

و قد أبلغ عن النّبى جميع من فى الباديه من القبائل أن يحضروا معه فى سفره هذا،إلاّ أنّ قسما من ضعيفى الإيمان لووا رؤوسهم عن هذا الأمر و أعرضوا عنه و كان تحليلهم هو أنّ المسلمين لا يستطيعون الحفاظ على أرواحهم فى هذا السفر فى حين أنّ كفار قريش كانوا فى حاله حرب مع المسلمين و قاتلوهم فى أحد و الأحزاب على مقربه من المدينه، فإذا توجّهت هذه الجماعه القليله العزلاء من كلّ سلاح نحو مكّه و عرّضت نفسها إلى العدو المدجّج بالسلاح.فكيف ستعود إلى بيوتها بعدئذ؟! إلاّ أنّهم حين رأوا المسلمين و قد عادوا إلى المدينه ملاء الأيدى وافرين قد حصلوا على امتيازات تستلفت النظر من صلح الحديبيّه دون أن تراق من أحدهم قطره دم،عرفوا حينئذ خطأهم الكبير و جاؤوا إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ليعتذروا إليه، و يبرّروا تخلّفهم عنه و يطلبوا منه أن يستغفر لهم! غير أنّ الآيات آنفه الذكر نزلت ففضحتهم و أماطت عنهم اللثام.

و على هذا،فالآيات هذه-تبيّن حاله المخلّفين ضعاف الإيمان بعد أن بيّنت الآيات السابقه حال المنافقين و المشركين لتتمّ حلقات البحث و يرتبط بعضها ببعض! تقول هذه الآيات: سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَ أَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ .

إنّهم لم يكونوا صادقين حتى فى توبتهم! فأبلغهم يا رسول و قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً ؟! فليس على اللّه بعزيز و لا عسير أن يحفكم بأنواع البلاء و المصائب و أنتم فى دار أمنكم و بين أهليكم و أبنائكم كما لا يعزّ عليه أن يجعلكم فى حصن حصين من بأس الأعداء و لو كنتم فى مركزهم!

ص: ۴۴۵

إنّما هو جهلكم الذی دعاكم إلی هذا التصور و الاعتقاد! أجل بَلْ كٰانَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ خَبِيراً .

و أقصی من هذا فهو خبیر بأسراركم و نیّاتكم و هو یعلم جیدا أنّ هذه الحیل و الحجج الواهیه لا صحه لها و لا واقعیّه..و الواقع هو أنّكم متردّدون ضعیفو الإیمان.و هذه الأعذار لا تخفی علی اللّه و لا تحول دون عقابكم أبدا! الطریف هنا أنّه یستفاد من لحن الآیات و من التواریخ أیضا أنّ هذه الآیات نزلت عند عوده النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی المدینه،أی أنّها قبل مجیء المخلّفین للاعتذار إلیه -أماطت اللثام عنهم و كشفت الستار و فضحتهم!.

و من أجل أن ینجلی الأمر و یتّضح الواقع أكثر یمیط القرآن جمیع الأستار فیقول: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ یَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلیٰ أَهْلِیهِمْ أَبَداً .

أجل،إنّ السبب فی عدم مشاركتكم النّبی و أصحابه فی هذا السفر التاریخی لم یكن هو كما زعمتم-انشغالكم بأموالكم و أهلیكم-بل العامل الأساس هو سوء ظنّكم باللّه، و كنتم تتصوّرون خطأ أنّ هذا السفر هو السفر الأخیر للنبی و أصحابه و ینبغی الاجتناب عنه! و ما ذلك إلاّ ما وسوست به أنفسكم وَ زُیِّنَ ذٰلِكَ فِی قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ .

لأنّكم تخیّلتم أنّ اللّه أرسل نبیّه فی هذا السفر و أودعه فی قبضه أعدائه و لن یخلصه و یحمیه عنهم! وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً -أی هالكین-فی نهایه الأمر!.

و أی هلاك أشدّ و أسوأ من عدم مشاركتهم فی هذا السفر التأریخی و بیعه الرضوان و حرمانهم من المفاخر الأخر...ثمّ الفضیحه الكبری...و بعد هذا كله ینتظرهم العذاب الشدید فی الآخره،أجل لقد كان لكم قلوب میته فابتلیتم بمثل هذه العاقبه!.

و حیث أنّ هؤلاء الناس-ضعاف الإیمان-أو المنافقین هم أناس جبناء

و تائقون الى الدعه و الراحه و يفرّون من الحرب و القتال فإنّ ما يحلّلونه إزاء الحوادث لا ينطبق على الواقع أبدا..و مع هذه الحال فإنّهم يتصوّرون أنّ تحليلهم صائب جدّا.

و بهذا الترتيب فإنّ الخوف و الجبن و طلب الدعه و الفرار من تحمل المسؤوليات يجعل سوء ظنّهم فى الأمور واقعيا،فهم يسيئون الظنّ فى كلّ شىء حتى بالنسبه الى اللّه و النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و نقرأ

فى نهج البلاغه من وصيه للإمام على عليه السّلام إلى مالك الأشتر قوله: «إنّ البخل و الجبن و الحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظنّ باللّه» (۱) .

حادثه«الحديبيّه»و الآيات محل البحث،كلّ ذلك هو الظهور العينى لهذا المعنى،و يدلّل كيف أنّ مصدر سوء الظنّ هو من الصفات القبيحه حاله حال البخل و الحرص و الجبن!.

و حيث أنّ هذه الأخطاء مصدرها عدم الإيمان فإنّ القرآن يصرّح فى الآيه التاليه قائلا: وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنّٰا أَعْتَدْنٰا لِلْكٰافِرِينَ سَعِيراً (۲) .

و«السعير»معناه اللهيب.

و فى آخر آيه من الآيات محل البحث يقول القرآن و من أجل أن يثبت قدره اللّه على معاقبه الكفار و المنافقين: وَ لِلّٰهِ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشٰاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشٰاءُ وَ كٰانَ اللّٰهُ غَفُوراً رَحِيماً .

و ممّا يسترعى النظر أنّ موضوع المغفره مقدّم هنا على العذاب،كما أنّ فى آخر الآيه تأكيدا على المغفره و الرحمه أيضا،و ذلك لأنّ الهدف من هذه التهديدات جميعا هو التربيه،و موضوع التربيه يوجب أن يكون طريق العوده مفتوحا بوجه

۱- ۱) -نهج البلاغه:من رساله له«برقم ۵۹».

۲- ۲) -أسلوب الجمله و نظمها كان ينبغى أن يكون:فقل:«إنّا اعتدنا لهم سعيرا»:إلاّ أنّ القرآن حذف الضمير خاصه و جعل مكانه الاسم الصريح«الكافرين»ليبيّن أنّ عله هذا المصير المشؤوم هو الكفر بعينه...

الآـثمين حتى الكفار.و خاصه أنّ أساس كثير من هـذه الأمور السـلبيه هو الجهل و عـدم الاطلاع -فينبغى أن يبعث فى مثل هؤلاء الأفراد الأمل على المغفره بمزيد من الرجاء،فلعلّهم يؤوبون نحو السبيل!.

***

ملاحظه

اشاره

تعليل الذنب و توجيهه مرض عام:

مهما كان الذنب كبيرا فإنّه ليس أكبر من تبريره و توجيهه،لأنّ المذنب المعترف بالذنب غالبا ما يؤوب للتوبه،لكنّ المصـيبه تبدأ حين يقوم المـذنب بتبرير ذنوبه، فلاـ ينغلق بـاب التوبه بوجه الإنسـان فحسب بل يتجرّأ على الـذنب و يشـتدّ على مقارفته! و هـذا التعليـل أو التـوجيه يقـع أحيانـا لحفـظ مـاء الـوجه و تحسـبا مـن الافتضـاح، و لكـنّ أسـوأ مـن هـذا كلّه حين ينخـدع به الضـمير و«الوجـدان»! و هذا التعليل ليس أمرا جديدا،و يمكن العثور على أمثال له على امتداد التاريخ البشـرى،و كيف وجّه أكبر مجرمى التاريخ جناياتهم لخداع أنفسهم بتوجيهات مضحكه تجعل كلّ إنسان غارقا فى ذهوله و تعجّبه منها!.

و القرآن المجيـد الـذى يسـعى لتربيه و صـناعه الإنسـان يعالـج مسائل من هـذا الباب كثيره منها ما قرأناه فى الآيات الآنفه-محلّ البحث- و لا بأس بأن نقف على آيات أخرى لإكمال البحث فى هذا الصدد.

١-كان العرب المشـركون يتذرّعون أحيانا بسيره السـلف لتوجيه شركهم و تبريره و كانوا يقولون: إِنّٰا وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا عَلىٰ أُمَّهٍ وَ إِنّٰا عَلىٰ آثٰارِهِمْ مُقْتَدُونَ ! (١) .

كما كانوا يتذرّعون أحيانا بنوع من الإجبار فكأنّهم مجبرون!و يقولون:

١- ١) -سوره الزخرف،٢٣.

لَوْ شٰاءَ اللّٰهُ مٰا أَشْرَكْنٰا وَ لاٰ آبٰاؤُنٰا

(۱)

.

۲-كما كان بعض ضعفاء الإيمان يأتون إلى النّبى أحيانا متذرّعين عن عدم مشاركتهم فى الحرب بأن بيوتهم عوره وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنٰا عَوْرَةٌ وَ مٰا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاّٰ فِرٰاراً (۲) .

۳-و ربّما تذرّعوا بعدم ذهابهم إلى الحرب لأنّ وجوه نساء الرومان النضره تسلب قلوبهم و تفتنهم!! وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَ لاٰ تَفْتِنِّي ! (۳) .

۴-و ربّما تذرّعوا بانشغالهم بأموالهم و أهليهم و نسائهم فيوجّهون ذنبهم الكبير فى الفرار عن طاعه أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم كما هى الحال فى الآيات الآنفه-محل البحث- ۵-و الشيطان أيضا وجّه عدم طاعته للّه بمقايسه خاطئه فقال: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نٰارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ! (۴) .

۶-و فى العصر الجاهلى و من أجل أن يوجّهوا ذنبهم الكبير و خطأهم فى وأد البنات كانوا يقولون نخشى أن تؤسر بناتنا فى الحرب و إن غيرتنا و ناموسنا يدعوننا إلى قتلهن و دسّهنّ فى التراب!و ربّما قالوا إنّما نقتل الأطفال خشيه الاملاق كما صرّحت به سوره الإسراء و غيرها فى القرآن.

كما أنّه يظهر من بعض الآيات أنّ المجرمين يتشبّثون بالكبراء و الاقتداء بهم فى توجيه ذنوبهم وَ قٰالُوا رَبَّنٰا إِنّٰا أَطَعْنٰا سٰادَتَنٰا وَ كُبَرٰاءَنٰا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ (۵) .

و الخلاصه إنّ بلاء توجيه الذنب بلاء واسع شمل طائفه عظيمه من الناس عامّهم و خاصهم،و خطره الكبير أنّه يغلق سبل الإصلاح فى وجوههم و ربّما غيّر حتى

۱- ۱) -الأنعام،الآيه ۱۴۸.

۲- ۲) -الأحزاب،الآيه ۱۳.

۳- ۳) -التوبه،الآيه ۴۹.

۴- ۴) -الأعراف،الآيه ۱۲.

۵- ۵) -سوره الأحزاب،۶۷.

الواقعیات و أعطاها وجها آخر عند المذنبین! فكثیر من یوجّه الخوف و الجبن بأنّه:احتیاط.

و الحرص بأنّه تأمین علی الحیاه فی«المستقبل».

و التهوّر بأنّه حسم و جرأه.

و ضعف النفس بالحیاء! و عدم الاكتراث بالزهد.

و ارتكاب الحرام بالحیله الشرعیه.

و الفرار من تحمّل المسؤولیه بعدم ثبوت الموضوع!! و التقصیر و التفریط بالقضاء و القدر.

و هكذا یغلق الإنسان بیده سبیل نجاته! و بالرغم من أنّ هذه المفاهیم كلاّ- منها له معنی صحیح فی محلّه و موقعه،و لكن الإشكال فی أنّها حرّفت و اتخذت نتیجه مقلوبه،و كم نال المجتمعات البشریه و الأسر و الأفراد من أضرار من هذا المنفذ!!...حفظنا اللّه جمیعا من هذا البلاء العظیم«آمین».

***

الآیات [سوره الفتح (۴۸): الآیات ۱۵ الی ۱۷]

اشاره

سَیَقُولُ اَلْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلیٰ مَغٰانِمَ لِتَأْخُذُوهٰا ذَرُونٰا نَتَّبِعْکُمْ یُرِیدُونَ أَنْ یُبَدِّلُوا کَلاٰمَ اَللّٰهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونٰا کَذٰلِکُمْ قٰالَ اَللّٰهُ مِنْ قَبْلُ فَسَیَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنٰا بَلْ کٰانُوا لاٰ یَفْقَهُونَ إِلاّٰ قَلِیلاً (۱۵) قُلْ لِلْمُخَلَّفِینَ مِنَ اَلْأَعْرٰابِ سَتُدْعَوْنَ إِلیٰ قَوْمٍ أُولِی بَأْسٍ شَدِیدٍ تُقٰاتِلُونَهُمْ أَوْ یُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِیعُوا یُؤْتِکُمُ اَللّٰهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا کَمٰا تَوَلَّیْتُمْ مِنْ قَبْلُ یُعَذِّبْکُمْ عَذٰاباً أَلِیماً (۱۶) لَیْسَ عَلَی اَلْأَعْمیٰ حَرَجٌ وَ لاٰ عَلَی اَلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لاٰ عَلَی اَلْمَرِیضِ حَرَجٌ وَ مَنْ یُطِعِ اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ یُدْخِلْهُ جَنّٰاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا اَلْأَنْهٰارُ وَ مَنْ یَتَوَلَّ یُعَذِّبْهُ عَذٰاباً أَلِیماً (۱۷)

التّفسیر

اشاره

المخلّفون الانتهازیّون:

یعتقد أغلب المفسّرین أنّ هذه الآیات ناظره إلی«فتح خیبر»الذی کان فی

ص :۴۵۱

بدايه السنه السابعه للهجره و بعد صلح الحديبيّه!و توضيح ذلك أنّه طبقا للرّوايات حين كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يعود من الحديبيّه بشّر المسلمين المشتركين بالحديبيّه-بأمر اللّه-بفتح خيبر،و صرّح أن يشترك فى هذه الحرب من كان فى الحديبيّه من المسلمين فحسب،و أنّ الغنائم لهم وحدهم و لن ينال المخلّفين منها شىء أبدا.

إلاّ أنّ عبيد الدنيا الجبناء لمّا فهموا من القرائن أنّ النّبى سينتصر فى المعركه المقبله قطعا-و أنّه ستقع غنائم كثيره فى أيدى جنود الإسلام-أفادوا من الفرصه فجاءوا الى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و طلبوا منه أن يأذن لهم بالاشتراك فى حرب خيبر،و ربّما توسّلوا بهذا العذر،و هو أنّهم يريدون التكفير عن خطئهم السابق و التوبه من الذنب و أن يتحمّلوا عبء المسؤوليه،و الخدمه الخالصه للإسلام و القرآن و يريدون الجهاد مع رسول اللّه فى هذا الميدان،و قد غفلوا عن نزول الآيات آنفا و أنّها كشفت حقيقتهم من قبل كما نقرأ ذلك فى الآيه الأولى من الآيات محل البحث- سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلىٰ مَغٰانِمَ لِتَأْخُذُوهٰا ذَرُونٰا نَتَّبِعْكُمْ... .

و لا نجد ذلك فى هذا المورد فحسب،بل فى موارد كثيره نجد هؤلاء الطامعين يركضون وراء اللقمه الدسمه التى لا تقترن بألم.و يهربون من المواطن الخطيره و ساحات القتال كما نقرأ ذلك فى الآيه(۴۲)من سوره التوبه: لَوْ كٰانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قٰاصِداً لاَتَّبَعُوكَ وَ لٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَوِ اسْتَطَعْنٰا لَخَرَجْنٰا مَعَكُمْ .

و على كلّ حال فإنّ القرآن الكريم يقول ردا على كلام هؤلاء الانتهازيين و طالبى الفرص يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاٰمَ اللّٰهِ ثمّ يضيف قائلا للنبى: قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونٰا .

و ليس هذا هو كلامى بل كَذٰلِكُمْ قٰالَ اللّٰهُ مِنْ قَبْلُ و أخبرنا عن مستقبلكم أيضا.

إنّ أمر اللّه أن تكون غنائم خيبر خاصّه بأهل الحديبيّه و لن يشاركهم فى ذلك

أحد.لكنّ هؤلاء المخلّفين الصلفين استمروا فی تبجّحهم و اتهموا النّبی و من معه بالحسد كما صرّح القرآن بذلك: فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا .

و هكذا فإنّهم بهذا القول يكذّبون حتی النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم و يعدّون أساس منعهم من الاشتراك فی معركه خيبر الحسد فحسب.

و فی ذيل الآيه يصرّح القرآن عن حالهم فيقول: بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاّ قَلِيلاً .

أجل إنّ أساس جميع شقائهم و سوء حظهم هو جهلهم و عدم فقاهتهم،فالجهل ملازم لهم أبدا،جهلهم باللّه سبحانه و عدم معرفه مقام النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم و جهلهم عن مصير الإنسان و عدم توجّههم إلی أنّ الثروه فی الدنيا لا قرار فيها،فهی زائله لا محاله!.

صحيح أنّهم أذكياء فی المسائل الماديه و المنافع الشخصيه،و لكن أی جهل أعظم من أن يبيع الإنسان جميع كيانه و كلّ شیء منه بالثروه! و أخيرا و طبقا لما نقلته التواريخ فإنّ النّبی الأكرم وزّع غنائم خيبر علی أهل الحديبيّه فحسب،حتی الذين لم يشتركوا فی خيبر و كانوا فی الحديبيّه جعل لهم النّبی سهما من غنائم خيبر،و بالطبع لم يكن لهذا المورد أكثر من مصداق واحد و هو«جابر بن عبد اللّه الأنصاری» (1) .

و استكمالا لهذا البحث فإنّ الآيه التاليه تقترح علی المخلّفين عن الحديبيّه اقتراحا و تفتح عليهم باب العوده فتقول: قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلی قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللّهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً .

فمتی ما ندمتم عن أعمالكم و سيرتكم السابقه و رفعتم اليد عن عباده الدنيا و طلب الراحه،فينبغی أن تؤدّوا امتحان صدقكم فی الميادين الصعبه و أن تسهموا فيها مرّه أخری،و إلاّ فإنّ اجتناب الميادين الصعبه،و المساهمه فی الغنائم

1- 1) -سيره ابن هشام،الجزء 3،الصفحه 364.

و ميادين الراحه غير مقبول بأی وجه و دليل على نفاقكم أو ضعف إيمانكم و جبنكم.

الطريف هنا أنّ القرآن كرر التعبير بالمخلّفين فی آياته،و بدلا من الاستفاده من الضمير فقد عوّل على الاسم الظاهر.

و هذا التعبير خاصه جاء بصيغه اسم المفعول«المخلّفين»أی المتروكين وراء الظهر،و هو إشاره إلى أنّ المسلمين المؤمنين حين كانوا يشاهدون ضعف هؤلاء و تذرعهم بالحيل كانوا يخلّفونهم وراء ظهورهم و لا يعتنون أو يكترثون بكلامهم! و يسرعون إلى ميادين الجهاد!.

و لكنّ من هم هؤلاء القوم المعبّر عنهم ب«أولی بأس شديد»فی الآيه و أی جماعه هم؟!هناك كلام بين المفسّرين...

و جمله تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ تدلّ على أنّهم ليسوا من أهل الكتاب،لأنّ أهل الكتاب لا يجبرون على قبول الإسلام،بل يخيّرون بين قبوله أو دفع الجزيه و الحياه مع المسلمين على شروط أهل الذمّه.

و إنّما الذين لا يقبل منهم إلاّ الإسلام هم المشركون و عبده الأصنام فحسب، لأنّ الإسلام لا يعترف بعباده الأصنام دينا و يرى انّه لا بدّ من إجبار الناس على ترك عبادتها.

و مع الالتفات إلى أنّه لم تقع معركه مهمّه فی عصر النّبی بعد حادثه الحديبيّه مع المشركين سوى فتح مكّه و غزوه حنين،فيمكن أن تكون الآيه المتقدّمه إشاره إلى ذلك و خاصّه غزوه حنين لأنّها اشترك فيها أولو بأس شديد من«هوازن»و«بنی سعد».

و ما يراه بعض المفسّرين من احتمال أنّ الآيه تشير إلى غزوه(مؤته)التی حدثت مع أهل الروم فهذا بعيد،لأنّ أهل الروم كانوا كتابيين.

و احتمال أنّ المراد منها الغزوات التی حدثت بعد النّبی و من جملتها غزوه

فارس و اليمامه،فهذا أبعد بكثير،لأنّ لحن الآيات مشعر بأنّ الحرب ستقع فى زمان النبىّ و لا يلزمنا أبدا أن نطبّق ذلك على الحروب التى حدثت بعده،و يظهر أنّ للدوافع السياسيه أثرا فى بعض الأفكار المفسّرين فى هذه القضيه!.

و هنا ملاحظه جديره بالتأمّل و هى أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لا يعدهم بالقول أنّهم سيغنمون فى الحروب و المعارك المقبله،لأنّ الهدف من الجهاد ليس كسب الغنائم بل المعوّل عليه هو ثواب اللّه العظيم و هو عاده إنّما يكون فى الدار الآخره! و هنا ينقدح هذا السؤال،و هو أنّ الآيه(۸۳:من سوره التوبه تردّ ردّا قاطعا على هؤلاء المخلّفين فتقول: فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّهٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ .

فى حين أنّ الآيه محل البحث تدعوهم إلى الجهاد و القتال فى ميدان صعب سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ .فما وجه ذلك؟ و لكن مع الالتفات إلى الآيه(۸۳)فى سوره التوبه تتعلق بالمخلّفين فى معركه تبوك الذين قطع النّبى الأمل منهم،أمّا الآيه محل البحث فتتحدّث عن المخلّفين عن الحديبيّه،و ما يزال النّبى يأمل فيهم المشاركه،فيتّضح الجواب على هذا الاشكال!.

و حيث أنّ من بين المخلّفين ذوى أعذار لنقص عضوى فى أبدانهم أو لمرض و ما الى ذلك فلم يقدروا على الاشتراك فى الجهاد،و لا ينبغى أن نجحد حقهم، فإنّ الآيه الأخيره من الآيات محلّ البحث تبيّن أعذارهم و خاصّه أنّ بعض المفسّرين قالوا إنّ جماعه من المعوّقين جاؤوا إلى النّبى بعد نزول الآيه و تهديدها للمخلّفين بقولها يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً ،فقالوا:يا رسول اللّه ما هى مسئوليتنا فى هذا الموقع؟ فنزل قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ .

و ليس الجهاد وحده مشروطا بالقدره،فجميع التكاليف الإلهيّه هى سلسله من

الشرائط العامه و من ضمنها الطاقه و القدره،و كثيرا ما أشارت الآيات القرآنيه إلى هذا المعنى و فى الآيه(۲۸۶)من سوره البقره نقرأ تعبيرا كليا عن هذا الأصل و هو:

لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَها .

و هذا الشرط ثابت بالأدله النقليه و العقليّه!.

و بالطبع فإن هذه الجماعه و إن كانت معذوره من الاشتراك فى ميادين الجهاد، إلاّ أنّ عليها أن تساهم بمقدار ما تستطيع لتقويه قوى الإسلام و تقدّم الأهداف الإلهيه كما نقرأ ذلك فى الآيه(۹۱)من سوره التوبه: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَى الْمَرْضى وَ لا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلّهِ وَ رَسُولِهِ .

أى أنّهم إذا لم يستطيعوا أن يؤدّوا عملا بأيديهم،فلا ينبغى أن يألوا جهدا فيما يقدرون عليه و لا يعتذروا بألسنتهم عنه،و هذا التعبير الطريف يدلّ على أنّه لا ينبغى الإغماض عن القدرات أبدا،و بتعبير آخر أنّهم إذا لم يستطيعوا أن يشاركوا فى الجبهه فعلى الأقل عليهم أن يحكموا المواضع الخلفيه للجبهه! و لعلّ الجمله الأخيره فى الآيه محل البحث تشير أيضا إلى هذا المعنى فتقول:

وَ مَنْ يُطِعِ اللّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً

.

و هذا الاحتمال وارد أيضا،و هو أنّ بعض الأفراد فى المواقع الاستثنائيه يعتذرون عن المساهمه[و يسيئون فهم النص]

فالقرآن هنا يحذّرهم أنّهم إذا لم يكونوا معذورين واقعا فإنّ اللّه أعدّ لهم عذابا أليما.

و من نافله القول أنّ كون المريض و الأعمى و الأعرج معذورين خاص بالجهاد،أمّا فى الدفاع عن حمى الإسلام و البلد الإسلامى و النفس فيجب أن يدافع كلّ بما وسعه،و لا استثناء فى هذا المجال! ***

الآيتان [سوره الفتح (۴۸): الآيات ۱۸ الى ۱۹]

اشاره

لَقَدْ رَضِىَ اَللّٰهُ عَنِ اَلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبٰايِعُونَكَ تَحْتَ اَلشَّجَرَهِ فَعَلِمَ مٰا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ اَلسَّكِينَهَ عَلَيْهِمْ وَ أَثٰابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (۱۸) وَ مَغٰانِمَ كَثِيرَهً يَأْخُذُونَهٰا وَ كٰانَ اَللّٰهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۱۹)

التّفسير

اشاره

رضى اللّه عن المشتركين فى بيعه الرضوان:

ذكرنا آنفا أنّه فى الحديبيّه جرى حوار بين ممثلى قريش و النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و كان من ضمن السفراء «عثمان بن عفان» الذى تشدّه أواصر القربى بأبى سفيان،و لعلّ هذه العلاقه كان لها أثر فى انتخابه ممثلا عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فبعثه إلى أشراف مكّه و مشركى قريش ليطلعهم على أنّ النّبى لم يكن يقصد الحرب و القتال بل هدفه زياره بيت اللّه و احترام الكعبه المشرّفه بمعيه أصحابه...إلاّ أنّ قريشا أوقفت عثمان مؤقتا و شاع على أثر ذلك بين المسلمين أنّ عثمان قد قتل!

فقال النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: لا أبرح مكانى هذا حتى أقاتل عدوّى! ثمّ جاء إلى شجره هناك فطلب من المسلمين تجديد البيعه تحتها، و طلب منهم

ص: ۴۵۷

أن لا يقصّروا فی قتالهم المشركين و أن لا يولّوا أدبارهم من ساحات القتال (۱) .

فبلغ صدی هذه البيعه مكّه و اضطربت قريش من ذلک بشدّه و أطلقوا عثمان.

و كما نعرف فإنّ هذه البيعه عرفت ببيعه الرضوان و قد أفزعت المشركين و كانت منعطفا فی تاريخ الإسلام.

فالآيتان محل البحث تتحدّثان عن هذه القصه فتقول الأولی: لَقَدْ رَضِيَ اللّٰهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبٰايِعُونَکَ تَحْتَ الشَّجَرَهِ .

و الهدف من هذه البيعه الانسجام أكثر فأكثر بين القوی و تقويه المعنويات و تجديد التعبئه العسكريه و معرفه الأفكار و اختبار ميزان التضحيه من قبل المخلصين الأوفياء! و هذه البيعه أعطت روحا جديدا فی المسلمين لأنّهم أعطوا أيديهم إلی النبی و أظهروا وفاءهم من أعماق قلوبهم.

فأعطی اللّه هؤلاء المؤمنين المضحّين و المؤثرين علی أنفسهم نفس رسول اللّه فی هذه اللحظه الحسّاسه و الذين بايعوه تحت الشجره أعطاهم أربعه أجور،و من أهمّ تلک الأجور و الاثابات الأجر العظيم و هو«رضوانه»كما عبّرت عنه الآيه (۷۲)من سوره التوبه وَ رِضْوٰانٌ مِنَ اللّٰهِ أَكْبَرُ ...أيضا.

ثمّ تضيف الآيه قائله: فَعَلِمَ مٰا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَهَ عَلَيْهِمْ .

سكينه و اطمئنانا لا حدّ لهما،و هم بين سيل الأعداء فی نقطه بعيده عن الأهل و الديار و العدو مدجّج بالسلاح،فی حين أن المسلمين عزّل من السلاح«لأنّهم جاؤوا بقصد العمره لا من أجل المعركه»فوقفوا كالجبل الأشم لم يجد الخوف طريقا إلی قلوبهم!.

و هذا هو الأجر الثّانی و الموهبه الإلهيه الأخری،و أساسا فإنّ الألطاف الخاصه و الإمدادات الإلهيه تشمل حال المخلصين و الصادقين.

۱- ۱) -مجمع البيان ذيل الآيات محل البحث.

لذلک فإنّنا نقرأ حدیثا

عن الإمام الصادق علیه السّلام یقول فیه!: «إنّ العبد المؤمن الفقیر لیقول یا ربّ ارزقنی حتی افعل کذا و کذا من البرّ و وجوه الخیر فإذا علم اللّه عزّ و جلّ ذلک منه بصدق نیّته کتب اللّه له من الأجر مثل ما یکتب له لو عمله إنّ اللّه واسع کریم» (۱) .

و فی ذیل هذه الآیه إشاره إلی الأجر الثّالث إذ تقول الآیه: وَ أَثٰابَهُمْ فَتْحاً قَرِیباً .

أجل،هذا الفتح و هو فتح خیبر کما یقول أغلب المفسّرین[و إن کان یری بعضهم أنّه فتح مکّه]

هو ثالث أجر و ثواب للمؤمنین المؤثرین،المضحّین.

و التعبیر ب«قریبا»تأیید علی أنّ المراد منه«فتح خیبر»،لأنّ هذا الفتح حدث و تحقّق بعد بضعه أشهر من قضیّه الحدیبیّه و فی بدایه السنه السابعه للهجره! و الأجر الرابع أو النعمه الرابعه التی کانت علی أثر بیعه الرضوان من نصیب المسلمین کما تقول الآیه التالیه هی: وَ مَغٰانِمَ کَثِیرَةً یَأْخُذُونَهٰا .

و واحده من هذه الغنائم الکثیره هی«غنائم خیبر»التی وقعت فی أیدی المسلمین بعد فتره قصیره من قضیه الحدیبیّه،و مع الالتفات إلی ثروه الیهود الکثیره جدّا تعرف أهمیه هذه الغنائم.

إلاّ أنّ تحدید هذه الغنائم بغنائم خیبر لا دلیل قطعی علیه،و یمکن عدّ الغنائم الأخری التی وقعت فی أیدی المسلمین خلال الحروب الإسلامیه بعد فتح (الحدیبیّه)فی هذه الغنائم الکثیره! و حیث أنّ علی المسلمین أن یطمئنوا بهذا الوعد الإلهی اطمئنانا کاملا فإنّ الآیه تضیف فی الختام: وَ کٰانَ اللّٰهُ عَزِیزاً حَکِیماً .

فإذا ما أمرکم فی الحدیبیّه أن تصالحوا فإنّما هو علی أساس من حکمته،حکمه کشف عن إسرارها الأستار مضی الزمن،و إذا ما وعدکم بالفتح القریب و الغنائم

۱- ۱) -بحار الأنوار،ج ۷۰،ص ۱۹۹.

الکثیره فهو قادر علی أن یلبس وعده ثیاب الإنجاز و التحقّق! و هکذا فإنّ المسلمین المضحّین الأوفیاء أولی الإیمان و الإیثار اکتسبوا فی ظل بیعه الرضوان فی تلک اللحظات الحسّاسه انتصارا فی الدنیا و الآخره،فی حین أنّ المنافقین الجهله و ضعاف الإیمان احترقوا بنار الحسرات! و نختم حدیثنا بکلام لأمیر المؤمنین علیه السّلام حیث یتحدّث عن بساله المسلمین الأوائل و ثباتهم و جهادهم الذی لا نظیر له و یخاطب ضعاف الإیمان موبّخا إیّاهم علی خذلانهم

فیقول: «فلمّا رأی اللّه صدقنا أنزل بعدوّنا الکبت و أنزل علینا النصر حتی استقر الإسلام ملقیا جرانه و متبوّئا أوطانه و لعمری لو کنّا نأتی ما أتیتم.ما قام للدین عمود.و لا اخضرّ للإیمان عود و أیم اللّه لتحتلبنّها دما و لتتبعنّها ندما!» (۱) .

***

بحث

اشاره

البیعه و خصوصیّاتها!

«البیعه»من ماده«بیع»و هی فی الأصل إعطاء الید عند إقرار المعامله.ثمّ أطلق هذا التعبیر علی مدّ الید علی المعاهده،و هکذا کانت حین کان الشخص یرید أن یعلم الآخر بوفائه له و أن یطیع أمره و یعرفه رسمیّا فیبایعه و یمدّ له یده،و لعلّ إطلاق هذه الکلمه من جهه أنّ کلاّ من الطرفین یتعهّد کما یتعهّد ذوا المعامله فیما بینهما،و کان المبایع مستعدا أحیانا أن یضحّی بروحه أو بماله أو بولده فی سبیل الطاعه!و الذی یقبل البیعه یتعهّد علی رعایته و حمایته و الدفاع عنه!...

یقول«ابن خلدون»فی مقدمه تأریخه فی هذا الصدد«کانوا إذا بایع الأمیر جعل أیدیهم فی یده تأکیدا فأشبه ذلک فعل البائع و المشتری» (۲) .

۱- ۱) -نهج البلاغه:الخطبه رقم ۵۶.

۲- ۲) -مقدمه ابن خلدون،صفحه ۱۷۴.

و تـدل القرائن على أنّ البيعه ليست من إبـداعات المسـلمين،بل هى سـنّه متّبعه بين العرب قبل الإسـلام،و لهذا السـبب فإنّ طائفه من«الأوس و الخزرج»جاءوا فى بـدايه الإسـلام خلال موسم الحج من المدينه لى مكّه و بايعوا النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم فى العقبه، و كان تعاملهم فى قضـيه البيعه يوحى بأنّها أمر معروف،و بعدها و خلال فرص و مناسبات متعدّده جدّد النّبى البيعه مع المسـلمين،و كـانت إحـداها هـذه البيعه التى عرفت ببيعه الرضوان فى الحـديبيّه،و أوسع منهـا البيعه التى كانت عنـد فتـح مكّه، و سيأتى بيانها و شرحها فى تفسير«سوره الممتحنه»بإذن اللّه! و لكن كيف تتم البيعه؟!..بصوره عامّه تتمّ البيعه كما يلى:

يمدّ المبايع يده إلى يد المبايع و يبدى الطاعه و الوفاء بلسان الحال أو المقال!..

و ربّما ذكر شـروطا أو حدودا لبيعته كأن يعقد البيعه على بذل ماله!أو بذل روحه أو بذل جميع الأشـياء حتى الولد و المرأه! و قد تقع البيعه أحيانـا على أن لاـ يفرّ المبـايع أبـدا أو أن يبقى على عهـده و بيعته حتى الموت«و كـان هـذان المعنيـان جميعا فى بيعه الرضوان كما صرّحت بذلك التواريخ».

و كـان النّبى الكريم يقبـل بيعه النسـاء أيضـا لكن لاـ على أن يمـددن أيـديهنّ إلى يـده الكريمه بـل كـان يأمر بإناء كبير فيه ماء فيدخل يده فى طرف منه و تدخل يدها فى طرف آخر.

و كـان يشترط فى البيعه أحيانـا على عمـل معيّن أو ترك عمـل معيّن كمـا اشترط النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم على النسـاء المبايعات له بعد مكّه على أَلاّ يُشْـرِكْنَ بِاللّهِ شَـيْئاً وَ لا يَسْرِقْنَ وَ لا يَزْنِينَ وَ لا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَ لا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ... (۱) .

و على كلّ حال فإنّ فى أحكام البيعه بحوثا مختلفه نشير إليها هنا على نحو

۱- ۱) -الممتحنه،الآيه ۱۲.

الإیجاز و الاختصار و إن کانت مسائل هذا البحث محاطه بهاله من الإبهام فی الفقه الإسلامی:

۱-«ماهیه البیعه»نوع من العقد و المعاهده بین المبایع من جهه و المبایع من جهه أخری،و محتواها الطاعه و الإتّباع و الدفاع عن المبایع،و لها درجات طبقا للشروط الذی یذکرونها فیها:و یستفاد من لحن الآیات القرآنیه و الأحادیث النبویه أنّ البیعه نوع من العقد اللازم من جهه المبایع،و یجب العمل طبقا لما بایع علیه،و یکون مشمولا بالقانون الکلّی«أوفوا بالعقود»فعلی هذا لا یحقّ للمبایع الفسخ،و لکن المبایع له أن یفسخ البیعه إن وجد فی الأمر صلاحا و فی هذه الصور یتحرر للمبایع من بیعته (۱) .

۲-و یری البعض أنّ البیعه شبیهه بالانتخابات أو نوعا منها،فی حین أنّ الانتخابات علی العکس منها تماما،أی أنّ ماهیتها نوع من إیجاد المسؤولیه الوظیفه و المقام للمنتخب،أو بتعبیر آخر هی نوع من التوکیل فی عمل ما بالرغم من أنّ الانتخاب یقتضی وظائف علی المنتخب أیضا«کسائر الوکالات»فی حین أنّ البیعه لیست کذلک! و بتعبیر آخر إنّ الانتخابات تعنی إعطاء«المقام»و کما قلنا هی شبیهه بالتوکیل فی حین أنّ البیعه تعهد بالطاعه! و من الممکن أن یتشابه کلّ من البیعه و الانتخاب فی بعض الآثار،لکن هذا التشابه لا یعنی وحده المفهوم و الماهیه أبدا..

و لذلک لا یمکن للمبایع أن یفسخ البیعه،فی حین أنّ المنتخبین لهم الحق فی الفسخ فی کثیر من المواطن بحیث یستطیع جماعه ما أن یعزلوا المنتخب

ص :۴۶۲

۱- ۱) -نقرأ فی حادثه کربلاء أنّ الإمام الحسین علیه السّلام خطب أصحابه لیله العاشر من المحرم و أحلّ بیعته من أصحابه بعد أن أظهر تقدیره لهم و شکرهم علی مواساتهم إیّاه لینطلقوا حیث یشاءون فقال:«انطلقوا فی حلّ منّی لیس علیکم منّی ذمام»لکنّهم لم یترکوا الحسین علیه السّلام و بقوا علی وفائهم [الکامل:لابن الأثیر،ج ۴،ص ۵۷] .

«فلاحظوا بدقه»! ٣-و بالنسبه للنبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمّه المعصومین المنصوبین من قبل اللّه تعالی لا حاجه لهم بالبیعه،أی أنّ طاعه النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و الإمام المعصوم و المنصوب من قبل اللّه واجبه سواء علی من بایع أو لم یبایع! و بتعبیر آخر:إنّ لازم مقام النبوّه و الإمامه وجوب الطاعه کما یقول القرآن الکریم: أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ (۱) .

لکن ینقدح هنا هذا السؤال و هو إذا کان الأمر کذلک فعلام أخذ النّبی من أصحابه-البیعه کرارا-أو المسلمین الجدد،و قد ورد فی القرآن الإشاره إلی حالتین منها بصراحه إحداهما«بیعه الرضوان»-محل البحث-و الأخری«البیعه مع أهل مکّه»المشار إلیها فی سوره الممتحنه!.

و فی الإجابه علی هذا السؤال نقول:لا شک أنّ هذه المبایعات کانت نوعا من التأکید علی الوفاء،و قد أدیّت فی ظروف خاصه و لا سیما فی مواجهه الأزمات و الحوادث الصعبه لتنبض فی ظلّها روح جدیده فی الأفراد کما وجدنا تأثیرها المذهل فی بیعه الرضوان فی البحث السابق!.

إلاّ أنّه فیما یتعلّق بمبایعه الخلفاء فقد کانت البیعه علی أساس أنّها قبول لمقام الخلافه و إن کنّا لا نعتقد بخلافه من یخلف النّبی و التی تؤخذ البیعه لها عن طریق الناس،بل هی من قبل اللّه و تتحقّق بالنص من قبل النّبی أو الإمام السابق علی اللاحق! و من هذا المنطلق فإنّ البیعه التی بایعها المسلمین لعلی علیه السّلام أو للحسن أو الحسین علیهما السّلام فیها(جنبه)تأکید علی الوفاء و هی شبیهه ببیعه النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

۴-هل البیعه فی العصر الحاضر مقبوله علی أنها أصل إسلامی،أو بتعبیر آخر:

هل یمکن تعمیم البیعه،و هل للجماعه الفلانیه أن تختار شخصا لائقا و واجدا

۱- ۱) -النساء،الآیه ۵۹.

للشرائط الشرعيه كأن يكون آمرا للقوات المسلّحه أو رئيسا للجمعيه أو رئيسا للحكومه فتبايعه؟فهل أنّ مثل هذه البيعه مشمول بأحكام الشارع للبيعه؟! و حيث أنّه لا يوجد عموم و لا إطلاق فى القرآن و السنّه فى خصوص البيعه فمن المشكل تعميم هذه المسأله و إن كان الاستدلال بعموم الآيه أَوْفُوا بِالْعُقُودِ غير بعيد! و لكن مع هذا الإبهام فى المسائل المرتبطه بالبيعه فإنّ هناك مانعا من أن نعوّل بصوره قطعيه على أَوْفُوا بِالْعُقُودِ و خاصه أنّنا لا نجد فى الفقه أى مورد للبيعه لغير النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و الإمام المعصوم.

و ينبغى الالتفات إلى هذه«اللطيفه»و هى أن مقام نيابه الولىّ الفقيه فى نظرنا مقام منصوص عليه من قبل الأئمه المعصومين عليهم السّلام و لا حاجه له بالبيعه و بالطبع فإنّ اتباع الناس للولى الفقيه و طاعتهم له يمنحه الإمكان من الاستفاده من هذا المقام و يعطيه-كما هو مصطلح عليه-بسط اليد،لكنّ هذا لا يعنى أنّ مقامه مشروط بتبعيّه الناس له،ثمّ إنّ اتباع الناس إيّاه لا علاقه له بالبيعه،بل هو عمل بحكم اللّه فى شأن ولايه الفقيه«فلاحظوا بدقّه».

۵-و على كلّ حال فإنّ البيعه مرتبطه بالمسائل الإجرائيه و لا علاقه لها بالأحكام،أى إنّ البيعه لا تمنح أحدا حق«التشريع و التقنين»أبدا...بل يجب أن تؤخذ القوانين من الكتاب و السنّه ثمّ تنفذ فى حيّز الواقع،و لا كلام لأحد فى هذا.

۶-يستفاد من الرّوايات أنّ البيعه مع الإمام المعصوم ينبغى أن تكون خالصه للّه،و بتعبير آخر هى من الأمور التى يلزم فيها قصد القربه.

فقد ورد عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «ثلاثه لا يكلمهم اللّه عزّ و جلّ يوم القيامه و لا ينظر إليهم و لا يزكّيهم و لهم عذاب أليم،رجل بايع إماما لا يبايعه إلاّ للدنيا،إن أعطاه ما يريده و فى له و إلاّ كفّ و رجلا بايع رجلا بسلعته بعد العصر فحلف باللّه عزّ و جلّ لقد أعطى بها كذا و كذا فصدّقه و أخذها و لم يعط فيها ما قال

و رجل على فضل ماء بالفلاه يمنعه ابن السبيل» (۱) . «و التعبير بالعصر لعلّه لشرف هذا الوقت أو لأنّ كثيرا من الباعه يبيعون أجناسهم بالقيمه التى اشتروها فى هذا الوقت».

۷-«نكث البيعه»من الذنوب الكبيره،و نقرأ

حديثا عن الإمام موسى بن جعفر أنّه قال: «ثلاث موبقات،نكث الصفقه،و ترك السنّه،و فراق الجماعه» (۲) .

و يظهر أنّ المراد من«ترك السنّه»هى ترك القوانين التى جاء بها النّبى محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم و فراق الجماعه معناها الإعراض عنها لا محض عدم المشاركه فى الجماعه.

۸-البيعه فى كلام الإمام على عليه السّلام هناك فى نهج البلاغه كلمات تؤكّد على البيعه و قد عوّل الإمام على عليه السّلام عليها مرارا و أنّ الناس بايعوه.

و من جملتها

أنّه قال فى بعض خطبه: «أيّها الناس إنّ لى عليكم حقّا و لكم علىّ حق فأمّا حقكم علىّ فالنصيحه لكم و توفير فيئكم عليكم و تعليمكم كيلا تجهلوا و تأديبكم كيما تعملوا» ثمّ يضيف عليه السّلام: «و أمّا حقى عليكم فالوفاء بالبيعه و النصيحه بالمشهد و المغيب و الإجابه حين أدعوكم و الطاعه حين أمركم» (۳) .

و

يقول عليه السّلام-فى مكان آخر: «لم تكن بيعتكم إيّاى فلته» (۴) .

و فى خطبته التى خطبها قبل حرب الجمل و التحرّك من المدينه نحو البصره أشار الى بيعه الناس إيّاه و أن يثبتوا على ما بايعوه

فقال عليه السّلام: «و بايعنى الناس غير

۱- ۱) -الخصال:باب الثلاثه-الحديث ۷۰.

۲- ۲) -بحار الأنوار،ج ۶۷،ص ۱۸۵.

۳- ۳) -نهج البلاغه الخطبه ۳۴.

۴- ۴) -نهج البلاغه الخطبه ۱۳۶.

مستکرهین و لا مجبرین بل طائعین مخیّرین» (۱) .

و نقرأ أخیرا فی بعض کتبه لمعاویه حین لم یبایع الإمام علیّا و کان یرید الانتقاد من

علی علیه السّلام قوله: «بایعنی القوم الذین بایعوا أبا بکر و عمر و عثمان علی ما بایعوهم علیه فلم یکن للشاهد أن یختار و لا للغائب أن یرد» (۲) .

و یستفاد من بعض عبارات النهج أنّ البیعه لیست أکثر من مره واحده و لا سبیل لتجدید النظر فیها و لیس فیها اختیار الفسخ،و من یخرج منها فهو طاعن،و من یتریث و یفکر فی قبولها أو ردّها فهو منافق.

[إنّها بیعه واحده لا یثّنی فیها النظر و لا یستأنف فیها الخیار؛الخارج منها طاعن و المروّی فیها مداهن]

. (۳)

و یستفاد من مجموع هذه التعابیر أنّ الإمام علیه السّلام استدلّ علی من لم یقبلوا بأنّ إمامته منصوص علیها من قبل النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم-و کانوا یتذرّعون بحجج واهیه- بالبیعه التی کانت عندهم من المسلم بها،و لم تکن لهم الجرأه علی أن یرفضوا طاعه الإمام و یسمعوا لمعاویه و أمثال معاویه،فکما أنّهم یرون مشروعیه الخلافه للخلفاء الثلاثه السابقین،فعلیهم أن یعتقدوا بأنّ خلافه الإمام مشروعه أیضا و أن یذعنوا له«بل إنّ خلافته أکثر شرعیه لأنّ بیعته کانت أوسع و کانت حسب رغبه الناس و رضاهم».

فبناء علی هذا لا منافاه بین الاستدلال بالبیعه و مسأله نصب الإمام بواسطه اللّه و النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و تأکید البیعه.

لذلک فإنّ الإمام یشیر فی مکان من(نهج البلاغه)نفسه بحدیث الثقلین الذی

۱- ۱) -نهج البلاغه من کتاب له علیه السّلام رقم ۱.
۲- ۲) -من کتاب له رقم ۶،و ینبغی الالتفات إلی أنّ التعویل علی بیعه الخلفاء السابقه هو لأنّ معاویه کان منصوبا من قبلهم و کان یدافع عنهم فلا منافاه بین هذا و ما جاء فی الخطبه المعروفه بالشقشقیه.
۳- ۳) -نهج البلاغه:من کتاب له برقم ۷.

هو من نصوص الإمامه (۱) كما يشير فی مكان آخر إلی مسأله الوصيه و الوراثه (۲) .

[فلاحظوا بدقّه]

.

كما يشير عليه السّلام فی بعض عباراته الأخری إلی لزوم الوفاء بالبيعه و عدم إمكان الفسخ و النكث و تجديد النظر و عدم الحاجه إلی التكرار و هذه هی مسائل مقبوله بالنسبه للبيعه أيضا.

و يستفاد من هذه التعابير ضمنا بصوره جيّده أنّ البيعه إذا كانت فيها«جنبه» إكراه أو إجبار أو أخذت علی حين غرّه من الناس فلا عبره بها و لا قيمه لها بل البيعه الحق التی تكون فی حال الاختيار و الحريه و الإراده و التفكّر و التدبّر.

***

۱- ۱) -نهج البلاغه:الخطبه رقم ۸۷.

۲- ۲) -نهج البلاغه:الخطبه رقم ۲.

الآيتان [سوره الفتح (۴۸): الآيات ۲۰ الى ۲۱]

اشاره

وَعَدَكُمُ اَللّٰهُ مَغٰانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهٰا فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ وَ كَفَّ أَيْدِيَ اَلنّٰاسِ عَنْكُمْ وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِرٰاطاً مُسْتَقِيماً (۲۰) وَ أُخْرىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهٰا قَدْ أَحٰاطَ اَللّٰهُ بِهٰا وَ كٰانَ اَللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (۲۱)

التّفسير

اشاره

من بركات صلح الحديبيّه مرّه أخرى!

تتحدّث هاتان الآيتان كالآيات السابقه المتعلّقه بصلح الحديبيّه و الوقائع التاليه لها-عن البركات و ما حصل عليه المسلمون من غنائم فى هذا الطريق.

فتقول الآيه الأولى منهما: وَعَدَكُمُ اللّٰهُ مَغٰانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهٰا فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ .

و يدلّ لحن الآيه أنّ المراد من المغانم الكثيره هنا جميع المغانم التى جعلها اللّه للمسلمين سواء فى أمد قصير أم بعيد حتى أنّ جمعا من المفسّرين يعتقدون أنّ المغانم التى تقع فى أيدى المسلمين إلى يوم القيامه داخله فى هذه العباره أيضا.

أمّا قوله: فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ فيرى الكثير من المفسّرين أنّ المراد منه مغانم

خيبر التى توفّرت خلال أمد قصير جدا بعد حادثه الحديبيّه! غير أنّ البعض يرى أنّ كلمه«هذه»إشاره إلى فتح الحديبيّه الذى يعدّ أكبر غنيمه معنويه!..

ثمّ يشير القرآن إلى لطف آخر من ألطاف اللّه على المسلمين-فى هذه الحادثه- فيقول: وَ كَفَّ أَيْدِيَ النّاسِ عَنْكُمْ .

و هذا لطف كبير أن يكون المسلمون على قله العدد و العدد و فى نقطه نائيه عن الوطن و فى مقربه من العدو-فى مأمن منه و أن يلقى اللّه رعبا و وحشه منهم فى قلوب الأعداء بحيث يخشون التحرش بهم!.

و يرى جماعه من المفسّرين أنّ هذه الجمله إشاره إلى ما جرى فى خيبر إذ كانت بعض القبائل من«بنى أسد»و«بنى غطفان»قد صمّموا أن يهجموا على المدينه فى غياب المسلمين و أن ينهبوا أموالهم و يأسروا نساءهم! أو أنّها إشاره إلى تصميم جماعه من هاتين القبيلتين على أن ينهضوا لنصره يهود خيبر فألقى اللّه الرعب فى قلوبهم فصرفهم عن ذلك.

غير أنّ التّفسير الأوّل أنسب ظاهرا! لأنّنا نشاهد شرطا لهذا التعبير بعد بضعه آيات ورد فى شأن أهل مكّه كما جاء فى الآيه محل البحث،و هو منسجم مع أسلوب القرآن الذى هو أسلوب إجمال و تفصيل! المهم أنّه طبقا للرّوايات المشهوره فإنّ سوره الفتح جميعها نزلت بعد حادثه الحديبيّه و خلال عوده النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من مكّه إلى المدينه! ثمّ يضيف القرآن فى تكمله الآيه مشيرا إلى نعمتين كبريين أخريين من مواهب اللّه و نعمه إذ يقول: وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً .

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين يرى أنّ الضمير فى لتكون عائد على الغنائم الكثيره الموعوده،و بعضهم يراه عائدا على حمايه المسلمين و كف أيدى الناس عنهم،غير أنّ المناسب أن يعود الضمير إلى جميع حوادث الحديبيه و مجرياتها بعد

ص: ۴۶۹

ذلک..لأنّ کلّا منها آیه من آیات اللّه و دلیل علی صدق النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و وسیله لهدایه الناس إلی الصراط المستقیم،و کان فی قسم منها(جنبه)أخبار بالمغیّبات،و کان بعضها لا ینسجم مع الظروف العادیه،و هی فی المجموع تعدّ معجزه واضحه من معاجز النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

و فی الآیه التالیه أعطی اللّه بشاره أخری للمسلمین إذ قال: وَ أُخْریٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَیْهٰا قَدْ أَحٰاطَ اللّٰهُ بِهٰا وَ کٰانَ اللّٰهُ عَلیٰ کُلِّ شَیْءٍ قَدِیراً .

و هناک کلام بین المفسّرین فی أنّ هذا الوعد یشیر إلی أیه غنیمه؟و الی أی نصر؟! یری بعضهم أنّه إشاره إلی فتح مکّه و غنائم حنین.

و یری آخرون أنّه إشاره إلی الفتوحات و الغنائم التی کانت نصیب المسلمین بعد النّبی(کفتح فارس و الروم و مصر)کما یحتمل أیضا أنّه إشاره لجمیع ما تقدّم ذکره (1) .

عباره لَمْ تَقْدِرُوا عَلَیْهٰا إشاره إلی أنّ المسلمین لم یحتملوا قبل ذلک أن یظفروا بمثل هذه الفتوحات و الغنائم،إلّا أنّه و ببرکه الإسلام و الإمدادات الإلهیه نالوا هذه القدره و القوّه! و استنبط بعض المفسّرین من هذه الجمله أنّ المسلمین کانوا یتحدّثون عن مثل هذه الفتوحات،إلّا أنّهم کانوا یرون أنفسهم غیر قادرین و خاصّه أنّنا نقرأ فی قصه الأحزاب یوم بشّر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم المسلمین بفتح بلاد فارس و الروم و الیمن اتخذ المنافقون کلامه هزوا! و جمله قَدْ أَحٰاطَ اللّٰهُ بِهٰا إشاره إلی إحاطه قدره اللّه علی هذه الغنائم أو الفتوحات،و یری بعض المفسّرین أنّها إشاره إلی إحاطه علمه،غیر أنّ المعنی الأوّل أکثر انسجاما مع تعابیر الآیه الأخری،و بالطبع لا مانع فی الجمع بینهما

۱- ۱) -أخری:هنا صفه لمحذوف تقدیر(و مغانم أخری لم تقدروا علیها)و هی منصوبه لعطفها علی(وعدکم اللّه مغانم کثیره)..

و أخيرا فإنّ آخر جمله فى الآيه وَ كٰانَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً هى فى الحقيقه بمنزله بيان العله للجمله السابقه،و هى إشاره إلى أنّه مع قدره اللّه على كلّ شىء فلا عجب أن ينال المسلمون مثل هذه الفتوحات!.

و على كلّ حال فإنّ الآيه من إخبار القرآن بالمغيّبات و الحوادث الآتيه،و قد حدثت هذه الفتوحات فى مده قصيره و كشفت عن عظمه هذه الآيات بجلاء! ***

ملاحظه

اشاره

قصه غزوه خيبر:

لمّا عاد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من الحديبيّه نحو المدينه أمضى شهر ذى الحجه كلّه و أياما من شهر محرم الحرام من السنه السابعه للهجره فى المدينه،ثمّ تحرّك بألف و أربعمائه نفر من المسلمين الذين كانوا حضروا الحديبيّه نحو«خيبر»[حيث كان مركزا للتحرّكات المناوئه للإسلام و كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يتحيّن الفرص لتدمير ذلك المركز للفساد]

.

و قد صمّمت قبيله غطفان فى البدايه أن تحمى يهود خيبر غير أنّها خافت بعدئذ عواقب أمرها(فاجتنبت حمايتها لهم).

فلمّا وصل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قريبا من قلاع خيبر أمر أصحابه أن يقفوا ثمّ رفع رأسه الشريف للسماء و دعا بهذا الدعاء:

«اللّهمّ ربّ السماوات و ما أظللن و ربّ الأرضين و ما أقللن،نسألك خير هذه القريه و خير أهلها و نعوذ بك من شرّها و شرّ أهلها و شرّ ما فيها».

ثمّ قال صلى اللّه عليه و آله و سلّم:«أقدموابسم اللّه»، و هكذا وصلوا خيبر ليلا و عند الصباح-حيث علم أهل خيبر بالخبر-وجدوا أنفسهم محاصرين من قبل جنود الإسلام،ثمّ فتح

النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم القلاع قلعه بعد اخری حتی بلغ أقوی القلاع و أمنعها و آخرها و کان فیها «مرحب»قائد الیهود المعروف.

و فی هذه الأیّام أصاب رأس النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم وجع شدید کان ینتابه أحیانا حتی أنّه لم یستطع الخروج من خیمته-یوما أو یومین..و فی هذه الأثناء و طبقا لما ورد فی التاریخ الإسلامی،حمل أبو بکر الرایه فی یده و توجّه بالمسلمین نحو معسکر الیهود غیر أنّه سرعان ما عاد و هو صفر الیدین دون نتیجه،و مرّه أخری أخذ عمر الرایه و حمل بالمسلمین بصوره أشد فما أسرع ما عاد دون جدوی...

فلمّا بلغ الخبر مسمع النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم

قال: «و اللّه لأعطینها غدا رجلا یحبّ اللّه و رسوله و یحبّه اللّه و رسوله یأخذها عنوه!».

فاشرأبت الأعناق من کلّ جانب تری من هو المقصود،و قد حدس جماعه منهم أنّ مقصوده(علی)علیه السّلام،إلاّ أنّ علیا کان مصابا بوجع فی عینه فلم یکن حاضرا حینئذ،و لمّا کان الغد أمر النّبی بأن یدعو له علیا،فجاء راکبا علی بعیر له حتی أناخ قریبا من خباء رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم،و هو أرمد قد عصّب عینیه.

فقال رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم: ما لک؟ قال علی علیه السّلام:رمدت بعدک.

فقال له:أدن منی،فدنا منه،فتفل فی عینیه،فما شکا وجعا حتی مضی بسبیله.

ثمّ أعطاه الرایه.

فتوجّه علی علیه السّلام بجیش الإسلام نحو القلعه الکبری(من خیبر)فرآه رجل یهودی من أعلی الجدار فسأله من أنت؟فقال:أنا علی بن أبی طالب.فنادی الیهودی:أیّتها الجماعه حان اندحارکم، فجاء«مرحب»آمر الحصن و نازل علیا فما کان إلاّ أن هوی إلی الأرض صریعا بضربه علی علیه السّلام،فالتحمت الحرب بین المسلمین و الیهود بشدّه فاقترب علی علیه السّلام من باب الحصن فقلعه فدحاه فرماه بقوّه

خارقه إلی مکان آخر،و هکذا فتحت القلعه و دخلها المسلمون فاتحین.

و استسلم الیهود و طلبوا من النّبی أن یحقن دماءهم لاستسلامهم،فقبل النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و غنم الجیش الإسلامی الغنائم المنقوله،و أودع النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم الأرض و الأشجار بأیدی الیهود علی أن یعطوا المسلمین نصف حاصلها (۱) .

***

۱- ۱) -نقلا بتلخیص عن[الکامل فی التاریخ لابن الأثیر] ج ۲،ص ۲۱۶-۲۲۱.

الآیات [سوره الفتح (۴۸): الآیات ۲۲ الی ۲۵]

اشاره

وَ لَوْ قاتَلَكُمُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا اَلْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (۲۲) سُنَّةَ اَللّٰهِ اَلَّتِی قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اَللّٰهِ تَبْدِيلاً
(۲۳) وَ هُوَ اَلَّذِی كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كانَ اَللّٰهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (۲۴) هُمُ
اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرامِ وَ اَلْهَدْیَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَ لَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ
تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اَللّٰهُ فِی رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (۲۵)

التّفسیر

اشاره

لو حدثت الحرب فی الحدیبیّه!؟

هذه الآیات تتحدّث أیضا عن أبعاد أخر لما جری فی الحدیبیّه و تشیر إلی

ص: ۴۷۴

«لطيفتين»مهمّتين فى هـذا الشأن! الأولى:هى أنّه لا تتصوّروا أنّه لو وقعت الحرب بينكم و بين مشـركى مكّه فى الحـديبيّه لانتصـر المشركون و الكفره! وَ لَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً .

و ليس هذا منحصرا بكم بل: سُنَّةَ اللّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَبْدِيلاً .

فهـذا هو قانون إلهى دائم،فمتى واجه المؤمنون العدوّ بنيّات خالصه و قلوب طاهره و لم يضـعفوا فى أمر الجهاد نصـرهم اللّه على عدوّهم،و ربّما حدث فى هذا الشأن إبطاء أو تعجيل لامتحان المؤمنين أو لأهداف أخرى،و لكنّ النصر النهائى على كل حال هو حليف المؤمنين..

لكن فى موارد كمعركه أحـد مثلا حيث أنّ جماعه لم يتّبعوا أمر الرّسول و مالت طائفه منهم إلى الـدنيا و زخرفها فلوّثت نياتها و عكفت على جمع الغنائم فإنّها ذاقت هزيمه مرّه،و هكـذا بعد! اللطيفه المهمّه التى تبيّنها الآيات هى أن لا تجلس قريش فتقول:مع الأسف إنّنـا لم نقاتـل هـذه الطـائفه القليله العـدد،أسـفا إذا بلغ«الصـيد»مكّه فغفلنـا عنه..أبـدا ليس الأمر كـذلك..فبالرغم من أنّ المسـلمين كانوا قلّه و بعيـدين عن الوطن و المأمن و فاقدين للأعتده و المؤن.و لكن مع هذه الحال لو وقع قتال بين المشـركين و المؤمنين لانتصر المؤمنون ببركه قوى الإيمان و نصر اللّه أيضا..ألم يكونوا فى بدر أو الأحزاب قله و أعداؤهم كثره،فكيف انهزم الجمع و ولّوا الـدبر فى المعركتين؟! و على كـلّ حال فإنّ بيان هـذه الحقيقه كان سـببا لتقويه روحيه المؤمنين و تضـعيف روحيه الأعداء و إنهاء القيل و القال من قبل المنافقين،و دلّ على أنّه حتى لو حدثت حرب فى هذه الظروف غير الملائمه بحسب الظاهر فإنّ النصر سيكون

حلیف المؤمنین الخلّص!..

و اللطیفه الأخری التی بیّنتها هذه الآیات أنّها قالت: وَ هُوَ الَّذِی کَفَّ أَیْدِیَهُمْ عَنْکُمْ وَ أَیْدِیَکُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَکَّهَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَکُمْ عَلَیْهِمْ وَ کانَ اللّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِیراً .

حقا..کان ما حدث مصداقا جلیّا«للفتح المبین»و نعم ما اختاره القرآن له من وصف،فالعدوّ الذی زحف بجیشه مرارا نحو المدینه و سعی سعیا عجیبا لإیقاع الهزیمه بالمسلمین،إلاّ أنّه الآن حیث حطّوا أقدامهم فی حریمه و دیاره یمتلکه الرعب منهم حتی أنّه یقترح الصلح معهم،فأیّ فتح مبین أکبر من هذا الفتح إذ ینال المسلمون هذا التفوّق علی العدو دون أن تسفک قطره دم واحده من المسلمین!؟ و لا شکّ أنّ ما جری فی الحدیبیّه کان یعدّ فی جزیره العرب عامه نصرا للمسلمین و هزیمه لقریش.

هذا و قد ذکر جماعه من المفسّرین فی نزول هذه الآیه أنّ مشرکی مکّه عبّؤوا أربعین رجلا للهجوم علی المسلمین(بصوره خفیه)فی الحدیبیّه،غیر أنّ المسلمین أفشلوا مؤامرتهم و أجهضوا مکیدتهم-بفطنتهم-فأسر المسلمون هؤلاء الأربعین جمیعا و جاءوا بهم إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فخلّی عنهم سبیلهم.

و قال بعضهم:أنّهم کانوا ثمانین أرادوا أن یهجموا علی المسلمین من جبل التنعیم عند صلاه الغداه و بالاستفاده من العتمه،و قال بعضهم:کان النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم یستظلّ تحت الشجره لیکتب معاهده الصلح مع ممثل قریش و علی مشغول بالإملاء، فحمل علیه ثلاثون شابّا من أهل مکّه بأسلحتهم و لکن بمعجزه مذهله فشلت خطتهم و أسر جمیعهم و خلّی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم عنهم سبیلهم (1) .

و طبقا لشأن النّزول هذا فإنّ جمله مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَکُمْ عَلَیْهِمْ إشاره إلی

---

1 - 1) -(مجمع البیان)ج 9،ص 123،مع شیء من التصرف کما ذکر هذا الشأن(القرطبی)بتفاوت یسیر و(أبو الفتوح الرازی) و(الآلوسی فی روح المعانی)و(الشیخ الطوسی فی التبیان)و(المراغی)و أضرابهم.

الإنتصار على هذه الطائفه،فى حين أنّه طبقا للتفسير السابق يكون المقصود هو النصر الكلّى للمسلمين على المشركين و هذا التّفسير أكثر انسجاما مع مفاد الآيه..

ممّا يستلفت النظر أنّ القرآن يؤكّد على عدم القتال فى بطن مكّه،و هذا التعبير يمكن أن يكون إشاره إلى لطيفتين:

الأولى:إنّ مكّه كانت مركزا لقوّه العدو،و على القاعده كان على أهل مكّه [المشركين]

أن يغتنموا الفرصه المناسبه فيحملوا على المسلمين فقد كانوا يبحثون عنهم و عن فرصه للقضاء عليهم فإذا هم فى دارهم و فى قبضتهم فما كان ينبغى أن يتركوا هذه الفرصه بهذه البساطه،لكنّ اللّه سلب عنهم قدرتهم و صرفهم عنهم! الثانيه:إنّ مكّه كانت حرم اللّه الآمن.فلو وقع القتال فيها لسألت الدماء فتهتك حرمه الحرم من جانب،و تكون عارا على المسلمين و عيبا أيضا.إذ سلبوا أمن هذه الأرض المقدّسه،و لذلك فإنّ من نعم اللّه على نبيّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و على المسلمين أنّه و بعد هذه القضيه بسنتين فتح عليهم مكّه و كان ذلك من دون سفك دم أيضا..

و فى آخر آيه من الآيات محل البحث إشاره إلى لطيفه أخرى تتعلّق بمسأله صلح الحديبيّه و حكمتها إذ تقول الآيه: هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ وَ الْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ (١) .

كان أحد ذنوبهم كفرهم،و الذنب الآخر صدّهم إيّاكم عن العمره زياره بيت اللّه و لم يجيزوا أن تنحروا الهدى فى محله،أى مكّه(الهدى فى العمره ينحر[أو يذبح]

فى مكّه و فى الحج بمنى)على حين ينبغى أن يكون بيت اللّه للجميع و صدّ المؤمنين عنه من أعظم الكبائر،كما يصرّح القرآن بذلك فى مكان آخر من سوره:

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسٰاجِدَ اللّٰهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ

(٢)

.

١- ١) -«معكوفا»مشتق من العكوف و معناها المنع عن الحركه و البقاء فى المكان.

٢- ٢) -البقره،الآيه ١١٤.

و مثل هـذه الـذنوب يسـتوجب أن يسـلّطكم اللّه عليهم لتعـاقبوهم بشـدّه!لكنّ اللّه تعـالى لم يفعـل ذلك فلما ذا؟!ذيل الآيه يبيّن السبب بوضوح إذ يقول: وَ لَوْ لاٰ رِجٰالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِسٰاءٌ مُؤْمِنٰاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ (١) ..

و هـذه الآـيه تشير إلى طائفه(من الرجال و النساء)المسـلمين الـذين اعتنقوا الإسـلام فى مكّه و لم يهاجروا إلى المـدينه لأسـباب خاصه.

فلو قاتل المسـلمون أهل مكّه لأوقعوا أرواح هؤلاء المستضـعفين فى خطر و لامتدت ألسنه المشركين بالقول:إنّ جنود الإسلام لم يرحموا لاـ أعـداءهم و مخالفيهم و لا أتباعهم و مؤالفيهم،و هـذا عيب و عار كبير! و قال بعضـهم أيضا،إنّ المراد من هـذا العيب لزوم الكفاره و ديه قتل الخطأ،لكنّ المعنى الأوّل أكثر مناسبه ظاهرا.

«المعرّه»من مـاده«عرّ»على زنه«شـرّ»«و العرّ على زنه الحر»فى الأصـل معنـاه مرض الجرب و هو من الأمراض الجلـديه التى تصـيب الحيوانات أو الإنسان أحيانا ثمّ توسّعوا فى المعنى فأطلقوا هذا اللفظ على كلّ ضرر يصيب الإنسان.

و لإكمال الموضوع تضيف الآيه: لِيُدْخِلَ اللّٰهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشٰاءُ .

أجل،كان اللّه يريد للمستضعفين المؤمنين من أهل مكّه أن تشملهم الرحمه و لا تنالهم أيه صدمه..

كما يرد هـذا الاحتمال أيضا و هو أنّ أحـد أهـداف صـلح الحـديبيّه أنّ من المشـركين من فيه قابليه الهـدايه فيهتـدى ببركه هذا الصلح و يدخل فى رحمه اللّه.

و التعبير ب«من يشاء»يراد منه الـذين فيهم اللياقه و الجـداره،لأنّ مشـيئه اللّه تنبع من حكمته دائما،و الحكيم لا يشاء إلاّ بدليل و لا يعمل عملا دون دقّه و حساب..

و لمزيد التأكيد تضيف الآيه الكريمه: لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذٰاباً أَلِيماً أى لو افترقت و انفصلت صفوف المؤمنين و الكفار فى مكّه و لم يكن هناك

۱- ۱) -جواب لولا فى الجمله الآنفه محذوف و التقدير:لمّا كفّ أيديكم عنهم،أو:لوطأتم رقاب المشركين بنصرنا إيّاكم..

خطر على المؤمنين لعذّبنا الكفار بأيديكم عذابا أليما.

صحيح أنّ اللّه قادر على أن يفصل هذه الجماعه عن الآخرين عن طريق الإعجاز،و لكنّ سنّه اللّه-فى ما عدا الموارد الاستثنائيه- أن تكون الأمور وفقا للأسباب العاديّه.

جمله«تزيلوا»من ماده زوال،و هنا معناها الانفصال و التفرّق.

و يستفاد من روايات متعدّده منقوله عن طرق الشيعه و السنّه حول ذيل هذه الآيه أنّ المراد منها أفراد مؤمنون كانوا فى أصلاب الكافرين و اللّه سبحانه لأجل هؤلاء لم يعذّب الكافرين..

و من جمله هذه الروايات نقرأ

فى الروايه أنّه سأل رجل الإمام الصادق عليه السّلام:ألم يكن على عليه السّلام قويا فى دين اللّه؟قال عليه السّلام:بلى.فقال:فعلام إذ سلّط على قوم(فى الجمل)لم يفتك بهم فما كان منعه من ذلك؟! فقال الإمام:آيه فى القرآن! فقال الرجل:و أيه آيه؟! فقال الصادق عليه السّلام قوله تعالى: لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً ..

ثمّ أضاف عليه السّلام:أنّه كان للّه عزّ و جلّ و ودائع مؤمنون فى أصلاب قوم كافرين و منافقين،و لم يكن على ليقتل الآباء حتى تخرج الودائع..و كذلك قائمنا أهل البيت لن يظهر أبدا حتى تظهر و ودائع اللّه عزّ و جلّ (۱) .

أى أن اللّه سبحانه يعلم أنّ جماعه سيولدون منهم فى ما بعد و سيؤمنون عن اختيارهم و إرادتهم و لأجلهم لم يعذب اللّه ءاباءهم و قد أورد هذا القرطبى فى تفسيره بعباره اخرى.

و لا يمنع أن تكون الآيه مشيره إلى المؤمنين المختلطين بالكفّار فى مكّه و إلى المؤمنين الذين هم فى أصلاب الكافرين و سيولدون فى ما بعد!..

***

۱- ۱) -تفسير نور الثقلين،ج ۵،ص ۷۰،و روايات أخر متعدده وردت أيضا فى هذا المجال!.

الآیه [سوره الفتح (۴۸): آیه ۲۶]

اشاره

إِذْ جَعَلَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا فِی قُلُوبِهِمُ اَلْحَمِیَّهَ حَمِیَّهَ اَلْجٰاهِلِیَّهِ فَأَنْزَلَ اَللّٰهُ سَکِینَتَهُ عَلیٰ رَسُولِهِ وَ عَلَی اَلْمُؤْمِنِینَ وَ أَلْزَمَهُمْ کَلِمَهَ اَلتَّقْویٰ وَ کٰانُوا أَحَقَّ بِهٰا وَ أَهْلَهٰا وَ کٰانَ اَللّٰهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیماً (۲۶)

التّفسیر

اشاره

التعصّب«و حمیه الجاهلیه»أکبر سدّ فی طریق الکفّار:

هـذه الآیه تتحـدّث مرّه أخری عن(مجریات)الحـدیبیّه و تجسّم میادین أخری من قضـیتها العظمی..فتشـیر أوّلا إلی واحد من أهم العوامـل التی تمنع الکفـار من الإیمان باللّه و رسوله و الإذعان و التسـلیم للحق و العـداله فتقول: إِذْ جَعَلَ الَّذِینَ کَفَرُوا فِی قُلُوبِهِمُ الْحَمِیَّهَ حَمِیَّهَ الْجٰاهِلِیَّهِ (۱) .

و لـذلک منعوا النّبی و المؤمنین أن یـدخلوا بیت اللّه و یؤدّوا مناسـکهم و ینحروا «الهـدی»فی مکّه.و قالوا لو دخل هؤلاء-الـذین قتلوا آباءنا و إخواننا فی الحرب-

---

۱- ۱) -یسـتوفی الفعـل(جعـل)مفعولاـ واحـدا أحیانـا و ذلک إذا کان معناه«الإیجاد»کالآیه محل البحث و فاعله الـذین کفروا و مفعوله الحمیه و المراد بالإیجاد هنا البقاء علی هـذه الحاله و التعلّق بها،و قـد یسـتوفی هـذا الفعل(جعل)مفعولین و ذلک إذا کان بمعنی (صار).

أرضـنا و ديارنا و عادوا سالمين فما عسـى أن تقول العرب فينا؟!و أيه حيثيه و اعتبار لنا بعـد؟ هـذا الكبر و الغرور و الحميّه-حميه الجاهليه-منعتهم حتى من كتابه«بسم اللّه الرحمن الرحيم»بصورتها الصـحيحه عند تنظيم معاهده صـلح الحديبيّه،مع أنّ عاداتهم و سننهم كـانت تجيز العمره و زيـاره بيت اللّه للجميع،و كانت مكّه عنـدهم حرما آمنا حتى لو وجـد أحـدهم قاتل أبيه فيها أو أثناء المناسك فلا يناله منه سوء و أذى لحرمه البيت عنـده،فهؤلاء-بهذا العمل-هتكوا حرمه بيت اللّه و الحرم الآمن من جهه،و خالفوا سننهـم و عـاداتهم مـن جهـه أخرى،كمـا أسـدلوا سـتارا بينهـم و بيـن الحقيقـه أيضـا،و هكـذا هى آثـار حميـه الجـاهليه المميته! «الحميه»فى الأصل من ماده حمى-على وزن حمـد-و معناها حراره الشـمس أو النّار التى تصـيب جسم الإنسان و ما شاكله،و من هنـا سـمّيت الحمّى التى تصـيب الإنسـان بهـذا الاسم«حمّى»على وزن كبرى،و يقال لحاله الغضب أو النخوه أو التعصّب المقرون بالغضب حميه أيضا.

و هـذه الحاله السائـده فى الأمم هى بسـبب الجهل و قصور الفكر و الانحطاط الثقافى خاصه بين«الجاهليّين»و كانت مدعاه لكثير من الحروب و سفك الدماء!..

ثمّ تضيف الآيه الكريمه-و فى قبال ذلك- فَأَنْزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ..

هـذه السـكينه التى هى وليـده الإيمـان و الإعتقـاد باللّه و الاعتماد على لطفه دعتهم الى الاطمئنان و ضـبط النفس و أطفأت لهب غضـبهم حـتى أنّهم قبلوا-و من أجـل أن يحفظوا و يرعوا أهـدافهم الكبرى-بحـذف جمله«بسم اللّه الرحمن الرحيم»التى هى رمز الإسـلام فى بـدايه الأعمال و أن يثبتوا-مكانها«بسـمك اللّهمّ»التى هى من موروثات العرب السابقين-فـى أوّل المعاهـده و حذفوا حتى لقب«رسول اللّه» التى يلى اسم محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و قبلوا بالعوده إلی المدینه من الحدیبیّه دون أن یستجیبوا لهوی عشقهم بالبیت و یؤدّوا مناسک العمره!و نحروا هدیهم خلافا للسنّه التی فی الحج أو العمره فی المکان ذاته و أحلّوا من إحرامهم دون أداء المناسک!..

أجل،لقد رضوا بمراره أن یصبروا إزاء کلّ المشاکل الصعبه،و لو کانت فیهم حمیّه الجاهلیه لکان واحد من هذه الأمور الآنفه کفیلا ـ أن یشعل الحرب بینهم فی تلک الأرض! أجل..إنّ الثقافه الجاهلیه تدعو إلی«الحمیه»و«التعصّب»و«الحفیظه الجاهلیه»،غیر أنّ الثقافه الإسلامیه تدعو إلی«السکینه»و«الاطمئنان»و«ضبط النفس».

ثمّ یضیف القرآن فی هذا الصدد قائلا: وَ أَلْزَمَهُمْ کَلِمَهَ التَّقْوی وَ کانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها ..

(کلمه)هنا بمعنی«روح»،و معنی الآیه أنّ اللّه ألقی روح التقوی فی قلوب أولئک المؤمنین و جعلها ملازمه لهم و معهم،کما نقرأ-فی هذا المعنی-أیضا الآیه (۱۷۱)من سوره النساء فی شأن عیسی بن مریم إذ تقول الآیه: إِنَّمَا الْمَسِیحُ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ رَسُولُ اللّهِ وَ کَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلی مَرْیَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ .

و احتمل بعض المفسّرین أنّ المراد من«کلمه التقوی»ما أمر اللّه به المؤمنین فی هذا الصدد! إلاّ أنّ المناسب هو«روح التقوی»التی تحمل مفهوما تکوینیا،و هی ولیده الإیمان و السکینه و الالتزام القلبی بأوامر اللّه سبحانه،لذا ورد فی بعض الروایات عن النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ المراد بکلمه التقوی هو کلمه لا ـ إله إلاّ ـ اللّه (1) ،و فی روایه عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه فسّرها بالإیمان (2) .

ص:۴۸۲

1- 1) -الدر المنثور،الجزء ۶،ص ۸۰.

2- 2) -أصول الکافی طبقا لما نقل فی تفسیر نور الثقلین،ج ۵،ص ۷۳.

و نقرأ

فی بعض خطب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قوله: «نحن کلمه التقوی و سبیل الهدی» (۱) و شبیه بهذا التعبیر ما

نقل عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام قوله: «و نحن کلمه التقوی و العروه الوثقی» (۲) ! و واضح أنّ الإیمان بالنبوّه و الولایه مکمل للإیمان بأصل التوحید و معرفه اللّه لأنّهما جمیعا داعیان إلی اللّه و منادیان للتوحید.

و علی کلّ حال فإنّ المسلمین لم یبتلوا فی هذه اللحظات الحسّاسه بالحمیّه و العصبیه و النخوه و الحفیظه،و ما کتب اللّه لهم من العاقبه المشرفه فی الحدیبیّه لم تمسسه نار الحمیه و الجهاله! لأنّ اللّه یقول: وَ أَلْزَمَهُمْ کَلِمَهَ التَّقْوی وَ کانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها .

و بدیهی أنّه لا ینتظر من حفنه عتاه و جهله و عبده أصنام سوی(حمیّه الجاهلیه) و لا ینتظر من المسلمین الموحّدین الذین تربّوا سنین طویله فی مدرسه الإسلام مثل هذا الخلق و الطباع الجاهلیه،ما ینتظر منهم هو الاطمئنان و السکینه و الوقار و التقوی،و ذلک ما أظهروه فی الحدیبیّه و لکن بعض حادیّ الطبع و المزاج أوشکوا علی کسر هذا السدّ المنیع بما یحملوه من أنفسهم من ترسبات الماضی و أثاروا البلبله و الضوضاء،غیر أنّ سکینه النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و وقاره کانا کمثل الماء المسکوب علی النّار فأطفأها! و تختتم الآیه بقوله سبحانه: وَ کانَ اللّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیماً .فهو سبحانه یعرف نیّات الکفّار السیئه و یعرف طهاره قلوب المؤمنین أیضا فینزل السکینه و التقوی علیهم هنا،و یترک أولئک فی غیّهم و حمیّتهم حمیّه الجاهلیه،فاللّه یشمل کلّ قوم و أمّه بما تستحقّه من اللطف و الرحمه أو الغضب و النقمه! ***

ص:۴۸۳

۱- ۱) -خصال الصدوق:عن نور الثقلین،ج ۵،ص ۷۳.

۲- ۲) -المصدر السابق،ص ۷۴.

ملاحظه

اشاره

ما هی حميّه الجاهليه؟!

قلنا أنّ«الحميّه»فی الأصل من ماده«حمی»و معناها الحراره،ثمّ صارت تستعمل فی معنی الغضب،ثمّ استعملت فی النخوه و التعصّب الممزوج بالغضب أيضا..

و هذه الكلمه قد تستعمل فی هذا المعنی المذموم«مقرونه بالجاهليه أو بدونها» بعض الأحيان،و قد تستعمل فی المدح حينا آخر،فتكون عندئذ بمعنی التعصّب فی الأمور الإيجابيه البنّاءه!

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام حين انتقده بعض أصحابه الضعاف المعاندين:

«منيت بمن لا يطيع إذا أمرت و لا يجيب إذا دعوت أما دين يجمعكم و لا حميّه تحشمكم» (1) .

غير أنّ هذه الكلمه غالبا ما ترد فی الذم كما

ذكرها الإمام علی عليه السّلام مرارا فی خطبته القاصعه ذامّا بها إبليس أمام المستكبرين: «صدّقه به أبناء الحميه و أخوان العصبيه و فرسان الكبر و الجاهليه» (2) .

و فی مكان آخر من هذه الخطبه يقول محذّرا من العصبيات الجاهليه:

«فأطفئوا ما كمن فی قلوبكم من نيران العصبيه و أحقاد الجاهليه فإنّما تلك الحميه تكون فی المسلم من خطرات الشيطان و نخواته و نزعاته و نفثاته» (3) .

و علی كلّ حال فلا شكّ أنّ وجود مثل هذه الحاله فی الفرد أو المجتمع باعث علی تخلّف ذلك المجتمع و تكبيل العقل و الفكر الإنسانی و منعه من الإدراك الصحيح و التشخيص السالم..و ربّما تذر جميع مصالحه مع الرياح!...

ص: ۴۸۴

۱- ۱) -نهج البلاغه،الخطبه ۳۹.

۲- ۲) -نهج البلاغه الخطبه القاصعه ۱۹۲.

۳- ۳) -نهج البلاغه:المصدر السابق.

و أساسا فإنّ انتقال السنن الخاطئه من جيل لآخر و من قوم لآخرين ما كان إلاّ فى ظل هذه الحميّه المشؤومه،و مقاومه الأمم للأنبياء و القاده غالبا ما تكون عن هذه السبيل أيضا..

ينقل عن الإمام على بن الحسين حين سئل عن«العصبيه»أنّه قال عليه السّلام:

«العصبيه التى يأثم عليها صاحبها أن يرى شرار قومه خيرا من خيار قوم آخرين و ليس من العصبيه أن يحب الرجل قومه و لكن من العصبيه أن يعين قومه على الظلم» (۱) .

إنّ خير سبيل لمقاومه هذه السجيه السيئه و النجاه من هذه المهلكه العظمى السعى و الجد لرفع المستوى الثقافى و الفكرى و إيمان كلّ قوم و جماعه..

و فى الحقيقه إنّ القرآن عالج هذا المرض بالآيه المتقدّمه-محل البحث-حيث يتحدّث عن المؤمنين ذوى السكينه و التقوى،فحيث توجد التقوى فلا توجد حميّه الجاهليه،و حيث توجد حميّه الجاهليه فلا تقوى و لا سكينه.

***

۱- ۱) -تفسير نور الثقلين،ج ۵،ص ۷۳،الحديث السبعون.

الآیه [سوره الفتح (۴۸): آیه ۲۷]

اشاره

لَقَدْ صَدَقَ اَللّٰهُ رَسُولَهُ اَلرُّؤْيٰا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ اَلْمَسْجِدَ اَلْحَرٰامَ إِنْ شٰاءَ اَللّٰهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لاٰ تَخٰافُونَ فَعَلِمَ مٰا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (۲۷)

التّفسیر

اشاره

رؤیا النّبی الصادقه:

هذه الآیه-أیضا-ترسم جانبا آخر من جوانب قصه الحدیبیّه المهمّه،و القصه کانت علی النحو التالی:

رأی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی المدینه رؤیا أنّه یدخل مکّه مع أصحابه لأداء مناسک العمره،فحدّث أصحابه عن رؤیاه فسرّوا جمیعا،غیر أنّه لمّا کان جماعه من أصحابه یتصوّرون أنّ تعبیر الرؤیا سیتحقق فی تلک السنه ذاتها و منعهم المشرکون من الدخول إلی مکّه أصابهم الشک و التردّد..تری هل من الممکن أن تکون رؤیا النّبی غیر صادقه؟ألم یکن البناء أن نعتمر هذا العام؟!فأین هذا الوعد؟و أین صارت هذه الرؤیا الرحمانیه؟! فکان جواب النّبی لهم:هل قلت لکم أنّ هذه الرؤیا ستتحقق هذا العام؟!

ص: ۴۸۶

فنزلت الآیه الآنفه فی هذا الصدد و النّبی عائد من الحدیبیه إلی المدینه و أکّدت أنّ هذه الرؤیا کانت صادقه و لا بدّ أنّها کائنه...تقول الآیه: لَقَدْ صَدَقَ اللّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْیا بِالْحَقِّ (۱) فما رآه النّبی فی المنام کان حقّا و صدقا.

ثمّ تضیف الآیه قائله: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللّهُ آمِنِینَ مُحَلِّقِینَ رُؤُسَکُمْ وَ مُقَصِّرِینَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا و کان فی هذا التأخیر حکمه:

فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِکَ فَتْحاً قَرِیباً

.

***

ملاحظات

اشاره

و فی الآیه الکریمه عدّه ملاحظات تلفت النظر:

۱-ینبغی الالتفات إلی أنّ«اللام»فی لَتَدْخُلُنَّ هی لام القسم،و أنّ«النون» فی آخر الفعل هی للتوکید،بأنّ هذا هو وعد إلهی قطعی فی المستقبل و تنبؤ معجز صریح عن أداء المناسک و العمره فی کامل الأمان و منتهی الطمأنینه-و کما سنبیّن -کان هذا التوقّع و التنبّؤ صادقا فی شهر ذی القعده ذاته من السنه المقبله،و هکذا أدّی المسلمون مناسک العمره بهذه الصوره! ۲-جمله إِنْ شاءَ اللّهُ هنا لعلّها نوع من تعلیم العباد لکی یعوّلوا علی مشیئه اللّه عند الإخبار عن المستقبل و أن لا ینسوا إراده اللّه،و أن لا یجدوا أنفسهم غیر محتاجین أو مستقلّین عنه.و ربّما هی إشاره للظروف التی یهیّؤها اللّه لهذا التوفیق «توفیق اللّه المسلمین لزیاره بیته فی المستقبل القریب»و البقاء علی خط «التوحید و السکینه و التقوی»...

کما یمکن أن تکون إشاره إلی بعض المسلمین الذین تنتهی أعمارهم فی هذه

---

۱ – ۱) -«صدق»فعل ماض قد یستوفی مفعولین کما هی الحال فی الآیه الآنفه فرسوله مفعول به أوّل و الرؤیا مفعول ثان،و قد یستوفی فی هذا الفعل مفعولا واحدا یتعدّی إلی المفعول الثّانی بفی کقولک صدقته فی حدیثه.

الفتره و الفاصله الزمانیه و لا یوفّقون إلی زیاره بیت اللّه،و الجمع بین هذه المعانی کلها لا مانع منه أبدا...

۳-التعبیر ب فَتْحاً قَرِیباً کما یعتقـد کثیر من المفسّـرین هو إشاره إلی صـلح الحدیبیّه الذی عبّر عنه القرآن بالفتح المبین،و نعرف أنّ هذا الفتح کان السبیل إلی دخول المسجد الحرام فی السنه التالیه.

علی حین أنّ جماعه آخرین یعتقدون أنّ فَتْحاً قَرِیباً إشاره إلی«فتح خیبر».

و بـالطبع فإنّ کلمه(قریبا)فیها تناسب أکثر مع«فتـح خیبر»لأنّه کان-«تحقّقه العینی»بعـد هـذه الرؤیا فی فتره أقل زمنا من فتـح مکّه بعـدها،ثمّ بعـد هذا فإنّ القرآن یقول فی الآیه(۱۸)من هـذه السوره ذاتهـا عنـد الکلام علی بیعه الرضوان: فَأَنْزَلَ السَّکِینَهَ عَلَیْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِیباً .و کما قلنا-و یعتقد بذلک أکثر المفسّـرین أیضا -أنّ المراد من هذا الفتح هو«فتح خیبر»و القرائن الموجوده فی الآیه تحکی عن هـذا الفتـح أیضا،و مع الالتفات إلی أنّ الآیه محل البحث تنسـجم مع تلک الآیه فیبدو أنّ الآیتین بمعنی واحد... . (۱)

و فی تفسیر علی بن إبراهیم روایه تشیر إلی هذا المعنی أیضا (۲) .

۴-جمله«محلّقین رؤوسـکم و مقصّرین»إشاره إلی واحد من مناسک العمره و آدابها و هو«التقصیر»و به یخرج المحرم من إحرامه و قد اسـتدل بعضـهم بالآیه فی التخییر عند الخروج من الإحرام بین التقصـیر فی تقلیم الأظافر الحلق،لأنّ الجمع بینهما لیس واجبا قطعا.

۵-جمله«فعلم ما لم تعلموا»إشاره إلی مسائل مهمّه مطویه فی صـلح الحدیبیّه و قد انکشفت بمرور الزمن-إذ قویت قواعد الإسلام و انتشر صوته و ترامت

ص: ۴۸۸

۱- ۱) -التعبیر ب«من دون ذلک»إمّا بمعنی قبل ذلک،أی قبل أداء العمره یفتـح اللّه علیکم فتحا قریبا فی السـنه المقبله،أو بمعنی «غیر ذلک»أی سینال المؤمنون فتحا قریبا غیر زیاره بیت اللّه و العمره أیضا.

۲- ۲) -نور الثقلین،ج ۵،ص ۷۶.

اصداؤه فی کلّ مکان و طویت نزعه الحرب عند المسلمین و استطاعوا أن یفتحوا «خیبر»بفارغ البال و قرار البلبال،و أرسلوا المبلّغین إلی أطراف الجزیره العربیه و بعث النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم رسائله إلی أعظم رؤوساء الدول آنئذ،فهذه مسائل کان الفرد المسلم لا یعرفها لکنّ اللّه کان یعلمها...

۶-نواجه فی هذه الآیه الکریمه موضوع الرؤیا،و هی رؤیا النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم الصادقه التی تعدّ(غصنا من غصون)الوحی و هی مشابهه لقصه رؤیا إبراهیم علیه السّلام و ذبح ولده إسماعیل الوارده فی سوره الصافات(الآیه ۱۰۲).

«و لمزید الإیضاح و تفصیل البیان حول الرؤیا و تعبیر الأحلام من المناسب مراجعه تفسیر سوره یوسف فی هذا التّفسیر».

۷-الآیه محل البحث واحده من المسائل الغیبیه التی أخبر عنها القرآن،و هی شاهد علی أنّ هذا الکتاب سماویّ و أنّه من معاجز النّبی الکریم حیث یخبر قاطعا عن أداء مناسک العمره و دخول المسجد الحرام فی المستقبل القریب و عن الفتح القریب قبله أیضا،و کما نعلم أنّ هذین التنبّؤین قد حدثا فعلا،و قد ذکرنا قصه «فتح خیبر»و الآن نتحدّث عن قصه«عمره القضاء»:

***

عمره القضاء:

عمره القضاء هی العمره التی أدّاها النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم مع أصحابه بعد صلح الحدیبیّه بعام،أی فی ذی القعده من السنه السابعه للهجره(علی وجه الدقّه بعد عام من منع المشرکین أن یدخل الرّسول و أصحابه مکّه).

و تسمیه «عمره القضاء»بهذا الاسم لأنّها فی الحقیقه تعد قضاء عن السنه السابقه...

و توضیح ذلک:أنّه طبقا لإحدی مواد معاهده الحدیبیّه أصبح من المقرر أن

يؤدّى المسلمون العمره و زياره بيت اللّه فى العام المقبل على أن لا يمكثوا فى مكّه أكثر من ثلاثه أيام،و فى الوقت ذاته يخرج المشركون من مكّه و رؤساء قريش أيضا،لئلا يقع نزاع محتمل بين الطرفين و لئلا يروا المسلمين يؤدّون المناسك فيثيرهم منظر العباده«التوحيديه».

و قد ورد فى بعض التواريخ أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أحرم فى السنه المقبله مع أصحابه و الجمال المساقه للهدى و تحرّكوا جميعا حتى بلغوا أطراف«الظهران»و نواحيه فأرسل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ما كان عنده من أسلحه و خيول تستلفت النظر مع أحد أصحابه و اسمه«محمّد بن مسلمه»فلمّا رأى المشركون هذه الخطه فزعوا و خافوا خوفا شديدا و ظنّوا أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يريد أن يقاتلهم و ينقض المعاهده الممضاه لعشر سنين و أخبروا أهل مكّه بذلك.

غير أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم حين وصل منطقه قريبه من مكّه أمر أن توضع الأسلحه من السهام و الرماح و غيرها من الأسلحه فى منطقه تدعى«ياجج»،و دخل هو و أصحابه مكّه بالسيوف المغمده.

فلمّا رأى أهل مكّه من النّبى ما رأوا فرحوا إذ وفى النّبى بوعده[فكأنّ النبى باقدامه هذا أنذر المشركين أن لو نقضوا العهد و أرادوا أن ينازلوا المسلمين فهم على أتم الاستعداد]

.

فخرج رؤوساء مكّه منها لئلّا تتأثر عواطفهم و قلوبهم بهذه«المناظر»و لا تثيرهم مناسك العمره من قبل المسلمين.

غير أنّ بقيه أهل مكّه من الرجال و النساء و الأطفال اجتمعوا فى السطوح و حول الكعبه و خلال الطريق ليروا كيف يؤدّى المسلمون مناسكهم...

فدخل النّبى مكّه بهذه الأبّهه الخاصه و كانت معه جمال كثيره مسوقه للهدى فعامل أهل مكّه بمنتهى اللطف و المحبّه و أمر المسلمين أن يسرعوا أثناء الطواف و أن يزيحوا الإحرام عن أكتافهم قليلا لتبدو علائم القدره و القوّه فيهم و أن تترك

هـذه الحـاله فی أفکـار أهـل مکّه و أنفسـهم تـأثیرا کبیرا و دلیلاـ حیّا علی قوه المسـلمین و حکمتهم! و علی کلّ حال فإنّ«عمره القضاء»کانت عباره کما کانت فی الوقت ذاته عرضا«للعضـلات المفتوله»و ینبغی القول أنّ«فتح مکّه»الذی تحقّق بعد سـنه أخری کان قد نثر بذره فی هذه السنه و هیّأ الأرضیه لاستسلام أهل مکّه للفاتحین (المسلمین).

و کان هذا الأمر مدعاه لقلق رؤساء قریش إلی درجه أنّهم بعثوا رجلا بعد مضـی ثلاثه أیّام إلی النّبی یطلب منه أن یغادر بسـرعه هو و أصحابه مکّه طبقا للمعاهده...

الطریف هنـا أنّ النّبی تزوّج أرمله من نسـاء قریش و کـانت من أقربـاء بعض رؤسـائهم المعروفین و ذلـک لیشـدّ أواصـره بهم و یخفّف من غلوائهم و بغضائهم.

و حین سمع النّبی اقتراحهم بالمغادره

قال: «ما علیکم لو ترکتمونی فأعرست بین أظهرکم فصنعنا لکم طعاما فحضر تموه». قالوا:لا حاجه لنا فی طعامک فاخرج عنّا.

و لو کان تمّ ذلک لکان له أثره فی نفوذ أمر النّبی فی قلوبهم غیر أنّهم لم یقبلوا ذلک منه (۱) .

***

---

۱ - ۱) -مجمع البیـان للطبرسـی،ج ۹، ص ۱۲۷-فی ظلاـل القرآن،ج ۷، ص ۵۱۱،تاریـخ الطبری،ج ۲، ص ۳۱۰ مع شـیء من التلخیص..

الآيتان [سوره الفتح (۴۸): الآيات ۲۸ الی ۲۹]

اشاره

هُوَ اَلَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدیٰ وَ دِینِ اَلْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی اَلدِّینِ کُلِّهِ وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ شَهِیداً (۲۸) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اَللّٰهِ وَ اَلَّذِینَ مَعَهُ أَشِدّٰاءُ عَلَی اَلْکُفّٰارِ رُحَمٰاءُ بَیْنَهُمْ تَرٰاهُمْ رُکَّعاً سُجَّداً یَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اَللّٰهِ وَ رِضْوٰاناً سِیمٰاهُمْ فِی وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ اَلسُّجُودِ ذٰلِکَ مَثَلُهُمْ فِی اَلتَّوْرٰاهِ وَ مَثَلُهُمْ فِی اَلْإِنْجِیلِ کَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَویٰ عَلیٰ سُوقِهِ یُعْجِبُ اَلزُّرّٰاعَ لِیَغِیظَ بِهِمُ اَلْکُفّٰارَ وَعَدَ اَللّٰهُ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّٰالِحٰاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَهً وَ أَجْراً عَظِیماً (۲۹)

التّفسير

أَشِدّٰاءُ عَلَی الْکُفّٰارِ رُحَمٰاءُ بَیْنَهُمْ

:

فی هاتین الآیتین اللتین بهما تنتهی سوره الفتح إشاره إلی مسألتین مهمّتین من «الفتح المبین»أی«صلح الحدیبیّه»إحداهما تتعلّق بعالمیّه الإسلام و الثانیه تتعلّق

ص: ۴۹۲

بأوصاف أصحاب النّبی و خصائصهم و ما وعدهم اللّه سبحانه به! فالأولی منهما تقول: هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدیٰ وَ دِینِ الْحَقِّ لِیُظْهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَ کَفیٰ بِاللّٰهِ شَهِیداً .

و هذا وعد صریح و قاطع من اللّه سبحانه فی غلبه الإسلام و ظهوره علی سائر الأدیان.

أی لا تعجبوا لو أخبرکم اللّه عن طریق رؤیا نبیّه محمّد بالانتصار و أن تدخلوا المسجد الحرام بمنتهی الأمان و تؤدّوا مناسک العمره دون أن یجرأ أحد علی إیذائکم،کما لا تعجبوا أن یبشّرکم اللّه بالفتح القریب-فتح خیبر«فأوّل الغیث قطره» و سیکون الإسلام باسطا ظلاله فی أرجاء المعموره و یظهر علی جمیع الأدیان...

و لم لا یکون کذلک و محتوی دعوه النّبی هدایه اللّه إذ«أرسله بالهدی»و دینه «دین الحق»و یستطیع کلّ ناظر غیر منحاز أن یری حقّانیته فی آیات القرآن و أحکام الإسلام الفردیّه و الاجتماعیه و القضائیه و السیاسیه!و کذلک تعلیماته الأخلاقیه و الإنسانیه.و أن یعرف علاقه النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم باللّه حقّا من خلال إخباره بالمغیّبات و تنبّؤاته التی تقع فی المستقبل بصوره قاطعه.

أجل:إنّ منطق الإسلام المتین و محتواه الغنی الغزیر یطهّر الأرض من أدیان الشرک الملوّثه،و تخضع له الأدیان السماویه المحرّفه الأخری و أن یشدّ بأسلوبه الشائق (1) القلوب إلیه.

و لکن ما المراد ب«الظهور علی الدین کلّه»؟أهو الظهور المنطقی؟!أم الظهور (و الغلبه)العسکریان؟!هناک اختلاف بین المفسّرین..

یعتقد جماعه منهم أنّ هذا الظهور هو الظهور المنطقی و الاستدلالی فحسب

۱- ۱) -یجری علی ألسنه الناس و بعض الأدباء قولهم هذا أسلوب شیّق،و هذا التعبیر خطأ،و الصحیح«شائق»أی مثیر للشوق أمّا الشیّق فهو المشتاق(المصحّح).

و هذا الأمر متحقق،لأنّ الإسلام متفوّق من حيث الاستدلال و القدره المنطقيه على جميع الأديان.

و لكنّ جماعه آخرين فسّروا هذا الظهور بالغلبه الظاهريه و غلبه القوه،و موارد استعمال كلمه«يظهر»و مشتقاتها أيضا دليل على الغلبه الخارجيه...و لهذا يمكن القول أنّه بالإضافه إلى نفوذ الإسلام فى مناطق كثيره واسعه من الشرق و الغرب و هى تحت لوائه اليوم و تدين به أكثر من أربعين دوله إسلاميه بنفوس يقدّر إحصاؤها بأكثر من مليارد نسمه فإنّه سيأتى زمان على الناس يستوعب الإسلام جميع أرجاء المعموره«رسميّا»و سيكتمل هذا الأمر بظهور المهدى أرواحنا فداء إن شاء اللّه.

و كما

نقل عن بعض أحاديث النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر و لا وبر إلاّ أدخله اللّه كلمه الإسلام» (۱) .

و سبق أن بحثنا فى هذا المجال فى نفس هذا التّفسير ذيل الآيه(۳۳)من سوره التوبه المشابهه لهذه الآيه محل البحث.

و هنا ملاحظه تلتفت النظر إليها و هى أنّ البعض ذهب إلى أنّ التعبير بالهدى إشاره الى استحكام العقائد الإسلاميه،فى حين أنّ التعبير ب«دين الحق»ناظر إلى حقّانيه فروع الدين،إلاّ أنّه لا دليل لدينا على هذا التقسيم،و الظاهر أنّ الهدايه و الحقّانيه هما فى الأصول و الفروع معا...

و فى عود الضمير فى«ليظهره»هل يعود على الإسلام أم على النبى؟للمفسّرين احتمالان،إلاّ أنّ القرائن تدل بوضوح على أنّ المقصود هو دين الحق،لأنّه قريب من الضمير،هذا من حيث النظم و السبك اللغوى،كما أنّ المناسب ظهور الدين على الدين الآخر لا ظهور الشخص على الدين-أيضا-

---

۱- ۱) -تفسير مجمع البيان،الجزء ۵،ص ۲۵،القرطبى نقل هذه الروايه عن النّبى أيضا ذيل الآيه ۵۵ من سوره النور،ج ۷، ص ۴۶۹۲.

و آخر ما نريد بيانه فى شأن هذه الآيه أنّ جمله كَفى بِاللّهِ شَهِيداً إشاره إلى هذه الحقيقه و هى أنّ هذا التوقع أو التنبؤ لا يحتاج إلى أى شاهد،لأنّ شاهده اللّه، و رساله رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا لا تحتاج إلى شاهد آخر،لأنّ الشاهد هو اللّه أيضا، و إذا لم يوافق سهيل بن عمرو و أمثاله على كتابه عنوان(رسول اللّه)بعد اسم النّبى محمّد فليس ذلك مدعاه للتأثر أبدا.

و فى آخر آيه وصف بليغ لأصحاب النّبى الخاصّين و الذين كانوا على منهاجه على لسان التوراه و الإنجيل و هو مدعاه افتخار لهم إذ أبدوا شهامتهم و رجولتهم فى الحديبيّه و المراحل الأخر كما أنّه درس اختبار لجميع المسلمين على مدى القرون و الأعصار!...

فتقول الآيه فى البدايه: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّهِ .

سواء رضى به خفافيش الليل كسهيل بن عمرو أم لم يرض به؟!و اخفوا أنفسهم عن هذه الشمس التى أشرقت على العالم أجمع أم لم يخفوا؟!فاللّه يشهد على رسالته و يشهد بذلك العارفون.

ثمّ تصف الآيه أصحابه و خلالهم(و سجاياهم)الباطنيه و الظاهريه ضمن خمس صفات إذ تقول فى وصفهم: وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدّاءُ عَلَى الْكُفّارِ .

و صفتهم الثانيه أنّهم: رُحَماءُ بَيْنَهُمْ .

أجل:هم منطلق للمحبّه و الرحمه فيما بينهم كما أنّهم نار ملتهبه و سد محكم بوجه أعدائهم الكفّار...

و فى الحقيقه أنّ عواطفهم و أفكارهم تتلخّص فى هاتين الخصلتين:«الرحمه» و«الشدّه»...لكن لا تضادّ فى الجمع بينهما أوّلا،و لا رحمتهم فيما بينهم و شدّتهم على الكفّار تقتضى أن تحيد أقدامهم عن جادّه الحق ثانيا...

ثمّ تضيف الآيه مبيّنه وصفهم الثّالث فتقول: تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً .

هذا التعبير يجسد العباده بركنيها الأساسيين:«الركوع و السجود»على أنّها

حاله دائميه لهم،العباده التی هی رمز للتسلیم أمام أمر اللّه الحق،و نفی الکبر و الغرور و الأنانیه عن وجودهم.

أمّا الوصف الرابع الذی تذکره الآیه عن هؤلاء الأصحاب فهو بیان نیّتهم الخالصه الطاهره فتقول: یَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللّهِ وَ رِضْواناً فهم لا یعملون ریاء و لا یبتغون من الخلق الثواب،بل هدفهم رضا اللّه و فضله فحسب،و الباعث علی تحرّکهم فی حیاتهم جمیعا هو هذا الهدف لیس إلاّ!...

حتی التعبیر ب«فضلا»یدل علی أنّهم معترفون بتقصیرهم و یرون أعمالهم أقل من أن یطلبوا الثواب من اللّه،بل إنّهم مع کلّ عبادتهم و أعمالهم الصالحه ما یزالون قائلین:لو لا فضلک یا ربّنا فالویل لنا...

أمّا الوصف الخامس فهو عن سیماهم المشرق إذ تقول الآیه: سِیماهُمْ فِی وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ (۱) .

«سیما»فی الأصل معناها العلامه و الهیأه،سواء أ کانت هذه العلامه فی الوجه أم فی مکان آخر و إن کانت فی الاستعمال العرفی تشیر إلی علامه الوجه!و الأثر الظاهریّ له...

و بعباره أخری أنّ قیافتهم تدلّ بصوره جیده أنّهم أناس خاضعون أمام اللّه و الحق و القانون و العداله،و لیست العلامه فی وجوههم فحسب،بل فی جمیع وجودهم و حیاتهم تبدو هذه العلامه...

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرین یری بأنّ«السیماء»هی الأثر الظاهر فی الجبهه من السجود أو أثر التراب علیها من مکان السجده...غیر أنّ هذه الآیه کما یظهر لها مفهوم أوسع ترتسم ملامحه علی وجوه هؤلاء الرجال الربّانیین...

و قال بعضهم:هذه الآیه إشاره إلی إشراق وجوههم یوم القیامه کالبدر من کثره

---

۱ – ۱) -سیماهم:مبتدأ و«فی وجوههم»خبره و«من أثر السجود»قد یکون حالا-عن السیماء و الأفضل أن تعد(من)نشویه أی: «سیماهم فی وجوههم و هذه السیماء و العلامه من أثر سجودهم».

سجودهم...

و بالطبع يمكن أن تكون جباههم و وجوههم على هذه الهيّأه يوم القيامه إلّا أنّ الآيه تتحدّث عن وضعهم الظاهرى فى الدنيا...

و قد ورد فى حديث عن الإمام الصادق فى تفسير هذه الجمله أنّه قال:«هو السهر فى الصلاه!» (۱) .

و لا مانع من الجمع بين هذه المعانى كلّها!...

و على كلّ حال فإنّ القرآن يضيف بعد بيان هذه الأوصاف: ذٰلِکَ مَثَلُهُمْ فِی التَّوْرٰاهِ ! فهذه حقيقه مقوله قبلا و أوصاف وردت فى كتاب سماوى نزل منذ أكثر من ألفى عام...

و لكن لا ينبغى أن ننسى أنّ التعبير ب وَ الَّذِينَ مَعَهُ يحكى عن معيّه النّبى فى كلّ شىء،فى الفكر و العقيده و الأخلاق و العمل لا عن أولئك الذين كانوا فى عصره- و إن اختلفوا و إيّاه فى المنهج.

ثمّ يتحدّث القرآن عن وصفهم فى كتاب سماوى كبير آخر و هو الإنجيل فيقول:

وَ مَثَلُهُمْ فِی الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَویٰ عَلیٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرّٰاعَ

(۲)

.

«الشطأ»:معناه الفسيل أو البرعم الذى يخرج إلى جانب الساق الأصلى للزرع...و«آزره»مشتقّ من المؤازره أى المعاونه.

و«استغلظ»مشتقّ من ماده الغلظه،أى أنّه متين...

ص :۴۹۷

۱- ۱) -«من لا يحضره الفقيه»و«روضه الواعظين»،طبقا لما ورد فى تفسير نور الثقلين،ج ۵،ص ۷۸.

۲- ۲) -هناك كلام بين المفسّرين فى جمله«و مثلهم فى الإنجيل»أ هى جمله مستقله و وصف آخر عن أصحاب محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم غير ما وصفوا فى التوراه،أم هى معطوفه على جمله ذلك مثلهم فى التوراه؟فيكون الوصفان مذكورين فى كتابين سماويين! الظاهر أنّ الآيه ذكرت الوصفين كلّا على حده فى كتاب سماوى و لذلك كرّرت كلمه«مثلهم»و لو كان هذا الوصف معطوفا على السابق لاقتضت الفصاحه أن يكون التعبير:ذلك مثلهم فى التوراه و الإنجيل.

و جمله«استوی علی سوقه»مفهومها أنّ هذا الزرع بلغ قدرا من المتانه بحیث ثبت علی سیقانه:و«سوق»جمع ساق -و التعبیر ب«یعجب الزرّاع»یعنی أنّ هذا الزرع یکون سریع النمو کثیر البراعم وافر النتاج إلی درجه یسرّ به الزراع و یعجبون منه،و الطریف أنّ وصفهم الثّانی فی الإنجیل جاء علی خمسه أمور أیضا هی:

۱-أخراج الشطأ.۲-و المؤازره للنموّ.۳-و الاستغلاظ.۴-و الإستواء.

۵-و النمو المعجب.

و فی الحقیقه إنّ أوصافهم المذکوره فی«التوراه»تتحدّث عن أبعاد وجودهم من جهه العواطف و الأهداف و الأعمال و صورتهم الظاهریه...

و أمّا الأوصاف الوارده فی«الإنجیل»فهی تتحدّث عن حرکتهم و نموّهم و تکاملهم فی جوانب مختلفه(فلاحظوا بدقه).

أجل هم أناس متّصفون بصفات علیا لا یفترون عن الحرکه لحظه واحده...

و تتنامی براعمهم دائما و یثمرون و یتآزرون کلّ حین...و ینشرون الإسلام بأقوالهم و أعمالهم فی العالم و یوما بعد یوم یزداد عددهم فی المجتمع الإسلامی!...

أجل،إنّهم لاـ یتکاسلون فی حرکتهم المتّجهه إلی الإمام دائما،و هم فی حال عبادتهم مجاهدون،و فی حال جهادهم عابدون ظاهرهم سوی،و باطنهم سلیم، و عواطفهم صادقه،و نیّاتهم خالصه،و هم مظهر غضب اللّه بوجه أعداء الحق، و مظهر الرحمه بوجه إخوانهم.

ثمّ تضیف الآیه معقّبه:أنّ هذه الأوصاف العلیا و هذا النمو و التکامل السریع و هذه الحرکه المبارکه بقدر ما تعجب المحبّین و تسرّهم فهی فی الوقت ذاته:

لِیَغِیظَ بِهِمُ الْکُفّارَ

(۱)

.

۱- ۱) -یری کثیر من المفسّرین أنّ اللام فی جمله«لیغیظ بهم الکفّار»هی لام التعلیل،فیکون مفهوم الجمله:إنّ هذه القوّه و القدره جعلها اللّه نصیب أصحاب محمّد لیغیظ بهم الکفّار..

و يضيف القرآن مختتما هذه الآيه المباركه: وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَهً وَ أَجْراً عَظِيماً .

بديهى أنّ أوصاف أصحاب النّبى التى وردت فى بدايه الآيه محل البحث جمعت فيها الإيمان و العمل الصالح،فتكرار هذين الوصفين إشاره إلى استمرارهما و ديمومتهما:أى أنّ اللّه وعد أولئك الذين بقوا على نهجهم من أصحاب محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم و استمروا بالإيمان و العمل الصالح،و إلاّ فإنّ من كان يوما مع النّبى و يوما آخر مع سواه و على خلاف طريقته فلا يشملون بهذا الوعد أبدا.

و التعبير ب«منهم»مع الالتفات إلى هذه المسأله،و هى أنّ الأصل فى كلمه «من»فى مثل هذه الموارد التبعيض،و ظاهر الآيه يعطى هذا المعنى أيضا،و هذا التعبير يدلّ على أنّ أصحاب النّبى ينقسمون قسمين-فطائفه منهم-يواصلون إيمانهم و عملهم الصالح و تشملهم رحمه اللّه الواسعه و أجره العظيم،و طائفه يحيدون عن نهجه فيحرمون من هذا الفيض العظيم!...

و ليس معلوما السبب فى إصرار بعض المفسّرين على أنّ«من»فى كلمه «منهم»بيانيّه حتما،فى حين لو ارتكبنا خلاف الظاهر و قلنا إنّ من هنا بيانيه فكيف يمكن أن ندع القرائن العقليه هنا،فلا أحد يدّعى أبدا أنّ جميع أصحاب النّبى معصومون و فى هذه الصوره يزول احتمال أنّ كلّ واحد منهم بقى على عمله الصالح و إيمانه،و مع هذه الحال فكيف يعدهم اللّه بالمغفره و الأجر العظيم دون قيد و شرط سواء عملوا الصالحات فى طول مسيرتهم،أو أن يعملوا الصالحات فى وقت،ثمّ ينحرفوا من منتصف الطريق!...

و هذه اللطيفه تستدعى الالتفات و هى أنّ جمله: وَ الَّذِينَ مَعَهُ لا تعنى المرافقه الجسديه مع النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المصاحبه الجسمانيه لأنّ المنافقين كانوا على هذه الشاكله أيضا...بل المراد من«معه»هو المعيّه من جهه أصول الإيمان

و التقوى قطعا...فبناء على هذا لا يمكننا أن نستنتج حكما كليّا من الآيه الآنفه فى شأن جميع المعاصرين و المجالسين للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم...

***

بحثان

اشاره

١-قصه تنزيه الصحابه!

المعروف بين علماء أهل السنّه أنّ صحابه رسول اللّه جميعا أولو امتياز خاص دون سائر الناس من أمّه محمّد فهم مطهّرون أزكياء معصومون من الزلل و ليس لنا الحق فى انتقاص أى منهم أو انتقاده و يحرم الإساءه إليهم بالكلام و غيره،حتى أنّ بعضهم قال بكفر من يفعل ذلك و استدلّوا على ذلك بآيات من الذكر الحكيم منها هذه الآيه: وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً ...

و بالآيه(١٠٠)من سوره التوبه إذ تعبّر عن المهاجرين و الأنصار بعد ذكرهم فى آيات سابقه بقولها: رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ...

و لكنّنا إذا ابتعدنا عن الأحكام المسبقه الاعتباطيه،فسنجد أمامنا قرائن تتزلزل عندها هذه العقيده! الأولى:إنّ جمله: رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ الوارده فى سوره التوبه لا تخصّ المهاجرين و الأنصار فحسب،لأنّ فى الآيه تعبيرا آخر و هو: وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسٰانٍ يشمل كلّ من يتّبعهم بالإحسان و الصلاح إلى يوم القيامه...

فكما أنّ«التابعين»إذا كانوا فى خط الإيمان يوما و فى خط الكفر و الإساءه يوما آخر يخرجون من خيمه رضا اللّه،فإنّ الموضوع ذاته وارد فى الصحابه لأنّهم فى آخر سوره الفتح مقيّدون بالإيمان و العمل الصالح أيضا بحيث لو خرجوا عن هذا القيد و لو يوما واحدا لخرجوا عن رضوان اللّه سبحانه...

و بتعبير آخر:إنّ كلمه«بإحسان»هى فى شأن التابعين و المتبوعين جميعا،فأى

منهما خرج عن خطّ الإحسان فلن يشمله رضا اللّه و لطفه...

الثانیه:أنّه یستفاد من الروایات الإسلامیه أنّ أصحاب النّبی و إن امتازوا بشرف صحبته،إلّا أنّ من یأتی بعدهم فی الفترات المقبله و هم ذوو عمل صالح و إیمان راسخ أفضل منهم من جهه واحده و هی أنّ أصحاب النّبی شهدوا معاجزه بجمیع أنواعها غیر أنّ الآخرین اتبعوا منهاجه دون مشاهدتها و ساروا علی هداه بالإفاده من الدلائل الأخر...

و نقرأ

فی بعض أحادیث النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه سأله أصحابه:«نحن إخوانک یا رسول اللّه؟!قال:لا ـ أنتم أصحابی،و إخوانی الذین یأتون بعدی.آمنوا بی و لم یرونی، و قال:للعامل منهم أجر خمسین منکم،قالوا:بل منهم یا رسول اللّه؟!قال:بل منکم ردّدها ثلاثا،ثمّ قال:لأنّکم تجدون علی الخیر أعوانا» (1) .

کما

نقل فی صحیح مسلم عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «وددت أنّا قد رأینا إخواننا،قالوا:أو لسنا إخوانک یا رسول اللّه؟!فقال:أنتم أصحابی و إخواننا الذین لم یأتوا بعد» (2) .

و یؤیّد العقل و المنطق هذه المقوله أیضا حیث إنّ من لم یدرکوا رسول اللّه و لم یتعلّموا بین یدیه و هم فی الوقت ذاته مثل أصحابه من حیث الإیمان و العمل الصالح فهم أفضل من الصحابه...

الثالثه:إنّ هذا الکلام من وجهه النظر التاریخیه مقدوح فیه کثیرا لأنّ بعض الصحابه بعد زمان النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بل حتی فی عصره حاد عن جادّه الصواب...

فکیف یمکن أن نبرّئ الذین أشعلوا نار فتنه«الجمل» و قتلوا ما قتلوا و حملوا علی خلیفه رسول اللّه حقّا بالسیف و لا نعدّهم آثمین خاطئین...

أو أن نقول إنّ الذین اجتمعوا فی النهروان و صفّین و ثاروا علی وصی رسول اللّه

1- 1) -تفسیر روح المعانی،ج 9،ص 61.

2- 2) -صحیح مسلم،ج 1،الحدیث 39.

و خليفته المنتخب من قبل المسلمين و سفكوا الدماء الغزيره مشمولون برضوان اللّه و لا غبار عليهم من الذنب و الإثم؟! و أعجب من ذلك كله أن يعتذر-عن أولئك الذين أخطأوا كلّ هذه الأخطاء و فعلوا ما فعلوا-بأنّهم مجتهدون،و المجتهد معذور!هكذا وجّهوا الأمر!! و إذا أمكن أن توجّه أمثال هذه الذنوب الكبيره على أنّها اجتهاد فلا مجال لملامه أى قاتل،و لا داعى لإقامه حدود اللّه فى شأنه!!فلعلّه اجتهد فأخطأ!!...

و بتعبير آخر:أنّه قد تقابلت فى معركه الجمل و صفّين و النهروان طائفتان متحاربتان و من المسلّم به قطعا أنّهما لم تكونا جميعا على الحق،لأنّ الجمع بين الضدّين محال،فمع هذا التقدير كيف يمكن القول بأنّ الطائفتين كلتيهما مشمولتان برضا اللّه،و المسأله لم تكن من المسائل العويصه الملتويه و لم يكن التمييز بين الحق و الباطل صعبا و لا مشكلا...فالجميع كانوا يعرفون أنّ عليا عليه السّلام أمّا طبقا لنص النّبى عليه أو بانتخاب المسلمين هو الخليفه الحق و مع هذا فقد واجهوه بالسيف، فكيف يوجه هذا العمل عن طريق الاجتهاد؟ و لم لا يوجّهون قيام«أصحاب الردّه»فى زمان أبى بكر عن طريق الاجتهاد و عدوّهم مرتدّين رسما...غير أنّهم برّأوا أصحاب الجمل و صفّين و النهروان من أى ذنب و إثم!!؟ و على كلّ حال...يبدو أنّ مسأله«تنزيه الصحابه»بصوره مطلقه كانت حكما سياسيا لتحفّظ جماعه بعد النّبى موقعها و تعوّل على هذا الحكم،و تصون نفسها من الانتقاد...

و هذا الموضوع لا ينسجم مع حكم العقل و لا مع التواريخ الإسلاميه المسلّم بها...

و ما أحسن أن نحتكم فى شأن أصحاب النّبى فى الوقت الذى نجلّهم و نحترمهم ذاته-إلى معيار يقضى عليهم بالحق من خلال أعمالهم و عقائدهم عبر حياتهم من

البدايه حتى النهايه،ذلك المعيار الذى أفدناه من القرآن الكريم و ذلك المعيار الذى وزن النّبى به صحابته...

٢-المحبّه الإسلاميه المتبادله

فى الروايات الإسلاميه الوارده فى تفسير الآيه الأخيره من سوره الفتح تأكيد لا مزيد عليه على قوله تعالى: رُحَمٰاءُ بَيْنَهُمْ و من بين هذه الروايات ما نقرأه

عن الإمام الصادق عليه السّلام: «المسلم أخو المسلم،لا يظلمه و لا يخذله و لا يخونه و يحقّ على المسلم الاجتهاد فى التواصل و التعاون على التعاطف و المواساه لأهل الحاجه و تعاطف بعضهم على بعض،حتى تكونوا كما أمركم اللّه عزّ و جلّ رحماء بينكم متراحمين،مغتّمين لما غاب عنكم من أمرهم على ما مضى عليه معشر الأنصار على عهد رسول اللّه» (١) .

إلاّ أنّ العجيب أنّ المسلمين فى هذا العصر لا يقتدون بتعاليم هذه الآيه المؤثره و ما تنقله من خصائص أصحاب رسول اللّه و المؤمنين الصادقين،و ربّما تحامل بعضهم على بعض و أثار الحفيظه و سفك الدماء و هو ما لم يفعله أعداء الإسلام أحيانا...

و ربّما ارتبطوا بالكفّار و أنشئوا علائق المحبّه حتى تظن أنّهم إخوان من أصل واحد و نسب واحد.

فلا خبر عن الركوع و السجود و لا النيّات الخالصه و لا ابتغاء فضل اللّه و لا آثار السجود فى سيماهم و لا الزرع الذى أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه!! و العجيب أيضا...أنّه كلّما ابتعدنا عن الأصول القرآنيه هذه منينا بالذل و النكبه أكثر فأكثر و مع ذلك لا نلتفت من أين نؤكل؟!و ما تزال حميّه الجاهليه تصدّنا عن

١- ١) -أصول الكافى-طبقا لتفسير نور الثقلين،ج ٥،ص ٧٧،الحديث ٩١.

التفكير و إعاده النظر و العوده نحو القرآن...

اللّهمّ نبّهنا من نومه الغافلين!...

اللّهمّ وفّقنا أن نحيى فيها خلال أصحاب رسول اللّه و صفاتهم التى ذكرتها هذه الآيات البيّنات...

اللّهمّ ارزقنا الشدّه على أعدائنا و الرحمه فيما بيننا و التسليم لأمرك،و الاهتمام الى ما توليه إيّانا من العنايات الخاصّه و الجد و السعى إلى النهوض بالمجتمع الإسلامى إلى الخير و الازدهار.

اللّهمّ ارزقنا فتحا مبينا يتحرّك فى ظلّه المجتمع الإسلامى و أن نوفّق إلى نشر تعاليم هذا الدين القويم الذى يهب الحياه للناس فى هذا العصر الذى هو أحوج الى المعنويات من أى وقت آخر،و أن نفتح كلّ يوم قلوبا جديده إلى نور الإسلام...

آمين يا ربّ العالمين انتهت سوره الفتح ***

ص :۵۰۴

سوره الحجرات

اشاره

مدنیّه و عدد آیاتها ثمانی عشره آیه

ص :۵۰۵

محتوى السوره:

هـذه السوره التى لا تتجاوز ۱۸ آیه تحمـل فی ما تحمل مسائل مهمه تتعلّق بشـخص النّبی الکریم صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم و المجتمـع الإسـلامی بعضـه ببعض و حیـث أنّ أغلب المسائـل الأخلاقیه تـدور فی هـذه السـوره فیمکن أن نسـمّی هـذه السـوره ب«سوره الأخلاق و الآداب»...

و یمکن علی الإجمال تقسیم مضامین السوره علی النحو التالی:

القسم الأوّل:آیات بدایه السوره و هی تبین طریقه التعامل مع النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و آدابها و ما ینبغی علی المسلمین مراعاته من أصول عند حضره النبی.

الثّانی:تشـتمل هـذه السوره علی سلسـله من أصول«الأخلاق الاجتماعیه» المهمّه التی إن عمل بها و علی هـداها حفظت المحبّه و الصـفاء و الأمن و الاتحاد فی المجتمع الإسلامی،و علی العکس من ذلک لو أهملت تکون سببا للشقاء و النفاق و التفرّق و عدم الأمن...

الثّالث:الأوامر الإرشادیه المتعلّقه بکیفیه مواجهه الاختلافات و التنازع أو القتال الذی قد یقع بین المسلمین أحیانا...

الرابع:یتحدّث عن معیار قیمه الإنسان عند اللّه و أهمیه التقوی!...

الخـامس:یعالـج قضـیه أنّ الإیمـان لیس بـالقول فحسب بـل لاـ بـدّ من ظهور آثاره فی أعمال الإنسان و الجهاد بالمال و النفس- إضافه إلی الإعتقاد فی القلب- السادس:یتحدّث عن أنّ الإیمان و الإسلام هما هدیه إلهیه للمؤمنین و بدلا من

أن يمنّوا بالإسلام أو الإيمان ينبغى أن يشكروا اللّه على هذه الهديه إذ شملهم بها...

السابع:و الأخير يتحدّث عن علم اللّه و اطلاعه و عن جميع أسرار الوجود الخفيه و أعمال الإنسان،و هذا القسم بمثابه الضامن لتنفيذ جميع هذه الأقسام الوارده فى هذه السوره! و تسميه هذه السوره بسوره«الحجرات»لورود هذه الكلمه فى الآيه الرابعه منها و سنبيّن تفسيرها فى السطور التاليه...

فضيله تلاوه هذه السوره!

يكفى أن نعرف فضيله هذه السوره من حديث نقرؤه

عن النّبى فى فضلها!...

«من قرأ سوره الحجرات اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من أطاع اللّه و عصاه».

كما نقرأ حديثا آخر

عن الإمام الصادق فى فضلها يقول: «من قرأ سوره الحجرات فى كلّ ليله أو فى كلّ يوم كان من زوّار محمّد»...

و بديهى أنّ كلّ هذه الحسنات التى هى بعدد المطيعين و العاصين إنّما تكون فى صوره ما لو أخذنا بنظر الإعتبار كلا من الفريقين و أن نفكّر جيدا فنجعل مسيرنا وفقا لمنهج المطيعين و نبتعد عن منهج العاصين.

و نيل زياره النّبى أيضا فرع على أن نعمل وفق الآداب المذكوره فى الحضور عنده صلى اللّه عليه و آله و سلّم لأنّ التلاوه فى كلّ مكان مقدمه للعمل...

***

الآيات [سوره الحجرات (۴۹): الآيات ۱ الی ۵]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيمِ يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اَللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱) يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَرْفَعُوا أَصْوٰاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ اَلنَّبِيِّ وَ لاٰ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمٰالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تَشْعُرُونَ (۲) إِنَّ اَلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوٰاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اَللّٰهِ أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ اِمْتَحَنَ اَللّٰهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۳) إِنَّ اَلَّذِينَ يُنٰادُونَكَ مِنْ وَرٰاءِ اَلْحُجُرٰاتِ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْقِلُونَ (۴) وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتّٰى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكٰانَ خَيْراً لَهُمْ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵)

سبب النّزول

ذکر المفسّرون لنزول الآیه الأولی من هذه السوره شأنا بل شؤونا کما ذکروا

لنزول الآيات التی بعدها شؤونا أخر! فمن الشؤون التی ذكروها لنزول الآیه الأولی أنّه:حین أراد النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أن یتوجّه إلی خیبر رغب فی أن یخلّف شخصا معیّنا مكانه فی المدینه و ینصّبه خلیفه عنه،فاقترح عمر شخصا آخر،فنزلت الآیه الآنفه و أمرت أن لا تقدموا بین یدی اللّه و رسوله (۱) .

و قال آخرون:كان بعض المسلمین بین الفینه و الأخری یقولون لو نزلت فینا آیه لكان أفضل،فنزلت الآیه أن لا تقدموا بین یدی اللّه و رسوله (۲) .

و قال بعضهم،إنّ الآیه تشیر إلی أعمال بعض المسلمین الذین كانوا یؤدّون عباداتهم قبل أوانها،فنزلت الآیه لتنهاهم عن مثل هذه الأعمال (۳) .

و أمّا فی شأن الآیه الثانیه فقد قال المفسّرون إنّ طائفه من«بنی تمیم» و أشرافهم و ردوا المدینه،فلمّا دخلوا مسجد النّبی نادوا بأعلی صوتهم من وراء الحجرات التی كانت للنبی:یا محمّد أخرج إلینا.فأزعجت هذه الصرخات غیر المؤدّبه النبی،فخرج إلیهم فقالوا له:جئناک لنفاخرک فأجز شاعرنا و خطیبنا لیتحدّث عن مفاخر قبیلتنا،فأجازهم النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فنهض خطیبهم و تحدّث عن فضائلهم الخیالیه الوهمیّه كثیرا...

فأمر النّبی(ثابت بن قیس)أن یردّ علیهم (۴) فنهض و خطب خطبه بلیغه فلم یبق لخطبه أولئک من أثرا!...

ثمّ نهض شاعرهم و ألقی قصیده فی مدحهم فنهض«حسان بن ثابت»فردّ علیه بقصیده شافیه كافیه! فقام رجل من أشراف تلک القبیله و اسمه«الأقرع»فقال:إنّ هذا الرجل یعنی

۱- ۱،۲،۳) -تفسیر القرطبی،ج ۹،ص ۶۱۲۱.
۲- ۴) -كان«ثابت بن قیس»خطیب الأنصار و خطیب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم كما كان حسّان بن ثابت شاعره[أسد الغابه،ج ۱، ص ۲۲۹] .
۳-
۴-

محمّدا خطيبه أبلغ من خطيبنا و شاعره أجدر من شاعرنا و صدى صوته أبعد مدى من صوتنا...

فأمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن تهدى لهم هدايا ليكتسب قلوبهم إليه فكان أن تأثّروا بمثل هذه المسائل فاعترفوا بنبوّته! فالآيات محل البحث ناظره إلى هذه القضيه و الأصوات من خلف الحجرات.

و هناك شأن آخر لنزول الآيه بل هو يتعلّق بالآيه الأولى و ما بعدها و هو أنّه فى السنه التاسعه للهجره[حين كانت القبائل تفد على النّبى للسلام عليه أو للمعاهده معه]

و قد عرف العام ذلك«بعام الوفود»و عند وصول ممثلى قبيله تميم إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قال أبو بكر:ليكن«القعقاع»(أحد أشراف تلك القبيله)أميرها،و اقترح عمر أن يكون«الحابس بن أقرع»أميرها.فقال أبو بكر لعمر أردت أن تخالفنى، فردّ عليه عمر بأنّه لم يرد مخالفته أبدا،فتعالى الصياح و الضجيج بينهما،فنزلت الآيات الآنفه...أى لا تقترحوا فى الأمور على النّبى شيئا و لا تتقدّموا عليه فى العمل و لا ترفعوا أصواتكم عند بيت النبى (1) .

***

التّفسير

اشاره

آداب الحضور عند النبى:

كما أشرنا آنفا أنّ فى محتوى هذه السوره قسما من المباحث الأخلاقيه المهمّه و الأوامر و التعليمات الانضباطيه التى تدعونا إلى تسميه هذه السوره بسوره الأخلاق،و هذه المسائل و التعليمات تقع فى الآيات الأوّل من السوره محل البحث-و الآيات هذه على نحوين من التعليمات.

1- 1) -نقل ذلك القرطبى فى تفسيره،ج 9،ص 6121،و سيد قطب فى ظلاله،ج 7،ص 524،و ابن هشام فى سيرته ص 206 فما بعد(مع شيء من التفاوت و الاختلاف)كما ورد فى صحيح البخارى،ج 6،ص 172،فى تفسيره سوره الحجرات..

الأول:عدم التقدّم على اللّه و رسوله و عدم رفع الصوت عند رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم...

فتقول الآيه الأولى فى هذا الصدد: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

و المراد من عدم التقديم بين يدى اللّه و رسوله هو أن لا يقترح عليهما فى الأمور،و ترك العجله و الإسراع أمام أمر اللّه و رسوله...

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين أرادوا أن يحدّدوا مفهوم الآيه و جعلوه منحصرا بأداء العبادات قبل وقتها،أو التكلّم قبل كلام رسول اللّه و أمثال ذلك،إلّا أنّه من الواضح أنّ للآيه مفهوما واسعا يشمل أى تقدّم و إسراع فى كلّ خطّه و منهج (۱) .

إنّ مسئوليه انضباط السائرين إزاء القاده و خاصه إزاء القاده الإلهيين تقتضى ألّا يتقدّموا عليهم فى أى عمل و قول و لا يعجل أحد عندهم.

و بالطبع فإنّ هذا الكلام لا يعنى بأنّه لا يجوز لهم أن يتشاوروا مع النّبى إذا كان لديهم شىء يجدر بيانه، بل المراد منه إلّا يعجلوا و يبادروا بالتصميم قبل أن يوافق النّبى على ذلك!حتى أنّه لا ينبغى أن تثار أسئله و مناقشات أكثر ممّا يلزم فى شأن المسائل،بل ينبغى أن يترك الأمر للقائد نفسه أن يبيّن المسائل فى حينها،لا سيما إذا كان القائد معصوما الذى لا يغفل عن أى شىء!كما أنّه لو سئل المعصوم أيضا، لا يحقّ للآخرين أن يجيبوا السائل قبل أن يردّ عليه المعصوم،و فى الحقيقه أنّ الآيه جمعت كلّ هذه المعانى فى طيّها.

و الآيه الثانيه تشير إلى الأمر الثّانى فتقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ .

---

۱ – ۱) -ورد الفعل«لا تقدموا»على صيغه الفعل المتعدى إلا أن المفعول محذوف هنا و تقديره:لا تقدموا أمرا بين يدى الله و رسوله و قد احتمل بعضهم أن هذا الفعل لازم هنا و مفهومه لا تتقدموا بين يدى الله و بالرغم من أن الفعلين مختلفان شكلا إلا أن المعنى أو النتيجه واحده..

و الجمله الأولى: لاٰ تَرْفَعُوا أَصْوٰاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ إشاره إلى أنّه لاٰ ينبغى رفع الصوت على صوت النبى،فهو بنفسه نوع من الإساءه الأدبيه فى محضره المبارك،و النّبى له مكانته.و هذا الأمر لاٰ يجدر أن يقع أمام الأب و الأم و الأستاذ لأنّه مخالف للاحترام و الأدب أيضا.

أمّا جمله: لاٰ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ فيمكن أن تكون تأكيدا على المعنى المتقدّم فى الجمله الأولى،أو أنّها إشاره إلى مطلب آخر،و هو ترك مخاطبه النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بالنداء«يا محمّد»و العدول عنه بالقول:«يا رسول اللّه»!...

غير أنّ جماعه من المفسّرين قالوا فى الفرق بين الجملتين آنفتى الذكر ما يلى:- إنّ الجمله الأولى ناظره إلى زمان يتحادث الناس فيه مع النبى،فلا ينبغى لأحد أن يرفع صوته فوق صوت النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أمّا الجمله الثانيه فناظره الى زمان يكون الرّسول فيه صامتا و أصحابه يحدّثونه،ففى هذه الحاله أيضا لا ينبغى رفع الصوت عنده.

و الجمع بين هذه المعنى و المعنى السابق أيضا-لا مانع منه كما أنّه ينسجم مع شأن نزول الآيه،و على كلّ حال فظاهر الآيه هو بيان أمرين مختلفين...

و بديهى أنّ أمثال هذه الأعمال إن قصد بها الإساءه و الإهانه لشخص النّبى و مقامه الكريم فذلك موجب للكفر،و إلاّ فهو إيذاء له و فيه إثم أيضا...

و فى الصوره الأولى تتّضح عله الحبط و زوال الأعمال،لأنّ الكفر يحبط العمل و يكون سببا فى زوال ثواب العمل الصالح...

و فى الصوره الثانيه أيضا،لا يمنع أن يكون مثل هذا العمل السىء باعثا على زوال ثواب الكثير من الأعمال.

و قلنا سابقا فى بحث الحبط أنّه لاٰ مانع من زوال ثواب بعض الأعمال بسبب بعض الذنوب الخاصه،كما أنّ زوال أثر بعض الذنوب بسبب الأعمال الصالحه

قطعیّ أیضا...و هناک دلائل کثیره فی الآیات القرآنیه أو الأحادیث الشریفه علی هذا المعنی و رغم أنّ هذا المعنی لم یثبت علی أنّه قانون کلّی فی جمیع الحسنات و السیئات،إلاّ أنّه توجد دلائل نقلیه فی شأن بعض الحسنات و السیئات المهمّه و لا یوجد دلیل عقلی مخالف لها! (۱) .

و

قد ورد فی روایه أنّه حین نزلت الآیه آنفه الذکر قال«ثابت بن قیس»خطیب النّبی الذی کان له صوت جهوری عال:أنا الذی رفعت صوتی فوق صوت النّبی فحبطت أعمالی و أنا من أهل النّار...

فبلغ ذلک سمع النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فقال:«هو من أهل الجنّه» (۲) . لأنّه حین فعل ذلک للمؤمنین أو أمام المخالفین و کان ذلک أداء لوظیفه إسلامیه.

کما أنّ ابن العباس بن عبد المطلب نادی بأمر النّبی الذین فرّوا فی معرکه «حنین»بصوت عال لیعودوا إلی ساحات القتال! و فی الآیه الأخری مزید تأکید علی الثواب الذی أعدّه اللّه لأولئک الذین یمتثلون أمر اللّه و یراعون الآداب عند رسول اللّه فتقول: إِنَّ الَّذِینَ یَغُضُّونَ أَصْوٰاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللّٰهِ أُولٰئِکَ الَّذِینَ امْتَحَنَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْویٰ لَهُمْ مَغْفِرَهٌ وَ أَجْرٌ عَظِیمٌ (۳) .

کلمه«یغضون»مشتقه من غضّ-علی وزن حظّ-و معناها تقلیل النظر أو خفات الصوت و یقابل هذه الکلمه الإمعان بالنظر و الجهر بالصوت.

و کلمه«امتحن»مشتقه من الامتحان،و الأصل فی استعمالها إذابه الذهب و تطهیره من غیر الخالص،کما أنّها تستعمل فی بسط الجلد المعدّ للدّبغ،ثمّ

۱- ۱) -لمزید الاطلاع بحثنا مسأله الحبط فی ذیل الآیه(۲۱۷)من سوره البقره فلیراجع.

۲- ۲) -یراجع مجمع البیان،ج ۹،ص ۱۳۰،و قد ورد هذا الحدیث بتفاوت فی بعض الکلمات عند کثیر من المفسّرین و لا سیما البخاری فی صحیحه و سید قطب فی ظلاله و غیرهما.

۳- ۳) -«اللام»فی کلمه«التقوی»فی الحقیقه هی لام الغایه و لیست(لام العلّه)أی أنّ اللّه یجعل قلوب أولئک مهیّأه للقبول و التقوی،لأنّ القلب إذا لم یخلص و لم یصف فلا یکون محلا للتقوی حقیقه.

استعملت بعدئذ فی مطلق الاختبار کما هی الحال بالنسبه للآیه محل البحث، و نتیجه ذلک خلوص القلب و بسطه لقبول التقوی...

و ممّا یسترعی الانتباه أنّ الآیه السابقه ورد فیها التعبیر بالنبی،إلاّ أنّ هذه الآیه ورد التعبیر فیها عنه برسول اللّه،و کلتا الآیتین تشیر إلی هذه«اللطیفه»:و هی أنّ النّبی لیس عنده شیء من نفسه،بل هو رسول اللّه و نبیّه،فإساءه الأدب إلیه إساءه الأدب إلی اللّه و رعایه الأدب إلیه رعایه للّه.

و نکّرت کلمه«مغفره»للتعظیم و الأهمیه...أی أنّ اللّه یجعل نصیبهم المغفره الکبری و التامه،و بعد تطهیرهم من الذنب یرزقهم الأجر العظیم،لأنّه لا بدّ من التطهیر من الذنب أولا،ثمّ الانتفاع من الأجر العظیم من قبل اللّه...

أمّا الآیه الأخری فتشیر إلی جهل أولئک الذین یجعلون أمر اللّه وراء ظهورهم، و عدم إدراکهم فتقول: إِنَّ الَّذِینَ یُنٰادُونَکَ مِنْ وَرٰاءِ الْحُجُرٰاتِ أَکْثَرُهُمْ لاٰ یَعْقِلُونَ .

فأی عقل یدفع الإنسان إلی أن ینادی برفیع صوته أمام أعظم سفیر إلهی فلا یلتفت الی آداب النداء کما فعلت قبیله بنی تمیم فنادت النّبی بصوت مزعج یا محمّد یا محمّد أخرج إلینا و هو مرکز المحبّه و العطف الإلهی؟! و أساسا کلّما ترقّی عقل الإنسان زید فی أدبه فیعرف القیم الأخلاقیه بصوره أحسن و من هنا فإنّ إساءه الأدب دلیل علی عدم العقل،أو بتعبیر آخر إنّ إساءه الأدب عمل الحیوان،أمّا الأدب أو رعایه الأدب فهو من عمل الإنسان...

جمله أَکْثَرُهُمْ لاٰ یَعْقِلُونَ «الأکثر»فی لغه العرب یطلق أحیانا بمعنی الجمیع، و إنّما استعمل هذا اللفظ رعایه للاحتیاط فی الأدب حتی لو أنّ واحدا أستثنی من الشمول لا یضیع حقّه عند التعبیر بالأکثر،فکأنّ اللّه یرید أن یقول:إنّی أنا اللّه الذی أحطت بکلّ شیء علما،عند الکلام علی مثل هذه الأمور أراعی الأدب فی ذلک فعلام لا تراعون فی کلامکم هذه الناحیه؟! أو لأنّه یوجد فیهم أناس یعقلون حقّا،و لعاده الناس و عدم التفاتهم فی رفع

الصوت يريد القرآن أن يحذّرهم بهذا الأسلوب أن لا ينسوا الأدب و أن يستعملوا عقولهم و أفكارهم عند الكلام...

«الحجرات»:جمع«حجره»و هی هنا إشاره إلی البیوت (۱) المتعدده لأزواج النّبی المجاوره للمسجد...

و أصل الکلمه مأخوذ من«الحجر»علی وزن الأجر:أی المنع لأنّ الحجره تمنع الآخرین من الدخول فی حریم«حیاه»الإنسان...و التعبیر ب«وراء»هنا کنایه عن الخارج من أی جهه کان!لأنّ أبواب الحجرات کانت تتفتح علی المسجد أحیانا فیقف الجهله عندها فینادون:یا محمّد أخرج إلینا،فمنعهم القرآن و نهاهم عن ذلک!...

و یضیف القرآن إکمالا للمعنی فی نهایه الآیه قائلا: وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتّٰی تَخْرُجَ إِلَیْهِمْ لَکٰانَ خَیْراً لَهُمْ .

صحیح أنّ العجله قد تجعل الإنسان أحیانا یبلغ قصده بسرعه،إلاّ أنّ الصبر فی مثل هذا«المقام»و التأنّی مدعاه إلی المغفره و الأجر العظیم.

و حیث أنّ بعضهم قد ارتکبوا جهلا هذا الخطأ من قبل،و استوحشوا من هذا الأمر و حاسبوا أنفسهم بعد نزول الآیه،فإنّ القرآن یضیف قائلا إنّهم تشملهم الرحمه عند التوبه: وَ اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ .

***

بحوث

اشاره

۱-الأدب أغلی القیم

اهتم الإسلام اهتماما کبیرا بمسأله رعایه الأدب،و التعامل مع الآخرین مقرونا

۱- ۱) -بیوت جمع بیت و هذا اللفظ یطلق علی الغرفه الواحده[أو مجموع الغرف فی مکان واحد لعائله معیّنه] و هو مشتقّ من المبیت لیلا...

بالاحترام و الأدب سواء مع الفرد أم الجماعه،و نشير إلى طائفه من الأحاديث الشريفه هنا على أنّها شواهد و أمثال لهذا العنوان...

-١

يقول الإمام على عليه السّلام: «الآداب حلل مجدّده» (١) .

و

يقول فى مكان آخر: الأدب يغنى عن الحسب (٢) .

كما أنّنا نقرأ حديثا آخر

عن الإمام الصادق عليه السّلام يقول فيه: «خمس من لم تكن فيه لم يكن كثير فيه مستمتع؛قيل:و ما هنّ يا ابن رسول اللّه قال عليه السّلام:الدين و العقل و الحياء و حسن الخلق و حسن الأدب» (٣) .

و نقرأ فى مكان آخر

حديثا عنه عليه السّلام أيضا يقول فيه: لا يطمعنّ ذو الكبر فى الثناء الحسن و لا الخبّ فى كثره الصديق و لا السيء الأدب فى الشرف (۴) ...

و لذلك فإنّنا حين نقرأ تأريخ حياه القاده فى الإسلام و ننعم النظر فيها نلاحظ أنّهم يراعون أهم النقاط الحسّاسه و اللطائف الدقيقه فى الأخلاق و الآداب حتى مع الأناس البسطاء،و أساسا فإنّ الدين مجموعه من الآداب،الأدب بين يدى اللّه و الأدب بين يدى الرّسول و الأئمه المعصومين،و الأدب بين يدى الأستاذ و المعلم، أو الأب و الأم و العالم و المفكّر...

و التدقيق فى آيات القرآن الكريم يكشف عن أنّ اللّه سبحانه بما له من مقام العظمه حين يتكلّم مع عباده،يراعى الآداب بتمامها...

فحيث يكون الأمر على هذه الشاكله فمن المعلوم عندئذ ما هى وظيفه الناس أمام اللّه؟و ما هو تكليفهم؟!و نقرأ فى بعض الأحاديث الإسلاميه أنّه حين نزلت الآيات الأولى من سوره«المؤمنون»و أمرتهم بسلسله من الآداب الإسلاميه، و منها مسأله الخشوع فى الصلاه،و كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ينظر أحيانا إلى السماء عند

١- ١) -نهج البلاغه الحكمه-۵.

٢- ٢) -بحار الأنوار،ج ٧۵،ص ۶٨.

٣- ٣) -المصدر السابق،ص ۶٧.

۴- ۴) -المصدر السابق.

الصلاه ثمّ ينظر إلى الأرض مطرقا برأسه«لا يرفعه» (۱) .

و فى ما يخص النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان هذا الموضوع ذا أهميه أيضا إذ صرّح القرآن فى آياته بالإعراض عن اللغو عنده و عدم رفع الصوت و الصخب،فكلّ ذلك موجب للحبط فى الأعمال و اضمحلال الثواب.

و واضح أنّه لا تكفى رعايه هذه المسأله الخلقيّه عند النّبى فحسب،بل هناك أمور أخرى ينبغى مراعاتها فى حضوره،و كما يعبّر الفقهاء ينبغى إلغاء الخصوصيه هنا و تنقيح المناط بما سبق أشباهه و نظائره! و نقرأ فى سوره النور الآيه(۶۳)منها: لاٰ تَجْعَلُوا دُعٰاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعٰاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ...و قد فسّرها جماعه من المفسّرين بأنّه«عند ما تنادون النّبى فنادوه بأدب و احترام يليقان به لا كما ينادى بعضكم بعضا»...

الطريف هنا أنّ القرآن عدّ أولئك الذين يغضون أصواتهم عند رسول اللّه و يراعون الأدب بأنّهم مطهّرو القلوب و هم مهيّئون للتقوى،و جديرون بالمغفره و الأجر العظيم...فى حين أنّه يعدّ الذين ينادونه من وراء الحجرات و يسيئون الأدب عنده-كالأنعام-أكثرهم لا يعقلون.

حتى أنّ بعض المفسّرين توسّعوا فى الآيات محل البحث و جعلوا لها مراحل أدنى أيضا بحيث تشمل المفكّرين و العلماء و القاده من المسلمين،فوظيفه المسلمين أن يراعوا الآداب بين أيديهم...

و بالطبع فإنّ هذه المسأله أكثر وضوحا فى شأن الأئمه أولى العصمه،حتى أنّه بلغنا بعض الروايات الوارده عن أهل البيت أنّه«حين دخل أحد الأصحاب على الإمام بادره الإمام دون مقدّمه: أما تعلم

أنّه لا ينبغى للجنب أن يدخل بيوت الأنبياء» (۲) .

ص: ۵۱۸

۱- ۱) -راجع تفسير مجمع البيان و تفسير الفخر الرازى،ذيل الآيه ۲ سوره المؤمنون.
۲- ۲) -بحار الأنوار،ج ۲۷،ص ۲۵۵.

و ورد التعبير فی روایه أخری بهذه الصوره:

«أنّ بیوت الأنبیاء و أولاد الأنبیاء لا یدخلها الجنب».

و ملخص القول أنّ مسأله رعایه الآداب أمام الکبیر و الصغیر تشمل قسما کبیرا من التعلیمات الإسلامیه بحیث لو أردنا أن ندرجها ضمن بحثنا هذا لخرجنا عن تفسیر الآیات،إلاّ أنّنا نختم بحثنا بحدیث عن الإمام علی بن الحسین(السجّاد) فی«رساله الحقوق»حیث قال فی«مورد رعایه الأدب أمام الأستاذ»:

«و حقّ سائسک بالعلم التعظیم له و التوقیر لمجلسه و حسن الاستماع إلیه و الإقبال علیه و أن لا ترفع علیه صوتک و لا تجیب أحدا یسأله عن شیء حتی یکون هو الذی یجیب و لا تحدّث فی مجلسه أحدا و لا تغتاب عنده أحدا و أن تدفع عنه إذا ذکر عندک بسوء و أن تستر عیوبه و تظهر مناقبه و لا تجالس له عدوا و لا تعادی له ولیا فإذا فعلت ذلک شهدت لک ملائکه اللّه بأنّک قصدته و تعلّمت علمه للّه جلّ اسمه لا للناس» (١) .

٢-رفع الصوت عند قبر الرسول

قال جماعه من العلماء و المفسّرین أنّ الآیات محل البحث کما أنّها تمنع رفع الصوت عند النّبی حال حیاته فهی کذلک شامله للمنع بعد وفاته (٢) .

و إذا کان المراد من تعبیرهم آنفا شمول العباره فی الآیه،فظاهر الآیه یخصّ زمان حیاته صلی اللّه علیه و آله و سلّم لأنّها تقول: لاٰ تَرْفَعُوا أَصْوٰاتَکُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِیِّ و ذلک فی حاله ما یکون النّبی له حیاه جسمانیه و هو یتکلّم مع أحد فلا یجوز رفع الصوت فوق صوته...

لکن إذا کان مرادهم-المناط-و فلسفه الحکم-و هی واضحه فی هذه الموارد

١- ١) -المحجّه البیضاء،ج ٣،ص ۴۵٠،باب آداب الصحبه و المعاشره.

٢- ٢) -روح المعانی،ج ٢۶،ص ١٢۵.

و أمثالها-و أهل العرف-يلغون«الخصوصيه»،فلا يبعد التعميم المذكور.لأنّه من المسلّم به-أنّ الهدف هنا رعايه الأدب و احترام ساحه قدس النبی،فعلی هذا متی ما کان رفع الصوت عند قبره نوعا من هتک الحرمه فهو بدون شکّ غیر جائز،إلاّ أن یکون أذانا للصلاه أو تلاوه للقرآن أو إلقاء خطبه...و أمثال ذلک فإنّ هذه الأمور لیس فیه أی إشکال لا فی حیاه النّبی و لا بعد وفاته...

و نقرأ حدیثا

فی أصول الکافی نقل عن الإمام الباقر فی شأن ما جری للحسن بعد وفاته و ممانعه عائشه عن دفنه فی جوار رسول اللّه جاء فیه أنّه حین ارتفعت الأصوات استدل الإمام الحسین علیه السّلام بالآیه: یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوٰاتَکُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِیِّ و

نقل عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم قوله: إنّ اللّه حرّم من المؤمنین أمواتا ما حرّم منهم أحیاء (۱) .

و هذا الحدیث شاهد آخر علی عموم مفهوم الآیه!

۳-الانضباط الإسلامی فی کلّ شیء و فی کلّ مکان!

إنّ مسأله المدیریه لا تتم بدون رعایه الانضباط،و إذا أرید للناس العمل تحت مدیریه و قیاده-حسب رغبتهم،فإنّ اتساق الأعمال سینعدم عندئذ و إن کان المدیرون و القاده جدیرین.

و کثیر من الأحداث و النواقص التی نلاحظها تحدّث عن هذا الطریق،فکم من هزیمه أصابت جیشا قویا أو نقصا حدث فی أمر یهمّ جماعه و ما إلی ذلک کان سببه ما ذکرناه آنفا...و لقد ذاق المسلمون أیضا مراره مخالفه هذه التعالیم مرارا فی عهد النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أو بعده،و من أوضح الأمور قصه هزیمه المسلمین فی معرکه أحد لعدم الانضباط من قبل جماعه قلیله من المقاتلین.

و القرآن یثیر هذه المسأله المهمّه فی عباره موجزه فی الآیه الآنفه و بأسلوب

۱- ۱) -أصول الکافی-طبقا لما نقل فی نور الثقلین،ج ۵،ص ۸۰.

جامع طریف إذ یقول: یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تُقَدِّمُوا بَیْنَ یَدَیِ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ .

و مفهوم الآیه کما أشرنا سابقا واسع إلی درجه أنّها تشمل أی نوع من أنواع التقدّم و التأخّر و الکلام و التصرّفات الذاتیه الخارجیه عن تعلیمات القیاده...

و مع هذه الحال فإنّنا نلاحظ فی تاریخ حیاه النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم موارد کثیره یتقدّم فیها بعض الأفراد علی أمره أو یتخلّفون و یلون رؤوسهم فیکونون موضع الملامه و التوبیخ الشدید...و من ذلک ما یلی...

۱-حین تحرّک النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لفتح مکّه فی السنه الثامنه للهجره کان ذلک فی شهر رمضان و کان معه جماعه کثیره،منهم الفرسان و منهم المشاه،و لمّا بلغ(منزل) کراع الغمیم أمر بإناء ماء، فتناول منه الرّسول و أفطر ثمّ أفطر من کان معه،إلاّ أنّ العجیب أنّ جماعه منهم(تقدّم علی النبی)و لم یوافقوا علی الإفطار و بقوا صائمین فسمّاهم النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بالعصاه (۱) ! ۲-و مثل آخر ما حدث فی حجه الوداع فی السنه العاشره للهجره حیث أمر النبیّ أن ینادی المنادی:«من لم یسق منکم هدیا فلیحلّ و لیجعلها عمره،و من ساق منکم هدیا فلیقم علی إحرامه»ثمّ یؤدّی مناسک الحج و أنّ من جاء بالهدی (و حجّه حجّ إفراد)فعلیه أن یبقی علی إحرامه...ثمّ

قال صلی اللّه علیه و آله و سلّم «لولا أنّی سقت الهدی لأحللت،و جعلتها عمره،فمن لم یسق هدیا فلیحلّ». إلاّ أنّ جماعه أبوا و قالوا کیف یمکننا أن نحل و ما یزال النّبی محرما ألیس قبیحا أن نمضی للحج بعد أداء العمره و یسیل منّا ماء الغسل«من الجنابه».

فساء النّبی ما قالوا و وبّخهم و لامهم (۲) .

۳-قصه التخلّف عن جیش أسامه عند ما أراد النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أن یلتحق بالرفیق

۱- ۱) -نقل هذا الحدیث کثیر من المؤرخین و المحدّثین و منها ما ورد فی الجزء السابع من وسائل الشیعه،الصفحه ۱۲۵،باب من یصح منه الصوم مع شیء من التلخیص.

۲- ۲) -بحار الأنوار،ج ۲۱،ص ۳۸۶(بشیء من التصرّف و الاختصار).

الأعلى معروفه حيث أمر صلى اللّه عليه و آله و سلّم المسلمين أن ينفّذوا جيش أسامه بن زيد و يتحرّكوا إلى حرب الروم و أمر المهاجرين و الأنصار أن يتحرّكوا مع هذا الجيش...

و لعلّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أراد ألّا تقع عند رحلته مسائل فى أمر الخلافه-و قد وقعت- حتى أنّه لعن المتخلّفين عن جيش أسامه و مع كلّ ذلك تخلّف جماعه بحجه أنّهم لا يستطيعون أن يتركوا النّبى فى مثل هذه الظروف (۱) !!...

۴-قصه«القلم و الدواه»معروفه أيضا و هى فى الساعات الأخيره من عمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كما أنّها مثيره و الأحسن أن ننقل ما جاء من عباره

فى صحيح مسلم بعينها هنا:

«لمّا حضر رسول اللّه و فى البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب فقال النبى:هلمّ اكتب لكم كتابا لا تضلّون بعده،فقال عمر إنّ رسول اللّه قد غلب عليه الوجع، و عندكم القرآن حسبنا كتاب اللّه، فاختلف أهل البيت،فاختصموا فمنهم من يقول:

قرّبوا يكتب لكم رسول اللّه كتابا لن تضلّوا بعده و منهم من يقول ما قال عمر فلمّا أكثروا اللغو و الاختلاف عند رسول اللّه قال رسول اللّه قوموا» (۲) !...

و ممّا تجدر الإشاره إليه أنّ هذا الحديث عينه نقله البخارى فى صحيحه باختلاف يسير جدا«صحيح البخارى،ج ۶،باب مرض النبى،ص ۱۱».

و هذه القضيه من الحوادث المهمّه فى التأريخ الإسلامى التى تحتاج إلى تحليل و بسط ليس هنا محلّه و لكنّها على كلّ حال من أجلى موارد التخلّف عن أمر النّبى و مخالفه الآيه محل البحث: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللّهِ وَ رَسُولِهِ ...

۱- ۱) -ذكر هذه القصه مؤرّخون كثر فى كتب التاريخ الإسلامى و هى من الحوادث المهمّه فى تاريخ الإسلام«لمزيد الاطلاع يراجع كتاب المراجعات-المراجعه ۹۰-منه».

۲- ۲) -صحيح مسلم،ج ۳،كتاب الوصيه،الحديث ۲۲.

و ما يهمّنا هنا أنّ رعايه الانضباط الإسلامی و الإلهی تحتاج إلی روح التسليم المطلق و قبول القياده«الإلهيه»فی جميع شؤون الحياه و الإيمان المتين بمقام القائد الشامخ...

***

ص :523

الآیات [سوره الحجرات (۴۹): الآیات ۶ الی ۸]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِنْ جٰاءَکُمْ فٰاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَیَّنُوا أَنْ تُصِیبُوا قَوْماً بِجَهٰالَهٍ فَتُصْبِحُوا عَلیٰ مٰا فَعَلْتُمْ نٰادِمِینَ (۶) وَ اِعْلَمُوا أَنَّ فِیکُمْ رَسُولَ اَللّٰهِ لَوْ یُطِیعُکُمْ فِی کَثِیرٍ مِنَ اَلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لٰکِنَّ اَللّٰهَ حَبَّبَ إِلَیْکُمُ اَلْإِیمٰانَ وَ زَیَّنَهُ فِی قُلُوبِکُمْ وَ کَرَّهَ إِلَیْکُمُ اَلْکُفْرَ وَ اَلْفُسُوقَ وَ اَلْعِصْیٰانَ أُولٰئِکَ هُمُ اَلرّٰاشِدُونَ (۷) فَضْلاً مِنَ اَللّٰهِ وَ نِعْمَهً وَ اَللّٰهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۸)

سبب النّزول

قال بعض المفسّرین کالطبرسی فی مجمع البیان:هناک قولان فی شأن نزول الآیه الأولی من الآیات أعلاه،و لکنّ بعضهم اکتفی بقول واحد منهما کالقرطبی و سید قطب،و نور الثقلین.

فالقول الأوّل فی شأن نزول الآیه محل البحث الذی ذکره أغلب المفسّرین أنّ الآیه الکریمه:یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ جٰاءَکُمْ فٰاسِقٌ بِنَبَإٍ نزلت فی«الولید بن عقبه»و ذلک أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أرسله لجمع الزکاه من قبیله«بنی المصطلق»فلمّا علم

بنو المصطلق أنّ مبعوث الرّسول قادم إليهم سرّوا كثيرا و هرعوا لاستقباله،إلّا أنّ الوليد حيث كانت له خصومه معهم فی زمان الجاهلیه،شدیده،تصوّر أنّهم یریدون قتله.

فرجع إلی النّبی«و من دون أن یتحقّق فی الأمر»و قال:یا رسول اللّه إنّهم امتنوا عن دفع الزکاه«و نعرف أنّ عدم دفع الزکاه هو نوع من الوقوف بوجه الحکومه الإسلامیه فبناء علی ذلک فإنّ مدّعی الولید یقتضی أنّهم مرتدّون»!! فغضب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لذلک و صمّم علی أن یقاتلهم فنزلت الآیه آنفه الذکر (۱) ...

و أضاف بعضهم أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم حین أخبره الولید بن عقبه بارتداد قبیله(بنی المصطلق)أمر خالد بن الولید بن المغیره أن یمضی نحوها و أن لا یقوم بعمل حتی یتریث و یعرف الحقّ...

فمضی خالد لیلا و صار قریبا من قبیله بنی المصطلق و بعث عیونه لیستقصوا الخبر فعادوا إلیه و أخبروا بأنّهم مسلمون«أوفیاء لدینهم»و سمعوا منهم صوت الآذان و الصلاه،فغدا خالد علیهم فی الصباح بنفسه فوجد ما قاله أصحابه صدقا فعاد إلی النّبی و أخبره بما رأی فنزلت الآیه آنفه الذکر،و عقّب النّبی علیها...

«التأنّی من اللّه و العجله من الشیطان» (۲) .

و ذکر بعض المفسّرین قولا آخر فی شأن نزول الآیه و عوّلوا علیه فحسب،و هو أنّ الآیه نزلت فی«ماریه القبطیه»زوج النّبی و أم إبراهیم علیه السّلام،لأنّه

قیل للنبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ لها ابن عمّ«یدعی جریحا»تتردّد إلیه أحیانا«و بینهما علاقه غیر مشروعه» فأرسل النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم خلف علی علیه السّلام فقال له«یا أخی خذ السیف فإن وجدته عندها فاضرب عنقه...» فأخذ أمیر المؤمنین السیف ثمّ قال بأبی أنت و أمی یا رسول اللّه:أکون فی أمرک

۱- ۱) -تفسیر مجمع البیان،ج ۹،ص ۱۳۲.

۲- ۲) -القرطبی،ج ۹،ص ۶۱۳۱.

إذا أرسلتنی کالسکه المحماه؛أمضی لما أمرتنی أم الشاهد یری ما لا یری الغائب فقال صلی اللّه علیه و آله و سلّم:«بل الشاهد یری ما لا یری الغائب»، قال علی:فأقبلت متوشّحا بالسیف فوجدته عندها فاخترطت السیف فلمّا عرف أنّی أریده أتی نخله فرقی إلیها ثمّ رمی بنفسه علی قفاه و شغر برجلیه فإذا أنّه أجبّ امسح مال ممّا للرجال قلیل و لا کثیر فرجعت فأخبرت النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فقال:«الحمد للّه الذی یصرف عنّا السوء أهل البیت» (۱) .

و ورد هذا الشأن ذاته فی تفسیر نور الثقلین ج ۵ مع اختلاف یسیر فی العبارات...

***

التّفسیر

اشاره

لا تکترث بأخبار الفاسقین:

کان الکلام فی الآیات الآنفه علی ما ینبغی أن یکون علیه المسلمون و وظائفهم أمام قائدهم و نبیّهم محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم و قد ورد فی الآیات المتقدّمه أمران مهمّان،الأوّل أن لا یقدموا بین یدیه و الآخر هو مراعاه الأدب عند الکلام معه و عدم رفع الصوت فوق صوته...

أمّا الآیات محل البحث فهی تبیّن الوظائف الأخری علی هذه الأمّه إزاء نبیّها.

و تقول ینبغی الاستقصاء عند نقل الخبر إلی النّبی فلو أنّ فاسقا جاءکم بنبإ فتثبّتوا و تحقّقوا من خبره،و لا تکرهوا النّبی علی قبول خبره حتی تعرفوا صدقه...فتقول الآیات أوّلا: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ جٰاءَکُمْ فٰاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَیَّنُوا .

ثمّ تبیّن السبب فی ذلک فتضیف: أَنْ تُصِیبُوا قَوْماً بِجَهٰالَهٍ فَتُصْبِحُوا عَلیٰ مٰا فَعَلْتُمْ نٰادِمِینَ .

۱- ۱) -مجمع البیان،ج ۹،ص ۱۳۲،کما ورد فی تفسیر نور الثقلین بصوره مسهبه،ج ۵،ص ۸۱.

فلو أنّ النّبی قد أخذ بقول«الولید بن عقبه»و عدّ قبیله بنی المصطلق مرتدّین و قاتلهم لکانت فاجعه و مصیبه عظمی!...

و یستفاد من لحن الآیه التالیه أنّ جماعه من أصحاب الرّسول اصرّوا علی قتال بنی المصطلق،فقال لهم القرآن إنّ هذا هو الجهل بعینه و عاقبته الندم.

و استدل جماعه من علماء الأصول علی حجّیه خبر الواحد بهذه الآیه لأنّها تقول إن جاءکم فاسق بنبإ فتبیّنوا...و مفهومها أنّ العادل لو جاء بنبإ فلا یلزم التبیّن...و یصح قبول خبره إلاّ أنّه أشکل علی هذا الاستدلال بمسائل عدیده أهمها مسألتان:

المسأله الأولی:إنّ الاستدلال المتقدّم ذکره متوقّف علی قبول«حجّیه مفهوم الوصف»،و المعروف أنّه لا حجّیه لمفهوم الوصف (۱) ...

المسأله الثانیه:إنّ العله المذکوره فی ذیل الآیه فیها من السعه ما یشمل خبری العادل و الفاسق معا لأنّ العمل بالخبر الظنّی-مهما کان-ففیه احتمال الندم.

لکنّ هاتین المسألتین یمکن حلّهما،لأنّ مفهوم الوصف و أی قید آخر فی الموارد التی یراد منها بیان القید فی مقام الاحتراز حجه،و ذکر هذا القید«قید الفاسق»فی الآیه المتقدّمه طبقا للظهور العرفی لا فائده منه تستحق الملاحظه سوی حجّیه خبر العادل! و أمّا فی مورد التعلیل الوارد فی ذیل الآیه فالظاهر أنّه لا یشمل کلّ عمل بالأدله الظنّیه،بل هو ناظر إلی الموارد التی یکون العمل فیها بجهاله،أی العمل بسفاهه و حمق،لأنّ الآیه عوّلت علی الجهاله،و نعرف أنّ أغلب الأدله التی یعوّل علیها العقلاء جمیعا فی العالم فی المسائل الیومیه هی دلائل ظنّیه«من قبیل

۱- ۱) -یتصوّر بعضهم أنّ المسأله هنا من قبیل مفهوم الشرط و مفهوم الشرط حجّه،فی حین أنّه لا علاقه هنا بمفهوم الشرط، إضافه الی ذلک فإنّ الجمله الشرطیه هنا لبیان الموضوع و نعرف أنّه فی مثل هذه الموارد لا مفهوم للجمله الشرطیه أیضا فلاحظوا بدقّه.

ظواهر الألفاظ و قول الشاهد،و قول أهل الخبره،و قول ذی الید و أمثالها».

و معلوم أنّه لا یعدّ أیّ ممّا أشیر إلیه آنفا بأنّه جهاله و لو لم یطابق الواقع أحیانا، فلا تتحقّق هنا مسأله الندم فیه لأنّه طریق عام...

و علی کلّ حال فإنّنا نعتقد بأنّ هذه الآیه من الآیات المحکمات التی فیها دلاله علی حجّیه خبر الواحد حتی فی الموضوعات،و هناک بحوث کثیره فی هذا الصدد-لیس هنا مجال شرحها...

إضافه إلی ذلک فإنّه لا یمکن إنکار أنّ مسأله الاعتماد علی الأخبار الموثقه هی أساس التاریخ و الحیاه البشریه.بحیث لو حذفنا مسأله حجّیه خبر العادل أو الموثّق من المجتمعات الإنسانیه لبطل کثیر من التراث العلمی و المعارف المتعلّقه بالمجتمعات البشریه القدیمه و حتی کثیر من المسائل المعاصره التی نعمل علی ضوئها الیوم...

و لا یرجع الإنسان إلی الوراء فحسب،بل تتوقف عجله الحیاه،لذلک فإنّ العقلاء جمیعا یرون حجّیته و الشارع المقدّس أمضاه أیضا«قولا و عملا».

و بمقدار ما یعطی خبر الواحد«الثقه»الحیاه نظامها فإنّ الاعتماد علی الأخبار غیر الموثّقه خطیر للغایه،و مدعاه إلی اضطراب نظام المجتمع،و یجر الوبال و المصائب المتعدّده،و یهدّد الحیثیات و حقوق الأشخاص بالخطر و یسوق الإنسان إلی الانحراف و الضلال و کما عبّر القرآن الکریم تعبیرا طریفا فی الآیه محل البحث: فَتُصْبِحُوا عَلیٰ مٰا فَعَلْتُمْ نٰادِمِینَ .

و هنا لطیفه تسترعی الانتباه أیضا،و هی أنّ صیاغه الأخبار الکاذبه و التعویل علی الأخبار غیر الموثّقه من الأسالیب القدیمه التی تتّبعها النظم الاستعماریه و الدیکتاتوریه لتخلق جوّا کاذبا ینخدع به الجهله من الناس و المغفّلون فتنهب أموالهم و أرصدتهم بهذه الأسالیب و ما شاکلها...

فلو عمل المسلمون بهذا الأمر الإلهی الوارد فی هذه الآیه علی نحو الدقّه و لم

يأخـذوا بأخبار الفاسـقين دون تبيّن لكانوا مصونين من هذه البلايا الخطيره! و الجدير بالذكر أنّ المسأله المهمّه هنا هى الوثوق و الاعتماد على الخبر ذاته، غايه ما فى الأمر قـد يحصل هـذا الوثوق من جهه الاعتماد على الشـخص المخبر تاره،و تاره من القرائن الأخر الخارجيه...و لذلك فإنّنا قد نطمئن إلى«الخبر» أحيانا و إن كان«المخبر»فاسقا...

فعلى هـذا الأسـاس،فـإنّ هـذا الوثوق أو الاعتمـاد كيف مـا حصل،سواء عن طريق العـداله و التقوى و صـدق القائل أم عن طريق القرائن الخارجيه،فهو معتبر عندنا،و سيره العقلاء التى أمضاها الشارع الإسلامى مبنيه على هذا الأساس...

و لذا فإنّنا نرى فى الفقه الإسـلامى كثيرا من الأخبار ضـعيفه السند لكن لأنّها جرى عليها«عمل المشهور»و وقف على صحه الخبر من خلال قرائن خاصه، فلذلك أصبحت هذه الأخبار(الضعيفه السند)صالحه للعمل و جرت فتاوى الفقهاء على وفقها.

و على العكس من ذلك قـد تقع أخبار عنـدنا قائلها معتبر و لكنّ القرائن الخارجيه لا تساعد على قبوله،فلا سبيل لنا إلاّ الاعراض عنه و إن كان المخبر عادلا و«معتبرا»...

فبناء على هذا-إنّ المعيار هو الاعتماد على الخبر نفسه-فى كلّ مكان-و إن كان الغالب كون الوسيله هى عداله الراوى و صدقه- لهذا الاعتماد-إلاّ أنّ ذلك ليس قانونا كليّا.(فلاحظوا بدقّه).

و الآيه التاليه-و للتأكيد على الموضوع المهم فى الآيه السابقه-تضيف قائله:

وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ

(1)

.

و تدلّ هذه الجمله-كما قاله جماعه من المفسّرين أيضا-أنّه بعد أن أخبر

1- 1) -كلمه«لعنتّم»:مشتقّه من مـاده العنت و معناه الوقوع فى عمل يخاف الإنسان عاقبته أو الأمر الـذى يشقّ على الإنسان،و من هنا قيل للألم الحاصل من العظم المكسور عند تعرّضه للضربه بأنّه عنت..

«الوليد»بارتداد طائفه«بنى المصطلق»...ألحّ جماعه من المسلمين البسطاء السذّج ذوى النظره السطحيه على الرّسول أن يقاتل الطائفه آنفه الذكر...

فالقرآن يقول:من حسن حظّكم أنّ فيكم رسول اللّه و هو مرتبط بعالم الوحى فمتى ما بدت فيكم بوادر الانحراف فسيقوم بإرشادكم عن هذا الطريق،فلا تتوقّعوا أن يطيعكم و يتعلّم منكم و لا تصرّوا و تلحّوا عليه،فإنّ ذلك فيه عنت لكم و ليس من مصلحتكم...

و يشير القرآن معقّبا فى الآيه إلى موهبه عظيمه أخرى من مواهب اللّه سبحانه فيقول: وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمٰانَ وَ زَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيٰانَ .

و فى الحقيقه أنّ هذه التعابير إشاره لطيفه إلى قانون اللطف أى«اللطف التكوينى».

و توضيح ذلك أنّه حين يريد الشخص الحكيم أن يحقّق أمرا فإنّه يوفّر له جميع ما يلائمه من كلّ جهه و يصدق هذا الأصل فى شأن الناس تماما...

فاللّه يريد أن يطوى الناس جميعا طريق الحق دون أن يقعوا تحت تأثير الإجبار بل برغبتهم و إرادتهم،و لذا يرسل إليهم الرسل و الكتب السماويه من جهه، و يحبّب إليهم الإيمان من جهه أخرى،و يضرى شعله العشق نحو طلب الحق و البحث عنه فى داخل النفوس و يكرّه إليها الكفر و الفسوق و العصيان...

و هكذا فإنّ كلّ إنسان مفطور على حبّ الإيمان و الطهّاره و التقوى،و البراءه من الكفر و الذنب.

إلاّ أنّه من الممكن أن يتلوّث ماء المعنويات المنصبّ فى وجود الناس فى المراحل المتتاليه و ذلك نتيجه للاختلاط بالمحيطات الموبوءه فيفقد صفاءه و يكتسب رائحه الذنب و الكفر و العصيان...

هذه الموهبه الفطريه تدعو الناس إلى إتباع رسول اللّه و عدم التقدّم بين يديه.

ص: ۵۳۰

و ينبغى التذكير بهذه اللطيفه أيضا،و هى أنّ محتوى الآيه لا ينافى المشاوره أبدا،لأنّ الهدف من المشاوره أو الشورى أن يعرب كلّ عن عقيدته و وجهه نظره، إلاّ أنّ الرأى الأخير و النظر النهائى لشخص النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كما يستفاد ذلك من آيه الشورى أيضا...

و بتعبير آخر...إنّ الشورى هى موضوع مستقل،و فرض الرأى موضوع آخر، فالآيه محل البحث تنفى فرض الرأى لا المشاوره.

و فى أنّ المراد من«الفسوق»المذكور فى الآيه ما هو؟!قال بعض المفسّرين هو الكذب،إلاّ أنّه مع الالتفات إلى سعه مفهومه اللغوى فإنّه يشمل كلّ خروج على الطاعه،فعلى هذا يكون التعبير ب«العصيان»بعده تأكيدا عليه،كما أنّ جمله وَ زَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ تأكيد على الجمله السابقه لها: حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ .

و قال بعضهم إنّ كلمه«الفسوق»إشاره إلى الذنوب الكبيره فى حين أنّ «العصيان»أعم منه...إلاّ أنّه لا دليل على ذلك...

و على كلّ حال،فإنّ القرآن يقرّر قاعده كليه و عامه فى نهايه هذه الآيه لواجدى الصفات المذكوره[فيها]

فتقول: أُولٰئِكَ هُمُ الرّٰاشِدُونَ .

أى لو حفظتم هذه الموهبه الإلهيه«العشق للإيمان و التنفّر من الكفر و الفسوق» و لم تلوّثوا هذا النقاء و الصفات الفطريه فإنّ الرشد و الهدايه دون أدنى شكّ فى انتظاركم...

و ممّا يستجلب النظر أنّ الجمل السابقه فى الآيه كانت بصيغه الخطاب للمؤمنين لكنّ هذه الجمله: أُولٰئِكَ هُمُ الرّٰاشِدُونَ تتحدّث عنهم بصيغه«الغائب»و يبدو أنّ هذا التفاوت فى التعبير جاء ليدلّ على أنّ هذا الحكم غير مختصّ بأصحاب النبى، بل هو قانون عام،فكلّ من حفظ صفاءه الفطرى فى أى عصر و زمان هو من أهل الرشد و الهدايه و النجاه.

أمّا آخر الآيات محل البحث فتوضّح هذه الحقيقه و هى أن محبوبيه الإيمان

و التنفّر من الكفر و العصيان من المواهب الإلهيه العظمى على البشر إذ تقول:

فَضْلاً مِنَ اللّهِ وَ نِعْمَةً وَ اللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

(۱)

.

فعلمه و حكمته يوجبان أن يخلق فيكم عوامل الرشد و السعاده و يكملها بدعوه الأنبياء إيّاكم و يجعل عاقبتكم الوصول إلى الهدف المنشود...«و هو الجنّه».

و الظاهر أنّ الفضل و النعمه كليهما إشاره إلى حقيقه واحده،هى المواهب الإلهيه التى يمنحها عباده،غايه ما فى الأمر أنّ«الفضل»إنّما سمّى فضلا لأنّ اللّه غير محتاج إليه و«النعمه»إنّما سمّيت نعمه لأنّ العباد محتاجون إليها،فهما بمثابه الوجهين لعمله واحده!...

و لا شكّ أنّ علم اللّه بحاجه العباد و حكمته فى مجال التكامل و تربيه المخلوقات توجبان أن يتفضّل بهذه النعم المعنويه الكبرى على عباده(و هى محبوبيه الإيمان و التنفّر من الكفر و العصيان).

***

ملاحظات

اشاره

۱-هدايه اللّه و حريّه الإراده

إنّ الآيات الآنفه تجسيد بيّن لوجهه نظر الإسلام فى مسأله«الجبر و الإختيار» و الهدايه و الإضلال،لأنّها توضح هذه اللطيفه-بجلاء-و هى أنّ اللّه يهيئ المجال «و الأرضيه»للهدايه و الرشد،فمن جهه يبعث رسوله و يجعله بين الناس و ينزل القرآن الذى هو نور و منهج هدايه؛و من جهه يلقى فى النفوس العشق للإيمان و محبّته؛و التنفّر و البراءه من الكفر و العصيان،لكن فى النهايه يوكل للإنسان أن يختار ما يشاء و يصمّم بنفسه،و يشرع سبحانه التكاليف فى هذا المجال!...

---

۱ – ۱) -(فضلا و نعمه)نصبا على أنّهما[مفعولان لأجله] للفعل حبّب إليكم أو أنّهما مفعولان مطلقان لفعلين محذوفين و تقديرهما:هكذا أفضل فضلا و أنعم نعمه..

و طبقـا للآيـات المتقـدّمه فـإنّ عشق الإيمـان و التنفّر من الكفر موجودان فی قلوب جميع الناس دون اسـتثناء و إذا لم يكن لـدی بعضـهم ذلـک فإنّما هو من جهه اخطـائهم و سـلوکيّاتهم و أعمالهم،فإنّ اللّه لم يلق فی قلب أیّ شـخص حبّ العصيان و بغض الإيمان...

۲-القياده و الطاعه

هذه الآيات تؤکد مرّه أخری أنّ وجود القائد«الإلهی»ضـروری لرشد جماعه ما،بشرط أن يکون مطاعا لا مطيعا و أن يتّبع أصحابه و جماعته أوامره لا أن يؤثّروا عليه و يفرضوا عليه آراءهم(ابتغاء مقاصدهم و مصالحهم).

و هـذه المسأله لا تختصّ بالقاده الإلهيين فحسب،بل ينبغی أن تکون حاکمه فی المـديريه و القياده فی کلّ مکان.و حاکميه هـذا الأصل لا تعنی استبداد القاده،و لا ترک الشوری کما أشرنا آنفا و أوضحنا ذلک.

۳-الإيمان نوع من العشق لا إدراک العقل فحسب...

هـذه الآيـات تشـير ضـمنا إلی هـذه الحقيقـه و هی أنّ الإيمـان نـوع مـن العلاقه الإلـهيه الشديـده«و المعنـويه»و إن کـانت من الاستدلالات العقليه...و لذلک فإنّنا نقرأ

حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام حين سألوه:هل الحب و البغض من الإيمان، فأجاب عليه السّلام:«و هل الإيمان إلّا الحبّ و البغض»؟!ثمّ تلا هذه الآيه: ...وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمٰانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيٰانَ أُولٰئِكَ هُمُ الرّٰاشِدُونَ (۱) .

و

ورد فی حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام قوله فی هذا المجال«و هل الدين

۱- ۱) -أصول الکافی،ج ۲،باب الحب فی اللّه و البغض فی اللّه،الحديث ۵.

إلاّ الحبّ»؟!ثمّ استدلّ علیه السّلام ببعض الآیات منها هذه الآیه محل البحث و قال بعدئذ:

«الدین هو الحبّ و الحبّ هو الدین» (1) .

إلاّ أنّه و دون أدنی شکّ یجب أن ترفد هذه المحبّه-کما نوّهنا آنفا-بالوجوه الاستدلالیه و المنطقیّه لتکون مثمره عندئذ...

***

1- 1) -تفسیر نور الثقلین،ج 5،ص 83و ص 84.

الآیتان [سوره الحجرات (۴۹): الآیات ۹ الی ۱۰]

اشاره

وَ إِنْ طٰائِفَتٰانِ مِنَ اَلْمُؤْمِنِینَ اِقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُمٰا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدٰاهُمٰا عَلَی اَلْأُخْریٰ فَقٰاتِلُوا اَلَّتِی تَبْغِی حَتّٰی تَفِیءَ إِلیٰ أَمْرِ اَللّٰهِ فَإِنْ فٰاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُمٰا بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اَللّٰهَ یُحِبُّ اَلْمُقْسِطِینَ (۹) إِنَّمَا اَلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَیْنَ أَخَوَیْکُمْ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۱۰)

سبب النّزول

ورد فی شأن نزول الآیتین-هاتین-أنّ خلافا وقع بین قبیلتی«الأوس» و«الخزرج»«و هما قبیلتان معروفتان فی المدینه»أدّی هذا الخلاف إلی الاقتتال بینهما و أن یتنازعا بالعصی و الهراوات و الأحذیه فنزلت الآیتان آنفتا الذکر و علّمت المسلمین سبیل المواجهه مع أمثال هذه الحوادث (۱) .

و قال بعضهم:حدث بین نفرین من الأنصار خصومه و اختلاف!فقال أحدهما للآخر:سآخذ حقّی منک بالقوه لأنّ قبیلتی کثیره،و قال الآخر:لنمض و نحتکم عند

۱- ۱) -مجمع البیان،ج ۹،ص ۱۳۲.

رسول اللّه،فلم يقبل الأوّل،فاشتدّ الخلاف و تنازع جماعه من قبيلتيهما بالعصى و الأحذيه و«حتى»بالسيوف،فنزلت الآيتان آنفتا الذكر و بيّنت وظيفه المسلمين فى مثل هذه الأمور (۱) .

التّفسير

اشاره

المؤمنون أخوه:

يقول القرآن هنا قولا هو بمثابه القانون الكلّى العام لكلّ زمان و مكان: وَ إِنْ طٰائِفَتٰانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمٰا (۲) .

و صحيح أنّ كلمه«اقتتلوا»مشتقّه من ماده القتال و معناها الحرب،إلاّ أنّها كما تشهد بذلك القرآن تشمل كلّ أنواع النزاع و إن لم يصل إلى مرحله القتال و المواجهه«العسكريه»و يؤيّد هذا المعنى أيضا بعض ما نقل فى شأن نزول الآيه...

بل يمكن القول:إنّه لو توفّرت مقدّمات النزاع كالمشاجرات اللفظيه مثلا-التى تجرّ إلى المنازعات الداميه فإنّه ينبغى و طبقا لمنطوق الآيه أن يسعى إلى الإصلاح بين المتنازعين،لأنّه يمكن أن يستفاد هذا المعنى من الآيه المتقدّمه عن طريق إلغاء الخصوصيه.

و على كلّ حال،فإنّ من واجب جميع المسلمين أن يصلحوا بين المتنازعين منهم لئلاّ تسيل الدماء و أن يعرفوا مسئوليتهم فى هذا المجال،فلا يكونوا متفرّجين كبعض الجهله الذين يمرّون بهذه الأمور دون اكتراث و تأثّر!فهذه هى وظيفه المؤمنين الأولى عند مواجهه أمثال هذه الأمور.

ثمّ يبيّن القرآن الوظيفه الثانيه على النحو التالى: فَإِنْ بَغَتْ إِحْدٰاهُمٰا عَلَى الْأُخْرىٰ و لم تستسلم لاقتراح الصلح فَقٰاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتّٰى تَفِيءَ إِلىٰ أَمْرِ اللّٰهِ .

۱- ۱) -تفسير القرطبى،ج ۹،ص ۶۱۳۶.

۲- ۲) -مع أنّ كلمه(طائفتان)مثنى طائفه،إلاّ أنّ فعلها جاء بصيغه الجمع اقتتلوا لأنّ كلّ طائفه مؤلفه من مجموعه من الأفراد.

و بـدیهی أنّه لو سـالت دمـاء الطـائفه الباغیه و الظالمه-فی هـذه الأثناء-فإثمها علیها،أو کما یصـطلح علیه إنّ دماءهم هـدر،و إن کانوا مسلمین،لأنّ الفرض أنّ النزاع واقع بین طائفتین من المؤمنین...

و هکـذا-فإنّ الإسـلام یمنع من الظلم و إن أدّی إلی مقاتله الظالم،لأنّ ثمن العداله أغلی من دم المسـلمین أیضا،و لکن لا یکون ذلک إلاّ إذا فشلت الحلول السلمیه.

ثمّ یبیّن القرآن الوظیفه الثالثه فیقول: فَإِنْ فٰاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُمٰا بِالْعَدْلِ .

أی لا ینبغی أن یقنع المسـلمون بالقضاء علی قوه الطائفیه الباغیه الظالمه بل ینبغی أن یعقب ذلک الصلح و أن یکون مقدّمه لقلع جذور عوامل النزاع،و إلاّ فإنّه بمرور الزمن ما أن یحسّ الظالم فی نفسه القدره حتی ینهض ثانیه و یثیر النزاع.

قـال بعض المفسّـرین:یسـتفاد من التعبیر«بالعـدل»أنّه لو کان حقّ مضاع بین الطائفتین أو دم مراق و ما إلی ذلک ممّا یکون منشأ للنزاع فیجب إصلاحه أیضا، و إلاّ فلا یصدق علیه«إصلاح بالعدل» (1) .

و حیـث أنّـه تمیـل النـوازع النفسـیه أحیانـا فی بعض الجماعـات عنـد الحکـم و القضـاء الی إحـدی الطـائفتین المتخاصـمتین و تنقض«الاسـتقامه»عنـد القضـاه فـإنّ القرآن ینـذر المسـلمین فی رابـع تعلیمـاته و مـا ینبغی علیهم فیقـول: وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللّٰهَ یُحِبُّ الْمُقْسِطِینَ (2) .

و الآیه التالیه تضیف-لبیان العلّه و التأکید علی هذا الأمر قائله: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَهٌ فَأَصْلِحُوا بَیْنَ أَخَوَیْکُمْ .

1- 1) -تفسیر المیزان ج 18،ص 342.

2- 2) -کلمه«المقسـطین»مأخوذه من القسط و معناها فی الأصل التقسـیم بالعدل،و حین ترد علی صـیغه الفعل الثلاثی قسط علی زنه ضـرب تعنی الظلم و التجـاوز علی حصّه الآخرین ظلمـا،إلاّ أنّه حین تأتی ثلاثی مزیـد فیقال«أقسط»فإنّها تعنی إعطاء الحصـه عدلا،و هل القسط و العدل بمعنی واحد أم لا؟هناک بحث ذکرناه فی ذیل الآیه(29)من سوره الأعراف لا بأس بمراجعتها...

فکما تسعون للإصلاح بین الأخوین فی النسب،فینبغی أن لا تألوا جهدا فی الدخول بصوره جادّه للإصلاح بین المؤمنین المتخاصمین بعداله تامّه! و ما أحسنه من تعبیر و کم هو بلیغ إذ یعبّر القرآن عن جمیع المؤمنین بأنّهم «أخوه»و أن یسمّی النزاع بینهم نزاعا بین الأخوه!و أنّه ینبغی أن یبادر إلی إحلال الإصلاح و الصفاء مکانه...

و حیث أنّه فی کثیر من الأوقات تحل«الروابط»فی أمثال هذه المسائل محل «الضوابط»فإنّ القرآن یضیف فی نهایه هذه الآیه مرّه أخری قائلا: وَ اتَّقُوا اللّهَ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ .

و هکذا تتّضح إحدی أهم المسؤولیات الاجتماعیه علی المسلمین فی ما بینهم فی تحکیم العداله الاجتماعیه بجمیع أبعادها.

بحثان

اشاره

الأوّل:شروط قتال أهل البغی«البغاه»

هناک باب فی الفقه الإسلامی بعنوان:«قتال أهل البغی»ضمن کتاب الجهاد، و المراد منه قتال الظلمه الذین ینهضون بوجه«الإمام العادل فی المسلمین»و قد وردت فیهم أحکام کثیره فی هذا الباب...

إلاّ أنّ ما أثارته الآیه الآنفه موضوع آخر،و هو النزاع الواقع بین الطائفتین المؤمنین،و لیس فی هذا النزاع نهوض بوجه إمام المسلمین العادل و لا نهوض بوجه الحکومه الإسلامیه الصالحه.و قد أراد بعض الفقهاء أو المفسّرین أن یستفیدوا من هذه الآیه«فی المسأله السابقه»إلاّ أنّ هذا الاستدلال کما یقول الفاضل«المقداد»فی«کنز العرفان»خطأ بیّن (۱) .لأنّ القیام و النهوض بوجه الإمام

۱- ۱) -کنز العرفان فی فقه القرآن،کتاب الجهاد،باب أنواع أخر من الجهاد-الجزء الأول،ص ۳۸۶.

العادل موجب للكفر،فى حين أنّ النزاع بيّن المؤمنين موجب للفسق فحسب لا ـ الكفر،و لذلك فإنّ القرآن المجيد عبّر عن الطائفتين بالمؤمنين و سمّاهم أخوه، فلا يصحّ تعميم أحكام أهل البغى على أمثال هؤلاء!...

و من المؤسف أنّنا لم نعثر على بحث فى الفقه فى شأن أحكام هذه الطائفه،إلّا أنّ ما يستفاد من الآيه المتقدمه بضميمه القرائن الأخر و خاصه ما ورد من إشارات فى باب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر هى الأحكام التاليه!...

١-إنّ الإصلاح بين الطوائف المتنازعه«من المسلمين»أمر واجب كفائى.

٢-ينبغى لتحقّق هذا الأمر أن يشرع أوّلا من المراحل البسيطه و أن تراعى قاعده«الأسهل فالأسهل»إلّا أنّه إذا لم ينفع ذلك فيجوز عندئذ المواجهه المسلّحه بل تلزم أحيانا...

٣-ما يسفك من دم البغاه فى هذا السبيل و ما تذهب منهم من أموال كلّها هدر، لأنّ حكم الشرع قد امتثل و أديّت الوظيفه الواجبه،و الأصل فى مثل هذه الموارد عدم الضمان! ۴-لا ـ حاجه لإذن حاكم الشرع فى مراحل الإصلاح عن طريق الكلام و المباحثات،إلّا أنّه لا بدّ من الإذن عند اشتداد العمل و لا سيما إذا انتهى الأمر إلى سفك الدماء،فلا يجوز عندئذ الإقدام بأىّ عمل إلّا بأمر الحكومه الإسلاميه و حاكم الشرع!إلّا فى الموارد التى لا يمكن الوصول إلى حاكم الشرع بأى وجه، فللعدول عندئذ و أهل الخبره من المؤمنين أن يتّخذوا القرار الذى يرونه...

۵-فى حاله ما لو سفكت الطائفه الباغيه و الظالمه دما من«الجماعه المصلحه» أو نهبت أموالا منها،فهى ضامنه بحكم الشرع و يجرى القصاص منها فى صوره وقوع قتل العمد،و كذلك فى مورد تسفك فيه دماء من الطائفه المظلومه أو تتلف منها أموالها فإنّ حكم القصاص و الضمان ثابت أيضا و ما يقال من أنه بعد وقوع الصلح لا تتحمل الطائفه الباغيه مسئوليه الدماء المسفوكه و الأموال المهدوره لأنّه

لم تشر إليه الآيه-محل البحث-غير صحيح،و الآيه ليست فی مقام بيان جميع هذا المطلب،بل المرجع فی مثل هذه الموارد هو سائر الأصول و القواعد الوارده فی أبواب القصاص و الإتلاف...

۶-حيث أنّ الهدف من هذه المقاتله و الحرب حمل الطائفه الباغيه على قبول الحق،فعلى هذا لا تثار فی الحرب مسأله«أسرى الحرب و الغنائم»لأنّ الطائفتين بحسب الفرض مسلمتان،إلّا أنّه لا مانع من الأسر مؤقتا لإطفاء نائره النزاع و لكن بعد حل النزاع و الصلح يجب إطلاق الأسرى فورا...

۷-قد يتفق أحيانا أن يكون طرفا النزاع باغيين،فهذا الطرف قتل جماعه من القبيله الأخرى و سلب ماله،و ذلك الطرف قتل جماعه من هذه القبيله و الطائفه و سلب أموالها دون أن يقنع كلّ منهما بالمقدار اللازم من الدفاع سواء كان الطرفان «الطائفتان»بمستوى واحد من الظلم و البغی أو بعضهما أكثر اعتداء و الآخر أقل! و بالطبع فإنّ الحكم فی شأن هذا المورد لم يرد صراحه فی القرآن،لكن يمكن أن يستفاد هذا الحكم عن طريق إلغاء الخصوصيه من الآيه محل البحث،و هو أنّ وظيفه المسلمين أن يصلحوا بين الطرفين،و إذا لم يوافقا على الصلح فلا بدّ من قتالهم جميعا حتى يفیء كل إلى أمر اللّه،ما ذكرناه آنفا من أحكام فی شأن الباغی و الظالم جار فی الطرفين...

و فی ختام هذا الكلام نؤكّد مرّه أخرى أنّ حكم هؤلاء البغاه منفصل عن حكم الذين يقفون بوجه الإمام المعصوم أو الحكومه الإسلاميه العادله،فإنّ لهذه الطائفه الأخيره أحكاما أشدّ و أصعب وارده فی كتاب الجهاد من الفقه الإسلامی.

الثّانی:أهميّه الأخوه الإسلاميه

إنّ جمله: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ الوارده فی الآيات المتقدّمه واحده من الشعارات الأساسيه و«المتجذّره»فی الإسلام،فهی شعار عميق،بليغ،مؤثر و ذو

معنی غزیر...

إنّ الآخرین حین یریـدون إظهار مزیـد من العلاقه بمن یشارکهم فی المنهـج و العمل،یعبّرون عنهم بالرفاق،«أو الرفیق للمفرد»إلّا أنّ الإسـلام رفع مسـتوی الارتبـاط و الحب بین المسـلمین إلی درجه جعلهـا بمسـتوی أقرب العلاـئق بین شخصـین و هی علاـقه الأخوین التی تقوم العلاقه بینهما علی أساس المساواه و التکافؤ.

فعلی هذا الأصل الإسلامی المهم فإنّ المسلمین علی اختلاف قبائلهم و قومیّاتهم و لغاتهم و أعمارهم یشعرون فیما بینهم بالأخوّه و إن عاش بعضهم فی الشرق و الآخر فی الغرب...

ففی مناسک الحج مثلا حیث یجتمع المسلمون من نقاط العالم کافه فی مرکز التوحید تبدو هذه العلاقه و الارتباط و الانسجام و الوشائج محسوسه و میدانا للتحقق العینی لهذا القانون الإسلامی المهم...

و بتعبیر آخر إنّ الإسـلام یری المسـلمین جمیعـا بحکم الأسـره الواحـده و یخـاطبهم جمیعـا بالإـخوان و الأخوات لیس ذلک فی اللفظ و الشعار،بل فی العمل و التعهدات المتماثله أیضا،جمیعهم(أخوه و أخوات).

و فی الروایات الإسلامیه تأکید علی هذه المسأله أیضا و لا سیما فی ما یخص الجوانب العملیه و نحن نذکر هنا علی سبیل المثال بعضا من الأحادیث التالیه:

-۱

ورد عن النّبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «المسلم أخو المسلم لا یظلمه و لا یخذله و لا یسلمه» (۱) .

۲-و

ورد عنه صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «مثل الأخوین مثل الیدین تغسل إحداهما الأخری» (۲) .

۱- ۱) -المحجّه البیضاء،ج ۳،ص ۳۳۲(کتاب الصحبه و المعاشره)الباب الثانی.

۲- ۲) -المصدر السابق.

۳-و

يقول الإمام الصادق عليه السّلام: «المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد إذا اشتكى شيئا منه وجد ألم ذلك في سائر جسده و أرواحهما من روح واحده» (۱) .

۴-كما

نقرأ حديثا آخر عنه عليه السّلام يقول فيه: «المؤمن أخو المؤمن عينه و دليله لا يخونه و لا يظلمه و لا يغشّه و لا يعده عده فيخلفه» (۲) .

و هناك روايات كثيره في مصادر الحديث الإسلاميه المعروفه في ما يتعلّق بحق المؤمن على أخيه المسلم و أنواع حقوق المؤمنين بعضهم على بعض و ثواب زياره الإخوان المؤمنين«و المصافحه و المعانقه»و ذكرهم و إدخال السرور على قلوبهم و خاصه قضاء حاجاتهم و السعي في إنجازها و إذهاب الهم و الغم عن القلوب و إطعام الطعام و إكسائهم الثياب و إكرامهم و احترامهم،و يمكن مطالعتها في أصول الكافي في أبواب مختلفه تحت العناوين الآنفه.

۵-و في ختام هذا المطاف نشير إلى روايه هي من أكثر الروايات«جمعا»في شأن حقوق المؤمن على أخيه المؤمن التي تبلغ ثلاثين حقّا!...

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «للمسلم على أخيه ثلاثون حقّا،لا براءه له منها إلاّ بالأداء أو العفو! يغفر زلّته،و يرحم عبرته،و يستر عورته،و يقيل عثرته،و يقبل معذرته،و يرد غيبته،و يديم نصيحته،و يحفظ خلّته و يرعى ذمّته،و يعود مرضه،و يشهد ميّته، و يجيب دعوته،و يقبل هديته،و يكافئ صلته،و يشكر نعمته،و يحسن نصرته، و يحفظ حليلته،و يقضي حاجته،و يشفع مسألته،و يسمّت عطسته،و يرشد ضالّته، و يردّ سلامه،و يطيب كلامه،و يبرّ أنعامه،و يصدق أقسامه،و يوالي وليّه، و لا يعاديه،و ينصره ظالما و مظلوما،فأمّا نصرته ظالما فيردّه عن ظلمه،و أمّا نصرته مظلوما فيعينه على أخذ حقّه،و لا يسلمه و لا يخذله،و يحب له من الخير

ص:۵۴۲

۱- ۱،۲) -أصول الكافي،ج ۲،ص ۱۳۳(باب أخوه المؤمنين بعضهم لبعض الحديث ۳ و ۴).
۲-

ما يحبّ لنفسه،و يكره له من الشر ما يكره لنفسه» (۱) .

و على كلّ حال فإنّ واحدا من حقوق المسلمين بعضهم على بعض هو مسأله الإعانه و إصلاح ذات البين كما ورد فی الآیات المتقدّمه و الروایات الآنفه«و كان لنا فی التفسیر الأمثل بحث فی«إصلاح ذات البین»ذیل الآیه الأولی من سوره الأنفال»...

ص :۵۴۳

۱- ۱) بحار الأنوار،ج ۷۴،ص ۲۳۶.

الآیتان [سوره الحجرات (۴۹): الآیات ۱۱ الی ۱۲]

اشاره

یَا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ یَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسیٰ أَنْ یَکُونُوا خَیْراً مِنْهُمْ وَ لاٰ نِسٰاءٌ مِنْ نِسٰاءٍ عَسیٰ أَنْ یَکُنَّ خَیْراً مِنْهُنَّ وَ لاٰ تَلْمِزُوا أَنْفُسَکُمْ وَ لاٰ تَنٰابَزُوا بِالْأَلْقٰابِ بِئْسَ اَلاِسْمُ اَلْفُسُوقُ بَعْدَ اَلْإِیمٰانِ وَ مَنْ لَمْ یَتُبْ فَأُولٰئِکَ هُمُ اَلظّٰالِمُونَ (۱۱) یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا اِجْتَنِبُوا کَثِیراً مِنَ اَلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ اَلظَّنِّ إِثْمٌ وَ لاٰ تَجَسَّسُوا وَ لاٰ یَغْتَبْ بَعْضُکُمْ بَعْضاً أَ یُحِبُّ أَحَدُکُمْ أَنْ یَأْکُلَ لَحْمَ أَخِیهِ مَیْتاً فَکَرِهْتُمُوهُ وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ تَوّٰابٌ رَحِیمٌ (۱۲)

سبب النّزول

ذکر المفسّرون لهاتین الآیتین شأنا«فی نزولهما»بل شؤونا مختلفه،منها أنّ جمله لاٰ یَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ نزلت فی«ثابت بن قیس»خطیب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم الذی کان ثقیل السمع و کان حین یدخل المسجد یجلس إلی جنب النّبی و یوّفر له المکان عنده لیسمع حدیث النبی،و ذات مرّه دخل المسجد و المسلمون کانوا قد

فرغوا من صلاتهم و جلسوا فی أماکنهم،فکان یشقّ الرجوع و یقول:تفسّحوا، تفسّحوا حتی وصل إلی رجل من المسلمین فقال له:اجلس(مکانک هنا)فجلس خلفه مغضبا حتی انکشفت العتمه فقال ثابت لذلک الرجل:من أنت فقال:أنا فلان فقال له ثابت:ابن فلانه؟!و ذکر اسم أمّه بما یکره من لقبها..و کانت تعرف به فی زمان الجاهلیه فاستحیی ذلک الرجل و طأطأ برأسه إلی الأرض،فنزلت الآیه و نهت المسلمین عن مثل هذا العمل...

و قیل إنّ جمله وَ لاٰ نِسٰاءٌ مِنْ نِسٰاءٍ نزلت فی أم سلمه إحدی أزواج النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لأنّها کانت تلبس لبوسا خاصا أو لأنّها کانت قصیر فکانت النساء یسخرن منها،فنزلت الآیه و نهت عن مثل هذه الأعمال!.

و قالوا إنّ جمله وَ لاٰ یَغْتَبْ بَعْضُکُمْ بَعْضاً نزلت فی نفرین من الصحابه اغتابا صاحبهما«سلمان»لأنّهما کانا قد بعثاه نحو النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لیأتیهما بطعام منه،فأرسل النّبی سلمان نحو«أسامه بن زید»الذی کان مسئول بیت المال فقال أسامه لیس عندی شیء الآن..فاغتابا أسامه و قالا إنّه بخیل و قالا فی شأن سلمان:لو کنّا أرسلناه إلی بئر سمیحه لغاض ماؤها«و کانت بئرا غزیره الماء»ثمّ انطلقا لیأتیا أسامه و لیتجسّسا علیه،

فقال لهما النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إنّی أری آثار أکل اللحم علی أفواهکما:فقالا یا رسول اللّه لم نأکل اللحم هذا الیوم فقال رسول اللّه:أجل تأکلون لحم سلمان و أسامه.فنزلت الآیه و نهت المسلمین عن الاغتیاب (۱) .

التّفسیر

اشاره

الاستهزاء و سوء الظنّ و الغیبه و التجسّس و الألقاب السیئه حرام!

حیث أنّ القرآن المجید اهتمّ ببناء المجتمع الإسلامی علی أساس المعاییر

۱- ۱) -راجع تفسیر مجمع البیان،ج ۹،ص ۱۳۵،و القرطبی فی تفسیره،إذ ذکر هذا الشأن مع شیء من التفاوت.

الأخلاقیه فإنّه بعد البحث عن وظائف المسلمین فی مورد النزاع و المخاصمه بین طوائف المسلمین المختلفه بین فی الآیتین محل البحث قسما من جذور هذه الاختلافات لیزول الاختلاف(بقطعها)و یحسم النزاع! ففی کلّ من الآیتین الآنفتین تعبیر صریح و بلیغ عن ثلاثه أمور یمکن أن یکون کلّ منها شراره لاشتعال الحرب و الاختلاف،إذ تقول الآیه الأولی من الآیتین محل البحث أوّلا: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا یَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ .

لأنّه عَسیٰ أَنْ یَکُونُوا خَیْراً مِنْهُمْ .

وَ لا نِسٰاءٌ مِنْ نِسٰاءٍ عَسیٰ أَنْ یَکُنَّ خَیْراً مِنْهُنَّ

.

و الخطاب موجّه هنا إلی المؤمنین کافه فهو یعم الرجال و النساء و ینذر الجمیع أن یجتنبوا هذا الأمر القبیح،لأنّ أساس السخریه و الاستهزاء هو الإحساس بالاستعلاء و الغرور و الکبر و أمثال ذلک إذ کانت تبعث علی کثیر من الحروب الدامیه علی امتداد التاریخ! و هذا الاستعلاء أو التکبر غالبا ما یکون أساسه القیم المادیه و الظواهر المادیه فمثلا،فلان یری نفسه أکثر مالا من الآخر أو یری نفسه أجمل من غیره أو أنّه یعد من القبیله المشهوره و المعروفه أکثر من سواها،و ربما یسوقه تصوّره بأنّه أفضل من الجماعه الفلانیه علما و عباده و معنویه إلی السخریه منهم،فی حین أنّ المعیار الواقعی عند اللّه هو«التقوی»التی تنسجم مع طهاره القلب و خلوص النیّه و التواضع و الأخلاق و الأدب!.

و لا یصحّ لأی أحد أن یقول أنا أفضل عند اللّه من سوای،و لذلک عد تحقیر الآخرین و التعالی بالنفس من أسوأ الأمور و أقبح العیوب الأخلاقیه التی یمکن أن تکون لها انعکاسات سلبیه فی حیاه الناس جمیعا.

ثمّ تقول الآیه فی المرحله الثانیه: وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَکُمْ .

کلمه«تلمزوا»هی من ماده«لمز»علی زنه«طنز»و معناها تتّبع العیوب

و الطعن فی الآخرین،و فسّر بعضهم الفرق بین«الهمز»و«اللمز»بأنّ«اللمز»عدّ عیوب الناس بحضورهم،و«الهمز»ذکر عیوبهم فی غیابهم،کما قیل أنّ«اللمز» تتبع العیوب بالعین و الإشاره فی حین أنّ«الهمز»هو ذکر العیوب باللسان «و سیأتی تفصل هذا الموضوع بإذن اللّه فی تفسیر سوره الهمزه»...

الطریف أنّ القرآن فی تعبیر«بأنفسکم»یشیر إلی وحده المؤمنین و أنّهم نسیج واحد،و یبیّن هنا بأنّ جمیع المؤمنین بمثابه النفس الواحده فمن عاب غیره فإنما عاب نفسه فی الواقع!.

و تضیف الآیه فی المرحله الثالثه أیضا قائله: وَ لاٰ تَنٰابَزُوا بِالْأَلْقٰابِ .

هناک الکثیر من الأفراد الحمقی قدیما و حدیثا،ماضیا و حاضرا مولعون بالتراشق بالألفاظ القبیحه،و من هذا المنطلق فهم یحقّرون الآخرین و یدمّرون شخصیاتهم و ربما انتقموا منهم أحیانا عن هذا الطریق و قد یتّفق أنّ شخصا کان یعمل المنکرات سابقا،ثمّ تاب و أناب و أخلص قلبه للّه،و لکن مع ذلک نراهم یرشقونه بلقب مبتذل کاشف عن ماضیه! الإسلام نهی عن هذه الأمور بصراحه و منع من إطلاق أی اسم أو لقب غیر مرغوب فیه یکون مدعاه لتحقیر المسلم...

و نقرأ

فی بعض الأحادیث أنّ«صفیه بنت حیی بن أخطب»المرأه الیهودیه التی أسلمت بعد فتح خیبر و أصبحت زوجه النّبی-جاءت صفیه یوما إلی النّبی و هی باکیه العین فسألها النّبی عن سبب بکائها فقالت:إنّ عائشه توبّخنی و تقول لی یا ابنه الیهودی،فقال لها النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم:فلم لا قلت لها:أبی هارون و عمّی موسی و زوجی محمّد فکان أن نزلت هذه الآیه- محل البحث- (1) .

و لذلک فإنّ الآیه تضیف قائله: بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِیمٰانِ أی قبیح جدّا علی من دخل فی سلک الإیمان أن یذکر الناس بسمات الکفر.

۱- ۱) -مجمع البیان،ج ۹،ص ۱۳۶.

و احتمـل بعض المفسّـرين احتمالاـ آخر لهـذه الجمله المـذكوره آنفـا و هى أنّ اللّه نهى المـؤمنين أن يرضـوا بأسـماء الفسـق و الجاهليه لأنفسهم بسبب سخريه الناس و لتحاشى استهزائهم.

و لكن مع الالتفات إلى صدر الآيه و شأن النّزول المذكور يبدو أنّ التّفسير الأوّل أقرب.

و تختتم الآيه لمزيد التأكيد بالقول: وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ .

و أى ظلم أسوأ من أن يؤذى شـخص بالكلمـات اللاـذعه و«اللاسـعه»و التحقير و اللمز قلوب المؤمنين التى هى«مركز عشق»اللّه و أن يطعن فى شخصياتهم و يبتذل كرامتهم التى هى أساس شخصيتهم.

ماء وجوههم الذى هو أساس حياتهم الأهم.

و قلنا إنّ فى كل من الآيتين-محل البحث-ثلاثه أحكام فى مجال الأخلاق الاجتماعيه.فالأحكام الثلاثه فى الآيه الأولى هى«عـدم السخريه»و«ترك اللمز»و«ترك التنابز بالألقاب».

و الأحكام الثالثه فى الآيه الثانيه هى«اجتناب سوء الظن»و«التجسّس» و«الاغتياب».

فى هذه الآيه يبدأ القرآن فيقول: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ .

و المراد من«كثيرا من الظن»الظنون السيّئه التى تغلب على الظنون الحسـنه بين النـاس لـذلك عبّر عنها ب«الكثير»و إلاّ فإنّ حسـن الظن لا أنّه غير ممنوع فحسب،بل هو مستحسن كما يقول القرآن فى الآيه(١٢)من سوره النور: لَوْ لاٰ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنٰاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً .

و ممّـا يلفت النظر أنّه قـد نهى عن كثير من الظنّ،إلاّ أنّه فى مقام التعليل تقول الآيه: إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ و لعلّ هـذا الاختلاف فى التعبير ناشئ من أنّ الظنون

السيّئه بعضها مطابق للواقع و بعضها مخالف له،فما خالف الواقع فهو إثم لا محاله، و لذلك قالت الآيه: إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ و على هـذا فيكفى هـذا البعض من الظنون الذى يكون إثما أن نتجنّب سائر الظنون لئلا نقع فى الإثم! و هنا ينقدح هذا السؤال،و هو أنّ الظنّ السىء أو الظن الحسن ليسا اختياريين (غالبا)و إنّما يكون كل منهما على أثر سلسله من المقدّمات الخارجه عن اختيار الإنسان و التى تنعكس فى ذهنه،فكيف يصح النهى عن ذلك؟! و فى مقام الجواب يمكن القول بأنّه:

١-المراد من هـذا النهى هو النهى عن ترتيب الآثار،أى متى ما خطر الظنّ السىء فى الـذهن عن المسلم فلا ينبغى الاعتناء به عمليّا،و لا ينبغى تبديل أسلوب التعامل معه و لا تغيير الروابط مع ذلك الطرف،فعلى هـذا الأساس فإنّ الإثم هو إعطاء الأثر و ترتّبه عليه.

و لذلك نقرأ فى هذا الصدد

حديثا عن نبىّ الإسلام يقول فيه: «ثلاث فى المؤمن لا يستحسن،و له منهنّ مخرج فمخرجه من سوء الظن ألّا يحقّقه» (١) ... إلى آخر الحديث الشريف.

٢-يستطيع الإنسان أن يبعد عن نفسه سوء الظن بالتفكير فى المسائل المختلفه،بأن يفكر فى طريق الحمل على الصحه،و أن يجسّد فى ذهنه الاحتمالات الصحيحه الموجوده فى ذلك العمل،و هكذا يتغلب تدريجا على سوء الظنّ! فبناء على هـذا ليس سوء الظن شيئا(ذا بال)بحيث يخرج عن اختيار الإنسان دائما! لذلك

فقد ورد فى الروايات أنّه: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يقلبك منه،و لا تظنّنّ بكلمه خرجت من أخيك سوءا و أنت تجد لها فى الخير

ص:٥۴٩

١- ١) -المحجّه البيضاء،ج ۵،ص ٢۶٩.

محملا» (۱) .

و على كلّ حال فإنّ هذا الأمر واحد من أكثر الأوامر و التعليمات جامعيّه و دقّه فی مجال روابط الإنسان الاجتماعيه الذی تضمن الأمن فی المجتمع بشكل كامل!و سيأتی بيانه و تفصيله فی فقره البحوث.

ثمّ تذكر الآيه موضوع«التجسّس»فتنهى عنه بالقول: وَ لاٰ تَجَسَّسُوا !.

و«التجسّس»و«التحسّس»كلاهما بمعنى البحث و التقصّی،إلاّ أنّ الكلمه الأولى غالبا ما تستعمل فی البحث عن الأمور غير المطلوبه،و الكلمه الثانيه على العكس حيث تستعمل فی البحث عن الأمور المطلوبه أو المحبوبه!و منه ما ورد على لسان يعقوب فی وصيته ولده! يٰا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ (۲) .

و فی الحقيقه إنّ سوء الظن باعث على التجسّس،و التجسس باعث على كشف الأسرار و ما خفی من أمور الناس،و الإسلام لا يبيح أبدا كشف أسرار الناس! و بتعبير آخر إنّ الإسلام يريد أن يكون الناس فی حياتهم الخاصه آمنين من كل الجهات،و بديهی أنه لو سمح الإسلام لكلّ أحد أن يتجسّس على الآخرين فإنّ كرامه الناس و حيثيّاتهم تتعرض للزوال،و تتولد من ذلك«حياه جهنميه»يحسّ فيها جميع أفراد المجتمع بالقلق و التمزّق!.

و بالطبع فإنّ هذا الأمر لا ينافی وجود أجهزه«مخابرات»فی الحكومه الإسلاميه لمواجهه المؤامرات،و لكنّ هذا لا يعنی أنّ لهذه الأجهزه حق التجسّس فی حياه الناس الخاصّه«كما سنبيّن ذلك بإذن اللّه فيما بعد».

و أخيرا فإنّ الآيه تضيف فی آخر هذه الأوامر و التعليمات ما هو نتيجه الأمرين السابقين و معلولهما فتقول: وَ لاٰ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً .

۱- ۱) -أصول الكافی،ج ۲،باب التهمه و سوء الظن،الحديث ۳،و قد ورد شبيه هذا المعنى فی نهج البلاغه مع شیء من التفاوت فی «الكلمات القصار،رقم ۳۶۰».

۲- ۲) -يوسف،الآيه ۸۷.

و هكـذا فـإنّ سوء الظن هو أسـاس التجسـس،و التجسـس يسـتوجب إفشاء العيوب و الأسـرار،و الاطلاع عليها يسـتوجب الغيبه،و الإسـلام ينهى عن جميعها عله و معلولا! و لتقبيـح هـذا العمل يتناول القرآن مثلا بليغا يجسّد هذا الأمر فيقول: أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ !.

أجل،إنّ كرامه الأخ المسلم و سمعته كلحم جسده،و ابتذال ماء وجهه بسبب اغتيابه و إفشاء أسراره الخفيه كمثل أكل لحمه.

كلمه«ميتا»للتعبير عن أنّ الاغتياب إنّما يقع فى غياب الأفراد،فمثلهم كمثل الموتى الـذين لا يسـتطيعون أن يدافعوا عن أنفسـهم،و هذا الفعل أقبح ظلم يصدر عن الإنسان فى حق أخيه!.

أجل،إنّ هذا التشبيه يبيّن قبح الاغتياب و إثمه العظيم.

و تولى الروايات الإسـلاميه-كما سيأتى بيانها-أهميه قصوى لمسأله الاغتياب،و نادرا ما نجد من الذنوب ما فيه من الإثم إلى هذه الدرجه.

و حيث أنّه من الممكن أن يكون بعض الأفراد ملوّثين بهـذه الـذنوب الثلاثه و يـدفعهم وجدانهم إلى التيقّظ و التنبّه فيلتفتون إلى خطئهم،فإنّ السبيل تفتحه الآيه لهم إذ تختتم بقوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ تَوّابٌ رَحِيمٌ .

فلا بدّ أن تحيا روح التقوى و الخوف من اللّه أوّلا:و على أثر ذلك تكون التوبه و الإنابه لتشملهم رحمه اللّه و لطفه.

بحوث

اشاره

١-الأمن الاجتماعى الكامل

! إنّ الأـوامر أو التعليمـات السـته الـوارده فى الآـيتين آنفـتى الـذكر(النهى عن السـخريه و اللمز و التنـابز بالألقـاب و سوء الظن و التجسس و الاغتياب)إذا نفّذت

فی المجتمع فإنّ سمعه و کرامه الأفراد فی ذلک المجتمع تکون مضمونه من جمیع الجهات،فلا یستطیع أحد أن یسخر من الآخرین-علی أنه أفضل-و لا یمدّ لسانه باللمز، و لا یستطیع أن یهتک حرمتهم باستعمال الألقاب القبیحه و لا یحقّ له حتی أن یسیء الظن بهم،و لا یتجسس عن حیاه الأفراد الخاصه و لا یکشف عیوبهم الخفیه(باغتیابهم).

و بتعبیر آخر إنّ للإنسان رؤوس أموال أربعه و یجب أن تحفظ جمیعا فی حصن هذا القانون و هی:«النفس و المال و الناموس و ماء الوجه».

و التعابیر الوارده فی الآیتین محل البحث و الروایات الإسلامیه تدل علی أنّ ماء وجه الأفراد کأنفسهم و أموالهم بل هو أهم من بعض الجهات.

الإسلام یرید أن یحکم المجتمع أمن مطلق،و لا یکتفی بأن یکفّ الناس عن ضرب بعضهم بعضا فحسب،بل أسمی من ذلک بأن یکونوا آمنین من ألسنتهم،بل و أرقی من ذلک أن یکونوا آمنین من تفکیرهم و ظنّهم أیضا...و أن یحسّ کل منهم أنّ الآخر لا یرشقه بنبال الاتهامات فی منطقه أفکاره.

و هذا الأمن فی أعلی مستوی و لا یمکن تحقّقه إلّا فی مجتمع رسالی مؤمن.

یقول النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی هذا الصدد: «إنّ اللّه حرّم من المسلم دمه و ماله و عرضه و أن یظنّ به السوء» (۱) .

إنّ سوء الظن لا- أنّه یؤثر علی الطرف المقابل و یسقط حیثیّته فحسب،بل هو بلاء عظیم علی صاحبه لأنّه یکون سببا لإبعاده عن التعاون مع الناس و یخلق له عالما من الوحشه و الغربه و الانزواء کما

ورد فی حدیث عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام أنّه قال: «من لم یحسن ظنّه استوحش من کلّ أحد» (۲) .

و بتعبیر آخر،إنّ ما یفصل حیاه الإنسان عن الحیوان و یمنحها الحرکه و الرونق

ص :۵۵۲

۱- ۱) -المحجّه البیضاء،ج ۵،ص ۲۶۸.

۲- ۲) -غرر الحکم الصفحه ۶۹۷.

و التكامل هو روح التعاون الجماعی،و لا یتحقق هذا الأمر إلاّ فی صوره أن یکون الاعتماد علی الناس(و حسن الظن بهم)حاکما...فی حین أنّ سوء الظن یهدم قواعد هذا الاعتماد،و تنقطع به روابط التعاون،و تضعف به الروح الاجتماعیه.

و هکذا الحال فی التجسس و الغیبه أیضا.

إنّ سیئ النظره و الظن یخافون من کلّ شیء و یستوحشون من کلّ أحد و تستولی علی أنفسهم نظره الخوف،فلا یستطیعون أن یقفوا علی ولی و مؤنس یطوی الهموم،و لا یجدون شریکا للنشاطات الاجتماعیه،و لا معینا و نصیرا لیوم الشدّه! و لا بأس بالالتفات إلی هذه اللطیفه،و هی أنّ المراد من«الظن»هنا هو الظن الذی لا یستند إلی دلیل،فعلی هذا إذا کان الظن فی بعض الموارد مستندا إلی دلیل فهو ظنّ معتبر،و هو مستثنی من هذا الحکم،کالظن الحاصل من شهاده نفرین عادلین.

۲-لا تجسّسوا!

رأینا أنّ القرآن یمنع جمیع أنواع التجسس بصراحه تامّه،و حیث إنّه لم یذکر قیدا أو شرطا فی الآیه فیدل هذا علی أنّ التجسس فی أعمال الآخرین و السعی إلی إذاعه أسرارهم إثم،إلاّ أنّ القرائن الموجوده داخل الآیه و خارجها تدل علی أنّ هذا الحکم متعلّق بحیاه الأفراد الشخصیه و الخصوصیه.

و یصدق هذا الحکم أیضا فی الحیاه الاجتماعیه فی صوره أن لا یؤثر فی مصیر المجتمع.

لکن من الواضح أنّه إذا کان لهذا الحکم علاقه بمصیر المجتمع أو مصیر الآخرین فإنّ المسأله تأخذ طابعا آخر،و من هنا فإنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان قد أعدّ أشخاصا و أمرهم أن یکونوا عیونا لجمع الأخبار و استکشاف المجریات

و استقصائها ليحيطوا بما له علاقه بمصير المجتمع.

و من هـذا المنطلق أيضـا يمكن للحكومه الإسـلاميه أن تتّخـذ أشـخاصا يكونون عيونـا لهـا أو منظمه واسـعه للإحـاطه بمجريات الأمور،و أن يواجهوا المؤامرات ضد المجتمع أو التى يراد بها إرباك الوضع الأمنى فى البلاد،فيتجسّـسوا للمصلحه العامه حتى لو كـان ذلـك فى إطـار الحيـاه الخـاصه للأـفراد! إلاّـ أنّ هـذا الأـمر لاـ ينبغى أن يكون ذريعه لهتك حرمه هـذا القانون الإسـلامى الأصـيل،و أن يسوّغ بعض الأفراد لأنفسـهم أن يتجسّسوا فى حياه الأفراد الخاصه بذريعه التآمر و الإخلال بالأمن،فيفتحوا رسائلهم مثلاـأو يراقبوا الهـاتف و يهجموا على بيوتهم بين حين و آخر!! و الخلاـصه أنّ الحـدّ بين التجسـس بمعناه السـلبى و بين كسـب الأخبار الضروريه لحفظ أمن المجتمع دقيق و ظريف جدا،و ينبغى على مسئولى إداره الأمور الاجتماعيه أن يراقبوا هذا الحدّ بدقّه لئلّا تهتك حرمه أسرار الناس،و لئلّا يتهدّد أمن المجتمع و الحكومه الإسلاميه!.

٣-الغيبه من أعظم الذنوب و أكبرها!

قلنا إنّ رأس مال الإنسان المهم فى حياته ماء وجهه و حيثيّته،و أى شيء يهدّده فكأنّما يهدّد حياته بالخطر.

و أحيانا يعدّ اغتيال و قتل الشخصيه أهم من اغتيال الشخص نفسه،و من هنا كان إثمه أكبر من قتل النفس أحيانا.

إنّ واحـده من حكم تحريم الغيبه أن لا يتعرّض هذا الإعتبار العظيم للأشـخاص و رأس المال آنف الذكر لخطر التمزّق و التلوّث و أن لا تهتك حرمه الأشـخاص و لا تلوّث و حيثياتهم،و هـذا مطلب مهم تلقاه الإسـلام باهتمام بالغ! و الأمر الآخر إنّ الغيبه تولّد النظره السيئه و تضعف العلائق الاجتماعيه و توهنها

و تتلف رأس المال الاعتماد و تزلزل قواعد التعاون«الاجتماعی»! و نعرف أنّ الإسلام أولی أهمیه بالغه من أجل الوحده و الانسجام و التضامن بین أفراد المجتمع،فکلّ أمر یقوی هذه الوحده فهو محل قبول الإسلام و تقدیره،و ما یؤدّی إلی الإخلال بالأواصر الاجتماعیه فهو مرفوض،و الاغتیاب هو أحد عوامل الوهن و التضعیف...

ثمّ بعد هذا کلّه فإنّ الاغتیاب ینثر فی القلوب بذور الحقد و العداوه و ربّما أدّی أحیانا إلی الاقتتال و سفک الدماء فی بعض الأحیان.

و الخلاصه أنّنا حین نقف علی أنّ الاغتیاب یعدّ واحدا من کبائر الذنوب فإنّما هو لآثاره السیئه فردیه کانت أم اجتماعیه! و فی الروایات الإسلامیه تعابیر مثیره فی هذا المجال نورد هنا علی سبیل المثال بعضا منها!

قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّ الدرهم یصیبه الرجل من الربا أعظم عند اللّه فی الخطیئه من ست و ثلاثین زنیه یزنیها الرجل و أربی الربی عرض الرجل المسلم» (۱) .

و ما ذلک إلّا لأنّ الزنا و إن کان قبیحا و سیئا،إلّا أنّ فیه جنبه حق اللّه،و لکن الربا و ما هو أشدّ منه کإراقه ماء وجه الإنسان و ما إلی ذلک فیه جنبه حق الناس.

و

قد ورد فی روایه أخری أن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم خطب یوما بصوت عال و نادی:

«یا معشر من آمن بلسانه و لم یؤمن بقلبه!تغتابوا المسلمین و لا تتّبعوا عوراتهم فإنّه من تتّبع عوره أخیه تتّبع اللّه عورته و من تتّبع اللّه عورته یفضحه فی جوف بیته» (۲) .

کما

ورد فی حدیث ثالث أن اللّه أوحی لموسی علیه السّلام قائلا:«من مات تائبا من

۱- ۱) -المحجّه البیضاء ج ۵،ص ۲۵۳.

۲- ۲) -المصدر السابق،ص ۲۵۲.

الغیبه فهو آخر من یدخل الجنه،و من مات مصرا علیه فهو أوّل من یدخل النّار» (۱) .

کما نقرأ

حدیثا آخر عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «الغیبه أسرع فی دین الرجل المسلم من الأکله فی جوفه» (۲) .

و هذا التشبیه یدلّ علی أن الاغتیاب کمثل الجرب الذی یأکل اللحم، فإنّه یذهب بالإیمان بسرعه.

و مع الالتفات إلی أنّ بواعث الغیبه و دوافعها أمور متعدّده کالحسد و التکبر و البخل و الحقد و الأنانیه و أمثالها من صفات دمیمه و قبیحه یتّضح السرّ فی سبب کون الغیبه و تلویث سمعه المسلمین و هتک حرمتهم لها هذا الأثر المدمّر لإیمان الشخص.

و الروایات الإسلامیه فی هذا الصدد کثیره،و نختتم بحثنا هذا بذکر حدیث آخر

نقل عن الإمام الصادق علیه السّلام إذ یقول: «من روی علی مؤمن روایه یرید بها شینه و هدم مروّته لیسقط من أعین الناس أخرجه اللّه من ولایته إلی ولایه الشیطان فلا یقبله الشیطان» (۳) .

إنّ جمیع هذه التأکیدات و العبارات المثیره إنما هی للأهمیه القصوی التی یولیها الإسلام لصون ماء الوجه و حیثیه المؤمنین الاجتماعیه،و کذلک للأثر المخرّب-الذی تترکه الغیبه-فی وحده المجتمع و الاعتماد المتبادل فی القلوب، و أسوأ من کل ذلک أنت الغیبه تسوق إلی إشعال نار العداوه و البغضاء و النفاق و إشاعه الفحشاء فی المجتمع.لأنّه حین تنکشف عیوب الناس الخفیّه عن طریق الغیبه لا تبقی لها خطوره فی أعین الناس و یکون التلوّث بها فی غایه البساطه!

ص:۵۵۶

۱- ۱) -المصدر السابق.

۲- ۲) -أصول الکافی،ج ۲،باب الغیبه،الحدیث ۱-الآکله نوع من الأمراض الجلدیه.

۳- ۳) -وسائل الشیعه،ج ۸،الباب ۱۵۷،الحدیث ۲،الصفحه ۶۰۸.

۴-مفهوم الاغتیاب؟

«الغیبه»أو الاغتیاب کما هو ظاهر الاسم ما یقال فی غیاب الشخص،غایه ما فی الأمر أنّه بقوله هذا یکشف عیبا من عیوب الناس.سواء کان عیبا جسدیا أو أخلاقیّا أو فی الأعمال أو فی المقال بل حتی فی الأمور المتعلّقه به کاللباس و البیت و الزوج و الأبناء و ما إلی ذلک! فبناء علی هذا ما یقال عن الصفات الظاهره للشخص،الآخر لا یعدّ اغتیابا،إلاّ أن یراد منه الذم و العیب فهو فی هذه الصوره حرام،کما لو قیل فی مقام الذم أنّ فلانا أعمی أو أعور أو قصیر القامه أو شدید الأدمه و السمره أکوس اللحیه إلخ...

فیتّضح من هذا أنّ ذکر العیوب الخفیه بأی قصد کان یعدّ غیبه و هو حرام أیضا، و ذکر العیوب الظاهره إذا کان بقصد الذم فهو حرام،سواء أدخلناه فی مفهوم الغیبه أم لا؟! کل هذا فی ما لو کانت هذه العیوب فی الطرف الآخر واقعیه،أمّا إذا لم تکن أصلا فتدخل تحت عنوان«البهتان»و إثمه أشدّ من الاغتیاب بمراتب.

ففی حدیث ورد عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «الغیبه أن تقول فی أخیک ما ستره اللّه علیه،و أمّا الأمر الظاهر فیه مثل الحدّه و العجله فلا،و البهتان أن تقول ما لیس فیه» (۱) .

و من هنا یتبیّن أنّ ما یتبجّح به العوام من أعذار فی الغیبه غیر مقبول کأن یقول المغتاب:لیس هذا اغتیابا بل هو صفته،فی حین إذا لم یکن قوله الذی یعیبه فیه صفه له فهو بهتان لا أنّه غیبه.

أو أن یقول:هذا کلام أقوله فی حضوره أیضا،فی حین أنّ کلامه أمام الطرف الآخر لا یترتّب علیه إثم الاغتیاب فحسب،بل یتحمّل بسبب الإیذاء إثما أکبر و وزرا أثقل.

۱- ۱) -أصول الکافی،ج ۲،باب الغیبه و البهت،الحدیث ۷.

۵-علاج الغيبه و التوبه منها!

إنّ الغيبه كسائر الصفات الذميمه تتحوّل تدريجا إلى صوره مرض نفسى بحيث يلتذ المغتاب من فعله و يحس بالاغتباط و الرضا عند ما يريق ماء وجه فلان، و هذه مرتبه من مراتب المرض القلبى الخطير جدا.

و من هنا فينبغى على المغتاب أن يسعى إلى علاج البواعث الداخليه للاغتياب التى تكمن فى أعماق روحه و تحضّه على هذا الذنب،من قبيل البخل و الحسد و الحقد و العداوه و الاستعلاء و الأنانيه! فعليه أن يطهّر نفسه عن طريق بناء الشخصيه و التفكير فى العواقب السيئه لهذه الصفات الذميمه و ما ينتج عنها من نتائج مشؤومه،و يغسل قلبه عن طريق الرياضه النفسيه ليستطيع أن يحفظ لسانه من التلوّث بالغيبه.

ثمّ يتوجّه إلى مقام التوبه،و حيث أنّ التوبه من الغيبه فيها«جنبه»حق الناس، فإنّ عليه إذا كان ممكنا و لا يحصل له أىّ مشكل أو معضل-أن يعتذر ممّن اغتابه حتى و لو بصوره مجمله أو معمّاه كأن يقول:إنّنى أغتابك أحيانا لجهلى فسامحنى و اعف عنى و لا يطيل فى بيان الغيبه و شرحها لئلّا يحدث عامل آخر للفساد أو الإفساد! و إذا لم يستطع الوصول إلى الطرف الآخر،أو لا يعرفه،أو أنّه مضى إلى ربّه فيستغفر له و يعمل صالحا،فلعلّ اللّه يغفر له ببركه العمل الصالح و يرضى عنه الطرف الآخر.

۶-موارد الاستثناء! و آخر ما ينبغى ذكره فى شأن الغيبه أنّ قانون الغيبه كأى قانون آخر له استثناءات،من جملتها أنّه يتفق أحيانا فى مقام«الاستشاره»مثلا لانتخاب الزوج أو الشريک فى الكسب و ما إلى ذلک أن يسأل إنسان أنسانا آخر،فالأمانه فى

المشوره التی هی قانون إسلامی مسلّم به توجب أن تبیّن العیوب إن وجدت فی الشخص الآخر لئلاّ یتورّط المسلم فی مشکله،فمثل هذا الاغتیاب بمثل هذا القصد لا یکون حراما.

و کذلک فی الموارد الأخری التی فیها أهداف مهمّه کهدف المشوره فی العمل أو لإحقاق الحق أو التظلّم و ما إلی ذلک.

و بالطبع فإنّ«المتجاهر بالفسق»خارج عن موضوع الغیبه،و لو ذکر إثمه فی غیابه فلا إثم علی مغتابه،إلاّ أنّه ینبغی الالتفات إلی أنّ هذا الحکم خاص بالذنب الذی یتجاهر به فحسب.

و ممّا یسترعی الالتفات أیضا هو أنّ الغیبه لیست حراما فحسب،فالاستماع إلیها حرام أیضا،و الحضور فی مجلس الاغتیاب حرام،بل یجب طبقا لبعض الروایات أن یردّ علی المغتاب،یعنی أن یدافع عن أخیه المسلم الذی یراد إراقه ماء وجهه،و ما أحسن مجتمعا تراعی فیه هذه الأصول الأخلاقیه بدقّه!

ص:۵۵۹

الآیه [سوره الحجرات (۴۹): آیه ۱۳]

اشاره

يَا أَيُّهَا اَلنّاسُ إِنّا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثىٰ وَ جَعَلْنٰاكُمْ شُعُوباً وَ قَبٰائِلَ لِتَعٰارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اَللّٰهِ أَتْقٰاكُمْ إِنَّ اَللّٰهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (۱۳)

التّفسیر

التقوی أغلی القیم الإنسانیه:

کان الخطاب فی الآیات السابقه موجّها للمؤمنین و کان بصیغه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا و قد نهی الذکر الحکیم فی آیات متعدّده عمّا یوقع المجتمع الإسلامی فی خطر،و تکلّم فی جوانب من ذلک.

فی حین أنّ الآیه محل البحث تخاطب جمیع الناس و تبیّن أهم أصل یضمن النظم و الثبات،و تمیّز المیزان الواقعی للقیم الإنسانیه عن القیم الکاذبه و المغریات الباطله.فتقول: يَا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثىٰ وَ جَعَلْنٰاكُمْ شُعُوباً وَ قَبٰائِلَ لِتَعٰارَفُوا .

و المراد ب خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثىٰ هو أصل الخلقه و عوده أنساب الناس إلی «آدم و حواء»،فطالما کان الجمیع من أصل واحد فلا ینبغی أن تفتخر قبیله علی

ص: ۵۶۰

أخرى من حيث النسب،و إذا كان اللّه سبحانه قد خلق كلّ قبيله و أولاها خصائص و وظائف معيّنه فإنّما ذلك لحفظ نظم حياه الناس الاجتماعيه!لأنّ هذه الاختلافات مدعاه لمعرفه الناس،فلو،كانوا على شاكله واحده و متشابهين لساد الهرج و المرج فى المجتمع البشرى أجمع.

و قد اختلف المفسّرون فى بيان الفرق بين«الشعوب»جمع شعب-على زنه صعب-(الطائفه الكبيره من الناس)و«القبائل»جمع قبيله فاحتملوا احتمالات متعدّده:

قال جماعه إنّ دائره الشعب أوسع من دائره القبيله،كما هو المعروف فى العصر الحاضر أن يطلق الشعب على أهل الوطن الواحد.

و قال بعضهم:كلمه«شعوب»إشاره إلى طوائف العجم،و أمّا«القبائل» فإشاره طوائف العرب.

و أخيرا فإنّ بعضهم قال بأنّ«الشعوب»اشاره إلى انتساب الناس إلى المناطق «الجغرافيه»و«القبائل»إشاره إلى انتسابهم إلى العرق و الدم.

لكنّ التّفسير الأوّل أنسب من الجميع كما يبدو!و على كلّ حال فإنّ القرآن بعد أن ينبذ أكبر معيار للمفاخره و المباهات فى العصر الجاهلى و يلغى التفاضل بالأنساب و القبائل يتّجه نحو المعيار الواقعى القيم فيضيف قائلا: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقٰاكُمْ .

و هكذا فإنّ القرآن يشطب بالقلم الأحمر على جميع الامتيازات الظاهريه و الماديه،و يعطى الأصاله و الواقعيه لمسأله التقوى و الخوف من اللّه،و يقول إنّه لا شيء أفضل من التقوى فى سبيل التقرّب إلى اللّه و ساحه قدسه.

و حيث أنّ«التقوى»صفه روحانيه و باطنيه ينبغى أن تكون قبل كلّ شيء مستقرّه فى القلب و الروح،و ربّما يوجد مدّعون للتقوى كثيرون و المتّصفون بها قله منهم،فإنّ القرآن يضيف فى نهايه الآيه قائلا: إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

ص:561

فـاللّه يعرف المتّقين حقّـا و هـو مطلـع على درجـات تقواهم و خلوص نيّـاتهم و طهـارتهم و صـفائهم،فهو يكرمهم طبقـا لعلمه و يثيبهم،و أمّا المدّعون الكذبه فإنّه يحاسبهم و يجازيهم على كذبهم أيضا.

بحثان

اشاره

١-القيم الحقّه و القيم الباطله

لا شكّ أنّ كلّ إنسان يرغب بفطرته أن يكون ذا قيمه و افتخار،و لذلك فهو يسعى بجميع وجوده لكسب القيم..

إلاّ معرفه معيـار القيم يختلف باختلاف الثقافات تمامـا،و ربّما أخـذت القيم الكاذبه مكانا بارزا و لم تبق للقيم الحقه مكان فى قاموس الثقافه للفرد.

فجمـاعه ترى بـأن قيمتهـا الواقعيه فى الانتسـاب إلى القبيله المعروفه،و لـذلك فإنّهم من أجل أن تعلو سـمعه قبيلتهم و طائفتهم و يظهرون نشاطات و فعاليات عامه ليكونوا برفعه القبيله و سمّوها كبراء أيضا.

و كـان الاهتمـام بـالقبيله و الافتخـار بالانتسـاب إليهـا من أكثر الأمور الوهميّه رواجا فى الجاهليه إلى درجه كانت كلّ قبيله تعدّ نفسـها أشـرف مـن القـبيله الأخرى،و مـن المؤسـف أن نجـد رواسب هـذه الجـاهليه فى أعمـاق نفـوس الكـثيرين من الأفراد و المجتمعـات!!و جمـاعه أخرى تعوّل على مسأله المال و الثروه و امتلاكها للقصور و الخـدم و الحشم و أمثال هـذه الأمور،فتعـدّها دليلا على القيمه الشخصيّه و تسعى من أجل كلّ ذلك دائما.

و جمـاعه تعتبر(المقامـات)السياسـيه و الاجتماعيه العليا معيارا للشخصـيه و القيـم الاجتماعيه! و هكـذا تخطو كلّ جماعه فى طريق خاص و تنشدّ قلوبها إلى قيمه معينه

و تعدّها معيارها الشخصی! و حيث أنّ هذه الأمور جميعها أمور متزلزله و مسائل ذاتيه و ماديه و عابره فإنّ مبدأ سماويا كمبدأ الإسلام لا يمكنه أن يوافق عليها أبدا...لذلك يشطب عليها بعلامه البطلان و يعتبر القيمه الحقيقيه للإنسان فی صفاته الذاتيه و خاصه تقواه و طهاره قلبه و التزامه الدينی.

حتی أنّه لا يكترث بموضوعات مهمّه كالعلم و الثقافه إذا لم تكن فی خطّ «الإيمان و التقوی و القيم الأخلاقيه»...

و من العجيب أن يظهر القرآن فی محيط يهتمّ بالقيمه القبليه أكثر من اهتمامه بالقيم الأخری،إلاّ أنّ القرآن حطّم هذه الوثنيه و حرّر الإنسان من أسر العرق و الدم و القبيله و اللون و المال و المقام و الثروه و قاده إلی معرفه نفسه و العثور علی ضالّته داخل نفسه و صفاتها العليا.

الطريف أنّ فی ما ذكر فی شأن نزول الآيه محل البحث لطائف و دقائق تحكی عن عمق هذا الدستور الإسلامی.

منها:إنّ النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم أمر«بلالا»بعد فتح مكّه أن يؤذّن،فصعد بلال و أذّن علی ظهر الكعبه،فقال«عتّاب بن أسيد»الذی كان من الأحرار:أشكر اللّه أن مضی أبی من هذه الدنيا و لم ير مثل هذا اليوم..و قال«الحارث بن هشام»:ألم يجد رسول اللّه غير هذا الغراب الأسود للأذان؟!«فنزلت الآيه الآنفه و بيّنت معيار القيم الواقعيه» (۱) .

و قال بعضهم:نزلت الآيه عند ما أمر الرّسول صلی اللّه عليه و آله و سلّم بتزويج بعض الموالی من بنات العرب«و الموالی تطلق علی العبيد الذين عتقوا من ربقه أسيادهم أو علی غير العرب(المسلمين)».فتعجّبوا و قالوا:يا رسول اللّه أ تأمرنا أن نزوّج بناتنا من

ص:۵۶۳

۱- ۱) -روح البيان،ج ۹،ص ۹۰،كما ورد فی تفسير القرطبی ص ۶۱۶۰ ج ۹.

الموالی«فنزلت الآیه و أبطلت هذه الأفکار الخرافیه» (۱) .

و نقرأ

فی بعض الروایات الإسلامیه أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم خطب یوما فی مکّه فقال:

«یا أیّها الناس إنّ اللّه قد أذهب عنکم عیبه الجاهلیه و تعاظمها بآبائها فالناس رجلان رجل برّ تقی کریم علی اللّه و فاجر شقی هیّن علی اللّه و الناس بنو آدم و خلق اللّه آدم من تراب قال اللّه تعالی: یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ إِنّٰا خَلَقْنٰاکُمْ مِنْ ذَکَرٍ وَ أُنْثیٰ وَ جَعَلْنٰاکُمْ شُعُوباً وَ قَبٰائِلَ لِتَعٰارَفُوا إِنَّ أَکْرَمَکُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقٰاکُمْ إِنَّ اللّٰهَ عَلِیمٌ خَبِیرٌ (۲) .

و

قد جاء فی کتاب«آداب النفوس»للطبری أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم التفت إلی الناس و هو راکب علی بعیره فی أیّام التشریق بمنی«و هی الیوم الحادی عشر و الثّانی عشر و الثّالث عشر»من ذی الحجه فقال:«یا أیّها الناس!ألا إنّ ربّکم واحد و إنّ أباکم واحد ألا-لا فضل لعربی علی عجمی و لا لعجمی علی عربی و لا لأسود علی أحمر و لا لأحمر علی أسود إلاّ بالتقوی ألا هل بلّغت:قالوا نعم!قال:لیبلغ الشاهد الغائب» (۳) .

کما ورد فی حدیث آخر بهذا المعنی ضمن کلمات قصیره ذات معانی غزیره

أنّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «إنّ اللّه لا ینظر إلی أحسابکم و لا إلی أنسابکم و لا الی أجسامکم و لا إلی أموالکم و لکن ینظر إلی قلوبکم،فمن کان له قلب صالح تحنّن اللّه علیه و إنّما أنتم بنو آدم و أحبّکم إلیه أتقاکم» (۴) .

إلاّ-أنّ العجیب أنّه مع هذه التعلیمات الواسعه الغنیه ذات المغزی الکبیر ما یزال بین المسلمین من یعوّل علی الدم و النسب و اللسان و یقدّمون وحده الدم و اللغه علی الأخوه الإسلامیه و الوحده الدینیه و یحیون العصبیه الجاهلیه مرّه أخری،

۱- ۱) -المصدر السابق.

۲- ۲) -تفسیر القرطبی،ج ۹،ص ۶۱۶۱.

۳- ۳) -المصدر السابق،ص ۶۱۶۲،و التعبیر«بالأحمر»فی هذه الروایه لا یعنی من بشرته حمراء بل من بشرته حنطیّه لأنّ أغلب الناس فی ذلک المحیط کانوا بهذه الصفه و من الطریف أن یطلق الأحمر علی الحنطه أیضا

۴- ۴) -المصدر السابق.

و بـالرغم من الضـربات الشديـده التى يتلقّونهـا من جراء ذلك، إلّا أنّهم حسب الظاهر لا يريـدون أن يتيقّظوا و يعودوا إلى حكم الإسلام و حظيره قدسه! حفظ اللّه الجميع من شر العصبيه الجاهليه.

إنّ الإسـلام حـارب العصبيه الجـاهليه فى أى شـكل كانت و فى أيّه صوره ليجمع المسـلمين فى العالم من أى قوم و قبيله و عرق تحت لواء واحد!-لواء القوميه و لا سواه-لأنّ الإسـلام لا يوافق على هذه النظريات المحدوده و يعدّ جميع هذه الأمور وهميه و لا أساس لها حتى أنّه

ورد فى حديث عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال:

«دعوها فإنّها منتنه» (۱) .

و لكنّ لماذا بقيت هذه الفكره المنتنه مترسّخه فى عقول الكثيرين ممّن يدّعون أنّهم مسلمون و يتّبعون القرآن و الأخوه الإسلاميه ظاهرا؟!لا نـدرى!! و ما أحسن أن يبنى المجتمع على أساس معيار القيم الإسـلامى إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقاكُمْ و إن تطوى القيم الكاذبه من قوميّه و مال و ثروه و مناطق جغرافيه و طبقيه عن هذا المجتمع.

أجل،التقوى الإلهيه و الإحساس بالمسؤوليه الداخليه و الوقوف بوجه الشـهوات و الالتزام بالحق و الصدق و الطهاره و العدل،هى وحـدها معيـار القيم الإنسـانيه لا غير،بالرغم من أنّ هـذه القيم الأصـيله نسيت و أهملت فى سوق المجتمعات المعاصـره و حلّت محلها القيم الكاذبه.

فى نظام القيم الجاهليه الذى كان يدور حول محور«التفاخر بالآباء و الأموال و الأولاد»لم ينتج سوى حفنه سرّاق و ناهبين،غير أنّه بتبدّل هذا النظام و إحياء أصل إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقاكُمْ الكبير كان من ثمراته أناس أمثال سـلمان و أبو ذر و عمّار و ياسـر و المقداد. و المهم فى ثورات المجتمعات الإنسانيه هو الثوره على القيم»و إحياء هذا الأصل الإسلامى الأصيل!

۱- ۱) -صحيح مسلم طبقا لما نقل فى ظلال الإسلام،ج ۷،ص ۵۳۸.

و نختتم کلامنا هذا

بحدیث للنبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إذ قال: «کلکم بنو آدم و آدم خلق من تراب و لینتهین قوم یفخرون بآبائهم أو لیکونن أهون علی اللّه من الجعلان» (۱) .

۲-حقیقه التقوی

کما رأینا من قبل،فإنّ القرآن جعل أکبر امتیاز للقوی،و عدّها معیارا لمعرفه القیم الإنسانیه فحسب! و فی مکان آخر عدّها خیر الزاد و الشراب إذ یقول: وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَیْرَ الزّادِ التَّقْوی (۲) .

أمّا فی سوره الأعراف فقد عبّر عنها باللباس: وَ لِباسُ التَّقْوی ذلِکَ خَیْرٌ (۳) .

کما أنه عبّر عنها فی آیات أخر بأنّها واحده من أول أسس دعوه الأنبیاء، و یسمو بها فی بعض الآیات إلی أن یعبّر عن اللّه بأنه أهل التقوی فیقول: هُوَ أَهْلُ التَّقْوی وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَهِ (۴) .

و القرآن یعدّ التقوی نورا من اللّه،فحیثما رسخت التقوی کان العلم و المعرفه إذ یقول: وَ اتَّقُوا اللّهَ وَ یُعَلِّمُکُمُ اللّهُ (۵) .

و یقرن التقوی بالبرّ فی بعض آیاته فیقول: وَ تَعاوَنُوا عَلَی الْبِرِّ وَ التَّقْوی .

أو یقرن العداله بالتقوی فیقول: اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوی .

و الآن ینبغی أن نری ما هی«حقیقه التقوی»التی هی أعظم رأس مال معنوی و افتخار للإنسان.

أشار القرآن إشارات تکشف أستارا عن حقیقه التقوی،فیذکر فی آیات متعدّده

۱- ۱) -فی ظلال القرآن،ج ۷،ص ۵۳۸.

۲- ۲) -البقره،الآیه ۱۹۷.

۳- ۳) -الأعراف،الآیه ۲۶.

۴- ۴) -المدّثر،الآیه ۵۶.

۵- ۵) -البقره،الآیه ۲۸۲.

«القلب»مكانا للتقوى،و من ضمنها قوله تعالى: أُولٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوىٰ (1) .

و يجعل القرآن«التقوى»فى مقابل«الفجور»كما نقرأ ذلك فى الآيه(8)من سوره الشمس: فَأَلْهَمَهٰا فُجُورَهٰا وَ تَقْوٰاهٰا .

و يعدّ القرآن كلّ عمل ينبع من روح الإيمان و الإخلاص و النيه الصادقه أساسه التقوى،كما جاء فى وصفه فى شأن«مسجد قبا»(فى المدينه)حيث بنى المنافقون فى قباله«مسجد ضرار»فيقول: لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ (2) .

و يستفاد من مجموع هذه الآيات أنّ التقوى هى الإحساس بالمسؤوليه و التعهّد الذى يحكم وجود الإنسان و ذلك نتيجه لرسوخ إيمانه فى قلبه حيث يصدّه عن الفجور و الذنب و يدعوه إلى العمل الصالح و البر و يغسل أعمال الإنسان من التلوّثات و يجعل فكره و نيّته فى خلوص من أيه شائبه.

و حين نعود إلى الجذر اللغوى لهذه الكلمه نصل إلى هذه النتيجه أيضا لأنّ «التقوى»مشتقّه من«الوقايه»و معناها المواظبه و السعى على حفظ الشيء، و المراد فى هذه الموارد حفظ النفس من التلوّث بشكل عام،و جعل القوى تتمركز فى أمور يكون رضا اللّه فيها:

و قد ذكر بعض الأعاظم للتقوى ثلاث مراحل:

1-حفظ النفس من(العذاب الخالد)عن طريق تحصيل الإعتقادات الصحيحه.

2-تجنّب كلّ إثم و هو أعم من أن يكون تركا لواجب أو فعلا لمعصيه.

3-التجلّد و الاصطبار عن كلّ ما يشغل القلب و يصرفه عن الحق،و هذه تقوى

1- 1) -الحجرات،الآيه 3.

2- 2) -سوره التوبه:108.

الخواص بل خاص الخاص (۱) .

و فی نهج البلاغه للإمام أمیر المؤمنین علی علیه السلام تعابیر حیّه و بلیغه فی شأن التقوی،حیث ذکرت التقوی فی کثیر من خطب الإمام و کلماته القصار! ففی بعض کلماته یقارن علیه السلام بین التقوی و الذنب

فیقول: «ألا ـ و إنّ الخطایا خیل شمس حمل علیها أهلها و خلعت لجمها فتقحّمت بهم فی النّار ألا و إنّ التقوی مطایا ذلل حمل علیها أهلها و أعطوا أزمّتها فأوردتهم الجنّه» (۲) .

و طبقا لهذا التشبیه اللطیف فإنّ التقوی هی حاله ضبط النفس و التسلّط علی الشهوات،فی حین أنّ عدم التقوی هو الاستسلام للشهوات و عدم التسلّط علیها.

و

یقول الإمام علی فی مکان آخر: «اعلموا عباد اللّه أنّ التقوی دار حصن عزیز و الفجور دار حصن ذلیل لا یمنع أهله و لا یحرز من لجأ إلیه ألا و بالتقوی تقطع حمه الخطایا» (۳) .

و

یضیف فی مکان آخر أیضا: «فاعتصموا بتقوی اللّه فإنّ لها حبلا وثیقا عروته و معقلا منیعا ذروته» (۴) .

و تتّضح حقیقه التقوی و روحها من خلال مجموع التعبیرات آنفه الذکر.

و ینبغی الالتفات إلی هذه«اللطیفه»و هی أنّ التقوی ثمره شجره الإیمان،و من أجل الحصول علی هذه الثمره النادره و الغالیه ینبغی أن تکون قاعده الإیمان راسخه و محکمه! و بالطبع فإنّ ممارسه الطاعه و تجنّب المعصیه و الالتفات إلی المناهج الأخلاقیه تجعل التقوی راسخه فی النفس،و نتیجتها ظهور نور الیقین و الإیمان فی نفس الإنسان،و کلّما إزداد نور التقوی إزداد نور الیقین أیضا،و لذلک نجد التقوی فی

۱- ۱) -بحار الأنوار ج ۷۰،ص ۱۲۶.

۲- ۲) -نهج البلاغه الخطبه رقم ۱۶.

۳- ۳) -نهج البلاغه الخطبه ۱۵۷.

۴- ۴) -نهج البلاغه الخطبه ۱۹۰.

بعض الروايات الإسلاميه على أنّها درجه أعلى من الإيمان و أدنى من اليقين!

يقول الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: «الإيمان فوق الإسلام بدرجه و التقوى فوق الإيمان بدرجه و اليقين فوق التقوى بدرجه و ما قسم فى الناس شىء أقلّ من اليقين».

و نختتم بحثنا بأبيات تجسّد حقيقه التقوى ضمن مثال جلى:

خل الذنوب صغيرها

و كبيرها فهو التقى

و اصنع كماش فوق أرض

الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرنّ صغيره

إنّ الجبال من الحصى

ص :۵۶۹

الآيتان [سوره الحجرات (۴۹): الآيات ۱۴ الی ۱۵]

اشاره

قَالَتِ اَلْأَعْرَابُ آمَنّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمّا يَدْخُلِ اَلْإِيمانُ فِی قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوا اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ لاٰ يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۴) إِنَّمَا اَلْمُؤْمِنُونَ اَلَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِی سَبِيلِ اَللّٰهِ أُولٰئِكَ هُمُ اَلصّادِقُونَ (۱۵)

سبب النّزول

ذكر كثير من المفسّرين شأنا لنزول الآيتين و خلاصته ما يلی...

ورد المدينه جماعه من«بنی أسد»فی بعض سنين الجدب و القحط و أظهروا الشهادتين علی ألسنتهم أملا فی الحصول علی المساعده من النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا للرسول أنّ قبائل العرب ركبت الخيول و حاربتكم إلّا أنّنا جئناك بأطفالنا و نسائنا دون أن نحاربك،و أرادوا أن يمنّوا علی النّبی عن هذا الطريق! فنزلت الآيتان آنفتا الذكر و كشفتا أنّ إسلامهم ظاهری و لم يتغلغل الإيمان فی أعماق قلوبهم،ثمّ إذا كانوا مؤمنين فما ينبغی عليهم أن يمنّوا علی الرّسول

بالإيمان بل اللّه يمن عليهم أن هداهم للإيمان (۱) .

و لكنّ وجود شأن النزول هذا لا يمنع من عموميه مفهوم الآيه.

التّفسير

اشاره

الفرق بين الإسلام و الإيمان:

كـان الكلاـم فی الآـيه المتقـدّمه على معيـار القيم الإنسانيه أی التقوی،و حيث أنّ التقوی ثمره لشـجره الإيمان الإيمان النافـذ فی أعمـاق القلوب،ففی الآـيتين الآـنفتين بيـان لحقيقه الإيمـان إذ تقول الآـيه الأـولی: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِی قُلُوبِكُمْ .

و طبقا لمنطوق الآيه فإنّ الفرق بين«الإسـلام»و«الإيمان»فی أنّ:الإسـلام له شـكل ظاهری قانونی،فمن تشهد بالشهادتين بلسانه فهو فی زمره المسلمين و تجری عليه أحكام المسلمين.

أمّا الإيمان فهو أمر واقعی و باطنی،و مكانه قلب الإنسان لا ما يجری على اللسان أو ما يبـدو ظاهرا! الإسـلام ربّما كان عن دوافع متعـدّده و مختلفه بما فيها الدوافع المادیّه و المنافع الشخصـيه،إلّا أنّ الإيمان ينطلق من دافع معنوی،و يستقی من منبع العلم،و هو الـذی تظهر ثمره التقوی اليـانعه على غصن شـجرته الباسـقه! و هـذا مـا أشار إليه الرّسول الأكرم صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم فی تعبيره البليغ الرائع:

«الإسلام علانيه و الإيمان فی القلب» (۲) .

كما إنّا نقرأ حديثا آخر

عن الإمام الصادق يقول فيه: الإسلام يحقن الدم

۱- ۱) -تفسير الميزان و روح البيان و فی ظلال القرآن،ذيل الآيات محل البحث.

۲- ۲) -مجمع البيان،ج ۹،ص ۱۳۸.

و تؤدّى به الأمانه و تستحل به الفروج و الثواب على الإيمان (۱) .

و ربما كان لهذا السبب أنّ بعض الروايات تحصر مفهوم الإسلام بالإقرار اللفظى،فى حين أنّ الإيمان إقرار باللسان و عمل بالأركان،إذ تقول الروايه

«الإيمان إقرار و عمل،و الإسلام إقرار بلا عمل» (۲) .

و هذا المعنى نفسه وارد فى تعبير آخر فى بحث الإسلام و الإيمان،

يقول«فضيل بن يسار»سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: إنّ الإيمان يشارك الإسلام و لا يشاركه الإسلام،إنّ الإيمان ما وقر فى القلوب و الإسلام ما عليه المناكح و المواريث و حقن الدماء (۳) .

و هذا التفاوت فى المفهومين فيما إذا اجتمع اللفظان معا،إلّا أنّه إذا انفصل كل عن الآخر فربما أطلق الإسلام على ما يطلق عليه بالإيمان،أى أنّ اللفظين قد يستعملان فى معنى واحد أحيانا.

ثمّ تضيف الآيه محل البحث فتقول: وَ إِنْ تُطِيعُوا اللّهَ وَ رَسُولَهُ لاٰ يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمٰالِكُمْ شَيْئاً و سيوفّيكم ثواب أعمالكم بشكل كامل و لا ينقص منها شيئا.

و ذلك ل إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لاٰ يَلِتْكُمْ مشتق من«ليت»على زنه(ريب)و معناه الإنقاص من الحق (۴) .

و العبارات الأخيره فى الحقيقه إشارات إلى أصل قرآنى مسلّم به و هو أنّ شرط قبول الأعمال«الإيمان»،إذ مضمون الآيه أنّه إذ كنتم مؤمنين باللّه و رسوله إيمانا قلبيا و علامته طاعتكم للّه و الرّسول فإنّ أعمالكم مقبوله،و لا ينقص من أجركم شىء،و يثيبكم اللّه،و ببركه هذه الأعمال يغفر ذنوبكم لأنّ اللّه غفور رحيم.

و حيث أنّ الحصول على هذا الأمر الباطنى أى الإيمان ليس سهلا،فإنّ الآيه التاليه تتحدّث عن علائمه،العلائم التى تميّز المؤمن حقّا عن المسلم و الصادق

۱- ۱) -الكافى،ج ۲،باب أنّ الإسلام يحقن به الدم،الحديثان ۱،۲.

۲- ۲) -المصدر السابق.

۳- ۳) -أصول الكافى،ج ۲،باب أنّ الإيمان يشرّك الإسلام،الحديث ۳.

۴- ۴) -فعلى هذا يكون الفعل ليت أجوف يائيا و إن كان الفعل ولت بهذا المعنى أيضا.

عن الكاذب،و أولئك الذين استجابوا للّه و للرسول رغبه و شوقا منهم عن أولئك الذين استجابوا طمعا أو للوصول إلى المال و الدنيا فتقول: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِی سَبِيلِ اللّهِ ! أجل،إنّ أوّل علامه للإيمان هی عدم التردّد فی مسير الإسلام،و العلامه الثانيه الجهاد بالأموال،و العلامه الثالثه التی هی أهم من الجميع الجهاد بالنفس.

و هكذا فإنّ الإسلام يستهدف فی الإنسان أجلی العلائم «ثبات القدم و عدم الشک و التردّد من جهه،و الإيثار بالمال و النفس من جهه أخری».

فكيف لا يرسخ الإيمان فی القلب و الإنسان لا يقصّر عن بذل المال و الروح فی سبيل المحبوب!؟ و لذلک فإنّ الآيه تختتم بالقول مؤكّده: أُولئِکَ هُمُ الصّادِقُونَ .

هذا هو المعيار الذی حدّده الإسلام لمعرفه المؤمنين الحق و تمييزهم عن الكاذبين المدّعين بالإسلام تظاهرا،و ليس هذا المعيار منحصرا بفقراء جماعه بنی أسد،بل هو معيار واضح و جلی و يصلح لكلّ عصر و زمان لفصل المؤمنين عن المتظاهرين بالإسلام،و لبيان قيمه أولئک الذين يمنّون بأنّ أسلموا علی النّبی صلی اللّه عليه و آله و سلّم و ذلک بحسب الظاهر فحسب،إلاّ أنّه عند التطبيق و العمل لا يوجد فيهم أقلّ علامه من الإيمان أو الإسلام.

و فی قبال أولئک رجال لا يدّعون شيئا و لا يمنّون،بل يرون أنفسهم مقصّرين دائما،و فی الوقت ذاته هم فی طليعه المضحّين و المؤثرين بأموالهم و أنفسهم فی سبيل اللّه.

و لو أنّا اتخذنا معيار القرآن لمعرفه المؤمنين الواقعيين و تمييزهم عن سواهم لما كان معلوما من خلال هذا العدد الهائل من آلاف الآلاف و«الملايين»ممن يدّعون الإسلام كم هم المؤمنون حقّا؟!و كم هم المسلمون فی الظاهر فحسب؟!

الآیات [سوره الحجرات (۴۹): الآیات ۱۶ الی ۱۸]

اشاره

قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اَللّٰهَ بِدِينِكُمْ وَ اَللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي اَلْأَرْضِ وَ اَللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۶) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاٰ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاٰمَكُمْ بَلِ اَللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدٰاكُمْ لِلْإِيمٰانِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۱۷) إِنَّ اَللّٰهَ يَعْلَمُ غَيْبَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ اَللّٰهُ بَصِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ (۱۸)

سبب النزول

اشاره

قال جماعه من المفسّرین إنّه بعد نزول ما تقدّم من الآیات آنفا جاء النّبی طائفه من الأعراب و حلفوا أنّهم صادقون فی ادّعائهم بأنّهم المؤمنون و ظاهرهم و باطنهم سواء،فنزلت الآیه الأولی من الآیات محل البحث و أنذرتهم أن لا یحلفوا،فاللّه یعرف باطنهم و ظاهرهم،و لا یخفی علیه خافیه فی السماوات و لا فی الأرض (۱) .

ص: ۵۷۴

۱- ۱) -مجمع البیان،المیزان،روح البیان،و تفسیر القرطبی.

التّفسير

لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاٰمَكُمْ

:

كانت الآيات السابقه قد بيّنت علائم المؤمنين الصادقين،و حيث أنّا ذكرنا فى شأن النّزول أنّ جماعه جاؤوا النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا إنّ ادّعاءهم كان حقيقه و إنّ الإيمان مستقر فى قلوبهم،فإنّ هـذه الآيات تنـذرهم و تبيّن لهم أنّه لا حاجه إلى الإصرار و القسم،كما أنّ هذا البيان و الإنذار هو لجميع الذين على شاكله تلك الجماعه،فمسأله(الكفر و الإيمان)إنّما يطّلع عليها اللّه الخبير بكل شىء! و لحن الآيات فيه عتاب و ملامه،إذ تقول الآيه الأولى من الآيات محل البحث: قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللّٰهَ بِدِينِكُمْ وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا فِى السَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِى الْأَرْضِ .

و لمزيـد التأكيـد تقول الآيه أيضا: وَ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .فذاته المقدّسه هى علمه بعينه و علمه هو ذاته بعينها (١) و لذلك فإنّ علمه أزلى أبـدى! ذاته المقـدّسه فى كـلّ مكـان حاضـره،و هو أقرب إليكم من حبـل الوريـد،و يحول بين المرء و قلبه،فمع هـذه الحال لا حاجه لادّعائكم،و هو يعرف الصادقين من الكاذبين و مطّلع على أعماق أنفسـهم حتى درجات إيمانهم المتفاوته ضـعفا و قوّه، و قـد تنطلى عليهم أنفسـهم،إلاّ أنّه يعرفها بجلاء،فعلام تصـرون أن تعلّموا اللّه بدينكم؟! ثمّ يعود القرآن لكلمات الأعراب من أهل الباديه الذين يمنّون على النّبى بأنّهم أسلموا و أنّهم أذعنوا لدينه فى الوقت الذى حاربته القبائل العربيه الأخرى.

فيقول القرآن جوابا على كلمـاتهم هـذه: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لاٰ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاٰمَكُمْ بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدٰاكُمْ لِلْإِيمٰانِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ .

١- ١) -يشيع على ألسنه بعضهم التعبير ب«صفاته عين ذاته و ذاته عين صفاته»و ما أشبه ذلك و هذا التعبير ركيك و الصحيح ما ورد فى المتن(المصحّح).

«المنه» كما بيّنا سابقا من ماده «المن» و معناه الوزن الخاص الذى يوزن به، ثمّ استعمل هذا اللفظ على كلّ نعمه غاليه و ثمينه، و المنّه على نوعين: فإذا كان فيها جانب عملى كعطاء النعمه و الهبه فهى ممدوحه، و منن اللّه من هذا القبيل، و إذا كان فيها جانب لفظى، كمن كثير من الناس بالقول بعد العمل، فهى قبيحه و غير محبوبه! الطريف أن صدر الآيه يقول «يمنّون عليك أن أسلموا» و هذا تأكيد آخر على أنّهم غير صادقين فى إيمانهم.

و فى ذيل الآيه يأتى التعبير قائلا: بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدٰاكُمْ لِلْإِيمٰانِ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ .

و على كلّ حال فهذه مسأله مهمّه أن يتصوّر قاصر و التفكير غالبا أنّهم بقبول الإيمان و أداء العبادات و الطاعات يقدمون خدمه لساحه قدس اللّه أو للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أوصيائه، و لذلك فهم ينتظرون الثواب و الأجر.

فى حين أنّه لو أشرق نور الإيمان فى قلب أحد، و نال هذا التوفيق بأن كان فى زمره المؤمنين، فقد شمله لطف عظيم من اللّه عز و جل.

فالإيمان و قبل كلّ شىء يمنح الإنسان إدراكا جديدا عن عالم الوجود، و يكشف عنه حجب الأنانيه و الغرور، و يوسع عليه أفق نظرته، و يجسّد له عظمه خلقه فى نظره! انّه يلقى على عواطفه النور و الضياء و يربّيها و يحيى فى نفسه القيم الإنسانيه، و ينمّى استعداداته العاليه فيه، و يمنحه العلم و القوه و الشهامه و الإيثار و التضحيه و العفو و التسامح و الإخلاص، و يجعل منه إنسانا قويا ذا عطاء و ثمر بعد أن كان موجودا ضعيفا.

إنّه يأخذ بيده و يصعد به فى مدارج الكمال إلى قمه الفخر، و يجعله منسجما مع عالم الوجود، و يسخّر عالم الوجود طوع أمره!

ص: ۵۷۶

أ هـذه النعمه التی أنعمهـا اللّه علی الإنسان ذات قیمه،أم ما یمنّه الإنسان علی النبی؟!! کـذلک کلّ عباده و طاعه هی خطوه نحن التکامل،إذ تمنح القلب صـفاء و تسـیطر علی الشـهوات،و تقوّی فیه روح الإخلاص،و تمنح المجتمع الإسـلامی الوحده و القوّه و العظمه فکأنّه نسـیج واحد! فکل واحده منها درس کبیر فی التربیه،و مرحله من المراحل التکاملیه! و من هنا کان علی الإنسان أن یؤدّی شـکر نعمه اللّه صـباح مساء،و أن یهودی إلی السـجود بعد کلّ صـلاه و عباده،و أن یشکر اللّه علی جمیع هذه الأمور! فإذا کـانت نظره الإنسـان-فی هـذا المسـتوی-من الإیمـان و الطاعه فإنه لا یری نفسه متفضـلا،بل یجـد نفسه مـدینا للّه و لنبیّه و غریق إحسـانه.و یؤدّی عبـادته بلهفه، و یسعی فی سبیـل طـاعته علی الرأس لا علی القـدم و إذا ما أثابه اللّه أجرا فهو تفضّل آخر منه و لطف،و إلاّ فإنّ أداء الأعمال الصالحه یکون بنفع الإنسان، و الحقیقه أنّه بهذا التوفیق یضاف علی میزانه عند اللّه.

فهدایه اللّه-بناء علی ما بیّنا-لطف،و دعوه النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سلّم لطف آخر،و التوفیق للطاعه مضاعف،و الثواب لطف فـوق لطف! و فی آخر آیه من الآیـات محـل البحث الـتی هی آخر سوره الحجرات تأکیـد آخر علی مـا ورد فی الآیه الآنفه إذ تقول: إِنَّ اللّهَ یَعْلَمُ غَیْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللّهُ بَصِیرٌ بِما تَعْمَلُونَ فلا تصـرّوا علی أنّکم مؤمنون حتما و لا حاجه للقسم... فهو حاضـر فی أعمـاق قلوبکم،و هو علیم بمـا یجری فی غیب السـماوات و الأرض جمیعـا،فکیف لا یعلم ما فی قلوبکم و ما تنطوی علیه صـدورکم؟! اللّهم:مننت علینـا بنور الإیمان،فنقسم علیک بعظیم نعمه الهـدایه أن تثبّت أقـدامنا فی هـذا الطریق و تقودنا فی سبیل الکمال...

إلهنا،أنت عالم بما فى قلوبنا،و تعلم نيّاتنا و دوافعنا،فاستر عيوبنا عن أنظار عبادك،و أصلح ما فسد منّا بكرمك.

ربّنا،وفّقنا للتحلّى بجميل الصفات و محاسن الأخلاق التى ذكرتها فى هذه السوره حتى تتجذّر فى وجودنا و تتعمّق فى أرواحنا و أفكارنا...

آمين ربّ العالمين انتهاء سوره الحجرات و نهايه المجلد السادس عشر

ص :۵۷۸

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

تعریف مرکز

بسم الله الرحمن الرحیم
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
الزمر: ۹

المقدمة:
تأسّس مركز القائمیة للدراسات الكمبيوترية فی أصفهان بإشراف آیة الله الحاج السید حسن فقیه الإمامی عام ۱۴۲۶ الهجری فی المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين فی الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:
نظراً لقلة المراكز القائمة بتوفير المصادر فی العلوم الإسلامية وتبعثرها فی أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمیة للدراسات الكمبيوترية فی أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين فی العلوم الإسلامية وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الكترونية من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهی منظمة فی برامج إلكترونية وجاهزة فی مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها.
وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدة على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوی تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:
نشر الثقافة الإسلامية وتعالیم القرآن وآل بیت النبیّ علیهم السلام
تحفيز الناس خصوصا الشباب على دراسة أدقّ فی المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة فی الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين فی الحوازت العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها فی ملفات الكترونية

السياسات:
مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتنباب عن الروتينية وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمی البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فی نشر المعلومات

من الواضح أن یتحمل المؤلف مسؤولیة العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الکتب والملزمات والدوریات

إقامة المسابقات فی مطالعة الکتب

إقامة المعارض الالکترونیة: المعارض الثلاثیة الأبعاد، أفلام بانوراما فی الأمکنة الدینیة والسیاحیة

إنتاج الأفلام الکرتونیة والألعاب الکمبیوتریة

افتتاح موقع القائمیة الانترنتی بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافیة وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمی لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدینیة والأخلاقیة والاعتقادیة والردّ علیها

تصمیم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ویب کیوسک kiosk، الرسالة القصیرة ((sms

إقامة الدورات التعلیمیة الالکترونیة لعموم الناس

إقامة الدورات الالکترونیة لتدریب المعلمین

إنتاج آلاف برامج فی البحث والدراسة وتطبیقها فی أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ویمکن تحمیلها علی ۸ أنظمة؛

۱.JAVA

۲.ANDROID

۳.EPUB

۴.CHM

۵.PDF

۶.HTML

۷.CHM

۸.GHB

إعداد ۴ الأسواق الإلکترونیة للکتاب علی موقع القائمیة ویمکن تحمیلها علی الأنظمة التالیة

۱.ANDROID

۲.IOS

۳.WINDOWS PHONE

۴.WINDOWS

وتقدّم مجاناً فی الموقع بثلاث اللغات منها العربیة والانجلیزیة والفارسیة

الکلمة الأخیرة

نتقـدم بكلمـة الشـكر والتقـدير إلى مكاتب مراجع التقليـد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسـسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة فى تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزى

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكترونى : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزى ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب فى طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ ـ ٠٢١

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.


مركز
القائمیه
اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للایصاء من فضلکم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹